الجمهوريــة الجزائريــة الديمقراطيــة الشعبيــة

وزارة التعليم العالـي والبحث العلمـي

جامعة 8 ماي 1945 قالمــة

جامعة 8 ماي 1945 قالمة
UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA

الكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

القسم التاريخ

أطروحة

لنيل شهادة الدكتوراه علوم

الشعبة: تاريخ حديث ومعاصر

المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)

من إعداد:

خيرالدين سعيدي

إشراف

أ.د شايب قدادرة

أمام لجنة المناقشة المكونة من:

الاسم واللقب	الرتبة		
السيد رمضان بورغدة	أستاذ التعليم العالي	بجامعة 8 ماي 1945 قالمة	رئيسا
السيد شايب قدادرة	أستاذ التعليم العالي	بجامعة 8 ماي 1945 قالمة	مشرفا
السيد يوسف قاسمي	أستاذ التعليم العالي	بجامعة 8 ماي 1945 قالمة	ممتحنا
السيد محمد شرقي	أستاذ التعليم العالي	بجامعة 8 ماي 1945 قالمة	ممتحنا
السيد فارس كعوان	أستاذ محاضر أ	بجامعة سطيف 2	ممتحنا
السيد سفيان لوصيف	أستاذ محاضر أ	بجامعة سطيف 2	ممتحنا

السنة الجامعية 2019/2018

شكر وتقدير

لعل من أصعب الأمور أن نأتي لشكر أناس لن نوفيهم حقهم بالكلام، نظير جهدهم وحرصهم وصبرهم علينا طوال هذه المدة الزمنية وعلى رأس هؤلاء الأستاذ المشرف شايب قدادرة على ما تفضل به علي مِن جهده ووقته وملاحظاته الثمينة مثلما لا يفوتني أيضا أن أذكر من كان لي سندا في هذا العمل وأخص بالذكر:

أعضاء اللجنة المناقشة على تحملها عناء المراجعة وتقييم العمل، والسفر لأجل مناقشة هذا العمل، فلهم مني كل الشكر والتقدير والاحترام.

الدكتور فارس كعوان على توجيهاته وإرشاداته الدائمة ومراجعاته القيمة

شيخي "أبو وائل سامي غرمول" على ما غرسه فينا من حب العمل المتقن النافع.

الدولة التركية وتحديدا هيئة المنح التركية التي منحتني منحة دراسية كاملة ولمدَّة أربع سنوات متواصلة مِن أجل مواصلة البحث العلمي.

أخي "عبد الحفيظ قبايلي" والأستاذين: "عبد القادر بورمضان" و"عبد الباسط شواو" الذين لم يبخلوا على بوقتهم الثمين لأجل متابعة كلّ الأمور الإدارية المتعلقة بهذا العمل.

أخي في الغربة "منير سواس" الذي طالما تحمل تقلباتي وغضبي بسبب الانكباب على هذه الدراسة فما انشغل هو بكل الأمور التي توفر لي الراحة لإتمام هذا العمل إضافة للدكتورة "فاطمة جمعة" على حرصها على بلوغ العمل مراحله النهائية.

الدكتورين: عبد الرحيم خلاف وسامي طلحي على دعمهما المادي والمعنوي اللامتناهي.

أمي الغالية وأبي العزيز الذين طالما رأياني حلم يتحقق لهما ولم يكفا عن دعمي ماديا ومعنويا للحظة واحدة فكانا يحرمان نفسيهما ليوفرا لي ما أحتاجه من وسائل مادية وعلمية.

أخي الكبير "الساسي" الذي شد الله به عضدي وأخواتي البنات اللائي لم يتوقف دعاءهن لي منذ ولجت الدراسة ومقتضياتها إلى يومنا هذا.

زوجتي الحبيبة "أم عبد الرحمن" التي مازالت تصبر على تقصيري في حقوقها وانصرافي عنها لإخراج هذا البحث وغيره وفق مقتضياته العلمية.

عمال المكتبات التركية ودور الأرشيف في كل من: تركيا فرنسا وهولندا وألمانيا على ملاحظاتهم واقتراحاتهم ومراجعاتهم معي لما استصعبته فلهم جميعا كل الشكر والتقدير والاحترام.

إهداء

الى كلّ المرضى والمساكين الى المجانين والمتسوّلين الى المساجين والمنبوذين الى الفقراء والمعوزّين الى أولئك المُهمّشين

الذين يصنعون التّاريخ دون أن يُذكروا فيه.

الرموز المستخدمة في الهوامش ودلالتها

1. [AF. E] : Affaires étrangères.
2. a.g.e: adı geçen eser.
3. A.I.P.A : Archive de l'institut Pasture d'Algérie.
4. A.N.M : Académie nationale de médecine
5. AE : Ali Emiri
6. B.O.A : Başkanlık Osmanlı Arşivi
7. C. D. A. C. F : correspondance des deys d'Alger avec cour de France.
8. C. C. A : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742).
9. C.AS : Cevdet Askeriye
10. C.C.F : correspondance de la Compagnie d'Afrique
11. C.C.F.A: Correspondance des Consules de France à Alger.
12. C.DH : Cevdet Dahiliye
13. C.EV : Cevdet evkaf
14. C.ML : Cevdet Maliye
15. C.Sh : Cevdet Sıhhiye
16. E : Éditeur.
17. F. MAR : Fonds Marine.
18. G: Gömlek
19. H.V.P.C : Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud.
20. HAT : Hatt-ı Hümayun
21. K.K :Kamil kepeci
22. M.A.D :Maliy defterleri
23. M.C.M : Mémoires de la congrégation de la mission.
24. N : Numara

25. S : sahifa
26. SAMD :
27. T: Tarih

و.م. و. ج. مج: وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، المجموعة.

د-ط: دون طبعة.

د-س: دون سنة نشر

مقدمة

مقدمة:

قبل أن نخوض فيما نحن بصدده من موضوع "الأوبئة والمجاعات" يجب أن نقدم بتمهيد يكون توطئة لما نروم بيانه، فنقول أنّ الحديث عن نسق واحد في الكتابة التاريخية المعاصرة أضحى أمرا مُتجاوزاً، إذ قد حدّثت العديد من الهزات القويّة في الكتابة التاريخية المعاصرة أدت إلى انتقالها مِن التّأريخ للسلطة السياسية والصراعات البينية، إلى التأريخ لوجود الإنسان في كينونته الحقيقية. وجُعل هذا الكائن (بإنسانيته) هو المركز المحوري الذي تُبنى عليه أساسيات الفهم الواعي للتاريخ. وقد تمظهر هذا الأمر في اتجاه البوصلة التأريخية في العالم -منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقريبا إلى يومنا هذا-إلى التركيز في الكتابة التاريخية على التعاطي مع مواضيع جديدة بعيدة كل البعد عن التاريخ السّردي الجاف، مثلما حاول هذا النوع من الكتابة التاريخية إبراز العلاقة القوية التي تربط التاريخ بباقي حقول العلوم الاجتماعية.

وإذا كان هذا الأمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صحته، فمن الواجب علينا أن نقول أن الكتابة التاريخية الحديثة أصبحت تتجاوز الطرح السطحي للأحداث، بل أضحت تسعى لبحث مسائل عميقة بشكل أفقي أكثر منها عمودي، وهو عكس ما اشتُهر في النمط القصصي القديم، ما يُفسَّر بتركيز الأبحاث على البنيات الاجتماعية الخفية لدى النّاس، وتنبه إلى الدور الرئيسي والعميق الذي تلعبه بعض الأزمات الاجتماعية في مسار التاريخ الطويل، فسارت الأبحاث الأكاديمية الناضجة في مسار تفضيل تاريخ الوقائع الملامسة للفئات الاجتماعية بمكونتها المادية والفكرية والروحية على الأخبار السردية عن بطولة الشخصيات التي رسّبت -بدون شك- وعي خاطئ بالتاريخ، وقضت إلى حد ما على الفهم الواعي للتاريخ كأداة لبناء الذاكرة الجماعية.

لذا ظهرت بعض الدراسات التاريخية عملت في جوهرها على تصحيح مدارات البحوث باتجاه التاريخي الأنثروبولوجي والتاريخ الديمغرافي وتاريخ الذهنيات وغيرها من مضامين جديدة، وحاولت مقاربتها في شقي الحياة العامة والخاصة، بتتبع انعكاساتها وتأثيرها على الحياة الاقتصادية والسياسية وفي مرحلة متقدمة على الحياة الفكرية أيضا، وقد أسس لهذا الفهم أمثال: فرناند بردويل، ولوسيان فافر ثمّ جاك لوغوف، مثلما ظهر عدد من المؤرخين جعلوا مدار بحثهم حول تاريخ الأزمات والكوارث الطبيعية ومآلتاها الاقتصادية والاجتماعية فاشتهر بذلك : بير شارل لوي وجوزيف جولدبرجر.

إلاّ أنّ هذا النمط من الأبحاث في الجزائر لايزال غضا طريا، ولازال مدار البحث فيه ضيقا مقتصرا على بعض المحاولات والاجتهادات الفردية، لم تستطع إلى اليوم سد الفراغ الموجود في هذا الشأن، وقد حاولت أنساق جديدة من البحث أن تجد لها مكانة في الساحة البحثية التاريخية مع كتابات الأستاذ ناصرالدين سعيدوني للتّأريخ للمسألة الاقتصادية في أطروحته للدكتوراه ثمّ تعمقه بشكل أكبر في محاولة سبر

تاريخ الريف والزراعة والمِلْكية، واتبعت نفس المسار الدكتورة عائشة غطاس في أطروحتها حول "الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر (1700-1830)" كما نقف على المحاولات الأولى للخوض في تاريخ الأزمات الصحية مع أطروحة الباحثة فلة موساوي حول "الصحة والسكان في الجزائر من العهد العثماني إلى أوائل الاستعمار الفرنسي للجزائر"، لذا حاولنا أن نسلك نفس المسار في سعي إلى الخروج من قوقعة التاريخ السياسي إلى فضاءات تاريخية تحيط بالمناخ وآثاره في المجال الزراعي وانعكاسات الأخير على المجال الاقتصادي والتجاري، وتأثير التجارة في الحركية العامة للأمراض وانعكاس الأزمات الصحية أو الأمراض على الكثافة السكانية للإيالة من مرحلة إلى أخرى، وأبعاد الطرق التجارية الداخلية والخارجية البرية والبحرية في تطوير ونقل حالة اجتماعية ما من مكان إلى مكان آخر.

لذا سنحاول استبعاد التفسير الجزئي أحادي الجانب حيال ما مضى ذكره، بل سنعمل مِن أجل نقل دراسة كلِّ مُؤثِّرٍ أو عاملٍ مِن مستواه النَّظري العام إلى مستوى جامع بين معظم المؤثرات اللامرئية، وهذا لاعتقادنا أنَّ لكلِّ المتغيّرات مهما صَغُر شأنها أثراً في الأزمات، وهذا يتجلَّى في عدد مِن التَّشابكات البينية المتواجدة ضمن سياقات مجالية قد تبدو من الوهلة والأولى مختلفة.

أهمية الموضوع:

مع ما ذكر آنفا لا يزال موضوع التأريخ للأزمات الصحية والغذائية في مجالنا التداولي الأكاديمي فقير، لا يوازي الاهتمام الموجود في حقلنا الحياتي، فالتَّأريخ للأوبئة أو تاريخ الأوبئة (epidemics history) والذي نحن بصدده هو عملية قراءة استقصائية للأثر المترتب عن الأوبئة على مدار فترة زمنية محددة. وهو (موضوع الصحة والغذاء) يُعدُّ بحقٍّ مِن ضمن أهم المواضيع التي تشتغل عليها الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات التلفزيونية خلال الأزمات الطارئة.

وتتجلّى أهمية الموضوع بعودة ظهور الأزمات الصحية والغذائية، وهو ما حدث في الجزائر طوال سنة (2018م) عندما أضحى موضوع الأوبئة إحدى الإشكالية الرئيسية التي تتناولها الصحف والمجلات والقنوات التلفزيونية، بل ظلت مختلف مكونات المجتمع تترقب تطور الأحداث ومساراتها. ويكفي لنبيّن درجة أهمية الموضوع أن نشير إلى الاهتمام الكبير الذي عكسته المرآة الصحفية في يومياتها، فنقف على حجم الصدمة التي أحدثها الموضوع من خلال عدد العناوين في الجرائد اليومية، إذ نقف على سبيل المثال في إحدى عناوين جريدة الخبر اليومي الصادر في (2018/02/12م) يكتب بالبنط العريض مفاده : "**طوارئ بعد انتشار داء الحصبة بالوادي**" تحدّث فيه صاحب المقال عن إصابة ثلاث وسبعون شخصا بهذا الوباء، لم يتوقف الأمر هنا بل نجد الموضوع يجد له حيز أكبر في اليوم الموالي أي في (2018/02/13م) فتنشر جريدة الشروق اليومي مقالا بعنوان: «**وفاة طفل بداء الحصبة يثير طوارئ**

بالوادي" ويرتفع عدد حالات الإصابة إلى (254) إصابة محتملة حسب تصريحات المصالح الطبية المختصة لجريدة الخبر بتاريخ (2018/02/23م) ليتمّ بعدها بيوم واحد أي بتاريخ (2018/02/24م) حسب "وكالة الأنباء الجزائرية" بالتصريح الرسمي مِن طرف وزارة الصّحة بسقوط ضحية ثانية، لكن هذه المرة في نطاق ولاية أخرى وهي ولاية بسكرة ليتجاوز الترقب ولاية واحدة إلى ولايات أخرى، ثمّ ثلاثة أيّام بعد ذلك تنشر جريدة الشروق اليومي بتاريخ (2018/02/27م) خبر بعنوان: "**البوحمرون (الحصبة) يقتل ضحيته السادس بالوادي**" بعد هذا الخبر ظل الجميع يترقب التّطورات الحاصلة، وقد اختزلت جريدة الخبر الصورة العامة التي كان عليها المجتمع مرة أخرى في الثامن من شهر مارس من نفس السنة بعنونتها أحد صفحاتها بـ:"**الحصبة الألمانية هي الخطر الأكبر القادم**" ويتحدّث صاحب المقال عن انتشار الوباء إلى قرابة (1200) حالة مؤكدة. حاولت وزارة الصحة بث السكينة في نفوس السكان بحديث وزير الصحة عن "التحكم في الوضع الخاص بداء الحصبة" غير أن بلوغ عدد الإصابات المحتملة (4800) شخص وتفشي الوباء في 24 ولاية جعل بث الطمأنينة أمرا مشكوك فيه من طرف السكان، وأبقى الجميع في حالة خوف وترقب كبيرين.

بعد حوادث داء الحصبة، أو كما يعرف في الثقافة الشعبية (البوحمرون) طيلة شهرين كاملين وبعدما خبى صيته ظهر وباء جديد، كانت آثاره أكثر من الفوضى التي خلفها وباء الحصبة، ألا وهو وباء الكوليرا، والذي أُنزل منزلة الأزمة الصحية الخطيرة والفريدة، إذ ظهرت بعض العناوين في منتصف شهر أوت (أغسطس) من سنة (2018م) تتحدّث عن الاشتباه في ظهور حالات إصابة بالكوليرا، لكن الأمر ظل مبنيا على الشك وخوفا من كون الأمر إشاعة، ليتم في (أوت/2018/16م) نشر خبر في صحيفة الخبر مفاده: "**تشكيل خلية أزمة بشأن الكوليرا في البليدة**" ثمَّ يتناول مقال آخر عنوان :"**الكوليرا ترعب الجزائريين مجددا**" في الثالث والعشرين من نفس الشهر أي في (2018/08/23م)، وقد أدى ظهور هذه الأزمة الصحية إلى خلق نوع من الاهتزاز والريبة من الوضع العام للبلاد، وقد أثار خبر تحقُّق إصابة قرابة (70) شخص بوباء الكوليرا هلعا كبيرا في المجتمع الجزائري من جديد، خاصة مع عدم القدرة على الوقوف على المنبع المائي الملوث الذي تسبب في الوباء، ثمَّ نقف على عنوان آخر في جريدة الخبر ظهر يومين (2018/08/25م) بعد ذلك جاء فيه: «**حالة استنفار بالمدية بسبب الكوليرا**" لتتوسع دائرة الخوف من هذا الوباء إلى الجارتين الشرقيتين تونس وليبيا؛ بحيث أعلنتا اتخاذ بعض الإجراءات التي من شأنها الوقوف في وجه تفشي الوباء، بل شحذ هذا الوباء أقلام المثقفين والنخب السياسية فأضحى كلّ طرف يقوم بعملية إسقاط للأزمة على مجال اهتمامه، فحاولت بعض الأطراف تحميل السلطة الحاكمة المسؤولية الأخلاقية حيال تفشي الوباء، كما حاولت جهات أخرى فكرية وثقافية تحليل الظاهرة مِن منظور

سوسيوثقافي وأدى إلى عزل بعض الإطارات الهامة في وزارة الصحة وعزل أحد الولاة، وهي كلها أمور تعكس نوعية التعاطي مع بنية هذا الوباء ومدى تأثيره والإجراءات المتخذة في شأنه وهذا من الناحية الزمنية ليس محل دراستنا هذه لذا سنكتفي بما ذكرنا.

فإن تقرّر ذلك وفُهِم القصد منه، انتقلنا للحديث عن مال هذا الموضوع من أهمية في أحوازه الإنسانية العالمية، وإنّما السبيل لبيان ذلك بالحديث عن الموضوع من خلال ما تستجليه بعض الإحصاءات والتقارير العالمية عن خطورة هذا الموضوع، فنجد الكثير من الكتابات المختلفة تُجمع على أنّ الأوبئة والمجاعات إنما في حقيقتها هي أفظع وأكثر السُبل التي أتت على الإنسان في التاريخ، وهذه الأزمات تتجاوز من الناحية الكمية جل الأزمات والحوادث الأخرى في تاريخ البشر[1].

فنقف مثلا في إحدى التقارير المقدمة لهيئات الصحة العالمية يتحدث عن قضاء الطاعون الأسود في أوربا (1347-1351م) على (50) مليون من السكان، ويورد أن وباء الإنفلونزا الإسبانية (1918-1919) قد حصد (20) مليون ضحية[2]، وهو ما يفوق ضحايا الحرب العالمية الأولى، فإن عُرف هذا انتقلنا للحديث عن تأثيرات الأزمات الصحية والغذائية على الحياة الاقتصادية، فنرى أنّ الأزمات السالفة ذكرها عدو واضح للتنمية الاقتصادية، إذ توضح بعض التقارير العلمية أنّ وباء كالملاريا يكلف حكومات الدول العالمية ما يقارب (12) بليون دولار سنويا، وعدد المصابين به الآن ما بين (300-500) مليون شخص يموت منهم حوالي 1 مليون سنويا[3]، وهو عدد يقارب عدد ضحايا العمليات العسكرية الأمريكية في العراق في الفترة الممتدة (2003 -2014)، كما قد ورد في التقرير السنوي الذي تُعدُّه "منظمة الصحة العالمية" أنّ عدد الدول التي أُصِيبت بالكوليرا قد ناهز (42) دولة، وتعرّض له أكثر من (172,454) شخص في العالم توفي من بينهم (1304) ضحية، بينما تذهب تقارير أخرى إلى أرقام أقل شدة من ذلك، وتتحدّث عن إصابة ما بين (1,3-4 مليون) سنويا، يسقط منهم ضحايا يتأرجح عددهم ما بين (21,000-143,000)[4].

الدراسات السابقة:

في الحقيقة لا نقف على دراسات أكاديمية عالجت موضوع الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال المرحلة الممتدة (1700-1830م) بشكل مباشر، لكننا نقف على مجموعة من الأبحاث والدراسات

---

[1] - Paul Edwards : Epidemics: past, present and future – what are the risks? Recent medical news, March 2017, Publishing Hannover Re 2, P01.

[2] - Paul Edwards : Epidemics: past, present and future, P01.

[3] - https://www.arageek.com/2014/12/25/the-most-deadly-diseases.html

[4] - World health organization Geneva: Weekly epidemiological record, 23 SEPTEMBER 2016, 91th YEAR, No 38, 2016, 91, 433–440.

ساءلت الأزمات الصحية والغذائية في إيالة الجزائر بشكل عرضي، لكن إن قُمنا باستحضار المصادر التاريخية وقمنا باستعراضها بيبلوغرافياً وقفنا على حقيقة أنّ الدراسات الفرنسية تأتي في صدارة البحوث الأكاديمية التي اعتنت بالأزمات الصحية والغذائية.

وإذ أتينا على ذكر المجمل مما يتصل بنوعية وأقدمية هذه الأعمال وجدنا أنّ أوّلها ما قيّده بير بروجر (Berbrugger) عن الطّاعون في الجزائر خلال الفترة العثمانية سنة(1848م)، لذا يمكن أن نعدَّها حجر الزاوية في الكتابات حول "الأزمات الصحية والغذائية في الجزائر خلال المرحلة العثمانية" وإن أتينا إلى محاولة تلخيص ما ورد في هذه الدراسة قلنا إنها عبارة عن دراسة حولية استرجاعية أو يمكننا أن نقول أنها عبارة عن تقرير كرونولجي عن ظهور واختفاء بعض الأوبئة التي عرفتها الجزائر العثمانية.

ثمّ نقف بعد العمل الذي قدمه بير بروجر على عمل ثاني لفرنسي آخر هو الدكتور قيون (Guyon) سنة (1855م) أي بعد ثماني سنوات من الدراسة الأولى، غاص فيها الباحث بشكل مُفصّل وبطريقة كرونولوجية ظهور الأوبئة في منطقة شمال إفريقيا من العصور القديمة إلى الفترة الحديثة، وقد جاء البحث تحت عنوان (Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique)، ولو شكر الباحث عن تتبعه للعديد من الأوبئة التي عرفتها المنطقة إلاّ أنّه في الجزء المتعلِّق بالأوبئة خلال العهد العثماني لم يتجاوز حقيقة ما أورده (بير بروجر)

بعد العملين المذكورين نقف على أول دراسة أكاديمية قدّمها الباحث جون مارشيكا (Jean Marchika) للحصول على شهادة دكتوراه في الطب من جامعة الجزائر سنة(1901م) بعنوان "الطاعون في الجزائر 1363-1830م" (La peste en Algerie de 1363 a 1830) .

ولعل هذه المصادر الثلاث إضافة إلى بعض المصادر الأخرى تعد اللبنة الأساسية للتأريخ لأزمات الصحية والغذائية في الجزائر، وإذا تقرّر هذا فعلا فمن الواجب أن نخصَّها بدراسة مُتأنية وهو ما آثرنا استبقاءه للفصل الأوّل مِن هذه الدراسة.

وإذ قد أتينا على ذكر المجمل مما يتصل بالأعمال الفرنسية في موضوع بحثنا وقارنه بالدارسات الجزائرية وجدنا رجحان كفة الدراسات الفرنسية من ناحية الكم والكيفية، إذ نجد موضوع الأزمات الصحية والغذائية يطرق بطريقة متأنية ومتثاقلة، فنجد أول من اشتغل على الموضوع في كلياته العمومية الأستاذة فلة موساوي القشاعي في موضوعها عن "الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاستعمار الفرنسي" تحصّلت به صاحبته على شهادة دكتورة دولة في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر سنة (2004م) وبحث آخر في النفس الحيز المفاهيمي وإن كان أكثر دقة من ناحية البنية المقاربة لموضوع بحثنا قد قُدِّم لنيل شهادة ماجيستير تاريخ وسيط نُوقش سنة (2009م) مِن طرف الطالبة "مزدور سمية" وكان

تحت عنوان "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (1192-1510م) فجاءت الدراسة وصفية استرجاعية غطت جزء هام من المرحلة التاريخية للمغرب الأوسط.

المصادر الخاصة بالموضوع:

وإذا كنا قد تعرفنا على الدراسات السابقة لموضوع بحثنا كان لزاما علينا أن نصرف القول الآن إلى الحديث عن المصادر المعتمدة في هذا البحث، فنقول أنها مقسمة إلى أقسام أولها المصادر الأرشيفية والتي تأتي على رأسها الأرشيفات العثمانية التابعة لرئاسة الجمهورية التركية، وهي تنقسم بدورها إلى أقسام عدة ليس هذا محل تفصيلها لكننا سنكتفي بذكر أهم ما اعتمدناه منها، ويأتي في مقدمتها المراسلات الخارجية والفرمانات السلطانية ضمن الخط الهمايوني [Hatt-ı Hümayun] إضافة إلى العلب والمراسلات المختلفة التي تقع ضمن تصنيف جودت للأرشيف لذا نجد هذه الفئة تحمل صيغة [C.] للدلالة على أن الوثيقة ضمن تصنيف جودت، تقسم هذه الوثائق إلى أبواب مختلفة، وقد اعتمدنا منها بشكل أساسي تلك الوثائق الخاصة بالأمور الصِّحية داخل الدَّولة العثمانية وإيالاتها المختلفة في المرحلة الزمنية الممتدة ما بين (1700-1830م) وهي تحمل رمز [C.Sh] اختصارا لاسمها في الأرشيفات [Cevdet Sıhhiye] ولهذه الوثائق أهمية بالغة فيما نحن بصدده إذ نادرا ما تغفل ذكر تفشي الوباء أو الطاعون في منطقة ما، كما أنها ترسم لنا صورة عما كان يتم اعتماده من إجراءات خلال سريان الأزمات الصحية، مثلما استخدمنا في هذه الدراسة مجموعة هامة من الوثائق الأرشيفية المتعلقة بالأمور العسكرية مع أن البحث فيها كان صعبا، إذ أنها لا تذكر الوباء إلاَّ عرضا لكن أهميتها في أنَّها تتحدَّث بدقة وتفصيل عن الوباء ومكان ظهوره ومحيطه كما تتكلم عن بعض المستجدات العسكرية التي تأخر دخولها بسببه أو توقيف الحملات خوفا منه، هذه الوثائق تحمل اسم [C.As] دلالة على أنَّها ضمن مجموعة أو تصنيفات جودت للأرشيف العسكري [Cevdet Askeriye] ونأتي في الأخير على ذكر إحدى أهم المصادر الأرشيفية أيضا التابعة دائما لأرشيف رئاسة الجمهورية التركية في اسطنبول وهي المجموعة المالية [M.A.D] اختصارا لكلمة [defterleri-Maliy] والتي يراد بها الدفاتر المالية، وبتتبع هذه المجموعة نقف على السنوات التي كان تنقص فيها خزينة الدولة بفعل نقص الجباية التي كانت تسقطها الدولة العثمانية على عدد من إيالاتها التي يثبت فيها تفشي الأوبئة، وبالتالي أضحى انخفاض المداخيل المالية الوافدة مِن جهة ما إحدى المؤشرات لإمكانية تفشي الأزمات الصحية أو الغذائية في منطقة ما كما سيأتي بيانه، وبالإضافة إلى الأرشيف العثماني الموجود في أرشيف رئاسة الجمهورية بإسطنبول استعنا أيضا وبشكل كبير بعدد هام جدا من الوثائق الأرشيفية الفرنسية وبالأخص تلك الموجود بأرشيف الخارجية في باريس ومنها بالتحديد الملفات الأرشيفية الموجودة في العلبتين: [AE/B/I] [AE/B/III] والموجودتين ضمن أرشيفات وزارة الخارجية الفرنسية، خاصة بالنسبة للعلبة الأولى

أي [AE/B/I] تلك المراسلات الموجودة ضمن ملف المراسلات الواردة من القنصلية الفرنسية في الجزائر وهي محصورة زمنية ما بين (1642-1792م) ضمن الملفات (AE/B/I/115-AE/B/I/145) تحت عنوان [Correspondences recue du consulate d'Alger (16421792)] مثلما نقف أيضا على مجموعة هامة من الوثائق الموجودة في الحيز غرفة التجارية في مرسيليا [la Chamber de commerce de Marseille] وبالتحديد ضمن ماورد من ملفات في العلبة [AE/B/III/125] تحت عنوان [Correspondance de l'inspecteur du commerce de Marseille] والمجموعتين المذكورتين غنيتين بكم هائل من المعلومات فيما يخص ظهور الأوبئة وكيفية دخولها إلى الجزائر وعلى عدد محترم من المراسلات التي أشارت عرضيا إلى ظهور المجاعات أو تفشي الوباء في إيالة الجزائر، كما هو الحال مثلا في وثيقة مؤرخة في الثلاثين من شهر جوان سنة (1752م) تشير إلى كيفية دخول الوباء عبر الميناء إلى الجزائر ضمن العلبة [AE/B/I] ضمن الملف [125/Cotes : F°46-50] وأخرى ضمن نفس العلبة لكن تحت ملف آخر عدده [124/ Cotes : F°294-296] تتحدّث عن القحط في الجزائر سنة (1703م) مثلما نقف على عدد كبير استخدم في ثنايا هذه الدراسة. وهاتين العلبتين الأرشيفيتان مع ما فيهما من ملفات ووثائق يمكن اعتبارها على قدر كبير من الأهمية والدقة، إذ من أسباب دقتها أنها كانت ترسل من سلطة فرنسية إلى أخرى مثيل لها في فرنسا لذا يتحرى فيها الدقة الاستخباراتية في إيراد المعلومة خدمة لمصالح فرنسا طبعا، وإما من حيث أهميتها فتكمن في النسق السردي الذي تتبعه والذي يمدنا بمعلومات على غاية كبيرة من الأهمية في دراستنا. لذا فنحن جدراء في أن نصرف البيان إلى القول أنّ هاتين العلبتين من الوثائق الأرشيفية على قدر هام جدا في دراستنا ولا يمكن بأي حال التأريخ لظهور المجاعات وانتشار الأوبئة دون الاستعانة بهما، بل لا يوجد ما يضاهي هاتين العلبتين إلاّ ما كان امتدادا لهما.

فقد ظهر إذا أن أحد الأركان الأساسية التي اعتمدنها في هذه الدراسة هي الوثائق الأرشيفية التي سبق الحديث عنها، ويوجد ركن آخر لا يقل أهمية عن المصادر الأرشيفية، وهي الوثائق الأرشيفية المنشورة ضمن مجموع ما، وهي أساسا ضمن كتابين رئيسيين: أولهما هو ذلك العمل الجليل الذي قام به (Eugène Plantet) والمتمثّل أساسا في جمع وتصنيف للمراسلات الهامة التي كانت بين دايات الجزائر ونظراءهم، وقد قام أوجان بلانيت بتصنيفها ونشرها ضمن عنوان correspondance des deys [d'Alger avec cour de France (1579-1833)] وهنا نستجلي الكم المهم من المراسلات ضمن الجزء الثاني لهذا المجموع والتي تنحصر في المرحلة الزمنية ما بين (1700-1833م)، نقف ضمن هذه المراسلات على العديد من الإشارات حيال توقف النشاط التجاري بسبب انتشار وباء ما في إحدى الضفتين، أو على نستقرأ في المراسلات نوعا من الوفرة الغذائية فننفي بها وجود المجاعة في إيالة الجزائر إن

كانت الشحنة قادمة من موانئها أو العكس بالعكس. كما نقف على مصنف آخر سلك نفس المسلك أي اهتم صاحبه بجمع وترتيب ونشره المراسلات الرسمية لكن هذه المرة بين الفرنسيين في الجزائر وسلطات بلدهم الرسمية في فرنسا أي صادرة من القناصل الفرنسيين في مدينة الجزائر باتجاه فرنسا أو العكس، قام بهذا العمل باستحقاق ودقة (De Grammont) وجاء بعنوان: (Correspondance des consuls D'Alger) ونقف في هذه المراسلات أيضا على عدد مهم من الإشارات التي استخدمناها في سياقها لنقارنها بما وقفنا عليه من معلومات حيال تأكيد وجود ظاهرة ما من الظاهرتين من عدمها، وإن لم يكن في بعض الأحيان حكما متيقنا.

كما يمكن أن نَعدّ أحد أهم الكتابات التاريخية والمصادر الأرشيفية التي كنا نعتمدها بشكل أساسي مِن خلالها للتأكد من المعلومات المختلفة حول ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة في مكان ما أو انحصاره عنها إلى مجال آخر، وهذا ضمن سياق الأعداد المختلفة من المجلة الفرنسية (Gazette)، وبالأخص تلك الأعداد التي كانت تصدر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بل وأوهم ما يميز هذه الأعداد ما نقف عليه بها من معلومات حول ترابط الأوبئة ببعضها في الحيز المتوسطي، وما سمح بذلك هو تلك العمليات المسحية التي كانت يجريها المراسلون الخاصون بالمجلة، وقد كانت غنية فعلا بالعديد من التفاصيل عن لقاء عدد من السفن في حوض المتوسط بالقراصنة أو بسفن دول أخرى، مثلما أشارت أو حذرت من إمكانية انتقال الطاعون من تلك السفن التي كانت موجودة ضمن البحر المتوسط إلى موانئ الدول في هذا المحيط، و ما زاد من تميّز هذه المجلة عن غيرها هو اقتصارها على أمور رسمية ودقيقة في كل بلد، فنجد في كلّ عدد مِن أعدادها مختصرات عن أهم الأحداث في مدينة الجزائر أو مدينة تونس أو الإمارات الإيطالية وإسبانيا ومصر وسوريا، لذا أضحت أعداد الجريدة بمثابة التقارير الرسمية الصادرة عما يشبه هيئة قانونية فرنسية. وأصبح اعتمادنا عليه أمر أساسي للبث في الخلافات حول وجود أزمة صحية أو غذائية ما من عدمها. وهو ما يرد في بعض الأحيان في شكل حكم متيقن في المجلة.

ثمّ تأتي -من حيث الأهمية- بعد المصادر الأرشيفية بنوعيها -والتي سبق الحديث عنها- المصادر الكتابية التي عايش أصحابها تلك المرحلة أو كانوا شهودا على وجود الأوبئة، أو كان سبب إقامتهم في الجزائر متعلقا بهذه الأزمات أو في بعض الحالات النادرة كنتيجة لها، فنجد مما يتصدر هذه المصادر سلسة تأريخية فرنسية تحت عنوان (Mémoires de la Congrégation de la mission) تضم هذه المجموعة كتابات عديدة موزعة بين مذكرات والتقارير والأبحاث علمية لمن اهتم بالحيز الجغرافي خارج المجال الفرنسي، لكن ما يهمُّنا ضمن هذه السلسلة بشكل خاص هو مذكرات الرهبان ورجال الدّين النّصارى الذي اشتغلوا

أو مروا بإيالة الجزائر خلال تلك المرحلة الزمنية (1700-1830م)؛ لذا اعتمدنا بشكل خاص على المجلد الثالث من هذه السلسلة.

فإذا عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من ذكرها فنقول: يأتي على رأس أهم الكتابات التي قامت بالتّأريخ للطّاعون مذكرة الأب فيشرا (Vicherat) وهي تشغل الفصل الخامس والعشرين ضمن الكتاب الثاني، وأسهب فيها الأب فيشرا بالحديث عن الطّاعون الذي ألمّ بالجزائر على مرتين سنوات (1786م) و(1787م) واصفا فيها بعض ما اتخذ من إجراءات على مستوى المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر والذي كان هو أحد عماله، في حين أورد بعض الأعراض التي لاحظها بنفسها على جثث المرضى بشكل غير مباشر، وهو ما ساعدنا كثيرا في استجلاء نوع الوباء ومدى خطورته، مثلما رسمت لنا تصورات الأب فيشرا مسارات التي يلج بها الوباء إلى الجزائر، ثمّ العلاقة البينية بين ظهور الوباء في إحدى الإيالات وانتشاره في المجال الجغرافي لإيالة أخرى، مثلما نقف في نفس المجموع وضمن نفس المجلد على تقرير عن المهمة التي كان يقوم بها الأب بواسون (Poissant) في الجزائر في أربعينات القرن الثامن عشر، وتحدث بدوره عن مشاهداته في الجزائر، وأورد العديد من الملاحظات عن الأعراض التي تلازم المرضى أثناء الوباء الذي أصاب الجزائر سنة (1740م) كما تحدث عن الجثث وبعض الأسباب التي اعتقدها مساهمة في تفشي الأوبئة في إيالة الجزائر، الأوبئة التكرارية في الجزائر خلال إقامته بها، كما نقف في نفس المصدر على مذكرة أخرى كانت من إنجاز الأب بوايي (Poirier) أخذ ناصية الحديث فيها إلى مُساءلة أسباب انتشار الأوبئة وظهور المجاعات بشكل عام في إيالة الجزائر وعلاقاته مع تفشي الأوبئة في المحيط القريب، إضافة إلى الأب (Poirier) نقف على مذكرة رابعة من نفس النمط وضمن نفس المجموع يتحدث فيها السيد (Bossu) عن ظهور وامتداد ثلاثة أوبئة في إيالة الجزائر سنوات (1752م) و(1753م) و(1756م) مُشرِّحاً مظاهرها، ومُشيرا -بشكل غير مباشر- إلى انعكاساتها الحياتية سياسيا واقتصاديا.

كما نقف إضافة إلى المصادر السالف ذكرها على بعض المصادر الجزائرية التي ذكرت بعض الأوبئة أو المجاعات واعتنت بالتصنيف في هذا الباب، ويأتي في صدر هذه الكتابات ما خلفه "حمدان بن عثمان خوجة" في كتابه "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" وإن كان الكتاب في حقيقته ليس كما يتوهم الكثير من الباحثين، إذ هو ليس التأريخ للوباء والتحذير من خطره بقدر ما هو في الوباء مناقشة لمسألة فقهية في جوهرها، فلسفية في عارضها، ألا وهي مسألة الأخذ عن الغربيين نُظمهم وما ابتدعوه من ترتيباتهم. لذا فإنّ "حمدان بن عثمان خوجة" كان يناقش مسألة على غاية كبيرة من الأهمية وهي ضرورة الأخذ بالسبل التي انتهجها النّصارى في حفظ النفس ومواجهة ما يعتريها من الأذى، وقد دلّل على ذلك بالأحاديث والاجتهادات العلية المختلفة في ضرورة اعتماد سُبل الغرب في نُظم "الحجر

الصحي" والنظافة والابتعاد عن التجمعات أيام تفشي الوباء، وبالتالي فالمصدر الذي خلّفه "حمدان بن عثمان خوجة" يعد أوّل مصدر واعي بضرورة الانتقال إلى التأسي بالنظم الطبية الغربية بما يحفظ أنفس الناس، وهو بطريقة غير مباشرة يسرد ما كان يحدث في المجتمع الجزائري من سُبل لا علمية من أجل اتقاء شر الوباء، وسلوكهم مسالك كثيرا ما كانت تؤدي إلى نتائج عكسية. لذا فالمصدر يتطرق إلى جوانب لا يناقشها مصدر آخر مزامن خلال تلك المرحلة، وهو يصور في غير تكلّف الأسباب التي تقف وراء استحكام الوباء في بعض المجالات الجغرافية وتدخل ضمنها طبعا إيالة الجزائر.

كما نقف على مُصنَّف آخر للعنتري حاول فيها رصد المجاعات التي ألمت ببيلك قسنطينة خلال العهد العثماني وفي بداية الاحتلال الفرنسي، ولعل ما يُميّز كتاب "مجاعات قسنطينة" هو محاولة صاحبه رصد تأثير المجاعات في البنية الاجتماعية الهادئة داخل الأرياف وتحويلها إلى بنيات مناهضة للوجود العثماني في أكثر من مرّة، كما انتبه العنتري دونا عن غيره إلى أهمية العلاقة بين الأمن والإنتاج الغذائي، إذ نجده أكثر من مرّة يثير هذه النقطة في ثورة ابن الأحرش والدرقاوي وغيرهما، بل نجد تصوير للانعكاس العام للأزمات الغذائية على الذهنية الاجتماعية والفكرية داخل المنظومة الاجتماعية وهو الأمر الذي تفرَّد به هذا المصدر عن غيره من المصادر، وما منحه أهمية خاصة عند حديثنا عن الانعكاسات التي صاحبت المجاعات في الحياة العامة.

هكذا نكون قد استوفينا الحديث عن المصادر الأساسية التي اعتمدنها في صياغة واستنباط المعلومات التي أغنت هذه الدراسة، غير أن هذا لا يعني استيفاء كل ما رصدناه من منابع للعمل في إطار هذه الدراسة ولعل ما يميز النوع الذي سنذكره الآن من مصادر هو أنها من خارج النسق التاريخي البحت إذ هي في جوهرها ذات نمط تخصصي مفاهيمي، ولعل من أهم هذه المصادر القاموسي التعريفي للأوبئة باللغة الإنجليزية [dictionary of epidemiology] لصاحبه (Miquel Porta) مايكل بورتال وهو أحد أهم من منشورات أكسفورد، والقاموس يقوم بتدقيق التعريفات الخاصة بالأوبئة المختلفة ومميزاتها واشتقاقاتها وكل ما تعلق بموضوعها، مثل: العدوى، انتقالها، مناهج دراستها، أنماط التعامل معها ضمن السياق التاريخي، راهنيتها حياتيا ضمن الأنساق الاجتماعية والاقتصادية المختلفة.

ويأتي تبعا لهذا القاموس العديد من التقارير والخبرات المختلفة في نفس النسق تقريبا، وهي تشكل نمط آخر من المصادر المعتمدة بشكل أساسي في ضبط الزمني والمفاهيمي للخصائص الوبائية والطبية والتي ضُمِّنت في مجموعة مِن التقارير الطّبية والملتقيات العلمية التي كانت تضم نخبة المختصين بعلم الأوبئة سواء منها التقارير التاريخية القديمة مثل تلك التي كانت تصدر عن الأكاديمية الوطنية الفرنسية [Académie nationale de médecine] بأعدادها المختلفة والتحقيقات الطبية المختصة المنشورة ضمن المجلة الطبية

[Gazette médicale de l'Algérie] وتكمن أهمية هذه التقارير في كونها فسيفساء علمية تغطي مناطق عدة، كان يشرف على هذه المجلة الدكتور (Bertherand) وهو أحد أهم المختصين بالأزمات الصحية والوبائية في تلك الفترة، ركزت التقارير والخبرات التي كانت ترد هذه المجلات على انتقال الأوبئة بين المجالات المختلفة وسرعة وكيفية ذلك، مع مقارنة بين العوامل المؤثرة في كل وباء، وقد خصصت العديد من الأبحاث تقاريرها عن الهواء و الماء والمناخ وعلاقتهم ببعضهم وتأثيراتهم في النفسية العامة للمجتمعات ما جعلنا لا نستطيع بأي حال إهمالها وحاولنا مناقشة ما أوردته التقارير والأبحاث من آراء بإسقاطها على المجال التداولي الخاص بالجزائر. كما نقف في شق ثاني على التقارير الأممية والدراسات الجامعية الحديثة الصادرة عن مراكز الأبحاث الطبية المختلفة وعلى رأسها [World health organization] منظمة الصحة العالمية خاصة فيما تعلق بتقارير تحسم الخلافات الطبية التي كانت عالقة خلال المراحل الزمنية المتقدمة من التاريخ.

وإذ قد أتينا على ذكر المجمل مِمَّا استخدمناه في هذه الدراسة بقي أن نشير إلى نقطة هامة، وهي أن معظم الدراسات الأكاديمية التي وردت فيما سبق ضمن عنوان الدراسات السابقة في هذه المقدمة كانت لبنة أساسية في هذا العمل وبالأخص كتابات "بير بروجر" و"غيون" و"جون مارشيكا"، ودرءاً لتعارض الاختصار والبسط آثرنا –كما سبق الإشارة إليه- أن نعود إليها لاحقا بالتفصيل ضمن الفصل الأول كما سيأتي بيانه.

أسباب اختيار الموضوع:

الأسباب الموضوعية: ما حملنا على الخوض في هذا المجال رغم صعوبته وقلة مصادره هو محاولة تتبع أثر الهامش والمهمش في تاريخ الجزائرية العثمانية وكيف أثرا على مسار التاريخ، واعتقد أنّ هذا العمل هو في نفس الإطار الذي كانت تسعى الأستاذة عائشة غطاس العمل على التنبيه إليه، وجهوده في الحقيقة نابعة من تأثرها بفلسفة وجهود مدرسة الحوليات، إضافة إلى ذلك فالموضوع لم يطرق بالشكل الذي يستحقه، وإن كانت بعض الدراسات قد فتح الباب لهكذا مواضيع كما سيأتي تفصيله لاحقا.

الأسباب الذاتية: استغربت وأنا أبحث في إحدى المرات عن تاريخ إحدى الأوبئة أنّه لا يوجد تقريبا من انتبه إلى خطورته وكيف أثر على الحياة السياسية والفكرية في الجزائر خلال العهد العثماني، فلما استشرت بعض الأساتذة المتخصصين في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني أخبرني معظمهم أن الموضوع لم يوضع فيه عمل أكاديمي مُفصّل، وإنما اقتصرت الأعمال التي أنجزت على جزء فقط أو إشارات مستعجلة لم توف الموضوع حقه، وحينها أكد لي الدكتور فارس كعوان أن صعوبة تقصي أمر الأوبئة والمجاعات في المصادر المختلفة جعل الكثير ينأى بنفسه عنه ، ولما استشرت الأستاذ الدكتور شايب قدادرة حول الموضوع

قال لي أنّ المواضيع من هذا النوع ينفر منها الطلبة لكنها على قدر كبير من الأهمية ويجب أن نعتني بها وحقيق بك أن تنجز فيه دراسة أكاديمية وافية. حينها عزمت على جعل الموضوع مسألة تحدي شخصي لي.

الإشكالية:

ظلت ردود الأفعال في الكثير من المواقف والعوارض في التاريخ ترسم الصور العام لنمط التصور والتفكير والتعامل في مجالات شتى، وكثيرا كانت الأنماط والصور التاريخية شكل من أشكال عمق التعامل والتفكير المجتمعي مع المحيط العام والخاص، لذا تحاول هذه الدراسة في جوهرها رصد مسار الأزمات الغذائية والصحية ومدى تفاعل البنية الاجتماعية والسياسية خلال مرحلة القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر مع الأزمات المذكورة.

ولأجل حل إشكالية المسار الأزماتي والتفاعل الحضاري قمنا بوضع مجموعة مِن التساؤلات نسعى مِن خلالها الإجابة على الإشكالية الرئيسية في الدراسة وهذا لا يتأتّى حقيقة إلاَّ بوضع تصور عام عن الحالة التي كانت تعيشها إيالة الجزائر في جانبها الاجتماعي والاقتصادي خلال الأزمات أثناء العهد العثماني، ومن أهم هذه التساؤلات: ما هي أهم المجاعات والأوبئة التي ألمت بالجزائر خلال القرن الثامن عشر والثُلث الأول مِن القرن التاسع عشر؟ ثمّ هل تتَّصف الأوبئة التي ظهرت في الجزائر خلال تلك المدة بميزات خاصة؟ ما العوامل الأساسية المحفزة على عمليتي الظهور والانتشار؟ وما هي المنابع الأساسية التي كانت تفد منها الأوبئة إلى إيالة الجزائر؟ ثمَّ ما هي طبيعة العلاقة بين المجاعات والأوبئة؟ هل تأثرت إحداهما بالأخرى؟ بعد ذلك نولي وجوهنا إلى سؤال مهم حول ما قمت به السلطة السياسية من إجراءات وقائية للحد مِن دخول الأوبئة وتوسعها في الجزائر؟ هل نجحت السلطة فعليا في التَّصدي لخطر الأزمات الصحية والغذائية؟ ما هي التأثيرات التي حملتها الأوبئة والمجاعات على المجتمع الجزائري؟ وفي أي مجال ؟ إلام آل إليه الوضع اقتصاديا واجتماعيا في المناطق التي مستها هذه الأزمات؟ ثم كيف كان رد فعل وتعامل المؤسسة الدينية مع الوضع القائم؟ وأخيرا ما هي العلاقة الرابطة بين الكثافة السكانية وانتشار الأوبئة والمجاعات أو انحصارها؟ أخيرا يبقى السؤال الأساسي ماثلا باستفسارنا هل هزت الأزمات الصحية والغذائية عاصفة الخسائر في الإيالة ورسمت مستقبلها أكثر من غيرها من الأزمات؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال خطة مكونة من مدخل وأربعة فصول، أما المدخل فتناولنا فيه المفاهيم الأساسية الخاصة بالأوبئة والمجاعات في نطاقها الطبي التخصصي وهو ما سيعيننا لاحقا على ضبط الاختلافات المختلفة داخل الأوبئة وتصنيف الأوبئة في المرحلة محل الدراسة.

لكن قبل أن نخوض في تفاصيل ما نريد وجب الإشارة إلى شيء مهم، وهو أننا في تصورنا العام لهذه الدراسة انتقلنا ما بين أنماط مختلفة في الكتابة والتحليل، بين الكتابة بنمط يتجاوز التاريخ السردي

ويستجمع الممكن والمتاح لأجل دراسة البُنى الأساسية التي ارتكزت عليها الأحداث التي سوف نتناولها في الموضوع قيد البحث، وبهذا سيلاحظ القارئ تدرج في مستويات الحديث بين مناقشة الظروف والبنى والتي سنلتمسها بقوة في الفصل الثاني عند الحديث عن الأسباب الأساسية والثانوية لظهور الأزمات الصِّحية والغذائية وعند الحديث في الفصل الأخير عن تداعيات المجاعات والأوبئة على الحياة العامة وما هذا إلاَّ لأنَّها وقائع يصعب على التَّاريخ إتلافها وتبقى تلامس التاريخ إلى يومنا هذا أو مثلما يقول فرناند بروديل «...بعض البنى بفعل استمراريتها أزمنة طويلة، تصبح ثابتة على مدى لا نهائي من الأجيال؛ فتربك التاريخ وتحكم انسيابه...» فيما اعتمدنا في الفصل الثالث على الواقع الإخباري السَّردي بامتياز، محاولين لملمت الشتات الموجود من معلومات في مظان مختلفة وربطها بالتَّغيرات الدَّائرة والمتجدِّدة بسرعة في الأحداث.

لذا كان الفصل الأول من هذه الرسالة بمثابة التوطئة لما نروم إيضاحه في الفصول اللاحقة، جاء مُناقشا لما كُتب عن الأوبئة والمجاعات في المجالات التداولية الإسلامية والغربية، محاولا في الآن نفسه أن يرسم صورة عامة عن واقع الحياة الصِّحية والأزمات الغذائية التي عايشتها الإيالة الجزائرية قبيل المرحلة محلَّ الدراسة، فورد فيه الحديث عن تلك الأزمات التي لحقت بالإيالة مِن بداية الوجود العثماني إلى غاية المرحلة المعنية بالدراسة (1700-1830م) وقد وردا هذا الفصل مُتلبساً بعنوان: "**الأوبئة والمجاعات بين الكتابة التعريفية والمعيشة الواقعية**".

ثمَّ إذا تحقق لنا المراد مِن الفصل الأوَّل انتقلنا في الفصل الثاني إلى لب المرحلة الزَّمنية مجال الدراسة والممتدة ما بين (1700-1830م) وخصصنَّا هذا الفصل مِن الدراسة لمناقشة الأسباب المباشرة وغير المباشرة المؤدية لظهور المجاعات وانتشار الأوبئة، وفي نفس الحيز حاولنا رسم الخارطة الجغرافية لتوزع الأوبئة والمجاعات خلال المدة الزمنية المدروسة، وقد كان هذا الفصل بحث في المكنونات الخفية المتوطنة والمثرة في المسارات التاريخية الكبرى لأهم الأوبئة والمجاعات لذا حمل هذا الحيز مِن الدراسة عنون: "**الأسباب الأساسية والمراكز الحيوية لوجود المجاعات وانتشار الأوبئة في الإيالة الجزائرية (1700-1830م)**"

وإذا عرفت الأسباب المختلفة المؤدية إلى ظهور الأوبئة والمجاعات وتعرفنا على مناطق نشاطها وبروزها المستمر كان من واجبنا أن نفتتح الخوض فيما غرضنا من العنوان الرئيس للدراسة، ونشرع مباشرة في الحديث عن التطور الكرونولوجي لانتشار الأوبئة وظهور المجاعات في إيالة الجزائر خلال (1700-1830م) إضافة إلى الحديث عن سبل انتقال هذه الأوبئة والمجاعات من حيز إلى آخر، وقد عنونا الفصل الثالث بعنوان: "**إيالة الجزائر في مواجهة المجاعات وتفشي الأوبئة (1700-1830م)**".

ثم إذا فرغنا مما سبق في الفصول الأولى ورأينا أنه مما يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدق ما فيه؛ رأينا أنّه من اللازم علينا أن ننتقل في الفصل الرابع للحديث عن:" **الأوبئة والمجاعات بين السلطة**

السياسية والقوى المجتمعية" ومقصدنا مِن هذا الفصل هو رصد تعامل السلطة السياسية والسُّلطة الدينية في إيالة الجزائر خلال المرحلة (1700-1830م) مع بروز الأزمات الصحية والغذائية، وإبراز مدى التباين في هذا التعامل بين الجهات المختلفة، وفق الزمان والمكان والجهات المسؤولة، كما أشرنا في هذا الفصل إلى الإجراءات الوقائية التي طبقتها كل فئة في حيزها وِفق خلفيتها الثقافية والسياسية كما سيأتي.

ولما تحقّق لنا الغرض ممَّا سبق ذكره من الفصول الأربعة الأولى انتقلنا في الفصل الخامس للحديث عن "**الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها الحياتية** " أي ما نجم من ظهور للمجاعات وتفاقم للأوبئة على مختلف جوانب الحياة، فأشرنا إلى دقائق الانعكاسات على الحياة في بنياتها المختلفة (سياسيا-اقتصاديا-دينيا) محاولين في ذلك التَّطرق إلى الجوانب المختلفة التي شغلت الحيز العام للمجتمع الجزائري، فتحدَّثنا عما نجم عن ذلك؛ من انعكاسات على الجوانب الاقتصادية والسياسية وحتى على طريقة ممارسة الطقوس الدينية.

لننتقل بعد الفراغ من ذلك إلى محاولة حصر ما توصلنا إليه من نتائج في الخاتمة، فكانت بمثابة الملخص لنتائج هذا البحث، ووضعنا فيها التَّصور العام لأهم النقاط المتعلق بالأوبئة والمجاعات خلال (1700-1830م)، كما سعينا إلى تقديم مجموعة مِن التّوصيات التي خرجنا بها من البحث ورأينا أنَّها تخدم مستقبل البحث في مثل هذه المواضيع.

مناهج البحث:

ولأجل الاقتراب بهذه الدِّراسة لأن تكون دراسة علمية تتلقَّى عند الدَّارس المتخصِّص القبول، ومن أجل الوقوف على صدق وواقعية النتائج المتوصل إليها في الخاتمة، وجب أن نضيف الأركان التي عليها مدار هذه الدِّراسة، والمقصود بها أساساً تلك المناهج العلمية التي اعتُمدت في تحقيق هذه الدراسة.

فاعتمدنا بشكل أساسي في الفصل الأول والثاني على منهج الوصفي الاسترجاعي، أو ما يعرف في علم الأوبئة بـ (Epidémiologie description) وهذا النوع من المناهج في التأريخ للأوبئة يتَّخذ من المكونات الوصفية للأنشطة الوبائية مرتكزا أساسيا للوصف، بحيث تصبح هذه المكونات (في صورة الأهداف والعوامل والمظاهر) أقوى بكثير من المكونات التحليلية، وهي نفسها التي يذكرها بعض الباحثين باسم علم أوبئة الفرصة (Epidémiologie of Opportunity) واعتمادنا على هذا المنهج في هذا الفصل أساسا هو محاولة لاستحضار الصورة العامة لانتشار الأوبئة وتأثيراتها المتعدِّدة على مختلف جوانب الحياة من خلال، يطلق على هذا النمط من الأبحاث اسم الدراسة الاسترجاعية لأوبئة (Rétrospective épidémiologie) ونحن من خلال ما مضى ذكره سنحاول رسم تلك العلاقة بين الخصائص الوبائية والموجودات الاجتماعية والجغرافية وغيرها.

أمّا في الفصل الثالث فقد انتقلنا مِن استخدام المنهج الوصفي الاسترجاعي في الفصل الثاني إلى الارتكاز على المنهج التحليلي، أو بالأحرى اعتمدنا تداخل منهج "الوصف" مع منهج "التحليل والمقارنة" أسلوبا لهذا الفصل، لأجل الخروج من قوقعة التاريخ الوصفي إلى فضاءات أوسع تحيط بالتأثيرات المختلفة لظهور واندثار الأزمات الغذائية والصحية في الحالة الاجتماعية العامة أثناء المرحلة الممتدة خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر.

أما في الفصل الرابع فقد استعنا بتركيب الصور المختلف والمشتت من أجل الوصول في الأخير إلى لوحة شاملة لفسيفساء الأخبار المتباعدة، لذا كان المنهج الاستقرائي أحد أهم البُنى الأساسية لصياغة الصورة العامة في هذا الفصل، محاولين رصد الملامح المختلفة التي كانت تحسب لفئة أو على فئة ما داخل مجتمع الإيالة. وقد حاولنا في نفس الوقت الذي نعرض وصف عام لتعامل الفئات المختلفة مِن جهات رسمية وغير رسمية مع الأزمات الصّحية إلى تحليل هذه المواقف وفق المجال التّداولي في تلك المرحلة الزّمنية مِن التاريخ، دائما وفق المعطيات والإمكانيات الموجودة آنذاك.

لننتقل في الفصل الخامس للاعتماد على المنهج التحليلي المقارن، وهذا بالحديث عن "**الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها الحياتية**" وقد حاولنا في هذا الفصل استبعاد كلّ التفسيرات الجزئية أحادية الجانب بل سعينا إلى دراسة كلّ نقطة جزئية ضمن مستواه النظري ثمَّ تأثيراتها ضمن النظام البنيوي العام على الظروف فالأحداث العامة في الحياة في الإيالة بمختلف حيثياتها وتفصيلاتها.

خطة البحث

مدخل: المسارات التعريفية للأزمات الصحية والغذائية.

الأوبئة بين المسارات التاريخية والمفاهيم الطبية.

العلاقة المختلفة بين الأزمات الغذائية والأزمات الصحية.

الفصل الأول: الأوبئة والمجاعات بين الكتابة التعريفية والمعيشة الواقعية

1. الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث الإسلامي.
2. الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث الغربي.
3. معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر خلال المرحلة الأولى للوجود العثماني.

الفصل الثاني: الأسباب الأساسية والمراكز الحيوية لوجود المجاعات وانتشار الأوبئة في الإيالة الجزائرية (1700-1830م)

أولا: الأسباب المباشرة لظهور المجاعات وانتشار الوباء.

ثانيا: الأسباب غير المباشرة لظهور المجاعات وانتشار الوباء.

ثالثا: الخريطة الجغرافية للأوبئة والمجاعات في الجزائر.

الفصل الثالث: إيالة الجزائر في مواجهة المجاعات والأوبئة 1700-1830

أولا: حوليات ظهور واندثار المجاعات في إيالة الجزائر (1700-1830م)

ثانيا: كرونولوجيا الأوبئة بين التفشي والانحصار(1700-1830م)

ثالثا: حركة تفشي وانتشار الأوبئة والمجاعات في الجزائر (1700-1830م)

الفصل الرابع: الأوبئة والمجاعات بين السلطة السياسية والقوى المجتمعية.

أولا: الإجراءات الوقائية المتبعة في مواجهة الوباء والحدّ مِن أزمة الغذاء.

ثانيا: مساهمة السلطة والحكام وأرباب المال في حلِّ الأزمات.

ثالثا: تفسيرات العلماء للأزمات الغذائية والصحية.

الفصل الخامس: الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها الحياتية.

أولا: الانعكاسات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة

ثانيا: انعكاس الأوبئة والمجاعات على الأنشطة العسكرية.

ثالثا: الانعكاسات الديموغرافية وتأثيراتها في التركيبة السكانية للإيالة.

رابعا: انعكاس الأزمات الغذائية والصحية على الحياة الاجتماعية.

خاتمة

صعوبات البحث:

تكمن صعوبة البحث في مواضيع الأزمات الغذائية والصحية في كون التَّأريخ لمثل هكذا مواضيع لايزال نادرا وصعبا، لذا قيل "لا يوجد أصعب من كتابة التاريخ عندما تريد عرض حقائق فقط" فما بالك والأمر يتعلق بالأمراض الوبائية والأزمات الغذائية التي يصعب وصفها أو تتبعها بصفة دقيقة بناءً على تقديرات إحصائية لا أكثر.

لذا كان لزاما علينا من أجل تغطية هذا العجز في هذا الجانب، تتبع مئات الوثائق الأرشيفية في أماكن مختلفة وعشرات الرسائل الدبلوماسية بلغات مختلفة، إضافة إلى مئات المذكرات لمن عايش تلك المرحلة لأجل تحقيق حدوث حالة وبائية ما أو أزمة غذائية ما من عدمها، وهو بالفعل عملية جرد مستمر لم تتوقف من أول يوم فكرنا فيه في هذا الموضوع إلى الآن فكل كلمة قد توحي بالمجاعة أو بحدوث وباء، أضحت موضوع بحث في حد ذاتها كلمات كـ: (قحط، وجدب، وشح السماء، وبلاء، وطاعون، ووخز، حبحوبة، الهيبرة، الهيضة،...) أضحت كلمات ذات مكانة عظيمة في نظرنا لكن وجوده كان قليل وشحيح جدا.

كما أنَّ توسع المجال التداولي للموضوع بين ضبط وقوع الحادثة من زاويتها التاريخية خلال المصادر التاريخية المختلفة مِن وثائق أرشيفية ومراسلات دبلوماسية ومذكرات القناصل والرحالة ومذكرات الرهبان والأسرى والعاملين ثمّ كل ما ذكروه من أعرض للأمراض على مخبر المفاهيم الطبية وربطها بالمجال الجغرافي وعلاقاته المناخية ثم انعكاسات هذه الأزمات على الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية جعل الأمر بمثابة مواجهة حربية على عدة جبهات.

كما لم يخلوا بناء نموذج عام للكثافة السكانية في إيالة الجزائر من صعوبات كثيرة، فهناك أولا شح المعلومات وعدم دقتها في هذا الباب، ثم ثاني ما وجد من إحصاءات اعترتها الإيديولوجية وتبعاتها ما جعل الأرقام المعالجة تعزوها الدقة بسبب قلة التأكيدات عليها.

ولعل الاستثناء الوحيد كان في العُشر الثاني من القرن التاسع عشر 19م؛ وهو ما أحدثه حرص بعض التقارير والمراسلات الفرنسية -خاصة- تلك الصادرة عن الشركة الإفريقية في مدينة عنابة على التنبيه إلى مكان يحدث أثناء الأوبئة والمجاعات من سقوط للضحايا وغيره. إلاّ أن غياب الدقة في المعطيات لم يحل دون قيامنا ببناء نموذج للحياة في جانب الكثافة السكانية للإيالة في القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر.

مثلما أن البحث في الوثائق الأرشيفية عامة ووثائق الأرشيف العثماني خاصة أمر متعب جدا ويستغرق الكثير من الوقت، فكم الوثائق الموجود في الأرشيفات التي استخدمنها سواء منها العثمانية في أرشيف رئاسة الجمهورية أو في أرشيفات ما وراء البحر في فرنسا يستلزم حياة كاملة لأجل تفحص كل ما فيهما واستغلالهما كما يجب

مدخل

مدخل: الحقل المفاهيمي: الرسوم التعريفية للأزمات الصحية والغذائية

ضبط ورصد المفاهيم بحدودها ورسومها أحد أهم المفاتيح التي ترسم الأطر الكبرى لأي إشكالية وُجِدت، فبضبط المفاهيم والمصطلحات نصل بالبحث لأن يكون وحدة متجانسة ومتسقة، لذا فالركيزة الأساسية التي يمكن مِن خلالها الانطلاق إلى استنطاق المصادر والمراجع المتعلقة بهذا البحث تتمثل في: "تحديد المدلول اللفظي والمصطلحي لكل مفردة تتعلق بالبناء الرئيسي للبحث" أو بالأحرى "كل مُفردة تستخدم بشكل متكرر في هذه الدراسة" لذا ما نحاوله هنا هو مناقشة المفاهيم الكبرى للمصطلحات الأساسية في البحث.

ولعلنا لن نحيد عن الصواب إذا انطلقنا من تحديد مفاهيم "للمجاعة" و"الوباء" باعتبارهما مفاتيح هذه الدراسة. ولا يكون ذلك حسب رأينا إلا بطرح تساؤل عن المقصود بالمجاعة لغة واصطلاحا؟ ثمّ نجيب عمّا إن كان هناك شروط بعينها يجب توافرها في سنة ما حتى نطلق عليها لفظ المجاعة؟ بعد ذلك ننتقل إلى تحديد ماهية الأوبئة. ولماذا استخدمنا صيغة الجمع في هذه الكلمة تحديدا؟ هل لأنها لا تقتصر على وباء واحد فقط؟ وإن كانت فعلا كذلك فما هي الفروق التي تحكمها؟ ثمّ بعد ذلك هل مِن علاقة بين الطَّاعون والوباء؟ وهل تتطور يا ترى هذه العلاقة مرة أخرى لتضم إليه علاقة أكبر وأكثر تأثيرا تجمع ما بين طرفي الدراسة أي بين المجاعة والوباء؟ هذه التساؤلات وغيرها هي المدار الأساسي الذي ستجري حوله مضامين هذا المدخل.

الأوبئة بين المسارات التاريخية والمفاهيم الطبية

يعود الفضل في تحديد الأطر الكبرى لعلم الأوبئة لتلك النظريات التي أوجدها العالم اليوناني (Hippocrate) (هيبوقراط) عاش في الفترة ما بين (460-377 ق.م) والتي انطلق في بادئ الأمر ضمنها في الحديث عن تأثير: الهواء، والماء، والأتربة في إيجاد الأمراض وتطويرها ونقالها مِن شخص لآخر، وهو أوّل مَن استعمل مُصْطَلحي (Endemic) و(Epidemice) للدَّلالة على الأمراض الناجمة عن انتقال العدوى مِن فئة بشرية إلى فئة بشرية أخرى خلال فترة زمنية محددة، ويكون تأثيرها على عدد كبير من الضحايا[1].

لكن قبل أن نلج إلى التعريف الاصطلاحي بموضوعي البحث، لابد من تعريفهما لغويا، وهو ما نقف عليه بنفس النمط في معظم الكتب التراثية العربية، إذ كثيرا ما عُدَّ الوباء هو نفسه الطَّاعون عند بعض

[1] - Kenrad E.Nelson & Carolyn F.Williams : Early history of infectionus discas, Jones and Bartieti, England, 1976, P3.

اللغويين، ولم يفرقوا بينهما البتة، كما هو الحال لدى كل مِن "الجوهري" في "الصِحاح" و"ابن منظور الإفريقي" في "لسان العرب"[1]، و"الفيروزآبادي" في "القاموس المحيط"[2].

فيُعرّفِه صاحب الصِحّاح بقوله: «الوباء يُمد ويُقصر، وهو مرضٌ عامٌ، وجمع المقصور أوباءٌ، وجمع الممدود أوبئةٌ، وقد وبأت الأرض تَوْبأُ وَبأً فهي مَوبُوءَةٌ إذا كثُر مرضها»[3]، هذا التعريف نفسه نجده عند كل مِن "ابن منظور" و"الفيروزآبادي" بقولهما: «الوباء: الطَّاعون، بالقصر والمد. وقيل هو كلُّ مرضٍ عام»[4] أمَّا المجاعة فقد عُرِّفت لغة بأنَّها: مِن الجوع أي المخمصة، وهو نقيض الشبع. والفعل جاعَ جَوْعاً ومَجَاعةً، والمجاعةُ والمجُوعة والمجْوَعة، بتسكين الجيم، عام الجوع[5] وقيل سغَب بمعنى جاع[6]، ولا يكون السغب إلا بالجوع مع التَّعب، وقيل مسغبةٌ بمعنى: مجاعةٌ، ومنه قوله تعالى ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ أي مجاعة[7]، وقد اتَّخذت المجاعة العديد مِن الأسماء واشتهرت السنوات بها بالعديد من الألفاظ فقيل الغبراء والقحط والجدب والغبراء والعديد مِن الأسماء ذات نفس الدلالات الاسمية[8].

فإن عُلِم ذلك وتقرَّر ما هو موجود في التعاريف اللغوية لطرفي البحث انتقلنا للكلام عن تعريف ما سبق اصطلاحا، وحفاظا على منهجية استعراض التعاريف آثرنا أن نستوفي الموجود في مجالنا التداولي أولا لننتقل بعدها إلا التعاريف الغربية الحديثة منها والمعاصرة.

لعل مِن أشهر التعريفات الاصطلاحية ما ذكره صاحب كتاب "غريب الحديث" بقوله: «...المرض العام والوباء الذي يَفْسدُ له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان..»[9] وذكر العسقلاني في "فتح الباري" تعريفه فيما نراه أصلح ما يمكنه التعبير به عن مهية الوباء والطاعون معا، ما نصُّه: «...والحاصل أنّ

---

[1] – ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د-ط، د-س، ج1، مادة (وبأ) ص 189.

[2] – مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط الثامنة، 2005، مادة (وبأ)، ص 56.

[3] – إسماعيل بن حماد الجوهري: الصِحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربية، المحقق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، د-س، مادة (وبأ)، ص 79.

[4] – ابن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (وبأ) ص 189.

[5] – نفسه: مادة (جوع) ص 61.

[6] – مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: المرجع السابق، مادة (سغب) ص96.

[7] – ابن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (سغب) ص 468.

[8] – مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (1192م-1520م)، مذكرة ماجيستير، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، 2009، غير منشورة، ص15.

[9] – مجد الدين أبي السعادات: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م، ص 564.

حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم أو انصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأنَّ غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء يسمى طاعونا بطريق المجاز؛ لاشتراكهما في عموم المرض وكثرة الموت،...ومَن أطلق على كل وباء طاعون فبطريق المجاز..»[1] ولعل المجاز الذي تحدَّث عنه "ابن حجر العسقلاني" هو ما جعل "العربي المشرفي" عند تعريفه للوباء يقول: «...الوباء: هو الطّاعون. وهو مرضٌ يعمُّ الكثير من النَّاس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض النَّاس»[2]

بعد استعراض التعاريف المختلفة لكلّ من الوباء والطاعون في التراث العربي والإسلامي أو ضمن مجالنا التداولي، رأينا أنَّ الأمر لا يُستوفى ولسنا حقيقين بالحديث عن ماهية الموضوع الأصلية دون الإشارة إلى الكتابات الغربية عن موضوع الأوبئة والمجاعات، وما سنورده ككل مِن مصطلحات؛ لذا ارتأينا أن نُفصّل أكثر في التعاريف الاصطلاحية للوباء والطاعون من زوايا الدراسات المعاصرة المتخصصة، فنجد معجم "أكسفورد الطبي" ينطلق من وضع تعريف عام لكل ما له علاقة بالأمراض المتنقلة والأوبئة بإشارته إلى أنّ ظاهرة تفشي وانتقال الأمراض بين الناس تدرس ضمن نطاق ما يعرف حديثا بـ (علم الأوبئة) (epidemiology) وهو علم لم يُعرف بشكله الحالي -المنفصل بذاته- وفق نظرياته ومنهاجه المحددة إلاّ في الفترة المتأخرة[3]. وعلم الأوبئة (epidemiology) حسب نفس القاموس هو عبارة عن دراسة لتوزيع الأحداث المتعلقة بتفشي الأمراض المعدية من فئة محددة من الناس إلى جميع السكان، أو تفشي المرض بين فئات محددة مِن السكان، مع دراسة تأثيراتها وكيفية الوقاية منها[4]، وجاء ما في نفس هذا القاموس متوافقا مع ما أوردته المنظمة العالمية للصحة (WHO) في تعريف "علم الأوبئة" في موقع المنظمة الرسمي الصّحة بأنَّه «..دراسة توزيع أو المحددات ذات الصلة بالصحة، وتطبيق هذه الدراسة للسيطرة على الأمراض والمشاكل الصحية يمكن استخدام أساليب مختلفة لإجراء التحقيقات الوبائية..»[5].

1- أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أبو قتيبة ناظر محمد الفيريابي، دار طيبة، الرياض، ط الأولى، 2005، ج13، كتاب الطب، الباب 30، ص 131.

2 - العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، تحقيق ودراسة حسن الفرقان، الطبعة الأولى، منشورات التوحيدي، الرباط 2014، ص 244.

3 - Miquel Porta : A dictionary of epidemiology, Edited for the International Epidemiological Association, by Miquel Porta Associate Editors Sander Greenland Miguel Hernan Isabel dos Santos Silva John M. Last, **Oxford University Press is a department of the University of Oxford**, Sixth Edition, Printed in the United States of America, 2001, P94.

4 - Ibid : P95.

5 -World Health organization: Epidemiology, January 11.2019. http://www.who.int/topics/epidemiology/en

ولهذا فإنَّ "علم الأوبئة" هو علم يعتني بدراسة الحالات الجماعية للعدوى وليس بالحالات الفردية، وبالتالي فالأمراض الوبائية هي أمراض متفشية بين البشر، فإن عرف هذا وجب علينا التنبيه إلى أنّ الأمراض المعدية ليست بالمجمل أمراض وبائية[1].

يركز "علم الأوبئة" اهتمامه على شقين اثنين في دراساته: الأول: دراسة انتشار المرض في الأماكن المحددة وبين الفئات المختلفة. والثاني: دراسة العوامل المؤدية لانتشار مثل هذه الأوبئة. وبالتالي "فعلم الأوبئة" لا يعتني بأعراض هذه الأمراض وطرق الشفاء منها بقدر ما يولي اهتمامه لانتشار المرض وأسبابه[2].

وقد أنشأت الدول الحديثة ما يشبه تنظيم عالمي صحي لرصد كل ما له علاقة بالأوبئة أو ظهورها ومواجهتها، يعرف هذا التنظيم باسم The Global Public Health Intelligence Network (GPHIN) الشبكة العالمية للأبحاث (الاستخبارات) الصحية، محاولة استخدام المعرفة التي توفرها هذه الهيئة للسيطرة على الأمراض المعدية والتقليل من آثارها[3].

فإن تقرر ما سبق وفهم المراد من علم الأوبئة انطلقنا في إعطاء تصور عام للأوبئة بقولنا أنها أمراض شديدة تصيب البشر والثدييات ناجمة أساسا عن انتقال بكتيريا (اليرسينا) من طرف إلى آخر، تنتقل الأمراض الوبائية بطرق عدَّة أهمها ما يكون بواسطة لدغة البراغيث المصابة بهذا الوباء، أو ما يكون عن طريق التعامل مع الحيوانات المصابة، أو ما يكون عن طريق التواصل مع البشر المصابين بهذا المرض[4]، لذا كثيرا ما نرى الدول تسعى لاتخاذ إجراءات صارمة لعزل من اشتبه في إصابته بهذا المرض، وتُميِّز الدراسات الفرنسية أنواع معينة من الطَّاعون أو الوباء وتحصرها بالأساس في الأقسام التالية:

أولا: النوع الرئوي أو الدملي: وهو الذي ينجم بشكل أساسي عن استنشاق هواء ملوث ببكتيريا خبيثة تنتقل غالبا عن طريق البلع أو عن طريق اللمس والاحتكاك بالحيوانات المصاب بالوباء، لتتطور البكتيريا داخل جسم الإنسان وتصبح قادرة على الانتقال مِن شخص إلى آخر[5]، تنتقل إلى لتصبح خرجات ناتئة[6] عُرفت أعراض هذا المرض في بعض الأماكن بالطَّاعون الآسيوي -في آسيا- أو بالموت

---

[1] - شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ (المرض والقوة الإمبريالية)، ترجمة أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص 8.

[2] - نفسه.

[3] - Miquel Porta: op.cit., P94.

[4] - Department of Health: Plague, December 2016 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/plague/fact_sheet.htm

[5] - Violle Henri Jules : La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921, P4.

[6] - راجع الملاحق: الملحق الأول.

الأسود -في أوروبا-[1]، تشير العديد من المصادر إلى أنَّ هذا الطاعون أو الوباء كان سببا في القضاء على ثُلث سكان أوروبا في ثلاثينات القرن الرابع عشر[2].

وقد وقفنا على عددٍ من الأعراض المشابهة لأعراض الطاعون الرئوي أو الموت الأسود في الجزائر خلال المرحلة الزمنية المعنية بالدراسة، فيتجسّد مثلا في وباء سنة (1786م/1787م)[3]، إذا ينقل لنا الأب فيشرا -عند وصفه لجثة أحد الرهبان الذين توفوا في الجزائر خلال الطاعون الذي أصاب المدينة سنة (1787م) - الصورة الموجودة بقوله :«...وعند وصولي إلى المسجد وجدت جثة أخينا جاك ...وكان قد تورد وجهه فيما بقي جسمه أسود...»[4] كما لا ينفي هذا وجود بعض الأعراض الأخرى مثل تغير لون الميت أو ظهور بعض الأماكن في الجثة تميل إلى السواد لا يختلف كثيرا مع أعراض الطاعون الأسيوي أو ما يعرف بـ"الموت الأسود" في أوروبا[5]. والذي غالبا ما كانت أعراضه لا تظهر بسرعة ولا ينتبه لها إذ يصاب المريض بالحمى دون أن ينتبه لها لكنها لا ترتفع بشكل مباشر بل تأخذ الوقت اللازم لذلك، وتظهر البثور في أماكن مختلفة من الجسم وبالتحديد تحت الإبط وفي البطن وفي بعض الأحيان تصعد هذه البثور إلى خلف الأذنين وتنزل إلى الفخذين، في المرحلة المتأخرة من إصابة الضحية بهذا الوباء يصبح يعاني من الهذيان والهلوسات مستسلما للمرض[6]، لكن الجسم لا يستثنى بدوره في هذه الحالة من ظهور بعض الندب السوداء نتيجة تجمع الدماء وتصلبها في أماكن محددة.

ثانيا: النوع الدموي (اللمفاوي): وهو الذي ينجم بشكل أساسي عن لدغة حشرة مصابة بجرثومة يرسينا ما ينجم عنه ظهور بثور على جلد الإنسان وهو الأكثر شيوعا في المناطق التي يكثر في البراغيث[7].
ويرى بعض الباحثين أنّ الطَّاعون ينشأ أساسا عن جرثومة هوائية تحيا في حرارة قصوى تصل إلى (25°) يكون الانتقال السريع من الجسم الحامل لها إلى الجسم المحمولة إليه من خلال الأرومات الأكثر نشاطا عن

---

[1] - Laumonier Jean: La peste : histoire et traitement, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897, P02.
[2] - Chabrand, Jean-Armand : Les grandes épidémies dans le Briançonnais, Grenoble imp., France, 1886, P02.
[3] - Jena Claude Vichert : Pestes de 1786 et 178. Dans : M.C. P560.
[4] - Ibid.
[5] - والمقصود به أساسا الطاعون الدبلي (Bubonique) وسمي بالموت الأسود في أوروبا؛ لأنه كان يجعل بقع الدم الموجود في جسم الإنسان تتحول إلى اللون الأسود، تنتقل فيه العدوى غالبا عن طريق البراغيث والقوارض.
[6] - Laumonier Jean: op.cit. P02.
[7] - Violle Henri Jules : op.cit., P4.

طريق اللدغ، بحيث يمكن للعصية أن تخترق الغشاء المخاطي بسهولة، إلاّ أنّها لا تستطيع اختراق الجلد إلاّ إن لحقه خدشٌ ما، ولو كان نتيجة بعوضة[1].

وهو ما أوجد لدينا فرضيات عِدَّة عن طُرق انتقال الوباء خلال تلك المدة الزمنية، لذا نجد أنّه قد نوقشت خلال المرحلة محل الدّراسة طُرق انتقال الوباء من شخص إلى آخر وتمثُّلاتها المختلفة بين مَن يُرجِّح فرضية الاحتكاك المباشر، ومَن يرى أنّ الأصل الغالب على الأوبئة التي ألمت بالحيز الجغرافي محل الدِّراسة ترجع إلى الانتقال غير المباشر والذي مثّله "الهواء" بشكل دقيق أو إلى فرضية عدم انتقال العدوى تماما[2] وهو ما قد يتنافى والدلائل التاريخية المتنوعة التي سنوردها لاحقا.

فالفريق الأوّل مِن العلماء يذهب إلى أنّ الهواء لا يُؤثِّر بشكل مباشر[3]، وقُدرته على نقل الأرومة المصابة بالبكتيريا محدودة جداً، ولا يمكن أن تكون السبب الرئيس في تفشي الأوبئة؛ لأنّ الملاحظة تُؤكِّد أنّ الاتصال الفوري لآلاف الضحايا في الأماكن الوبائية ظل دون خطر مع وجود نفس "الهواء" وأكدوا أنَّ الاتصال الوحيد عن طريق الهواء لا يؤدي لأي أعراض وبائية[4]، بل منهم مَن تعصب إلى درجة اعتبار أنّ الإجراءات الاحترازية مِن حِجر صحي وتطويق للمصابين لم يكن له أيُّ معنى[5]، بينما ذهب فريقٌ آخر مِن العلماء إلى أنّ السّبب الرئيس في انتقال الداء مِن شخص إلى آخر مرده الاحتكاك والالتماس المباشر، إضافة إلى أنَّ حركة الهواء في المناطق الموبوءة. وبالتالي فالهواء يُعدُّ عُنصراً مُهماً في هذه العملية[6]، وقد حمل هذا الأمر بعض الباحثين على القول: «إنّ الجسم يستهلك كمية كبيرة من الهواء وهذا هو طعامه الأول...ولم نعثر إلى اليوم على أفراد تم حرمانهم من الهواء لمدة يوم؛ لذا فالهواء هو خبز الجسم وإذا كان الهواء يحوي على جراثيم معدية فهو بدون شك يصبح فرصة لنقل العدوى...لكن لسوء الحظ فالإنسان لا يفرق بين الهواء النظيف والهواء الملوث ما يساهم في الإضرار به..»[7]

---

[1] - برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، ط الثانية، ص 183،184.

[2] - Fritsch dit long : ce que Valent les lazarets et les quarantaines, dans **Gazette Médical**, dixième Année, Directeur Dr E.L Bertherand, Alger 1865, N°7, P90.

[3] - Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, Anne 36. N°05, 1891, P36.

[4] - Clot Antoine-Barthélémy : Coup d'œil sur la peste et les quarantaines, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique, P18.

[5] - Boucher Hubert : La peste en Europe et en Asie : empoisonnement de la race humaine par les vaccins et les sérums, éditeur Libraire général et Zoophile, Paris, 1910, P59.

[6] - Fritsch dit long : op.cit., P90.

[7] - Baillière Georges Jean-Baptiste : Les Maladies évitables, Éditeur, J.-B. Baillière, Paris, 1898, P53.

أمّا نحن فنعتقد أنّ سبب هذا الاختلاف راجع أساسا إلى تركيبة البكتيريا في كل وباء وطبيعة كل وباء، وهو الأمر الذي لم يُشتغل عليه كثيرا في المرحلة المدروسة (1700-1830م)، فإن تقرَّر هذا وسلكنا المسلك المعاصر في تحري هذا الأمر تبيَّن لنا أن بعض الأوبئة كانت تنتقل فقط عن طريق الاحتكاك أو اللدغ كما هو الحال بالنسبة للطاعون الدملي وكان ذاتيا لا ينتقل من شخص إلى آخر، بينما انتقلت أوبئة أخرى عن طريق المياه كما هو شأن بالنسبة (للكوليرا) [1] أو تنتقل عن طريق الهواء[2] كما هو الحال في (الطاعون الرئوي) نتيجة البكتيريا المختلفة. ونفس الأمر نجده مثلا في وباء(الجدري) إذ يُعدُّ الهواء عاملا أساسيا في نقل عصية (الفارسيلا زوستر) المسؤولة عن إحداث مرض (الجدري) كما سيأتي بيانه[3].

مثلما يوجد عددٌ مِن الطَّواعين ظلت منطوية على نفسها، ولم تنتقل بشكل مباشر أو سريع، وهذا مرتبط بنوعية الوباء -كما سبق تقريره- وهو ما سنعيد الحديث عنه بالتفصيل في المبحث المتعلق بانتقال وانتشار الوباء- مثلما ينتقل المرض أو الوباء من خلال الناقل ممثلا في الفئران إلى الحاضن والذي يتمثَّل في الإنسان[4]. خاصة إذا علمنا أنَّ الفئران حتَّى في حالة موتها فإن باستطاعة البراغيث لدغها ونقل الجرثومة أو اليرسين الموجودة بدم الفأر إلى الإنسان لاحقا[5].

لذا ترى الأكاديمية الوطنية للطب – على سبيل المثال-في نشرتها الدورية أنّ الأوبئة لها نفس التأثيرات المادية على الكائنات ذات النظام العصبي الواحد[6]، كما هو الحال في المثال الذي سقناه سابقا، وبالتالي فإنّه وعن طريق الحامل (الذي يتمثل في البراغيث والحشرات) ينتقل من فئة إلى أخرى[7]، كما هو معلومٌ أنّ موت الفئران لا يوقف حركة الأرومة أو اليرسين التي توجد بدم الفئران[8]، بل يتيح لها الانتقال من الجسم الساكن للفأر إلى مُتلقي آخر والذي غالبا ما يكون الإنسان. كما مِن الصَّعب على السَاكنة خلال تلك الفترة ربط العلاقة بين إصابتهم بالمرض ووجود الفئران إذ أنّ موت الفئران يكون قبل إصابة الحاضن

---

1 - Daremberg Georges : Le choléra, ses causes, moyens de s'en préserver, Éditeur Rueff, Paris, 1892, P07.

2 - انظر الملاحق، الملحق رقم: 02.

3 - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand : La variole, Éditeur Rueff, Paris, 1894, P16.

4 - انظر الملحق رقم :02.

5 - Violle, Henri Jules op.cit., P17.

6 - Bulletin de l'Académie nationale de médecine : Publié par soins de la commission de publication, Tome XI, première partie, Bibliothèque académique royale de médecine, Paris, 1846,P555.

7 - Violle, Henri Jules : op.cit., P4.

8 - ibid. : P17.

النهائي (الإنسان) بمدة تتراوح ما بين يومين وستة أيام[1]، مع أن تفاعل الفيروسات الوبائية في جسم الفأر لا يختلف كثيرا عن تفاعل جسم الإنسان[2] ما جعل نهاية وجود الطفيليات واحدة في الأخير.

نجد في الأخير أنّ التّعريفات التي وضعها أو نقلها مَن عايش المرحلة محلَّ الدراسة لا تختلف في بنيتها كثيرا عما أوردناه، وإن كانت مبنية على الملاحظات البصرية العامة، فنجد "العربي المشرفي" ينقل عن "الباجي" تعريفه للوباء بقوله: «...الوباء هو الطّاعون وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحد بخلاف سائر الأوقات...»[3] مثلما تحدّث عن أعراضه وما يصيب الضّحية بعد وفاته قائلا: «...هو دُمَّل ظاهر في مراق الجسد، يموت به سخونا ولا تغور عينا المريض به، ويشخص بصره إلى السماء عند الموت إلى أن تخرج روحه كمريض الحمى وغيرها، وصاحب هذا المرض يموت مخمورا لا يتكلم ويطول سكره...»[4] غير أنّ هذا ما قد يُوهم المتلقي أنَّ جميع أعراض الأوبئة والطواعين واحدة لكن الحقيقة والملاحظة العلمية تثبت غير ذلك[5] إذ أنّ تجليات الوباء لم تكن نفسها في جميع حالات الإصابة بالوباء، بل كان يختلف شكل المرض عند المصابين به حسب نوعية الوباء الموجود.

فنقف مثلا عند المصابين بوباء التيفوس (le typhus) على اعتباره عدوى ناجمة أساساً من انتقال بكتيريا تدعى (السالمونيلا التيفية) (Salmonella Typhi) بين البشر[6]، وتنتشر بشكل كبير في الأماكن المغلقة المتَّسخة، وهو ما يفسر وجده بقوة في السجون والأماكن المزدحمة التي يتواجد بها الفقراء والمعوزين[7]، ويذهب عدد كبير من المختصين إلى أنّ الجراثيم المختصة بهذا الوباء تنتجها الحيوانات لكنها لا تتأثَّر بها[8]، تظهر عدد من العوارض على المصاب بهذا الوباء، أولها: الارتفاع الشديد والمفاجئ لدرجة الحرارة لتصل إلى

---

[1] – شلدون واتس: المرجع السابق، ص70.

[2] - A.I.P.A : (1924-P347)

[3] – العربي المشرفي: المرجع السابق، ص 244.

[4] – نفسه: ص 180.

[5] - Crouzet Stanislas : Dissertation sur la peste, Éditeur Camoin Dutertre, Marseille, 1822, P05.

[6] - Clot Antoine-Barthélémy : Coup d'oeil sur la peste et les quarantaines, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique.P22.

[7] - Baillière Georges Jean-Baptiste : op.cit., P113.

[8] - Department of Health: Typhoid Fever, September 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/typhoid_fever/fact_sheet.htm

(40°) تقريبا في بعض الحالات[1] حدّ الهذيان، بالأخصّ في بعض الحالات التي لا يستطيع الجسم فيها مقاومة البكتيريا[2].

يكون التَّعرض لهذا المرض موجزا ومتزامنا؛ ما يُسبب عدوى جماعية تنتقل بين السُّكان غالبا ما يكون انتقال العدوى إمّا عبر الجلد أو عبر العوائل الناقلة كالحشرات والطفيليات والبراغيث[3]، كما تحوز الجرذان على سمعة سيئة في هذا الشأن يرجع صداها إلى العصور الوسطى[4].

أما وباء الكوليرا (le choléra) فهو ناجم عن بكتيريا وعصيات تهاجم الجهاز العصبي مباشرة لدى الإنسان، لذا يلاحظ على المصابين بها نوعا من الإسهال أو الإمساك المتعفن وكثرة التعرق والغثيان[5]، كما يكثر الاستفراغ والألم الحاد في البطن، إضافة إلى إمكانية تعرّض المصاب إلى نوبات مِن العطش والجفاف الشديدين[6]، ولعل هذا الجفاف والعطش مرده كثرة الاستفراغ والتبرز[7]، إضافة إلى تشنجات في الأطراف وضعف في النبض[8]. وفي بعض الأحيان تصاب مقلة العين بالشلل إلى أعلى أو إلى أسفل[9].

ولعلّ ممَّا يميز (الكوليرا) ضمن الأمراض الوبائية صفتها التكرارية[10]، مع تميّزها عن باقي الأوبئة بمحدودية انتقالها مِن شخص لآخر عن طريق الاحتكاك[11]، لكن وبمجرد أن تأتي على عدد كبير من السُّكان أو تقسو على تجمعات سكنية واسعة يطلق عليها لفظ الوباء[12]، وقد ورد في إحدى التقارير المرفوعة إلى الأكاديمية الطبية أنه كثيرا ما عرفت أوبئة الكوليرا خلال القرن الثامن عشر تزامن وتكرار

---

[1] - Bolio Antonin : Grippe et typhoïde, (thèse de doctorat) président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris -Thèse Doctorat- Éditeur C. Naud, Paris, 1904, P11.

[2] - Boucher Hubert : op.cit., P16.

[3] - Violle, Henri Jules : La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921, P09.

[4] - Kenrad E. Nelson & Carolyn F. Williams: op.cit., P3.

[5] - Millet Auguste : Du choléra-morbus épidémique, Éditeur Labé Paris, 1851, P8.

[6] - Department of Health: Plague, August 201 7 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/cholera/fact_sheet.htm

[7] - Dubar Léon : Quelques notes et souvenirs personnels concernant le choléra, Éditeur imprimerie E. Ramon, Armentières, 1909, P10.

[8] - Millet Auguste : op.cit., P2.

[9] - Caffe Paul-Louis-Balthasar : Considérations sur l'histoire médicale et statistique du choléra-morbus de Paris, Éditeur : imp. de H. Tilliard, Paris, 1832, P15.

[10] - Chrestien André-Thérèse : Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde, Éditeur L. Castel Montpellier, 1835, P22.

[11] - Barbier Émile Julien Nicolas : Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale : Vichy et ses eaux minérales comme médication préventive et effective, Éditeur Vichy, 1866, P12.

[12] - Chrestien André-Thérèse : op.cit., P23.

مستفيدة من العوامل المتوفرة خاصة منها الماء والهواء[1]. فإن تقرَّر هذا فعلا كان جدراء بالقول أنّ الكوليرا كانت -وماتزال مع الأسف- أحد أهم الأوبئة التي رسمت ملامحها بقوّة في الجزائر خلال تلك المدَّة.

وإذا أتينا للحديث عن أحد الأوبئة المؤثرة أيضا في الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة نجد الجدري (Variole) مثلاً وجدنا أنَّه لم يكن معروفا بشكل واضح لدى العوام من الناس، مثلما لم يُتبين أصله ولا منبعه إلاَّ في حالات نادرة، وظل لحيز زمني معتبر مجهول تماما، هل ينشأ نتيجة لعلاقة مباشرة طبيعية بين الإنسان والحيوان أو عن طريق نمط آخر، كما لم يستطع في بداية الأمر تحديد نمط انتقال الجراثيم من طرف إلى آخر[2]، ولا طريقة انتقاله خلال المرحلة الزمنية التي نتدارسها، واشتهر أنّه كان يأخذ جميع وقته قبل أن يتحكم في حيز جغرافي ما[3]. كانت تظهر على المريض بعض الأعراض مثل الحمى والارتعاش والصداع الشديد والتقيؤ لكن هذه الأعراض ظلت متفاوتة بين المرضى[4].

كما لا تقتصر الاختلافات بين الأوبئة على الأعراض المصاحبة لها، بل تتعدَّاها إلى التمايز الزمني، إذ أنّ المدّة الزمنية التي يستغرقها الوباء للقضاء على المصاب أو المدَّة التي يحتاجها الجسم لتأسيس مناعته وحماية نفسه وبالتالي فالأمر يختلف بحسب: نوعية الوباء، والحالة الصّحية للمصاب، والطريقة التي وصل بها الوباء إلى المصاب.

ولو جُعل الأمر كذلك لكان مِن غير الدَّقيق الحديث عن كوّن مدّة الحضانة المقررة بما بين ثلاثة وثمانية أيام، وهذا بناءً على تتبع الطَّاعون لمدّة عشرين سنة كاملة كما يَرد في أحد التقارير الواردة إلى الأكاديمية الوطنية للطب بفرنسا[5]، وهو أمر ذهب إليه العديد مِن المختصين في تلك المرحلة[6]، لكننا نعتبر الحديث عن مُدَّة تتراوح ما بين (ثلاثة-ثمانية) أيام مدة زمنية غير ثابتة وليس من الجدير جعلها معيارا ثابتا للحديث عن دخول المريض بعدها فترة النقاهة أو تجاوزه لفترة الخطر، وذلك أنَّنا نقف على بعض الأوبئة التي تقضي على المريض في غضون ساعات قليلة قد لا تتجاوز السة ساعات[7] أو خلال يوم واحد كما هو

[1] - Edouard Robin : Prophylaxie sur l’art de prévenir le choléra, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°24, 1883, P50.

[2] - Levasseur Paul : De la variole et de la vaccine rapport présenté à l'Académie, imp.. de C.-F. Lapierre Rouen, France, 1876, P04.

[3] - Du Mesnil, Octave : Nécessité de la revaccination des ouvriers venant prendre du travail à Paris, Éditeur imp. de E. Martinet, Paris, N°4, 15 Avril 1879, P01.

[4] - Legée, Émile : Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur : imp. de Briez, Abbeville, 1872, P04.

[5] - A.N.M : Anné1847, P43.

[6] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P19.

[7] - Caffe Paul-Louis-Balthasar : Considérations sur l'histoire médicale et statistique du choléra-morbus de Paris, P18.

الشأن في الطاعون تعفن الدم، وقد يكون بطريقة مفاجأة وهو ما أورده (Paul-Louis) بولو لويس عند حديثه عن كيفية قضاء (الكوليرا) على شاب في الثلاثينات لم يكن مُصابا بأي مرض من قبل[1].

بينما قد يستمر نفس هذا الوباء (الكوليرا) مع مريض آخر لمدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما وأكثر من ذلك للقضاء عليه[2]، وهذا ما وقفنا عليه بالفعل في أنواع عديدة في الأوبئة، إذ وجدنا في بعض الحالات أنّ المريض في حالة إصابته بوباء (الجدري) قد لا يُنتبه لذلك إلاَّ بعد مرور ستة أيام كاملة، وحينها فقط تبدأ الأعراض في الظهور على المصاب، وعلى رأسها التوعك والقشعريرة والتقيؤ ويتزامن كلَّ هذا مع ارتفاع لدرجة حرارة المريض[3]، ولا تبدأ البثور المصاحبة لوباء الجدري بالظهور مثلا إلاَّ بعد تطور هذه الأعراض، بينما نجد نفس الوباء أي: (الجدري) قد يقضي على مريض آخر في مدة زمنية وجيزة لا تتجاوز (4) الأربعة أيام[4]. ما يؤكد وجود عوامل مختلفة هي التي تأخذ بناصية المرض للتّطور والتّقدم أو الاندثار والتراجع. لذا نحن جدراء بأن نقول أن الجزم بتاريخ مُحدَّد للتعافي أو الوفاة كان أمراً مستعصيا[5].

وهو أمر الزمني لم يكن حكرا على الكوليرا أو الجدري فقط، إذ في حالة يممنا وجوهنا اتجاه وباء (التيفوئيد) وجدنا أنَّ العصية الوبائية قد تبقى في جسم المصاب دونما ظهور لأعراض بعينها وتظل خفية لمدّة تتراوح ما بين أسبوع أو أسبوعين كاملين، وفي بعض الحالات -النادرة- قد لا تظهر هذه الأعراض إلاَّ بعد أسابيع عِدّة وحينها يكون تأثيرها فعّالاً جدا[6].

فإن تقرّر ما سبق كنا جديرين بأنّ نقرَّ أن المدّة الزمنية غير مُحدّدة بعددٍ مُعيّنٍ مِن الأيام أو الأسابيع، وإنَّما تستلزمها العصية أو الأرومة للقضاء على المصاب أو تأقلمه معها مرتبطٌ بشكل أساسي بالاستعدادات الجسمية والصِّحية لدى كل مصاب، وهذه الاستعدادات هي التي مِن شأنها أن تُساهم في إطالة أمد المرض أو القضاء عليه تماما، وهي بدورها التي تحكم على العصيات لاحقا سواء بالانهزام أمامها أو الانتصار عليها، إضافة إلى أنَّ طريقة نفاذ الأوبئة إلى المصاب تبقى ذات أهمية كبيرة في تحديد أمد استمرار الوباء وما يترتب عنه.

---

[1] - ibid. P09.
[2] - Millet Auguste : op.cit., P11.
[3] - Levasseur Paul : De la variole et de la vaccine rapport présenté à l'Académie, P05.
[4] - Bourgin Pierre : Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole, Éditeur Impér. nouvelle Lyon, 1885, P12.
[5] - Arnaud Léonard : Essai sur la peste de Benghazi d'Afrique, imp. de F. Pichon, Paris, 1888, P42.
[6] - Bolio Antonin : Grippe et typhoïde, (thèse de doctorat) président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris, Éditeur C. Naud, Paris, 1904, P11.

فإنّ حدث وأن انتقل الوباء عبر الجلد عن طريق الوخز وظهرت بعد ستة أيام مِن الحضانة بثور ثمَّ أدت إلى تكوَّن بقع سوداء فاحمة حصلنا على ما يعرف (بالتفحم الطَّاعوني) وهو ما نجد أثره على الجثث التّي تحدّثت عنها بعض المصادر حيال وباء سنة (1786م/1787م)[1] على سبيل المثال لا الحصر، وهذا غالبا ما يكون تأثيره قوي وحاسم، وكثيرا ما يظهر نتيجة لها على جثث الضحايا تفحمات في الفخذ وتحت الإبطين وعلى العنق وتظهر عُقد صلبة تصير للتقيح، تعرف بـ(الخرجات)[2] كما تستولي على المريض حمى شديدة ترافقها اضطرابات عصبية ونفسية حادة كما صوّرتها بعض المصادر خلال تلك الفترة[3]، كثيرا ما يعقبها استفراغ أصفر اللون[4] وتعفُّن في الدّم وغيبوبة تنتهي بالوفاة خلال ستة أيام أو عشرة أيّام على الأكثر. مثلما يمكن أن يتعافى المريض منها فعلى سبيل المثال في حالة كان المريض مصاب بالكوليرا إذ تنخفض الأوعية الدموية وتعود الحرارة التدريجية إلى متوسطها العادي، ويصبح التنفس أوسع وأعمق[5]، وهو ما حدث فعلا مع عدد من الحالات التي سنذكرها لاحقا، أمّا إن كان نفاذ الأرومة عبر الغشاء المخاطي فإن تطوره يكون أسرع وتكون نسبة الوفاة (100%) في هذه الحالات ولا يستغرق غالبا أكثر مِن خمسة أيام إذا في غضون ثلاثة أيام يصحبها رعاف واضطرابات عصبية[6] تنتهي بالوفاة.

فإذا جُعل الأمر كما سبق وجب علينا أن ننتقل للحديث عن شق آخر لا يقل أهمية عما سبق ويتعلّق بالأعراض المختلفة للأوبئة على المرضى أو المصابين بالأوبئة التي كانت تلم بإيالة الجزائر، ولعلَّ مِن أهمها: شعور المريض الأولي بنوع مِن الارتفاع في درجة الحرارة قد يمتد لفترة زمنية طويلة، أمّا في بعض الحالات فيكون ارتفاع درجة الحرارة بشكل سلس وبطيء، وهو ما يُصعِّب معه ملاحظة المرض، إضافة إلى هذا نقف على ظهور بعض البثور في أماكن مختلفة من جسم المريض[7]، في حالات معينة يخرج في جسم الإنسان (خاصة تحت الإبط) ما يشبه دمل مُتفجِّم صلب؛ يشعر معه المصاب بهذا النوع من الأوبئة بالعطش الكبير[8]، وهو نفس المظهر الذي وصفه "العربي المشرفي" بقوله: «...خروج شيء في مغابن

---

[1] - Jena Claude Vichert; op.cit., Dans : M.C, P560.

[2] - انظر الملحق رقم : 01.

[3] - J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à a nos jours, Imprimerie du gouvernement Alger,1855, P316.

[4] - Chrestien André-Thérèse : Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde, P23.

[5] - Millet Auguste : op.cit., P10.

[6] - برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص 183،184.

[7] - Jean-Louis-Marie Poiret: Voyage en Barbarie, ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786, sur la religion, les coutumes & les moeurs des Maures & des Arabes-Bédouins ; avec un essai sur l'histoire naturelle de ce pays. Lettre N°5, Éditeur chez J. B. F. Née de la Rochelle, 1789, Lettre N°27, P 196.

[8] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P401.

الإنسان كإبطيه يشبه الجوزة، يَسْوَدُّ ما حولها أو يحمرُّ مثلا، يمرض به الإنسان أياما عديدة وربما يعيش...»[1] وهو الطَّاعون الدبلي الذي سبق الحديث عنه[2] قد أشار إلى نفس الأمر الأب "بواير" فذكر أنّ تنتُّق هذه البثور أو الخرجات قد يؤدي إلى نتيجة سعيدة تقضي برجوع الحياة للفرد المصاب بهذا الوباء، لكن هذا الأمر نادر الحدوث[3]. وقد يقتصر على فئة دون فئة أخرى مِن المرضى فليس أمرا استطراديا يشترك فيه جميع المرضى[4]، كما قد تمتدّ الأعراض إلى ظهور الصداع بشكل كبير وبروز صعوبة في التنفس وشعور بالغثيان والكسل وألم الغُدد، كما قد يلازم المريض اللون الشاحب والذي ينقلب إلى السواد بعد موت المصاب[5].

وهو ما نقف عليه في عَددٍ مِن الأوبئة التي أصابت إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، وهو ما صوّره الأب (بواير) سنة (1785م) بقوله: «...أنّ المريض بهذا الوباء يظهر عليه صعوبة كبيرة في التنفس يصاحبها آلام حادة في القلب وصداع عنيف في الرأس وكثيرا ما تكون هذه الأعراض مصحوبة بالحمى التي تصاحبه إلى غاية القبر، وفي الكثير مِن الأحيان تظهر خرجات مختلفة في جسم الإنسان..»[6] وقد أشار(Joussouy) إلى الأمر من ناحية أخرى فتحدَّث عن صُداع كبير يلم برأس المريض بالإضافة إلى رعشة تلازم جسده ويدوم ذلك في بعض الأحيان لفترة طويلة[7]، تنم هذه الخرجات التي تظهر كالتفحمات في جثث الموتى عن المعاناة التي كان يعانيها المصاب بهذا الداء ولا ينطفئ أثرها في الجسم حتى بعد وفاة صاحبها. كما تحدث السيد جون أليسيا عن بعض الحالات التي وقف عليها للمصابين بالطاعون الذي ألمَّ بالجزائر سنة (1786م) وفدا إليها من تونس بقوله أن المرضى غالبا ما كانوا يعانون من حالات ألم شديد على مستوى البطن قد يكون نتيجة تسممات ما، كما يتحدَّث عن ظهور تشنجات وبروز بعض الندبات على جسم الإنسان تتطور بعضها إلى ما يشبه خرجات تنتهي حسب ما أورد غالبا بموت المريض[8].

إضافة لما سبق تحدّث الدكتور (Ducoux) عن بروز ألم وصداع كبيرين يشكلان معا العارض المهيمن على المريض خلال هذا الوباء تصبح شدّة هذا الألم لا تطاق وتكون مصحوبة في بعض الحالات

---

[1] - العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، ص 180.

[2] - انظر الملحقين رقمي: 1، 2.

[3] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 196.

[4] - Arnaud Léonard : op.cit., P42.

[5] - Crouzet Stanislas : op.cit., P09.

[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 196.

[7] - Jean André Joussouy : M.C.T 3, P618.

[8] - Jean Alasia : Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne. Dans M.C, PP (444-448).

بالغثيان والقيء المتكرر في الكثير من الأحيان[1]، ونفس هذه الأعراض تقريبا تحدّث عنها الكثير من الدراسات استنادا على الملاحظات العينية لمجموعة من أطباء القناصل الموجودين في مدينة الجزائر خلال سنوات (1786-1787م) تذكر عن ملاحظة نفس الأعراض على المرضى الذين سقطوا نتيجة لضربات الطاعون فنجد مثلا طبيب القنصل الإنجليزي في المدينة يكتب:«...أنّه بعد تفحّصه لثلاث جثث من جثث المرضى وجد أنه لديهم نفس الأعراض فالجميع قبل إعلان موته كان يعاني من الصداع الشديد في الرأس والحمى وكثرة القيء، وكلهم بعد موتهم ظهرت في أجسادهم بثور وخرجات متفحمة أسقل الإبط وفي الفخذ وأماكن أخرى[2].

في الأخير يمكننا أن نقرر بأن للأوبئة تتمايز عن بعضها بأشكالها المختلفة، لكنها تشترك في مهاجمتها للكائن الحي وتفشيها إلى أعداد كبيرة، وتتمايز عن بعضها البعض من حيث قوة انتشارها وسرعة انتقالها مِن حيز إلى آخر[3]. وبالتالي فالاختلاف الحقيقي بين الأوبئة يكمن في مدى تأثيرها وانتشارها وقدرتها التدميرية، ومن الناحية التدميرية يأتي الطاعون (الرئوي) (bubonicplague) أو باللغة الفرنسية (peste bubonique) أو ما اشتهر باسم الطاعون الأسود في أوروبا ضمن الطواعين الأكثر تدميرا التي عرفتها المنطقة.

جدل التداخل بين الأزمات الغذائية والصحية:

بقي أن نشير إلى نقطتين هامتين قبل الشروع في الفصل الأول هما: علاقة المجاعات بالأوبئة، والتفريق ما بين الأوبئة والطواعين. ونبدأ بالعلاقة الأولى التي تضم طرفي بحثنا أي: المجاعات والأوبئة. إذ قد تقرَّر لدى علماء الصّحة أنّ المجاعة أو نقص التغذية عموما يُؤثر بشكل مباشر وأحيانا بشكل غير مباشر في انتشار وتفشي الأمراض والأوبئة[4]؛ إذ أنّ نقص التغذية المنتظمة كثيرا ما كان يُؤدي إلى نقص في البروتينات والدهون والسُّكريات والفيتامينات والتي تدخل ضِمنا في تركيب كل الخلايا الجسمية وتوفر الهرمونات التي يحتاجها الجسم، وبالأخص تلك التي تعمل على تنشيط النخاع العظمي، هذا الأخير الذي يُعدُّ مصنع الخلايا البيضاء، والنشاط الطبيعي لهذه الخلايا ضروري لكي يتمكَّن الكائن مِن مواجهة العُصيات المعدية التي تَنتُج عن أمراض جرثومية[5]، وفقدان أو نقص الخلايا يعني بشكل مباشر ضعف الجسم

---

[1] - Ducoux François-Joseph : Esquisse des maladies épidémiques du nord de l'Afrique examen des causes qui les ont occasionnées et entretenues, Paris, aux librairies médicales et militaires, 1837, P2.

[2] - Marthe Conor: Une épidémie peste en Afrique mineure (1784-1788) dans (A.I.P.T) P227-.

[3] - Boucher Hubert :op.cit., P17.

[4] - Kelsch Achille : Considérations sur l'étiologie du typhus exanthématique, Éditeur G. Masson, Paris, 1872, P02.

[5] - Baillière Georges Jean-Baptiste : op.cit., P33.

وعدم قدرته على مواجهة الفيروسات التي تحملها الأمراض والأوبئة، وبالتالي سهولة عملية توطُّن الفيروس الوبائي في جسم المريض، وهو ما أدى في الأخير إلى انهيار الخلايا الجسمية وسقوط المصاب ضحية لسطوة هذه الجراثيم.

فإن تقرّر ذلك شرعنا في تقرير مسألة على قدر كبير من الأهمية أيضا، كما سبق الإشارة إليها وتكمن في التّفريق بين الوباء والطاعون، إذ نجد عددا مِن الكتابات خاصة منها في تراثنا التاريخي لا تضع حدوداً بيِّنة بين الطَّاعون والوباء، لذا نجد أنّ ابن منظور في "اللسان" مثلا والفيروز آبادي في "القاموس" وقبلَهما الجوهري في "الصِحاح" «..أنَّ الوباء هو الطّاعون وكل مرض عام»[1]، أي كلُّ مرض انتشر بين النّاس، ونجد "العربي المشرفي" ينقل تعريفاً عن "الباجي" للوباء بقوله: «...الوباء هو الطّاعون وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحد بخلاف سائر الأوقات...»[2]، وهذا مبنيٌّ على تصريح العديد ممّن اشتغل في أمر الوباء أو الطّاعون أنّه يصعب تحديد طبيعة الوباء إذ ليس كل وباء طاعون كما قد يُتوهم[3].

فالأوبئة مع ما فيها من صفة التّفشي قد تكتفي بأحواز جغرافية معينة ولا تتعداها إلى غيرها، بعكس الطَّاعون الذي غالبا ما يكون تأثيره أشدُّ وقدرته أعم على الانتشار، ويمكننا الحديث عن كون الطّاعون يأتي في أعلى الهرم الوبائي مِن حيث الانتشار والتّفشي وفي قاعدة نفس الهرم من ناحية التأثير والقوّة، وتبقى بعض الأوبئة بسبب انحصار مجالها الجغرافي أقل مِن أن تكون طاعونا؛ لذا فإنّ أحسن ما يقال هنا للتّميز بين الأوبئة والطواعين هو ما نقف عليه في رسم الحد في التراث الإسلامي بقولهم :«أنّ كلّ طاعون وباء وليس كل وباء طاعون»[4].

لذا فالحقيقة التي يمكن أن نقف عليها هي أنّ الأوبئة الأخرى مثل: الكوليرا، والجدري، والحصبة، والتيفوئيد وغيرها لابد أن تتوفر فيها ميزة شمولية أكثر مِن حيز جغرافي واحد حتّى يمكننا أن نصنفها في صنف الطواعين. لذا فنحن جدراء بأن نقول أنَّ الطَّاعون هو وحدة جزئية ضمن الأوبئة، لكنه من ناحية التأثير والقوة يأتي في أعلى ترتيب لها وأقوى من بعضها. ولكي ينتقل وباء ما إلى مستوى أن يكون طاعونا عليه أن تتوفر فيه بعض الصفات أهمها الانتقال السريع من شخص إلى آخر، تفشيه إلى أكثر من حيز جغرافي واحد، وقدرته على الحفاظ على نشاطه لأكبر مدة زمنية. فإن أخذنا على سبيل المثال (الكوليرا)

---

[1] - مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: المرجع السابق، مادة (وبأ)، ص 56.

[2] - العربي المشرفي: المرجع السابق، ص 244.

[3] - برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص 183.

[4] - أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: المرجع السابق، ص 130.

رأينا أنه يدخل في حيز الأوبئة، لكنه ظل بعيدا عن أن يكون طاعونا؛ بسبب قدرته الانتقالية المحدودة أو المنعدمة تماما بشكل أدق بين النَّاس، كما ذهب إلى ذلك نيكولس (Nicolas)[1] وهو ما نفس ما تُقرُّه الوكالة الصِّحية الأمريكية بولاية نيويورك.

[1] - Barbier Émile Julien Nicolas : Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale, P17.

الفصل الأول: الأوبئة والمجاعات بين الكتابة التعريفية والحقيقة المعاشية

أولا: الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث العربي.

ثانيا: الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث الغربي.

ثالثا: معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث الإسلامي.

قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول: أن المسلمين قد اعتنوا في قرون متقدِّمة بالتأريخ للأمراض والتداوي ونوازل القحط والمجاعات، واختلفت الاتجاهات في هذا الباب بين مَن أسَّس عمله على نطاق واسع يشمل أبوب متعددة ضمَّنها وما وصله من أخبار عن أزمات غذائية وما اشتهر من اجتهادات اليونان والإغريق والرومان وغيرهم ، وبين من اقتصر على ذكر سُبل التَّداوي في نطاقه النبوي والتعريف الديني للأمراض وطُرق التَّعافي منها، على أننا نكاد نقف على ما يشبه الإجماع الغربي على فضل التراث الإسلامي –خاصة منه المتقدم– في التأريخ للأمراض والأعراض المختلفة وطرق الشفاء منها وبالأخص فيما خلَّفه "ابن سينا" و"الرازي" وغيرهما[1]، وقد جمع شُذاذ ما تفرَّق مِن اجتهادات وكتابات في هذا الباب وغيره ممَّا خلَّفه المسلمون مِن كتبٍ ومخطوطاتٍ في الأمراض والأدوية وغيرها من علوم "عبد الله محمد الحبشي" في كتابه "معجم الموضوعات المطروقة"[2] وكتابه الثاني "جامع الشروح والحواشي" ففيهما ما يغني عن تتبع كل ما ألَّفه المسلمون في هذا الشأن، وسنستغني بهما عن ذكر كل ما كُتب وإنَّما سنشير إلى ما رأيناه أهم ما كُتب في هذا الشأن أو ما تخلَّف ذكره في المصنفين السالف الذكر.

وإن عرف ذلك فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما غرضنا من القول فنصرف البيان إلى ذكر أول ما صُنف في التراث الإسلامي في شأن الأوبئة والطواعين، فنقول أنّ أوّل مَن كتب في موضوع بحثنا أو جزء منه على الأقل هو "ابن أبي الدنيا" المتوفى سنة (281هـ) في كتابه "الطّواعين" إذ جمع فيه الأحاديث النبوية الخاصة بالطَّاعون وما ذكر منه، ثمَّ إذا كان وباء عَموَاس[3] أخذ الناس يتلمَّسون الأحاديث النبوية ويجمعونها ويتَّبعون أثرها، حتَّى عدَّد مِنها مُحقق كتاب "بذل الماعون في فضل الطاعون" –لابن حجر العسقلاني– أكثرَ مِن ثلاثٍ وثلاثين مُصنَّفاً في الطَّاعون[4] سنأتي على أهمها لاحقا.

وقبل أن نشرع فيما وعدناه من ذكر كُتب اهتمت بذكر "الطواعين"؛ واحتراماً لتسلسل الزمني رأينا أن نبدأ بما كتب في الأمراض بشكل عام والأوبئة بشكل خاص وأهم ما خُلِّف في هذا الشأن ما صنفه

---

[1] - Berthet Louis : Vaccine et variole contribution à l'étude de leurs rapports, président de thèse professeur Chauveau, laboratoire de médecine et comparcé a la faculté de Lyon J.-B. Baillière, Paris, 1884, P07.

[2] – عبد الله محمد الحبشي: معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما ألف فيها، الدار اليمينة للنشر والتوزيع، د-س، د-ط.

[3] – هو طاعون المَّ ببلاد الشام سنة (18هـ) فقَد خلال المسلمون أكثر من خمس وعشرين ألفا من الصحابة رضوان الله عليهم.

[4] – ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة الرياض، ص 40.

"هبة الله البغدادي" في شأن الأمراض وأصنافها وأعراضها وطرق التّداوي منها، وهو فيلسوف وطبيبٌ عربيٌ توفي سنة (495هـ/1101م) صنف كتاب سمّاه "**المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض**" وقد قام بتحقيقه ونشره الدكتور "محمد ياسر زكور"[1]، والكتاب مِن أبدع ما صُنِّف في هذا الباب؛ إذ يجمع بين دفتيه أشهر وأدق الأمراض التي كانت منتشرة أو معروفة خلال تلك المدُة، ونجد نمط تصنيف الكتاب منتظم في إطار واحد ينطلق دائما مِن التَّعريف بالمرض ثمَّ الحديث عن مُسبباته لينتقل بعد ذلك إلى الأعراض الناجمة عنه، فنجده مثلا يتحدَّث عن "البرص" وعن "الجرب" وعن "الحصبة" و"الجدري" وغيرها مِن أمراض وبائية بشكل دقيق جدا، ثمَّ يصف بعد تعريفها ما لها مِن علاج وكيفيته وتفاصيل إنشاءه واستخدامه، لذا أضحى الكتاب أشبه ما يكون بوصفة طبية شاملة لكل الأمراض، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أنَّ الكتاب بحق موسوعة طبية في زمنه، أو مثلما قال محقق الكتاب :«..إن الكتاب أشبه ما يكون بما نسميه في العصر الحديث (handbook)»[2].

ومما نقف عليه أيضا من مصادر اعتنت بالحديث عن (الأمراض والأعراض) المختلفة في التراث الإسلامي مخطوط عنوانه "الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة" لعبد الرحمن بن محمد البسطيمي[3] ومثل رؤية العوام لطريقة مواجهة الطواعين، فنجد أنّ المؤلف قام بتقسيم مُصنَّفه إلى ستة أبواب، جعل أولها في ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[4] وشرحه وما ورد فيه أو ما جاء متعلقا به، ثمَّ خصَّص الباب الثاني لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا كان الوباء في أرض فلا تخرجوا فرارا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه**»[5] فيما كان الباب الثالث قد خُصِّص فيما ورد في التراث الإسلامي من أدعية تتعلق بالوباء وأدرج فيه ما اشتهر من أحاديث وآثار، وما وجد من رُؤى الصَّالحين في ذلك، وهو في هذا الفصل يورد بإسهال الأدعية التي من شأنها حسبه أن تقي الناس الوباء، إذ يتحدَّث عن ما قبل إصابة المريض بالوباء، كما عدد في هذا الباب الطواعين في التاريخ الإسلامي وجعل منها خمس هي الأكبر والأشد أثرا[6]. ينتقل بعد ذلك صاحب المخطوط للحديث في الباب الرابع عن

---

[1] – أبي الحسن بن هبة الله البغدادي: المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض، تحقيق ودراسة وتعليق محمد ياسر زكور، راجعه عمر فاروق محمد غصن، دار المناهج، جدة، السعودية، ط الأولى، 2011م

[2] – المصدر نفسه، ص 21.

[3] – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (2691) [و/8].

[4] - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/2]

[5] - نفسه، [و/6]

[6] – نفسه، [و/9]

الأعشاب والأدوية التي من شانها أن تعين المصاب على دفع الوباء لكنه أغدق في الكلام عن أنماط الأدعية المختلفة وكيفية قراءتها والتحري في عدِّها وما ثبت منها ليعود للحديث عن منافع الأغذية ك: قشور الرمان، والقثاء، والخيار، وقد استعملت فعلا بعض هذه المواد كأدوية أثناء الطواعين في الجزائر خلال تلك المرحلة ومن يطلع على كشف الرموز سيقف على الكثير منها[1]. مثلما تحدث عن التداوي بالخل والماء في أوقات الطاعون[2]، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنَّ الماء في حد ذاته قد يكون سببا في تفشي الأوبئة والطّواعين[3].

ثُمَّ خُصَّ الباب الخامس للحديث عن الحمى وكيفية علاجها، وإن كان حقيقة أسهب في الحديث كما هي عادته عما يجري على الألسنة من ذكر يذهب الحمى والمرض من أذكار، وقد شرع في هذا الباب من الورقة الخامسة والعشرين تقريبا إلى آخر المخطوط[4].

وفي الحاصل فصاحب المخطوط لم يخرج عن ثقافة عصره وأدوات من قبله، فنجده يعتمد على الكتب الحديثية وأمهات الكتب الطبية كالقانون لابن سينا الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لبن البيطار[5] يركز على إيراد الأحاديث التي تبين طريقة الدعاء عند المرض وسبلها وشروطها.

وعلى العكس مِن الأثر السابق الذي شغلت الأحاديث والمنامات الجزء الأكبر منه، نقف على كتاب آخر في التراث الإسلامي مهم جدا مِن حيث اختصاصه، ومِن حيث رؤيته وتفسيره للأوبئة وإن كان صاحبه قد خصَّه بنوع من الأوبئة دون الأخرى وهو الطَّاعون، لذا كان عنوان الكتاب "كتاب الطَّاعون وأحكامه" لمحمد بن محمّد المنبجي" وقد زاد من قيمة هذا التأليف أنَّ صاحبه كان ممَّن عايش أحد الطّواعين في عصره، ورأى ما حصل بين النَّاس مِن تفشي للاضطراب وكثرة الخرفات، لذا كان الهدف الأصيل لوضعه تأليفه دحض هذه الخرافات وتبيين المنهج الشرعي الحقيقي، مُعتمداً على ما في الآثار والأحاديث النبوية[6] وفي هذا الشأن يقول:«...وكان سبب تأليف هذا الكتاب في الطاعون وأحواله وأحكامه لما رأيت ما أحدث الناس من البدع في طاعون سنة(764هـ) ختمها الله بخير...»[7] وقد تحدث في كتابه عن عن شقين أولها طبي يحمل في ثناياه تحقيق حول مفهوم الطاعون ومنشأه وأسبابه وأعراضه

---

[1] - Iben hamadush : kachef errmouz, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°01, 1873, P44.

[2] - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/13]

[3] - Bolio Antonin :op.cit., P09.

[4] - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/13]

[5] - نفسه، [و/15]

[6] - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: كتاب الطاعون وأحكامه، تحقيق أحمد بن محمد بن غانم آل ثاني، روايا للدراسات والبحوث، دار ابن حزم، ط الأولى، 2017، ص 37.

[7] - المصدر نفسه، ص 69.

والقسم الآخر في الجانب العقدي وما يتعلق به من تفرعات كالدعاء والرضا والأحاديث الواردة فيه وما يجب على المسلم إذا علم بوقوعه أو ارتفاعه من مكان ما، وقد ذكر " المنبجي " وقوع الطَّاعون في أماكن مختلفة من أرض الإسلام وغيرها فذكر تكرره بمصر والعراق والشام والقسطنطينية وغيرها. وهذا المصنف بحق يوضح رؤية فئة كبيرة من علماء الإسلام للطاعون بعيدا عن الهروب إلى التسليم بوقوعه والنكوص إلى الأدعية بدون عمل يأزروها.

كما نقف في تلك المرحلة الزمنية متقدمة أيضا على مؤلف هام في شأن الطاعون لابن حجر العسقلاني عنوانه "**بذل الماعون في فضل الطاعون**" وقد رتبه على خمسة أبواب وخاتمة وفصل قصير، فذكر في الباب الأول مبدأ الطاعون، ثمَّ عرَّف بالطَّاعون وخصص الباب الثالث للأدلة التي تثبت أنّه شهادة للمسلمين ثمَّ تحدَّث في الفصل الرابع عما يتعلَّق بالطَّاعون من أحكام، ثمَّ ذكر في الباب الخامس ما يجب على الناس أيام الطَّاعون[1].

فإن تقرّر فعلا ما تحدّثنا عنه وجب القول أنّ أعلى مرتبة بلغها مَن كَتب في الوباء حينها كان على قسمين: الأول: ويتمثّل في الاحتراز منه، ولا يكون ذلك إلاّ بالابتعاد عنه وعدم الاقتراب من أماكن وجوده كما وردت به الأحاديث النبوية التي أوردها البخاري في قوله: «باب ما يذكر في الطاعون" -وسنعود إليها لاحقا- أمّا الثاني فيكون بالاعتماد على تقوية الجسم بالأغذية والأطعمة التي يُرجى الشفاء بما فيه من منافع.

كما لا يمكن الحديث عن المؤلفات التي عالجت موضوعي الأوبئة والمجاعات في الجزائر دون الإشارة إلى المصنف الذي وضعه حمدان بن عثمان خوجة وعنوانه "إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء" والذي يرى "علي رضا باشا" أنّه إنما يُعدُّ أوّل تأليف في هذا الباب، وقد صنف في الحقيقة من أجل توضيح موقف الشرع من اقتفاء أثر النّصارى في اتخاذ بعض الترتيبات لمواجهة الوباء كالحجر الصحي (الكرنتينة) ولتبيان السبل المعينة على ذلك[2]، لذا عُدَّ الكتاب مِن أهم ما أُلِّفَ في هذا الباب إذا هو زيادة على احتواءه على مباحث فقهية فلم يخلو من إرشادات للوقاية من الوباء أو في حالة أخرى العلاج منه[3].

ومما يعد فيما كتب في شأن الطب والأوبئة ما خلفه محمد ابن العربي، وهو رسالة في الطب والمداوة قدمت إلى المدرسة الطبية بباريس من أجل الحصول على شهادة حكيم، ووردت تحت عنوان" la

---

[1] – ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في فضل الطاعون، ص 44.

[2] - Ali Rıza Paşa : Mir 'atü-Cezayir el veda Cezayir çevirmen : Ali Şevki, Günümüz Türkçe-sine uyarlayan Cahit Kayra, 1. Baskı, Tarihçi kitap evi, İstanbul, Haziran 2014, s81.

[3] – شخوم سعدى : قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد الأول، العدد الأول، جوان 2015، يصدرها مخبر الجزائر والحوض الغربي للبحر المتوسط، ص 281.

"médecine arabe en Algerie[1] وقام بنقلها إلى اللغة العربية علي بوشوشه وقد طبعت مرة أخرى باللغة العربية سنة (1309هـ/1891-1892م) في المطبعة الرسمية التونسية[2].

وقد صرحَّ محمَّد بن العربي أنَّ غرضه من هذا العمل إنَّما إظهار ماكن مُعتمدا لدى الجزائريين عموما والمسلمين خصوصا من خبرات في هذا الفن[3]؛ لذا نجده قد شرع في تبيان ما للمسلمين من فضل وسبق في علم الطب والرياضيات والفلك والآداب والفنون المختلفة في القرون الأولى من حكمهم، فذكر عدد من العلماء في الطب خلال تلك المدة الزمنية من أمثال " عثمان بن سويد الإخميمي" و"أبو علي خالف" طبيب أحمد بن طولون و"موسى بن غسان" وغيرهم من أعيان الطب العربي الإسلامي إلى غاية القرن الخامس عشر الذي يرى فيه المؤلف أن نجم المسلمين بعده قد أفل[4]، لينتقل بعدها إلى للحديث عن واقع الطب في زمانه، ويسهب في التكلم عن الأعراض التي تظهر، وكيف يتعامل معها الأهالي في الجزائر خلال تلك المدّة، وهو بهذا يعطي لمحة لما كان مُعتمدا خلال تلك المرحلة، وهو لم يقدم فيها الشيء الجديد، إذ اكتفى باستعراض ما كان موجودا من أمراض وطرق التداوي منها، فذكر مثلا: الجذام، والرمدة. وتحدَّث عن الكي كأحد طرق العلاج النافعة والمنتشرة بين الأهالي، لينتقل بعد ذلك إلى الطرق الوقائية لحفظ الصِّحة في عمالة الجزائر، والتي كانت امتدادا للعادة السابقة، ثمَّ يذكر بعد ذلك ما لداء الجدري مِن سطوة في البلاد وكيف كان الأهالي ولايزالون مستمرون في رفض التطعيم الذي حاولت فرنسا فرضه للحد من انتشار الجدري[5].

لينتقل بعدها محمد بن العربي إلى الحديث عن الطب من منظوره الشرعي الإسلامي لما يترتب عليه من أحكام في المواريث وغيرها ليس هذا محل بحثها[6].

فإن تقرر ما سبق كنا جديرا بنا القول بأن الأوبئة قد أخذت حيزا هاما في الفكر الإسلامي والتراث العربي، وإن كانت في العصور الأولى لا تخرج عن إيراد الأحاديث النبوية الواردة في الطاعون والوباء وما شبهه، واقتصرت لدى الكثير ممن كتب في هذا الشأن على تصور عام للتداوي كان الطب العملي يأتي في المرة الثانية بعد الجانب الديني من أحاديث مختلفة. وهو ما جعل القصور في التعامل مع الأزمات الصحية يمتد إلى القرون المتقدمة المعنية بالدراسة، ويمكننا أيضا أن نقول أن الجزائريون كدأبهم لم يحفلوا كثيرا بتقيد

---

[1] - Mohamed ben larbey seguir : la médecine arabe en Algérie, thèse pour le doctorat en médecine présente et soutenue le 16 juillet 1884, président M. Béclard, Faculté de médecine de Paris, Année 1884, N°291.

[2] - محمد بن العربي: الطب العربي بعمالة الجزائر، تر علي بوشوشه، المطبعة الرسمية التونسية، 1309هـ.

[3] - Mohamed ben larbey seguir : op.cit., P10.

[4] - Ibid. PP 14-18.

[5] - Ibid. PP 36-37.

[6] - Ibid. PP 50-53.

وتأريخ ما كانوا يمرون بهم من أزمات الصحية أو غذائية خلال العهد العثماني مع الأسف، وكان الاستثناء مع تجرد حمدان بن عثمان خوجة لهذا الموضوع لكنه خاض فيها بعدما خرج من الجزائر واستقر به المقام في الدولة العثمانية.

الكتابات التاريخية حول الأزمات الغذائية والصحية في الاسطوغرافيا الغربية:

أخذ موضوع الحياة الصحية والطاعون بشكل خاص حيزا هاما في الثقافة التدوينية والتقييدية لدى الطرف الغربي منذ القدم مما لا يسعنا الإحاطة به في مقامنا هذا، وإذا تقرر هذا انتقلنا مباشرة للحديث عن المرحلة القريبة زمنيا من موضوع بحثنا، فقلنا أنَّ الكتابة في هذا الفن قد تجددت في الثقافة الغربية بداية من القرن الثامن عشر، لذا نقف على عدد معتبر مِن الباحثين أو المقيمين في الجزائر أو المشتغلين على مواضيع تخصّ إيالة الجزائر خلال العهد العثماني قد أفردوا جزء مهم من مؤلفاته للحديث عما لاحظوه من هذه الظواهر التي ظلت منسية في الثقافة التدوينية المحلية. بل نجد العديد من الكتابات –خاصة منها كتابة الرحالة والرهبان والأسرى- قليلا ما يفوتها الإشارة إلى وجود الطَّاعون أو الوباء، كما نجد عددا قليل من الباحثين أو الهواة قد أفرد هذا الموضوع بتصنيف أو أكثر.

لكن الأمر لم يكن سيان في الجزء المتعلق بموضوع المجاعات إذ نجد التأليف خلال المرحلة محل الدراسة نادرٌ وقليل، خاصة إذا ما تعلَّق بإيالة الجزائر على وجه التحديد، فلا نقف إلاَّ على نزر قليل من الدراسات الغربية في هذا الجانب، لعل أهمها: محاولة التأريخ للمجاعة التي ضربت الجزائر في بدايات الاحتلال الفرنسي وكانت تحت مُسمَّى:" La famine en Algérie et les discours officiels" لكنها عالجت بشكل خاص تلك المجاعة التي ألمت بالجزائر (1848م)[1] مثلما نقف في دراسة لـ(Dauban) دوبان عن تاريخ مدينة باريس تخصيصه لحيز هام أورد فيه المجاعات التي أصابت المدينة وأثارها المدمِّرة عليه وتسببها في هجرة العديد مِن سكان المدينة، وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان:" "Paris en 1794 et en 1795 : histoire de la rue, du club, de la famine والدراسة كاملة وردت في حوالي ستة مائة صفحة(600) ضمن بنية واحدة لم تفرق بين الجزئيات المتناولة بالدراسة[2]

[1] - La famine en Algérie et les discours officiels. Erreurs et contradictions. (12 Avril 1868), Éditeur **Marle**, Constantine, 1868.

[2] - Dauban, Charles-Aimé : Paris en 1794 et en 1795 : histoire de la rue, du club, de la famine, composée d'après des documents inédits, particulièrement les rapports de police et les registres du Comité de salut public, Éditeur Plon, Paris, 1869.

وإذ قد ظهر لنا قلة من جنح للكتابة في موضوع المجاعات ضمن الاسطوغرافيا الغربية فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من هذا المبحث لنتحدث عما كتب عن الأوبئة والطواعين خلال المدة الزمنية محل الدراسة، ويمكننا تصنيف ما خُلِّف مِن كتبٌ في موضوع "الطَّاعون والأوبئة" أو "الأمراض المعدية و ما تعلَّق بها وما كان على شاكلتها" مِن حيث التسلسل الزمني لهذه الدراسات على الشكل التالي:

وقبل أن نشرع فيما وعدناه من ذكر كتب مختصة في شأن "الأوبئة والمجاعات" رأينا من الأهمية ذكر أحد المصادر الأساسية الغنية بالمعلومات المتعلقة بالأوبئة والمجاعات، ولو أنَّها أوردتها بطريقة غير مباشرة، إلا أن وقد اعتمدنها في هذه الدراسة بشكل كبير وهي ضمن مجموع بعنوان " Mémoires de la congrégation de la mission" جاء هذا العمل ضمن كتاب جامع من ستة مجلدات شُرع في نشرها في فرنسا سنة (1865م) ثم ألحق بهذه المجلدات مجلدات أخرى وصل عددها سنة (1867م) إلى تسع مجلدات.

الأمر الذي يعنينا نحن ضمن هذا المجموع هو ماورد في المجلد الثالث والذي خُصّصَ لتناول مهام المبشرين والرُّهبان الذين كُلِّفُوا بأمور معينة في كامل أرجاء منطقة شمال إفريقيا، تضمَّن هذا المجموع العديد مِن الشهادات المختلفة لمن عايش القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في إفريقيا عموما وفي شمالها على وجه التحديد.

نقف في ثنايا هذا المجموع على العديد من التقارير والمذكرات التي كان يرسل بها المبعوثون من الآباء والرهبان إلى السلطات الرسمية ممثلة في الخارجية الفرنسية أو القنصلية الفرنسية في الجزائر أو كان يرسلها بعض المبعوثين إلى أصدقاءهم، كما وجد ضمن نفس المجموع ما ظل كمسودات لمذكرات خاصة بأصحابها ثمّ نشرت ضمن هذا المجموع، وهنا تجدر الإشارة إلى الكيفية التي كان يتعاطى بها كُتَّاب هذا المجموع مع موضوع الأزمات الغذائية والصحية في الجزائر خلال الفترة المعنية بالدراسة (1700-1830م)، كما هو معلوم أنَّ الأزمات لدى ظهورها لم تكن تستثني فئة بعينها حتَّى هؤلاء الرهبان فإنَّهم كانوا معنيين بشكل ما، وفي الكثير من الأحيان يصبح الأمر معنيا بهم بشكل مباشر، إذ الكثير منهم كان عملهم ضمن مجموعة العناية بالأسرى الأوربيين في الجزائر، أو كانوا ضمن المتطوعين في المستشفى الأوربي ما يجعلهم في الكثير من الأحيان ضمن الأزمة أو طرفا فيها، ويصبحون حينها شهودا على ما جرى خلالها، وقد تتطور حالهم ليضحوا ضحايا لها؛ إذ كثيرا ما كانت المستشفيات سببا في تفاقم ونقل عدوى الوباء أكثر من الأماكن المفتوحة[1].

[1] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur : V. Rozier (Paris), 1867, P23.

وإذا عرف هذا وجب أن نضيف ما يجعل هذه المذكرات ذات أهمية بالغة، وهو أن العديد مِن هؤلاء الرُّهبان ذكر في يومياته تفاصيل ما قد حدث أثناء الوباء الذي كان شاهدا عليه، من ظهور الوباء إلى دخوله إلى توطُّنه إلى تفشيه، ومنهم من ذكرها عرضا في الحديث عن أحد الرهبان أو حالة الأسرى أو وضعية الساكنة. فنقف على سبيل المثال ضمن إحدى المخطوطات التي قيدها الأب (Vicherat) على حيز هام خُصّص لمعلومات عن الوباء الذي ألمَّ بالجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1786م-1787م)[1]. وقد وفد الأب (فيشرا) إلى الجزائر على ما يُذكر في مصنفه يوم الخامس من شهر جانفي سنة (1782م) وظل بها إلى غاية شهر مارس من سنة (1798م)[2]، استطاع بدون شك خلال هذه المدّة الطويلة من إقامته التّعرف على تفاصيل الحياة بشكل عام، وبالأخص ما يتعلق بالحياة الطبية خاصة منها المتعلقة بفئة الأسرى والساكنة المحلية، وهو ما أتاح له وضع تقيّد كان في جوهره مميزا بشكل كبير من حيث الكم والكيف والمعلومات التي أوردها.

تكمن أهم المصدر في كونه تناول العديد مِن الحيثيات، إذ تحدّث عن: ظهور الوباء في الجزائر، وانتشاره من مكان إلى آخر، كما استرسل بعد ذلك في ذكر ما أصاب الأسرى المسيحيين فيه، وعدد الضحايا بينهم، ومدى تأثيره على الحياة العامة لسكان المدينة. فنجده يضرب الأمثلة عن الحالة التي اضطرّ معها العديد من التُّجار إلى الهروب إلى منازلهم وإغلاق محلاتهم خوفا من وطئة هذا الوباء، كما تحدّث عن الأثر البارز لهذا الوباء في النمو الديمغرافي، ومدى تأثر الفئات المختلفة به، إضافة إلى إشارته المختلفة إلى الاحتياطات التي كان يتّخذها بعض الآباء والرهبان إلا أنه لم يشر إلى مدى نجاعة ما اعتمده الآباء والرهبان في التخفيف من حدة وأثر الوباء -على الأقل- بين الأسرى المسيحيين خاصة في ظل وجود من يعتقد أن المستشفيات في حد ذاتها كانت حاضن وناقل جيد للوباء[3]، لكنه استدرك ذلك وأشار إلى أهمية وجود المستشفى الأوروبي في مدينة والكيفية التي تعامل بها مع هذه الأزمة، مُضيفا إلى ذلك عدد الضحايا ومدى تأثُّرهم بالأحداث الجارية[4].

فإن تقرَّر هذا فعلا كان جديرا بنا أن نَعدَّ هذا الفصل -الذي أفرده الأب (فيشرا) في مذكراته- من ضمن أحد أهم المصادر الغربية (الفرنسية) الأساسية التي تناولت الطاعون في الجزائر خلال تلك المدة، وعلينا أن نصرف القول إلى أنّ الاطلاع على المصدر الذي خلفه الأب (فيشرا) على صغر حجمه عند التّأريخ للأزمات الصحية التي مرَّت بها الجزائر خلال العهد العثماني أمرا واجبا وفرض عين؛ لما يورده من

---

1 - Jean Claude Vichert : Pestes de 1786 et 1787. Dans : M.C.M, Tome 3, PP (559-568).
2 - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T P220.
3 - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P23.
4 - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568).

معلومات ومعطيات جعلت الكثير من الدراسات الغربية ترجع إليه وتعتمد عليه، مثلما نقف عليه عند كل من "كونر " و" مارشيكا " وغيرهما.

على أنّ مَن تأمّل ما ورد في هذا المصدر عليه أن يدرك أنّه لا يخلو من بعض النقائص التي تعتريه، إذ كثيرا ما نقف على أحكام قاسية تصدر من "فيشرا" باتجاه السُّكان كما سيأتي ذكره والتعليق عليه في موضعه.

كما لم تخل تفسيراته بدورها من النظرة الدينية التفسيرية للأحداث؛ إذ كثيرا ما اعتبر ضربات الأوبئة أو ما انجر عنها أو ما وقع في الجزائر من شُحٍّ للأمطار وقحط الأرض إنما هو في الأصل عقابٌ ربانيٌّ سُلِّط على سكان هذا البلد بسبب ظلمهم وجبروتهم؛ وإذا عُرف هذا فمن الواجب على من اطلع على هذا المصدر التاريخي أن يفرق بين ما هو معطيات عددية تاريخية وبين ما هو أحكام ونتائج تقريرية دينية، وإذا تحقق لنا فهم هذا علينا أنّ النتائج التي وصل إليها فيشرا واستعرضها مع كونها على غاية كبيرة من الأهمية تحتاج إلى تنقيتها وتنقيحها من الشوائب العقدية التي تصاحب هكذا تفسيرات.

مثلما يقع في نفس المجموع الذي نحن بصدده أي: " Mémoires de la congrégation de la mission" مجموعة من التقارير الهامة جدا من ذلك التقرير الذي بعث به السيد "باسو" (Aarnolt Bossu)[1]، ويورد فيه معلومات مهمة عن الأوبئة والطواعين وظهورها سنوات (1752،1753،1756م) [2] لم يخلو التقرير من معلومات عديدة عن الكيفية التي كانت تنتقل بها الأوبئة من مكان إلى آخر وطريقة انتقالها، كما تحدّث عن الاحتياطات التي اتخذتها الكنيسة، والمستشفى الأوربي في مدينة الجزائر لمواجهة خطر الوباء كل مرّة، مثلما تكلم عن قلعة "الباسيتيون" وكيف كانت تتَّخذ الإجراءات المختلفة للوقوف في وجه انتشار الوباء، وعلى هوامش التقرير كان يشير إلى التأثيرات المختلفة للأوبئة في مدينة القالة، وأسلوب تعامل وكيل الشركة الإفريقية في المدينة مع ذلك[3]، بل ونقف بطريقة غير مباشرة على الاهتمام البالغ بإعطاء تقارير دورية عن الحالة الصحية في مدينة الجزائر من خلال ما أورده الأب في الرسائل المتبادلة مع القنصل الفرنسي العام في مدينة الجزائر، والإشارات المختلفة إلى مدى التأثير البارز الذي أحدثه انتقال الأوباء وتفشيها بين السكان على الحياة التجارية والعلاقات الاقتصادية للإيالة

---

1 – Aarnolt Bossu : أحد الرهبان الفرنسيين الذين أقاموا بين إيالتي تونس والجزائر، وقد وفد إلى الأخيرة في السابع من شهر ماي سنة (1733م) وعاد إلى موطنه في بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

2 - Arnoult Bossu : Rapport de M. Bossu sur l'Église d'Alger 1749 M.C.M, Tome 3, P190.

3 -Ibid.

مع الدول المجاورة والممالك الأوروبية، كما تكلّم عن مدى تأثر الأسرى المسيحين بوجود الوباء من عدمه في الإيالة.

وإذ قد ظهر لنا أهمية بعض المذكرات والتقارير الموجودة ضمن المجاميع الغربية الكبرى فمن الواجب أن نعود الآن إلى ما هو غرضنا، و لا يكون ذلك إلاّ بالحديث عن الدّراسات والمراجع المتخصّصة أو تلك التي اعتنت فعليا بمادة الأوبئة والطواعين، وإذ عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول فنقول أنّه تأتي على رأس مجموعة مهمة من المذكرات الخاصة التي وضعها الأطباء في أمراض وبائية بعينها، ما وضعه غراندميسون (Grandmaison) و(Emmanuel Gabriel)حول وباء الجدري(La variole)[1]، فجاء البحث بشكل مُفصَّل حول ظهور هذا الوباء، ومكانته في التاريخ، والطُرق التي عُرف بها في الثقافات القديمة، ثمّ تحدَّث عن أعراضه ومحاولات الثقافات المختلفة التَّصدي له، وقبل ذلك تحدَّث عن اللقاحات والتَّطور السريري لهذا الوباء، والفئات التي يستهدفها، وانتقال العدوى فيه من شخص إلى آخر، ذاكرا أنماط الجدري وأنواعه المختلفة، ومدى تأثيره على الفئات المتباينة وأسباب تطوره المستمر[2]، فإن تقرَّر فعلا وجود كل هذه المعطيات كان جديرا بنا اعتبار هذا العمل أحد الأعمال الأساسية التي تُؤرّخ لأحد الأوبئة المهمة التي نحن بصددها، إلاّ أنَّ هذه الدراسة تبقى بالنسبة لما نحن فيه دراسة متخصصة لكن خارج الحيز الزمكاني الذي ننشده، إذ أنّنا نسعى هنا إلى الحديث عن تلك الدراسات الجامعة التي تجاوزت الحديث عن وباء بعينه إلى الحديث عن تأثيرات الأوبئة بشكل عام على الحياة الإنسانية، وإن كان مجال بحثنا مخصص بحيز جغرافي معلوم هو إيالة الجزائر.

ولا يمكن الحديث عن الإسهامات الغربية في التأريخ للأزمات الصحية دون الحديث عن الدكتور بيرتران (Bertherand) الذي كان يشرف على المجلة الطبية الجزائرية[3]، وله عدد كبير من المساهمات الكتابية خارجها لعل من أهمها "Médecine et hygiène des Arabes" وترجمتها "الطب والنظافة عند العرب "، وقد تناول فيها البحث العديد من الأمور الهامة التي لها علاقة وطيدة بالطب والأمراض الوبائية، وصدرت هذه الدراسة في خمسينات القرن التاسع عشر[4]، ركّزت بشكل خاص مثلها مثل باقي الدراسات

---

[1] - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand : op.cit.
[2] - Ibid. P82-114.
[3] - E.L Bertherand : Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893.
[4] - Bertherand Émile : Médecine et hygiène des Arabes : études sur l'exercice de la médecine et de la chirurgie chez les musulmans de l'Algérie, Éditeur G. Baillière, Paris, 1855.

التي أعدها بيرتران على المسلمين الجزائريين، مُتحدِّثا عن التراجع العميق في المعارف الطبية ضمن المدن ناهيك عن القرى والأماكن الداخلية[1].

ولعل ما أعطى لأبحاث الدكتور بيراتن الزخم المعرفي هو كون الرجل طبيبا مُختصّاً ومهتما بالتاريخ فنجده اشتغل بجدية في إدارة المجلة الطبية الجزائرية، وله عدد محترم جدا مِن الأبحاث المنشور في تلك المجلة وغيرها، اعتنى غالبا بموضوع الأوبئة والعدوى والأمراض والطب في الجزائر.

وإن كانت معظم جهوده تنصب على الجانب العملي أكثر منه تأريخي، وهذا يتجلى في تركيزه في أعماله على توجيه النصائح والبدائل، ورصد الأمراض والأوبئة في الجزائر خلال الخمسين سنة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر. وبالتالي فهو لم يكن يسعى إلى التأريخ بشكل مباشر لهذه الأزمات الصِّحية، وهو ما يعطي أعماله نوعا آخر من الأهمية، فاهتمامه بهذا الجانب جعل دراساته وحتى المجلة التي أشرف عليها تزخر بالإحصائيات والتقارير الرسمية المختلفة في هذا الشأن.

وإن قد أظهرنا جوانب جنحت لها بعض الدراسات العامة مثل مجموع Mémoires de la congrégation de la mission" وبعض الأعمال المتخصصة كأعمال (Bertherand) في المجلة الطبية لكنها ظلت بُعيد المرحلة الزمنية التي نتدارسها (1700-1830م) لذا وجب أن نعود الآن إلى غرضنا وهو الكتابات والدراسات الغربية المهتمة بشأن الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال المرحلة الزمنية الممتدة خلال كامل القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر(1700-1830م) ، ولعل مِن بين أهم الدِّراسات في هذا الباب:

تلك المذكرة التي وضعها بير بروجر وهي بعنوان "Mémoire sur la peste en Algérie " وتكمن أهميتها في شقين أساسيين، أولا: من حيث كونها أوَّل ما صُنِّف في شأن الأوبئة والطواعين في الجزائر خلال العهد العثماني. ثانيا: من حيث أهمية ونوعية المصادر المحلية والأرشيفية التي استعان بها بير بروجر.

وقد جاءت هذه المذكرة ضمن كتاب " exploration scientifique de L'Algérie"الاستكشاف العلمي للجزائر" وكانت المذكرة بنفس عنوان المخطوط الأصلي الموجود ضمن المكتبة الوطنية الجزائرية وهو كما مرَّ ذكره "Mémoire sur la peste en Algérie"

تتبع بير بروجر "الأوبئة" خلال هذه المذكرة بشكل زمنيّ دقيق، مُعتمداً في ذلك على النسق الحولي ، فشرع أولا في الحديث عن الأوبئة منذ بداية الوجود العثماني في الجزائر والإعلان عن الإلحاق

[1] - Bertherand Émile : op.cit., P38.

بالدولة العثمانية، فكان أوّل الأوبئة التي أشار إليه في دراسته هو وباء سنة (1552م) واكتفي حينها بالقول أنّه أقدم وباء ضرب المنطقة خلال العهد العثماني، وكان في عهد " صالح ريس باشا "[1]، كما لم يترك سنة اشتبه في وجود الوباء بها إلاّ وقد أشار إلى ما يدُّل على أثره، فلم يغفل إلاَّ القليل مِن السنوات التي فاته الإشارة إليها. ونجده يشير إلى الوباء بذكر من مات فيه من الأعلام أو يكتفي بذكر أنه قد ظهرت وفيات في منطقة ما بعينها خلال هذه المدة.

ذكر خلال النصف الثاني مِن القرن السَّادس عشر حوالي خمسة أوبئة في الجزائر مُقتصراً في ذلك على الاكتفاء فقط بذكر السَّنة ومن مات أو من كان حاكما خلالها في إيالة الجزائر[2]، ولعلَّ هذا راجع بشكل كبير إلى شُحِّ المادة التاريخية التي تُؤرِّخ للأزمات الصِّحية خلال تلك المرحلة.

ثمَّ نجده يوسع بعض الشيء الأمر خلال القرن السابع عشر فيتناول بالحديث ذكر قرابة تسعة عشر وباء أو طاعونا مس الإيالة بشكل من الأشكال، وقد اكتفى بذكر ستة عشر وباء دون أن يبرز أي شيء مُتعلِّقٍ به، سواء من الناحية الديموغرافية أو النواحي الأخرى، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ هذه المذكرة تظهر وكأنها قُيِّدت على عجل لغرض شخصي أكثر منه لغرض النشر، ولا يمكننا القول أنَّها كانت مُسودَّة؛ إذ أن معظم ما ورد فيه جاء مبيضا لا نجد فيه التداخل وعدم التنظيم وإن كان هذا يفتح باب النقاش حول إمكانية أن يكون (بير بروجر) وضع هذه المذكرة كتمهيد للكتابة فيها لاحقا بشكل مُفصَّلٍ.

ليأتي للحديث في القرن الثامن عشر على قرابة العشرين وباء ضرب مدينة الجزائر أو إحدى مدن الإيالة، ويُفصِّل في بعض الأوبئة، بينما يجمل الحديث في الأخرى، فنجده يفصل الحديث في الوباء الذي ضرب تونس سنة (1784م) وانتقل منها إلى الجزائر في السنة الموالية أي سنة (1785م)، وكان الغرض من عرض الوباء ومساره وآثاره في تونس سنة (1784م) في سياق الحديث من أجل تتبع الأثر الذي سيلحقه ومقارنة شدَّته مع شدة نفس هذا الوباء لما يظهر في الإيالة وهو ما حدث فعلا.

فنقف على مناقشة "بير بروجر" لفكرة انتقال الوباء من تونس أو وفوده من مكان آخر غير تونس، خاصة إذا علمنا أنَّه انتشر في كل المناطق المحاذية للجزائر، فيتحدَّث عن ظهوره وامتداده ومدى تفاعله مع العناصر السكنية في الإيالة، وشدَّته في كلَّ مِن مدينتي "الجزائر" و"بونة"، ومدى قدرته على القضاء على الساكنة في المدينتين، وأشار إلى نتائج عدم الاهتمام بالضوابط الصحية على الحياة العامة للناس، كما صوَّر

---

[1] - Adrien Berbrugger : Mémoire sur la peste en Algérie, dans exploration scientifique de L'Algérie, sciences médicales, imprimerie Royale, Paris, T2.P 206.

[2] - Ibid. P 205.

المحاولات اليائسة التي بادر بها "صالح باي" حاكم بيلك قسنطينة من أجل تخفيف أضرار هذا الوباء الذي اشتدَّ بالفعل أثره.

وقد اعتمد "بير بروجر" في هذا الشق مِن المذكرة -عند كلامه بالتفصيل على الوباء الذي ضرب إيالة الجزائر سنة (1785م)- على المراسلات الرسمية بين وكيل الشركة الإفريقية بمدينة "بونة" والقنصل الفرنسي العام بمدينة "الجزائر" بشكل أساسي للاستدلال بها على ما يراه صواب.

أما ما يعاب على "بير بروجر" في هذا الأمر أنّه جعل ما ورد في هذه الرسائل حُججا تكاد تكون قطيعة، في حين أنَّ بعض هذه المراسلات كانت تتحدَّث بشكل عام وتستعرض الوباء بشكل هامشي فقط؛ لا يرقى معها الأمر لتُؤَسَّسَ عليه آراء قطعية بالشكل التي يوردها "بير بروجر" وقد اطَّلعنا على بعض المراسلات الموجودة ضمن الأرشيف الوطني الفرنسي ضمن مجموع وثائق الشؤون الخارجية داخل علبتين أساسيتين هي [AE/B/III] Compagnie d'Afrique. 1745-1791 والعلبة الثانية هي [AE/B/I] وهي مجموع المراسلات وصلت أرشيف رئاسة الوزراء الفرنسي من القناصل الفرنسيين في الجزائر Correspondance reçue du consulat d'Alger وقد حاولنا التنبيه على بعض ماورد فيها من شبه أخطاء أثناء مناقشتنا للآراء المختلفة وترجيحنا لأحدها في المتعلقات الأساسية لرسم صورة ظهور الوباء وتفشيه أو انحصاره وأثاره في المطلب المتعلق بكرونولوجيا ظهور الأوبئة والمجاعات لذا ضرب الذكر صفحا عنها هنا منعا للتكرار غير المجدي.

يستمر "بير بروجر" في نفس السياق وبنفس النمط عند حديثه عن الأوبئة التكرارية التي تلت هذا الوباء، فيتحدّث بإطناب عن تجدُّد الوباء في الجزائر سنة (1786م) بنوع من التفصيل، ويشير إلى السعي الدؤوب الذي سلكه "صالح باي" لمنع دخول الوباء إلى بيلك قسنطينة وفشله في ذلك، ثمّ يعود للحديث عن الضحايا وأعدادهم وانكماش أثر الوباء نتيجة ارتفاع درجة الحرارة، لكنّه يمر عليها سريعا فلا يدرس تأثير ارتفاع درجة الحرارة فعليا على النشاط الوبائي، مثلما لا يحاول أن يسوق الأمثلة المختلفة عن تأثير ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها في النشاط الوبائي، كما أنَّه يعطي أرقام عامة وتعبير أدبية عن الحالة السائدة في الإيالة خلال تلك المرحلة، وإن حاول في بعض الأحيان تدارك ذلك بالاستئناس بالوثائق المهمة التي وقعت تحت يديه. وهو ما يحملنا على أن نجد له عذرا في ذلك، إذ أنّ الرجل لم يسع إلى التحليل والتفكيك بقدر ما هدف إلى التوصيف وتقريب الحالة التي كانت سائدة خلال مرحلة زمنية ما.

وبنفس الكيفية يواصل "بير بروجر" التعاطي مع الأوبئة خلال الخمس سنوات الأولى من تسعينات القرن الثامن عشر(1790-1795م)[1] وكأنه يريد التركيز على هذه المرحلة دون غيرها، إذ نجده يلجم البحث في الفترة الأخيرة من الوجود العثماني في الجزائر أي الربع الأول من بداية القرن التاسع عشرّ، ولعل الأمر منطقي من حيث كون الأثر الكبير والبارز الذي تركته المرحلة الممتدة من سنة (1784م) إلى غاية (1795م) من حيث كونها شهدت عدد من الأوبئة القوية والتي انعكست بشكل كبير على مختلف المجالات الحياتية لدى الفئات المختلفة ضمن الإيالة.

على أن حجم هذه المذكرة التي وضعها بير بروجر ألزمه ذلك إذ نجدها لا تتجاوز سبعا وعشرون صفحة لا غير، وهذا غالبا بسبب طبيعة الموضوع المتناول في هذه المذكرة أي الأوبئة إضافة إلى ندرة المادة العلمية المتعلقة بيها وتوزعها بين مجالات شتى، جعلت ما قدمه بير بروجر على صغر حجمه متنا أصيلا في بابه ومعظم ما أتى بعدها من محاولات في هذا المجال أي في البحث في موضوع الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني كان عيالا عليه.

وإذ قد أتينا على ذكر مجمل ما يتصل بمحاسن هذه الدراسة وجب الحديث عن بعض ما يشوبها من نقائص، ولعل أهمها حسب اعتقادنا هو اقتصار بير بروجر في الشق المتعلِّق بظهور الأوبئة وكيفية دخولها الإيالة الجزائرية على الأوصاف وإيراد المعلومات المستقاة من المصادر المختلفة دونما الإشارة إلى ذلك التعارض والتناقض الذي كثيرا ما وُجِد بين المصادر والمراجع، بل عدم وجود أي إشارات لما كان يراه "بير بروجر" أنسب أو أصحّ، لذا كثيرا ما يتلبس بلبُوس الناقل، لا المؤرخ المحلِّل للوثائق والمعطيات التي يملكها.

لكن ما ذكر مما لا ينقص من قيمة العمل الذي قدمه بير بروجر شيئا، إذ تبقى هذه المذكرة التي بعنوان "Mémoire sur la peste en Algérie" أحد المصادر الهامة جدا في التأريخ للأزمات الصَّحية التي مرَّت بالجزائر خلال العهد العثماني، وتجاوزها في البحث في هذا الموضوع يعد نقص في حق أي بحث، لذا نجد كل من "غيو" و"مارشيكا" يستعينان بها كثيرا ولا يستغنيان عنها، والمعلومات التي فيها غالبا ما تناقلتها وفصلتها الدراسات اللاحقة لها، وهو ما حملنا على الاستئناس بها في دراستنا هذه وجعلها أحد الأركان الأساسية لجمع المعلومة.

ليأتي بعد هذه الدراسة من حيث الترتيب الزمني البحث المستفيض الذي وضعه الدكتور (Guyon) غيو، ولعل هذا العمل يعد بالفعل اللبنة الأساسية الأولى في التأريخ العلمي المنهجي للأزمات

---

[1] - Ibid. P 228-222.

الصحية في بلاد المغرب قاطبة لا في الجزائر فقط، وقد جاء تحت عنوان " Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique " "تاريخ الأوبئة في شمال إفريقيا"[1]

استطاع من خلاله "غيو" تغطية فترة طويلة من تاريخ الأوبئة في شمال إفريقيا، امتدت هذه الفترة من ما قبل الميلاد إلى غاية الربع الأوّل مِن القرن التاسع عشر، وبالتحديد بالنسبة لإيالة الجزائر إلى غاية (1822م) بحيث أُرّخ لآخر الأوبئة بتلك السنة[2]، بينما العنوان المرفق للكتاب يتحدّث عن جرد للأوبئة في بلاد المغرب الكبير أو شمال إفريقيا إلى غاية اللحظة الراهنة والتي كان من المفترض أن تمتدَّ إلى حدود سنوات (1855م) وهي السنة التي ضُبِط ونُقّح فيها الكتاب وقدِّم للنشر، وبالتالي فقد أهمل تلك الأوبئة التي ضربت الجزائر أثناء الحملة الفرنسية عليها، أو أثناء محاولات الجيش الفرنسي التوسع باتجاه الناحية الغربية من الجزائر في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر.

يشرع صاحب الكتاب في الفصل الأول في التأريخ للأوبئة في منطقة الشمال الإفريقي قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وتحدَّث عن الأوبئة الشديدة التي كانت تضرب قرطاجة المركز الحضاري لبلاد شمال إفريقيا خلال تلك المدة[3]، ثمَّ عقد مبحث آخر عن تلك الأوبئة التي ظهرت في بلاد الشمال الإفريقي قبل القرن الخامس ميلادي وحاول تتبعها إلى غاية بداية التاريخ الميلادي ما جعله يرصد لها ثُلث الكتاب تقريبا أي حوالي (112صفحة)[4].

فلمَّا استوف ذلك انتقل إلى المرحلة الزمنية اللاحقة لهذا الحيز الزمني، وشرع في الحديث عن الأوبئة خلال القرن الأوَّل وما لحقه، مُتّبعاً في ذلك نفس النسق الذي اتبعه في الفصل الأول من التسلسل الزمني لهذه الأمراض ودراسة تأثيراتها السوسيوقتصادية. والملاحظ أنّ الباحث حاول في الكثير مِن الأحيان تحميل مسؤولية انتشار الأوبئة إلى السكان الأصلين، وهو انحياز واصطفاف إيديولوجي أكثر منه علمي، إلى جانب التفسيرات التي استخدمتها الدراسات الغربية التي تجعل من السلطة الاستعمارية الرومانية فوق غيره من المجتمع داخل المغرب القديم. وهذا لا يحجب الجهد الكبير الذي قام به الباحث مستعينا في ذلك بشكل كبير بإيراد المصادر المادية والكتابية التي أرَّخت لهذه الأزمات، لكن ما يعاب على "غيو" مع عمله الضخم في الفصلين الأولين هو مبالغته في إيراد المعلومات أو مصادرها دون التعاطي معها بنوع من النقد أو محاولة تحليلها تحليلا منطقية، ما جعل هذا الفصل يصبح فصلا سرديا بامتياز، بل وهو ما انعكس على الكتاب ككل، فأضحى تقيد للأوبئة أكثر منه دراسة لها.

---

1 -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P401.

2 -Ibid. P401.397.

3 -ibid. P01.

4 -ibid. 01-113.

وقد رصد لتاريخ الأوبئة خلال الحكم المسيحي للمنطقة قرابة الأربعين صفحة تناول فيها تقريبا أهم الأوبئة التي ظهرت وكان لها أثر في التاريخ العام للمنطقة، لينتقل بعد ذلك ابتداء من الصفحة (157)[1] إلى التأريخ للأوبئة التي ظهرت خلال التواجد العربي الإسلامي في المنطقة، وحرَّر العديد مِن الآراء حول كيفية وصول بعض الأوبئة عن طريق التجارة والتبادلات المختلفة بين المنطقة الشمال إفريقية وغيرها من المناطق.

ثمّ أضحى بعد ذلك يتناول وجود الأوبئة المختلفة داخل مبحث مُقيَّد بقرن (مائة سنة) من الزمان، فيورد في كل قرن من القرون ما ظهر فيه من خبر الوباء أو اشتبه في وجوده وكيف امتد إلى أماكن أخرى وعدد ضحاياه إن كان مقيدا بشكل ما.

أمّا المرحلة التي تعنينا بالفعل ضمن الكتاب الذي صنفه "غيو" في شأن الأوبئة والمجاعات فهي المرحلة الحديثة من تاريخ الإيالة الجزائرية، أو بالأخصّ تلك المعلومات التي وردت في هذا البحث ولها ما يربطها مع موضوع دراستنا أي "الأوبئة والمجاعات في الجزائر (1700-1830م)" خلال العهد العثماني، يستهلها صاحب الدراسة بالحديث عن أول وباء ضرب الجزائر خلال العهد العثماني، والذي يرجع حسب رأيه إلى سنة (1542م) أي في مرحلة حكم "حسن آغا"[2]، وقد حرص صاحب الكتاب على حشد العديد من المصادر وإيرادها في بعض الأحيان بألفاظها. ونجد هذا الجزء أي المرحلة المتأخّرة مِن الدراسة قد خُصَّت دون غيرها بالعديد من التفاصيل الكثيرة والمهمة.

فنجد صاحب الكتاب أثناء تتبعه الكرونولوجي للأوبئة يستعرض: انتقالها مِن مكان إلى آخر في المنطقة، كما يتناول بالحديث العلاقة بين ظهورها في حيز ما وامتدادها أو تجاوزها له إلى مناطق أخرى، إضافة إلى ذلك فلم يفته أثناء حديثه عن الأوبئة الإشارة إلى بعض الحيثيات والإجراءات التي كان يقوم بها الحكام أو بعض المؤسسات المهمة في الأقطار المختلفة، وإن كان في كل هذا يُقصد جميع بلاد شمال إفريقيا من طرابلس الغرب إلى المغرب الأقصى غير أنّ توهُّم هذا قد يؤدي إلى اعتبر الكتاب قد تناول الأوبئة في جميع هذه المنطقة بنفس الشكل، بيد أنَّ ما نقف عليه هو غير ذلك، إذ نقف على تركيز كبير للكاتب إيالة الجزائر، ثمَّ إيالة تونس، وقلَّما تتبع الأوبئة في المغرب الأقصى وليبيا، وليس يُشكُ عند مَن دقق النظر في الدراسة وتأمَّل بعين الناقد لها درجة الاهتمام البالغ والكبير التي يوليها صاحب الكتاب لإيالة الجزائر، لذا نجده يُركِّز بشكل كبير على الإيالة الجزائرية ثمّ يَستعرض بعد ذلك -كما مرَّ ذكره- ما تعلَّق بالإيالة التونسية ودولة المغرب الأقصى فيما ظلَّت طرابلس الغرب تُذكر كلَّ مرَّةٍ على استحياء.

---

1 -ibid. P113-157.
2 -ibid., P 206.

وبالتالي فنحن مُضطرُّون إلى أن نصرف البيان في تحقيق سبب رُجحان كفة الميزان لإيالة الجزائر دون غيرها في هذه الدِّراسة، وهو في نظرنا لا يخرج عن سببين اثنين: الأوَّل سبب موضوعي يتمثَّل في أنَّ الأوبئة قد تغلَّبت فعلا في الإيالة الجزائرية لذا جُعِل ذكر أي وباء مبدأه ومنتهاه غالبا مُتعلّقاً بالجزائر، وهذا أمر نسبيٌّ، إذ كثيراً ما ذُكِر وجود أوبئة متزامنة وكانت الإشارة إلى ما هو خارج حدود الإيالة إشارة عرضية مرتبطا بالأساس بما يحدث داخلها، ولا يعالج جوهر الوباء ومساره وتجلياته وانعكاساته.

وأمَّا سببٌ ثان ذاتيٌّ يتمثَّل في كون صاحب الكتاب الذي بين أيدينا، أي: الدكتور "غيو" من حيث كونه يعمل كمفتش في مصلحة الصّحة في الجيش الفرنسي المقيم في الجزائر خلال تلك المرحلة، وهو ما يجعل اطلاعه على الأحداث التي تخصُّ الجزائر مقارنة مع جيرانها أعمق وأدق وله من التفاصيل عن هذه الأوبئة ما قد لا يوجد لديه في الإيالات الأخرى.

وقد اعتمد في الجزء المتعلق بالأوبئة في المنطقة خلال العهد العثماني بشكل كبيرٍ على المذكرة التي كانت مخطوطة وقيّدها "بير بروجر" بل أنَّه في أحيان كثيرة يورد نفس ما أورده "بير بروجر" في المذكرة التي سلف ذكرها دونما إي إشارة إليه، وعندما نقارن بعض المعلومات التي قال أنّه استقاها مِن الوثائق والمراسلات وجدنها تتطابق مع تلك التي أوردها "بير بروجر" في نفس المكان دون أن يذكر أنَّه استقاها في الأصل مما أورده "بير بروجر" وهو نقف عليه مثلا عند حديثه عن وباء (1793م) وطريقة تفشيه في إيالة الجزائر والتي ذكرها هو في الصفحة (355) من الكتاب فيما نجدها بنفس النَّص تقريبا في موضع آخر عند "بير بروجر"[1]، وهو ما يُفهم منه فعلا أنّ صاحب الدراسة كثيرا ما ينقُل بالواسطة مِن المصادر المباشرة دونما إشارة إلى المصادر أو المراجع التي كانت واسطته إليها، أو أنَّه قد يكتفي في بعض الأحيان بإشارة واحدة فقط في بداية النقل، وهو ما وقفنا عليه في بعض المواضع التي نجده فيها ينقل من "بير بروجر" أو من مصادر استقى منها الأخير معلوماته من دون أن نجده يصرّح بذلك؛ ما حملنا على الاعتقاد بأنّ العمل أو البحث الذي قدّمه "بير بروجر" حينها وعنوانه "Mémoire sur la peste en Algérie" قد ظلَّ لمدَّة زمنية طويلة نسبيا بحثا مخطوطا وغير مُشتهرٍ، ولم تُتح الفرصة للكثير مِن الباحثين الاطلاع عليه؛ ما جعل "غيو" يعتمد عليه في بعض الأحيان ويتغاضى عن ذكره.

وقد يتولَّد عن هذا فهم خاطئ قد يفقد العمل قيمته العلمية الكبيرة ويشكك فيه وليس هذا غرضنا، وإذ قد أتينا على ذكر جُمَلٍ من سلبيات النقل المتجزئ المبتور وجب الحديث أيضا عن التوسع والتعمُّق الأكاديمي المحمود الذي كثيرا ما اتبعه "غيو"، إذ كثيرا ما انطلق ممّا أشار إليه "بير بروجر" وعمّقه

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., P222.

أكثر بحشد الأدلة والوثائق والبراهين، ومثاله تلك المعلومات المتعددة الإحصائية الدقيقة التي تحدّث عنها فيما يتعلّق بالوباء الذي ضرب الجزائر سنة (1796م) مُستنداً في هذا على المراسلات القنصلية والإدارية والتي اكتفى "بير بروجر" فقط بالإشارة إليها، بل إنَّ كل حديث "بير بروجر" عن الوباء الذي ألمَّ بالجزائر خلال تلك السنة كان مُقتضباً وغامضاً فيما حشد له الدكتور "غيو" مختلف الحقائق التي تثبت أثره وانعكاساته[1].

ولهذا حقيق علينا التنبيه إلى أنّ ما ذُكِر غرضه التنبيه إلى أنَّ صاحب الكتاب اعتمد بشكل كبير على ما قيَّده "بير بروجر" وهذا راجع بالتركيز على أهمية الموضوع لدى "بير بروجر" إضافة إلى أنّ الأسبقية الزمنية التي حظي بها الأخير على العمل الذي قيّده "غيو"، وليس يشك أنّ عمل "غيو" مِن حيث الإحاطة الزمنية والمكانية أعمق وأدق مِن عمل "بير بروجر" لذا يحفظ لكل منهما مميزاته وخصائصه. وكل تجاوز لهذين المؤلفين في التأريخ للأزمات قد يشتمل على مغالطات معرفية تنعكس على النتائج النهائية المتوصل إليها غالبا.

وإن كان الدكتور "غيو" قد قصَّر في شيء، فإنَّما هو تقصيرٌ في متابعة انعكاس هذه الأوبئة على الحياة العامة للسكان خاصة منهم المهمشين، إذ كثيرا ما نجده يركِّز بشكل كبير على التعاطي مع انعكاس هذه الأوبئة على السلطة الحاكمة أو علاقتها الخاصة والقريبة، في حين يتغافل إلى حد كبير عن الحديث عن الانعكاسات النفسية والعقائدية لهذه الأزمات على الحياة اليومية للساكنة، بينما يصرف جهد لابأس به ويركِّز بشكل كبير على الانعكاس الديموغرافي لهذه الأوبئة في أكثر من موضع.

كما نقف على اجتهاد آخر في نفس السياق خلفه السيد (Marthe Conor) في منشورات معهد باستور بتونس يفرد مقالة خاصة بالطّاعون الذي ألمَّ بالمنطقة المغاربية من طرابلس إلى المغرب الأقصى[2]، تناول فيه الموضوع من خلال ما قال أنَّها بعض المصادر الأرشيفية والمخطوطات والتي يقصد بها المخطوط الذي خلفه الأب فيشرا عن الطّاعون (1786م-1797م) وقد تناول في هذا الدراسة أولا ظهور هذا الوباء في تونس وكيفية دخوله إليها سنة (1784م) ثمّ تحدَّث عن انتقال الوباء إلى "طرابلس الغرب" في السنة الموالية وكيف أثّر على التركيبة السُكانية لهذه المدينة والآثار المدمرة له، ثمَّ انتقل بعد ذلك للحديث عن الوباء في إيالة الجزائر، تناوله أوّلا في إطار مقارنته مع نظيره في كل من "تونس" و"ليبيا" ثمَّ انتقل للحديث عن تطوره وانتشاره لكنه قبل ذلك أفرد بعض الفقرات لشهادات "ديسفونتاس" عن الوباء ومعالمه الكبرى في الإيالة وفي تونس، إضافة لذلك تحدَّث عن محاولة داي الجزائر أن ينأى بمملكته عن

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229.
[2] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P 220-241.

النشاط الوبائي بمراقبة الميناء، وصرفه لسفينة تونسية للاشتباه بإصابتها بالوباء، لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن استمرار الوباء في السنوات التالية، وكيف أثر في المناطق المختلفة، لكنه أغفل الحديث عن انعكاسات هذا الوباء في الحياة الاجتماعية أو السياسية، كما لم ينبّه إلى التزامن الذي عرفه هذا الوباء مع المجاعة التي استحكم أثرها بشكل كبير في بيلك الغرب الجزائري في زمن "محمّد باي الكبير"[1]، وفي نفس الوقت أورد مجموعة من المعطيات الرقمية التي يندر الإشارة إليها في دراسات أخرى مُتتبعاً ذلك بالسنوات والمناطق.

لنقف لاحقا على دراسة أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطب من جامعة الجزائر تقدَّم بها "جون مارشيكا" سنة (1901م)، تقع هذه الدراسة في مائتي صفحة، كان يفترض من صاحبها حسب العنوان أن يتناول فيها الأوبئة في شمال إفريقيا، لكنه حقيقة اقتصر على الجزائر دون غيرها، ولعل هذا مبررٌ؛ إن علمنا أنَّه بعد العنوان الرئيسي الموجود في المذكرة " la peste en Afrique septentrionale " نقف على عنوان فرعي جاء فيه تخصيص الجزائر دون غيرها " histoire de la peste en Algérie de 1363-1830".

صرّح الباحث في مقدمة عمله بأنّ الغرض الأساسي من وراء الدراسة هو وضع تأريخ للتسلسل الزمني لظهور الأوبئة في منطقة المغرب، وعلى هذا الأساس فالدراسة تشمل المنطقة التي حددها "مارشيكا" بدقة من المحيط إلى غاية قناة السويس[2]؛ وهذا في محاولة لسد الفراغ الذي خلَّفه تغاضي معظم المؤرخين عن الحديث على تاريخ الأوبئة في هذه المنطقة، وليس يُشك أنَّ الباحث مَسبوق بمن طرق هذا الباب وسبر أغواره بشكل جيد، سواء مِن ضمن الدراسات الإسلامية أو التواريخ المحلية أو الدراسات الغربية التخصصية، وهو الأمر الذي حمل الباحث على التصريح مباشرة بعد هذا بأنّ العمل المقدم يأتي استكمالا للمشروع الذي وضع دعاماته الأولى "بير بروجر" في مذكرته عن الوباء في الجزائر بعنوان" mémoire sur la peste en Algérie" ضمن كتاب "exploration scientifique de L'Algérie" والذي سبق الحديث عنه، مثلما أشار إلى العمل القيّم للباحث الدكتور "غيو" الذي توسع في الموضوع أكثر من خلال مقالته ثمَّ كتابه "Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique " لكن الباحث قام بمغالطة معرفية المبنية على انعدام أي دراسات للطّاعون أو الأوبئة في الثقافة غير غربية، وهو ما نجم عنه نوع من القفزات الابستيمية التاريخية للمنطقة، والتي سبق الحديث عنها ولا فائدة من استرجاعها هنا.

[1] – مؤلف مجهول: نبذة يسيرة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (5022) ورقة [1]

[2] - Jean Marchika : **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d'Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, Anne 1927, non publié,

يشرع بعدها "مارشيكا" في الدخول في موضوع بحثه من زاوية التعريف العام بالطَّاعون في الجزائر عبر التاريخ، ومناقشا للآراء المختلفة حول مدى توطُّن الطَّاعون في الجزائر عبر التاريخ، ويؤكد على تأثير المرض في الجزائر والمنطقة حتى قبل التواجد العثماني بها[1]، فيما ينقل عن أستاذه رينو قوله أنَّ الطَّاعون أصبح متوطِّناً في الجزائر خلال العهد العثماني بسبب ما أوجده طبيعة النشاط القرصني في موانئ الجزائر[2]، ويستعرض بعضها بطريقة غير مباشرة مُسببات الوباء في الجزائر خلال العهد العثماني ويشير مثلا إلى سبب انتشاره بين الأسرى المسيحين والذي يحصره في غياب النظافة وانعدام شروط الحياة اللائقة وعدم توفير أكل محترم، وهو نمط العيش الذي كان يعيش فيه معظم الأسرى مجبورين على ذلك بسبب وضعية الأسر[3].

لينتقل بعدها "مارشيكا" إلى الحديث عن المستشفى الأوروبي والذي وجد لمساعدة الأسرى على تجاوز الأخطار والأزمات الصّحية في الجزائر، وقد قيّد الحديث عنه بأهم ما يميزه وكيف كان يسعى إلى تقليل من أثر الأزمات الصحية[4].

ينطلق بعدها الباحث في تتبع الأوبئة التي ألمت بالجزائر منذ سنة (1363م) تاريخ أول وباء قيده "مارشيكا"، لكن الباحث يقفز مرّة أخرى على المراحل التاريخية وهذا بتجاوزه لذكر التأريخ لعدد من الأوبئة خلال هذه المرحلة الزمنية السابقة للوجود العثماني، فيتغاضى عن الوباء الذي ألمّ بتونس وكان له أثر في المنطقة الشرقية من الجزائر وهذا سنة (1402م) أو ذلك الوباء الذي ضرب المنطقة الغربية فأتى على تلمسان وما حولها من أحواز سنة (1441م)[5] لينتقل مباشرة إلى الوباء الذي ذُكِر أمره سنة (1467م) وبالتالي يتجلَّى لنا نوعا من التجاوز لما قد ألزم الباحث به نفسه في المقدمة، من تأكيده على التزامه بتتبع ظهور الأوبئة زمنيا خلال المرحلة محل الدراسة في الجزائر[6].

كما يلاحظ استعجال "مارشيكا" الدخول في المرحلة العثمانية، ولعل هذا راجع إلى إمكانية الوقوف على المصادر التي مِن شأنها أن تعينه على التأريخ لهذه المرحلة على عكس المرحلة السابقة، وما نورده هنا من أحكام لا يعدو أن يكون مجرد تصوير لما وقع فيه "مارشيكا" في دراسته، إذ لو قورن التتبع الزمني الذي أكد عليه "مارشيكا" في بداية الدراسة بذلك التَّعقب الذي استخدمه "غيو" في دراسته للأوبئة في شمال إفريقيا لظهر البون الشاسع، إذ بينما اكتفى "مارشيكا" بالحديث أو التأريخ لأربعة من الأوبئة

---

1 - Jean Marchika :op.cit., P14.
2 - Ibid. P14.
3 - Ibid. P15.
4 - Ibid. P18-16.
5 – مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (1192م – 1520م) رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، 2009، ص136.
6 - Jean Marchika :op.cit., P14.

خلال المرحلة الزمنية الممتدة على طول مائة وتسع وسبعون سنة (179سنة) هي أوبئة (1363،1467،1509،1510) فيما يذكر "غيو" على سبيل المثال خلال نفس المدة الزمنية ضعف ما ذكر "مارشيكا"[1]، ولعلَّ تبرير ذلك مرد محاولة "مارشيكا" أن يقتصر في البحث على تلك الأوبئة ذات التأثير الجلي على الحياة الاجتماعية والسياسية والديمغرافية أم تلك التي كان تأثيره بسيط فلم ينصرف إلى ذكرها.

لينطلق بعدها "مارشيكا" في الحديث عن الأوبئة وسردها تاريخيا، مع ملاحظة أنَّه كثيرا ما كان يكتفي بشاهد تاريخي واحد من أجل تأكيد وجود الوباء، فإن ذكر الأب "فيشرا" وجود وباء أو ورد خبر عنه في إحدى المراسلات أو إشارة عرضية ما عن مرض أصاب إيالة الجزائر قرَّه "مارشيكا" بل في بعض الأحيان نجده يتجاوز ذلك إلى اعتبار مجرد وصف الحالة الصِّحية في الجزائر بالمتدهورة ما معناه وجود وباء بها، وهو في هذا الأمر مجبر لا مخير، إذ أنَّ أغلب الأوبئة كان يأتي ذكرها عرضا إذا ما استثنينا بعض المراسلات القنصلية التي كانت تتحدَّث عن انتشار الوباء، وعدد ضحاياه مباشرة، وفي بعض الأحيان بنوع من المبالغة.

إذ معظم أخبار الوباء في المذكرات الشخصية والتقارير كان يقتصر على مصدر واحد أو مصدرين، ما يجعل محاولة حصر وجود الوباء في تعدد ذكره وانتشار أمره بين المظان أمر صعب إيجاده والعمل به، وإذ اشترطنا لاعتماد تحقيق ذكر وقوع وباء ما على ورود خبر عنه في أكثر من موطن أسقطنا ذكر معظم الأوبئة في دراستنا هذه، إذ معظم ما وقفنا عليه هو ذكره في مصدر ما؛ ثمَّ بعد ذلك تعددَّت طرق النقل من ذلك المصدر، خاصة إذا ما رأينا حرص مصدر بعينه على التأريخ لأحد الأوبئة. فنجد المصدر قد اختص بذكر تفاصيل لم ينتبها لها مصدر آخر من ذلك مثلا ذكر أرقام الضحايا أو طريقة تفشيه على رقعة جغرافية ما. فهذه الأمور غالبا ما نجد مصدر ما يتفرَّد بها، خاصة إذا تحدَّثنا عن المصدر الأساسي الذي اعتمده "مارشيكا" في تأريخه للأوبئة خلال القرن الثامن عشر، أي:" Mémoires de la congrégation de la *mission*" وقد ضمَّ هذا المصدر مجموعة لا بأس بها من الشهادات الخاصة لرهبان عايشوا مجموعة من الأوبئة في الجزائر خلال القرن(18م) كما سلف ذكره ما يعطي لكل رسالة ضمن هذا المجموع أهمية خاصة في تدوين تاريخ للأوبئة.

وقد يجبر الباحث في المواضيع من هذا النوع أن يستأنس بإشارة واحدة ليبني عليها تصوّراً لواقعة ما أو تدوين حادثة ما، خاصة إذا كانت الأخبار من نفس الطبقة من الشهود وعلى نفس القدر من العدالة

[1] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P182-204.

فحينها يمكننا أن نتحدَّث عن كون أي فرد من هؤلاء علم وقيَّد شيئا لم يذكره أقرانه هو حجة له عليهم، ويمكن إعماله في تأكيد الواقعة التاريخية، بالأخص إن كان المصدر قد صرّح بها تصريحا لا يستلزم التأويل. مثلما هو الحال فيما تعلّق بالوباء الذي ضرب أو تجدّد بالجزائر سنة (1703مـ)[1] أو ذلك الذي ألمّ بتلمسان سنة (1738م)[2]؛ لذا نعتقد أنّ اعتماد مارشيكا في بعض المواطن على حُجَّة واحدة فقط دون غيرها هي مما أُجبِر عليه، فإن كانت هناك إمكانية لإدراج قرائن أخرى فإنَّه كثيرا ما استعان بها أو دعم حُججه بها كما هو الحال مثلا في وباء سنتي (1741م)[3] و(1743م)[4].

لذا فإنَّ المقرَّر هنا هو ما عند "مارشيكا" وإن لم يصرّح به في أي موضوع في دراسته فهو مبدأ القائل "أنّ مَن علِم حجَّة على مَن لا يَعلَم"، فإن وُجِد من يؤكد ذلك سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر لوجود عارض يشتبه في تعبيره عن حدوث وباء وكان هذا أمرا مُقرَّراً؛ فإنَّ هذا يسعنا لأن نقول بأنَّ ما حدث هو وباء من عدمه.

وإن أتينا إلى ذكر جُمل ممَّا يعد مِن محاسن الأعمال التي أتى بها "مارشيكا" في دراسته هذه قلنا على رأسها حُسن توظيفه واستخدامه لبعض الشهادات الخاصة بالآباء الرهبان وإرسالياتهم التي كانت تعمل على مساعدة الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر، بالإضافة إلى احترامه طريقة توظيف المادة المصدرية المستخدمة ضمن نسق كرونولجي دقيق يُقدِّم فيها المصادر على غيرها، وممَّا يُعاب على مارشيكا عدم مناقشته لما توردِه هذه المصادر، واكتفاءه بذكرها فقط أو السكوت عنها، إلاَّ نادراً، وهو ما يجعل القارئ في الكثير مِن الأحيان يشعر أنَّه أمام نصٍّ مُنقول فقط، وما يعاب عليه أيضا شكل النقل؛ إذ كثيرا ما يستعين بالواسطة دون العودة إلى الوثائق أو الأرشيفات التي تؤكد ذلك كما هو الحال بالنسبة إلى ما ينقله عن "دي غرامونت" فغالبا ما يكتفي بالنقل فقط دون التَّأكد من موافقة ما نقله "دي غرامونت" لما هو موجود في الوثائق، ولعلَّ هذا مرده أساس راجع إلى طبيعة تخصُّص الباحث، فهو بحكم تقديمه بحثه لقسم الطب أعفى نفسه مِن ضرورة التدقيق والتحقيق في كلِّ واقعة تاريخية، كما هو الحال في مواضع عدة منها: ما تعلَّق بأوبئة سنوات: (1722م) (1723م) (1730م) لكن هذا لا يقلل بأي حال من أهمية هذا العمل، إذ يبقى هذا العمل هو الأول من نوعه في الجزائر خلال تلك المرحلة الزمنية، بالإضافة إلى إمكانية القول أنَّ "مارشيكا" أسَّس في عمله هذا لمنطلقات أساسية في البحث في تاريخ هذه الأزمات، ما يوجب علينا أن نشهد له بأنه عمل علمي أكاديمي رصين ومميَّز.

---

[1] - Jean Marchika : - Jean Marchika :op.cit., P73.
[2] - Ibid. P78.
[3] - Ibid. P78-90.
[4] - Ibid. P92.

وبالعمل المستعرض الأخير "لمارشيكا" نكون قد أتينا على ذكر أهم المظان التي اعتنت بالبحث في مجال الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال مرحلة زمنية تشمل جزء من تاريخ المغرب الأوسط وتغطي بشكل عام التاريخ العثماني للجزائر، وهذه المصادر أو على الأقل ثلاثة منها هي لكل من: "بيبروجر" "غيو" و"مارشيكا"؛ أركان عليها مدارات البحث في التأريخ للأزمات الصحية التي مست المنطقة. ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها أثناء تناول موضوع الأوبئة أو الأزمات الصّحية التي عاشتها الجزائر خلال فترة زمنية تمتدّ على ثلاثة قرون، وإن كانت لا تخلو في بعض الأحيان من تحامل وتضم في ثناياها بعض المغالطات الأبستمولوجيا والابستيمية في تاريخ المنطقة.

كما لا يمكن أن نطوي هذا المبحث دون الإشارة إلى وجود عدد مهم من الدراسات التي تخصصت في وباء دون آخر، أو اعتنت بالحديث عن أوبئة بعينها، فنجد مثلا رسالة الدكتوراه التي قدَّمها الباحث بوليو أنتونا (Bolio, Antonin) والتي خصَّصها للحمى والتيفوئيد وجاءت بعنوان (Grippe et typhoïde,)[1] وردت هذه الرسالة في أربع وستين صفحة فقط لكنها جاءت وافية بالعديد من الخصائص الطبية لكل من الحمى والتيفوئيد، قُدِّمت الرسالة في بداية القرن العشرين في كلية الطب بجامعة باريس، وقد قام الطالب بعمل من الناحية التخصصية إذ شرع في البداية بالتَّعريف بكل من "التيفوئيد" و"الحمى"، ثمّ بدأ في التفصيل بالحديث عن تكوُّن العصيات في كل مرض على حدى، ثمّ تكلم عن تلك العلاقة الخفية التي تربط بينهما وأشار في أماكن مختلفة إلى كيفية انتشارهما وعملها، ليتحوَّل العمل بعد هذه العروض الأدبية إلى دراسة حالات ميدانية وهو ما أعطى الدراسة البعد الدقيق والملاحظات الهامة، لذا نعتقد أنَّه مِن الأهمية بما كان الاطلاع على هذه الرسالة في جزئية المتعلقة بوباء التيفوئيد ومتعلقاته.

معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

قبل أن نشرع فيما وعدناه وجب علينا القول أن موضوع الحياة الصحية في الجزائر خلال القرن السادس عشر والسابع عشر لم يحظ بالاهتمام الذي يليق به والذي يظهر تأثيرات السوسيوثقافية والاقتصادية لهذا الموضوع على الحياة العامة في إيالة الجزائر، وظل مجرد موضوع هامشي لا يشغل حيز مستفيض من الأبحاث، باستثناء رسالة الدكتوراه التي قدمتها الطالبة فلة موساوي والتي تناولت الوضع الصحي للجزائر

[1] - Bolio Antonin :op.cit., P09.

خلال الفترة الممتدة من الوجود العثماني في الجزائر إلى الاحتلال الفرنسي. غير أننا لن نعالج الموضوع في هذا المبحث بشكل تفصيلي أو استقصائي وإنما سنسعى لإعطاء صورة عنه وسبب ذلك أنّ دّراستنا يقتصر مضمونها على الفترة الزمنية الممتدة من بداية القرن الثامن عشر إلى نهاية الوجود العثماني في الجزائر(1700-1830م)، غير أنّنا ارتأينا قبل أن نخوض في هذا الأمر أنه علينا أن نقدِّم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه، فنقول: أنه ممّا يُعين على تلمس الواقع الحياتي للجزائر خلال المرحلة التي سنتناولها بالتفصيل رسم صورة عامة عن الموضوع قبيل هذه المرحلة الزمنية، أي: خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر(1550-1700م)، وهذا بدراسة استقرائية نستعرض فيها المحطات الكبرى، بيد أننا نعود لنقول أننا لم نسع ليكون التّتبع الذي نتحدَّث عنه تفصيلي مبسوط، وإنَّما عمدنا إلى أن يكون تصوُّرٌ عام وموجزٌ للحالة الصِّحية السائدة خلال تلك المدَّة، وبالأخصّ عند علمنا أنّ عدد الأوبئة التي شهدتها الجزائر خلال المرحلة الممتدة (1550م-1700م) كانت كثيرة جدا ومتنوعة وخليق بأن تخصص ببحث مستقل، وتذكر المصادر المختلفة التي اعتنت بدراسة ظاهرة الوباء والأزمات الغذائية في الجزائر أنّه قد تعاقب خلال الفترة الممتدة ما بين (1555م) إلى غاية سنة (1784م) ما يقارب ستة وعشرين مرّة هجوم الوباء بمختلف أشكاله[1].

وبهذا فإن الوضع الصِّحي العام للجزائر خلال المرحلة الأولى للوجود العثماني في الجزائر كان متدهوراً، فتدلنا العديد مِن الأبحاث والمؤشرات التي نقف عليها أنَّ الجزائر قد تعرَّضت خلال القرن السادس عشر للعديد من الأزمات الصِّحية، وتزامن ذلك مع عدد من الأزمات الغذائية التي كان لها بدورها دور هام في تفاقم الأمر أكثر؛ وهذا ما جعل العديد من الكتابات الأوربية للرحالة والدبلوماسيين تعد الأوبئة والمجاعات أحد أكبر الويلات التي مسّت الأهالي خلال تلك المرحلة[2].

تُستهل ظاهرة الوباء في المرحلة العثمانية في الجزائر سنة (1552م) إذ يُعدُّ مِن بين أوَّل الأوبئة التي ضربت الجزائر خلال العهد العثماني، وعدَّه هايدو مِن الأوبئة العنيفة جدا التي ألمت بالبلاد[3]، ولعل هذا بسبب تزامنه مع مجاعة ألمت بدورها بالإيالة سنة قبل ذلك (1551م) ويمكن أنها استمرت في السنة التالية لها[4]؛ الأمر الذي جعل أثر الأزمتين قوِّيا على أهالي وقبائل المنطقة، وكان هذا الوباء قد امتدَّ بشكل كبير في

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T 2. P 206.
[2] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°10, op.cit., P 59-61
[3] - Fray Diego de Haedo : Histoire des rois d'Alger. Traduite et annotée par H.-D. de Grammont, Jourdan, Alger, 1881, P96-97.
[4] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P207.

منطقة الغرب الجزائري وبالأخص في مدينة وهران[1]، وأتى هذا الوباء في الأخير على "صالح ريس" بايلرباي الجزائر الذي يذكر صاحب "النبذة" أنَّه توفي بالقرب من مدينة "وهران" حين كان يعمل على فتحها[2].

وقد ظل هذا الوباء يتكرَّر سنويا تقريبا إلى غاية سنة (1556م)[3]، ليعود مِن جديد إلى الخمود ثلاث سنوات. ويرى "ديغو دي هايدو" أنَّ مِن آثر هذا الوباء أن قضى على عددٍ كبير مِن النَّاس خاصة في مدينة الجزائر[4]، يتجدد ظهور هذا الوباء مرّة أخرى سنة (1559م) في مرحلة حكم "حسن آغا بن خيرالدين"[5]، كما يتجدّد الوباء أيضا سنوات: (1561م) (1571م) وسنة (1584م)[6] بحيث يكون آخر وباء تشهده الجزائر خلال القرن الأوّل من الوجود العثماني في الجزائر، في حين بقيت أوروبا في منأى عن الأوبئة إلى غاية ظهوره سنة (1586م) في فالنسيا بإسبانيا[7] وإذا ما سبق كنا جدراء بالقول أن سنوات الخمسينات خلال القرن السادس عشر كانت بحق سنوات امتحان لساكنة الإيالة، كانت فيها المجاعات ظهيرا للأوبئة كما سبق.

بل وتوطَّن الوباء في بعض المناطق وبلغ مضارب أخرى لم يدركها من قبل؛ حتى كادت بعض الدراسات تجعله السِمة الأساسية التي طبعت الحياة العامة لإيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر، وبتتبع عدد مِن الدراسات والمذكرات التي اعتنت بالموضوع نقف على أنَّ مجموع عدد الأوبئة التي ألمت بالجزائر خلال القرن السابع عشر لم يقل عن خمسة عشر وباءً، كان كلّ وباءٍ يختلف عن الأوبئة الأخرى مِن حيث شدَّته، وتأثيراته، وطريقة انتقاله من مَكان إلى آخر[8]، لذا نجد هذه الأوبئة والمجاعات ظلَّت تختلف باختلاف درجة تأثيرهما والمحيط الذي تشغله.

إذا تحقق ما كان من الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر فمن الواجب الآن أن نصرف البيان إلى ذكر الأزمات الصحية والغذائية التي شهدتها الإيالة خلال القرن السابع عشر، ونشرع في هذا من الحديث عن المجاعات التي عرفتها الجزائر خلال المرحلة الممتدة (1600-1700) إذ تذكر المصادر المختلفة أنَّ الجزائر قد شهدت عددا قليلا من المجاعات لا تقارن بعدد الأوبئة التي ضربت الإيالة، ولعل أهم تلك المجاعات والتي كان لها أثراً مُباشرا على التركيبة الديمغرافية في البلاد، تلك المسغبة التي

---

1 - Fray Diego de Haedo : op.cit., P96-97.

2 - مؤلف مجهول : **نبذة يسيرة في سيرة محمد باي فاتح ثغر وهران**، و/6 ص11.

3 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P208.

4 - Fray Diego de Haedo : op.cit., P112.

5 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P205.

6 - Ibid.

7 - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P03.

8 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP 263-287.

لحقت الجزائر سنة (1683م)[1] التي تسبَّب فيها القحط والجفاف الذي لحق الإيالة سنة قبل ذلك أي خلال سنة (1682م) وزاد التأثير السيء لهذه المجاعة بتزامنها مع وباء ضرب مدينة الجزائر، فزاد الوضع سوءاً وبقي المجتمع يتحمل تبعات هذه المجاعة لعدد من السنوات، ونقف في بعض المراسلات القنصلية على صورة عامة التي تركتها المجاعة التي ألمت بالجزائر آواخر القرن السابع عشر، فيما ينقله قنصل فرنسا في الجزائر (Philippe Jacques Durand) بقوله أنَّه «...إضافة إلى المواجهات مع باي تونس خلال (1696م) كانت المجاعة والأوبئة على أشدَّها في مدينة الجزائر..» [2]، كما قد امتدَّت شدّة المجاعة وتفشي الوباء بالمدينة إلى غاية نهاية شهر (أكتوبر) مِن السنة نفسها[3]. وهذا الوباء عم أثره معظم أرجاء الدولة العثمانية خاصة إيالاتها في إفريقيا، إذ يذكر أن هذا الوباء كان يحصد في اليوم الواحد في القاهرة خمسمائة جنازة في اليوم، بل وصل عدد ضحاياه في فترة وجيزة أكثر من ثماني وعشرون ألف قتيل(28.000) وخلق اضطرابات في العديد من الأماكن[4] ولعلنا بهذا نصل إلى ما يشبه حُكماً يقينيا على أن جل الأزمات التي ضربت الإيالة بقوَّة خلال القرن السابع عشر كان لها أثرا ديموغرافيا واقتصاديا واضحا وجليا امتدّ إلى الأزمة اللاحقة ولم يتوقف تأثيره على تلك السنوات فقط.

وإذا عرف ذلك فمن الواجب أن نعود الآن لنتكلم عن الطرف الآخر في الدراسة أي الأوبئة، إذ لم يقتصر الأمر خلال القرن السابع عشر على المجاعات، بل تعداه إلى الأوبئة والطواعين والتي هاجمت الإيالة في مستهل القرن السابع عشر، وكانت المجاعات حينها أقل ضراوة على الناس من أثر الأزمات الصحية كما سيأتي.

ونقف أنه مِن أبرز الهجمات التي عرفتها الإيالة وتركت أثرها على المجال العام في الإيالة ذلك الطَّاعون الذي ألمَّ بالمنطقة استقرَّ بالجزائر تحديدا سنة (1605م) وكان فيما تذكره المصادر المختلفة يأتي على ما يقارب السبعمائة فرد يوميا[5]، ليتجدَّد هذا الطَّاعون بشكل أكثر حدَّةٍ مرتين، سنتي (1029هـ/1620م) (1030هـ/1621م) أُطلِق على هذا الطاعون اسم "الحبحوبة الكبيرة" وقد تفشى هذا الطاعون في الحيز الجغرافي لكل من إيالة تونس وإيالة الجزائر في نفس المدة الزمنية تقريبا، واشتهر أيضا

---

[1] - Grammont Henri Delmas : Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle, Alger, 1879. P 81.

[2] - H-D. DE Grammont : Correspondance des consuls D'Alger (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place de gouvernment,1890, PP, 57,59

[3] - Ibid.

[4] - Joseph von Hammer : Büyük Osmanlı Tarihi, Cilt 12, s260-262.

[5] – فلة موساوي القشاعي: **وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله**، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، 2001، ص 140.

باسم "طاعون سيدي بلخريس"[1]، وقد ذُكر خبر وجود هذا الطّاعون متزامناً مع ظهور الوباء في كل من: فرنسا بتولوز ومونبليه وبروفاسا. واحتدم هناك وقضى على ما يقارب أربعين ألف شخص[2]، كما تحدَّث "غيو" عن وجوده أيضا في نفس الفترة في إسبانيا[3]، وهو ما يجعل إمكانية الربط بين الوباء في ضفتين أمرا مستساغا وممكنا.

يخمد الوباء لفترة ما، تقارب الربع قرن، لكنه يظهر مُجدداً بشكل مُتقطِّعٍ في عدد من السنوات، فيظهر بشدَّة سنة (1647م) وبشكل أساسي في مدينة الجزائر، ثم يتجدَّد نفس هذا الوباء سنة (1648م) لكنه ما يلبث أن انكمش مِن جديد بُعيد ظهوره[4]، ويعود مرّة أخرى للظهور والاستقرار لفترة طويلة نسبيا قُدِّرت بعقدٍ مِن الزمن ينحصر فيما بين (1654-1666). ووفق ما تورده بعض الدراسات فقد خَلُص هذا الوباء إلى القضاء على ثُلُث سكان مدينة الجزائر[5] وقد ذكر وجود هذا الوباء وانتشار أثره في بروفانس سنوات قبل ذلك وتحديدا منذ سنة (1650م)[6] فيما تتحدَّث بعض المصادر عن سقوط أكثر مِن ستين ألف ضحية في وباء ألَمّ بإيالة الجزائر سنة (1662م)[7].

بل يذهب "دي غرامون" في حديثه عن الأوضاع الاقتصادية والتجارية بين فرنسا والجزائر إلى تخصيص حيزٍ مهم للأثر الكبير الذي خلَّفه الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر خلال سنة (1664م) والذي أدى إلى سقوط عدد كبير جدا من الضحايا في مدينة الجزائر وما حولها[8]، وأثَّر بشكل كبير في أحواز بيلك قسنطينة في السنة التي تلتها[9].

ولا يتوقَّف الأمر عند هذا الحد، بل يتعدَّاه إلى الثلث الأخير مِن القرن السابع عشر (1670-1700) عندما يصيب الجزائر وباء قوي نتيجة خروج أحد الأساطيل البحرية من مدينة (جناكله)

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P260.

[2] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P06-09.

[3] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P260.

[4] - Grammont Henri Delmas : Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe. P8.

[5] – فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص 140.

[6] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P18.

[7] - Masson, Paul : **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793)** (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc), Hachette, Paris, 1903, P 154.

[8] - H.-D. De Grammont, **relations entre la France et la regence D'Alger AU XVIIe siècle**, Alger, Adolphe Jourdan, 1879, P183.

[9] - Jean Marchika : **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algerie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d'Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, année 1927, non publié ,P55.

(Çanakkale) بمركز الدولة العثمانية، باتجاه إيالة الجزائر في (18 ماي 1671)[1] ويأتي على عددٍ كبيرٍ جدا من قاطنيها حسب مارشيكا[2].

ويعضد قول مارشيكا السابق ما استدلَّ به (DE Grammont) من كون أنَّ الطَّاعون خلال مدّة أربع سنوات كان قد قضى على قرابة (100.000) بمعدل لا يقل عن (25.000 ن/سنويا) ولا يتجاوز (45.000 ن/سنويا)[3] أي: بمتوسط سنوي يقارب (32.000 ن/سنويا) فإن طرحنا منها بعض المبالغات وأخذنا في الحسبان عدم مقدرة المصادر على تقديم معطيات دقيقة، أضحت الأرقام تأتي خلال هذه الفترة (1694-1698) على (10%) من سكان المدن، ولو افترضنا أنَّ سكان مدينة كمدينة الجزائر مثلا في حدود (300.000/ن) على أقل التقدير(كما ذكره دي غرامونت في كتابه Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)، كان عدد الضحايا نتيجة هذا الطاعون لا يقل عن ثلاثين ألف سنويا (30.000 ن/سنويا)، أي بما يقدر خلال أربع سنوات بـ (120.000 ن/سنويا) وقد تلى هذا الوباء أوبئة قد لا ترقى إلى نفس الأثر الذي خلَّفه هذا الوباء، لكن كان لها هي الأخرى الأثر البارز على الحياة الاجتماعية والكثافة الديمغرافية في المنطقة، فمن ذلك على سبيل المثال الأثر الكبير الذي خلفته أوبئة سنة (1682) أو (1683)[4] خاصة وأنها هذه المرة كانت مصحوبة بالجفاف والقحط ما أدى إلى ظهور المجاعة مرَّة أخرى بشكل قوي[5].

ونقف في المراسلات القنصلية التي سبق ذكرها للقنصل العام الفرنسي في الجزائر (Philippe Jacques Durand) على صورة ذكر الوباء الذي كان يضرب كل من إيالة الجزائر وإيالة تونس وكان سببا في توقيف الحملة الجزائرية على تونس سنة (1696م) بحيث كانت المجاعة والأوبئة على أشدها في مدينة الجزائر، وظلت كذلك إلى نهاية شهر أكتوبر مِن السنة نفسها[6].

ولعلَّ هذا الأمر هو ما جعل التقارير الطبية لمعهد باستور في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي تعتبر أن الوباء في الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة كاد أن يستقرّ بشكل دائمٍ، وهذا نظرا لطبيعة نشاط الجيوب الوبائية التي كانت تنشط خلال فترات متقطعة[7]، لذا اعتقد أننا جدراء بالحديث عن مدى ملازمة الأزمات

---

[1] - **Gazette de France**, 1671, N°1. P.551.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P56.
[3] - H-D. De Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) Ernest Le-roux éditeur, Paris, 1887, PP 268,269.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P63.
[5] - H-D. De Grammont : Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle, P 81.
[6] - H-D. De Grammont : Correspondance des consuls D'Alger (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place de gouvernment,1890, PP, 57,59
[7] - A.I.P.A : (1924-P312

الصحية والغذائية للجزائريين خلال العهد العثماني وبالتّحديد خلال القرن السابع عشر، لكن هل استمرّ الوضع بنفس النمط والقوّة التي كان يسير بها خلال المرحلة القادمة؟ هل تنامى تأثير الوباء أو ترجع أثره خلال المرحلة محل الدراسة (1700-1830م)؟ هل سنقف على متغيرات جديدة تخصّ طريقة انتقال الأزمات في الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر؟

الفصل الثاني: الأسباب الأساسية والمراكز الحيوية لوجود المجاعات وانتشار الأوبئة في الإيالة الجزائرية(1700-1830م)

أولا: أسباب ظهور المجاعات وانتشار الوباء.

ثانيا: الأسباب غير المباشرة لظهور المجاعات وانتشار الأوبئة.

ثالثا: الخريطة الجغرافية للأوبئة والمجاعات في الجزائر.

الأسباب المباشرة لظهور المجاعات وانتشار الوباء.

المناخ وأثره في ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة

يعدُّ المناخ عاملا رئيسيا ومحوريا في التغيرات والتَّطورات التي يعرفها التَّاريخ، غير أنّه كثيرا ما يتغاضى عنه في التعاطي التاريخي مع الأحداث، ولعل بروزه مع ظاهرتي المجاعة والأوبئة معلوم واضح، وهذا الأمر جعل العديد من الأبحاث والدراسات الأوربية في الجزائر بُعيد الاحتلال تحاول رصد هذا المناخ ولو أنّها اعترفت أنَّ ذلك أمرٌ صعبٌ جِّداً[1].

لكن بسبب أهمية هذا البعد (المناخي) في المجال الزراعي والاقتصادي وحتى الصِّحي -الذي أضحى لا يخفى على الباحثين الآن- فقد حاولنا من خلال هذه الدراسة استجلاء بعض خفايا المناخ في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني وقبيل الاحتلال الفرنسي وشكل تأثيره على حدوث الأزمات الغذائية وحتى الأزمات الصحية كما سيأتي، وإن كان قصب السبق في ربط العلاقة بين المناخ والأزمات الغذائية والصحية يعود ملاحظات ابن خلدون في مقدمته، وهو في هذا الأمر متجاوزٌ للنظريات والأطروحات الغربية التي أتت بعد ذلك، وأغنت هذا الجانب أكثر.

وإن جئنا لتفحُّص هذه الدِّراسات نجدها تُقدِّم انطباعا عاما بأنّ المناخ في الجزائر عموما وفي المنطقة الشمالية خصوصا يقع ضمن إطار المنطقة المعتدلة، وتتراوح درجة الحرارة به في المتوسط ما بين (20-25°) أي أنَّه ضمن المنطقة المميزة والصَّالحة للنشاط الزراعي[2]، ونقف في التقارير الفرنسية التي كانت تُعدُّ حول مناخ مدينة الجزائر في السنوات الأولى من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر أنَّ متوسط درجة الحرارة في مدينة الجزائر أثناء فصل الشتاء كان في حدود (16°) درجة، بينما لا يتجاوز متوسط ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف معدل (26°)[3].

وهو نفس ما ذكره حسب شونبيرغ لم تتجاوز -بعد سنوات من التجربة- مستوى (26°) مأوية ولا يقل عن (-2°) ناقص درجتين في فصل الشتاء[4]، وهو تقريبا ما ينقله المراقب العام للحكومة الفرنسية في الجزائر في كتابه حول الأوضاع العامة للجزائر زراعيا واقتصاديا وتجاريا -عن دراسة قام بها الدكتور

---

[1] - Vital : climat et météorologie, Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879, P128.

[2] - Bertherand Émile : op.cit., P139.

[3] - Boutin Vincent-Yves : Dépôt de la guerre: Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique, 3 édition, Ch. Picquet Paris, 1830, P111.

[4] - أف شونبيرغ: الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر أبو العيد دودو، المجلد الأول، دار الأمة، طبعة خاصة، 2009، ص 12.

(Feuillet)- أنّ درجة الحرارة في الجزائر تكون غالبا معتدلة ما بين (17°- 15°) سنويا، قد تنخفض في بعض الأحيان إلى أقلّ من هذا المستوى وبالتحديد في فصل الشّتاء[1].

وهو ما نقف عليه أيضا في تقرير خاص بهيئة الطقس والأحوال الجوية الفرنسية في الجزائر، بحيث أوردت أرقام مقاربة للمقاييس الوارد ذكرها بحيث لم تتعد غالبا خلال شهر أبريل مثلا من سنة (1865) (33°) درجة في أقصى الحالات ولم تقل عن (2°) في أبرد الحالات، كما لم تزد في شهر (ماي) من نفس السنة عن (38°) في أقصى حالاتها، وبالتالي فقد حكم التقرير بأنَّ معدل متوسط حرارة لا يزيد عن (16°) خلال فصل الربيع على سبيل المثال[2].

وإذا عرف هذا حُقّ لنا أن نقول أنّ المناخ بالمنطقة الشمالية لإيالة الجزائر حاليا والممتدة مِن سواحل البحر المتوسط إلى ضفاف جبال الأطلس التلي-وهي نفس المنطقة تقريبا التي تحدّدها جل الدراسات[3]- هو أعلى ما يمكن أن تصله المناطق المعتدلة في الدول الأوربية وأدنى ما هو موجود في الصحراء الإفريقية؛ الأمر الذي حمل (William Shaler) وليام شالر على مدح هذا المناخ واعتباره مناخا صحيًّا ومعتدلا، فهو ليس بالحار الذي لا تطاق حرارته ولا بالمنخفض الذي يحتمل سقره[4]؛ وهو الذي يُعدُّ حسب (Guy) عاملا مساعدا في تطوير الإنتاج الزراعي وتنويعه في الجزائر[5] عكس ما ذهب إليه حمدان بن عثمان خوجة باعتبار المناخ في متيجة والبليدة مناخ غير صحي لا يساعد على الزراعة وغيرها[6].

أمَّا من لتساقط الأمطار في الجزائر فيكاد يكون منتظم خلال الفترة الممتدة من شهر (نوفمبر إلى شهر فيفري) أي على مدار أربعة أشهر، فقد نقلت بعض المصادر أنّ الأمطار خلال هذه الفترة تكون متوسطة إلى حد ما، تنحصر ما بين (24-28) بوصة أي: ما بين (600-750) ملم[7] بينما تصبح الأمطار نادرة مِن شهر أبريل إلى أكتوبر[8]، أمَّا فيما يخص تساقط الثلوج فغالبا ما يكون نادرا جدا، ولا

---

[1] - Clade Guy : L'Algérie (agriculture, industrie, commerce), Librairie Chéneaux Franville, Alger, 1876, P08.

[2] - M. D Armieux : Gazette médical de Algérie، mémoire présenté à la société de climatologie algérienne dans sa séance du 1er juillet 1864, 10e Année N° 7, 25 juillet1865 , P73.

[3] - William Shaler : Esquisse de l'état d'Alger, tr M.X Blanchi, librairie L'advocaat, Paris, 1830, P11.

[4] - William Shaler : op.cit., P, P 11,22.

[5] - Clade Guy : op.cit., P08.

[6] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2005، ص47-53.

[7] - William Shaler : op.cit., P12.

[8] أو. هابنسترايت: رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر 1987، ص 60.

يستقر إلاَّ في المرتفعات المحيطة بسهل متيجة على ارتفاع (2500/م)[1]، وهو ما يجعلنا نعتقد أنّ هذا المستوى مِن التساقط لم يكن جيدا لنمو المحاصيل الزراعية، وهو نفس ما تراه الأستاذ الباحثة عائشة غطاس إذ ترى أنّ المناخ في الجزائر لم يكن مثاليا للزراعة.

وإذا تحقق هذا فمن الواجب علينا أن نعي أنَّ هذا الأمر يرجِّح كفة أنَّ التساقط كان يعرف بالفعل تذبذبا مِن فصل لآخر ومن مكان لآخر في إيالة الجزائر حسب الإشارات التي نقف عليها في المصادر التاريخية المحلية، وما تداول مصطلحات: القحط، وشحُّ السَّماء، والجدب. إلاَّ دليلًا على أنّ التساقط في الجزائر كان يعرف تذبذبا كبيرا بالفعل، ومعلومٌ أنَّ تعاقب عامين من تذبذب التساقط سيؤدي حتما إلى محصول سيء في السنتين فإن أدركت السنتين سنة ثالثة من الجفاف كانت مجاعة أثرها كبيرة ولا شك، وإنَّما يؤدي الأمر إلى نفاذ كلّ المؤن في المخازن، وبالتالي ارتفاع أسعارها هو ما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى تطور الأمر إلى ظهور مواجهات بين القبائل ما ينجم عنه حتما كثرة القتل بسبب المؤن والبحث عن الكلأ، ما يجعل أثر المجاعات مضاعفا[2]، إضافة إلى ذلك فإنَّ التذبذب خاصة في فصل الخريف له أكبر الأثر السِّلبي على عملية الحرث والبذر، إذ نقف على صعوبات جمَّة في عملية الحرث –خاصة مع وجود أدوات بسيطة المستغلة في الحرث خلال تلك الفترة– كما تضيع محاصيل زراعية هامة بسبب البذر دون وجود أمطار تساهم في تثبيت الزرع، وهو ما انعكس بشكل مباشر على الإنتاج الزراعي كمًّا ونوعاً وعلى ارتفاع أسعار القمح والشعير في نفس السنة أيضا.

لكن من ناحية أخرى نقف في بعض الدِّراسات المختلفة زمانيا ومجاليا خاصة منها الغربية تؤكد على أنَّ الإيالة لم تشهد تذبذب طويل الأمد والمناخ في الإيالة بصفة عامة كان مميَّزاً ومساعدا كما سلف ذكره، ولم يعرف فترات كثيرة ومتتابعة من الجفاف، الأمر الذي يجعل تعليق سبب المجاعات على العوامل الطبيعية بشكل تام أمر غير علمي؛ فتفحصِّنا ماكنت تورده مصادر تلك الفترة حول نوعية الأراضي ومدى توفر المياه بتلك الأراضي، فنجد "الورثلاني" مثلا يرسم صورة مميزة للكثير مِن الأراضي أو القرى الزراعية التي مرّ بها عند رحلته إلى الحجّ خلال الربع الثاني من القرن الثامن عشر، فيقول عند حديثه عن زمورة :«..وزمورة كثيرة المياه وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه ..»[3] ويذكر في موضع آخر: «و"قصر الطير" بادية وهو من أحسن الأوطان وأكرمها، قل ألا يكون فيها الخصب، وعشبه أخضر، ولو في الصيف أو

---

[1] – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص، ص12،13.

[2] – برنار روزنبرجي وحميد التركي: المرجع السابق، ص 160.

[3] – الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محفوظ بوكراع وعمار بسطة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، المجلد الأول، ص189.

الخريف وفيه مكان يقال له :"المرجة" من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء عذبا سائغا شرابه وزرعه كثير ضرعه...»[1]

أمّا إن قدمنا نحن إلى محاولة تفسير هذا التباين في المعلومات بين الدراسات الغربية نفسها، بين تلك التي كانت قد كتبت أثناء العهد العثماني وتلك التي كتبت بداية الاحتلال الفرنسي لإيالة الجزائر أرجعنا ذلك إلى ما يلي: أوّلا أنّه لا يمكننا إسقاط الأخبار التي كانت مختصة بجهة ما على سائر البلاد، إضافة إلى أن ما تنقله بعض أخبار الرحالة أو القناصل الغربيين مثل: (William Shaler) عن كمية التّساقط صحيحٌ إلاَّ أنَّ تقديراته غير ثابتة ولا يمكن إسقاطها على كل المنطقة الجغرافية الممتدة من ساحل البحر إلى سلسلة الأطلس التلي كما سبق ذكره، أمّا المصادر الفرنسية خاصة التي وُضِعت في بدايات الاحتلال فإنَّه لا يمكن الركون والاطمئنان إليها بشكل تام؛ إذ أنَّ المعلومات التي تَنقُلها كانت موجهة في الكثير مِن الأحيان لاستقطاب السُّكان الفرنسيين والأوربيين بهدف توطينهم في الجزائر، ولهذا نجدهم أحيانا يحاولون رسم ملامح جيدة للوضع في الجزائر عامة سواء ما تعلَّق بالمناخ أو بغيره.

على كل حال نرجع إلى الغرض من وضع هذه المعطيات حول المناخ ودرجة الحرارة وكمية التساقط لنربطها بموضوع المجاعات والأوبئة، فكمية التساقط التي أوردها كل من الباحث *(Guy)* تؤكدها ملاحظات القنصل الأمريكي "وليام شالر" والرحالة الألماني "هابنسترايت" تؤكد أنَّ كمية التساقط كانت متذبذبة وفي بعض الأحيان شح الأمطار خاصة في فصل الخريف حيث موسم البذر يصعب كثيرا من عملية البذر ما يجعل السنة تمر على التماس من نقص الغداء، فإن تزامن هذا الأمر خلال موسمين أصبح الأمر خطرا وكاد أن تكون له تبعات قد تتطور في بعض الفترات الزمانية وفي حالة نفاذ المؤن إلى نوع من أنواع الأزمات السكنية التي قد يمكن احتواءها بشرط أن لا تمتد هذه الأزمة أو نقص التساقط إلى سنة ثالثة فإن امتدت إلى سنة ثالثة على التوالي أصبح يقينا وقوع مجاعة تختلف حدتها باختلاف عوامل أخرى سنأتي على ذكرها لاحقا.

وإذا عُرِف هذا كنَّا جديرين بالقول أنَّ تذبذب التساقط أدى في الكثير من الأحيان إلى حدوث سنوات قحط أدت بدورها إلى الدفع باتجاه وجود مجاعات خطيرة، وهو ما حدث سنوات (1717م) إذ ظهر فيها الجفاف وأعقبتها المجاعة سنة (1130هـ/1718م) ما ترك أثرا كبيرا على أهالي مدينة الجزائر، حتى قيل أنَّه قد بيع لحم البشر في الأسواق مِن شدَّة الجوع[2]، مثلما نقف على ذكر أحد المجاعات وأثرها الكبير

[1] – المصدر نفسه، ص 193،194.

[2] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.

على ساكنة الجزائر بسبب تذبذب التساقط في إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية، التي تحدَّثت عن حدوث مجاعة كبيرة نتيجة القحط الذي لحِق إيالة الجزائر سنة (1781م)[1].

ولم يتوقف تأثير المناخ على المجاعات والأزمات الغذائية فقط بل يتعداه إلى الأزمات الصحية وتطوير الأوبئة والمساهمة في انتشارها، إذ أنَّ المناخ كان سببا لتطور بعض البكتيريات الوبائية، وساعدها فعلا على النمو والانتقال مِن حامل إلى آخر، ولعل هذا ما سيُبرِّر لاحقا سبب انتظار السكان قدوم فصل الصيف؛ أملا في ارتفاع درجة الحرارة والتي مِن شأنها أن ترفع البلاء الذي كان يأتي به الوباء كل مرّة.

أما الحديث عن درجة الحرارة التي رصدت خلال تلك الفترة فيمكن القول أنه حدث حولها توافق كبير بين الباحثين المختصين من أمثال الدكتور (Feuillet) والدارسين والملاحظين من أمثال الدكتور "غيو" والقنصل العام الأمريكي وليام شالر وبعض المصادر المحلية التي كانت تأتي على وصف مجمل لحالة المناخ بأنه كان صحيا أو لطيفا طيبا.

هذا الجو كان يساعد في الكثير من الأحيان في تزايد نشاط الطفيليات والبراغيث وهي تُعدّ ناقل للعدوى من القوارض إلى الإنسان ، فهذه الطفيليات تجد ضالتها في درجة الحرارة أقل من 20° فالبرد يزيد من نشاطها، والحرارة المرتفعة تضع حدا لعملية تناسلها[2]، وهذا ما يفهم من تتبع حركة الوباء، لذا نجد أنَّ الحرارة في الكثير من الأحيان أصبحت المخلِّص الأساسي للسّاكنة مِن خطر الطفيليات الوبائية إذ توجد العديد من الأوبئة التي تجد نفسها بشكل جية في فصلي الشتاء والخريف وبالأخص وباء الجدري[3]، وهو ما يمكن استخلاصه من قول الأب بواير في حديثه عن الوباء الذي ألم بالجزائر في (1785م) قادما من تونس بأنّ ارتفاع درجة الحرارة كان يعمل ضد تفشي هذا الطاعون[4]، في حين يستشف أيضا من قول قنصل فرنسا في الجزائر في تقريره عن وباء (1793م) «...بأنَّ السُّكان كانوا ينتظرون حلول فصل الصيف بحرارته حتى يرون الوباء يختفي...»[5] وهو ما يفهم منه أيضا أن الحرارة كانت تعمل دائما على وأد النشاط الوبائي وهو ما نجده يتجلى أيضا في إحدى الرسائل الموجهة من الجزائر إلى مارسيليا والموقعة بتاريخ (30.جويلية) سنة (1234هـ/1818م) وقد ورد فيها: «بداية من شهر (جوان/حزيران) بدأ يعرف الوباء تباطئ في نشاطه، إذ نزل عدد ضحاياه إلى خمسة عشر ضحية في اليوم الواحد، كما أنَّ هجماته الأخيرة لم تكن

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/139 Cotes: F° 135-136. 28/05/1781.

[2] - برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص 186.

[3] - Brouardel Paul Thoinot Léon-Henri : La fièvre typhoïde, Éditeur : J.-B. Baillière et fils Paris, 1895, P06.

[4] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 196.

[5] - C.C.F.A : Lettre du 17 février 1793.

مميتة...»[1] بل ونجد "بير بروجر" يربط بين فصل الربيع حيث درجة الحرارة تكون معتدلة في المتوسط وعودة النشاط الوبائي مرة أخرى من جديد[2]، غير أنه من غير الممكن أن نسقط تأثيرات هذا المناخ ودرجة الحرارة على كل الأوبئة التي سنقف عليها في الدراسة، إذ أكدت الأبحاث وجود عدد من الأوبئة وعلى رأسها التيفوئيد لم تكن لتتأثر بارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها[3]، مثل ما هو سائد في بعض الأوبئة الأخرى مثلا كالحصبة والطاعون الدبلي.

وبالتالي يكون جدير بنا أن نتحدث عن كون الجو في المدن الساحلية في الجزائر العثمانية كان ملائما فعلا لحياة وحركة بعض العصيات، ولعلّ هذا أحد العوامل الأساسية التي جعلت من المنطقة الشمالية للجزائر أكثر قابلية لاحتضان الأوبئة وجعلت بها جيوب وبائية تختلف درجة نشاطها باختلاف الموسم الموجودة فيه عكس المنطقة الجنوبية.

كما يمكن أن نربط العلاقة بين عدم قدرة الطفيليات على النشاط في درجة الحرارة المرتفعة مع الانحصار الدوري للأوبئة والطواعين في فصل الصيف ما جعل "فونتير دي برادي" مثلا أثناء الوباء الذي ضرب تونس سنة (1785م) ينتظر حلول فصل الصيف لكي ينقص أثر الجرثومة أو يقضي عليها تماما[4]، وهو نفس الأمر الذي جعل "غيو" يصرّح أن معظم الأوبئة تتكسر عند شهر (جوان/يونيو)[5].

ولعل ممَّا يساعد على تبيان ما للحرارة من تأثير على الطفيليات والجراثيم المسببة والمساعدة في نمو وانتشار الأوبئة الشكل التالي والذي يمثل دراسة لتطور عدد ضحايا أحد الأوبئة في الجزائر بطريقة استقصائية حاولنا من خلالها تتبع عدد الضحايا وعلاقة ذلك بالفصول المختلفة وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة تحصلنا على الشكل التالي:

---

[1] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P389.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P214.
[3] - Kelsch Achille : op.cit., P06.
[4] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P332.
[5] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P397.

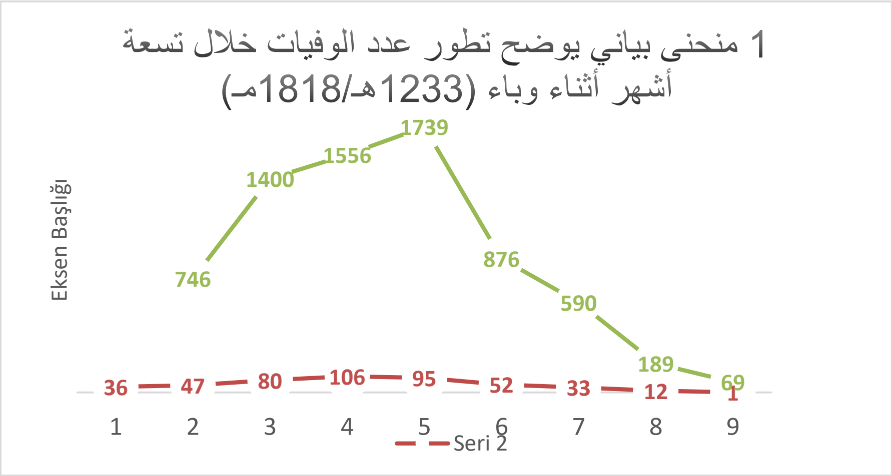

بحيث يدل الخط باللون الأحمر على متوسط عدد الضحايا خلال اليوم الواحد واللون الأخضر إنما هو لمجوع متوسط عدد ضحايا الوباء خلال الشهر الواحد.

نقف على عدد من الملاحظات من خلال هذا الشكل البياني إذ

- نلاحظ تزايد عدد الوفيات من بداية انتشار الوباء في الشهر الأول(جانفي) إلى غاية نهاية شهر خمسة(ماي/مايو) بل ويبلغ أقصى مداه خلال هذا الشهر بعدد وفيات يقارب (1739 ضحية/شهر).
- نلاحظ أيضا تراجع عدد الوفيات بداية من الشهر الخامس(ماي/مايو) لينزل إلى أدنى مستوياته في الشهر التاسع من ظهور الوباء أي شهر (سبتمبر/أيلول) ليصل إلى متوسط (69 ضحية/الشهر)

وبالتالي يمكننا أن نصل إلى بعض النتائج التي قد تساعدنا لاحقا في تتبع الأوبئة ونشاطها وتطورها والعوامل المساعدة على ذلك، ومن بين ما نقف عليه من خلال الشكل الماضي تقديمه:

- ذروة النشاط الوبائي تكون في الفترة الممتدة من شهر (جانفي/يناير) إلى نهاية شهر(ماي/مايو) وهي فترة فصلي الشتاء والربيع في هذه الحالة.
- تراجع وبداية انحصار النشاط الوبائي مع دخول فصل الصيف وانتهائه تقريبا مع نهاية الفصل الصيفي.

بهذا العرض للملاحظات والنتائج المتوصل لها من خلال دراسة لعينة من الأوبئة في بداية القرن التاسع عشر تتضح لنا مجموعة من الحقائق المؤثرة فعلا وبشكل مباشر في موضوع دراستنا هذه، أي أن

الحديث عن تأثير الحرارة المباشر في النشاط الوبائي ومدى امتداده أو انحصاره يمكننا نقله من باب الفرضية إلى النتيجة.

وبالتالي فإنّه وبإجراء مقارنة بسيطة بين المعطى الزماني والمكاني داخل الجزائر، نجد أنَّ ذروة النشاط الوبائي غالبا ما كانت خلال الفترة الممتدة مِن فصل الخريف إلى نهاية فصل الربيع، ما يعني على امتداد حوالي تسعة أشهر، بينما يمكننا أن نتحدَّث عن تراجع التّأثير خلال الثلاث أشهر الصيفية، ولعلَّ هذا الأمر هو ما نقف عليه عرضا في العديد من المراسلات بين المقيمين الفرنسيين في الجزائر، بحيث يذكر السيد (Jonville) في رسالته المؤرخة في شهر أوت (أغسطس) (1153هـ/1740م) أنّ حدّة الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر في بداية السنة كان في تراجع[1]، بل إنّ ظهور الوباء خلال الأشهر الصيفية كان بمثابة الأمر الشاذ والنادر حدوثه لكن هذا لم يعن اختفاءها تماما، إذ كثيراً ما تتأقلم الجرثومة مع اختلافات درجة الحرارة والمناخ من مكان إلى آخر وهو ما وفرَّ فعلا فروقا فريدة أدت إلى تطور الجرثومة نفسها وفق مجموعة مختلفة من التأثيرات المتعلقة بالمناخ والتساقط وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة وهو ما اعتبر الدكتور أمر عادي[2] إذ كثيرا ما ، وهو ما يفسرّ اندهاش واستغراب قنصل فرنسا في الجزائر في مراسلته المؤرخة في جويلية من سنة (1112هـ/1700م) من ظهور بوادر وباء، وسقوط أربعة ضحايا؛ لإنه لم يُعهد وجود ونشاط لوبائي خلال تلك الفترة من السنة[3]: أي أنّه يقرّ بعدم وجود نشاط وبائي كبير خلال مرحلة ارتفاع درجة الحرارة.

بل نعثر في إحدى التقارير المرفوعة من المقيم الفرنسي في الجزائر أن وباء سنة (1153هـ/1741م) كان قد توقف نهائيا خلال مرحلة ارتفاع رجة الحرارة بإقليم قسنطينة وذلك في الفتة الممتدة ما بين(26 جوان 1741م) و(09 أوت 1741م)[4] لكنه يشير في رسالة أخرى إلى عودته بشدة في بداية شهر سبتمبر من نفس السنة[5] نفس الأمر نقف عليه مرة أخرى في إحدى رسائل الأب بواير الذي يقرر سنة (1785م) بأنّ الوباء كان يعود بقوة أشد مع كل خريف وذلك بسبب انخفاض درجة الحرارة[6] وبالتالي تصبح فرضية تفاعل الطاعون مع درجة الحرارة المنخفضة أقرب إلى الحقيقة منها إلى النظرية هذا من الناحية الأولى.

[1]- H.-D. De Grammont: Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P252.
[2] - Ducoux François-Joseph :op.cit, P1.
[3] - H.-D. De Grammont: op.cit., P64.
[4] - Ibid. P269.
[5]- Ibid. P269.
[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 197.

أمَّا من الناحية الثانية فيمكننا أن نتحدَّث عن قلّة تأثير الأوبئة في المنطقة الجنوبية والتي غالبا ما تتميز بدرجة حرارة مرتفعة تجعل من عيش وتطور الطفيليات والفيروسات أمر صعب واستثنائي، غير أنه هذا لا يعني انعدام تأثير الوباء تماما، وإنما يمكننا القول أنّ الطبيعة الصحراوية أوجدت نوعا من الحصانة الطبيعية لساكنة هذه المناطق ضد النشاط الوبائي[1].

غير أنه قد ورد الخبر في بعض المصادر المحلية عن وباء ألمّ بمدينة بسكرة أتى فيها على عدد كبير مِن الساكنة كما ذكر الورثيلاني في رحلته عند حديثه عن مدينة بسكرة.

لكن وإن سلمنا بإيجابية ارتفاع درجة الحرارة وتأثيرها العام على تقليص الحركية الوبائية، فإن فعاليتها تصبح عكسية فيما تعلق بانعكاساتها على حدوث الأزمات الغذائية، فوجودها المتزامن مع غياب الوسائل المساعدة على عمليتي الحصد والبذر كان لها أثرا سلبيا في المجالات الحارة، إذ أن الإشكالية تكون مزدوجة إما بسبب فساد المحاصيل وعدم القدرة على تحصيل المنتوج في القوت اللازم، أو من جهة أخرى في حالة الرعي كان نقصد المياه وارتفاع درجة الحرارة ونقص المورد الغذائي يدفع القبائل إلى الحركة باتجاه أماكن وجود الزاد، ما يؤدي إلى حدوث مواجهات قد تدفع إلى حدوث تغيرات جوهرية في التموقعات السكانية، ونقف على مثل هذه الإشارات في شتات الحديث العام عن المجاعات كما هو الحال سنة (1793م) حسب كاتب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" الذي يتحدث عن حدوث قحط أضر بالحياة العامة وأدى بالناس إلى الانتقال من مضاربهم إلى أماكن أخرى وهذا عند قوله: «...وفي آخر هذه السنة وقع جدبٌ بالصَّحراء أضرَّ بالمواشي وتزاحم النَّاس على موقع المطر...»[2] وهنا نتلمس تلك العلاقات الخفية بين الجزئيات المتداخلة والمتشابكة بشكل لا مرئي، إذ أن نقص المياه وارتفاع مستوى نقص المياه الناجم عن المناخ أوجد نوعا مِن التشابك بين المناخ والأزمات الغذائية مع الحركية القبلية والنزوح من جهة أخرى ما أثر بشكل ما على موازين القوى بشكل ما وينقل معه إلى إشكالية أعمق هي إشكالية السيطرة على المجال الجغرافي، هذا الأخير كان سببا لاحقا في حركة الباي محمد باي بالكبير باتجاه الجنوب، وبالتالي فالتأثيرات الجزئية البسيطة تنتقل وفق منهج خاص من مستويات نظرية مستقلة إلى مستويات عملية متشابكة وخفية. وبهذا ننطلق من إشكالية عدم وجود المياه إلى إشكالية أخرى في نفس النسق هي:

---

1 - برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص 186.

2 - إبراهيم محمد الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 279.

عدم استغلال المياه بشكل جيد

إضافة إلى قلّة التساقط التي سبق الحديث عنها يوجد أيضا سبب آخر لا يقل أهمية عن قلة التساقط ومرتبط به ارتباطا سببيا ألا وهو عدم الاهتمام بالمياه، إذ نجد قلّة الاعتماد على مصادر مياه غير تلك الناتجة عن الأمطار تعد أحد الأسباب الأساسية لما شهدته الجزائر مِن جفاف وانعدام الموارد المائية الأخرى، إذ أنّ الموارد الأخرى للمياه لم تكن تستغل إلاّ نادرا، فمياه الأمطار المتساقطة كثيرا ما أوجدت جداولَ مختلفة في البلاد[1]، استُغِل بعضها في المدن الكبرى كالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان[2]، واستغلت مياه الجداول أيضا في تزويد الدور بالمياه والسقي في الحواضر الكبرى بالصحراء كبسكرة التي شيد الورثيلاني بذكر كثيرة المياه والسواقي بها حتى يقول:«... لكل باب منها ساقية عنده ونخلها عظيم وغلتها كثيرة وكذا الفواكه والزيتون بها..»[3] بينما لا نكاد نقف على أي إشارة تدلنا على استغلالها من طرف الفلاحين خلال تلك الفترة، بل العكس من ذلك تماما فإنّنا نقف على إشارات مختلفة في كتب الرّحالة الغربين تشير إلى جهل السكان لطريقة استغلال مياه المنابع أو استغلالها[4].

وقد انتبهت الكتابات الفرنسية لذلك حين ناقشت هذه الدّراسات مشكلة عدم استغلال الأمطار المتساقطة، والمطَّلع على هذه الدِّراسات أو التَّقارير سيلاحظ استغراب تلك الأبحاث لندرة وجود السُّدود، وانعدام استغلال المياه الجوفية، وعدم الاهتمام بالمياه الموجودة بأعالي الجبال في عمليتي الري والزّرع، وأغرب ما في الأمر أنَّ أساليب استغلال المياه الجوفية والارتوازية كانت موجودة منذ قرون خلت خلال الفترة النوميدية والرومانية وهذه الطريقة استفادت منها لاحقا الدول الأوروبية كإسبانيا[5]. غير أنّ هذا الأمر لا يمكن تعميمه على كل أرجاء الإيالة، إذ تذكر بعض الدراسات أنّ نظام السقي في فحص مدينة الجزائر كان مُتطورا نسبياً مقارنة بمعارف تلك الفترة، وهو ما سمح بإقامة زراعة كثيفة للأشجار المثمرة والخضار والحبوب في المناطق القريبة مِن دار السُّلطان، معتمدة في ذلك على مجموعة كبيرة من الآبار والعيون والسواقي والقنوات والصهاريج، استغلت جميعا بكفاءة عالية[6].

---

1 - William Shaler : op.cit., P14.

2 - Mostefa Khiati: la médecine en Algérie au cours de la période Ottoman (15-19 siècle), éditions Houma, 2013, 65.

3 - الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص 199.

4 - أو. هابنسترايت: رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر 1987، ص 60.

5 - Clade Guy: op.cit., P9.

6 - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثمانية، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 2000، ص 416.

إلاّ أنّنا إن جئنا للحكم على مدى استغلال الموارد المائية غير الأمطار في الجزائر عامة وليس في منطقة دار السلطان وحدها أو فحص مدينة الجزائر وحده، أمكننا أن نلاحظ دون شك من خلال الإشارات المتكررة للرحالة الأوروبيين والكتابات المحلية خلال تلك الفترة ندرة استغلال هذه الموارد. وهذا بسبب اتجاه السُّكان للاعتماد على تساقط الأمطار لسقي محاصيلهم من جهة ومن جهة ثانية لانتقالهم في الكثير من الأحيان للرعي في السنوات التي عرفت جفافا أو قلّة في التّساقط.

غزوات الجراد للأراضي الزراعية:

يعد أحد أهم الأسباب التي أثرت بشكل مباشر في بروز المجاعات في الجزائر خلال الفترة المعنية بالدراسة(1700-1830م)، فكثيرا ما كان وفود الجراد على منطقة ما نذير شؤم لا يبقى أثره منحصرا في تلك المنطقة بل يتعداها إلى غيرها، فإن تقرَّر هذا ذهبنا إلى بيان الأثر الحقيقي لحركة الجراد على المحاصيل؛ إذ أنَّ أسراب الجراد هذه كثيرا ما دمَّرت المحاصيل وسببت المجاعات بشكل مباشر[1]، ما يجعل من هذه الأسراب أحد العوامل الأساسية المسببة لأزمات التغذية خلال الفترة الزمنية محل الدراسة كما سنحاول توضيحه.

فغزو الجراد للمناطق المزروعة هو أحد الأسباب الأساسية والأركان الفعلية التي ترتكز عليها المجاعات الدورية، أو كما يقول صاحبي كتاب "الأوبئة والمجاعات في مغرب القرنين 16 و17م" :«..أن الجراد كان يدخل في موكب الجفاف..»[2]، وكثيرا ما كان ذكر مرور الجراد بمنطقة ما موازيا لحدوث أزمة غذائية؛ فهو عند حلوله على أي مجال إنما يأتي فيها على الأخضر واليابس معا، ويجعل المنطقة كأن لم تك من قبل.

مثلما أشار إلى ذلك مثلا "مارشيكا" بحديثه عن كون الوباء الذي ضرب الإيالة خلال هذه السنة (1700م) قد كان مصحوبا أيضا بأسراب من الجراد والجنادب[3]؛ وهو ما كان يؤثّر حتما بشكل مباشر في انتشار المجاعة بعد هذه السنة، إذ أنّ وجود الجنادب يعني بالضرورة انحصار الإنتاج الزراعي وانعدام الأمن الغذائي. وهو ما نستقرأه ضمن إحدى الإشارات العرضية في ثنايا إحدى المراسلات الموجودة ضمن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، إذ تذكر في تقريرها المرسل سنة (1702م) وجود قحط شديد ونقص كبير في المؤونة[4].

[1] - Perrot, Aristide-Michel esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, accompagnée d'une carte générale du royaume et d'un plan du port et de ses environs, Éditeur : L'advocaat, Paris, 1830, P 15.

[2] – برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص 158.

[3] - Jean Marchika :op.cit., P69.

[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes : F° 292-293. 02/Mai/1702.

وكثيرا ما اعتُبر مرور الجراد نبئا عن مرور البلاد كذلك بنقص في الغذاء كما هو الحال مثلا في مجاعة سنة (1121هـ/1710م) حيث يذكر أحد الرّحالة الذين مرّوا على ناحية الجنوب الغربي بمحاذاة "الأغواط" و"عين ماضي" أنّ الجراد قد أهلك ودمّر البلاد بتلك الناحية[1]، ويُذكر من أمثلة غزو الجراد للحقول أيضا ما نقله "غيو" عن "شاو" بأنَّ الجراد كان قد أتى على المحاصيل الزراعية سنوات (1136هـ/1724م) وفي السنة التي تلتها تجدَّد ظهوره وكان بأعداد كبيرة جدّاً مما يعني أنَّه أثر فعلا على المحصول الزراعي لسنتين كاملتين، حينها جعلت السنة الثالثة أي تلك التي تلتهما معرضة لتكون سنة شح وارتفاع للأسعار إن لم يؤدي الأمر إلى أكثر من ذلك[2] وهو ما حدث بالفعل.

والأمر نفسه يتكرّر في سنوات مختلفة، ويؤدي غالبا إلى نفس النتائج، فنقف فيما ذكره "دي غرامونت" من مجاعة أصابت الجزائر سنة (1193هـ/1779م) كنتيجة حتمية لغزو الجراد للحقول؛ والذي ذكر أنه دمّر بالفعل كل المحاصيل الزراعية لسنتين ماضيتين قبل بروز هذه المجاعة[3]، يتجدد الأمر مرة أخرى وبنفس الصيغة سنة (1804م) إذ يذكر "مارشيكا" في تفسيره لمجاعة هذه السنة وارتباطها بوباء تلك الفترة[4]، أنه كان نتيجة حتمية لظهور أسراب الجراد المتنقلة بحيث قامت أسراب الجراد بمهاجمة أحواز مدينة قسنطينة؛ فقضت على جل القمح وكل ما وجد في طريقها من بساتين؛ حتى غدت كأنها لم توجد من قبل تماما[5]، يتكرّر الأمر مرّة تلو الأخرى وهذه المرة نقف عليه سنة (1230هـ/1815م) إذ يذكر "شالر" في مذكراته مهاجمة أسراب الجراد لحقول القمح والشعير فقضت على ما كان يوجد بها من زرع وثمار[6]، وقد وردت من مقاطعة "وهران" بحيث اتجهت منها إلى بيلك التيطري ودار السلطان[7]، الأمر الذي اضطر الدّاي إلى اتخاذ تدابير محددة تقضي بمنع تصدير الحبوب من قسنطينة ووهران إلى خارج الإيالة، بل وسعى إلى تغطية آثار هذا الغزو وما سيترتب عنه باستيراد القمح مِن الموانئ الأوروبية في محاولة يائسة لتغطية أي عجز قد يظهر[8]. وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن الأسباب التي ساهمت بشكل كبير في ظهور المجاعات في الجزائر خلال العهد العثماني، ووجب علينا الآن الانتقال إلى الشق الآخر من العنوان الفرعي؛ لنتحدَّث عن الأسباب المساهمة بشكل مباشر في تفشي الأوبئة في الجزائر العثمانية خلال المرحلة (1700-1830م)

---

[1] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P261.
[2] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P309.
[3] -H.DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P331.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P108.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P368.
[6] - William Shaler : op.cit., P, P 87, 88.
[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P368.
[8] - Lucette Valensi : le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830) p59/60. A.I.P.A : 1924-N°3. P24.

وقد اختلفت بالفعل الأسباب التي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في ظهور الأوبئة أو توطنها في أماكن بعينها، فأجملها البعض في عدم وجود النظافة بسبب الظروف الحياتية السيئة[1]، وانتشار الذهنية غير المبالية بخطورة هذه الأوبئة، والتي حملت المريض على إعادة استخدام نفس الملابس القذرة وعدم حرصه على نظافتها حتى بعد العلاج مِن الأمراض[2]، إضافة إلى عوامل خارج عن الإنسان تتمثل في تلك التغيرات الفورية التي كان يشهدها المناخ العام وانتشار الطَّعام السيء بين السكان[3] إضافة إلى التأثير الكبير للمجاعات التكرارية، والتي نجم عنها فقدان الجسم لقدراته المناعية في مواجهة البكتيريات المختلفة[4]، وبالتالي أصبح وجود هذه المجاعات وسيلة لظهور الأوبئة وانتشارها[5]، لذا فإنه مع تقدم الحضارة والتطبيق الصارم لشروط النظافة وفرّت إلى حد ما بيئة طاردة للجراثيم وتكاثرها[6]، وبالتالي أصبحت معظم الدراسات في شأن انتشار الأوبئة والطواعين تركِّز على فكرة أن تناقص الأمراض تابع لتطور النظافة في المحيط العام[7]، كما نقف على التواصل التجاري والسياسي كأحد الأسباب الأساسية في نقل الوباء ونشره في إيالة الجزائر.

وقد تباينت الأراء العلمية والتاريخية حول اعتبار التواصل والحركية التجارية أحد الأسباب الرئيسية لظهور الأوبئة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، ومناط هذا التباين هو رؤية كل طرف لإيالة الجزائر من حيث كونها موطن وبائي أو مستورد له، وهنا نقف أمام فرضيتين

الأولى ترى أنَّ أصل معظم الأوبئة الموجودة في الإيالة خلال المرحلة محل الدراسة (1700-1830م) غالبا ما كان منبعه بعض المناطق في جنوب شرق آسيا وبعض المناطق في وسط إفريقيا، وفي بعض المراحل الزمنية يُضاف لها الحيز الأوروبي بحيث أضحى الوباء مُتأصِّلا بها أيضا[8]، بناء عليه اعتبرت نفس هذه الدراسات أنَّ إيالة الجزائر خلال العهد العثماني –وبالتحديد في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر– أضحت بدورها حالة مرضية مزمنة ارتبطت بها الأوبئة ارتباطاً وثيقاً[9]، وقد أثَّرت هذه

---

[1] - Boucher Hubert : op.cit., P58.
[2] - Bertherand Émile : op.cit., P231.
[3] - Crouzet Stanislas : op.cit., P17.
[4] - Kelsch Achille : op.cit., P03.
[5] - Baillière Georges Jean-Baptiste : op.cit., P27.
[6] - ibid. P19.
[7] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P16.
[8] - Tholozan Joseph-Désiré : Du Développement de la peste dans les pays montagneux et sur les hauts plateaux de l'Europe, de l'Afrique et de l'Asie, Gauthier-Villars, Paris, P2.
[9] -Lucette Valensi: op.cit., P21.

الأوبئة تأثيراً بالغًا في الحياة الصِّحية[1] والتعداد الدِّيموغرافي لساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر، وجعلت حركة الساكنة دائمة هربا من الأوبئة والمجاعات[2].

غير أنَّنا لا يمكننا أن نعدَّ هذا الحكم حكما مُتيقِّناً؛ وهو ما تراه الفرضية الثانية في هذه الإشكالية والتي ذهبت الدِّراسات الغربية منها خاصة الفرنسية إلى التأكيد على أنَّ الجزائر خلال الفترة المدروسة لم تكن موطنا للوباء كما قد قيل، ولكنه كثيرا ما سِيق إليها مِن عواصم عالمية مثل: القسطنطينية، الإسكندرية، مارسيليا، إسبانيا، إزمير...إلخ مثلما هو الحال مثلا في وباء (1153هـ/1740م)[3] الذي قيل أنه وفد من أزمير[4]، ووباء سنة (1786م) الوافد عبر تونس من طرابلس الغرب أو ذلك الذي ألم بالجزائر سنة (1796م) الذي يرى " تيروزن " أنّه مصر هي منبعه الأساسي، و فإن عرف ذلك وتقرَّر ذلك بالفعل حسب هذه الدِّراسات فإنَّ الوباء في الجزائر كان في الغالب الأعم -وإن أطال مُقامه في بعض الأحيان- وافداً مِن أماكن أخرى، وبهذا فالمنطقة لم تكن موبوءة لتوفر الخصائص الوبائية الأصيلة بها، فالمناخ مثلا وهو أحد العوامل الأساسية في ظهور الأوبئة وانتشارها كان يعد في الجزائر مناخا صحيّاً[5] كم مرَّ بنا، وإنّما يمكن ردّ اتجاه بعض الأبحاث إلى اعتبار الجزائر منطقة موبوءة لتغلغل مجموعة من العوامل في المنطقة ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في توطُّن الوباء لفترات زمنية طويلة أو بسبب أنها كانت أوبئة تكرارية جعلت بعض الباحثين الفرنسيين يعدونها نوع من التوطن المحلي للوباء في الجزائر[6].

وعملية التمحيص واستقراء المصادر التي تناولت هذا الموضوع تضعنا أمام فرضية هامة هي أن الجو العام للجزائر كان صحيا[7]، وهذا ما يعني أنّ جلَّ الأوبئة التي أصابت الجزائر خلال الفترة (1700-1830) كان مصدرها المشرق العربي أو موانئ دار الخلافة العثمانية[8] وبالأخص إيالة مصر إذ كثيرا ما أشير إلى دلتا النيل وصعيد مصر كأحد الروافد الأساسية في إنتاج ونشر الأوبئة وهي في ذلك لا تكاد تختلف عن نهر الغانج في الهند والمسيسيبي في أمريكا وما بين النهرين في العراق[9].

---

[1]- فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق ، ص 134.

[2] - A.I.P.A. (1924-N°3. P312)

[3] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

[4] - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 39.

[5] - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص، ص12،13.

[6] -H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P313.

[7] - Mostefa Khiati: op.cit., P89.

[8] - Lucette Valensi : op.cit., p 21.

[9] - A.N.M : Bulletin de l'Académie nationale de médecine, Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899, P46.

لذا نجد (Tholozan) تلوزان يؤكد أنّ أصل هذه الوباء الذي ألم بالمناطق المغاربية والسواحل المتوسطية سنة (1796م) منبعه الرئيسي صعيد مصر لينتقل بعد ذلك منها إلى غيرها من المناطق في إفريقيا[1]، مثلما يتحدث (Laumonier) لومونيير من كون دلتا النيل أحد منابع الطاعون الأساسية إضافة إلى نهر الغانج في الهند[2]، بل وبتتبع بسيط للأوبئة ومصادرها خلال حيز زمني بسيط نجده مرتبط بمصر إذ أنّ الرقم الذي تذكره بعض المصادر مرتفع جدا ويصل خلال نصف قرن إلى ما يقارب واحد وعشرون وباءً[3] وهو نفس الرقم الذي أوردته الأكاديمية الطبية الفرنسية التي تحدثت عن تحقيق النظر في واحد وعشرون وباء في مصر خلال المرحلة الزمنية المنحصرة بين سنوات (1783م) وسنة (1844م)[4] لذا ذهب المؤتمرون في الملتقيات الطبية التي عُقدت حول الأوبئة ونظام الكرنتينة تذهب إلى الإقرار بأنّ إيالة مصر تعد موطنا أساسيا للطاعون في المنطقة[5]، وهو ما حمل كروزيت على اعتبار مصر إضافة للأناضول أحد أهم مناطق انتشار الأوبئة خلال المرحلة محل الدراسة[6] مثلما نجد أنَّ عدد من الأوبئة التي أصيبت بها الجزائر كانت منقولة إليها من فرنسا كما هو الحال في أوبئة سنوات (1720م) وسنة (1741م) حيث نجده قضى في فرنسا خلال سنة واحدة على (40.000) أربعين ألف ضحية[7]، ولم يقتصر الأمر على ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر إذ وفدت الكثير من الأوبئة بعد الاحتلال من فرنسا إلى الجزائر مثلما هو الحال مع كوليرا سنة (1837م)[8].

فإن تقرر ذلك ذهبنا مذهب من يرى من الدارسين الغربيين أنّ إيالة الجزائر ظلت طيلة تلك المرحلة الزمنية مُستورِد مميز للأوبئة، وكانت أحد مصادره إضافة للأناضول ومصر المملكة الفرنسية ولم يقتصر الأمر على الفترة المدروسة أو على الوباء الذي ضرب فرنسا سنة (1720م) وانتقل منها إلى الإيالة بل يتعداها إلى تلك الأوبئة التي ظهرت في المرحلة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر والتي أقر الباحثين الفرنسيين أنها واردة من موطنهم وليست أصيلة في الجزائر كما قد يعتقد[9].

---

[1] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P03.
[2] - Laumonier Jean : La peste : histoire et traitement, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897, P02.
[3] - Ibid. P8.
[4] - A.N.M : Anné1899, P46.
[5] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P15.
[6] - Crouzet Stanislas : op.cit., P02-05.
[7] - A.N.M : Anné1899, P589.
[8] - Daremberg Georges : op.cit., P07.
[9] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P107.

ويمكن عدّ التزامن التاريخي لظهور العينات الوبائية في المشرق وتواجدها في المغرب عاملا أساسيا في الاتجاه نحو اعتبار أن الكثير من الأعراض الوبائية كان موطنها المشرق أو دار الخلافة، وسنستعرض العديد من الأمثلة عن انتقال الأوبئة من المشرق إلى المغرب.

فلطالما ظهرت الأوبئة في مِصر وانتقلت مع الحجاج إلى غيرها من بلاد الإسلام، والأمر الذي حمل عدداً مِن العلماء على أن يُحجِم عن العودة من موانئ مصر في رحلتهم الحجية خاصة إذا ما علموا أنها موبوءة كما حدث مع العالم إدريس بن حسام الدين علي باديسي سنة(917هـ) الذي قرر عدم العودة عن طريق مصر وقال: «..وتواترت الأثار بنزول نازلة الوباء الشديد بمصر وتوابعها في تلك الأيام، فامتنعت من الإقدام إلى قدوم تلك البلاد للمعاودة نحو ممالك الروم عن طريق البحر المعتاد..»[1] ثم ظهر في الجزائر وباء سنة (1718م) واعتبر غيو أنه امتداد للوباء الذي كان في مصر؛ إذ يصرح بأنّ السبب الرئيس في تفشي طاعون سنة (1130هـ/1718م) في إيالة الجزائر يعود إلى تراخي داي الجزائر في تطبيق الإجراءات الاحترازية على سفينة قادمة من ميناء الإسكندرية وقد عُلِم سلفا بأنّها تحمل الطاعون، بل ولم يقم بفرض أي حِجر صحي كان من المفروض أن يفرض على من كان على متن تلك السفينة، وما يثير فعلا الدهشة أن جميع من في ميناء مدينة الجزائر قد سمع بحادثة وفاة أحد ركاب السفينة بالطاعون لكن لم يتحرك أحد لحجب خطر هذه السفينة وهو ما أدى إلى دخول الوباء مدينة الجزائر[2].

وفيما يلي بعض الأسباب التي ساهمت بشكل رئيسي في انتشار الأوبئة في الجزائر خلال الفترة المعنية بالدِّراسة.

هجرة الأراضي الزراعية مسبباته وانعكاساته

تعد هجرة الأراضي الزراعية أحد المسببات الأساسية لقلة المحاصيل الزراعية فإن تزامنت الهجرة مع الجفاف كان أثرها أشد على الناس عامة ليس على القبائل التي تهاجر أراضيها فقط، وإن كان هذا أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه فمن الواجب أن نضيف الأركان التي عليها مدار الهجرة، وينبني عليها العديد من النتائج، لكن قبل أن نخوض في هذه النتائج وجب أن نقدم بتوطئة تبين مرد تخلي السكان على أراضيهم خلال تلك المرحلة ووفقا له نجيب عن سؤال العلاقة البينية بين هجرات الأراضي والأزمات الغذائية، وهذا التَّخلي مردُّه أمرين أساسين:

أوّلا: الوضعية الأمنية الصَّعبة التي كانت تعرفها بعض الأماكن خلال فترات زمنية مختلفة بسبب المواجهات بين القبائل أو بسبب المواجهات مع السلطة الحاكمة، مثلما حدث في ثورة "ابن الشريف" في

[1] - إدريس بن حسام الدين علي البدليسي: رسالة الآباء عن مواقع الوباء، مخطوط السليمانية [و/5] مجموعة وهبي، رقم 01379.

[2] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.

بيلك الغرب الجزائري[1]، الأمر الذي دفع بالمزارعين الذين تقع أراضيهم ضمن نطاق المواجهات بين الترك بقيادة "مصطفى باي" والعرب بقيادة "ابن الشريف الدرقاوي" إلى هجرتها بحثا عن الملاذ آخر أكثر أمنا، وهو ما أحدث الكثير مِن الاضطراب في عمليتي الحرث والحصاد ما أدى بدوره إلى انخفاض كبير في عملية إنتاج القمح.

إضافة إلى ذلك فإنَّ إمكانية توفير الأمن في بعض الأماكن بسبب قوّة بعض القبائل والعشائر فإنَّ الأمر غير مضمون في عملية توزيع الحبوب ووصولها إلى الأسواق، بسبب خوف المزارعين مِن النهب الذي قد يتعرضون له في المسالك المؤدية إلى الأسواق، ومِن صور تأثير انعدام الأمن على ظهور المجاعات في الجزائر ما حدث أيضا سنة (1804م) عندما كانت الجزائر تشهد تمردات وثورات قبلية في أماكن مختلفة على رأسها بيلك الشرق الجزائري إذ تزعم "ابن الأحرش" تلك الثورة، ما نجم عنها خوف الفلاحين والتُّجار مِن سلوك طرق قد تنتهي بهم وبمنتوجاتهم إلى مآل غير محمود وهو ما حدث فعلا؛ إذ بعد انتشار خبر تمرد "ابن الأحرش" على العثمانيين وشيوع خبر موت "عثمان باي" حاكم قسنطينة في إحدى مواجهته لهذه الثورة سنة (1804م) في منطقة الواقعة بين القل وجيجل واسمها "وادي الزهور" اضطرب النَّاس وسادَ الهولُ بين الرَّعية وقَلَّت الحبوب، وزاد الوضع تأزما بعد أنَّ دخلت أعراش تلك المناطق في مواجهات بين بعضها البعض، فسادت بسبب هذه الثورة الفوضى والفتن؛ ما أدى إلى انعدام الحراثة، وندرت الحبوب، وعزَّ نقل الأخيرة من أماكن إنتاجها إلى أماكن بيعها[2] وخوف النَّاس على أنفسهم وسلعهم بعدما ذاع خبر الفوضى.

استمرّ هذا الأمر في بيلك قسنطينة من انعدام الحرث والزرع قرابة السنتين[3] إلى أنّ عادت الأمور إلى نصابها مرة أخرى بداية من سنة (1223هـ/1808م) وقد استطاع العنتري تشريح هذه المجاعة برؤية عميقة ودقيقة، مُفسِّراً ما أصاب البلاد مِن عُسرة بارتفاع الأسعار وشحُّ الأقوات بقوله: «واتَّضح أنَّ سبب دوام القحط والشرِّ على بلاد قسنطينة ووطنها مدة ثلاثة أعوام مركب من أمرين: أحدهما نزول الجائحة والقحط في السنة الأولى، وبقي(كذا) السنتين التي بعدها. والثاني: وهو أعظمها ترادف الافتتان والأهوال التي لم تطمئن نفوس الناس للحراثة معها.»[4] وإذا تقرر هذا قلنا كما أنَّ للاستقرار دوره في توفير المنتج والرخاء فإن للقلاقل والثورات دورا في قبض المنتجات والخيرات.

---

[1] - Walsin Esterhazy Louis-Joseph-Ferdinand : De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, éditeur, C. Gosselin, Paris, 1840, P206.

[2] - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، د-ط، ذخائر المغرب العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص-ص 29-33.

[3] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, Revue African., Anne 1895. N°39, P165.

[4] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 39.

إضافة لما مرّ ذكره يمكننا الحديث أيضا عن أحد الأسباب التي لازلنا نرى مخلفاتها إلى اليوم، وهي الذهنية الجزائرية بصفة عامة، فالغالب على الفلاَّح أو المزارع الجزائري أنَّه لم يكن وثيق الصلة بعملية البذر والزرع وذلك لما تحتاجه مِن جُهد وأيدٍ عاملة مجتهدة وتحمُّلٍ للمشاق إضافة إلى أن العائد المالي منه لم يكن كبيرا[1]، بعكس عملية الرَّعي التي كانت بأقل جهد وأفضل نتائج، ولعلَّ هذا الأمر هو ما جعل العديد من الرحالة الغربين أو القناصل الأوروبيين ينعت المزارعين والفلاحين بالكسالى[2]، ويتَّهمونهم بعدم الاجتهاد، وعدم التَّحكم في فنون الزراعة، ما جعل مناطق سهلية خصبة جداً لا تُؤتِي من أُكلها إلاَّ اليسير[3].

عدم الاحتراز من الأوبئة:

تذهب بعض الأبحاث المعاصرة التي تناولت موضوع الصحة وتعامل السلطة معها إلى الإقرار بعدم جدوى التَّصدي إلى الوباء بعد وقوعه؛ ولهذا فإن غالب الأزمات الصحية التي كانت تحدث كانت نتيجة تراخي السلطة الحاكمة في ضبط الأمور الصحية ومراقبتها، سواء كان ذلك في مدينة الجزائر أو في غيرها من المدن.

إذ قلما نجدها تعمل على اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد تفشي الأوبئة في إيالة الجزائر، أو القيام بما من شأنه أن يحد مِن دخول الأوبئة إلى الجزائر. وعلى عكس ما كان يقول وزير الداخلية الفرنسية في رسائله إلى المسؤولين عن الموانئ الفرنسية في تلك المدة الزمنية بحيث يؤكد أن الكوليرا لن تحقق شيئا إذا وجدت من يتصدى لها قبل وقوعها قائلا: «...إذا كان لكل فرد واجب بسيط ومخلص مع ضميره لمسؤولياته الواضحة اتجاه الأمة فإن الكوليرا لا تشكل خطرا»[4] غير أن الأمر في الجزائر كان يسري وينشر بشكل أساسي بسبب عدم وجود أي تحلي بروح المسؤولية للوقوف في وجه الأوبئة، ولما نقوم بتتبع قول وزير الداخلية الفرنسي نقف على مفاتيح أساسية لفهم مواطن الخلل الرئيسية التي كان يلج من خلالها الوباء إلى الإيالة الجزائرية. إذ ضمن هذا القول كلمات مفتاحية مِن شأنها أن تقضي أو على الأقل تُقلّل مِن الظهور المتكرر للأوبئة خلال مرحلة ما، فالبحوث المتعددة وما تمَّ استعراضه فيما سبق مِن هذه الدراسة يؤكد أكثر مِن مرّة على المسؤولية الإنسانية في تفشي وانتشار الأمراض الوبائية، ولهذا فقد رأي وزير الداخلية بأن القضاء على الأوبئة يكمن في استباق أمرها، وما ذلك إلاَّ بالاحتراز منها وتجنب ما يهيجها لكن هذا لا يعني منع ظهورها تماما -وإن كان هذا مُتاحاً اليوم بالفعل عن طريق التلقيح وغيره-.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 35.

[2] - أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ص 60.

[3] - William Shaler : op.cit., P13.

[4] - Dubar Léon : op.cit., P01.

ونواصل مع ما ذكره وزير الداخلية الفرنسي في أمريته السابقة بقوله: «مَن يُرد السّلام الصّحي عليه أن يُعدَّ العُدَّة لمواجهة الشر (الأوبئة) وذلك باحتجازه والتحذير من خطره»[1] وهذا الأمر يقودنا إلى نقطة هامة مفادها أنَّ درأ خطر الأوبئة؛ إنما ينقسم التعامل معه في الدول الأوروبية -التي كانت تتقدم على الدول الإسلامية في هذا المجال- إلى قسمين أساسيين تكاد تجمع عليها العديد من الدراسات[2]:

أولها: القسم الوقائي (Traitement préventif): وهو الشكل الأولي الذي يستعان به قبل حدوث الوباء.

ثانيها: القسم العلاجي (thérapeutique)، وهو مجموعة التدابير التي تُؤخذ أثناء ظهور الأوبئة[3].

فنجد مثلا مِن الدول الأوروبية مَن تقوم مباشرة بعد ظهور الوباء بالإسراع في إصدار مراسيم مختلفة لتنظيف الشوارع وتفرض عقوبات على المخالفين كما تصدر تشريعات لإقامة مخيمات للحجر الصحي ودفن الموتى بشكل سريع ومنظم[4]، وهناك مَن يرى أنّ جميع الإجراءات الاحترازية وحتى المصاحبة لظهور الأوبئة من حجر صحي وتطويق الأماكن المصابة بالوباء والتي تُقدم عليها السلطة الحاكمة ستصبح بدون معنى و لا فائدة منها إذا استثنيت منه فرض الرقابة الصارمة على النظافة العامة في الأماكن والأزقة[5]، وهو ما سنحاول أن نتحرّى وجوده في المرحلة الزمنية محل الدراسة ومدى تطابقها مع الشروط الصحية المفترضة.

هذين القسمين سنحاول تتبع مدى وجودهما في إيالة الجزائر أثناء المرحلة المدروسة (1700-1830 وإن كنا لا ننفي أن السلطة قد حاولت في بعض المرات التعامل مع هجومات الوباء بنوع من الحيطة لكن لا يشك أن هذه الاحتياطات لم ترق لتكون ديدن عام للسياسة العثمانية في الجزائر، لذا نجد في العديد من المرات السبب الرئيس لدخول الوباء إلى الإيالة هو عدم تطبيق الإجراءات الصحية بشكل جدي وحازم.

وتقودنا الأبحاث إلى أنّ سبب انتشار عدد من الأوبئة كان تعنت السلطة الحاكمة في التعامل معها، إذ يذكر "غيون" أنّ الوباء سنة (1717م) قد وَفد إلى إيالة الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية قَدمت محمَّلة بالسِّلع قادمة من مصر[6]، وقد ذُكر أنَّ الوباء على أشدَّه بها، وقد انتشر خبر موت قبطان هذه

---

[1] - Ibid.
[2] - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand : op.cit., P141.
[3] - Crouzet Stanislas : op.cit., P31.
[4] - Maury Eugène : L'hygiène et l'assistance publiques à Bar-sur-Aube (Aube) au XVIIIe siècle d'après les registres de délibérations (1572-1789), Éditeur : Imp. Nationale, Paris, 1903, P05.
[5] - Boucher Hubert : op.cit., P59.
[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

السَّفينة قبل أن ترسو بميناء المدينة[1]، ممَّا مِن شأنه في الحالات الطبيعية أن يثير بعض الإجراءات الاحترازية لدى السُّلطات الحاكمة في الإيالة الجزائرية إلاَّ أنّ ذلك لم يثر أي اهتمام لدى ديات الجزائر، بل لم يُذكر قيامهم بأي جهد مِن شأنه الوقوف في وجه هذا الخطر[2]، والأمر لم يكن قاصرا على هذه الحادثة فقط بل تشير مثلا وثيقتين أرشيفيتين التين خبر دخول السفينة الفرنسية (Sainte Barbe) سنة (1740م)[3] الوافدة من الإسكندرية وهي مصابة بالوباء إلى إيالة الجزائر، وكان دخولها تحديدا من خلال ميناء المدينة وقد علم أنها كان تحمل على متنها عدد من المصابين بالطاعون قدموا من مصر إلاَّ أنَّ السُّلطة الحاكمة في مدينة الجزائر لم تقم بأي إجراءات مِن أجل التّحقُّق مِن أمرها أو لإقامة حجر صحي لمن قدم على متن هذه السفينة[4]، خاصة إذا علمنا أنّ قبطان هذه السَّفينة (Honoré Lyon) كان قد أكد لنائب القنصل الفرنسي بالمدينة بأنّ السّفينة تحمّل بين جنباتها مَن هو مصاب بالوباء.

وقد اتصل الأخير فعلا بالداي وشرح له الأمر مِن أجل اتِّخاذ ما يلزم في هذه الحالة من العمل بنظام الحجر الصحي إلى أن يُتيقَّن مِن خلو السفينة مما جلبته معها من بلاء، إلاَّ أنَّ الداي تغاضى عن ذلك، بل وعدّ كلام نائب القنصل شكل من أشكال الخوف؛ ولا يليق بمن هو في مقام باشا الجزائر وبشجاعته أن يخيفه عارضٌ كالوباء، بل تحدَّاه في صورة من صور العنجهية أن يتمكّن هذا الوباء من إحداث أي ضرر بالمدينة، وأمر الدّاي بأن تُنزل جميع البضائع والحاجيات مِن على ظهر هذه السَّفينة وأنَّ يُسمح لمن كان على متنها بالدخول إلى المملكة بدون أي اعتراض، بل الأدهى مِن هذا أنَّه لم يكد نائب القنصل الفرنسي العودة إلى مكان إقامته حتى بلغه بأنّ سلع والبضائع التي قدمت على متن هذه السفينة أضحت تباع وتشترى في الأسواق بشكل كبير[5]؛ وهي صورة تُعبِّر في حقيقتها عن الجهل والاستهزاء بالنّصائح التي كان يسعى نائب القنصل الفرنسي تقديمها إلى الداي، لذا فنحن إذا جدراء هنا بأنَّ نصرف البيان إلى أنّ انتشار هذا الوباء وتفشي ضرره في أرجاء المدينة واستمراره في حصد ضحاياه مِن السَّاكنة ولمدَّة ثلاث سنوات على الأقل كان بفعل التَّصرف اللامسوؤل الذي أقرَّه الداي، والذي نجم عنه سقوط عدد ضحايا نتيجة هذا التَّصرف خلال مدَّة ثلاث سنوات ما يقارب على الأقل ستين ألف ضحية[6].

وهو ليس فعلا شاذا أو معزولا؛ إذ نقف في مرحلة أخرى خلال سنة (1752م) على تصرَّف لا يقل غرابة من باشا الجزائر "إبراهيم باي" والذي حاول سنة (1752م) إخفاء أمر الوباء الذي استفحل في

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P75.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298
[3] - C.C.F.A [AF.é] : AE/B/I/124. Cotes: F° 264-265. 27/05/1740.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 266-271. 08/06/1740.
[5] - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P31.
[6] - Jean Marchika :op.cit., P92.

المدينة؛ أملاً في استرجاع بعض الحركية الاقتصادية الغائبة عن المدينة منذ سنتين، غير أنه فشل في ذلك؛ إذ استطاع نائب القنصل الفرنسي حينها السيد "جونفيل" عن طريق المعلومات التي أوردها جواسيسه التَّأكد مِن الأعداد الكبيرة التي كانت تتساقط نتيجة هذا الوباء[1]، بل وقام من حينه بإعلام سلطات بلده بأنّ الوباء لا يزال قوي وموجود في الجزائر بشكل كبير لذا يجب الانتباه لذلك قبل السماح بعودة التبادلات التجارية.

من جهة أخرى وعلى الطرف الثاني نجد أنَّ السُّلطات الفرنسية كانت دائما ما تحرص على تفتيش تلك السُّفن الواردة إليها من المناطق الموبوءة بشكل دقيق وتعطي التعليمات الصارمة لتتبع السفن القادمة من الإسكندرية أو غيرها من الضفة الجنوبية والقضاء على ما فيها من جرذان مخافة أن تكون ناقلة للأوبئة أو الأمراض[2]

وحقيق بهذا أن يجعل ما ذكره الباحث "مصطفى خياطي" في كتابه عن "الطب في الجزائر خلال العهد العثماني" من كون معظم كتابات الرحالة والأطباء تشير في استغراب إلى عدم اعتماد السُّلطة العثمانية في الجزائر على أي نظام ثابت ودائم للحجر الصحي[3] حقيقة فعلية تتجاوز أي تحامل، بل إنّ الملاحظات التي تكلم عنها "خياطي" لم تقتصر على الرّحالة الأوروبيين وقناصل الدول الأجنبية فقط؛ بل امتد الإيمان بها وملاحظتها إلى بعض أعيان وعلماء الجزائر الذين أبدوا أسفهم على عدم اتخاذ الأسباب الحقيقية التي من شأنها أن تقي المجتمع من الوقوع في كنف الأزمات الغذائية والصحية كالأوبئة.

فكان من بين أوائل مَن أثاروا هذه النقطة وتأسفوا على عدم تطبيقها بالحزم والجدية اللازمين العالم الجزائري "حمدان بن عثمان خوجة" إذ عدَّ عدم الاهتمام بالاحتراز مِن الأوبئة مِن أكبر الأخطاء التي تشبَّث بها المسلمون في مختلف الأرجاء سواء في الجزائر أو غيرها، بل إنّ عدم الأخذ بأسباب الوقاية منها هو ما حمل "حمدان بن عثمان خوجة" على تأليف كتابه "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" واستغرب أيَّما استغراب لتعصُّب المسلمين -بغير وجه حق- لعدم تتبع سبل الغربيين في حفظ النفس من الوباء[4]، ففي الوقت الذي كان فيه الغربيون يقومون بالتجارب المختلفة للتطعيم والتلقيح وتجريب الأدوية المختلفة وتنظيم الملتقيات والمؤتمرات في هذا الشأن[5]، ويفرضون قيود صارمة تتعلّق بالاهتمام بالنظافة العامة وعدم السماح للأطفال بالخروج في حالة انتشار خبر وجود الوباء[6] وغيرها من أمور اتخذت في القرن السابع

[1] - Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M. T3, P 228.
[2] - A.N.M : année 1899, P53.
[3] - Mostefa Khiati: op.cit., P 72.
[4] - Ali Rıza Paşa: Mir 'at ül-Cezayir el-Veda Cezayir, s81.
[5] - Berthet Louis : op.cit., P12.
[6] - Crouzet Stanislas : op.cit., P31.

عشر ، في هذا الوقت تحديدا كان المسلمون لايزالون يناقشون حكم اقتفاء أثر الغرب في الأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، ويظهر هذا الأمر جليا في تحسّر "حمدان خوجة" على ما وصل إليه المسلمون من انحطاط فكري جعلهم يرفضون الأخذ بأسباب الوقاية من الطَّاعون والأوبئة لا لشيء إلاَّ لأنَّها من عمل النَّصارى، ويظهر هذا الأمر جليا بقوله في مقدمة "إتحاف المنصفين":« كما أنّ أقوال الحكمة وأفعالها لا يستنكف العاقل عن اقتنائها لضعة مَن فَعَلَها أو قَالها، بل يبادِر للحقِ وقبوله واستجلاب النَّفع وحُصُوله، ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال مثل هذه القواعد وإنكارها، والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الفرنج بدعواهم واشتهرت نسبته إليهم مما يتعلق من أمر دنياهم..»[1]

وليس "حمدان بن عثمان خوجة" فقط مَن تحدَّث عن عدم الاهتمام بأخذ التدابير الوقائية في مواجهة هجوم الطَّاعون، إذ يذكر "غيون" أنّ سبب انتشار طاعون سنة (1130هـ/1718م) مرده عدم اهتمام الحكام باتخاذ التدابير اللازمة؛ إذ سُمِح لسفينة عُلِم بأنَّها تحمل الطَّاعون قادمة من "الإسكندرية" بالرسو في ميناء الجزائر، بل ولم يقم بفرض أي حِجر صحي كان من المفروض أن يفرض على من كان على متن تلك السفينة، وما يثير الدهشة فعلا أنَّنا نعلم بأنّ الخبر قد وصل السلطات حول سقوط أحد ركاب السفينة ضحية لإصابته بالطّاعون[2]، كما سُمِح لسفينة أخرى بالرسو في ميناء مدينة الجزائر في (29 جويلية/17 رمضان) من سنة (1238هـ/1817م) كان على متنها مائتي شخص يركب بها عدد من أقارب الداي وكبار موظفي الدولة، مع علم المسؤولين على الميناء بأنّ هذه السفينة مصابة بالوباء، إذ كان معلوم أنَّ أربعين شخصا على الأقل قد لقو حتفهم نتيجة الوباء، وبقي حوالي خمسة وعشرون شخصا مصابون بنفس الوباء ينتظرون أجلهم مع كل هذه المعطيات لم تقم السُّلطة بأي عمل مِن شأنه الوقوف في وجه تفشي الوباء[3]، أو منع تسربه مرة أخرى على الأقل.

كما أنَّ "حمدان بن عثمان خوجة" عند حديثه عن الأنظمة الوقائية في أوروبا لم يكن يتكلم عن سماع فقط، وإنما عن معاينة أيضا، إذ أنَّه كان ممن عايش "نظام الكرنتينة" أو الحجر الصِّحي مرتين إحداهما بإسبانيا والثانية بفرنسا[4]، وقد تعمَّقت بعض الدراسات حول الأنماط والطرق المختلفة التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية في مواجهة تفشي الأوبئة، إذ كان يعمد دائما إلى عزل المرضى ومنعهم مِن التَّنقل بين الدول والبلدان، وكان لا يُسمح غالبا لمن لا يحوز على جواز سفر -مختوم مِن طرف الأطباء- بالدخول إلى

[1] - حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دار الطباعة السلطانية، إسطنبول، 1254هـ، ص 3.

[2] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.

[3] -ibid. P375.

[4] - حمدان بن عثمان خوجة: المرجع السابق ، ص 46.

المناطق التي ثبت طهارتها من الأوبئة[1]، أمّا مسألة الأخذ عن النَّصارى كانت في حينها مسألة فقهية اختلف فيها علماء ذلك العصر اختلافا بيِّنًا ليس هذا محل بسطه.

وقد صوّر "حمدان بن عثمان خوجة" ما كان يراه في الدول الغربية ولم يقف عليه في البلاد التي كان فيها -أي الجزائر- ولا غيرها مِن الدُّول الإسلامية التي زارها، إذ يُفهم مِن قوله: «..حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلاَّ بعد تحقُقِ البراءة أو الاستبراء وجعلوا لذلك حكاماً في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط وسموا ذلك كرنتينة»[2] إنّ هذه الأمور لم تكن موجودة في البلدان الإسلامية، وقد شرح "حمدان بن عثمان خوجة" سبب ذلك وحصر عدم وجود هذه الاحتياطات في البلاد الإسلامية لنفرة المسلمين مِن كلِّ ما فعله وابتكره أو رتَّبه الغربيون[3]، ومِن جهة ثانية تنقل عدد مِن الدِّراسات وجود نظام الحجر الصِّحي في بعض المناطق في الجزائر[4]، بل وكان الحجر يمتدُّ في بعض الأحيان لمدة 15 يوما وأكثر فيقول في أحداث سنة (1157هـ/1744م): «...**قدم علينا مركب من الإسكندرية بالحجاج، وفيه الوبا فمنعهم الباشا الدخول حمية من أن يقوم ممرض على مصح إلى ثامن عشرة، موافق خامس عشر أوغشت**..»[5]

الأمر الذي يعني حسب رأينا اعتماد السلطة العثمانية لنظام الحجر الصحي بصفة انتقائية وفي بعض الأماكن والأوقات فقط، وما يؤكد هذا الطرح ما أورده (شونبيرغ) في كتابه "الطب الشعبي في الجزائر بداية الاحتلال" من أنَّ بعض الدَّايات في الجزائر خلال العهد العثماني حاول التخفيف من شدة دخول الأوبئة إلى الجزائر بفرض نوع مِن الرقابة الطبية على الوافدين مِن خارج الجزائر، وبالأخص أولئك الذين يدخلون من ناحية البحر، ويذكر في هذا الشأن كيف أُمِر بإرجاع سبعة أشخاص إلى السفن التي قدموا فيها بعد أن تأكَّد المراقبون بأنَّهم موبوئون[6]، والأمر عينه قام به باي قسنطينة سنة (1785م) عندما أَجبر سكان البيلك على عدم التبادل التجاري مع جيرانهم التونسيين لما علم بأمر الوباء الذي انتشر في تونس[7]،

---

[1] - Bertherand : <u>les quarantaines et le systém de dresde à l'encontre du choléra</u>, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893, P154.

[2] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، ص3.

[3] – نفسه، ص3.

[4] - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

[5] – عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر،2011، ص 121.

[6] – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 39.

[7] - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

وهو نفس ما قام به باي وهران سنة بعد ذلك (1786م) عندما أمر بضرب نطاق حجر صحي عليه هو ومرافقيه واستنكف عن دخول مدينة وهران لما عَلِم بأمر الوباء الذي اجتاحها[1].

إلاَّ أنَّ هذا الأمر لم يكن مُطلقاً، فكثيرا ما لم يستسغ الديوان إرجاع المصابين بالوباء إلى بلدانهم، بل احتضن الكثير منهم بدعوى أنَّهم مسلمون، وأنَّ لهم الحق في الإقامة في الجزائر كغيرهم من إخوانهم؛ ما ساهم في انتشار الوباء في أكثر من مكان وامتداده بشكل أكبر[2]، وهذا الأمر لم تختصَّ به إيالة الجزائر فقط، إذ كثيرا ما اشتكى الأوروبيون عدم حرص الإمارات الإيطالية على الأخذ بأسباب الحيطة من انتشار الأوبئة، وهو ما كان له انعكاس سلبي في العديد من المرات على الدول الأوروبية الأخرى[3].

بل حتَّى أنَّ إقامة الحجر الصِّحي في الجزائر أو غيرها عندما حلَّ الاحتلال الفرنسي هو مَن يشرف على هذا الحجر لم يستطع الوقوف في وجه تفشي الأوبئة، لذا نجد بعض الباحثين الفرنسيين يرى أنَّ الحجر الصحي لم يأت أكله دائما، إذ في السنوات الأولى مِن دخول الفرنسيين إلى الجزائر انتشر (وباء الكوليرا) في عدد من المدن الفرنسية والسواحل الإسبانية، بالرغم من تطبيق قواعد الحجر الصِّحي على سواحل مدينة الجزائر، وإخلاء المباني الحكومية التي يُشك في أمر انتشار الوباء بها، فلم يثن ذلك الوباء من التقدم سنة(1834م) بل ونجده يقضي على عدد معتبر من السكان سواء في مدينة الجزائر أو في المدن الأخرى[4].

والأمر السالف ذكره يدفعنا إلى القول بأنّ تطبيق شروط الحجر الصحي لم يكن يعني منع دخول الوباء بشكل قطعي، خاصة إذا علمنا أن طول الساحل الجزائري وعدم وجود ثقافة صحية بالمفهوم المعاصر لدى الفرد الجزائري كانت عواقبه وخيمة، وكثيرا ما انعكس بشكل مباشر على الحالة الصحية للمجتمع، لكن التطبيق كان سيخفف من حدة ضرباته أو موجة تكراره على الأقل، وهو ما لم يحدث، كما سيأتي بيانه في الفصل اللاحق.

التواصل مع الباب العالي وأثره في انتقال الأمراض والأوبئة:

تعدُّ إيالة الجزائر هي مفتاح التَّواصل بين المنطقة المغاربية والدولة العثمانية، ولهذا نجد الترابط الاقتصادي والعسكري وحتَّى العلاقات السياسية لهذه الإيالة مع مركز الحكم تحظى بأهمية كبرى لا للجزائر فقط، وإنما حتى للدولة العثمانية فكثيرا ما كانت الإيالة تستفيد مما يتوفر في الباب العالي من منتوجات أو ما توفره الإيالة من فائض لأسواق الباب العالي؛ إذ قد اشتهر إنتاج بعض المواد الواسعة الاستهلاك وتبادلها

[1] - Ibid.

[2] - أف شونبيرغ: المصدر السابق ، ص 39،40.

[3] - E.L Bertherand : <u>Gazette médicale de l'Algérie</u>, Directeur Dr Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°01, 1891, P119.

[4] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P12.

الطرفان مثل: القمح، الشعير، الأرز، العسل، الزيتون، البرتقال، الليمون، وغيرها من مواد كانت أساسية في عمليات التبادل التجارية بين الجزائر وغيرها من الدول[1]، ونجد في نفس الوقت حسب بعض الوثائق والسجلات الأرشيفية أنَّ الباب العالي يأتي في المرتبة الثانية مِن حيث كونه أحد المصدريين الأساسيين للإيالة بحجم مبادلات قدرته الدراسات الفرنسية بـ (745.000) فرنك فرنسي سنة (1826م) من مجموع قدره (4.717.000) فرنك فرنسي، إضافة إلى أنَّها الزَّبون الثاني الذي تُصدَّر له المنتوجات الجزائرية[2]، فإن أضفنا إلى هذا ما هو معلومٌ مِن كون اسطنبول كانت المركز المحوري في الالتقاء بين الشَّرق الآسيوي والغرب الأوروبي والحركة الإفريقية مِن مصر؛ أصبحت بذلك إسطنبول محلاً أساسيا ومركزيا للالتقاء مختلف ما قد يكون موجودا مِن الأمراض والأوبئة، ما أهلها في العديد مِن المرات لتصبح مركزا لتحويل الأوبئة القادمة مِن آسيا والحجاز والشَّرق الأدنى إلى عمق أوروبا[3] إضافة إلى إيالات شمال إفريقيا، وبهذا يتقرّر لدينا مبدئيا أهمية هذا المحور في نقل الأوبئة التي تواجدت هناك إلى شمال إفريقيا عامة، والذي تأتي على رأسه طبعا إيالة الجزائر، وهو ما يفسر إلى حد ما انتقال العديد من حالات الوباء والطاعون من مركز الخلافة العثمانية إلى الجزائر ومنها إلى باقي المناطق المغاربية، بل يندر أن يظهر وباء في الأراضي المركزية للخلافة العثمانية دون أن يكون لها أثر في الجزائر.

فمن ذلك مثلا "**الوباء الكبير**" الذي اجتاح الجزائر سنة (1786م/1201هـ) إذ بحسب رواية الزّهار فإنه كان وباء شديدا وندعه يصف لنا شدَّته وطريقة ولوجه الإيالة فيقول:«...وفي سنة (1201هـ) جاء الوباء إلى الجزائر، حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوباء الكبير، قيل أنَّه أتى مِن برِّ التُّرك في مركب مع رجلٍ يُدعى ابن سماية، وطال الوباء في الجزائر إلى سنة (1211هـ)..»[4] كما ذكر نفس الوباء أيضا "بير بروجر" وعزى قدومه إلى بحارة وافدين مِن إسطنبول، وما يقوي فرضية قدوم هذا الوباء مِن الأناضول هو أنَّ مدينة أزمير التي كانت الخزان العسكري لإيالة الجزائر لتجنيد الإنكشارية كان الوباء قد تفشى بها بشكل كبير أثر على التجنيد في الدولة العثمانية بشكل عام، بل نجد أنَّ سرعسكر مدينة أزمير "محمَّد باشا" يأذن للمتخلِّفين عن التَّجنيد مِن خارج المدينة بالتأخر في الالتحاق بها بسبب خوفهم مِن الوباء الذي كان يتفشى فيها بشكل كبير في تلك السنة، وهذه الإشارة مبثوثة في إحدى الوثائق المؤرخة بالثاني من شعبان مِن سنة (1199هـ)[5] أي في حدود منتصف شهر

---

[1] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P209.
[2] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P212.
[3] - Jean Marchika : op.cit., P156.
[4] – أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، دار البصائر، الجزائر، طبعة وزارة الثقافة، 2009، ص78.
[5] - B.O.A : C.AS. Do : N°951.Gömlek N°41311. Tarih 1199.Ş.02. Belg 01.

جوان فإن أضفنا إلى ذلك المدة التي تستغرقها السفن في رحلتها من الأناضول إلى الجزائر ومرورها بعدد من المحطات وجدنا أن الفاصل الزمني لن يقل عن شهرين على الأقل ما سمح بتأخر دخول الوباء إلى المدينة إلى غاية السنة الموالية.

مثلما نقف على إشارة أخرى عن انتقل الوباء إلى مدينة الجزائر سنة (1792م) بفعل وفود بعض البحارة الجزائريين مِن اسطنبول[1] هذه الأخيرة التي كان ينتشر على ضفافها الوباء بشكل كبير فنجده في المورة والأناضول ونفارين وكور يدوس في ربيع سنة (1206هـ) الموافق لشهر مارس من سنة (1792م)[2] وهو ما يعني أن إمكانية انتقالها عبر البحارة من الأناضول ومن إسطنبول تحديدا قائمة.

والأمر عينه نجده يحدث سنة (1817م)، إذ يعزو "الزّهار" سبب انتشار الطّاعون إلى وفود عدد مِن المراكب قادمة مِن الباب العالي إلى الجزائر: «...عندما بلغت المراكب المهداة من اسطنبول جاء معها الوباء إلى الجزائر واشتعلت ناره سنة 1817..» وهو نفس الأمر الذي أشار إليه أيضا مارشيكا بحديثه عن سفينة واردة من الأناضول بها عدد من المجندين الأتراك الذين كان يعاني بعضهم من إصابته بالطاعون[3]، وقد أكد إسقاط الدولة العثمانية على رعاياها في العديد من المناطق في الأناضول واليونان والمجر على وجود الوباء وتفشي الوباء في المنطقة[4]، وهو ما يعني بالفعل أنَّ مَن وفد عن طريق العمارة البحرية مِن الأناضول كان سببا فعليا في نقل المرض مِن الأماكن التي كانوا يقطنونها إلى الحيز الجغرافي لإيالة الجزائر أو تفشيه على الأقل. خاصة وأننا لا نشك في أنّ السُّفن حقيقة هي الوسيلة الأمثل التي كان ينتقل مِن خلالها الوباء والعدوى سواء من خلال الحيوانات كالقوارض والفئران والطيور أو حيوانات الأخرى مثل القردة والبراغيث[5] أو في الحالات الأكثر شيوعا من خلال السفن التي تحمل الجنود والمسافرين والقراصنة[6]

ولعلَّ طبيعة العلاقات التجارية والسياسية القوِّية بين إيالة الجزائر والمشرق الإسلامي جعلها عرضة أكثر من غيرها للأوبئة الوافدة، وهو ما جعل الأوبئة والطواعين التي حاقت بالمغرب الأقصى أقل خطورة وتأثيرا حسب روزنبرجي وحميد التريكي[7].

ولعله من الأهمية بما كان أن نشير إلى الدور الخفي الذي كانت تلعبه القوارض، والتي كانت تتسرب من القوارب الوافدة إلى الجزائر عبر قنوات ومناطق مختلفة إلى ميناء الجزائر، فتنتقل في سلسلة محددة تضم

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P355 354.
[2] - B.O.A : C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P156.
[4] - B.O.A : C.ML. Do : N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.
[5] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P29.
[6] - A.N.M : Anné1843, P203.
[7] – روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص191.

هذه السلسلة كل مِن (الحامل+الناقل+المستقبل) من القارض والبرغوث لتنتقل إلى حيوانات أخرى يحتك بها الإنسان، وبالتالي فالمتلقي للعدوى وهي القوارض تحوز غالبا على حرية حركة قد لا يحوزه الضحية المصاب بالطاعون إن اكتشف أمر مرضه في الميناء، والناقل للعدوى ممثلا في صورة البرغوث ووجوده في المنزل الجزائري خلال العهد العثماني يكاد يكون أمرا مُسلَّماً به، وبالتالي فالمعادلة تكاد تكون مكتملة[1]، إذ المتلقي موجود والناقل نشط والإنسان يحيا بينها بشكل دائم، لذا فإنَّ وجود القوارض مع عدم الحرص على النظافة والالتزام بشروطها هيئ المحيط الحاضن لظهور الأوبئة والطواعين واستتبابها وانتشارها، خاصة إذا ما علمنا إمكانية اتخاذ هذه الأوبئة من الأرض جيوبا سباتيه[2] تنتقل منها مرة أخرى عند قيام الساكنة بالبحث فيها

مساهمة ركب الحجّ في تفشي الأوبئة:

يعد مِن أبرز طرق انتقال الأوبئة ودخولها الجزائر احتكاك الجزائريين بغيرهم من المسلمين في موسم الحجّ[3]، فهذا الاحتكاك المباشر بين الحجَّاج الجزائريين مع غيرهم مِن مُختلف أقطار العالم في البقاع المقدسة كثيرا ما أدى إلى انتقال العدوى الوبائية مِن فئة إلى فئات أخرى سواء كانوا جزائريين أو غيرهم، كما هو الحال في وباء سنة (1165هـ/1752م) الذي ذكر "غيون" أنَّه قدِم مع جموع الحجَّاج من مكَّة المكرمة[4].

ولا يقتصر الأمر على موسم الحج فقط وإنَّما يمتد الأمر ليشمل ما يعرف حينها بركب الحجِّ، إذ أنَّه من السُبل الأساسية في نقل العدوى الوبائية من مكان ما على طريق الحجّ إلى إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، تلك الطّرق التي تسلكها هذه المواكب عند عودتها إلى مضاربها؛ فنجد أنَّ ركب الحجَّ العائد مِن البقاع المقدسة باتِّجاه الجزائر أو أي مكان آخر في العالم كثيرا ما يحتك في طريق عودته مع قبائل مختلفة في أماكن شتى فالطريق البري من الإسكندرية إلى الجزائر قد يستغرق شهر ونصف وتجتمع فيه حشود كبيرة من حجاج طرابلس وتونس والجزائر[5]، الأمر الذي جعل العديد من التقارير الطبية تؤكد بأن الأوبئة كانت تنتقل من الشرق إلى الغرب دائما فتكون من مصر إلى ليبيا منها إلى تونس ومن تونس إلى الجزائر؛ لتصل إلى غاية المغرب الأقصى[6]، وهو ما حدث فعلا مع أكثر من وباء، إذ منذ القرن السابع عشر كانت الطريق البرية الشرقية طريق انتقال وبائي بارز، إذ كثيرا ما كان مركز الوباء الأولي في إيالة تونس ومنها انتقل إلى الجزائر

---

[1] – انظر الملاحق: الملحق رقم 02.

[2] – برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص185.

[3] - Lucette Valensi : op.cit., P 20.

[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P319.

[5] - Lucette Valensi: op.cit, p59, 60.

[6] - A.I.P.A : 1924- N°3. P312

كما هو الحال على سبيل المثال لا الحصر في أوبئة سنوات (1029هـ/1620م) و(1030هـ/1621م) و(1050هـ/1640م)[1] كذلك الشّأن بالنسبة لوباء (1074هـ/1663م)[2] والأمر سيان بالنسبة للأوبئة الأخرى محل الدراسة، نفس الأمر نجده يحدث سنة (1740م) مع السَّفينة الوافدة مِن الإسكندرية باتجاه إيالة الجزائر سنة (1153هـ/1740م)[3] وقد لبث حينها الوباء في الجزائر مدة ثلاث سنوات كاملة، أتى فيها على عدد كبير من الضحايا مثلما سيأتي ذكره في موضعه.

كما أنَّه كثيرا ما تتعدَّى رحلة الحجّ كونها رحلة لأداء المناسك فقط إلى كونها رحلة لطلب العلم، وحضور مجالس العلماء، والسياحة في المدن المشهورة، وحتى التّجارة مع القبائل التي تكون على طريق العودة، بل وحتى التَّعرف على المسلمين وأحوال أراضي الإسلام في أماكن مختلفة كما يذكر مثلا أبو راس الناصر من فوائد المنتقاة في طريقه إلى الحجّ التعرف على بعض الأماكن والمعالم سماعا أو مشاهدة[4].

لذا نجد أنَّ القافلين مِن أداء مناسك الحجّ يَسلكون طرقا مختلفة بغية الوصول إلى مساكنهم، لكن لا يكاد يخرج الأمر عن إحدى سبيلين أساسيين للعودة إلى الإيالة الجزائرية: أولهما: الطّريقُ البحري، وثانيهما: الطَّريق البريُّ، وحتَّى يتضح لنا أهمية موسم وركب الحجّ ومساهمتها في انتشار الأوبئة في بعض الأحيان، علينا أن نفصّل في هذا الأمر بالحديث عن الطريق الذي كانت تسلكها قوافل الحجَّاج العائدة مِن البقاع المقدسة، ومدى تأثيرها في انتشار الأوبئة في إيالة الجزائر.

الطريق البري: يعد هذا الطريق الأهم بالنسبة لركب الحجّ الجزائري وهو بدوره ينقسم إلى تفريعات مختلفة نستعرضها حتّى نتبيَّن أيُّ الطُّرق كان أكثرَ تأثيراً في نشر الوباء، والملاحظة التي يُستهل بها الكلام هنا أنَّ الطّريق البريَّ كان الأطول مِن حيث الفترة الزمنية، وهو الذي يتيح للحُجَّاج الرؤية والاطِّلاع على الكثير مِن الأمور التي يجهلونها، أو يندر عليهم مصادفتها في واقعهم المعاشي، الأمر الذي حمل عدداً مِن الحجَّاج على وضع تقيدات لرحلاتهم، وتُعدُّ مِصر هي الفاصل الأساسي بين مَن يركب البحر أو يرجع براً.

ينقسم الحجَّاج عند بلوغهم مِصر إلى زُمر: قسمٌ يسلك السَّبيل البري والذي يبتدأ مِن الإسكندرية باتجاه طرابلس الغرب ومنها إلى القيروان، ومِن تونس تنقسم قوافل الحُجَّاج الجزائريين إلى قسمين منها: مَن تسلك طريق الجنوب، ومنها مَن تسلك طريق السَّاحل.

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P261.
[2] - ibid. P269.
[3] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.
[4] – أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق بوكبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ج2، ص473.

أمَّا الطَّريق الأوَّل أي طريق الجنوب أو الطريق الصحراوي ويعرف أيضا "بمسلك القصور" على ما أوردته بعض الأبحاث[1]، يمتد مِن مدينة حلق الواد التونسية إلى مدينة وادي سوف الجزائرية كما يُستخلص مِن مصادر المنطقة[2]، ومِنها يستمر الطريق إلى عمق المدن الصَّحراوية الكبرى مثل: ورقلة، والأغواط، وبسكرة[3]، انتهاءً بمنطقة توات وأقاصي الصَّحراء، والملاحظ على هذه الطريق الصحراوي أنَّها لا تعرف احتكاك كبير للقوافل مع المدن الكبرى بل تمرُّ فقط على الأعراش وبعض القبائل ما يجعل بينها وبين الساكنة ليس بذلك الحجم الكبير الذي يترتب عنه تأثير كبير أو تأثُّر، ولعلّه الأمر الذي جعل المنطقة الصَّحراوية تعرف تحصينا مِن الأوبئة أكثر من نظيرتها الموجودة في المناطق الشمالية، كما سيأتي ذكره.

أمَّا الطريق السّاحلي وهو الذي تسلكه غالبية قوافل الحجّ العائدة إلى موطنها وهو الذي غالبا ما يحمل بين جنباته أنواع مختلفة من أعراض الأوبئة الموجودة في المشرق، لهذا نجد عدد من الدايات تفطن لهذا أمر واستعان بالمراقبين وبعض الأطباء ليقوموا بالتحقق من سلامة السُّفن القادمة عبر هذا المسلك من الوباء، كما يقوم المراقبون بإرجاع المسافر الذي تظهر عليه أعراض أي وباء[4]، أو عدم السماح للسفن التي يثبت أن ركابها مصابون بالمرض بالرسو في موانئ الإيالة كما حدث سنة مع السفينة العثمانية القادمة من الإسكندرية وكان على متنها عدد من الحجاج رفض استقبالها بسبب تسرب الوباء إليها وخوفا من انعكاس ذلك على سكان المدينة[5]

أما الطريق هذا فغالبا ما يكون كما ذكرنا آنفا بمحاذاة السّاحل، بحيث يمكث الحجيج في بعض المدن المشهورة والكبيرة: كعنابة، قسنطينة، أو بجاية، أو مدينة الجزائر(**أخذ رحلة أو اثنتين لرحلات الحجيج ورسم خريطة المدن التي يمرون بها العياشي- الورثيلاني**) وكانت عددا من السفن التي تقل الحجاج من مدينة الجزائر أو عنابة تمرُّ بمدينة تونس ليتسنَّى لها حسب بعض الرسائل الأرشيفية بين حكام الجزائر وأمراء فرنسا أخذ المزيد من الحُجاج من هذه البلاد[6] وهو أمر من شأنه أن يفيد الشركاء في السفينة وأصحابها ماليا، كما من شأنه أن يساهم في نقل العدوى إن وجدت من مكان إلى آخر وهكذا يحدث احتكاك تلقائي بين الحجّاج وسكان هذه المدن، فإمَّا يتأثَّر الحُجَّاج بالطَّاعون الموجود في هذه المدن وينقلونه معهم إلى المدن الداخلية وقراهم وإما يحدث العكس. خاصة إذا علمنا أنَّ العادة التي توارثها النَّاس خلال تلك

---

[1] – فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، 143.

[2] – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص 275.

[3]– فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص 143.

[4]– أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 39.

[5] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P394.

[6] - C. D. A. C. F : PP 64 -183.

الفترة أنَّه حين يقفل الرَّجل مِن أداء فريضة الحجِّ يحظى باستقبال كبير من أهل بلدته وعائلته وأصدقائه، فتقام له الولائم، ويأتي أهل القرية قاصدين بركة دعائه؛ فالقادم إليهم قد أتى مِن أفضل الأماكن وأحباها إلى قلوبهم، بل حتى لو عُرف أنَّ هذا الشَّخص كان سيّءَ السُّمعة قبل ذهابه فإنَّه عند إيابه يبجَّل ويُحترم ويقدم على غيره ويحتفى به[1]، ونتيجة هذه المعايدات والزيارات وتلك الاجتماعات التي تتمُّ خلال هذه الأيام؛ فإنّ كلَّ حاجٍّ مُصابا بمرض الطَّاعون أو الجذام قد ينقله إلى أهله وسكان قريته دون أن يعي ذلك، فكان بهذا هذا الحاجّ سبباً مِن أسباب انتشار الوباء بينهم، فينتشر تلقائيا من فرد لآخر حسب نوعية الوباء.

أمَّا الطريق البحري : فيرى كثير مِن الباحثين أنَّه الأكثر خطورة من ناحية نقل العدوى المريضة وهو الذي ساهم بشكل كبير جدا في نقل الأمراض بين الموانئ العالمية المرتبطة بالدولة العثمانية[2]، والطريق الذي تسلكه القوافل الراجعة مِن الحج عبر البحر كان لابد أن يخرج من إحدى الموانئ المرتبطة بعلاقات وطيدة مع الدولة العثمانية، ونقصد هنا موانئ مِصر، إذ أن قوافل الحجيج كانت تنتقل في الغالب من ميناء الإسكندرية على الضفة الجنوبية للمتوسط إلى مختلف الأماكن[3]، وكان الحجاج الجزائريين كغيرهم مِن المغاربة غالبا ما ينزلون إما بموانئ تونس ومنها يسلكون الطرق البرية إلى الشرق الجزائري إلى المناطق الشرقية مثل و إما يواصلون لموانئ أخرى كعنابة والجزائر وغيرها وهو ما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى دخول سفن قادمة من مصر محملة بالأوبئة كما هو الحال مع السفينة الإنجليزية التي قدمت الجزائر سنة (1131هـ/1718م) وهي محملة بالوباء كما ينقلها غيون عن لوجي دي تاسي[4].

أمَّا غالب سكان المناطق الشرقية وبعض أهالي الصّحراء، يسلكون الطريق البحري مِن مصر إلى ميناء تونس ومنها إلى وادي سوف، والواحات الكبرى. وقد ذكر هذا الطريق على سبيل المثال لا الحصر مؤلف كتاب الصروف من أنه في آخر ربيع الثاني من سنة (1205هـ/1791م) هلك ثلاثمائة حاجٍّ مِن بينهم ستة وثلاثون حاجّاً مِن أهل قمّار ممَّن غرقت سفينتهم برادس قرب تونس عند عودتهم من الحجَّ، بل وغرقت في نفس الليلة ثلاث سُفُنٍ أُخرى بها ألفا وأربعمائة مسافر[5].

---

1 - Lucette Valensi: op.cit., P 91

2- Danıel Panzac: Osmanlı İmparatorluğu'nda veba (1700-1850) çeviren Serap Yılmaz, tarih vakıf yurt yayınları, baskı Numune Matbaacılık, 1997, s66.

3 -Lucette Valensi: op.cit., P91.

4 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

5 – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص275،276.

فمن ذلك أن نجد الطَّاعون الذي ظهر وسط الحجيج سنة 1817 ينتقل معهم إلى مدينة الجزائر وفي نفس الفترة تقريبا نفس الوباء ينتشر في كل من المغرب وتونس بنفس الطريقة أي عن طريق عودة الحجيج ويبقى في الجزائر لمدة خمس سنوات تقريبا ولا ينحصر إلا سنة 1822[1]

غير أن هذا لا يعني أن الحجاج العائدون من البقاع كانوا دائما ما يصابون هناك، إذ قد ثبت في بعض الأحيان أنَّ الوباء قد يُجلب أو يُحمل مِن الطَّريق خاصة عند النزول بالموانئ المصرية، وقد يُعترض علينا بالقول: أنَّ الوباء في مصر قد يكون بدوره قادم مِن الحُجَّاج، نعم، قد يبدو هذا الاعتراض صحيح من حيث بنيته، إلاَّ أنَّه مردودٌ بظهور العديد مِن الأوبئة في مصر مثلا حتَّى قبل عودة الحجيج من جدَّة[2]، كما أنَّه مِن المعلوم أنَّ صعيد مصر كان أحد الروافد المشهورة للطَّاعون[3] في تلك المدة الزمنية، وهو ما مِن شأنه أن يثبت فكرة أنَّ بعض الأوبئة قد أصيب بها الحجيج في طريق عودتهم، وليس أثناء حجِّهم، وإلَّا ما كان ليكون لهم القدرة على مواصلة المسار إلى غاية الجزائر، بفعل تمازج عدد من العوامل التي قد تساهم في القضاء على المصاب منها مشقة الرحلة وطولها وإجهاد الجسم فيها وعدم القدرة على التداوي أثناء ذلك.

الاحتكاك مع البلاد الأجنبية وأثرها في انتشار وتفشي الأوبئة في الإيالة الجزائرية:

تحوز العلاقة التجارية والسياسية بين إيالة الجزائر ومختلف أقطار البلاد المغاربية على أهمية كبيرة جدا لا على الجانب الاقتصادي والسياسي فقط بل ارتداداتها نجدها تنعكس في جلّ الجوانب الاجتماعية والمعيشية، وتأتي في مقدمة الدُّول التي ارتبطت الجزائر معها بعلاقات اقتصادية قوية الإيالة التونسية، فقد أورد "فلنسي" أنَّ عدد القوافل الاقتصادية المنتظمة بين الإيالتين كان كبيراً بحيث لا يقلُّ عن واحدةٍ شهريا تكون أمتعتها محمَّلة على قرابة 300 بغل تقريبا[4].

بل لم تقتصر العلاقة مع الإيالة التونسية على النشاط التجاري فقط، بل تعدته إلى النشاط الدبلوماسي والعسكري، ولكليهما أثر لا يخفى بتاتا في انتشار الأوبئة من مكان إلى آخر. لذا نقف على العديد من الأوبئة التي سبق ظهورها في إيالة تونس ظهورها في الجزائر، وهذا بناء على عدد من الأسباب من بينها القرب الجغرافي لتونس من مناطق الحركة الوبائية كما هو الحال مثلا بالنسبة لوباء (1720م) والذي ظهر في فرنسا أولا وظهر في نفس السنة في الإيالة التونسية ثم عبر من خلالها إلى الإيالة الجزائرية، أو ذلك الوباء الذي ظهر سنة (1741م) واشتد أثره في تونس ثم انتقل من خلالها إلى إيالة الجزائر بحيث ظهرت فيها أعراض هذا الوباء الذي كان مدمرا بالنسبة للجزائر خلال تلك المدة حسب أرشيف وزارة

[1] - Lucette Valensi: op.cit., p 21.
[2] - A.N.M : Anné1899, P48.
[3] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P03.
[4] - Lucette Valensi: op.cit., p61.

الخارجية[1]، والأمر لم يختلف كثيرا خلال سنة (1784م) إذ ظهرت بوادر الوباء في تونس خلال نفس السنة ثمَّ انتقل هذا الوباء عبر محور (طبرقة-القالة-بونة) ليعم كلَّ إيَّالة الجزائر سنة بعد ذلك (1785م) وقد تأخر لمدة سنة بسبب تلك الإجراءات الاحترازية التي اعتمدها "صالح باي" لمنع وصول الوباء إلى بيلك الشرق الجزائري[2]، غير أنَّه في الأخير لم يُوفَّق في ذلك.

وإذا تقرَّر ما سبق وجب أن نصرف البيان إلى محل آخر كان له بدوره تأثير في نقل الأوبئة لكنه ظل خفيا ونقصد الروابط والعلاقات الدبلوماسية الحيوية بين الطرفين أو بالأصح بين الأطراف المختلفة، والتي يفترض أن تكون الأبعد من أن تكون سببا في نقل الوباء، نجدها على العكس من ذلك تبدو جد مُؤثِّرة، فعدد مِن السُّفن الدبلوماسية كانت تخرج مِن الجزائر وتحمِل بين ركابها مَن هو مصابٌ بالداء، فيحمله بدوره إلى المكان الذي يذهب إليه سواء بتونس أو المغرب، وهو ما نجده يحدث فعليا له على مستوى التمثيل الرسمي الدبلوماسي للإيالة، إذ أنّه وفي سنتي (1817م-1818م) انتقل وفدٌ من مملكة الجزائر إلى الإيالة التونسية للتفاوض حول شروط السِّلم بين الإيالتين، وكان من بين أعضاء السفينة ممثل الداي حسين "الحاج يوسف" وقد كان مصابا بهذا الوباء غير أنّه لم يُلاحظ ذلك عليه، إلى أن وصل هو ومن معه إلى تونس، وحينها فقط لاحظ الأمر؛ فحاول تداركه من خلال العلاج الذي أخذه هناك خلال إقامته[3].

إذا تقرر ما سبق من قوة العلاقة بين ظهور الوباء في تونس وانعكاساته في إيالة الجزائر، عدنا للحديث من زاويا أخرى عن ظهور الوباء في إيالة الجزائر وانتقاله إلى المملكة المغربية، إذ لا يغيب عنا أن الجزائر كانت تعد معبرا أساسيا لانتقال الأوبئة إلى المملكة السعدية، من خلال الكثير من الأوبئة التي انتقلت مِن النَّاحية الشرقية إلى البيلك الغرب، وهو حقيقة امتداد لانتقال الأوبئة عموما مِن الشرق إلى الغرب، وهو ما نقف عليه جلياً في وباء سنة (1212هـ/1799م) إذ أنَّه قد يكون وفد عبر إحدى طريقين: إمَّا من خلال مدينة الجزائر وانتقل بفعل الحركة الداخلية إلى الغرب الجزائري، أو من خلال سفينة تركية تُقلُّ بعض الحُجَّاج رست في موانئ بيلك الغرب الجزائري، وبعدها انتشر في مدن:وهران، تلمسان، ومعسكر، وانتقل منها إلى المغرب الأقصى[4].

ولا تختلف كثيرا العلاقات مع المحيط القريب وتأثيراتها في نقل الأوبئة من مكان إلى آخر، إذ نفس العلاقة الحركية التي كانت بين الإيالة الجزائرية وكلّ من تونس والمغرب نجد نظيرتها مع الإيالة المصرية، إذ

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 294-295. 24/05/1741.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P212.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P424.
[4] - ibid. P 360.

نقف على عدد من السّفن والبوارج الحربية التي كانت تقدّم من مِصر باتجاه ميناء مدينة الجزائر أو موانئ عنابة ووهران، فتقوم السُّفن القادمة غالبا مِن الإسكندرية بإيصال الحُجَّاج والتُّجار مِن هنالك إلى الجزائر والعكس أيضا، هذه الحركية خلقت نوعا مِن الاحتكاك الدائم بين الطرفين ساهم في الكثير من الأحيان في نقل الأوبئة التي كانت توجد في مصر إلى الجزائر وتونس.

والأوبئة التي كان مصدرها المشرق عامة وبلاد مصر خاصة عديدة لا يسهل حصرها في هذا المقام إذ تتحدّث التقارير الأكاديمية الطبية عمَّا يناهز واحد وعشرون وباءً في المدَّة الممتدة ما بين (1783-1844م) فقط بدون الحديث عن الأوبئة السابقة لهذا التاريخ[1]، لذا سنكتفي في هذا الموضع بالإشارة إلى أهم الأوبئة التي ثبت وجودها في مصر ورصد فعلا انتقالها للجزائر.

فنقف أنّه مِن بين أوّل الأوبئة التي كان مصدرها موانئ الإسكندرية خلال القرن الثامن عشر ووفدت إلى الجزائر وباء سنة (1130هـ/1718م) إذ ذُكر أنَّ هذا الوباء قد وفد إلى الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية قدمت محمَّلةً بالسلع من مصر[2]، الأمر نفسه نجده يحدث سنة (1740م/1153هـ) وإذ يذكر "دي غرامون" أنّ هذا وباء سنة (1740م/1153هـ) قدِم على متن سفينة قادمة من الإسكندرية[3]، نفس الأمر نقف عليه مرة ثالثة في وباء جديد ظهر هذه المرّة سنة (1743م) ويعود أصل هذا الوباء بدوره حسب إحدى الرسائل الأرشيفية التي بعث بها القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر "تومسون" (Thomas) قد ورد على الجزائر عبر سفينة وافدة مِن "الإسكندرية" في الثالث من شهر جويلية (1743م) وكان قبطان السفينة هو "جان جايسمن" (Jean Jeanseaume) وقد انتشر خبر إصابة هذه السفينة بالوباء[4]، فإن تقرر هذا عدت هذه السفينة السبب الرئيس في انتقال العدوى من مصر إلى الجزائر. ولا يتوقف الأمر عند هذا الوباء بل يتعداه إلى أوبئة أخرى متعددة من أهمها أيضا ذلك الوباء الذي ألم بالجزائر في بداية القرن الثامن عشر وبالتحديد سنة (1816م) إذ حسب رواية نقيب أشراف الجزائر "الشريف الزّهار" أن الوباء قد دخل الجزائر من خلال بعض السُّفن الواردة مِن اسطنبول سنة (1232هـ/1816م) واشتعلت ناره في الجزائر من حينها[5]، بينما يرى "غيون" أنّ السّفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة من الإسكندرية ورست بمدينة عنابة، ومن خلالها ولج الوباء إلى المناطق الأخرى[6]، كما ذُكر أيضا بأنَّ سفينة قد

---

[1] - A.N.M : Bulletin de l'Académie nationale de médecine, Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899, P46.

[2] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

[3] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 139-142. 17/07/1743.

[5] - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص158.

[6] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P372.

رست بميناء مدينة عنابة سنة (1233هـ/1817م) سفينة حُجَّاج قادمة مِن مصر نزل منها خمسة وعشرون شخصا كان معظمهم مصابا بالطاعون انتشروا في مختلف أرجاء المدينة ما تسبّب لاحقا في تفشي الوباء لباقي السكان[1]. لا نريد أن نظل أُسارى لضرب الأمثلة وتعدادها الواحد تلو الآخر، لذا سنكتفي بهذا القدر من الأمثلة التي تؤكد دور العلاقة التجارية والمواصلاتية بين إيالة الجزائر والأطراف المختلفة في نقل الوباء من مكان إلى آخر.

غير أنه يجب أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أنَّ العلاقة التجارية التي ربطت الإيالة الجزائرية بالإيالة التونسية أو حتى المصرية لم تكن هي السبب الرئيسي في انتقال الأوبئة، إذ نجد أنّ عدد السفن المصرية الوافدة إلى الموانئ الجزائرية لم تكن بتلك الضخامة التي تعرفها مثلا الجارة الشرقية، وعدد السفن لما يتجاوز في بعض السنوات الأربع سفن سنويا، بينما قد تكون في حدود العشر سنويا في تونس[2] ما يجعل إمكانية الإصابة أكثر ارتفاعا في تونس، وهذه القلة لا تمنع إمكانية أن تنقل إحدى هذه السفن للوباء من مصر إلى منطقة أخرى، كما أنَّه كثيرا ما استُعين بالسُّفن الفرنسية والإنجليزية لنقل البضائع والحجَّاج مِن مكان إلى آخر، ما يجعل قلَّة السُّفن ليس معيارا للحكم على حركة التنقل وانتقال السِّلع، فكثيرا ما كانت السُّفن الأوروبية الوافدة مِن موانئ الإسكندرية تحمل بين ركَّابها مَّن هو مصابٌ بالمرض أو هو ناقل له، كما هو الحال في وباء سنوات (1718م) الذي قَدِم ضمن سفينة فرنسية وافدة مِن مصر، أو وباء سنة (1740م) الذي يُشك بأنَّه قدم ضمن سفينة إنجليزية وافدة بدورها من موانئ الإسكندرية[3].

فإذا استوفينا الحديث عن العلقات البينية بين الإيالات التابعة للدولة العثمانية، انتقلنا للحديث عن العلاقات في شق آخر امتداد للشق الأول، يتعلَّق كما يدخل ضمن هذا الشقّ من الأسباب أيضا الحركة التي تنتجها العلاقات الدبلوماسية إذ أنَّ ميناء الجزائر كان يعج بمختلف السفن الأوروبية الواردة لمهام دبلوماسية مختلفة، ولا تكاد تمرّ فترة زمنية قصيرة إلاّ وتشهد دخول ميناء الجزائر مجموعة مِن سُفن الدُّول الأوروبية بغرض نقل أمتعة أو هدايا خاصة بالداي قادمة من مختلف الدول الأوروبية ولا تخلو هذه السفن مما قد يوجد ببلدانها أو مما قد يكون فشي في الموانئ التي رست بها فيذكر مثلا غيو أن سفينة إنجليزية على متنها من هو مصاب بالطاعون سمح لها بالدخول إلى ميناء الجزائر سنة (1130هـ/1718م)[4] ما نجم عنه تفشي طاعون شديد تلك السنة، أو سفن تأتي لنقل أمتعة القناصل وحاجياتهم وتمرُّ على أكثر مِن ميناء واحد وأكثر من دولة واحدة قبل وصولها إلى الجزائر، ما يجعل إمكانية تعرضها لوباء ما ونقله كبيرة جدا،

[1] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P373.
[2] - Lucette Valensi: op.cit., p74.
[3] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P 298, 315.
[4] -ibid., P298.

فنجد مثلا خلال الشهر الثاني من سنة (1822م) دخل ميناء الجزائر أكثر مِن عشرِ سُفن مِن الموانئ الأوروبية كان أهداف معظمها دبلوماسية، فمنها مثلا: سفينة انطلقت مِن سردينا، ومرّت بميناء مرسيليا قبل أن يستقرّ بها المقام أخيرا في ميناء الجزائر، وأربع سفن فرنسية وردت الجزائر قادمة مِن ميناء تونس[1]، بمعنى أنّ كثرت تِطوّاف هذه السّفن مِن ميناء لآخر قبل وصولها ميناء الجزائر وهو ما قد يجعلها أكثر عرضة مِن غيرها لخطر الإصابة بالطّاعون والتّسبب في نقله مِن محل إلى آخر.

كما أنَّ السُّفن التي كانت موجودة في الجزائر وتخرج إلى غيرها مِن الموانئ تكون في بعض الأحيان محمَّلة بالوباء أو الأمراض المختلفة ما جعل السُّلطات الأوروبية تحاول مراقبة هذه السُّفن بدقَّة، وقايةً لنفسها مما قد يعتري هذه السُّفن مِن أمراض، وهو ما حدث فعلا في الكثير من الأحيان من ذلك على سبيل المثال توقيف السلطات الفرنسية لسفينة (la Fortune) والسلطات الإسبانية لسفينة (L'Eulalie) بسبب الاشتباه بوجود إصابات بالطاعون فيهما وقد سقط بالفعل في السفينة الأولى ثلاثة ضحايا ما بين(2-1796/07/18م) وصرّح قبطان سفينة (la Fortune) بفقدانه رَجُلين مِن رجاله خلال الإبحار، وإصابة البعض الآخر من البحارة بنفس المرض[2].

عدم الاهتمام بالعلوم الطبية

قبل أن نشرع فيما نصبو إليه من هذا البحث نرى أنه من المهم إيضاح أنَّ رؤية الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" بأنَّ اهتمام الجزائريين بالطب خلال العهد العثماني كان أفضل وأكبر من اهتمامهم بالعلوم الأخرى[3]، من حيث الإجمال عين الصواب بشرط أن نقارن علم الطب بالعلوم الرياضية أو العقلية، لكنه مما قد يُوهم المتلقي بوجود نوع مِن التّطور في هذا الجانب، وهو ما لا نقف عليه البتة في الجزائر خلال تلك الفترة، إذ غالبا ما كان يوجد من الطِّب في هذه المرحلة هو نفس ما كان موجودا في العالم الشّرقي ضمن الإطار الدّيني أو بمصطلح بعض الأطباء قد بقي الطِّب خلال هذه المدَّة "محصورا في صلاحيات الطّب الديني"[4] وكان استيعاب بعض الأمور العامة في الصّحة أو قراءات بعض التّوجيهات الطبية التي تركها "أبقراط" قد تجعل من الرجل العادي البسيط في المعرفة حكيما في المجتمع الإسلامي خلال تلك المرحلة من التاريخ[5].

---

[1] - William Shaler : op.cit, P239.

[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P 357, 358.

[3] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج2، ص 416.

[4] - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand : op.cit., P142.

[5] - Bertherand Émile : op.cit., P18.

وإذا تقرّر ذلك فعلا قلنا: أنَّ أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الأوبئة بين النَّاس خلال هذه المرحلة هو عدم الاهتمام بالعلوم الطبية ولا بالأطباء، إذ نادرا ما ذكرت كتابات الرّحالة والمؤرخين وجود أطباء أو حكماء في الجزائر خلال الفترة المعنية بالدراسة، وتكتفي بعض المظان بالإشارة إلى أطباء يعتمدون على التداوي بالأعشاب والطرق التقليدية فقط دون غيرها، في الوقت الذي كانت فيه الدول والممالك الأوروبية تقوم ببعض التجارب للحصول على التلقيح المناسب ضد هكذا أمراض، إذ جرت العديد مِن التَّجارب حول الجدري مثلا وكيفية إنشاء تلقيح مضاد له، وكان الغربيون خلال نهاية القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر يقومون بالكثير من التَّجارب المختلفة المتعلقة بالتَّطعيم وتجريب الأدوية المختلفة، وينظِّمون في ذلك الملتقيات والمؤتمرات المختلفة[1]، بل وطُبِّق هذا النَّوع مِن اللقاحات على المرضى مِن البشر وأضحى لا يُستغنى عنه في هذا الوقت بالتَّحديد، فيما ظلَّ الجزائريون ومعظم أطراف العالم الإسلامي أسيرا للنظرة القديمة للتداوي[2] ويرفضون أخذ التلقيحات والتطعيمات المضادة للجدري وغيره من أوبئة[3].

ونقف في هذا الشأن على أمر معاكس تماما لمسار الطب في أوروبا مثلا، إذ في حين كان الأطباء في أوروبا يسعون لإيجاد حلول لمواجهة الأوبئة المتفشية والسيطرة عليها، نقف في الجهة المقابلة مِن المتوسط على الكثير ممَّن كانوا يمتهنون الطبَّ بدون أن يكون لهم أدنى اطلاعٍ على الأمور الأساسية في هذا الجانب، بل لا يحسنون في الكثير من الأحيان إلاَّ النزر القليل مِن الكتابة والقراءة، ويكفي للتعبير عن الفكرة أن نعلم أنَّ جُلَّ مَن كان يشتغل في مهنة الطِّب في الجزائر حينها كان مُتَطبِباً وليس طبيب بالمعنى الحقيقي[4]، وهذا ما كان سببا أساسيا في سوء الأوضاع الصحية في إيالة الجزائر خلال تلك المرحلة وتفشي الأوبئة بشكل رهيب، وهو ما كانت تعانيه جل المجتمعات الريفية في العالم تقريبا[5]، بل وكثيرا ما نجد الكتابات الغربية تعد ما هو موجود مِن أطباء في الجزائر خلال تلك المدة(1700-1830م) مجرد مشعوذين[6] لا يفقهون مِن الطِّب شيئا كثيرا[7]، وهذا يرجع إلى أمور عدة منها ما هو علمي ومنها ما هو ذاتي، فمن جانب أول نلتمس تدني المستوى العلمي لجل مَن كان يشتغل بالطِّب

---

[1] - Berthet Louis : op.cit., P12.

[2] - Delvaille Camille : L'épidémie de petite vérole et la revaccination, imp.. de Vve Lespès, Bayonne, 1869, PP 2-7.

[3] - Mohamed ben larbey seguir : op.cit., PP 36-37.

[4] - شخوم سعدى: المرجع السابق، ص273.

[5] - Lucette Valensi: op.cit., p21.

[6] - Mostefa Khiati: op.cit., P88.

[7] -William Shaler : op.cit, P77.

في الجزائر مُقارنة مع نظرائهم في أوروبا من جهة، ومن جهة أخرى نقف على عدم قدرة الرَّحالة الأوروبيين والمقيمين الغربيين على التَّفريق بين ما هو شعوذٌ فعلا وبين ما هو طبٌ شعبيٌّ، أو ما أضحى اليوم يطلق عليه مسمَّى "الطبِّ البديل"[1].

وقد حاول بعض الباحثين أنْ يُفرِّقوا بين الأطباء المختصِّين والهواة، وقاموا بتقسيم الأطباء حسب الفئات إلى ثلاث أقسام هي : أطباء السلطة العثمانية(كان غالبهم من الأسرى أو العمال في المجالات الأوروبية في الجزائر)، أطباء الفئة الشعبية(كان أكثرهم من العوام الذين يشتغلون بالطب الشعبي)، وأطباء الأسرى والجالية الأوروبية(كان غالبهم من الرهبان والمبعوثين الأوروبيين إلى المستشفى الإسباني)[2].

وإذا عرف ما سبق فمن واجبنا القول أنَّ تراجع الطب كعلم مستقل بذاته لم يكن مُقتصرا على الأطباء في إيالة الجزائر العثمانية خلال المرحلة محل الدراسة (1700-1830)، بل هو انعكاس عام لما كان سائدا في جل أقطار العالم الإسلامي، بحيث أضحى التَّمر الهندي وزبدة البقر وبعض الأعشاب توصف كوصفات طبية للمرضى ببعض الأوبئة[3].

والتقسيم الذي سبق ذكره لفئات الأطباء لا يعني أنَّه كان يُحترم ويطبق فعليا بشكل دقيق ورسمي، إذ أنَّ سبر أغوار البحث والولوج في أعماقه يوصلنا إلى القول : أنَّ الأمر كان مُتداخِلاً بين جميع الفئات، فكثيرا ما استُعين بالطبيب الأوروبي لخدمة السياسي العثماني أو لخدمة الفرد البسيط في المدينة أو العكس.

والمستوى السيء للأطباء الجزائريين وقلة عددهم وعدم معرفة بعضهم بأبجديات العمل الطبي يمكن إرجاعه من إحدى النواحي إلى الوضعية السَّيئة التي كان يعيشها مَن يشتغل بالطبِّ؛ فأجورهم لم تكن تختلف بتاتاً عن أجور الجنود، كما أنَّهم كانوا لا يأخذون نظير جهودهم إلاَّ النَّزر القليل مقارنة بالأوربي إذ أنَّ العملية الجراحية التي يقوم بها الطبيب الأوروبي ويأخذ عليها (100 قرش) كان لا يأخذ في مقابلها الجراح الجزائري إلاّ بوجو واحد أي (1/1000) على الأكثر مما يتقاضها الحكيم الأوروبي، كما أنّه يندر إجراء هذه العمليات مِن طرف الأطباء الجزائريين[4].

وقلّة عدد الأطباء في الجزائر يؤكِّد عدم فائدة الاهتمام بالطب كمهنة كما أنَّ عدم الاهتمام هذا انعكس سلبا من جهة أخرى على أعداد مَن اهتمَّ بتطبيب النَّاس، ويكفي لتأكيد ذلك أن نقول أنّ عددهم في بدايات القرن التاسع عشر لم يتجاوز اثنا عشر شخصاً كلّهم كانوا مِن الأوروبيين، وانحصر جلُّ

---

1 - Mostefa Khiati: op.cit., P88.
2 - Mostefa Khiati: op.cit., P101.
3 - Bertherand Émile : op.cit., P18.

4 - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 69،70.

نشاطهم في "مدينة الجزائر" دون غيرها، ذكر منهم "غيون" : الطبيب أندرسون (Ondras) -غير أنَّه لم يلبث كثيرا- والطبيب (piémonlais) والذي خدم بعض الدايات مدَّة طويلة، ناهزت العشرين سنة، إضافة للدكتور مكاردي (Mcardi) وهو بدوره ورد إلى الجزائر سنة (1826م)[1].

وإذا علم ما سبق وجب أن نفتتح الخوض في تلك العلاقة بين الأطباء الأوروبيين ورجال الدولة المهمين في الجزائر، إذ نجد أنَّ العديد مِن الحكام كان يستعين بالأطباء الأوروبيين أو الأسرى الأوروبيين في الأمور الطبية، فيستوقفنا في العديد مِن المرات استعانة أو ركون الحكام لما يقوله الأطباء الغربيين فيما يكاد يغيب تماما ذكر الطبيب المحلي، فنقف مثلا في إحدى الوثائق المرسلة مِن حاكم "بيلك الشرق" الجزائري "صالح باي" على إشارة هامة تدلُّ على غياب أي طبيب يُوثق فيه في تلك المنطقة خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة، وهو ما حمل "صالح باي" على الطلب في إرسال الطبيب الذي كان موجودا ضمن عمَّال الشركة الإفريقية، وأكَّد على ضرورة أن يجلب الطبيب معه أدويته التي تُعينه على العلاج[2]، نفس الأمر نقف عليه مرَّة أخرى موضع آخر في وثيقة أخرى أُرسِلت مِن الحاج "حسين بن عبد الله" خوجة الخيل إلى وكيل "الباسيتيون" بالقالة؛ يطلب منه فيها أن يُرسل له مِن عنده طبيبا؛ يعالجه من وجع كبير يجده في رأسه[3]، وإذا تحقَّق هذا فَمن الواجب أن نصرف القول إلى أنه يُستخلص من هذه الطلبات المتكررة من كبار القوم عدد من الأمور أهمها: عدم وجود طبيب واحد في كل "بيلك الشرق" الجزائري يظاهي مستواه مستوى الطبيب الأوروبي، ثانيا: كان يوجد بالفعل شُحٌ في مَن له المقدرة الفعلية على تقديم الوصفات الناجعة؛ وهذا ما يعني عدم فعالية الوصفات الشعبية التي كان يقدمها الحكماء في تلك المدَّة وهو ما وصفه "بيراتن" بأنَّه جهل عميق بفحوى الطب الحقيقي لدى الحضر مِن أهالي الجزائر[4]، أو يعني عدم ثقة الحكام وكبار الشخصيات في النصائح التي يقدمها لهم الحكيم المحلي مقارنة مع وصفات الحكيم الأوروبي.

وهذه الحاجة المتكرِّرة هي ما جعلت الطبيب الأوروبي يحظى شخص بالاحترام الكبير من طرف الجميع، بل هو الأمر الأساسي الذي رفع بعض الأسرى الأوروبيين ليكونوا في مثابة أصحاب سلطة، بسبب ما ينشأ من علاقة وطيدة بين هؤلاء الأسرى وكبار رجال الدولة من دايات وبايات، ويذكر الأب "بوايي" أنَّ الطبيب الأوروبي كان يحظى بما لا يحظى به غيره مِن سعة في العيش والتبجيل، ولعلّه مثلما قال: «الغريب الوحيد الذي يمكن أن يستفيد مِن مزايا الاحترام والتقدير»[5].

---

1 -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P365.

2 - و. م. و. ج. مج: 1641، و/ر 75.

3 - و. م. و. ج. مج: 1641، و/ر 90.

4 - Bertherand Émile : op.cit., P38.

5 - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 114.

وهذا ما يُبرِّر أيضا في رأينا بذلك الاحترام الكبير الذي كان يكنُّه أهالي مدينة الجزائر والقيادات السياسية والعسكرية للأطباء الأجانب الوافدين عليها، ولعلّ مِن صور هذا الاحترام والتقدير ما نصّ عليه سيمون بفايفر في مذكراته وكيف أنتقل من أسفل العبيد إلى أعلى سُدَّة السَّادة وعريش السيادة بقوله:«...واتَّخذني طبيبه الخاص، ومنذ تلك اللحظة أصبحت كأني قد انتقلت إلى حياة أخرى، فتركت مغارة الفئران وسكنت غرفتين كبيرتين في القصر، لهما ديوان على امتداد الحائط، وأرضيتهما مغطاة بزرابي نفيسة، وكانت بهما على العموم أنواع مِن الزينة، وبدَّلت ثياب العبيد بثياب أخرى ثمينة مصنوعة مِن القطن وقمصان رفيعة، واستعضت عن فضلات الأطعمة بأكلات لذيذة، وكان يقوم على خدمتي بسكريان، باختصار لقد تحوَّلتُ مِن كلبٍ مَسيحيٍّ حقيرٍ وطبَّاخٍ شَابٍ مُضطَهدٍ...إلى طبيب خاصٍّ للخزناجي أفندي...»[1] ويجعلهم ذلك محلّ ترحابٍ، ويكثر الطلب على خدماتهم لنجاعة الوصفات التي كانوا يقدمونها في الكثير مِن الأحيان[2]، فتذكر المصادر عدد من الأطباء الغربين في الجزائر خلال تلك الفترة مثل: وهو ما يفسر ازدياد عدده في آخر مرحلة الوجود العثماني في إيالة الجزائر، وممن اشتهر ذكره: الدكتور السرديني مياردي (Meardi) والدكتور الإنجليزي بوهن (Bohen) والدكتور الإسباني أسانسي (Assensi).

إضافة إلى ما سلف ذكره مِن شُحٍّ في الأطباء نقف على إشكالية أخرى تتمثَّل في قلّة عدد الصيدليات، التي لم تتجاوز في بداية القرن التاسع عشر مثلاً ست صيدليات والغريب أنّها لم تكن تحوي إلاَّ القليل مِن الأعشاب والمستحضرات الطبية الطبيعية[3].

إذ أنَّه إضافة إلى قلة الأطباء في الجزائر العثمانية وتدني مستوى الكثير منهم نقف كذلك على معضلة أخرى ألا وهي غياب الصيدليات وعدم توفر الأدوية، فالأدوية التي كانت تُحضَّر في الجزائر ظلت منحصرةً في بعض السوائل وبعض الأخلاط والعقاقير[4]، التي ليس لها الأثر الكبير في العلاج من الأوبئة أو التقليل من أثر انتقالها، وهو ما جعل إيالة الجزائر تعاني كثيرا مِن ندرة الأمصال الفعلية لمواجهة الأمراض المختلفة في الكثير من الأحيان[5]؛ وهو ما حمل (أف. شونبيرغ) على القول في وصفه لإحدى صيدليات مدينة الجزائر بأنها-على قلتها-:«...لا تحتوي إلاّ على جرارات وزجاجات فارغة...» ويتحدث عن صيدلية أخرى فيقول: «...لكن صيدليته كانت فضلا عن ذلك صغيرة فكانت عبارة عن غرف واطئة

---

[1] - سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، المجلد الأول، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، دار الأمة، الجزائر 2009 ، ص، ص 26،27.

[2] - - أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ، ص، ص 23، 56.

[3] - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 41.

[4] - Mostefa Khiati: op.cit., P90،91.

[5] - سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 26.

ومظلمة...» ويتحدث عن صيدلي ثالث وما يحوزه من آلات جراحية في صيدليته قائلا: «...وأراني كل الآلات والأجهزة الجراحية، وكان له في غطاء كلاب؛ لتثبيت الأجراء أثناء العمليات، وملقط وبعض المسامير. وكان في حقيقته مقص وملقط منوع وآخر ملون، وكلها من صنع الأوروبيين، ولكنها كانت قديمة ومن نوع متوسط...»[1] ومستخلصات العقاقير غالبا ما تحفظ لمدة طويلة في زجاجات بجوار الماء البارد، كما أنَّ معظم الأدوية وآلات الجراحة ما تستجلب من أوروبا[2].

ولم يقتصر النقص في الجزائر خلال تلك الفترة الزمنية -أي من بداية القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر-على المكونات من أدوية والآلات الطبية والجراحية المنعدمة فقط[3]، بل امتد هذا الشح إلى المواد العلمية؛ إذ قلّما نقف على كُتب أو مخطوطات طبية أو تعتني بالطب.

ويتجلّى ذلك في صور عديدة: فهذا (سيمون بفايفر) يشتكي سوء حاله لسيده؛ بسبب انقطاع اتصاله بالكتب الطبية ويلتمس منه توفيرها له[4]، وهذا (أف شونبيرغ) في موطن آخر يُمَنِّي نفسه بأنْ يقف على كنز عظيم-لما أخبره أحد الصيادلة بوجود مخطوطة طبية-ويخيب أمله عندما رأى حالتها السيئة المهترئة[5]، ويأتي (مصطفى خياطي) ليمدح توفر الكتب الطبية التي كانت متداولة بين أهل الصنعة خلال تلك الفترة فلا يسعفه الحظ إلاَّ بذكر كتابات نادرة وقديمة لداوود الأنطاكي وابن رشد وابن سينا[6]، وهو ما يؤكد فرضية التي تقول بقلة المصادر الكتابية التي كانت تهتم بالشأن الطبي في الجزائر خلال العهد العثماني، وهو امتداد طبيعي ومنطقي لتراجع الأمة الإسلامية في الجانب العلمي خلال تلك الفترة وليس خاص بالجزائر فقط دون غيرها، إذ لا نكاد نقف على أهم مِن كتاب "كشف الرموز" لعبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري وهو جزء من كتابه "الجوهر المكنون من بحر القانون"[7]

إضافة إلى أن عموم المجتمع كان لا يفقه من أمور وأعراض الطاعون الشيء الكبير مع أنه كان كثير التكرر في الجزائر، ولعل هذا الأمر ما حمل بايسونيل على القول أنَّ السُّكان لا يعلمون شيئا عن تمظهرات الطاعون وكيفية انتقاله؛ الأمر الذي جعلهم في الغالب الأعم لا يُحسنون التَّصرف في تلك المحن الوبائية[8].

---

[1] -أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 66،67،68.

[2] -نفسه، ص 67.

[3] - Bertherand Émile : op.cit., P33.

[4] – سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، ص 46.

[5] -أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 68.

[6] - Mostefa Khiati: op.cit., P 87،88.

[7] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 431.

[8] - Peyssonnel Jean-André (1694-1759): Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Libraire de Gide, éditeur es animales des voyages, 1838, P228.

ولعلَّ الأمر يزداد سواء إذا فهمنا الذهنية السائدة لدى عموم ساكنة الإيالة خلال تلك المدة الزمنية، إذ أنّ معظم الجزائريين والمسلمين في تلك الفترة لم يكونوا يهتموا بالتطعيم ضد الأمراض، لاعتقادهم أنَّ هذا الأمر يتنافى وروح تعاليم الإسلام، وهذا الوباء بالنسبة للسُّكان إن حدث ما هو في حقيقته هو إلاَّ قضاءٌ وقدرٌ إلاهي[1]، فليس لهم إلاَّ الامتثال إلى الأحكام التي تدعوا إلى الإيمان بالقضاء والقدر[2].

وبقي أمر التَّطعيم مجهولا في أواسط العامة إلى أن قام "الداي حسين" بتطعيم أولاده لدى أحد الأطباء الإنجليز يدعى بوهن (Bohen) وهو ما أحدث القلاقل داخل مجتمع مدينة الجزائر[3]، لاعتبارات عِدَّة منها –حسبهم– منافاة هذا العمل لقيم الإيمان بالقضاء والقدر التي يجب توفرها في المسلم، إضافة للاستعانة بغير المسلمين في التداوي خاصة إذا كان من الداي، فهو يعد انتقاصا في شخصه وهو ما لا تسمح به قوانين اللباقة والاحترام والهيبة والإجلال[4] وغيرها من جزئيات ليس هذا محل تفصيلها، وقد تحدّث الطبيب الجزائري "محمد بن العربي" أنّه في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر رفض الأهالي التطعيم الذي دعت إليه السلطات الفرنسية للحد من انتشار وباء الجدري، وهو ما رفضه جل ساكنة الجزائر من الأهالي لم يقم به إلاّ نزرٌ قليل من السكان بإجبارهم على ذلك من طرف السلطات الفرنسية[5].

وإذا عرف وفهم ما سبق وكان أمرا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب أن نقول أن عدم الاهتمام بالعلوم الطبية وما يتفرع عنها، وغياب الحد الأدنى من الثقافة الطبية لدى ساكنة الإيالة جعل الأوبئة تتفشى كل مرة بنفس النمط، دون أن تجد في مواجهتها الأدوات الطبية المادية والفكرية القادرة على التصدي لها، وهو ما يجعل هذا العنصر (الطبي) مركزي وحيوي جدا في النتائج التي ستتلقاها الإيالة على عاتقها نظير إهمالها وعدم قدرتها على استيعابه.

الأسباب غير المباشرة لظهور المجاعات وتفشي الأوبئة:

سبق أن تكلَّمنا فيما مضى عن الأسباب التي رأينا أنَّ لها أثراً كبيراً في انتشار المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال الفترة (1700-1830) بشكل مباشر، والآن نأتي للحديث عن بعض الأسباب غير المباشرة التي يُعزى لها ظهور المجاعات في الجزائر، وعلى رأسها:

---

[1] - Charles Féraud, Laurent ; Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle : et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique, imp. V. Aillaud et Cie, Alger, 1877, P 396.
[2] - Mostefa Khiati: op.cit., P 66،67.

[3] – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 49.

[4] – سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 29.

[5] - Mohamed ben larbey seguir : op.cit., PP 36-37.

الثورات والاضطرابات المختلفة:

غالبا ما أدت الثورات التي كانت تحدث في القبائل إلى العديد من الاضطرابات كانت تؤثر بشكل غير مباشر في زيادة أثر الأزمات الصحية والغذائية التي كانت تعرفها الإيالة من حين لآخر، إذا غالبا ما كانت هذه الثورات التي تقودها غالبا أحد الشَّخصيات الدِّينية أو القبلية أثرها الكبير على نقص المؤن وبالتالي الاتجاه بشكل مِن الأشكال إلى حدوث ندرة في المواد الغذائية الأساسية التي قد تتكافل مع عوامل أخرى متعددة تنتهي بالتطور إلى شكل من أشكال المجاعات.

والأمثلة في شأن تأثير الثورات والاضطرابات القبلية على وجود المؤونة عديدة، فعلى رأس الأسباب التي أدت إلى حدوث مجاعة في الجزائر سنة (1734م) قيام القبائل الثائرة ضد دفع الدنوش، إلى قيام القبائل الأخيرة بما من شأنه التأثير على السلطة الحاكمة وتأليب الساكنة عليها كمنع دخول القمح أو وصوله إلى دار السلطان ومدينة الجزائر؛ وهو ما نجم عنه فعلا حدوث اضطرابات في توزيع المؤن والحبوب خاصة منها القمح والشعير وانتهت بمجاعة رهيبة في المدينة[1].

نفس الأمر نجده يتكرَّر مرَّة ثانية خلال المدَّة الزمنية المنحصرة ما بين (1181هـ/1767م) إلى (1183هـ/1769م) والتي ذكر أنها كانت نتيجة حتمية لاضطرابات القبائل الممانعة أو الرافضة لدفع الضرائب للبايات، أحكمت القبائل المتمردة سيطرتها على الطرق الرئيسية مِن الشَّرق إلى غاية "بيلك التطري" وأتاح لها هذا الأمر التحكم والسيطرة الكاملة على حركة قوافل القمح المتجهة نحو الشمال، ما أدى إلى نقص وندرة فادحة في وجود القمح[2]، تحوَّل الأمر بفعل مزامنته لشحِّ الأمطار خلال تلك الفترة أيضا وهو ما أدى إلى هجرة العديد من سكان هذه القبائل وغيرها وظهرت بعيد ذلك مجاعة مؤثرة.

ونكاد نرى تجدُّد الصور السَّالفة كلَّ مرَّة تتزامن ثورات القبائل مع تذبذب التساقط، فيذكر مثلا "العنتري" أنَّه أثناء ثورة "ابن الأحرش" سنة (1218هـ/ 1802م) في الشَّرق الجزائري سادت المجاعة ودخلت أعراش بيلك قسنطينة في مواجهات بين بعضها البعض؛ لأجل تأمين القوت. كما نزح النَّاس مِن دورهم «وتَشتَّتُوا عَن منازلهم بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشَّرِ والمصائب التي حلَّت بهم مِن قِبَل يبس الزَّرع وعدم الحرث»[3] وهو ما كاد أن يؤدي إلى الإطاحة بالسُّلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر خلال تلك المرحلة.

---

[1]- H - DE Grammont : Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.
[2] - Ibid. P320.
[3] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ، ص 33.

احتكار اليهود لتجارة القمح:

يأتي احتكار فئة مِن اليهود لتصدير وتوريد المنتوجات الغذائية كالحبوب والقمح بدون قيود على رأس الأسباب غير المباشرة في إحداث أزمات الغذاء وفي بعض الأحيان في إدامتها لأطول مدة زمنية؛ فاحتكار فئة اليهود للتجارة الخارجية عامة، ومادتي القمح والحبوب والتحكم فيها خاصة أن هذا الاحتكار كان بمباركة الكثير من الرِّجال النافذين في الحكم داخل إيالة الجزائر، وهذا بسبب ما كانوا ينالونه مِن هدايا وأموال من طرف فئة اليهود[1]، وإذا عُرِفَ هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من القول فنقول أنَّ الصُّور المختلفة لاحتكار اليهود للتِّجارة ستظهر كيف أثرت في حدوث وتطور المجاعات لاحقا، وقد لمح " الزّهار" بهذا الأمر عند حديثه عن طبيعة العلاقة القوية التي كانت تربط التُّجار اليهود مع كبار رجال الدولة مِن أمثال الخزناجي وبعض الأمراء[2].

ما سبق إضافة لما نقف عليه مِن معلومات عن مبالغ كانت تُدفع لليهود في مقابل ما يوردونه من سلع لصالح الحكومة الفرنسية كما هو الحال مثلا في المراسلة المؤرخة في (نوفمبر 1757م/ربيع الأول1171هـ) والتي نصت على استلام داي الجزائر "علي باشا" ما قيمته (17.000) ليرة أجرة القمح الذي ورَّده المواطن اليهودي بيشارا إلى فرنسا[3]، بل أوضح مِن ذلك دَلالة ما نجده في المراسلات الأرشيفية بين دايات الجزائر وحكام فرنسا مُصرَّحاً به مِن أعلى فرد في الإيالة أي "الداي حسن" نفسه في رسالة مؤرخة (جويلية 1795/ ذو الحجة 1209هـ) نجده يرسل عدد من التَّوصيات الدبلوماسية إلى حكومة الجمهورية الفرنسية ومقاطعاتها المختلفة كمرسيليا وتولون في شأن اليهودي كوهان بكري (Michel Cohen Bacri) مِن أجل تنمية أعماله التجارية باعتباره مُفاوضاً باسم الداي[4]، بل لم تخلو تلك المراسلات التي كانت بين "الداي مصطفى" وملك فرنسا "نابليون بونابرت" مِن حرص الحاكم الجزائري على الدفاع عن مصالح والمستحقات اليهودية التي يَدين بها الفرنسيون[5].

والعلاقة بين التُّجار اليهود وحكام الجزائر خلال هذه الفترة هي علاقة مبنية على منافع شخصية يستفيد منها رجال الحكم مقابل تسهيلات ومساعدات يقدمها هؤلاء لليهود.

هذا الأمر نجد له تفسيرين اثنين، أوّلهما الزاوية التي ترى منها السُّلطة الحاكمة الأمر وتبرره من أجل تصدير المنتوجات الزّراعية مِن الجزائر باتجاه أوروبا عن طريق طائفة اليهود كوكيل حصري لهذا النشاط.

---

[1] - Ibid. P360.

[2] – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص117.

[3] - Eugène Plantet : correspondance des deys d'Alger avec cour de France(1579-1833) T2, éditions Assala Culture, 1889, P238.

[4] - C. D. A. C. F : le 12 juillet 1795, P452.

[5] - C. D. A. C. F : le décembre 1795, P454-472.

ثانيهما: نظرة السكان لاستحواذ هذه الطائفة اليهودية داخل الإيالة على زمام التِّجارة الداخلية والخارجية وتسيرها وفق مصالحها الضيقة لا أكثر.

نأتي لتفاصيل هذه الرؤى المتباينة فنقول: أنه من وجهة رأي الزمرة الحاكمة في الجزائر، فالأمر لا يعدو -بالنسبة للدَّاي وحاشيته- أن يكون نتيجةٌ استدعها وضع طارئٌ تمثَّل في قلَّةِ مداخيلِ الدولة، ولهؤلاء التُّجار اليهود القدرة على ضمان مورد مالي دائم ومستمر لصالح خزينة الدولة، لا يقل عن ثلاثة ملاين فرنك سنويا، وهو عبارة عن ضرائب تدفعها الشركة اليهودية صاحبة الامتياز[1]، لكن الملاحظ أنّ هذه الضرائب تطورت لتكون عبارة عن احتكارات أصبح معها نفوذ الشّركات التجارية يهيمن على جلّ الأمور المالية للدولة، ولعلّه الأمر الذي دفع القنصل الأمريكي في الجزائر (William Shaler) إلى ذمَّ هذا الاحتكار والحكم عليه بأنَّه أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت التِّجارة في الجزائر مثلها مثل الزَّراعة تعاني مِن التَّأخر والبدائية[2]، لكن مِن جهة أخرى هذا الاحتكار لم تمنحه الحكومة لهذه الطائفة عن طيب خاطر، ولكنه نتيجة حتمية اقتضتها الضرورة؛ بحكم أنّ الدّول الأوربية هي التي كانت لها أحقية منح جوازات سفر الخاصة بالتِّجارة مع موانئها وكانت تخشى من فتح المجال التجاري على مصرعيه مع الإيالات المغاربية، ما قد ينجم عنه تراجع مداخيل تُجَّارها[3].

مِن أبرز صور الاحتكار الماضي ذكره أنْ وَصلَ الأمرُ ببوشناق اليهودي أنَّ يصرّح أنَّ قيامَ الموتَى مِن مَقابِرهم أَهوَنُ مِن خُروجِ حبَّةِ قَمحٍ مِن السُّوقِ الجزائريةِ بدون علمه قائلا: "...يقومُ مَوتَى باب الواد قبل أن تخرج حبة واحدة مِن القمح...»[4]. بل ونجد في إحدى المرات يقوم باي قسنطينة مثلا بمنح رخصة لأحد السُّفن الإنجليزية لأجل شحن القمح الجزائري، واستفادت أحد التَّاجر اليونانيين من امتياز تحميل السُّفن بالقمح بالكمية التي يريد[5]، بل ونقف في مراسلة صادرة عن قنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية على إشارة واضحة إلى شحن الشَّركة الملكية الإفريقية لسفينتين فرنسيتين من ميناء مدينة "عنابة" مُحملة بأجود أنواع القمح وإرسالهما باتجاه ميناء "مرسيليا" في الوقت نفسه الذي تتكلم فيه وثائق أخرى عن تأزُّم الوضع في الإيالة سنة (1734م) بسبب المجاعة[6]، وهو ما تؤكده أيضا وثيقة أخرى صادرة

---

[1] – حنفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص52.

[2] - William Shaler : op.cit P37.

[3] - Lucette Valensi: op.cit., pp 63/64.

[4] – ينقلها حنفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص52 ويعزوها إلى جمال قنان في كتابه العلاقات إلاَّ أننا لم نقف على موضعها في الكتاب المذكور.

[5] - C. D. A. C. F : le 4 juin 1734.

[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/123. Cotes: F° 158-161. 16 Fve.1734.

عن نفس الهيئة تتحدث عن تصريف منتجات القمح خارج الإيالة سنة (1734م)[1] وهي السنة التي كانت تعرف أزمة غذائية شديدة، وقد فسَّر "وليم شالر" القنصل الأمريكي في الجزائر بطريقة منطقية بالنسبة للعالم الذي وفد منها لكنها لا تتلاءم مع الواقع الموجود في الإيالة في تلك القرون، إذ رأى أنَّ هذه السيطرة على التجارة الخارجية وانتشار الاحتكار في يد اليهود دون غيرهم؛ مرده خوف الأتراك مِن ازدهار الزراعة والتِّجارة؛ ما مِن شأنه أن يقوي الفكر الحضري في البلد ويُؤدي مع الوقت إلى ظهور برجوازية وكثافة سكانية قد تقود ثورة على الأتراك[2]، وهذا التفسير مردود لسبب بسيط هو أنَّ الثورات الشعبية كانت منتشرة في الجزائر خلال العهد العثماني وأنَّ السبب الرئيسي في تحريكها هو الجانب الروحي الممثل في الزوايا والطرق، وأن الفكر القومي لم يجد طريقه بعد في تلك الفترة في الجزائر مثلها مثل جل أقطار العالم الإسلامي

التفسير الثاني للاحتكار نجده لدى سكان الجزائر، والذين ينظرون إلى هذا الاحتكار على أنَّه سبب أساسي في ظهور المجاعات؛ إذ أنَّ التُّجار اليهود كانوا يفضلون تصدير ما يجمعونه مِن السُّوق الدَّاخلية إلى الأسواق الأوروبية ولو على حساب تجويع الساكنة في الإيالة[3]؛ لما تدرُّه عليهم مِن عائدات مالية كبيرة، بل تشير بعض التقارير إلى أنّ كل من بكري وبوشناق كانا يقومان بتصدير وتموين الجيش الفرنسي بكل احتياجاتهم من القمح[4] في سنوات مختلفة منها على السبيل المثال ما نقف عليه: سنة (1794م) إذا في الفترة التي كانت الإيالة تعاني نقصا فادحا في المؤن مثلما تؤكده ملاحظات "مارشيكا" تدلنا وثائق ومراسلات أرشيفية، إذ تذكر إحدى المراسلات باسم بيشو (Buchot) موجهة إلى "حسن داي" حاكم الجزائر سنة (1208هـ/1794م) يلتمس فيها صاحبها مِن ممثل الخارجية الفرنسية التَّوسط من أجله لدى داي الجزائر لمنحه نوعا من التَّسهيلات اللازمة لأجل شراء كميات كبيرة من القمح الجزائري، ومساعدته بعد ذلك في عملية شحنها إلى فرنسا[5]، وتشير مراسلة أخرى صادرة عن القنصل " فاليار " وموجهة إلى وزارة الخارجية الفرنسي بأنَّ الطَّلب المقدَّم إلى الداي قد لقي فعلا ترحيبا كبيرا بالرغم من كل المحاولات الإنجليزية لثني "الدَّاي حسن" عن تقديم الدَّعم للجمهورية الفرنسية[6]، بل رد "الدَّاي حسن" على طلبات الشراء كان بأكثر مما كانت تنتظره حكومة الجمهورية في حد ذاته، إذ عبَّر الداي عن استعداد إيالة الجزائر لتقديم كل ما تحتاجه الجمهورية من حبوب أو أغذية أو أحصنة هي في حاجة إليها[7]. نقف على

---

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/123 Cotes: F° 206-210. 16 juil 1734.
[2] - William Shaler : op.cit, P37.
[3] - H - DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P360.
[4] - C. D. A. C. F : le 18 mai 1797. P462.
[5] - C. D. A. C. F : le 28 août 1794.
[6] - C. D. A. C. F : le 15 octobre 1794.
[7]- C. D. A. C. F : le 16 octobre 1794.

نفس الأمر يحدث مرارا في سنوات أخرى مثل: سنة (1796م/1210هـ) و(1797م/1211هـ) ففي نفس الحيز الزمني الذي كانت فيه مدينة الجزائر تعاني من أثار الجفاف والمجاعة الشديدة أو بلسان "مسلم بن عبد القادر" في خاتمة أنيس الغريب والمسافر:«...مسغبة عظيمة أُهلكت فيها أممٌ كثيرة حتى أكلوا الميتة والدم ولحوم بعضهم بعضا...» كانت السلطات في إيالة الجزائر تسمح بتصدير القمح إلى الموانئ الأوروبية.

ونحن إذا جئنا لتفسير هذه الظَّاهرة وربطها بموضوع بحثنا اعتماداً على رؤية اقتصادية محضة فإنَّه يمكننا تقسيم هذا الاحتكار أو التصرفات إلى قسمين باعتبار الزمن؛ فإن افترضنا أنّ هذا الاحتكار والتصدير كان يحدث فعليا في أوقات الرَّفاه ويضمن خلال هذه الفترات وغيرها الحدَّ المحترم مِن حاجيات السُّوق الدَّاخلية، وإذا ظهرت ندرة في هذه المواد وكانت للتُّجار اليهود أو غيرهم القدرة على توفيرها وتزويد السُّوق الداخلية بها دونما ابتزاز، فلا يعدو إلاَّ أن يكون تجارة مباحة لا تأثير لها في ظهور هذه المجاعات وبهذه الصورة لا يمكننا عدُّه احتكاراً أصلا.

أمَّا -وهو ما حدث أكثر من مرة- إن ترصَّد هؤلاء التُّجار اليهود السُّوق في حالة الرَّفاه باشتراء الحبوب بأموال بخسةٍ وإذا نقُصت المادة رفعوا سعرها أو فضلوا تصديرها للأسواق الأوروبية لما تدُره عليهم مِن أرباحٍ خاصة وأن الأسواق الأوروبية بالأخص منها الإيطالية والفرنسية كانت تفضل القمح الجزائر لنوعيته الرفيعة في بعض المنتجات[1]، متناسين حالة السُّوق واحتياجات السُّكان الغذائية، هنا يصبح لهذا الاحتكار سبباً مؤثراً في ظهور المجاعات.

هذا الاحتكار نتبين أثره في بعض المجاعات التي مسَّت الجزائر خلال هذه الفترة (1700-1830) فنرصده على سبيل المثال في المجاعة التي ألمت بالجزائر سنة (1805م). حين كانت شركة "بكري وبوشناق" تصدِّر القمح الجزائري إلى لفورنا ومرسيليا بينما كانت السوق الجزائرية بأمس الحاجة إليه، مستغلا "بوشناق" في ذلك العلاقات القوية التي تربطه مع الداي مصطفى باشا[2] ، وهو نفس العمل الذي كانت تقوم به الشركة الإفريقية في القالة التي كانت تحوز على عقد امتياز لصيد المرجان لكن صرفت همها إلى تصدير منتجات بيلك الشرق مِن القمح إلى الموانئ الأوروبية في كل من فرنسا وإيطاليا[3].

إضافة إلى الاحتكار يوجد تصدير فائض الإنتاج مِن أجل الحصول على الأموال أو التجهيزات إذ توجد عدد من الرسائل الأرشيفية[4]، بين حكام الجزائر وملوك فرنسا في ثناياها الحديث عن تصدير القمح الجزائر لفرنسا سنة (1711م) لما له من جودة في فرنسا ورغبة ملوك الجزائر في الحصول على تجهيزات

---

[1] -William Shaler : op.cit, P12.
[2] - Berbrugger: l'Affaire Bakri d'après un document inédit. In R . A, N°13.1869.60-63.
[3] - Lucette Valensi: op.cit., p78.
[4] - C. D. A. C. F : PP 62-132.

حربية في مقابل ذلك، وهذا إن أوحى بشيء فإنَّما يوحي بنوعية وكمية القمح الذي كان يصدّر من جهة ويعكس من جهة ثانية حالة التشبّع خلال تلك السنوات، بما ينفي وجود أي نقص أو أزمة غذائية خلال تلك الفترة هنا يصح الرَّبط الذي كان يعقده الأهالي في الإيالة الجزائرية بين المجاعة والاحتكار التجاري الذي يقوم به اليهود، بل وهو الأمر الذي دفعهم إلى الثورة سنة (1805م) على سطوة اليهود ومحاولة التَّخلص من نفوذهم المالي والسياسي الكبير والمتنامي في الجزائر.

وهنا يمكننا القول أنَّ احتكار الشَّركات ورجال المال سواء منهم اليهود أو الشركات التجارية ذات الامتياز لتجارة القمح كان له الأثر السّلبي لا على ظهور مجاعة ما أو أكثر فقط، وإنَّما على الحياة الاقتصادية ككلّ؛ لأنّ هذا الأمر أتاح للشركات اليهودية تحصيل ثروات كبيرة[1] على حساب كدح البسطاء بالإضافة، إلى أنّه قضى على النشاط الزراعي ككل[2]، إلاَّ أنّ هذا لا يحملنا بأية حال على جعله سببا مطردا وراء كلّ مجاعة، وإنّما هو سببٌ مُتغيّرٌ بتَغيُّرِ الزمان والحاجة الغذائية.

ضعف وسائل الإنتاج:

إضافة للسبب الآنف ذكره يمكننا أيضا أن نشير إلى أحد الأسباب العامة التي جعلت أوروبا والعالم الغربي يتفوَّق على العالم الإسلامي مِن حيث الإنتاج الزراعي خلال الفترة المعنية بالدِّراسة، ألا وهو الوسائل التقليدية التي كانت تستعمل في النشاط الزراعي، ولعلَّ هذا ما اعتبره العنتري ضعف الاهتمام بالفلاحة بشكل عام خلال العهد العثماني[3]، وتجدر الإشارة أنَّ ما كان يُستعمل خلال هذه الفترة مِن وسائل زراعية هي عينها التي استخدمت قبل قرون خلت خلال فترة الإمبراطورية الرومانية فالمحراث هو نفسه، ومعظم الآلات المستعملة خشبية الصنع تقليدية جدا[4]، وهي إحدى الأمور التي جعلت الإنتاج الزراعي ضئيلاً إذا ما قُورن بالإمكانيات الطبيعية التي تميِّز الإيالة.

فغالبا ما ظلت الأدوات المستخدمة في عملية الزرع والحرث جد متأخرة، ولا يمكنها أن تلبي الحاجيات الأساسية التي لها القدرة على تغطية الحاجة الداخلية للساكنة من المواد الغذائية خاصة منها القمح والشعير، ولعلَّ هذا أحد الأمور التي كان لها تأثير ولو غير ظاهر على الأزمات الغذائية التي كانت تلم بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني عموما والفترة المدروسة خصوصا.

قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه، فنقول أننا لا نبتغي هنا حصر الأسباب التي نرى أنَّها منطقية أو أساسية فقط، وإنَّما سنحاول أن نسوق كلَّ الأسباب

---

[1] -William Shaler : op.cit, P88.

[2] - Ibid. P100.

[3] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 09.

[4] - Lucette Valensi: op.cit., P43.

التي رءاها المجتمع في تلك المرحلة أو نرها نحن اليوم مِن زوايا رؤيتنا الحالية، إلاَّ أننا سنحاول أن نعقد في نهاية هذا المبحث ما نرى أنَّ له تأثيراً فعليا في ظهور المجاعات أو انتشار الأوبئة.

من بين العوامل الأساسية المساهمة في انتشار الأوبئة هو ارتياد الأماكن العمومية، خاصة المقاهي والحمامات والتي كانت منتشرة بشكل كبير في مدينة الجزائر والمدن الكبرى، إذ تذكر بعض الدراسات أنَّ عددها في مدينة الجزائر لوحدها ناهز الستين[1].

وتكمن خطورة ارتياد الحمامات في استعمال العامة لنفس الأغراض خلال عملية الاستحمام، في صورة المناشف المستعملة في الحمامات من جهة، ما يساهم في نقل الوباء مِن الشخص المصاب إلى الشخص الغير مصاب بشكل سريع ومهلك، وقد ذكر "حمدان بن عثمان خوجة" أنّ الناس كانت تفِرّ إلى الحمامات التي يعتقد أنَّها نظيفة للتّطهر من الأدران، وفي نفس الوقت كان العامة يبتعدون عن الحمامات التي يشاع خبر وجود الطَّاعون بها.

إلاّ أنّهم تغاضوا عن مسألة غاية في الأهمية وهي: أنَّ الجميع سيسعى إلى قصد هذه الحمامات للاستحمام ما يجعلها بدورها عرضة لتكون ناقلا للوباء[2]، وقد أشار قنصل فرنسا في الجزائر سنة (1699م) إلى أنَّه يظن أنَّ للماء دورا كبيرا في نقل الأوبئة أو مساهمة فيها بشكل كبير، وقد ذكر ذلك في إحدى مراسلته الموجهة إلى السلطات السياسية في بلاده[3]، كما ذكرت إحدى الوثائق المؤرخة سنة (1786م) أنّ كلّ المزابين الذين يعملون داخل الحمامات قد لَقَوْا حتفهم في الطَّاعون الذي أصاب المدينة تلك السنة[4]، كما استغرب الطبيب الدنماركي (أف.شونبيرغ) انتشار القذارة في بعض أزقة مدينة الجزائر وفي بعض الحمامات، وتوقَّع أن يكون لها أثرا فعليا في نشر الأوبئة مستقبلا وهو ما حدث لاحقا بالفعل[5]. بينما يذهب "فيشرا" -وينقلها عنه "كونر"- إلى الاعتقاد أنّ للحمامات ولبخار الماء الأثر الطيب والصحي في المعافاة مِن العديد من أنواع الأوبئة والطواعين، ويستدلان على ذلك بما نقله أحد اليهود مِن كون أنّ ذهابهم للحمامات كانت تعدُّ بالفعل مكان للتَّخلص من الأوساخ والبحث فيها عن المعافاة[6]، لكن هذا وإن كان يمكن أن يوجد فعلا فهو مُعلَّقٌ بتوفر شرط آخر لا يقل أهمية عنه وهو ما لم يذكره

---

[1] - Mostefa Khiati: op.cit., P 66.

[2] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص62.

[3] - H.-D. DE GRAMMONT : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742),P64.

[4] – انظر:

- Document 6 : Propagation d'une épidémie : la peste à Alger en 1787.

[5] – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 63.

[6] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P237.

الشاهد اليهودي ولم يشر إليه الناقلان، ونقصد به ضرورة الالتزام أثناء ذلك باستعمال الأدوات النظيفة غير المستعملة من قبل وهو أمر يصعب الحصول عليه في حمامات خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

بناء على ما سبق يمكننا الحديث فعلا عن التأثير المزدوج للذهاب إلى الحمامات، فمنها ما هو إيجابي يكمن في تنظيف البشرة والحصول على درجة الحرارة المرتفعة التي تكون بمثابة مانع من تطور الجرثومة وانتقاله إلى مرحلة أخطر، وفي نفس الوقت له جانبه السلبي وهو الغالب حسب رأينا ويكمن في أن ينتقل المكان من كونه مكان للبحث فيه عن النظافة إلى كونه مكان تجتمع فيه مسببات المرض سواء من المصابين فعلا أو عن طريق انتقال الجراثيم بين الحضور في الحمامات.

إضافة إلى الحمامات توجد أيضا التجمعات العامة والتي كانت تكون إما في المقاهي أو في المناسبات الخاصة مثل الأعياد الدينية، إذ كثيرا ما ساهمت هذه التجمعات في نقل الوباء ولعل هذا ما يفسر من خلال دراسة ظاهرة تزايد عدد السكان المصابين بالوباء بعد عيد الفطر لسنة (1232هـ/1817م) نفس الأمر يتحدث عنه "مارشيكا" إذ يشير إلى أنَّ عدد الضحايا كان في ارتفاع بعد عيد الفطر، ويرجع ذلك للاحتكاك الكبير الذي يحدث بين الناس إذ يقدم الجميع من سكان وتجار ويهود وكبار رجال الدلولة وضباط الجيش ورياس البحر لتهنئة الداي بالعيد[1] ويلتقي الجميع ببعضهم فيؤدي ذلك لا محالة إلى تيسير انتقال المرض أو الوباء من جهة إلى أخرى إذ فتتجاوز بذلك الإصابات بالمرض من العشرات لتصل إلى المئات والألاف بُعيد العيد الفطر، فينتقل مثلا عدد الضحايا من متوسط خمسين ضحية في اليوم إلى متوسط مائة ضحية في اليوم بعد العيد بيومين والشكل التالي يوضح ذلك.

[1] - Jean Marchika : op.cit., P158.

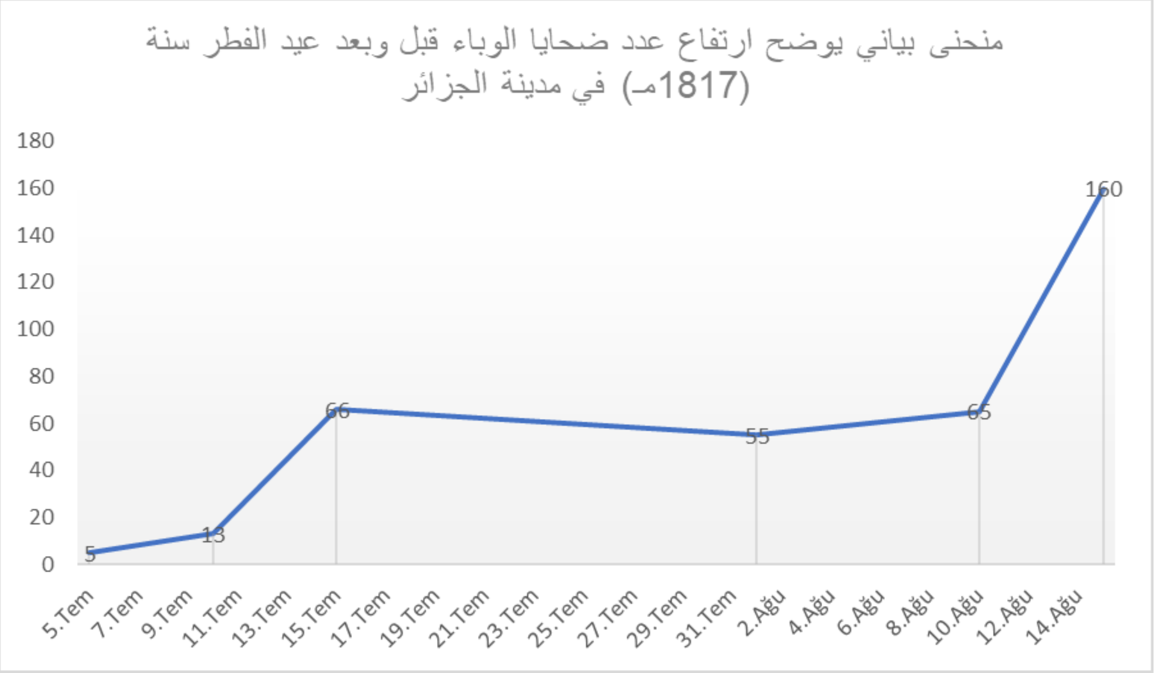

من الأمور المساهمة في انتشار الأوبئة في القطر الجغرافي للإيالة الجزائرية ولا يُنتبهُ له كثيرا، تنامي حركة السكان الداخلية، خاصة بين قاطني المدن وسكان الأرياف، وإذا أردنا دلائل على أهمية هكذا عنصر في انتشار الأوبئة مِن مكان إلى آخر ومدى تأثيره وجب علينا إجراء مقارنة معقدة بين انتشار الأوبئة والأمراض بين فترتين زمنيتين مختلفتين أولهما تنطلق مِن مُنتصف القرن السادس عشر وتنتهي مع نهاية القرن السابع عشر(1550-1699) وهي فترة تُعدُّ فترة ترسيم الوجود العثماني في الجزائر وتجذره ومقارنتها بالطرف أو الفترة الزمنية التالية والتي تمتد من بداية القرن الثامن عشر و وتنتهي باحتلال الفرنسي لإيالة الجزائر (1700-1830) وهي فترة نمت فيها الروابط بين السلطة السياسية والفعاليات الاجتماعية، كما تطورت فيها علاقة الريف بالمدينة.

والملاحظ أنَّ الطرق التجارية بين الريف والمدينة خلال الفترة الأولى من الحكم العثماني (1550-1699) لم تكن قوية، بحكم أنَّ السُّلطة السياسية كانت غارقة في صراعات مِن أطراف متعدد من أجل بسط سيطرتها الجزائر، وغدت السلطة السياسية خاصة في القرن السادس عشر تسعى إلى توطين وجودها بالتَّخلص من أعدائها في المنطقة[1]، وعلاقتها الاقتصادية كانت مرتبطة بالمحيط الخارجي أكثر من ارتباطها بالحيز الداخلي، وهذا ما ضمن الحركية الاقتصادية داخل المدن، فالمداخيل المالية كانت مرتبطة أساسا بالنشاط البحري للأسطول الجزائري، وما يحقِّقه في هذا الإطار مِن غنائم كان بدوره يدخل تلقائيا ضمن

[1] - Ernest Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la coqueté française(1830), Ernest Leroux, Paris, T3, P70-86.

تنشيط الدورة الاقتصادية دخل هذه المدن، إضافة لهذا فالتزام بعض الدول الغربية - نتيجة المعاهدات والاتفاقيات مع إيالة الجزائر- بدفع ضرائب موسمية أو هدايا سنوية ضمنت للسُّلطات السياسية العثمانية في الجزائر وكبار رياس البحر؛ مبالغ مالية وممتلكات قدَّرها الأب دان مثلا بـ 20 مليون فرنك[1] الحركية المالية، وبالتالي توفرت الاحتياجات الأساسية للنشاط الاقتصادي الداخلي للمدن؛ إذ أن وجود الموارد المالية – نتيجة أسر بعض السفن الغربية – من جهة، ووفرت السلع المختلفة القادمة مِن الموانئ الأوروبية –نتيجة توفر الأسطول البحري القوي ووجود المعاهدات التجارية مع دول أخرى- من جهة ثانية، إضافة إلى وجود الكثافة السكانية المعتبرة من جهة ثالثة، هذا الثالوث جعل المدن الكبرى ترتبط بعلاقات تجارية مع الخارج أكثر من ارتباطها مع نظيراتها الداخلية.

واقتصرت الحركة الداخلية للأفراد أو الجماعات على بعض التخوم المحاذية للمدن الكبرى، وهذا في الغالب للعمل على توفير ما تحتاجه هذه المدن مِن المواد الأولية إن اقتضت الحاجة لذلك، وقد عدّ لوسي فلانسي حجم المبادلات شيء لا يكاد يذكر، إذ أنَّ المبادلات الداخلية مع المناطق الجنوبية لا تتم إلاَّ مرَّة واحدة أو مرتين في السنة[2]، ما جعلها تجارة منتظمة لكنها غير مؤثرة، لكن ما يهمنا في هذا المقام ليس النشاط التجاري ولن نناقشه هنا، وإنَّما ما نبحث عنه في هذا الأمر هو حركة القافلة وكيف لها أنّ تعمل من غير دراسة على انتشار الوباء من مكان ظهوره إلى من مكان لآخر.

ومما يُمثَّل به في هذه الطرق التجارية التي ممكن إن تكون قد ساهمت في انتشار الأوبئة بشكل مباشر، ذلك الطريق التجاري بين مدينة جيجل في الساحل الشرقي للجزائر ومدينة الجزائر باعتبارها العاصمة، والذي أُنشأ بهدف توفير حاجيات السلطة الحاكمة في مدينة الجزائر مِن الأخشاب لتجهيز السفن[3]، لكن مع الوقت أصبح طريقا تجاريا دائما، قد يكون تسبب في نقل الوباء مِن مدينة الجزائر إلى جيجل، ومنها قد يُنقل الوباء من التُّجار إلى مناطق أكثر توغلا في الداخل.

ومن طرق المواصلات أيضا التي وُجِدت بشكل دائم بين عاصمة الإيالة ومختلف المناطق خاصة في الجنوب الجزائري، تلك الطريق الرابطة بين مدينة الجزائر وغرداية عن طريق بسكرة، والتي كانت تُعدّ طريق ربط محوري بين الجنوب والشمال[4]، خاصة أننا نعلم بأنه يوجد العديد مِن الحرفين البساكرة والميزابين الذين كانوا يستقروا بمدينة الجزائر ولم ينقطعوا عن موطن نشأتهم حسب هايدو، ما يجعل انتقالهم بين الفينة

[1] - Ernest Mercier : op.cit., P147.
[2] - Lucette Valensi: op.cit., P 58/59
[3] - Ernest Mercier : op.cit., P145.
[4] - William Shaler : op.cit., P105.

والأخرى خاصة في فترات انتشار الأوبئة هروبا منها شيء وارد بشدة؛ الأمر الذي يسمح بانتقال العدوى من منطقة جغرافية إلى أخرى.

كما أنّ تلمسان بقيت معبرا محوريا للسلع القادمة من إفريقيا[1] جنوب الصحراء وإن اختلف في حجم مبادلاتها إلا أنها مثبتة، والأمر الذي يجعل احتكاك سكان تلمسان مع غيرهم من سكان إيالة من شانه أن يساهم في نقل الأوبئة من الإيالة إلى غيرها أو العكس، يعني نقل الوباء مثلا من المناطق الغربية أو المغرب الأقصى أو من إفريقيا إلى المناطق الداخلية للإيالة.

يضاف إلى ما سبق الحركة الناجمة عن قيام البايات بالزيارة السنوية لمركز الإيالة من أجل دفع الدنوش، إذ كثيرا ما كان التنقل سببا رئيسيا في نقل وحمل الوباء والطاعون من مكان إلى آخر، فنجد على سبيل المثال أن تصادف سنة دفع الدنوش مع وجود وباء في مكان ما يقضي بصفة قطعية بظهور الوباء في المكان الآخر، فمن ذلك نجد أن احد الأسباب الأساسية في تسرب الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر سنة (1793م) من المدينة إلى قسنطينة هو قيام باي قسنطينة بزيارة الجزائر لأجل دفع الضريبة الدورية[2] والتي كانت تُقدَّم كلَّ ثلاث سنوات، الأمر نفسه نقف عليه مرة أخرى عند قيام باي بيلك الغربي الجزائري بزيارة الجزائر لدفع الدنوش في الوقت الذي كان الوباء ينتشر في المنطقة.

ولعلَّ مِن الأسباب الرئيسية التي ساهمت في عدم السيطرة السريعة على انتشار الأوبئة غياب مؤسسات استشفائية أو طبية محترمة ومجهزة، إذ لا تشير المصادر على اختلافها إلاَّ إلى النزر القليل جدا، فمدينة الجزائر مثلاً التي كانت عاصمة الإيالة لم تتجاوز بها عدد المستشفيات خلال الربع الأوّل مِن القرن التاسع عشر خمس مستشفيات على الأكثر[3]، والأغرب أنَّ من بين هذه المستشفيات واحد إسباني وآخر فرنسي تابعان للإرساليات المسيحية أو لجمعيات فداء الأسرى الإسبانية والفرنسية، وما يزيد الأمر حيرة هو أنّ مدينة الجزائر التي قُدِّر-أقل الدراسات إنصافا نسبة- عدد سكان بها بما يفوق 250 ألف نسمة لم يوجد بها إلاَّ خمس مستشفيات، أي بنسبة 1/500.00 نسمة، والمستشفى لم يكن يتسع غالبا لأكثر من 100 مريض.

1 -Lucette Valensi: op.cit., P58/59

2 - Jean Marchika : op.cit., P142.

3 - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص 74-86.

الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة والمجاعات في الجزائر:

يعد من نافلة اللكلام في هذا الباب أن نتحدث عن التأثير المباشر للجغرافيا في تاريخية المجاعات والأوبئة في الإيالة العثمانية، فالأحداث على تغيرها وتتابعها في حقيقة الأمر ما هي إلاَّ صنيعة لهذا الثابت الجغرافي للإيالة والمنطقة ككل، والجغرافيا هي التي فرضت المنطق الذي ظهرت به الأوبئة مِن جهة ومن جهة أخرى له مسؤولية كبيرة في انطلاقها وتفشيها.

وتتبع عدد مِن الدِّراسات الغربية والمحلية يقودنا إلى عدد مِن الاستنتاجات التي سنبني عليها تحليل هذا المبحث، وعلى رأس هذه الاستنتاجات فكرة أنَّ بروز المجاعات في الجزائر لم يكن يختص بمنطقة ما دون منطقة أخرى وهو عكس ما توافر لدى الأوبئة التي كانت في بعض المرات متمركزة حول مناطق بعينها، فنجد أنَّ معظم المجاعات عند ظهورها غالبا ما كانت تعم الإيالة ككل، أو على أقلّ تقدير تعم مناطق شاسعة، وهذا ما يفسر وقفنا على مصطلحات قحط كبير ونقص في المؤونة في الجزائر، أو في قول أحدى المخطوطات عن مجاعة في وقت "محمَّد باي الكبير فاتح وهران" : «..أنَّه في ابتداء ولايته وقع قحطٌ شديد بإقليم الجزائر وبعمالته خصوصا...»[1] فنلاحظ قول المصنف في "إقليم الجزائر" دلالةً على كلِّ الإيالة ثمَّ يُخصِّص مكان بعينه فيقول و"بعمالته خصوصا" وهكذا الأمر في معظم المجاعات التي ألمت بالإيالة، والعدد القليل مِن المجاعات التي كانت خاصة بمنطقة ما نجدها مرتبطة ببيلك الغرب بالخصوص، لكن هذا لا يعني أنَّ المناطق الأخرى كانت في منأى عن الأزمات الغذائية، لأجل ذلك استنكفنا هنا أن نقوم بوضع تصوُّر وهمي هلامي لانتشار المجاعات في إيالة الجزائر خرائطيا، إذ لا يصبح ذلك إلاَّ مجرد تخمين لا يمتُّ للبحث الدَّقيق بصلة، واستعضنا عن ذلك بالإقرار أنَّ المجاعات لم تتمركز في نطاق أو حيز جغرافي بعينه دون المجال الواسع الذي كانت تشغله الإيالة.

وإذا ظهر لنا جواب ما جنحنا إليه فيما يخص التوزيع الجغرافي أو الخارطة الجغرافية للأزمات الغذائية والمجاعات، فمن الواجب الآن أن ننتقل للحديث عن الخارطة الجغرافية للأزمات الصَّحية والأوبئة خلال نفس المرحلة الزمنية (1700-1830م)

لكن قبل أن نخوض في رسم الخارطة الجغرافية لتوزع الأوبئة والمجاعات في الجزائر أحببنا أن نقدَّم بمقدمة تكون توطئة لما نروم بحثه وهو أن لتمركز الأوبئة في مكان دون آخر كانت تشكله محددات ذات عوامل مختلفة، منها ما تم ذكره سابقا في الأسباب المباشرة وغير المباشرة ومنها ما لم يذكر لأنَّه ظلَّ موضع

[1] – نبذة من سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، رقم (5022)، [و/2].

خلاف، وأهم ما لم يتم ذكره هو تأثير الموقع الجغرافي لمدينة ما على تلقيها أسباب الوباء أو تلافيها إياه، وهو الزمن الجغرافي الذي سينبني عليه الظروف والأحداث الكاملة لاحقا.

وتتبُع بعض الأمثلة الخاصة بالأوبئة التي ظهرت في الجزائر على امتداد مائة وثلاثون سنة (1700-1830) يحيلنا إلى نفس الملاحظات التي تكلَّم عنها الباحثون في هذا الموضوع في بلدان أخرى، فنذكر مثلاً أنَّ الاقتراب مِن سطح البحر أو الابتعاد عنه عُدَّ أحد العوامل المهمَّة في ظهور الأوبئة وتوطُّنها من عدمه[1].

فنقف على سبيل المثال أنَّه مِن بين أهم أماكن تواجد الأوبئة واستيطانها المدن الساحلية مثل: مدن الجزائر، وعنابة، والقالة، وجيجل، ووهران، ومستغانم لكن ظلَّ هذا الأمر على مستوى الظهور والتوطُّن، فيما يوجد مستوى آخر هو مستوى التفشي والانتقال، لأننا لا نقف عند الأوبئة على انحصار مكاني مُحدَّد، كما أمكننا أن نستخلص مِن القراءة العامة للمصادر أنَّ الظَّاهرتين عرفتا مع تقدُّم الوقت امتداداً جغرافيا يكاد يكون شاملا لجلَّ المناطق الجغرافية لإيالة الجزائر، لكن على خلاف بين الظاهرتين كما سيأتي.

وسيحاول في هذا القسم من البحث تبيُّن المناطق الرئيسية التي استوطنتها الظاهرتين أو المناطق التي عرفت بروزاً كبيرا لأوبئة والمجاعات، إذ أنَّ التَّأثير ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة كان يختلف لا محالة.

فمن ناحية الأوبئة غالبا ما كان المنبع الذي تتطعَّم به المنطقة مِن الأوبئة مصدره المشرق العربي ومصر تحديدا [2]، أو من موانئ الدولة العثمانية[3]، هذه الأخيرة التي كانت تربطها علاقات تجارية ودينية مع الشرق الأدنى وبالأخص مع زُمر الحُجَّاج الوافدون مِن شبه القارة الهندية إلى الحجاز، وغالبا ما كانت تساهم في نقل هذه الأمراض عبر السبل المختلفة مِن هناك إلى باقي أقطار الدولة العثمانية، وهنا يستوقفنا شبه إجماع لدى معظم الدراسات على أنَّ شبه القارة الهندية كانت هي الموطن الأوَّل لمعظم الأوبئة خلال تلك المرحلة الزمنية[4].

بعد ذلك كان خط انتشار هذه الأوبئة بعد وفودها من إيالة الجزائر إلى المشرق العربي عبر موانئ المدن الكبرى في الجزائر مثل مُدن: الجزائر وعنابة والقالة وجيجل ووهران ومستغانم، أو عبر الحدود البرية مع الإيالة التونسية، فنجد مثلا من الأوبئة التي وفدت إلى الجزائر من الناحية الشرقية سلكت نفس المسلك من

---

[1] - Dubar Léon : op.cit., P13.
[2] - Lucette Valensi: op.cit., P21.
[3] - Danıel Panzac: a.g.e, s66.
[4] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P25.

تونس باتجاه طبرقة ومنها على المحور الشمالي دائما يتجه الوباء إلى المناطق المحاذية للقالة ومنها إلى مدينة عنابة[1]، من ناحية البَر يستهدف هذه المدينة وهذا المحور، بعدها إلى المناطق الشرقية مِن الإيالة الجزائرية.

أمَّا من النَّاحية الداخلية كثيرا ما انتقل الوباء من المناطق السَّاحلية التي ترتبط بالتِّجارة أو بحركة نقل مع المناطق الداخلية، لكن قبل أن نخوض في هذا الأمر يجب أن نوطأ بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول أنّنا نقف على العديد مِن الإشارات التي تتحدَّث عن انتقال الوباء مِن مدينة الجزائر أو مُدن كعنابة ووهران إلى مدن أخرى مثل: قسنطينة، والمدية، والشلف، وغيرها، فمن ذلك ما ذكره القنصل الفرنسي في الجزائر مِن انتقال وباء (1153هـ/1740م) الذي بدأ يخمد في مدينة الجزائر وينتقل مِن هذه المدينة إلى مدينة قسنطينة مركز بيلك الشرق الجزائري[2]، نفس الأمر يحدث مع قافلة شيخ العرب التي كانت في مدينة الجزائر أثناء وباء (1794م) ونقلت معها هذا الوباء في السنة نفسها إلى مدينة قسنطينة بحيث أصيب بالجرثومة شيخ العرب وتوفي جراء ذلك[3].

كما نجد إشارة لدى "بير بروجر" تتحدّث عن دور الطرق البحرية الداخلية في العمل كناقل للوباء، إذ قدمت إحدى السفن المملوءة بالانكشارية من ميناء مدينة الجزائر إلى ميناء مدينة بونة في تاريخ (1786/04/30م) أي في الفترة التي كانت تشهد المدينة وباء شديد[4]، نفس الأمر يتكرَّر في وباء سنة (1797م) فيذكر "بير بروجر" أنَّ مدينة عنابة كانت قد استقبلت في السنة نفسها سفينة من مدينة الجزائر بها رجال الحامية العسكرية النوبة منهم مَن فُقد أثناء السفر في البحر ومنهم مَن تُوفِي يومين بعدما دخل إلى مدينة عنابة[5]، فإن تحقق هذا فعلا كان يقرب على العقل تناوله بالتحليل والربط بينه وبين انتقال الأوبئة، فما هذا التنقل الدائم للجماعات المحلية بين الأماكن الموبوءة إلاَّ مِمَّا يساهم لاحقا في تنشيط الحركية الوبائية بشكل آخر وفي مدينة أخرى أي أنَّ استمرارية تواجد الوباء كانت جد كبيرة داخل هذه المدن الأساسية، خاصة إذا علمنا أنَّه لم تُتَّخذ أي إجراءات تؤدي إلى التَّضيق على الأوبئة أو السيطرة عليها ضمن إطار جغرافي ما.

فكثيرا ما نجد ترابط وعلاقة اطرادية بين ظهور الوباء في الجزائر وانتقاله إلى تونس أو حدوث العكس أي انتقال الوباء مِن تونس إلى الجزائر، وهو ما حدث بالفعل مع وباء سنة (1784م) والذي لم يفرغ مِن تونس إلاَّ وقد ظهر في الجزائر في نفس الفترة أي سنة (1785م) حتَّى وإن حاول "باي قسنطينة"

---

[1] - Charles Féraud : op.cit., P420.
[2] - H- D. De Grammont : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P260.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, PP 227.
[4] - Ibid. PP 218.
[5] - Ibid. PP 229.

تجنُّبه بفرض نطاق حجر صحي حول الحدود الجزائرية مع الإيالة التونسية[1]، وقد امتدّ تأثيره لاحقا خلال سنتين من المناطق الشرقية باتجاه المناطق الموجود غرب البلاد بداية ببيلك التيطري، ومن المناطق الوسطى سنة (1787م) وهو ما يمكن أن تكون القوافل التجارية أو الحرفين مِن أهالي هذه المناطقة الداخلية قد نقلوه معهم إلى بسكرة عند هروبهم منه أثناء ظهوره في مدينة الجزائر أو من غير إدراك منه لذلك، وقد تجدَّد ظهور آثاره سنة (1789م) ولم يخمد أثره إلى غاية (1792م) تقريبا[2].

وإذا تقرَّر ما سبق وجب أن نصرف القول إلى أنَّ الأوبئة قد غدت في الكثير من الأحيان في عدد مِن المدن الجزائرية سمة العامة ترسم طابع الحياة في مجتمع المدن الكبرى خلال الأوبئة التكرارية، وقد تمركزت هذه السِّمة بالدَّرجة الأولى كما سبق في المدن الكبرى التي لها موانئ مطلَّة على البحر الأبيض المتوسط، وهي بالتَّحديد المدن المحورية للحركة التجارية والتنقلات الأساسية خارج الإيالة، وهي نفسها حسب "وليام شالر" ثلاثة موانئ رئيسية هي: ميناء مدينة الجزائر، ميناء وهران، وميناء عنابة[3].

فنجد بعض الأبحاث والدراسات تُخصِّص هذه المدن دون غيرها عند الحديث عن تأثيرات الأوبئة بها، حتى أننا نكاد نجد أنَّ الحديث عن الوباء لا يخرج إلاَّ نادراً عن دائرة هذه المدن، هذه المدن التي تجمعها صفة السَّاحلية باستثناء ثلاث مدن سيأتي بيانها.

وإذا عُرف هذا وفُهم ما سبق فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من الحديث فنقول: إنَّ المدن السَّاحلية التي تمركز بها الوباء أو ظهر بها أكثر مِن غيرها هي: مُدن الجزائر وعنابة (القالة) بشكل أكبر من غيرهما، وقد ارتأينا من خلال استقراء تقسيم المدن التي أصابها الوباء إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وضمَّت المدن والمناطق التي لم يكد يظهر وباء إلاَّ وكان لها منه نصيب، حتى أنَّه يمكننا أنْ نُعدَّ هذه المدن هي مُدن التَّوطُّن أو إن صحَّ التَّعبير قلنا مدن معبرية (إذ كانت لفترة طويلة معبر تمر به الأوبئة التي إلى باقي أرجاء الإيالة) هذه المدن والمناطق هي الفئة الأولى، لكن هذا يقتصر بالطبع على نوعية الوباء ومدى إمكانية أن ينتقل مِن شخص إلى آخرٍ بشكل مباشر من عدمه، إذ يمكن أن يظهر وباء (الكوليرا) في مدينة ما لكنه لا يتعدَّها إلى غيرها إلاَّ في حالات نادرة[4]، بسبب الشروط التي يتكوَّن فيها مثل هذا الوباء، مثل الحيز المغلق الذي يتطلَّبه، أو في حالات أوبئة أخرى كـ(التيفوئيد) فإنَّ التَّلوث الذي قد يصيب منبع الماء المشترك أو مسالك الماء المختلفة قد تسمح بأن تنتقل العصيات المختلفة لوباء

[1] - Mostefa Khiati: op.cit., P 74.
[2] - Lucette Valensi: op.cit., P21.
[3]- William Shaler : op.cit., P16.
[4] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P21.

(التيفوئيد) عن طريق المياه[1] إلى الأفراد الأصحاء أيضا[2] وهي بعض الخصائص التي سبق الحديث عنها واختص بها وباء التيفوئيد كما مرّ، والخريطة الموجودة هنا توضح لنا المراكز أو المدن الأساسية التي انتشرت بها الأوبئة خلال المدة الزمنية المعنية بالدراسة (1700-1830م) وهي محددة بالنقاط الحمراء الدالة على خطورة الوضع حيال وجود الوباء كما هو الحال أسفل مناطق متيجة التي ذكرت في العديد من المصادر كأحد مواطن الحمى المتكرر[3].

أمّا الفئة الثانية: فهي مدن العوارض، والتي كان يعرض لها في بعض الأحيان الوباء فيما كان في أحيان أخرى يمر بها دون أثر كبير، أو أنه في بعض المرات لبث فيها وأثر فيها بشكل واضح، ويمكن أن تكون ضمن هذه الفئة مدن المستوى الثاني من حيث الوجود الوبائي كما سيأتي بيانه

أما الفئة الثالثة: فهي فئة المدن الهوامش وهي تلك المدن التي كان ولوج الوباء بها هامشي، فلم يكد يستقر بها كثيرا أو لم يؤثر فيها بالشكل الذي من شأنه أن يأتي فعلا على النظام الديمغرافي أو لتركيبة سكان هذه المدن، ومنها بعض المدن التي عرفت الأوبئة مرات نادرة إن لم نقل معدودة خلال المرحلة المعنية بالدراسة(1700-1830م)

فإن تقرّر ذلك قلنا أن هذا التصنيف ليس دقيقا ولا شاملا بل هو كناية عن مقاربتنا واستقرأنا لشخصيات هذه المدن، لذا إذ أتينا الآن على ذكر التفاصيل المرتبطة بالفئات المختلفة التي ارتأينها لتلك المدن والسبب الذي حملنا على وضع كلّ مدينة ضمن فئة ما دون غيرها فنقول:

تأتي فئة المدن الأولى وهى المدن الحاضنة أو الناقلة أو مدن التوطُّن الوبائي، على رأس هذه المدن طبعا عاصمة الإيالة أي: مدينة الجزائر أو دار السلطان أو عاصمة الإيالة، نجد أنّ أغلب الأوبئة كانت تنتشر منها إلى غيرها وبالأخص محيطها القريب ومحيط متيجة تحديدا، أو إذا لم تكن هي المستورد لها استقبلت الوباء مهما كان ضعفه وهذا راجع إلى أسباب سنعددها لاحقا لما نتحدَّث عن المدينة الثانية أي مدينة عنابة إذ نجد أنهما يقفان على نفس المميزات التي تجعلها في المرتبتين الأولين، ونجد أنَّ أكثر من (75%) بالمائة من الأوبئة التي سنتحدث عنها تمركزت في مدينة الجزائر فمنذ بداية القرن الثامن عشر ظهر وباء سنة (1700م) على ما يذكره القنصل الفرنسي في الجزائر السيد (Durand) بتاريخ (1700/06/28م) في إحدى رسائله ضَمَّن مفاده «...لقد هاجم الوباء مدينة الجزائر منذ ثمانية أو

---

[1] - Bolio Antonin :op.cit.,P09.

[2] - Brouardel Paul Thoinot Léon-Henri : op.cit., P12.

[3] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2005، ص47.

عشرة أيام وتوفي نتيجة ذلك ثلاثة أو أربعة أشخاص..»[1] ليستمر تأثيره سنتين بعد ذلك وهو ما يمكننا استقراؤه ضمن إحدى المراسلات الرسمية للقنصل الفرنسي في مدينة الجزائر دائما بتاريخ الأوّل من شهر (أوت/أغسطس) سنة (1702م) إلى السيد (Pontchartrain) "بونشاتران" يعلمه فيها بأنّ إيالة الجزائر بدأت تتعافى من الوباء الذي ألمّ بها منذ فترة طويلة وألحق بها خسائر فادحة قدرها (45.000) ضحية[2]، وظهر مرّة ثالثة سنة (1717م) ثمّ أكدَّ حضوره مرّة أخرى سنة(1730م) وتواصل ظهوره سنة (1737م) في المدينة، فيما يظهر مرّة جديدة حسب مخطوط "بيان ملوك الجزائر" عام (1740م/1153هـ)[3] ويؤثر في الساكنة بشكل كبير[4] وتشير إحدى الرسائل الأرشيفية إلى تجدُّد ظهوره مرّة أخرى وبشكل أعنف من ذي قبل سنة (1741م)[5] لتعرفه بعدها المدينة نوعا من الهدوء استمر قرابة أحد عشر سنة ليعود بعدها مرّة أخرى للمدينة سنة (1752م) حسبما يُستشف مِن إحدى الوثائق أرشيفية المؤرخة بالثلاثين من شهر جوان سنة (1752م)[6] تتحدث عن تمكن الوباء من المدينة، ويستمر الوباء في اتخاذ مدينة الجزائر مرتكزا أساسيا له، إذ يتكرر ظهور مرات أخرى سنوات (1753م) و(1757م) (1786م) ثم بشكل أكثر تأثيرا في تسعينات القرن الثامن عشر وبالتحديد مع وباء (1793م) الذي ازدادت حدته على في النصف الثاني مِن شهر (فيفري/فبراير) وأصبح أكثر حدَّة حسب ما تُقرُّه رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر لوزارة خارجية بلده[7]، ثم يتكرر ظهور الوباء مرة أخرى سنة (1796م) ويمتد من المدينة باتجاه الداخل فيصل متيجة والمدية ويتسرَّب عبرهما إلى المناطق المحيطة والقريبة منهما خلال شهر (أبريل/أفريل) من السنة نفسها على حسب ما توروده بعض المراسلات للقنصلية الفرنسية مع وكلاء الشركة الإفريقية[8]، ويبقى يشكل تهديدا في المدينة في سنة (1798م) ليحدث هدوء حذر يمتد عشرين سنة كاملة ليعاود الظهور في المدينة مرة أخرى سنوات (1817م)، (1819م) (1822م) وبشكل عام فقد وصلت عدد الأوبئة التي ألمت بمدينة الجزائر لوحدها خلال القرن الثامن عشر حوالي (22) مرّة في عاصمة وظهرت الأوبئة حوالي (06) مرات في الربع الأوَّل مِن القرن التاسع عشر،

---

[1] - H.-D. DE GRAMMONT : **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**, P64.

[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes : F° 257-262. 1 aout 1702.

[3] – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم(1624).

[4] – سيأتي الحديث عن التأثيرات الديمغرافية لاحقا في الفصل الرابع.

[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 279-282. 19/01/1741.

[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 46-50. 30/06/1752.

[7] - Lettre du 17 février, dans le registre de la correspondance du consulat Français, idem, P 355.

[8] - Lettre du 2 mai 1796 (xui floréal an iv), du consulat de France, à Alger, à l'agtnt consulaire français de Bône. Guyon, op.cit. P357.

فإن عُرف ذلك كنّا جدراء بأنْ نقول أنَّ مدينة الجزائر والمنطقة المحيطة بها الممتدة إلى غاية سهل متيجة كانت بحق المنطقة الأكثر تحملاً للأزمات الصّحية داخل الإيالة وهذا بسبب تحملها للحمى التكرارية التي استقرت بها إلى حد ما[1]، وفي الكثير من الأحيان كانت هي مركز للانتقال الوبائي والقلق الصحي داخل الإيالة.

فإن تقرر ما سبق وجب الانتقال إلى المدينة الثانية التي تحظى بنفس الأهمية من ناحية كونها كانت بدورها مركزا وبائي، أو على الأقل معبرا حيويا له، وهي بدون شك مدينة عنابة أو بونة الساحلية في الشرق الإيالة الجزائرية، إذ لا نكاد نجد وباءً يظهر في أحد أجزاء الإيالة إلّا ووقفنا على أثره في مدينة عنابة، وهذا منذ بداية الفترة المعنية بالدِّراسة، فنقف من سنة (1700م) إلى غاية سنة (1830م) على أكثر من خمسة عشر وباء ألم بالمدينة أو عبر من خلالها على الأقل، وحديثنا عن مدينة عنابة يتضمن أيضا مدينة القالة، بل وظلت بعض الأوبئة كالجدري تضرب المدينة من حين إلى آخر حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر[2]، فنقف على أول الأوبئة مع بداية القرن الثامن عشر تماما، إذ لم تستثن المدينة من ذلك الوباء الذي لحق بالإيالة سنة (1700م) حسب مارشيكا (Marchika)[3]، والذي يمكننا أن نرجعه إلى أصله الحقيقي، إذ أنه كان في الأصل امتدادا لوباء سنة (1696م)[4] الذي ضَرب المنطقة ككل وظلت بعض جيوبه الوبائية نشطة بداية القرن الجديد، مثلما نقف على وجود الوباء أيضا سنة (1756م) حسب ما توره إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية الرسمية، بحيث تتكلم عن وجود عدد من حالات الإصابة بالوباء في مدينة عنابة أواخر شهر جانفي (1756م)[5]، كما نجد أنَّ الوباء يظهر مرة أخرى في مدينتي عنابة والقالة والأحواز المحيطة حسب مراسلات الشركة الإفريقية في مدينة عنابة سنوات (1784م) (1785م)، إذ تورد بعض المعلومات من بينها رصد حالتين لضحيتين من سكان المدينة قد أصيبا بنفس أعراض هذا الوباء في شهر أكتوبر من سنة (1784م)[6]. مثلما تحيلنا مراسلة أخرى مِن الشركة الإفريقية أوردها "شارل فيرو " تتحدث عن تفشي الوباء ما بين سنتي (1783-1785م) في عدد من أحواز مدينة القالة[7].

---

[1] - – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص47.

[2] - Sistach : la variole a Bona, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879, P126.

[3] - Jean Marchika :op.cit., P69.

[4] - H.-D. DE Grammont : **Correspondance des consuls D'Alger** (1690-1742) PP. 57-59

[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes : F° 13-20. Journal n° 69 du mois de janvier 27/01/1756.

[6] - Lettre de l'agent précité, en date du 4 octobre. Dans Histoire chronologique des épidémies, (Guyon) P330.

[7] - Charles Féraud : op.cit., P395.

ويذكر "بير بروجر" كما مرَّ معنا فيما سبق أنَّ مدينة عنابة كانت قد استقبلت في (1796م) سفينة من مدينة الجزائر بها رجال الحامية العسكرية النوبة جلهم مصاب بالوباء وغالب الظن أنهم ساهموا في إدخاله المدينة خاصة إذا علمنا أن منهم من توفي داخل المدينة بعد يومين من وصوله المدينة[1]، وتبقى الأوبئة تتكرر من ناحية الظهور سنوات عدة ومختلفة وامتد إلى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فنجد مثلا أنَّ الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (1817م) كان أوَّل ظهوره في مدينة عنابة؛ بسبب السفينة التي حُكي أنها قد رست بميناء مدينة عنابة سنة (1233هـ/1817م) سفينة قادمة مِن مصر تحمل على ظهرها خمسة وعشرون مسافرا وافد من أداء مناسك الحجّ كان معظمهم مصابا بالطاعون وقد تفرقوا بعد دخولهم المدينة إلى أماكن مختلفة ما تسبّب لاحقا في تفشي الوباء لباقي سكان المدينة[2].

وإذ قد أتينا على ذكر مدينتين ساحليتين كانتا معابر أساسية مر عبرها العديد من الأوبئة والطواعين، نأتي الآن إلى مدينة داخلية لكنها أتت قبل بعض المدن الساحلية في تلقيها للأوبئة والأزمات الصحية، وهي مدينة قسنطينة، فنجد العديد من الأوبئة التي ألمت بمدينة عنابة وجدت طريقا لها إلى عاصمة بيلك الشرق الجزائري، لذا نقف على العديد من الأوبئة التي ظهرت في المدينة من بينها على السبيل المثال لا الحصر، منها ما ذكره القنصل الفرنسي في الجزائر مِن انتقال وباء (1153هـ/1740م) من عاصمة الإيالة إلى عاصمة بيلك الشرق الجزائري[3]، والذي تتحدَّث الوثائق الأرشيفية عن تأثيراته الكبيرة على كلّ مِن مدينة قسنطينة ومدينة تلمسان سنة بعد ذلك[4].

كما يذكر (Guyon) أنّ الوباء قد ظهر في العديد من الأماكن على الساحل الشمال الإفريقي، وكان تأثيره بشكل خاص في مدينة قسنطينة والأحواز المحيطة بها، وقد رجح "غيون" أنَّ هذا الوباء قد يكون امتدادا لسابقه الذي ظهر سنة (1165هـ/1753م) [5]، مثلما نقف مرة أخرى على ظهور الوباء سنة (1783م) على ما يذكره "غيون" عن الأب (Poiret) الذي يتحدَّث عن تمكُّن الوباء في بيلك قسنطينة خلال سنة (1783م)[6] ويتجدَّد ظهور الوباء مرَّة أخرى سنة (1785م) في بيلك قسنطينة، ثم يتسرب إلى عاصمة البيلك سنة بعد ذلك أي سنة (1786م) مع ما بذله "صالح باي" حينها من العديد مِن الإجراءات لمنع دخول الوباء إلى البيلك لكنه فشل في ذلك، كما تظهر أهمية المدينة في كونها محتضن قوي للأوبئة وناقل مهم لها أيضا مِن خلال ما حدث سنة (1793م) بنقل الوباء الذي كان يضرب مدينة

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, PP 229.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P373.
[3] - H- D. De Grammont : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P260.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 285-286. 17/07/1741.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P321.
[6] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P329.

الجزائر إلى بيلك الشرق نتيجة الزيارة الروتينية المتعلقة بتحصيل الضرائب ودفعها لدرا السلطان[1] ولم تنقطع الأوبئة عن المدينة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، إذ تجدَّد ظهور الوباء سنة (1817م)[2] ثمَّ التَّجدُّد مرَّةً أخرى(1819م) سنوات (1820م) و(1822م) وهو ما يجعل بالفعل مدينة قسنطينة تكون ضمن الفئة الأولى من المدن الحاضنة والناقلة في نفس الوقت للأوبئة ويجعلها مركزا حيويا يختلف بقدر قليل على كل من مدينتي الجزائر وعنابة بحكم خاصيتهما الساحلية التي جعلتهم أكثر عرضة للأوبئة.

وضمن نفس الفئة دائما نقف على مدينة تحمَّلت بدورها العديد مِن الأزمات الصحية، وهي مدينة وهران الساحلية، إذ تلقت بسبب مركزها الحيوية في بيلك الغرب الجزائري العديد من الأوبئة منذ أول مراحل الوجود العثماني في الجزائر، إذ قد ذكرنا فيما مر أنّ من بين أول ضحايا الأوبئة في إيالة الجزائر في عهد البايلربايات بايلرباي الجزائر "صالح ريس" الذي لقى حتفه بسبب الوباء عندما كان يسعى لفتح مدينة وهران[3]. وظلت المدينة في الكثير من الأحيان سببا في امتداد الأوبئة، خاصة مع التُّجار والحجاج وبالتحديد بعد الفتح الثاني للمدينة.

ونقف في هذا الشأن على عدد كبير من الأوبئة كما سيأتي لكننا بغرض الاختصار وبحكم أن هذه الأوبئة سيأتي ذكرها بالتفصيل في حينه نستعرض بعضها فقط، ولعلَّ مِن بين أهم الأوبئة التي كان لها تأثير في النسق العام للحياة داخل بيلك الغرب الجزائري ذلك الوباء الذي ألمَّ بالمدينة سنة (1151هـ/1738م) بعدما ظهر في بداية الأمر في مدينة تلمسان ثم انتقل إلى المناطق المحاذية لمدينة "وهران"[4]، حينها كان "يوسف بن مصطفى بوشلاغم " يعمل لأجل السَّيطرة على النظام في البيلك وأن يقوم باسترجاع مدينة وهران من يد الإسبان، إلاّ أنه سقط بدوره ضحية للوباء الذي كان يضرب المدينة خلال تلك السنة (1151هـ/1738م)[5]، يظهر الوباء مرات أخرى في المدينة، لكن من بين أهمها وأكثرها أثرا هو الذي كان سنة (1786م) وجاء متزامنا مع ظهوره في كل من عنابة ومدينة الجزائر وامتد لاحقا إلى المغرب الأقصى، مع أن باي وهران حينها قام بتأسيس نطاق حِجر صحي عليه ومن معه من المرافقين ولم يدخل مدينة وهران عندما عَلِم بأمر الوباء الذي اجتاحها[6]. نقف بها أيضا على وباء آخر يضرب المدينة سنة (1817م) وآخر يتجدد بها سنة بعد ذلك، ويستمر هذا الوباء في الظهور خلال السنوات التالية (1818م) (1819م)و سنة (1820م) وحتى سنة (1821م) والذي لحق فيها المدينة وباء على نفس

---

[1] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P142.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P232.
[3] - مؤلف مجهول : **نبذة يسيرة في سيرة محمد باي فاتح ثغر وهران**، و/6 ص11.
[4] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP 314-315.
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.
[6] - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

السفينة التي حملت الوباء إلى عنابة ومدينة الجزائر كما سيأتي. والخارطة التالية توضح محاور التواجد الوبائي المستوطن لبعض الأزمات الصحية في الجزائر خلال العهد العثماني:

1- خارطة توضح التوزع الجغرافي لمدن الفئة الأولى الأكثر عرضة للوباء (1700-1830م)

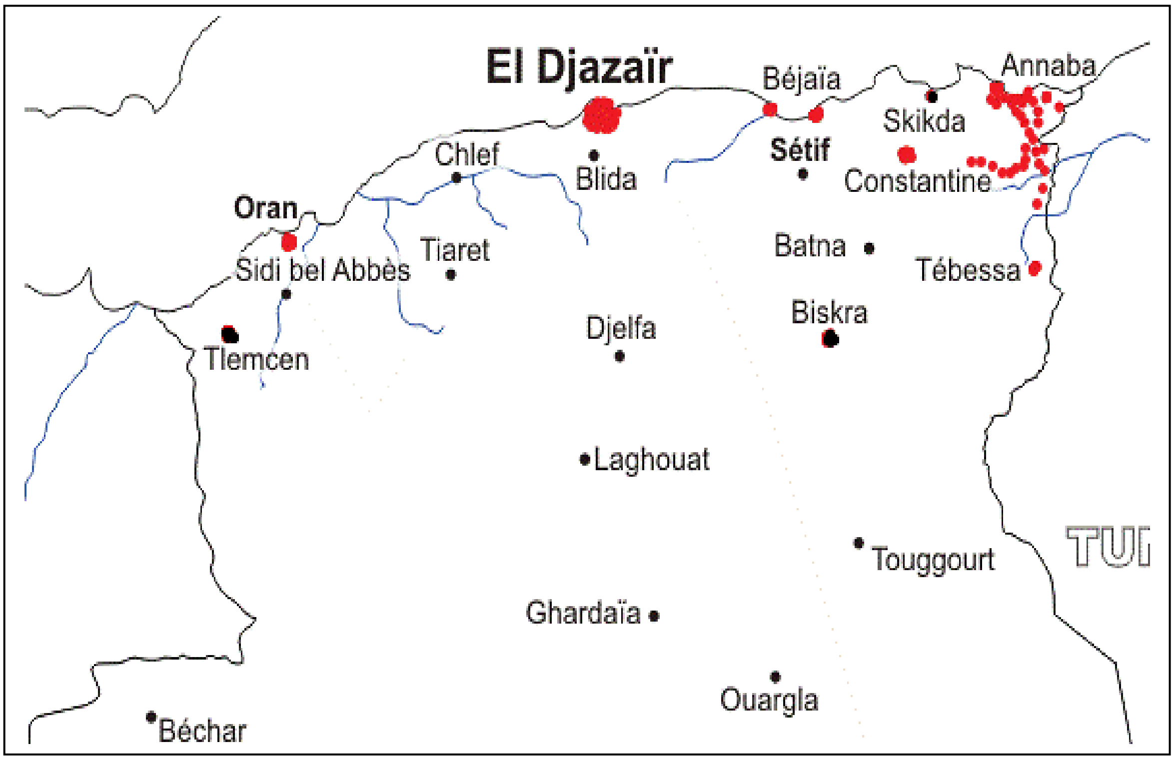

● مناطق الرئيسية لانتشار الأوبئة في الجزائر (1700-1830)

● مناطق ثانوية عرفت انتشار الوباء في الجزائر (1700-1830)

وإذ قد ظهر لنا عدد الأوبئة التي تحملتها المدن الأساسية أو مدن التَّوطُّن الوبائي كما وسمنها، انتقلنا للحديث عن الأسباب والعوامل التي جعلت هذه المدن دون غيرها تكون ضمن هذه الفئة، وإن كان هذا أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف عليه من خلال الخريطة السالف ذكرها، إلا أننا آثرنا أن نضيف الأركان التي عليها مدار هذا التوطن الوبائي فيها دون غيرها. ولعلنا لا نجانب الصواب إن حصرناها فيما يلي:

أنّ وجود المدن المذكورة ماعدا مدينة قسنطينة على السّاحل؛ جعلها دائمة الاحتكاك والتواصل مع أطراف عدة، أهمها الأطراف الخارجية؛ ما يجعلهما أكثر عرضة للوباء وانتشاره من غيرهما، ضف إلى ذلك تمركز النشاط التجاري للإيالة بهذه المدن، ما كان يوجب وجود حركة دائمة بين هذه المدن والأطراف

الخارجية، سواء كان ذلك عن طريق السُبل البحرية أو عن طريق الطُّرق البرية، وهو ما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى نقل الأوبئة من المدينة المصابة إلى المدينة الأخرى[1].

وقد مرَّ بنا في السابق في المباحث المختلفة ما لا يخفى مِن مكانة لعاصمة الإيالة سياسيا خلال العهد العثماني في حركة الانتقال والاحتكاك السياسي والدبلوماسي والتِّجاري لمختلف أطياف المجتمع المحلي والدولي في موانئها، ما يجعلها الأكثر عرضة للأوبئة ضمن فئة المدن التَّوطُّن الوبائي، وأكثر عرضة من غيرها للإصابة بأي وباء يظهر في المتوسط، كما لا يخفى أنّ مدينة بونة تأتي في المرتبة الثانية من حيث عدد الأوبئة التي ألمت بها وهذا راجع لنفس السبب الذي خُصَّت به مدينة الجزائر، أي: مكانتها وحياويتها في عملية التبادل التجاري لإيالة الجزائر[2]لكنها ظلت في المرتبة الثانية؛ بحكم أنَّ الحركية التجارية للمدينة في الغالب كانت مقصورة على الشركة الإفريقية وبعض سفن نقل الحُجَّاج، فيما كانت مدينة الجزائر تستقطب معظم الحركية التجارية والتنقلية للإيالة.

ومن جهة أخرى لو افترضنا أنَّه قد ظهر أي وباء على المناطق الحدودية مع تونس فهو غالبا ما سينتقل أولاً إلى مدينة عنابة عن طريق التُّجار والفلاحين، هؤلاء الذين كانوا يحرصون على أن تصل سلعهم إلى مرفئ المدينة حتى يتسنَّى لهم تصديرها إلى خارج الإيالة أو على الأقل بيعها لمن له القدرة على تصريفها خارجيا، وهو ما يجعل الجميع داخليا وخارجيا وكل المتواجدين في عملية التبادل هذه يكونون عرضة للأوبئة.

كما أنَّ كلَّ مِن عاصمة الإيالة ومدينة عنابة كانتا أحد المرافئ الأساسية في عملية التِّجارة الخارجية، إذ يُعدُّ ميناء بونة هو الثاني من حيث قيمة المبادلات التجارية مع الخارج، بل وكانت المخرج الرئيسي للمنتوجات الرئيسية للإيالة إلى أوروبا في صورة: القمح، والشعير، والفواكه، والليمون، والعسل، والصوف،...إلخ والتي غالبا ما كانت تخضع لسيطرة الشركة الإفريقية[3]، كما نجد أنَّ ميناء هذه المدينة كثيرا ما اعتُبر المخرج الأساسي الذي يخرج منه الحُجَّاج عند ذهابهم لأداء فريضة الحجّ أو عودتهم منه، ونحن نعلم أنّ الحجاج كانوا في الكثير من الأحيان أحد الحوامل الأساسية للمرض والأوبئة أو على الأقل أحد العوامل الناقلة بقوة للأوبئة، لذا فإنّ هذا يعني أنّ هذه الخاصية قد كانت أحد الأسباب المعينة في انتشار الوباء في المدن الساحلية الأولى أي مدن: الجزائر عنابة، كان يتوافر فيها نفس التَّأثير الوبائي تقريبا مع احترام النسق التراتبي بحيث تتقدم مدينة الجزائر على مدينة عنابة في عدد الأوبئة، بينما تلتحق بهم مدينة وهران متأخِّرة

---

1 - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P20.

2 - H.-D. De Grammont, **relations entre la France et la regence D'Alger AU XVIIe siècle**, Alger, Adolphe Jourdan, 1879, P236-242.

3 - Boutin Vincent-Yves : op.cit. ,P210-211.

قليلاً، بل إنَّه يمكننا أن نتحدَّث عن أنَّ ترتيب مدينة وهران من حيث الأوبئة التي أصابت يمكن أن يكون بعد مدينة قسنطينة.

لسائل أن يسأل في هذا المقام ما سبب ذلك؟ أو لم قدَّمت مدينة عنابة بينما أخرت مدينة وهران لتكون بعد مدينة داخلية هي قسنطينة؟ قلنا أنَّ ذلك راجع لأسباب عِدَّة منها على سبيل المثال لا الحصر: أنَّ مدينة عنابة كانت مِن المدن الناشطة على مستوى نقل الحُجَّاج إلى موانئ مصر وتونس وطرابلس الغرب عكس مدينة وهران والتي ظلت بسبب الاحتلال الإسباني للمدينة محاصرة من ناحية البحر ما يجعل التنقل منها إلى الحج أمر غير وارد. إضافة إلى هذا كانت مدينة عنابة مركزا لنقل القمح إلى فرنسا حسب ما تثبته الكثير من المراسلات بين الدايات وباي قسنطينة وبين الأخير والشركة الإفريقية الملكية في بونة، فيما كانت مدينة وهران تحت سيطرة الإسبان أو محل التنازع عليها ما يجعل أمر التجار بها مرهونا بمراحل زمنية مُحدَّدة، إضافة إلى ذلك فإن مدينة عنابة حدودية مع إيالة تونس والأخيرة كانت في اتصال دائما مع الأوبئة في المتوسط ما يجعل إمكانية انتقال الأوبئة من تونس إلى عنابة كبير جدا، مثلما أنَّ وجود الشرَّكة الإفريقية في عنابة أوجد لها تقييد منتظم لكلِّ ما كان يحدث فيها من أزمات صحية بعكس وهران التي ظلت محل إشارات لا أكثر، ولم يستتب الأمر بها فعليا لتقيد الأزمات الصحية أو تاريخها بشكل عام إلاَّ بعد فتح "محمَّد الكبير" للمدينة سنة (1792م)[1]، كما نرى أنَّ كلَّ مِن مُدن الجزائر عنابة ووهران كانت، إمَّا تصاب مباشرة بالوباء الوافد من الداخل وتصدِّره للمدن الأخرى، أو يحدث العكس، بحيث تتلقَّاه أحدى المدن من حركة السُّفن التجارية في الساحل المتوسطي وتنقله إلى داخل المدينة وينتقل منها إلى المدن الأخرى، وهو ما حدث في العديدة من الأوبئة حتى تلك التي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر مثلما وقفنا عليه سنتي (1834م) و(1835م)[2].

وإن كنا قد استوفينا الحديث عن العوامل أو المشتركات الفعلية التي جعلت من المدن الساحلية الثلاث الجزائر، عنابة، وهران. على رأس مدن التَّوطن الوبائي ويشغلون أهم حيز في المجال الجغرافي لإيالة الجزائر من ناحية الوجود الوبائي، وجب علينا أن ننتقل للحديث عن مدينة قسنطينة وسبب تواجدها ضمن هذه الفئة من المدن، مع أنَّها لا تتوفَّر على خصائص جغرافية نفسها، خاصة فيما يتعلَّق بوجودها السَّاحلي، ثمَّ نفسِّر سبب أنَّها حازت مكانة ضمن هذه الفئة فيما غابت بعض المدن السَّاحلية الأخرى.

---

[1] - Paul Masson, Histoire Des Établissiments et du commerce Français dans L'Afriaue Barbaesaue (1560-1793), Paris, libraire Hachette, 1903,P 106-128.

[2] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P25.

تعددت الأسباب التي جعلتنا نعد مدينة قسنطينة ضمن الفئة الأولى من المدن التي عانت من الأوبئة والأزمات الصحية، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الموقع الجغرافي المهم للمدينة، والتي جعلها مركزا حيويا من جهة ومجالا تداولي مهما للأزمات من جهة ثانية.

فالقرب الجغرافي للمدينة من الحدود التونسية وكثرة حركة قبائل تلك المنطقة جعل المدينة محل خطر دائم ومفتوحة على تلقي الأوبئة بشكل كبير، وهو ما يفسِّر قيام "صالح باي" بمحاولة تطويق المدينة وتوقيف الحركة التجارية لقبائل تلك المنطقة مع نظرائهم في إيالة تونس خوفا مِن انتقال الوباء معهم إلى مدينة قسنطينة[1] خاصة وأن المدينة هي قاعدة بيلك الشرق، إضافة إلى القرب الجغرافي من مدينة عنابة والقالة وموانئ شرق الإيالة جعل معظم الأوبئة التي ترصد في عنابة تنتقل إليها إلا فيما ندر، إضافة إلى أنَّ مدينة قسنطينة والبيك ككل مِن حيث الكثافة السكانية والتِّعداد الجغرافي خلال تلك المدَّة (1700-1830م) كانت يأتي في المرتبة الثانية بعد مدينة الجزائر والأول من ناحية البيلك، وهو ما يجعل تواجد الوباء فيها مع توفر الكثافة السُّكانية المرتفعة يجعل التَّخلص منه أمراً مستعصياً بالفعل، كما أنَّ التَّنقل الدائم لساكنة المدينة بينها وبين عاصمة الإيالة كثيرا ما كان سببا في نقل الأوبئة وتوطُّنها بشكل خاص، كما حدث مثلا في وباء سنة (1793م) إذ تفشي الوباء في المدينة نتيجة قيام باي قسنطينة بزيارة الجزائر لأجل دفع الضريبة الدورية[2] والأمثلة هذه عديدة فضلنا أن نتركها حين الكلام عن انتقال الأوبئة في المبحث المخصص لذلك.

بعد الفراغ من الحديث عن الفئة الأولى مِن المدن التي كانت مراكزا للتوطُّن الوبائي وإذا تقرَّر ذلك وجب علينا الآن أن نصرف القول إلى بيان الفئة الثانية مِن المدن التي ألمَّ بها الوباء أكثر من مرَّة، وهي بحق "مدن العوارض" بحيث أنها تكون متعرضة بشكل متقطع لخطر الأزمات الصِّحية، وكانت الأوبئة الكبرى التي تلم بالإيالة كثيرا ما تؤثر فيها بشكل واضح.

وتأتي على رأس هذه المدن مدينة بسكرة برغم من كونها مدينة داخلية وتأتي في بوابة الصحراء وبعيدة نسبيا عن مراكز التَّوطن الوبائي فإنَّها كثيراً ما تعرَّضت للأوبئة أو كثيراّ ما انتقلت لها الأوبئة الموجودة بشكل مُتكرِّر؛ فنقف على عدد من الأوبئة التي أثرت بشكل كبير على المدينة ولعل أهم هذه الأوبئة وباء سنة (1789م) الذي ضرب المدينة بقسوة، وعاد ليتجدد بها مرة أخرى سنة (1792م) ولم يخمد أثره به وبغيرها من المناطق بشكل مباشر إلاَّ هذه السَّنة تقريبا[3]. ويظهر وباء آخر أيضا لا يقل شدة عن سابقه

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P212.
[2] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P142.
[3] - Lucette Valensi: op.cit., P21.

مثلا سنوات قليلة قبل الوباءين السابقين سنة (1798م) ويشمل كل ويمتد من المدينة إلى جل مناطق صحراء الزيبان[1].

ويعود تصنيفنا للمدينة ضمن الفئة الثانية أو بالأحرى يعود سبب وجود المدينة ضمن هذه الفئة إلى عوامل عدة من أبرزها أنَّ الفئة الأكثر عرضة للوباء في مدينتي الجزائر وعنابة هي فئة البساكرة، وهذا بسبب طبيعة النشاط الذي كانوا يشتغلون به، إذ أنَّ غالبهم يشتغل في الحِمالة داخل موانئ هاتين المدينتين، ما جعلهم في صدر مَن يتعرَّض للاحتكاك مع الأوبئة الوافدة إلى الإيالة، ثمَّ يساهم بعضهم في نقلها إلى مدينة "بسكرة" الداخلية في حالة زيارتهم لها بشكل طبيعي أو في حالة محاولة الفرار مِن الطَّاعون[2]، وسيأتي لاحقا كيف كان النَّاس يحاولون الفرار إلى المدن الداخلية هربا مِن الطَّاعون الأمر الذي جعل العديد مِن الأوبئة التي ظهرت في مدينة الجزائر نجد لها وجودا في مدينة بسكرة ومن بين هؤلاء الضحايا من يسقط في طريقه إليه فلا يسعفه المرض في بلوغها[3] كما يمكننا أن نضيف إلى مدينة بسكرة مدينة تلمسان في بيلك الغرب الجزائري، إذ مرّ بها العديد مِن الأوبئة التي ألمت بالإيالة خلال المرحلة محلَّ الدِّراسة (1700-1830م) إذ نذكر من بين الأوبئة التي أثرت فيها بشكل كبير الذي ألمّ بتلمسان سنة (1738م)[4] بل وكانت سببا في نقل الوباء الذي ألمَّ بها إلى الأحواز والمناطق القريبة منها في تلك السنة. والأمر نفسه يتجدد في الوباء الذي ضرب الإيالة (1740م) واستمر في النشاط إلى غاية (1743م) وانتقل إلى مدينة تلمسان ومنها إلى أماكن عِدَّة مثل: مُستغانم وتلمسان وقسنطينة، وقد أتى كما أنّ هذا الوباء حسب بعض المؤرخين على عدد كبير جدا من الضحايا وصل إلى قرابة الستين ألفا[5]، ويبقى الوباء يظهر في المدينة أكثر من مرة فيبرز أثره للعيان سنة (1790م) ويقضي على أعداد من الضحايا حسب ما تورده تقارير القنصلية الفرنسية في سنة (1791م)[6]، مثلما يتفشَّى الوباء أيضا في المدينة والمناطق القريبة منها سنوات: (1820م) وسنة (1821م).

ومن الأسباب التي جعلت تلمسان مثل بسكرة أو في بعض الأحيان ترتقي إلى مكانة قسنطينة في بيلك الشرق من حيث تأثير الوباء بها نجد هو موقعها الجغرافي المهم جدا، خاصة وأن أهمية الموقع زادت استراتيجيا بسيطرة الإسبان على مدينة "وهران" بحيث أضحت مدينة تلمسان نقطة التقاء ما بين السِّلع

---

[1] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P149.
[2] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P161.
[3] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P
[4] - Jean Marchika : **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830), P78.
[5] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P92.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 138-144. 28/07/1791.

الصادرة والواردة من مناطق مختلفة سواء منها الوافدة من المغرب أو من المناطق الإفريقية ما أهل المدينة لأن تكون مَعبراً مِحورياً لهذه السِّلع[1]، إضافة إلى أنَّ المدينة –مع مازونة ومعسكر- كثيرا ما كانت أحد أركان الحكم في بيلك الغرب الجزائري، قبل الفتح الثاني لمدينة وهران مِن طرف "محمَّد باي الكبير" سنة (1792م) ما يجعل الحركية السياسية والاقتصادية بها كبيرة على مدار الوقت.

أمّا الفئة الثالثة ضمن الصيغة التي نقترحها فهي فئة من المدن التي كان تأثير الوباء فيها قليلا ومنحصرا في مرات نادرة، وهو ما نقف عليه في مدن: بجاية ومعسكر والبليدة ومستغانم وجيجل والقل ومنطقة الصحراء، وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نقول أن السبب في وضعها في هذه الفئة هو أن الأوبئة لم تتسلط على هذه المدن في كل مرة، أو على الأقل حسبما لدينا الآن من معطيات، وقد يتولد من هذا اعتبار أن هذه المدن كانت خارج نطاق الضرر الذي كان تحققه المجاعات أو الأوبئة وهذا غير صحيح بالمرة، إذ أنّ ضرر الأوبئة والمجاعات في هذه المدن أيضا شوهد لكنه ظل على مستوى ضيق وليس له أثر كبير على الكثافة السكانية مثل الذي ضرب الصحراء الجزائرية حسب ما ينقله صاحب كتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" بأنَّه سنة (1196هـ/1782م) قد شُوهد انتشارا للوباء بين المواشي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الجائحة الحيوانية" كما عرفت نفس المنطقة جدب امتدَّ في الصَحراء طيلة سنة (1196هـ/1782م)، وكان سببا في المواجهات القَبلية بين أهالي القبائل في الصحراء من جهة، وبين قبائل التي تعيش بالصَّحراء والسُّلطة العثمانية من جهة أخرى[2] لكن المعلومات حول هذا الوباء وغيره ظلت منحصرة في هذا الجزء وهذا الشُّح وهو نطاق على نطاق معلوم.

لذا فغالبا ما نجد الحديث عن ضرر الأوبئة في هذه الفئة من المدن أو المناطق ضرر وقتي ونطاقه ضيق وعدد ضحاياه قليل، وهو ما نشاهده مثلا أيضا في الوباء الذي ضرب الجزائر بقوَّة سنة (1817م) وامتدّ إلى بعض هذه المدن في السنة التي تلته (1818م) فنقف عليه في: مدينة معسكر، ومدينة البليدة وجيجل[3]، ومدينة بجاية[4]، لكن على عكس الأثر الكبير الذي تركه في مدينة الجزائر نجد أنَّ ضرره في هذه المدن لم يكن بتلك القوَّة التي كان بها في مدن الفئة الأولى أو مُدن التوطُّن الوبائي.

قد يستغرب البعض سبب عدم إدراج مدن كجيجل وبجاية ضمن فئة المدن الأولى بحكم أن هاتين المدينتين بدورهما كانتا مدينتين ساحليتين وكان بهما نشاط تجاري أيضا، أي لهما علاقة خارجية تجعلهما عرضة بدورهما لأوبئة عِدَّة! قلنا الثالثة كون أنَّ المدينة ساحلية فهذا لا يجعلها بالضرورة مدينة معرضة للوباء

---

[1] -Lucette Valensi: op.cit., P58/59

[2] – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، 268.

[3] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, PP167-170.

[4] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique ,P 382.

أكثر من نظيرتها الداخلية، وخير مثال على ذلك المدينتين محل الحديث، فهما وإن كانتا مدينتين ساحليتين لكن تأثير الوباء بهما ظلّ ضعيفا، وبالتالي فنحن جدراء بأن نصرف البيان إلى القول بأنَّ السبب الرئيس الذي يجعل المدينة الساحلية أكثر عرضة للوباء هو الحركة التجارية القوية والمستمرة لموانئها مع السفن المختلفة وهو ما لا نتلمس وجوده بشكل كبير في المدينتين، كما أنَّ صفة الجبلية التي ميزت المدينتين جعلتهما تتمتعان بحصانة مميزة وتحميانها بشكل عام من خطر الحركة العارضة لحاملي الأوبئة. وإلاَّ فإنّ كونها ساحلية مع خمول الاحتكاك التجاري والنشاط البشري لا يجعلها عرضة أكثر من غيرها للعدوى الوبائية.

وإن جعلنا ما مضى ذكره من كون الحركة التجارية هي سبب أهم من كون المدينة ساحلية من عدمها، أصبح لدينا ما يشبه الحكم المتيقن من أنّ النشاط السكاني ذو الفعالية الكبيرة يصاحبه نشاط وبائي وانتقال وبائي بنفس الدرجة.

والخارطة التالية توضِح التوزيع الجغرافي لخطر الأوبئة بمستوياته الثلاث، بحيث يكون اللون الأحمر ترجمة لارتفاع حالة الإصابة بالأزمات الصّحية في هذه المدن أو في المناطق القريبة منها والتي تعيش نفس الأعراض وهي "مناطق ومدن التَّوطُّن"، بينما اللون البرتقالي يدل على وجود خطر مُتقطِّع ويشمل مدن الفئة الثانية أو "مدن العوارض" كما سميناها، ودرجة إمكانية إصابة هذه المدن بخطر الأوبئة أكبر من التي تليها، أي أقل من "مدن الهوامش" والتي لحقتها ومنطقتها بعض الأوبئة لكنها كانت مقتصرة على مدة زمنية قصيرة، وتأثير الوباء بها كان أقل شأنا وقد ميزنا هذه المدن والمناطق التي تعيش نفس حالتها باللون الأصفر.

2- خارطة تمثل أماكن التوزع الجغرافي للأوبئة ودرجتها حسب مدن إيالة الجزائر (1700-1830م)

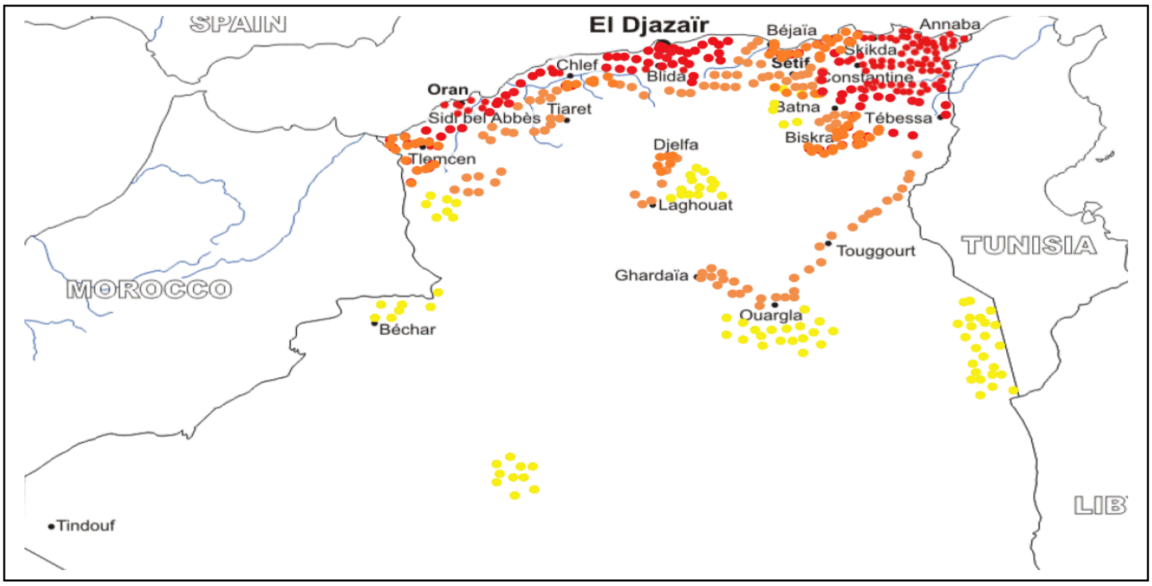

- اللون الأحمر: مناطق ومدن التّوطن الطّاعوني.
- اللون البرتقالي: مناطق ومدن العوارض.
- اللون الأصفر: مناطق ومدن الهامش.

وبهذه الخريطة تتضح لنا الصورة العامة لتوزع مناطق التلقي الوبائي، أو المناطق التي عانت من أثر الأزمات الصحية والمناطق الأخرى التي ظلت بعيدة عن التأثيرات الكبرى للأزمات الصحية على الإيالة، ويمكننا أن نستنتج أن المفاصل الأساسية التي كان يؤثر بها الوباء كانت توجد في الشمال بصفة عامة، وخاصة منه الشمال الشرقي، وكلما انتقلنا من هذا الأخير ناحية الغرب نجد التأثير الوبائي، والنشاط العام له يقل، ونفس الأمر ينطبق على الحديث حيال الانتقال من الشمال باتجاه الجنوب، فكلما انتقلنا إلى الجنوب قل التأثير الوبائي لعوامل عدة سبق ذكرها منها على الأساس: ارتفاع درجة الحرارة التي لا تتيح نشاط الطفيليات بشكل واسع، وقلة الكثافة السكانية من جهة اخرى، إضافة إلى بعد المسافات التي قد تقضي على الأوبئة في الطريق ولا تتيح لها الاستمرار إلى أقصى مدن الجنوب، وما وصل من الأوبئة إلى الجنوب غالبا ما كان مصدره الحدود الجنوبية الشرقية مع طرابلس الغرب والإيالة التونسية ولم ينتقل بشكل مباشر من الشّمال إلى الجنوب إلاّ نادراً.

الفصل الثالث: إيالة الجزائر في مواجهة المجاعات والأوبئة (1700-1830)

حوليات انتشار الأوبئة وظهور المجاعات.

المبحث الثاني: المجاعات في الجزائر (1700-1830)

المبحث الثالث: الأوبئة في الجزائر (1700-1830)

حركة انتقال الأوبئة وامتداد المجاعات.

حوليات ظهور واندثار المجاعات في إيالة الجزائر(1700-1830م):

بدايات الأزمات الغذائية في مطلع القرن الثامن عشر:

سيعتبر المطلع على هذه الدراسة أن ما عددناه خلال الفترة الممتدة خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر على عدد كبير من المجاعات، يتنافى مع تلك الأوصاف التي كانت تطلقها الكتابات الغربية عن المميزات الطبيعية التي تتميز بها الجزائر من ناحية الجغرافيا والإمكانيات الطبيعية، وكيف كان يمكن لها أن تكون حسب قول " وليام شالر" مخزنا للحبوب لأوروبا وكامل إفريقيا.

وكيف أن شأن هذه المميزات الطبيعية من موقع ومناخ وتربة وتضاريس أن تتيح للجزائر أن تلعبا دورا رئيسا وتنشط المحور التجاري بين إفريقيا بما يعود بالفائدة على إفريقيا وأوروبا[1]، خاصة لما نعلم أنّ سهل متيجة على سبيل المثال كان من أغنى المناطق بالحنطة وباقي الحبوب[2]، كما أنَّ أراضي بيلك الغرب مُورِّداً أساسيا للقمح باتِّجاه البلاد الأوروبية[3]، ولعل هذا ما يُستشف فعلا من شرح "أبي راس الناصري" على أرجوزته في مدح "محمَّد باي الكبير" بقوله: «...**والنَّاس بتلك الأرض بأخصب عيشٍ، وأطيبه وأرغده وأعذبه، فكثرت عندهم الخيرات وتمت لهم البركات**...»[4]

لكن في نفس الوقت عدّت المجاعات في الكثير من الأحيان خلال المرحلة الزمنية المعنية بالدراسة أحد أهم الآفات التي نخرت النُّمو الديمغرافي لساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر[5]، لكن في نفس الوقت من الصعب علينا الإقرار مباشرة بوجود مجاعة ما أو تأكيدها مالم يتم الإشارة إليها في عدد من المصادر المخطوطة أو المطبوعة المختلفة التي تتحدَّث عن تلك الفترة أو هذه السنة بعينها، بالأخص إن كانت هذه المصادر لم تنقل عن بعضها البعض، لذا نجد أنفسنا في مشكلة من حيث إثبات وجود مجاعة ما من عدمها إذا لم نقف على إشارات واضحة.

فنقف على أول ظهور للمجاعة في الإيالة خلال القرن الثامن عشر سنة (1702م)، بحيث نجد مارشيكا (Marchika) يتحدَّث عن مرافقة أسراب الجراد لوباء سنة (1700م) وهذا الأمر كثيرا ما كان ينجم عليه نتاج علائقي مستمر هو حدوث نقص في الغذاء، وهذه الإشارة نقف عليها عرضيا أيضا في

---

[1] - William Shaler : op.cit., P210.

[2] - أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ص 55.

[3] - المصدر نفسه: ص 50.

[4] - أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، ص 456.

[5] - فلة موساوي: الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1518-1871) أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر(غير منشورة)، إشراف ناصرالدين سعيدوني، جامعة الجزائر(أبو القاسم سعد الله)، السنة الجامعية 2003-2004، ص 79,

إحدى المراسلات بين القنصلية الفرنسية في الجزائر ودائرة الشؤون الخارجية في فرنسا، إذ تورد هذه الوثيقة أنَّ الجزائر كانت تشهد خلال هذه السنة قحط شديد ونقص في المؤونة[1]، كما أنَّ حديث " مارشيكا " عن أسراب الجراد يوحي بأنَّ الفترة التي ستلحق مرور هذه الأسراب من الجنادب ستؤدي غالبا إلى مجاعة ما، وهو ما حدث بالفعل حسب الوثيقة السالف ذكرها، كما أنّه عاد ليتحدَّث عنه عرضا في موضع آخر لما وصف أوضاع سنة (1702م) بأنّها كانت سنة صعبة بسبب ما شهدت من مجاعة[2].

كما نقف في مراسلة أخرى على تصريح باستمرار أثر المجاعة سنة (1703م) على تجارة الإيالة وعلاقاتها مع الدول الأخرى[3]، بحيث أدت هذه الأزمة الغذائية إلى تراجع في عملية التبادل التجاري بين الإيالة وغيرها من الممالك بحكم الانغلاق ونقص الموارد الكبير الذي لحق بالإيالة خلال تلك السنة. لتعرف بعدها إيالة الجزائر نوعا من الهدوء والاستقرار الغذائي حسب ما توحي به بعض الإشارات الشحيحة في الرسائل الدبلوماسية بين الجزائر وغيرها من الدول الأوروبية على وجود وفرة في الغذاء والحبوب دفعت بالحاكم إلى تصدير بعض الفائض باتجاه الدول المحتاجة له، ولعل هذا ما يستنتج من خلال عدد من الرسائل المتزامنة من حاكم الجزائر علي داي إلى ملك فرنسا "لويس الرابع عشر" ووزير البحرية "بونتيشراتن" حيث أشار فيها الداي إلى إرساله سفينة مشحونة بمختلف أنواع القمح إلى فرنسا سنة (1711م/1122هـ) في مقابل بعض المواد الأولية التي تحتاجها الإيالة في صورة أخشاب للسفن ومجاديف[4]، لتأتي إشارة لاحقة نقف عندها لدى "مارشيكا" أيضا تتحدَّث عن وقوع مجاعة سنة (1131هـ/1719م) قضت على عدد كبير مِن الأسرى الأوروبيين[5]، ونحن نعلم أنَّه إن كُتب على الأسرى الأوروبيون الموت جوعا فهذا يمتدُّ إلى غيرهم قطعا، إذ لم يحدُث في مسار المجاعات أن انتقت أحد الأزمات الغذائية فئة واحدة ضمن الساكنة وتحيد عن الفئات الأخرى. ويدعم ظهور المجاعة في الإيالة أيضا خلال نفس السنة الإشارة التي نقف عليها لدى "دي غرامونت" إذ يذكر أنَّه وبعد استلم "محمَّد بن حسن " منصب داي الجزائر سنة (1130هـ/1718م) إضافة إلى ما كان موجودا من مصائب تعيشها الإيالة بسبب الاضطرابات السياسية والعلاقات الخارجية المتقلبة ظهر القحط والمجاعة فألمت بإيالة الجزائر سنة (1130هـ/1718م) وتجلَّت في الأثر الرهيب الذي خلَّفته على الساكنة، حتى ذُكِر أنَّه قد بيع لحم البشر

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes : F° 292-293. 02/Mai/1702.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P73.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 294-297. 12/jui/1703.
[4] - C. D. A. C. F : le 11 mars 1711. P77.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P77.

في الأسواق مِن شدَّة الجوع[1]، اشتدَّت هذه المجاعة سنة (1132هـ/1719م) في مدينة الجزائر حتَّى اعتبرها "غيون" أحد المجاعات الرهيبة وقد استمرَّ أثرها ثلاث سنوات كاملة[2].

ونقف على إشارة في إحدى المراسلات القنصلية الفرنسية في الجزائر بدائرة الشؤون الخارجية مفادها أنّ المجاعة قد تفاقم أثرها في مملكة الجزائر، وازداد الأمر سُوءاً مع الزلزال الذي ضرب مدينة مليانة، لذا اقترحت المراسلة على السلطات التجارية الفرنسية أن تُسهِّل عملية بيع كميات القمح التي أرسل "داي الجزائر" في طلب شراءها وهذا لكيلا يفكر الأخير في الانتقام من فرنسا عن طريق الضغط أو توقيف عمل الشركة الإفريقية بمدينة "عنابة"[3].

ولشدَّة أثر هذه المجاعة نقف على شتات أخبارها في مصادر عدة منها تلك التَّقارير التي كان يكتبها الرُّهبان المسؤولون عن عملية فداء الأسرى المسيحيين في الجزائر، بحيث يَرد في إحدى هذه التقارير بأنَّ الطَّاعون الذي كان موجودا بالمدينة قد تأثّر كثيرا بالمجاعة التي سبقته وازداد أثره سوءا في المدينة، وهذه الرسالة مؤرخة في (23/ أفريل 1723م) وبالتالي فإنَّ المجاعة ظلَّت مَحصورةً بين سنتي (1723-1722)[4].

سنوات العافية والوفرة الغذائية والهجمات الخاطفة للمجاعات (1731م-1770م)

تعود الإيالة لتسترجع بعضا من عافيتها وتنعم ببعض الوفرة الغذائية في سنوات الثلاثينات من القرن الثامن عشر مع استثناء واحد، وتتضح الوفرة فعليا في صور المبادلات التجارية وشحنات القمح المصدرة إلى الخارج والتي كانت تستفيد منها أطراف مختلفة، فنجد مثلا "عبدي باشا" داي الجزائر سنة (1144هـ/1731م) يتعامل بتصدير القمح مع المملكة البريطانية بحيث يرسل سفينة محمَّلة بالقمح غير أنَّها أُسرت مِن طرف بحارة فرنسيين[5]، وما يهمنا هنا هو ما نقف عليه من دلائل الوفرة الغذائية خلال تلك السنة والسنوات التي سبقتها من خلال عملية التَّصدير الغذائي، وممَّا يعضد القول بأنَّ البلاد خلال هذه المرحلة الممتدة مبدئيا ما بين (1730م-1733م) كانت تنعم بنوع من السلام مع المجاعة وتنعم برغد العيش ما يجعلها في منأى عن المجاعة ما صرَّح به "إبراهيم باشا" داي الجزائر في رسالته إلى الكونت "دومورباس" سنة (1145هـ/1733م) بأنَّه حثَّ باي مدينة وهران على أن يجعل تجارة القمح حكرا على

---

[1] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/121. Cotes: F° 87-89. /1/janv./ 1723.
[4] - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P52.
[5] - C. D. A. C. F : le 2 avril 1731. P149-153.

الشركة الفرنسية دون عن غيرها[1]، كما تُؤَكِّد رسالة من الكونت (De Maurepas) إلى لومير (Lemaire) ينهبِّه فيها إلى ضرورة التواصل مع الداي "إبراهيم باشا" وتذكيره بحقّ الشَّركة الفرنسية في احتكار تجارة القمح إذ ورده أنّ الداي قد أعطى لأحد التُّجار اليونان حق تحميل سفينتين بالقمح، ومنح باي قسنطينة بدوره رخصة لأحد السُّفن الإنجليزية لأجل شحن القمح الجزائري، بل واستفاد التَّاجر اليوناني الماض ذكره من امتياز تحميل السُّفن بالقمح بالكمية التي يريدها[2]، ومردُ هذا الأمر غالبا هو معانة فرنسا خلال نفس المرحلة الزمنية من نقص المؤن وتعرض بعض أطرافها إلى مجاعة حادة كما هو الأمر في مدينة "ليون" وغيرها[3].

ونقف في مراسلة صادرة عن قنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية على إشارة واضحة إلى شحن الشَّركة الملكية الإفريقية لسفينتين فرنسيتين من ميناء مدينة "عنابة" مُحملة بأجود أنواع القمح وإرسالهما باتجاه ميناء "مرسيليا" لكن مِن جهة أخرى نقف على تقرير توروده مراسلة قنصلية يتحدَّث عن تأزُّم الوضع في الإيالة سنة (1734م) بسبب الوضع السيء الذي تسببت فيه المجاعة[4] وهو ما تؤكده وثيقة ثانية من نفس المصدر في صيف سنة (1734م)[5]، وإذا تقرَّر هذا فمن الواجب أن نَصرف القول إلى أنَّ الأمر كان خطيرا وينعم عن عدم وجود ضوابط قانونية صارمة في شان تصدير الفائض من القمح إلى الدول الأخرى، إذ في نفس المرحلة الزمنية التي كانت فيها المجاعة تضرب إيالة الجزائر في إحدى جهاتها بشكل قوي كما مرَّ في هذه الوثائق[6] كانت جهات أُخرى تقوم بتصدير هذه المادة المهمة إلى خارج الإيالة.

مثلما نجد العديد مِن الإشارات الضِّمنية والهامة جِدّاً ضِمن وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، تشير العديد منها إلى مقتنيات فرنسا من القمح الجزائري، وقد ورد في بعضها أنَّ عدد هذه السفن بلغ ثمانية عشر سفينة مِن القمح بعضها من طرابلس الغرب وغالبها مِن إيالة الجزائر، وقد شُحنت في شهر جوان من نفس السنة باتجاه الموانئ الفرنسية(1734م)[7]، لتعود الوفرة الغذائية إلى غاية سنة (1742م) عندها يتحدَّث صاحب التبر المسبوك عن مجاعة امتدَّت تسع سنوات بعد ذلك أي إلى سنة (1749م/1163هـ)[8]، لتنعم بعدها الإيالة بهدوء جديد وصلح مع الأزمات الغذائية، كما يُسْتقرأْ ذلك

---

[1] - C. D. A. C. F : le 12 juin 1731.

[2] - C. D. A. C. F : le 4 juin 1734.

[3] - Masson, Paul : op.cit., P265.

[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/123. Cotes: F° 158-161. 16 Fve.1734.

[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/123 Cotes: F° 206-210. 16 juil 1734.

[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/123 Cotes: F° 206-210. 16 juil 1734.

[7] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 37-38. 8 juin 1742.

[8] – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (1624)

ضمن مراسلة هامة بين داي الجزائر "علي باشا" وأمين البحرية الفرنسية " موراس " سنة (1171هـ/1757م) حيث يتحدّثان فيها عن بعض الأمور التجارية بين الإيالة الجزائرية والمملكة الفرنسية، ويَرد في هذه المراسلة أنَّه خلال هذه السنة (1757م) تمَّ أسر سفينة جزائرية محملَّة بالقمح كانت تابعة للداي شخصيا، كان الداي قد صرح في ردّه على إحدى المراسلات أنه ينتظر استرجاع حمولة السفينة أو قيمتها المالية على أقل تقدير، كما نجده يتحدَّث في نفس الرِّسالة عن استلامه لما قيمته سبعة عشر آلف ليرة هي بمثابة مبلغ بيع القمح الجزائري مملوك لأحد اليهود[1] وإن كانت إحدى الإشارات لدى "دي غرامونت" حيال طاعون (1752م) تتحدث عن تزامنه مع مجاعة شديدة كان أثرهما أشدَّ مِن الاضطرابات السياسية والعسكرية التي كانت تمرُّ بها الإيالة حينها[2].

فإن تقرّر ما سبق فعلا وكان يقرب على العقل تناوله والوقوف على صحَّته كنا جدراء بالقول أنَّ السَّنوات الممتدة ما بين (1749م-1770م) يمكن أن نعدَّها سنوات للوفرة الغذائية، وإلَّا كان سيصعب جدا تحصيل القمح خلال هذه المدَّة، وبهذه الكمية الكبيرة التي تستقرأ من حجم المراسلات وتبعث إلى فرنسا أو غيرها.

عودة السنوات العجاف والمجاعات الشديدة (1770-1776)

بعد المراحل المتقطعة من السنوات الماضية ظهرت من جديد معالم عودة السنوات الشِّداد، فيرى نقيب أشراف الجزائر "الشريف الزّهار" أنّه وبعد نكوص الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة (1184هـ/1770م) امتدّ الغلاء وارتفاعات الأسعار سة سنين، أي إلى غاية (1190هـ/1776م) بحيث أصبح سعر الصَّاع الجزائري مِن القمح أربع بوجه أي ما يقارب(40/غ فضة)، وساد بين النَّاس الجوع حتَّى قيل: «...**إن النَّاس يموتون جوعا في الأسواق**..»[3].

إلاَّ أنَّ المميز في هذه المجاعة أنَّ "الزّهار" لم يجزم بنسبتها إلى قلّة المطر، بل لم يستبعد أن يكون كثرة التساقط وترادف السنين بذلك سببا في ظهور هذه السنوات، فمن نتائج التي ترتبت عن كثرة التساقط سنويا تأذي الكثير من المحاصيل الزراعية الأمر التي كانت تكتنزها الأراضي، ونقف على ذكر هذه المجاعة أيضا في مدينة عنابة من خلال الإشارات المختلفة التي نقف عليها ضمن إحدى المراسلات الدَّاخلية بين الشركة الإفريقية والقنصلية الفرنسية تتحدَّث عن وجود المجاعة وقلَّة الزَّاد بأيدي النَّاس[4].

[1] - C. D. A. C. F : le 30 novembre 1757.
[2] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), P306.
[3] - الشريف الزهار: المصدر السابق، ص50.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/135 Cotes: F° 221-223. 21/06/1773.

لكن ما يزيد في شكوكنا حيال وجود أزمة غذائية فعلية من عدمها هو المثرات العامة لهكذا أزمة على المجتمع، كما أنه لم يذكر فيما مر بنا من مصادر ومراجع مختلفة الحديث عن تأثُّر الساكنة بهذه الأزمة، بل يذكر الزّهار نفسه بُعيد حديثه عن هذه المجاعة الممتدة لستة سنوات(1770م-1776م) أنَّ:«... **اللَّحم والسَّمن والأرز فكان خيرا كثيراً، وفيه الرِّفق في الأسعار**...»[1] فَمن الصَّعب الجمع بين النقيضين في قولنا أنَّه نتيجة للمجاعة كان النَّاس يتساقطون مِن الجوع في الأسواق أو يموتون جوعا، فيما نتحدَّث في نفس الحيز عن توفُّر اللَّحم والأرز وبأسعار معقولة ومتيسِّرة.

فإن فهم مقصدنا من الاعتراض السابق، قلنا أن عملية الجزم بوجود الأزمة الغذائية خلال هذا المدة من عدمه قد يصعب تحقيقها، ويتحدَّث (Masson) "ماصون" عن ازدهار التِّجارة الفرنسية مع الإيالات الإفريقية خلال مرحلة السَّبعينات من القرن الثامن عشر؛ بما يفتح المجال بشكل أكبر حيال نوعية وشدَّة الأزمة الغذائية أو المجاعة التي تحدَّث عنها الزّهار آنفا، فحدوث المجاعة يستلزم تباطئ الحركة التجارية باتجاه الشَّمال ونموها في الاتجاه العكسي، فإن تقرَّر ذلك كان الأحرى أن نشهد تراجع التجارة خلال تلك المرحلة من الجنوب نحو الشمال وازدهارها من الشمال باتجاه الجنوب، أو لعل "ماصون" أراد ذلك لأن إجماله لتطور وانتعاش النشاط التجاري قصد به اتجاه واحد[2]، لذا يبقى الجزم بوجود مجاعة خلال هذه المرحلة أمر صعب حاليا ويحتاج إلى دلائل أقوى. وإن كان تصرف أحد الدايات بمنع تصدير القمح الجزائري الذي كان أحد التّجار الفرنسيين قد اشتراه سنة (1775م) ويود بيعه في اسطنبول يفتح المجال حول إمكانية وجود نقص غذائي حمل الداي على هذا الفعل، وهو الأمر الذي جعل قنصل فرنسا في إسطنبول يتدخل لدى الباب العالي لأجل إلزام داي الجزائر باحترام المعاهدات والسماح لهذا التاجر بتوريد سلعته المقدرة ستين ألف كيل مِن الحنطة إلى اسطنبول[3]

استراحة قصيرة وعودة لأزمات خطيرة (1199هـ/1785م)

سبق الإشارة إلى عودة السنوات العجاف والمجاعات الشديدة (1770-1776م) وإن كان الحسم الفعلي في وجودها مؤجل إلى قادم الأيام ومزيد بحث، إلا أننا نقف بعدها على استراحة خمس سنوات على الأقل لم نقف فيها على أي إشارة فعلية عن بروز أي أزمة غذائية خلالها أي منذ (1775م) لتظهر بعض الإشارات المشتتة تتحدَّث عن ظهور أزمة غذائية أو مجاعة شديدة على ساكنة بيلك الغرب الجزائري، إذ تُورد "المجلة الإفريقية" أنَّه مِن بين الأمور التي بقيت راسخة في ذهن سكان بيلك الغرب

[1] - الشريف الزهار: المصدر السابق، ص50.

[2] - Masson Paul : op.cit., P497.

[3] - B.O.A : C.HR. Dosya N°147. Gömlek N°7308. Tarih 1188.Za.18. Belg 01.

الجزائري ويربطون بينها وفترة حكم "محمَّد بن عثمان" تلك المجاعة الرهيبة التي عرفها البيلك سنة (1195هـ/1780م)[1]، نفس الإشارة نجد صدها ضمن وثيقة فرنسية تتحدَّث عن الأثر الكبير الذي أحدثته مجاعة استمرَّت مدَّة خمس سنوات عمَّت أماكن مختلفة من الإيالة، وأُشير فيها أيضا إلى ترقُّب الجميع سنة (1781م) لتكون السنة الأخيرة المنقذة من نير هذه المجاعة[2].

ونقف على تجدد هذه المجاعة بعد مددة زمنية قصيرة، وتجدد أثرها أيضا على بيلك الغرب الجزائري وقد حلت بالبيلك حسب ولسن إسترهايز بُعيد تسمية "محمَّد باي الكبير" سنة (1199هـ/1785م) بايا على بيلك الغرب الجزائري[3]، ونقف في إحدى المخطوطات: «..أنَّه في ابتداء ولايته وقع قحطٌ شديد بإقليم الجزائر وبعمالته خصوصا...»[4]، وقد كانت هذه المجاعة قوية جدا بحيث صاحبتها اضطرابات وثورات في البيلك إضافة إلى الوباء الذي تبعها، حتى اشتُهرت هذه المجاعة عند العامة من النَّاس بعام الشر[5]، وقد قضت هذه المجاعة وتزامنها مع الوباء على عدد كبير مِن السَّاكنة في المنطقة.

وغالب الظَّن أنّ هذه الأزمة لم تتضرَّر منها إيالة الجزائر فقط، بل امتدَّت إلى المنطقة ككل، وهو ما يُستقرئ في إرسال باشا "طرابلس الغرب" بسفينة إلى ميناء "بونة" قصد التَّزود ببعض المؤن، خاصة منها القمح[6].

وبعد مضي قرابة السبع سنوات من الهدوء والتوفر الغذائي، تبدو من جديد المجاعات في صورة العدو الرئيس لبيلك الغرب الجزائري، إذ تتجدَّد المجاعة مرَّة أخرى في بيلك الغرب وبالتَّحديد "مدينة وهران" سنة (1792م) مسبوقة في نفس المرحلة بكارثة طبيعية ناجمة عن زلزال سنة (1790م) ما جعل تأثيرها هذه المرة مزدوج وأشد على النَّاس[7]، ولم يتوقف الأمر هنا بل تعدها إلى طاعون شديد زاد مِن تردي الوضع المجتمعي العام بشكل ملحوظ جدا. ولم تبق هذه الأزمة حبيسة بيلك الغرب فقط، بل امتدت إلى جل المناطق على الحدود الجنوبية الغربية، فنقف بعد سنة من هذه المجاعة أي سنة (1793م) على تمظهرات جديدة للأزمة في جهة الصحراء بهلاك عدد مِن المواشي والناس وتأزّم العيش بالمنطقة، وقد ترتب عن الجفاف الذي زادت حدته في هذه السنوات واندفاع الناس لبحث عن مواطن وجود الكلأ لمواشيهم هو ما

---

[1] - Brosselard : **les inscriptions arabes de Tlemcen, Revue African.**, journal des travaux de la société historique Algérienne, Publication Honorée de souscription du ministre de l'instruction publique, Jourdan libraire éditeur, Alger, Anne1860, N°4, P88.

[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/139 Cotes: F° 135-136. 28/05/1781.

[3] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[4] – نبذة من سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، رقم (5022)، [و/2]

[5] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[6] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 421.

[7] - Jean Marchika : op.cit., P145.

ذكره صاحب الصروف باقتضاب عند سرده وقائع سنة (1207هـ/1793م) بقوله: «...وفي آخر هذه السنة وقع جدبٌ بالصَّحراء أضرَّ بالمواشي وتزاحم النَّاس على موقع المطر...»[1] ما نجم عنه تشابكه الأزمة الغذائية مع الحركية القبلية والنزوح وهو ما أدى لاحقا إلى ظهور العديد من النزاعات على المنطقة، وإشكالية السيطرة على المجال الجغرافي، ولعلها ستكون أحد الأسباب الأساسية لحملة الباي محمد الكبير على الجنوب كما هو مشهود تاريخية. بمعنى أن المجال الذي كانت قد شغلته هذه الأزمة لم يقتصر على الوضع الآني بل تعدها إلى المستقبل القريب.

ونقف على آثر هذه المجاعة في السنة الموالية أيضا أي سنة (1794م) فيتحدَّث "مارشيكا" عرضا عن وجود تزامن للوباء الذي تفشى في الجزائر مع مجاعة في نفس السنة. فيما أن تتبع الوثائق يحيلنا على نقطة هامة وهي وجود عمليات تصدير للمنتج المحلي في صورة القمح إلى أماكن أخرى خارج البلاد أثناء معاناة البلاد من نقص المؤن، إذ تذكر إحدى المراسلات باسم بيشو (Buchot) إلى حسن داي سنة (1208هـ/1794م) طلب يلتمس فيها الأخير من ممثل الخارجية الفرنسية التوسط من أجله لدى داي الجزائر لمنحه عدد من التَّسهيلات اللازمة لأجل شراء كميات كبيرة من القمح الجزائري، ومساعدته في شحنها إلى فرنسا[2]، كما أشار القنصل "فاليار" في مراسلته مع وزارة الخارجية بأنَّ الطَّلب الفرنسي لقي ترحيبا كبيرا مِن طرف الدَّاي بالرغم من كل المحاولات الإنجليزية لثني الداي حسين عن تقديم الدعم للجمهورية الفرنسية[3]، بل رد "الدَّاي حسين" على طلبات الشراء كان بأكثر مما كانت تنتظره حكومة الجمهورية في حد ذاته، إذ عبَّر الداي عن استعداد إيالة الجزائر لتقديم كل ما تحتاجه الجمهورية من حبوب أو أغذية أو أحصنة هي في حاجة إليها[4].

وهو ما يعني بالنسبة لنا أحد الأمرين:

أولا: إمَّا أنَّ توفُّر هذه المواد وبالتحديد القمح كان كبيرا ووافرا، لدرجة إمكانية التقسيط أو المداينة إلى أن تمر فرنسا بسلامة من أزمتها، إذ أنَّ الدفع قد بقي مُؤَجَّلاً إلى ما بعد تجاوز الجمهورية الناشئة للأزمة التي كانت تمر بها.

ثانيا: عدم اكتراث الداي وشركات تصدير القمح للوضع الداخلي المتأزِّم بسبب المجاعة في حين كانت أنظار الداي وشركات التصدير التي يستحوذ عليها اليهود منصبة على نسبة الأرباح الكبيرة المحققة من عملية التَّصدير هذه.

[1] - - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص 279.

[2] - C. D. A. C. F : le 28 août 1794.
[3] - C. D. A. C. F : le 15 octobre 1794.
[4]- C. D. A. C. F : le 16 octobre 1794.

وهو ما يؤكد مرة أخرى على أهمية ربط الأمور الجزئية والمستويات المتباينة مع بعضها البعض، إذ أنّ بعض العوامل الطبيعية في صورة (نقص التساقط) وبعض العوامل السياسية في صورة الوضع العام في فرنسا بسبب ثورتها ومواجهاتها الأوروبية، كان سببين في زيادة أطماع الربحية لمحتكري تصدير القمح الجزائري إلى أوروبا ما أدى إلى ارتفاع فاتورة الدين الفرنسي باتجاه المورد الجزائري، ما سيفتح لاحقا باب الاحتلال الفرنسي للإيالة، فيما أدت هذه الذهنية داخليا إلى حدوث العديد من الاضطرابات الساعية للتخلص من صور هذا الاحتكار المثرة بشكل مباشر على التركيبة الاجتماعية وهو ما سنتبيّن أثره بشكل أكبر عند الحديث عن مجاعة (1805م) وتأثيراتها المباشرة فيما هو قادم.

لتجدَّد مرَّة أخرى أَثر المجاعات في إيالة الجزائر سنة (1798م) فيذكر "مسلم بن عبد القادر" في خاتمة "أنيس الغريب والمسافر" أنَّ هذه المجاعة كانت إحدى المجاعات السَّيئة الأثر على الإيالة الجزائرية عموما وبيلك الغرب تحديدا وهذا بقوله: «...مسغبة عظيمة أُهلكت فيها أممٌ كثيرة حتى أكلوا الميتة والدم ولحوم بعضهم بعضا...»

انحصار المجاعات في الثُلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر (1800-1830م) في إيالة الجزائر:

لم تكد الإيالة تتعافى مِن أثر المجاعة التي ظهرت في سنة (1798م) إلاَّ وقد عادت للظهور مرَّة أخرى في مطلع القرن التاسع عشر، فنقف على ذلك فيما ينقله "حمدان بن عثمان خوجة" عما حدث سنة (1800م) بقوله: «..أُصيبت الجزائر بمجاعة كبرى، ووقعت الحاجة إلى الأقوات، فأمر الدَّاي لتموين البلاد؛ بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح. وقد بيع ذلك القمح بثمانية وعشرين فرنكا للصاع الواحد، وبالرغم من ذلك كان لا بد مِن تنصيب الجنود عند باب كل مخزن...»[1] وهو ما يوحي من جهة بشدَّة هذه المجاعة، ومن جهة أخرى ببعض التدابير التي كان يأخذها بعض الولاة والدايات من أجل التخفيف من حدة الأزمات الغذائية، وهو ما عقدنا له مطلبا خاصا ليس هذا مقامه، ثمَّ تعرف بعد ذلك الإيالة عودة التوازن الغذائي وتتجنب التعرض لهكذا أزمات مدة لكنها ليست طويلة، إذ تجدَّد الحديث مرَّة أخرى في العقد الأول مِن القرن التاسع عشر دائما على آفة المجاعة، وبالتحديد بداية من موسم حصاد سنة (1804م) أي في نفس السنة التي شرع بيلك الشرق بالحرب ضد باي تونس حيث يزعم العنتري أنَّ الجفاف قد حلَّ بالبلاد وظهرت أزمة عميقة وعبَّر "العنتري" عن ذلك بقوله: «..يحكى أنَّه في سنة (1219هـ) زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضرَّ بأهل بلد قسنطينة ووطنها، ودام الحال

---

[1] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص 122.

كذلك عليهم ثلاث سنين متوالية...»[1] وقال متحدثا عما خلفته هذه المجاعة: «...وكانت عيطة القبائل في شهر الله ربيع الأول في السنة المذكورة (1219هـ) وكانت فتنة عظيمة ومات من الخلق شيء كثير وعم القحط جميع البلاد الواصل إلينا ذكرها..»[2]

بدأت عوارض هذه المجاعة تتجلَّى فعليا للعيان حسب "لوسيت فلنسي" سنة (1805م) وتسبَّبت لاحقا في ثورة كبيرة قام بها الأهالي ضد اليهود؛ لاعتقادهم أنّهم بسيطرتهم على تجارة القمح وتصديره للدول الأوروبية ساهموا في ندرة القمح في الإيالة في وقت كان الأهالي في أمس الحاجة إليه[3]،وقد مر بنا التسهيلات التي كان يتحصل عليها اليهود وغيرهم، وقد كادت هذه الثورة أن تقضي على الحكم العثماني في الجزائر من خلال ثورة الأهالي في المدينة وثورة "ابن الأحرش" في الداخل.

نفس هذه المجاعة امتدَّ لهيب أثرها في السنة التي تلتها أيضا، أي: سنة (1221هـ/1806م-1807م)، وهذا ما يؤكده تصريح العنتري بقوله: «..وهذا الشر باق إلى سنة التاريخ هذه، وهي سنة إحدى وعشرون والله يلطف بعباده..»[4]، وقد نجم عن هذه المجاعة وغيرها من المجاعات كما سيأتي ارتفاع أسعار القمح أكثر من ثلاثة أضعافه بحيث أضحى سعر الصَّاع الواحد من القمح يبلغ ما يقارب خمسة عشر ريالا، وسعر الشَّعير يصل إلى قرابة ثماني ريالات[5].

مثلما نقف أيضا على وجود ندرة غذائية سنة (1230هـ) أي في حدود سنتي (1814-1815م) وهذا بسبب غزو الجراد للمنطقة مرة أخرى، إذ يُذكر «..أنَّه في هذه السنة جاء الجراد، ..أوَّله أتى طائراً، ثمَّ غرس وأقام أياما في الأرض، ثمَّ خرج وأكل الزَّرع والأشجار والثِّمار، ووقع الغلاء في تلك السَّنة...»[6] وهو ما يؤكد أن هذه السنة بدورها لم تخل من نقص في المؤونة وشدَّة في الوضع، ليتدخل بعدها الأمير بتوزيع القمح على الخبازيين وتحديد سعره مثلما كان في أيام الرخاء ما خفف من وطأة هذه الأزمة.

بعدها تنتقل الإيالة إلى العيش ضمن نطاق عام من توفر الغذاء وابتعاد شبح الأزمات الغذائية، إذ لا نكاد نقف على إشارات واضحة إلى حدوث أزمات ما كان لها تأثيرها الفعلي أو تشابكت مؤثرة في نمط ما من أنماط العيش العام داخل الإيالة، وإذا عرف هذا كنا جديرين بالحديث عن مرحلة معافاة أو مرحلة

---

[1] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 27،28.

[2] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, Revue African. Anne 1895. N°39, P165,

[3] - Lucette Valensi: op.cit., P24.

[4] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine(مخطوط) , Revue African., Anne 1895. N°39, P165,

[5] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine(مخطوط) , Revue African., Anne 1895. N°39, P165,

[6] - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 144.

هدوء نسبي في الاحتياجات الغذائية، ولعل هذا مرتبط إلى حد ما بالحالة العامة التي كانت تعيشها أيضا الجهة الأخرى للمتوسط، فالاستقرار السياسي في المنطقة الأوروبية والوصول إلى اتفاقات سياسية للصلح بين دولها جعلها تعمل على تحقيق أمنها الغذائي، ما انعكس مستقبلا على طلبيات شراء القمح الجزائري، وأدى بالتالي إلى تشبع السوق الداخلية مقارنة مع الفترات السابقة (1798-1814م).

وإذا قد أتينا على ذكر مُجمّل ما تعلّق بالمجاعات والأزمات الغذائية التي عاشتها الإيالة الجزائرية في المرحلة التاريخية الممتدة ما بين (1700-1830م) عدنا إلى مقصدنا مِن الشِّق الثاني الموجود ضمن الدِّراسة لنتحدَّث عن الأزمات في شقها الصِّحي أو ما حددناها باسم الأوبئة.

كرونولوجيا الأوبئة بين التفشي والانحصار (1700-1830م):

سنوات التردد الوبائي في بدايات القرن الثامن عشر(1700-1715م)

مثلما قررنا في دراستنا هذه قبل أن نشرع فيما وعدناه مِن الحديث عن مسألة تفشي الأوبئة وانحصارها في الإيالة الجزائرية خلال القرن الثامن عشر والثُّلث الأول من القرن التاسع آثرنا أن نُقدِّم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول، إنَّ الأوبئة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني لم تقتصر حقيقة على منطقة ما دون مناطق أخرى، إلاَّ أنَّها كانت قد تمركزت في عدد من النقاط المحورية سبق الحديث عنها، وتأثيرها الفعلية اختلفت اختلافا بيِّنا بين منطقة الجنوب وباقي حواضر المدن الكبرى، وقد لاحظنا -كما سبق- أنَّ معظم المناطق الأكثر عرضة للوباء كان حيزها الجغرافي موجود في المناطق الشمالية من الإيالة، وبالأخصِّ بالمدن والحواضر الكبرى، وقد علَّلنا ذلك بارتفاع نسبة الكثافة السُّكانية في المنطقة وتوفر العوامل الداخلية (المناخ، الحركة التِّجارية) والخارجية(الاحتكاكات في الموانئ) وتأثيراتها المباشرة في تفشي الأوبئة أو انحصارها. وهذه كلها أمور ظلت مساهمة بشكل أو بآخر في التَّوسع الجغرافي للأوبئة وانكماشها. وقد اختلف نتيجة ذلك اختلافا بيِّناً ضمن الباحثين حيال اعتبار إيالة الجزائر موطنا دائما للأوبئة أو مجرد مستورد ملتزم بها؟ ثم هل كانت البيئة الجزائرية بيئة وبائية فعلا؟ أم أنّ الأمر يرتبط بوجود عوامل ساعدت على أن تكون السمة البارزة هي حروب وبائية للإيالة؟ ثم بعد ذلك في أي مرحلة زمنية أضحت الأوبئة عائقا فعليا في وجه الإيالة؟ هل توجد مرحلة بعينها استسلمت فيها الإيالة لقدرها الوبائي المتكرر؟ أم كانت مجرد سنوات معدودة لا تعطي طابع عام وبائي للمرحلة محل الدِّراسة؟

يذكر (De. Grammont) بأنَّ للأوبئة التي عرفتها إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر دورا كبيرا في تراجع نمو الكثافة السُّكانية خلال هذا القرن الثامن عشر[1] خاصة إذا ما تمت مقارنتها مع القرن السابع

---

[1] - H.-D. DE Grammont : **Histoire D'Alger sous la domination Turque** (1515-1830) Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, P240.

عشر في الجزائر أو القرن التاسع عشر، لكن هذا التأثير لم يكن بنفس القوّة والتّأثير طوال هذا القرن فنجده ينقسم إلى مراحل زمنية يكون فيها التأثير الوبائي على الساكنة شديد جدا، بينما تتراجع حدته في مراحل زمنية أخرى.

فيما يخص المرحلة الأولى من القرن الثامن عشر فترى بعض الدراسات -كما هو الحال بالنسبة للباحثة فلة موساوي في أطروحته للدكتوراه- أنّ إيالة الجزائر خلال الخمسة عشر السنة الأولى مِن القرن الثامن عشر (1700-1715) كانت غالبا ما تستثنى مِن موجات الطّاعون الذي حلَّ بكل مِن الإيالة التونسية والمصرية وإيالة طرابلس الغرب وهو نفس ما تراه لوسيت فلنسي[1].

غير أنَّ تتبع الأوبئة خلال هذه المرحلة الزمنية يجعل الأمر يحمل أوجه متعدِّدة منها الوجه الذي ذكرته الباحثتين، ومنها وجه أخرى يرى أنَّ سبب اشتهار الإيالة بخلوها مِن موجات الطّاعون الكبرى خلال الخمسة عشر سنة الأولى هو انعدام وجود أي تأثيرات كبيرة لهذه الأزمات الصّحية، وإلاَّ فإنها عانت بدورها مِن وجود بعض الأوبئة وهو ما سنتحدث عنه.

إذ نقف في بداية الأمر على تقرير للقنصل الفرنسي في مدينة الجزائر "دوران" (Durand) ضمن إحدى مراسلته الأرشيفية بأنَّ الوباء قد هاجم مدينة الجزائر سنة (1700م/1100هـ) في ثمانية أو عشرة أيام قائلا في تقريره: «..إنَّ الوباء قد هاجم مدينة الجزائر منذ ثمانية أو عشرة أيام، وتوفي جراء ذلك ثلاثة أو أربعة أشخاص..»[2]، وبالتالي فهو من الناحية الزمنية منحصر زمنيا كما أنَّه مِن حيث التّأثير لا يرقى إلى تلك الأوبئة التي سيأتي ذكرها، ولعل هذا ما جعلنا نقف على ذكر لنفس الوباء من طرف الدكتور "غيون" بشكل مُحتشم وعرضي؛ فيتحدَّث عن وجود وباء في مدينة الجزائر خلال سنة (1700م) متزامنا مع حدث آخر وهو الخلاف مع الباب العالي لكن بدون أن يتطرَّق إلى آثره وانعكاساته على المجال العام؛ وذلك حسب رأينا يعود إلى أنَّ الأثر العام لهذا الوباء قد ظل هامشيا ومُستتراً، أو بسبب أنَّ المدَّة الزَّمنية لها الوباء قد كانت مدة زمنية قصيرة زمنيا يصعب تتبع أثرها حسب ما أورده القنصل (Durand).

مِن جهة أخرى نجد أنَّ "مارشيكا" يتحدَّث في أطروحته عن تجدُّد الطَّاعون في الجزائر خلال هذه السنة (1700م)، ويشير إلى تبيان أثره في مدينتي الجزائر وعنابة، كما يستغرب مِن قدرته على الاستقرار في هذه المنطقة مع وجود ارتفاع في درجة حرارة كان يفترض عليها أن تثنيه كما جرت العادة[3]، وهو عين ما أشار إليه أيضا القنصل "دوراند" باستغراب في مراسلته السالفة الذكر بقوله:«...أنَّه لم يسبق وأن شرع

[1] - L.Valensi: **Calamités démographique en Tunisie et en Méditerrané orientale aux 18 et 19 siècles**. In Annales E.S.C. N°6. P1541.
[2] - H.-D. DE GRAMMONT : **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**, P64.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P69.

الوباء في الانتشار خلال هذه الفترة..»[1] وهو بذلك يتحدث عن زمن الصَّيف، لأنَّ ظهور الوباء على غير العادة كان في بداية شهر (جوان/يونيو). أما من حيث أصل هذا الوباء فقد ذكرت الجريدة الرسمية للدولة الفرنسية حينها أنَّ ظهور الوباء في مدينة البندقية بداية مِن الشَّهر الثاني مِن سنة (1700م)[2]، وهو ما يعني إمكانية أن تكون مدينة وتجار البندقية هي النَّاقل المحتمل الذي تمكَّن مِن إدخال هذا الوباء إلى الإيالة من خلال تعاملاتها التجارية مع الإيالة؛ خاصة إذا علمنا أنّ للطَّرفين مستوى الاحتكاك دائما خلال نهاية سنة الماضية(1699م) وبداية سنة (1700م).

واصل الوباء تقدُّمه فعليا خلال صيف هذه السنة، واشتُبِه في أنَّه يوم السَّابع عشر مِن شهر (جويلية/يوليو) كان سببا في سقوط عدد كبير مِن الضحايا مِن الأسرى الأوروبيين خلال تلك الفترة[3] وهذا ممَّا لا يتعارض وتقرير القُنصل الفرنسي في الجزائر "دوران" الذي قال أنّ عدد الضحايا كان قليلا لا يكاد يذكر[4]، إذ أن المرحلة الزمنية التي يغطيها مارشيكا أطول من تقرير القنصل الفرنسي، إلاّ أنّ استمرار هذا الوباء ظل على نطاقٍ ضيّقٍ هذه المرّة، ويبدأ في الانسحابات مُتراجعا إلى غاية نهايته تماماً أواخر هذه السنة، وتتمظهر هذه النتيجة في قلّة عدد الضحايا المتحدث عنهم خلال فصل الخريف على غير العادة[5].

وقد ظل بعض الجيوب الوبائية لهذا الوباء نشطة إلى غاية سنة (1702م)، ويدعّم هذا الأمر ما نقف عليه ضمن إحدى المراسلات الرسمية للقنصل الفرنسي في الجزائر (Durand) المقيّدة بتاريخ الأوّل مِن شهر (أوت/أغسطس) سنة (1702م) والمرسلة إلى السّيد "بونشاتران" (Pontchartrain) ينبأه فيها بأنّ إيالة الجزائر قد بدأت تتعافى مِن الوباء الذي ألمَّ بها منذ فترة طويلة وألحق بها خسائر فادحة قدَّرها القنصل بـ خمسة وأربعين ألفا (45.000) ضحية[6]، وهو لا محالة رقم كبير جدا، لكن إن ربطنها بالفترة الزَّمنية التي شهدت بروز الوباء أوَّل مرة وانقضاءه كان الرقم مقبول إلى حد ما، إذ جاوزت فترة توطن الوباء في الإيالة الثمان سنوات كاملة امتدت من نهاية القرن السابع عشر وبالتحديد من سنة (1692م) إلى غاية نهاية (1700م).

تشهد بعد ذلك الإيالة نوعا من العافية، تمتدَّ هذه المرحلة على مسار طويل يبلغ عشر سنوات تقريبا يبدأ مِن سنة (1705م) وينتهي عند سنة (1716م) وهي بحق تعد المرحلة الأكثر هدوءا مِن ناحية

---

[1] - letter M. Durand Alger, le 28 juin 1700 dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742) H. DE Grammont, P79.
[2] - **Gazette de France**, 1700, N° 01. P.67,68.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P70.
[4] letter M. Durand Alger, le 28 juin 1700 dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742) H. DE Grammont, P79.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P70.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes : F° 257-262. 1 aout 1702.

النشاط الوبائي، إذ قلّ أن نقف خلال هذه المدَّة على نشاط وبائي مُعتبر كان له بالفعل أثر كبير يذكر على الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية لساكنة الجزائر.

ولعلَّ ممَّا يؤكد فكرة خلو هذه الفترة مِن الأوبئة الحادة، أنّ كلّ مَن تناول الحديث عن الأوبئة أو المجاعات أو الظَّواهر الطبيعية خلال تطرُّقه لأحداث هذه الفترة لم يتحدَّث عن أثر معين لظهور وباء ما أو تأثير أزمة صحية ما على إيالة الجزائر العثمانية خلال هذه السنوات، باستثناء ما ذكره الدكتور "غيون" مِن وباء أو حمى خبيثة ظهرت في تونس والجزائر خلال سنة (1705م)[1]، لكن أثر هذه الحمى لم يكن كبيراً ولم يمتدَّ لمرحلة زمنية طويلة، وهذا الأمر ما جعل ذكر هذه الحمى مُغيَّبٌ في الكثير مِن الكتب التي أرّخت لتلك المرحلة،

وهو ما حمل الباحثة "فلة المساوي" على أن تعتمد المذهب القائل بأنّ الجزائر خلال هذا الحيز الزمني كانت تتمتَّع بصحة جيد عكس الجارات الشرقية تونس وطرابلس الغرب[2].

الأزمات الصحية والهجمات الوبائية في الإيالة الجزائرية(1717-1756م)

ظهر هذه السنة الوباء في أكثر من مكان في المتوسط، فبرز ذكر وجوده في عدد من الممالك العثمانية مع بداية السنة[3]، وهو في الغالب امتداد للوباء الذي كان ظهر في بعض أجزاء الدولة العثمانية أواخر سنة (1716م)[4]

فيما يذكر "غيون" أنّه قد وَفد إلى إيالة الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية قَدمت محمَّلة بالسِّلع[5] مِن مصر، بحيث كان الوباء على أشدَّه بها، وقد انتشر خبر توفي قبطان هذه السَّفينة والعديد مِن ركابها لاحقا حتى قبل أن ترسو بميناء المدينة[6]، ممَّا مِن شأنه في الحالات الطبيعية أن يثير بعض الإجراءات الاحترازية لدى السُّلطات الحاكمة في الإيالة الجزائرية إلاَّ أنّ ذلك لم يثر أي اهتمام لدى ديات الجزائر، بل لم يُذكر قيامهم بأي جهد مِن شأنه الوقوف في وجه هذا الخطر[7]، وهو إلى حد ما يرسم ملامح الذهنية الحاكمة في تلك المدة الزمنية، إذ كان يعتقد بعض حكام الجزائر أنَّهم حكام لسكان هذه الإيالة ومتصرفين في شأنها السياسي وليسوا جزءا من التركيبة الاجتماعية، وهو ما سنعود له لاحقا بالتفصيل.

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P295.

[2] - فلة موساوي: الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1518-1871) ص 68,

[3] - B.O.A : AE. SAMD.III.Dosya N°39.Gömlek N°3746. Tarih 1129.R.13, Belg 01.

[4] - Johann Wilhelm Zinkeisen: **Osmanlı İmparatorluğu Tarihi**, Çeviri Nilüfer Epçeli , Cilt 5, Yeditepe Yayınevi, 1. Baskı. Eylül 2011. s323.

[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

[6] - Jean Marchika :op.cit., P75.

[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

وما زاد من أثر وباء (1717م/1718م) هو تزامنه مع زلزال ضرب المدينة في نفس السنة، لكن يفهم من رسالة الأب باتلوت (Batault) أرسلها من الإيالة الجزائرية إلى فرنسا أنَّ أثر هذا الوباء لم يكن كبيرا وسرعان ما انجلى وانحصر تأثيره[1]، وهو ما جعل عملية جميع المعطيات الخاصة بهذا الوباء المتعلقة بعدد الضحايا ومناطق انتشاره أمرا غير ميسر حاليا. لكن مما يستفاد من التأريخ لواقعة هذا الوباء ذلك النوع من اللامبالاة وأثره الانعكاسي على المجتمع، وهو ما سيتكرر كثيرا.

ظهور الوباء في الإيالة التونسية وامتداداته في الجزائر (1720م)

لعل المركز الذي انتشر منه هذا الوباء إلى إيالة تونس هو مدينة مرسيليا الفرنسية، إذ كثيرا ما عُدَّت هذه المدينة من طرف الكثير مِن الباحثين خلال تلك المرحلة مدينة موبوءة بامتياز، ويتمظهر هذا الأمر في الخوف الذي يتلبس به كلُّ الوافدين إلى المدينة والذين أضحت بعض المصادر تذكر أنهم يحاولون عدم دخول المدينة القديمة أو التوطن بها خلال مرحلة إقامتها بها خوفا من تبعات الأوبئة والأمراض الأخرى[2].

فيما ذهبت بعض الدِّراسات إلى أنَّ أصل الوباء الذي ألم بتونس وانتقل لاحقا إلى إيالة الجزائر هو بلاد المشرق، وبالتَّحديد البلاد السورية[3] وبعده انتقل منها عن طريق سفينة (le Grand-Saint-Antoine) "سانت أنطوان الكبرى" خلال نفس المرحلة الزمنية تقريبا[4] إلى مدينة مارسيليا، ومن هناك بدأ هذا الوباء رحلته التدميرية الكبيرة؛ فكان له الأثر البالغ والشَّديد على فرنسا أولا فقضى خلال ثلاثة أشهر فقط تمتد من نهاية شهر(يوليو/جوان) إلى غاية نهاية شهر (أوت/أغسطس) على ما يقارب ثمانين ألف ضحية في مدينة مارسيليا لوحدها[5]، ثم انتقل بعد ذلك إلى الضِّفة الجنوبية مِن المتوسط وتحديدا إلى كلّ مِن إيالات "طرابلس الغرب" و"تونس" و"إيالة الجزائر".

ويذكر الرَّحالة (Beaugrand) الغربين في رحلته إلى تونس مشاهدته لتأثير وباء سنة (1720م) على ساكنة تونس، إذ قضى حسب روايته على (40.000) أربعين ألف إنسان[6]، لعلَّ في هذا الرقم بعض المبالغة، لكن إن قمنا بمقارنة هذا الرّقم مَع تلك الأرقام الغربية التي تتحدَّث عن سقوط أكثر مِن هذا الرقم

---

[1] - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P49.
[2] - Gaffarel, Paul et Duranty, Marquis : La peste de 1720 à Marseille et en France : d'après des documents inédits, Éditeur Perrin, Paris, P01.
[3] - Laumonier Jean : La peste, P06.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P-P 298-303.
[5] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P19.
[6] - H. Beaugrand : Lettres de voyage, Montréal des Presses de la patrie, 1889, P112.

في مدينة مرسيليا لوحدها فهي تتحدَّث عما يقارب (50.000/ن)[1] خلال هذا الوباء مع ما فيها من احتياطات وخبرة في مواجهة مثل هذه العوارض الوبائية.

بل إننا نقف على العديد مِن رسائل طلب المساعدة ترسل إلى السُّلطة الإمبراطورية يتقدَّم بها عددٌ مِن الأطباء الذين كانوا على متن السُّفن التي كانت في عرض البحر، وتحمل الوثائق التي وقفنا عليها في الأرشيف الفرنسي فيما يخص هذا الوباء على ملامح ترسم بحق شدَّة هذا الوباء وقوته[2]، لذا فيمكن الحديث عن إمكانية أن يكون الرقم الوارد آنفا قريبا من الصِّحة، خاصة إذا ما أضفنا للعارض الوبائي ما وقفنا عليه من إشارة عابرة لدى "دي غرامونت" يتحدّث فيها عن المدَّة الزمنية الممتدة مِن (1720مـ-1722مـ) مشيرا إلى التزامن العارض للوباء في تلك السنوات مع المجاعة[3]، وإن كان "دي غرامونت" في أثناء هذه الإشارة لم يذكر العدد تقريبي لضحايا هذا الوباء أو فترة تفشيه إلا أنَّه قد نبَّه إلى تأثيره الكبير في صفوف العبيد أو الأسرى، الأمر الذي جعل أسعار العبيد تعرف ارتفاعا كبيرا بل أدى أثر هذا الوباء إلى ارتفاع سعر الفدية على الأسرى إلى ثلاثة أضعاف[4]، وهنا نستجلي التأثير الجلي للأوبئة في الحياة الاقتصادية للإيالة، بل ويتعداه إلى الممالك والدول الأوروبية فهي التي كانت تتحمل تبعات هذا الارتفاع في الأسعار، وهو ما من شأنه أن يؤثر على هذه الممالك في جزئيات أخرى، خاصة وأن القرن وإن وسم بكونه قرن القمح فإنّه لم يتخلص من الأسر والقرصنة كمورد أساسي للخزينة العامة للإيالة، ويجب علينا أن نشير إلى ما تحدث عنه "غيون" من كون الإيالتين الجزائرية والتونسية قد حاولتا تطبيق تدابير صارمة -لم يُفصح عنها- للحد مَن أثر هذه الهجمة الوبائية[5].وبالتالي يمكن أن نرى أن الإجراءات قد تتخذ إذا كان الوباء كبير ويؤثر بشكل بارز على منطقة الحوض المتوسط ككل.

كما نقف على رسالة ودية من أحد الأباء المكلفين بفداء الأسارى على غاية الأهمية، كتبها الأب "باتولت" -أرسلها إلى أحد طلابه ومؤرخة بـ (23/أفريل 1723)- ينبِّأه فيها بوجود الطَّاعون في إيالة الجزائر خلال هذه السَّنة، كما نبَّهه في نفس هذه الرسالة إلى أنَّ هذا الطَّاعون قد تزامن مع مجاعة وزلزال ضربا المدينة[6] في نفس الفترة ما جعل أثره أكثر عنفا.

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P303.
[2] - F.M : Cotes : MAR/C/7/58, D 81722
[3] - H.- DE Grammont : **Histoire D'Alger sous la domination Turque** (1515-1830) Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, P282.
[4] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P282.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.
[6] - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P53.

وقد حتّم هذا الوباء الذي اشتدَّت قوته في فرنسا السُّلطات الفرنسية على غلق موانئها، بل وتم في الكثير مِن الأحيان رفض استقبال سفن القراصنة والبحارة الفرنسية أنفسهم مخافة اشتداد قوّة هذا الوباء من جديد أكثر وهو ما تؤكده إحدى الوثائق الخاصة بالموانئ النشطة في مدينة مارسيليا وماجورها[1]، وقد استمرَّ النَّشاط الوبائي تقريبا مدة سنتين كاملتين[2]، إذ نجد تجدَّد ذكره في عدد مِن الوثائق الأرشيفية الخاصة بالبحرية الفرنسية خلال تلك المدَّة[3].

طاعون 1730

وإذا تحقق وجود الوباء سنة (1720-1722م) انتقلنا للحديث عن الوباء الذي أتى بعده، وبالتحديد ذلك الذي نقف له على بعض الإشارات في الشتات المختلف حيال ظهور الطاعون سنة (1730م) وقد ظهر قبيل هذه السنة خبره في "جزيرة كريت" كما ورد في أحد المراسلات العثمانية أن الدولة العثمانية أسقطت على أهل الذمة في الجزيرة الضرائب المستحقة هذه السنة حتى يستعيد الأهالي عافيتهم[4] ونقف فيما يخص إيالة الجزائر على إشارة هامة لدى "دي غرامونت" تتحدَّث عن وفاة السيد "دوراند" القنصل العام الفرنسي في مدينة الجزائر والقائم بالأعمال الفرنسية في الجزائر وهذا في الثامن من شهر أكتوبر سنة (1730م)[5]، كما نقل "غيون" عن إحدى المخطوطات التي وقف عليها قول صاحبها: «...الطَّاعون قد عاد مِن جديد إلى الجزائر في هذه السنة (1731م)...»[6] وقد وصف "مارشيكا" هذا الوباء بأنَّه طاعون خفيف لم يكن له كبير أثر[7].

تجدُّد الوباء سنة 1732

ولعل الوباء الذي ذكره مارشيكا في السنة السابقة هو الذي تجدد أثره في السنة اللاحقة، إذ يورد "ابن رقيَّة التلمساني" نقلا عن صاحب "الزهرة النائرة" بتجدُّد الطَّاعون في مدينة الجزائر سنة (1145هـ/1732م)[8]، وإلاَّ أنَّ " مارشيكا " يذكر بأنّه لم يكن وباءً شديدا وذا أثرٍ كبيرٍ، وقد تزامن هذا الوباء مع فترة حكم الداي " الحاج أحمد " وقد نقل هذه المعلومة عن "غيون" و "بيربروجر"[9] لكن أثر هذا الوباء كان شديدا ومؤثرا في بعض مناطق الدولة العثمانية أدى في بعض الحالات إلى اندثار قرى بأكملها

[1] - MAR. C. 7. F N 18 :D 10. 1719.
[2] - MAR. C. 7. F N 58 :D 08. 1722.

[3] – انظر الملاحق : الثالث والرابع.

[4] - B.O.A : AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°11393. Tarih 1142.M.02, Belg 01.
[5] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), P285.
[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P77.
[8] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P314.
[9] - Jean Marchika :op.cit., P78.

مثلما نقف عليه في أحد الوثائق الأرشيفية التي تطلب إحدى العائلات من السلطة المركزية السماح لها بالانتقال من قريتها أو قضاءها إلى قضاء آخر، إذ لم يبق في قريتها من العائلات التي تنعم بالحياة إلا هذه العائلة[1] وقد استمر تقريبا إلى غاية (1735م) في مناطق قريبة من الباب العالي في الآستانة مثل تكيردا وغيرها[2].

وباء 1738

فإذا تقرَّر ما سبق استأنفنا التتبع الكرونولوجي للأوبئة خلال هذه المدَّة، نجد أن أول ما يليه من أوبئة ذلك الذي أُشير إلى وجوده في مدينة "تلمسان" في بيلك الغرب الجزائري بدايات سنة (1151هـ/1738م) لينتقل منها لاحقا إلى المناطق المحاذية وتحديدا مدينة "وهران" وأحوازها[3]، وقد عين حينها "يوسف بن مصطفى بوشلاغم" بايا على بيلك الغرب خلفا لوالده مصطفى بوشلاغم[4].

حاول "يوسف بن مصطفى بوشلاغم" أن يسيطر على النِّظام في البيلك وأن يقوم باسترجاع مدينة وهران من يد الإسبان، إلاّ أنه سقط بدوره ضحية لهذا الوباء سنة (1151هـ/1738م)[5] ، ومن دلالات موت باي الغرب الجزائري بهذا الوباء أنه انتشر بشكل واسع ومعتبر داخل هذا البيلك، وله من القوة والتأثير ما منحته القدرة على الوصول إلى رأس حاكم البيلك بذاته، بمعنى أنّ وصوله لهذا الشخص يكون بعد أن تفشى بشكل واسع فيمن هم دونه طبعا، كما نستنبط ملاحظة هامة وهي أنَّ الوباء غالبا ما يكون قد ألم أيضا بجزء مُعتبر مِن القوّة التي كان يقودها "الباي يوسف بن مصطفى بوشلاغم" وأنّ حركة هذه القوّة العسكرية في بيلك الغرب تكون قد أججّت نشاط الجيوب الوبائية بشكل أكبر، وخلقت مواطن عدوى وبائية جديدة في طريقها.

وأمر مساهمة الجيوش والميليشا في نقل الأوبئة كان مشهورا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكثيرا ما حدث في أوروبا نفسها؛ إذ أنَّ مرورو الجيوش الفرنسية على سبيل المثال عبر جبال الألب سنة (1743م) كان سببا مباشرا في تأجيج الوباء في كامل المنطقة الأوروبية[6]، فإن تقرَّر فعلا ما لحركة الجيوش مِن أثرٍ في نقل الأوبئة قلنا: أنَّ ذلك أحد الأسباب الرئيسية والوسائط الأساسية التي استعان بها الوباء في بسط نفوذه على الكثير من المناطق الجغرافية التي لم تخلو عادة من استقرار سياسي وهو ما يؤدي إلى وجود حركات عسكرية تنتج بدورها حالات تفشي جديدة للأوبئة وتحمل على توسيع امتداد ورقعتها

[1] - B.O.A : AE. SAMD.III.Dosya N°76.Gömlek N°5019. Tarih 1147.R.25 Belg 02.
[2] - Joseph von Hammer : a.g.e, C 5. s527.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP 314-315.
[4] - Walsin Esterhazy : op.cit., P175
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.
[6] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P21.

الجغرافية، كما تعمل بشكل غير واعي على إطالة عمر هذه الأزمات الصحية. وبالتالي تصبح الجيوش أشبه ما تكون بخلايا وبائية نشطة ومتحركة.

وإذا قد ظهر لنا جواب ما جنح إليه من عمل الجيوش في تأجيج الأوبئة فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا فنقول أنَّنا ما سقنا المثال السَّالف إلَّا لندلِّل به على أنّ حركة الجيوش عامة وميليشيا الباي "يوسف بن مصطفى بوشلاغم" خاصة يد قوية في نقل الوباء من الغرب الجزائري إلى بيلك التيطري ومنه إلى دار السُّلطان ولعلَّ هذا ما تجزم به الملاحظة.

فيورد "مارشيكا" أنَّ هذه سنة (1738م) عرفت "بعام الوبا"[1]، وهو ما يشعرنا بأنّ هذا الوباء لم يكن كسابقه بل كان فعلا وباءً شديدا، تستقرّ بعض الجيوب الوبائية في الجزائر نتيجة هذا الوباء لمدَّة تمتد إلى ثلاث سنوات تقريبا، ولعلّ هذا الوباء هو نفسه الذي انتقل في مرحلة أخرى مِن بيلك الغرب الجزائري إلى المغرب الأقصى.

وباء 1740

بعد هذا الوباء ستعرف المنطقة ككل وليس إيالة الجزائر فقط أحد أكبر وأشد الأوبئة التي اجتاحت الجزائر خلال النِّصف الأوَّل مِن القرن الثامن عشر، وهذا الوباء حسب ما يذكره صاحب مخطوط "بيان ملوك الجزائر" يحتمل أن يكون قد اجتاح مدينة الجزائر عام (1740م/1153هـ)[2]، ويذكر تقرير أورده القنصل الفرنسي في الجزائر السيد (Taitbout) تفشي الطاعون بإيالة الجزائر وصفه بالشَّديد خلال سنة (1153هـ/1740م) [3] يستمر نشاط هذا الوباء لمدَّة ثلاث سنوات بشكل متقطع[4] يخبو فيها في فصل الصيف ويسترجع نشاطه أثناء الخريف من جديد.

أما فيما تعلَّق بضبط تاريخ ظهوره الفعلي، فترى الباحثة "فلة موساوي" أنّ هذا الوباء قد انتشر فعليا في الجزائر بداية مِن شهر (مارس 1740م)[5]، فيما يذهب غيرها إلى الاعتقاد بأنّ هذا الوباء قد ظهر حقيقة في شهر جوان من سنة (1153هـ/1740م) كما ذهب إلى ذلك "غيون"[6]، وهو نفس ما نقله

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P78.

[2] – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم(1624).

[3]- H.-D. DE Grammont : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P221.

[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.

[5] – فلة موساوي: الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، ص 73.

[6] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

"مارشيكا"[1] ولعلّهم في هذا يستأنسون بما يورده الأب "بيير فاروكس" والذي تحدَّث عن معلومة مفادها أنَّ هذا الوباء قد ولج الجزائر بداية من شهر جوان سنة (1740م)[2].

لكن نعد الرّأي الثاني غريبا بعض الشيء، أو أنّ الأمر لا يعدو إلاَّ أن يكون حالة استثنائية تميّز بها هذا الوباء، إذ مِن المعلوم أنّ الحرارة كانت أحد العوامل الرئيسية في إبطاء سرعة انتشار الوباء، بل وفي بعض الأحيان القضاء على الطفيليات والأرومات المختلفة، لذا نعتقد أنَّ الوباء سنة (1740م) إما أنّه كان قد ظهر فعلا في شهر مارس مع بداية فصل الربيع مثلما ذهبت إلى ذلك "فلة موساوي"، أو أنَّه خلال ظهوره في بداية فصل الصيف ظل على نطاق ضيق وكانت درجة الحرارة لطيفة فعلا استطاعت خلالها الأرومة الوبائية الانتقال من طرف لآخر، ليستأنف رحلته نحو حصد عدد أكبر من الضحايا بداية من خريف نفس السنة (1740م).

كما نقف على اختلف حول كيفية دخوله إلى الإيالة، فهناك من رجَّح فرضية دخول الوباء إلى الإيالة بواسطة سفينة قادمة من أحد الموانئ المتواجدة في الإسكندرية[3]، وهو ما نقف عليه فعلا في إحدى الإشارات العرضية ضمن المراسلات القنصلية الفرنسية الموجودة بأرشيف وزارة الخارجية والمؤرخة بـ(12/ماي1740م) تشير هذه الوثيقة إلى وفود السفينة (Sainte Barbe) بقيادة القبطان (Honoré Lyon) من مدينة الإسكندرية وهي مصابة فعلا بالطاعون[4]، وتسند هذه الفكرة إشارة أخرى نقف عليه في رسالة ثانية مؤرخة بتاريخ (12/ ماي 1740م) يرد فيها ذكر دخول سفينة قادمة من الإسكندرية على متنها ركاب يُشتَبه في إصابة عدد منهم بالطّاعون إذ توفي بالفعل أحد ركابها قبل الرُّسو بالميناء[5]. وهو نفس ما ذكره الأب بيير "فاروكس" الذي أكدَّ على أنّ سفينة فرنسية وافدة مِن الإسكندرية قد دخلت ميناء الجزائر في شهر جوان من سنة (1740م)[6] وقد سعى قبطانها مباشرة عند رسوها إلى الاتصال بنائب القنصل الفرنسي بالمدينة لتحذيره من إصابتها بالوباء حتى تتخذ الإجراءات اللازمة لذلك، غير أنَّ الغريب في الأمر أنّه لا الوثيقتان الأرشيفيتان التي سبق الحديث عنهما ولا مذكرات الأب "بيير فاروكس" قد ذكرت أي نوع من الإجراءات كانت السلطات قد اتخذتها لمنع تسرب هذا الوباء إلى الجزائر.

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P78.
[2] - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 31.
[3]- H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes: F° 264-265. 27/05/1740.
[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 266-271. 08/06/1740.
[6] - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 31.

إضافة إلى ما سبق من مصادر يذكر "غيون" في تتبعه للأوبئة في شمال إفريقيا أنَّ هذا الوباء قد دخل الإيالة بالفعل عن طريق سفينة فرنسية[1]، فيما ينقل "مارشيكا" رؤية مغايرة ترى بأنّه قدِم عبر البّر من بيلك الغرب الجزائري، وينقل في نفس الفقرة بأنّه يوجد من يعيد أصله إلى سفينة فرنسية قَدِمت إلى الجزائر في (جوان/يونيو1740) من مصر[2]. وهو الأمر الذي جزمت به مجموعة من الوثائق الأرشيفية والمذكرات التي سبق لنا ذكرها.

فإن تقرر ما سبق عدنا للحديث عن قوة وشدة هذا الوباء، إذ قد تناقل أثره الكبير مِن أوّل أسبوع تفشى فيه الوباء داخل المدينة، فكان أوّل ضحاياه ذلك العامل البسيط الذي بدأ في نقل المتاع الموجود في السفينة إلى أصحابها، لينتقل الوباء بشكل سريع وشديد إلى معظم الأحياء الموجودة بالمدينة[3].

فتنُقل بعض الأرشيفات الفرنسية أنّ عدد الضحايا كان يبلغ ما متوسطه ما بين (100-103) ضحية في اليوم[4]، بينما يذكر القنصل الفرنسي في الجزائر السيد "تاتبو" أنَّ هذا الوباء كان يحصد في اليوم الواحد قرابة المائتين ضحية على الأقل[5]، ويرى الأب "بيير فارو" (Faroux) أنّ الوباء كان له مِن الشدّة ما يقضي بها على قرابة الألف ضحية في أسبوعه الأول، ثمَّ يستمر في الفتك بعدد الضحايا يتأرجح ما بين (100-400) ضحية يوميا خلال الشهر الأوّل[6]، وهو تقريبا نفس ما ذهب إليه "بيربروجر" إذ يرى أنَّ عدد ضحايا وباء (1740م) كان في حدود (400 ضحية/يوميا)[7]، فيما يرى "دي غرامونت" أنّ هذا الوباء عندما بدأ يقلّ أثره أضحى يستحوذ يوميا على ما بين (200-400) ضحية[8]، وهو نفس الأمر الذي نقله "غيون" ونقله عن الأخير "مارشيكا"[9]، ونجد أنَّ الأب "أندري فرنسوا" يتحدَّث عن رقم قريب من هذا الرقم من خلال ملاحظاته التي دونها أثناء وجوده في مدينة الجزائر خلال شهر جويلية، كما يتحدَّث أيضاً عن رقم قوامه ستين ألف ضحية في مدينة الجزائر وحدها[10].

كما تحدَّث أحد ضحايا هذا الوباء أقصد الأب "بيير فارو" عن الأعداد الضخمة مِن الأسرى المسيحيين الذين ضاق بهم المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر سنة (1740م) نتيجة هذا الوباء، حتَّى أضحى المستشفى مكانا لتجميع جثث الموتى فقط، إذ لم يستطع بالرغم ممّا كان يقدِّمه إلاّ أن يصبح

---

1 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P315.
2 - Jean Marchika :op.cit., P78.
3 - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.
4 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P315.
5 - H.-D. DE Grammont : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P221.
6 - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.
7 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.
8 - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.
9 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P316 - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P78.
10 - Adrien François Poissant : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 64.

شاهدا يَعُدُ الضحايا كلَّ يومٍ[1]، ولعلنا نستنبط من ملاحظاته أمر في غاية الأهمية وهو تحول المستشفى من مؤسسة استشفائية إلى مؤسسة لحصر الجثث وهذا إنَّما يعود بنا مرَّة أخرى للحديث عن نظرية المؤسسات الاستشفائية كأحد روابط نقل الأوبئة بين المرضى خلال تلك المرحلة الزمنية، وهو ما تؤكده عليه بعض الدراسات الملاحظة للشَّأن الصِحي خلال تلك المدَّة الزمنية[2].

على العموم فإن غلبة الظّن تحيلنا إلى أنّ هذه الأرقام في الأخير هي أرقام تتكامل فيما بينها في غياب المصادر الرسمية أو المحلية، وهي انعكاسٌ فعليٌّ لشدَّة هذا الوباء والقوَّة الكبيرة التي شرع بها، ولعل ما سيق من أرقام تنتقل ما بين الألف إلى الأربع مائة إلى المائة ضحية هي في الحقيقة تعبير عن حالة التَّفشي والانحصار التي يعرفها كلَّ وباء.

في الأخير فإنّ الحديث عن رقم (400) ضحية يوميا الذي ساقه "بير بروجر"[3] يعد بالفعل رقم كبيراً، خاصة إذا افترضنا أنّ الانطلاقة الحقيقة لهذا الوباء كانت مع وفود السفينة الفرنسية (Sainte Barbe) في النِّصف الأوّل مِن شهر ماي (1740م)[4] وظل بنفس الحدّة إلى غاية منتصف شهر (أوت/أغسطس) بعدها أصبح عدد الضحايا يوميا قريبا من 21 ضحية يومياً[5]، وهو ما يحيلنا إلى ثلاثة أشهر على الأقل أي (90) يوما، وبالتالي فالقيام بعملية حسابية بسيطة بحسب المعطيات التي توفرها المصادر المختلفة تقودنا إلى رقم كبير لمتوسط عدد الضحايا لا يقل عن (400) ضحية/يوميا، فلو افترضنا ذلك لتحصَّلنا على رقم ضحايا بالشكل التالي:(400×90) أي (36.000) وهو رقم كبير جدا قد يبلغ عُشر سكان المدينة حينئذ، وهو على كبره لا يكاد يقارن بالرقم الذي أورده الأب "أرنيست فرونسوا" الذي تحدّث عن ستين ألف[6]، أو "مارشيكا" في أطروحته والذي قرَّر أنَّ عدد ضحايا هذا الوباء ناهز السَّبعين ألفا[7].

وإذ قد أتينا على ذكر هذه المعطيات والأرقام التخمينية فهو من باب التأكيد على الأثر الكبير الذي تركه هذا الوباء على المجال التداولي الذي قيّد فيه خبر هذا الوباء، فنحن سنقف على ارتداداته في المخيال العام للآباء الذي شهدوه وقيَّدوا أثره في كتاباتهم حتَّى بعد عقد كامل مِن مُضيه فنجد الأب (Aarnolt Bossu) بعد اثنتا عشرة سنة يعود ليرسم ذكراه بصورته العنيفة[8].

---

[1] - Pierre Faroux : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.
[2] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P23.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 264-265. 27/05/1740.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P87.
[6] - Adrien François Poissant : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 64.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P87.
[8] - Arnoult Bossu : op.cit, M.C.M, P229.

أمَّا نحن فنعتقد أنَّ متوسط الضحايا يوميا كان فعلا كبيرا، لكن ليس بالمعطيات المقدَّمة، بل نتوقع أنه يكون قد استقر عند قرابة (250) ضحية يوميا أي ما نجم عنه (30.000) وذلك لعدَّة اعتبارات منها على سبيل المثال: أنّ تلك الفترة مِن السَّنة تعرف ارتفاعا كبيرا لدرجة الحرارة ما يؤدي إلى التَّقليل مِن حركة الأرومات المختلفة، وتراجع تأثير الوباء هو ما نقف عليه فعلا في مراسلة من السيد Janville) إلى غرفة التجارة بمرسيليا بتاريخ شهر(أوت/أغسطس) مِن سنة (1740م) يخبرهم فيها ببداية تراجع أثر هذا الوباء[1].

لهذا فما وجد من أرقام هنا فلا يمكننا الجزم بصحتها كما لا يتأتى لنا إغفالها، لكن ما يمكننا فعلا القيام به هو مقاربة هذه الأرقام وفق المعطيات المختلفة للوصول إلى النتائج الكلية أو النتائج الأقرب إلى الصحة والأكثر واقعية، أي أنّ هذه الأرقام مع تباينها توضّح بما لا يدع مجالاً للشّك أنّ بداية هذا الوباء كانت قوية وحاسمة بشكل كبير.

وهو ما يحيلنا إلى استنتاج آخر، وهو أنَّ بداية كهذه لنشاط وبائي ما يعني ضمنيا أنَّه دخل متلبسا ضمن مجموعة كبيرة من النّاس، ولم يصب به في البداية عدد محدود فقط مثلما قد يُتوهم، فلو افترضنا أنَّه دخل بإصابة شخصين أو ثلاثة أو أربعة لكان انتقال العدوى يحتاج إلى نشاط كبير من هؤلاء النَّفر ولمدة زمنية طويلة حتى يستطيع أن ينتقل عبر الاحتكاك من شخص لآخر، لكننا نعلم أنّ المصابين لديهم ما بين (أربعة وستة أيام) للعيش في دور حاضن الوباء، وفي السَّتة أيام هذه أو الأربعة أيام لابد وأنَّهم سيمكثون يومين على الأقل معتزلين النّاس في بيوتهم بسبب تطور الوباء، وهذا يعني أنَّ فترة تحركهم ومجال احتكاكهم لن يكون إلاّ ضمن يومين أو ثلاثة على الأكثر، ولن يكون احتكاكهم خلال هذه الفترة بتلك القوَّة التي يحدثها مثل هذا الوباء، لذا يمكننا أن نتوقَّع أن مثل هكذا أوبئة في شدّتها غالبا ما تكون ضمن أفواج الحجَّاج أو القوافل التجارية الداخلية أو قد تحملها بعض المحلات والفرق العسكرية عند تحصيلها الضرائب أو ما شابه ذلك نتيجة.

تجدد الوباء مرة أخرى سنة (1741م)

يتجدَّد وباء السنة الماضية مرَّة أخرى في صورة ثانية في الأشهر الأولى من هذه السنة (1153هـ/1741م) إذ تورد رسالة أخرى من السيد "جونفيل" -القنصل الفرنسي في الجزائر- إلى السلطات بلده في مدينة مرسيليا بتاريخ (1741/01/04م) أنّ الوباء بالرغم مِن انحصاره لايزال

---

[1] - Lettres de M. de Jonville a MM. Les évhevins et députes du commerce de Marseille, Alger le 24/08/1740, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P141,

موجودا[1]، وظلَّ منذ السَّنة الماضية في بعض الجيوب الوبائية في مدن: كقسنطينة ومستغانم، ثمّ إنّ العلاقة التجارية الدائمة بين هذه المدن و عاصمة الإيالة "مدينة الجزائر" قد أدى دون ريب إلى تجديد نشاط الوباء في هذه المدينة أيضا بداية من منتصف الشهر الثاني[2]، وتشير مراسلة أخرى في وثائق أرشيف وزارة الخارجية إلى تواجد الوباء أيضا في مدينة تلمسان بداية من الشهر الأول لهذه السنة[3]، فيما يذكر الأب "أدريان فرنسوا" أنَّ الوباء قد تجدَّد ظهوره بداية من شهر أفريل من سنة (1741م)، وأضحى يُحصِي حسب قوله ما بين (20-15) ضحية في اليوم[4]، وهو ما نقله أيضا "مارشيكا" في أطروحته، إذ تحدَّث عن تجدُّد الوباء في هذا بداية شهر أفريل وبمتوسط ضحايا قدَّره بما بين(20-15) ضحية يوميا[5]، ونجد أنّ هذا المتوسط من عدد الضحايا كان مستمراً خلال الشهرين التاليين أي خلال شهري (ماي-جوان)، إذ حسب ما يورده الأب غابريال (Chaires Marie Gabriel) -في المذكرات الجماعية للرهبان الأوروبيين في الجزائر خلال تلك المرحلة- أنّ عدد ضحايا هذا الوباء كان تقريبا نفس عدد الضحايا في شهر ماي الماضي وهو في حدود (20-15) ضحية يوميا[6]. فيما يرتفع عدد الضحايا حسب بعض المراسلات إلى خمسين ضحية يوميا مع تقدُّم الشُّهور[7].

كما يمكن أن نؤكد تواجد الوباء في الجزائر خلال شهر جوان وجويلية على الأقل من خلال ما نقف عليه من إشارات إلى قيام السُّلطات الفرنسية في الموانئ الفرنسية بإيقاف إحدى السفن الوافدة من الجزائر بتاريخ (18/جوان 1741م) وذلك لوجود ثلاث أفراد سقطوا ضحايا نتيجة الطَّاعون الذي كان موجودا في الجزائر كانوا على متن هذه السفينة[8]، كما ذكر (Ernest Mercier) بأنّ وباء ألمّ بقسنطينة فجعلها تعاني مرتين؛ لأنّه تزامن والمواجهات التي كانت تحدث بين قبائل النمامشة وغيرها[9]، وهو بهذا يشير إلى الوباء الذي نتحدَّث عنه هنا.

---

[1] - Lettres de M. de Jonville a MM. Les évhevins et députes du commerce de Marseille, Alger le 04/01/1741, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P143,
[2] - Jean Marchika :op.cit., P87.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 279-282. 19/01/1741.
[4] - Adrien François Poissant : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 97.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P88.
[6] - Charies Marie Gabriel : mémoires de la congrégation de la mission P109.
[7] - Lettres de M. Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Correspondance des consuls d'Alger, Anne 1741, P266-267,
[8] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P316.
[9] - Ernest Mercier : op.cit., P 258.

مثلما نجد في إحدى المراسلات الرسمية الصَّادرة من القنصلية الفرنسية في الجزائر في النِّصف الثاني مِن شهر جويلية إشارة صريحة إلى الضَّرر الكبير الذي أحدثه هذا الوباء في كلّ مِن مدينتي قسنطينة وتلمسان[1].

ويمكن أن يكون هذا الوباء هو "التيفوس" إذ أنَّ تتبعنا للبؤر الأولى التي تحدَّثت المصادر عنها يسوقنا إلى السُّجون، وهو ما يفسر التعليمات التي أوردتها الكنيسة للرهبان خلال تلك السنة والتي على رأسها : «جواز ترك القيام بالقدَّاس في السجون في حالة الالتباس بوجود الطاعون في السجن، وهذا من أجل الحفاظ على أنفسهم من خطر الاحتكاك بالمصابين من المساجين خاصة وأنه قلَّما يدرك العبيد والأسرى إصابتهم بالوباء»[2] وفي قراءة استنباطية لما هو مضمن داخل هذه الوثيقة نجد أنّ التعليمة تحوي على تحذير ضمني مِن الاحتكاك بالمساجين؛ لانتشار الوباء بينهم.

فإن تحقق هذا أضحى هذا السجن غيره أحد المراكز الأساسية التي ظهر فيها الوباء، وقد سبق القول أنَّ مِن أهم الأماكن التي يشغلها وباء التيفوس (typhus) الأسواق والسُّجون وأماكن تجمع الفقراء إذ يجد فيها مرتعا جيدا له؛ لما يوجد بها من عوامل تساعده على التَّطور والانتشار بشكل أكبر[3]، وتتبع بعض الأعراض التي أوردتها المصادر خلال تلك الفترة تدعم هذا الأمر بشكل أكبر.

وممّا سبق يتَّضح لنا جليا بأنّ الطَّاعون قد تجدّد العهد به، واستقرَّ به المقام في مدينة الجزائر لمدة ستة أشهر على الأقل؛ إذ نجد أن المصادر تتحدّث عن انطلاقته في بداية السنة وتدلنا قرينة السفينة السالف ذكرها أنَّه لم يتوقف خلال تلك المرحلة على الأقل بل ونجده أيضا في شهر جوان في مدينة عنابة حسب مراسلة من وكيل الشركة الإفريقية في مدينة عنابة إلى أحد الأشخاص المقيمين بتونس يشرح له صعوبة دخول السفن الفرنسية إلى موانئ الإيالة لسببين: أحدهما الاضطرابات السياسية في مدينة الجزائر، والثاني: الضربات القاسية للوباء التي لم تنقطع بعد[4]، هذه المراسلة مؤرخة في بداية الشهر السَّادس ما يثبت فعلا بقاء الوباء في المدن الكبرى كعنابة.

مثلما أنَّ هذا الوباء كان سببا مباشرا حسب ما تورده إحدى التَّقارير الموجودة بالأرشيف الفرنسي التي تتحدث عن إلغاء حملة كان من المزمع القيام بها لتأديب بايات تونس خلال شهر ماي وكان من المخطط لها أن يقودها "باي قسنطينة" حينها لكن الأوضاع الصَّحية المتدهورة في المدينة وظهور الوباء بها

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 285-286. 17/07/1741.
[2] - Poirier Dubourg : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 110.
[3] - Baillière Georges Jean-Baptiste : op.cit., P53.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes: F° 298-299. 04/jun/1741.

جعل القيام بالأمر مخاطرة لا فائدة منها، وهذه قرينة ثانية على تواجد الوباء في قسنطينة وأحوازها خلال شهر ماي من هذه السنة أيضا[1].

يستمر الوباء في الجزائر إلى نهاية السنة تقريبا لكن على مراحل، إذ توضح مراسلة قنصلية ثانية أنَّه بداية من النِّصف الثاني لشَّهر(أوت/أغسطس) يبدأ الوباء في الانحصار حتى لا يكاد يُرى له ضحايا إلاّ حالات نادرة[2]، وهذا عكس ما ذهب إليه "الأب أدريان فرنسوا" والذي تحدّث عن اشتداد أثر الوباء في شهر (أوت/أغسطس) وهذا بما لاحظه مِن ازدياد عدد الضحايا والمرضى في المستشفى الأوربي للأسرى في مدينة الجزائر[3]، وإن كنا نعتقد حقيقة أنَّ شدَّة الوباء خلال شهريْ (أوت) و(سبتمبر) قد تراجعت إلى حد ما؛ وهذا راجع لا محالة إلى الارتفاع الكبير في درجة الحرارة الذي تشهد المدينة خلال تلك المرحلة من السنة، لكن هذا لم يمنع الوباء مِن أنْ يتجدّد مرّة أخرى وإن كان بشكل محتشم في النِّصف الثاني مِن شهر (سبتمبر) ويرتفع عدد الضحايا مرَّة أخرى وبشكل أكبر في نهاية شهر أكتوبر[4].

فيما تشير رسالة قنصلية فرنسية إلى انتهاء الوباء في النِّصف الثاني من شهر (سبتمبر)[5]، مثلما أورد الأب "أدريان فرونسوا" في تقريره إلى أنَّ الوباء يعود لينحصر في شهر (أكتوبر) بشكل يترك الفرح والسرور في المجتمع[6]

وهو لا يمثل أي تناقض في رأينا إذ أنَّ إمكانية أن يكون الحُكم عام بانقضاء الوباء لا يعني بأن ينعدم ضحاياه تماما في مكان آخر، وإنّما في الحقيقة وبشكل علمي يمكننا أن نستخدم في هذه الحالة مصطلح "الانحصار الوبائي" لأنّه يعبِّر فعلا عما كان يحدث مع الأزمات الصحية التي تتسبب بها الأوبئة، ويكون هذا الانحصار على مستويات متباينة: إما "انحصار تام" وفي هذه الحالة نصبح نتحدّث عن انقضاء النشاط الوبائي في جل أرجاء الإيالة وإما انحصار جزئي ويكون في منطقة محددة في الإيالة، أو انحصار جزئي في مكان ما تحديدا داخل الإيالة مع بقاء بُؤر وبائية نشطة أو متجدِّدة في أماكن أخرى.

عودة الجيوب الوبائية للظهور مرة أخرى سنة(1742م) :

مرَّ بنا فيما سبق التقرير الذي أورده السيد "تاتبو" والذي تحدّث فيه عن كون وباء سنة (1153هـ/1741م) بقي يستدعي جيوبه الوبائية للنشاط على امتداد ثلاث سنوات كاملة[1]، لكنه لم

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 294-295. 24/05/1741.
[2] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P158,
[3] - Adrien François Poissant : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 97.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P90.
[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 307-308. 20/09/1741.
[6] - Adrien François Poissant : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 98.

يتحدّث عن سير الوباء وتفشيه من مكان لآخر، كان يقضي يوميا على ما بين (40-50) شخصا حسب رسالة أُرسِلت إلى الغرفة التجارية بمرسيليا[2]، لكن غالبا ما تكون حدَّة وباء (1153هـ/1740م) قد خفت بعد الانطلاقة القوية، إذ يذكر السيد "جونفيل" في مراسلاته مع مسؤولي الغرفة التجارية الفرنسية بأنَّ حدّة الوباء كانت في تراجع مستمر[3]، حتَّى أنَّه يكاد ينقضي تماما في الفترة الصيفية؛ إذ لم يُسجَّل أي ملاحظة لسقوط وفيات بسبب الطَّاعون طيلة خمسة عشر يوما الأخيرة مِن شهر أوت[4].

مثلما تقابلنا إشارة إلى هذا الوباء في هذه السنة بطريقة غير مباشرة في أوَّل رسالة قنصلية مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى سلطات بلدها، بحيث نقف على الإشارة إلى رسالة قُيِّدت في شهر جانفي من سنة (1154هـ/1742م) يشير فيها السيد "جونفيل" إلى بقاء بعض الجيوب الوبائية التي ظهرت السنة الماضية (1741م) على نطاقات ضيقة[5]، مثلما تورد رسالة أخرى مِن القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر مؤرخة بآخر شهر جانفي من سنة (1742م) ما مفاده بأنّ الوباء قد كان موجودا في جهة "تلمسان" لكنَّه ظل إلى نهاية الشهر على نطاق ضيق وتأثيره لازال ضعيفاً[6]، وهو نفس ما تقرُّه رسالة أخرى مِن نفس القنصل في الفتاح من شهر فيفري يصف فيها الوضع في إيالة الجزائر بقوله: «..إنَّ الأوضاع الصَّحية هنا جيدة جدا، لكن الوضع مغاير في منطقة "تلمسان" والمناطق المحيطة بها...إذ بقي بعض النَّشاط الطَّاعوني ...»[7]

كما يذكر الأب "فرانسوا بايسانت" بأنّ مرحلة الهدوء لم تدم طويلا إذ سرعان ما تكرَّر ظهور الطَّاعون في مدينة الجزائر[8]، كما تشير إحدى الرسائل الصَّادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر مؤرخة بالسَّادس عشر من شهر (ماي/1742م) أرسلها القنصل "جونفيل" إلى السيد (Maurepas) مفادها

---

[1] - Notice sur le Consulat de M.Taitbout et l'intérim de M. De Jouville, dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), Grammont: P221.
[2] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P256.
[3] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P252.
[4]- Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P269.
[5] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P254.
[6] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P282.
[7] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), H.-D. DE Grammont, P284.
[8] - François Paissant : Mémoires de la congrégation de la mission P103.

: «أنّ أحد السفن الفرنسية قد ظلت عالقة في ميناء مدينة الجزائر ولم تستطع الدخول؛ خوفا من الوباء الذي توطَّن بالمدينة خلال تلك المرحلة»[1].

وقد وصل عدد الضحايا حسب ما ينقله "غيون" خلال هذا الوباء متوسط ما بين (20-24) ضحية يوميا في الأسبوع الأول من شهر جوان[2]، ليصل في منتصف الشهر إلى متوسط (40-30) ضحية في يوميا[3].

في نفس الفترة أي بعد مُضي حوالي سبعة أشهر من الرِّسالة الأولى التي أرسلها القنصل "جونفيل" مِن الجزائر إلى فرنسا نقف على رسالة ثانية من نفس القنصل مؤرخة بـ (1742/07/10) تفيد بدورها بأنّ الوباء ظل موجودا إلاّ أنّ تأثيره كان ضعيفا[4].

وقد يتولد عما سبق الاعتقاد أنَّ هذا الوباء كان بالفعل ضعيفا ولا أثر له، فيما إذا تتبعنا رسائل أرشيفية أخرى سنجد أنَّ لهذا الوباء أثر بارز، فنقف أولا على رسالة قنصلية تورد أنَّ المتوسط اليومي للضحايا نتيجة لهذا الوباء كان لا يقل عن تسعة وعشرين ضحية يوميا (29) وهذا خلال الأسبوع الأول لشهر جوان من سنة (1742م)[5]، وتتحدَّث رسالة أخرى عن نفس العدد تقريبا في المنتصف مِن شهر جوان أيضا، فتورد هذه الرسالة أنّ متوسط عدد الضحايا نتيجة هذا الوباء كانت في حدود (24-20) ضحية يوميا[6] أي: خلال الأسبوع الثاني مِن شهر جوان.

ليبدأ الوباء في الانحصار فعليا بداية مِن شهر (أوت/أغسطس) وينقضي تماما حسب ما يورده "غيون" في نهاية الشَّهر، مُستنِداً فيما قرَّره إلى رسالة موجودة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية[7]، بينما نقف على وثيقة أرشيفية أخرى تقرر أن انتهاء الوباء فعليا كان في الثالث من شهر سبتمبر من السنة نفسها[8].

فإن تقرَّر ما سبق أمكننا التَّحدُّث عن أمرين اثنين: إمّا أنّ هذا الوباء لم يكن بتلك الشدّة التي تستدعي الإشارة إليه والتَّأكيد على التَّفاصيل الخاصة بعدد الضحايا الذين أسقطهم، أو أنّه بقي طيلة فترة

---

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes: F° 20-22. 16/05/1742.
[2] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P319.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P91.
[4] - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P224,
[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 37-38. 05/juin/1742.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 45-49. 16/juin/1742.
[7] - Lettres du consul de France à Alger, dans les Archives du ministère des Affaires étrangères dans Guyon, P319.
[8] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes: F° 68-69. 03/sep/1742.

زمنية على نطاق ضيّقٍ في المدن الداخلية أو البعيدة عن دار السلطان فلم يُتح بسبب ذلك للجميع أن يلاحظ انعكاساته الحقيقية خاصة منها الديموغرافية على السُّكان.

وباء (1743م)

اختلف في هذا الوباء هل هو مستورد كما جرت العادة مِن خارج الإيالة، أم أنَّه مجرد وباء تكراري؟ استدعى جيوبه الوبائية النائمة، حسبما تذكره رسالة ضمن الوثائق الأرشيفية الخاص بالقنصل الفرنسي الجديد في الجزائر السيد تومسون (Thomas) فإنّ هذا الوباء قد دخل إلى الجزائر في سفينة وافدة من الإسكندرية في الثالث مِن شهر جويلية (1743م) كان يقودها القبطان جان جايسمن (Jean Jeanseaume) وغالب الظَّن أنَّ هذه السفينة كانت مصابة بالوباء[1] فكانت السَّفينة –حسب هذه الرؤية– السبب الرئيس في انتقال العدوى مرة أخرى مِن مصر إلى الجزائر، بينما يرى "غيون" أن الوباء قد عاد للظهور مرَّة ثالثة بعد مرحلة الانكماش في بداية سنة (1156هـ/1743م) إذ لم يكن يحصد يوميا أكثر من (10-12) ضحية[2]، ونقف أيضا على دليل آخر في إشارة "ابن حمادوش" في رحلته" لسان المقال" إلى وجود الوباء في الجزائر خلال نفس السنة بقوله بأنّهم في طريق عودتهم من حجّهم: «...بعد خروجهم مِن الجزائر بعشرة أيام توفي الحاج "عبد القادر" شهيداً؛ بالوباء...» وبهذا فهو يُقرُّ بوجود نشاط وبائي؛ الأمر الذي حمل ريس مرسى ميناء "جبل طارق" يقضي بعدم السّماح للسّفينة التي كانت تُقلُّ "ابن حمادوش" وغيره مِن المسافرين بدخول الميناء، بل أمرهم بالابتعاد عن المرسى مخافة نقل الوباء إلى داخله[3]، وهو ما حدث فعليا.

وتوجد إشارة أخرى لدى الأب "فرانسوا بايسانت" (François Paissant) المسؤول عن المستشفى الإسباني في مدينة الجزائر في شهر سبتمبر مِن نفس السنة، تتحدَّث عن وجود إحدى الحالات –في المستشفى الذي يشرف الأب فرنسوا عليه– لأحد الأسرى الإسبان[4] يظهر عليها نوع مِن المرض والإجهاد الذي قد يكون نتيجة إصابة خفيَّة بالطَّاعون.

ويذكر "مارشيكا" نقلا عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بأنَّ عدد الضحايا في شهر جويلية من سنة (1743م) كان يتراوح ما بين (10-12) يوميا[5]، وقد توسع المجال الجغرافي لهذا الوباء فنجده يمتدّ

---

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 139-142. 17/07/1743.
[2] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P319.
[3] – عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري: المصدر السابق، ص 30.
[4] - François Paissant : mémoires de la congrégation de la mission P171.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P92.

إلى بيلك الغرب الجزائري، ويظل مُستمراً إلى غاية الأسبوع الأوّل مِن شهر أغسطس على الأقل حسب ما توردە إحدى الوثائق الأرشيفية[1]، لكنّنا نعتقد أنّ التأثير العام لهذا الوباء ظلّ مَحصوراً على نطاق ضيق.

كما تذكر مجموعة من المصادر أنّ وباء سنة (1740م) هو نفسه استمرَّ إلى غاية (1743م) على الأقل، وأنّ هذا الوباء مع استمراريته لم يبق محصوراً في منطقة ما بعينها، وإنّما انتقل إلى أماكن عدَّة مثل مستغانم وتلمسان وقسنطينة، كما أنّ هذا الوباء حسب بعض المؤرخين أتى على عدد كبير جدا مِن الضحايا يصل حسب "بلفان" (Blavin) يصل إلى قرابة الستين ألفا كم سبق ذكره[2].

إلاّ أنّ تتبّع الإحصاءات التي كانت تُدلي بها المصادر والمراجع المختلفة التي سبق رصدها لا تحيلنا على هذا الرقم الكبير، وإنّما تشير إلى العكس من ذلك بحيث أنّ تأثير هذا الوباء خلال الفترة (1743م-1740م) كان ينحصرا دوما ويتقلّص عدد ضحاياه على مدار السنة إلى أن وصل حسب مدير الشركة الإفريقية في عنابة السيد "فوغاس" (M. Fougasse) إلى نهايته الفعلية في شهر سبتمبر مِن سنة (1743م)[3].

تجدد الوباء بعد هدوء سنتين (1745م)

يُقرُّ "مارشيكا" أنَّ هذا الوباء لم يتمَّ الحديث عنه في معظم المصادر التاريخية التي أرّخت للفترة المدروسة، وإنَّما وردت الإشارة إليه في أحد الكتابات المحلية، وذلك عند الحديث عن مراسلة كانت بين داي إيالة الجزائر وأحد البايات الذين يطالبون بضرورة إرسال المساعدات العسكرية له، غير أنَّ الداي اعتذر عن ذلك مُتحجِّجاً بسوء الأوضاع الصِّحية في مدينة الجزائر نتيجة الطَّاعون الذي كان يضربها[4]، وهو ما يُفهم بأنّه دليلٌ على وجود طاعون نشط خلال هذه المدَّة الزّمنية، وهو الأمر الذي لا يمكننا الجزم به في رأينا إلّا بوجود قرائن أخرى تؤكد على إمكانية تواجد وباء فعلي خلال هذه السنة. كما يمكن أن نحمل كلام الداي إن ثبت وجوده فعلا على أنَّه يتحدَّث عن نتائج الطَّاعون الذي تأكد وجوده قبل سنتين أي (1743م) وأن آثاره لتزال بارزة للداي.

هدوء مقطوع بطاعون (1749م)

بعد الإشارة السابقة عن وجود الطاعون لا نقف فيما بين أيدي من مصادر عن إشارات لظهور الطاعون خلال المرحلة الممتدة من ما بين (1745-1748م) لنجد أن أوَّل الإشارات المستجدة لظهور الوباء مرة جديدة هو ما نقله "بير بروجر" من أنَّ الوباء قد تجدَّد ظهوره مرة أخرى في الجزائر خلال سنة

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 149-150. 07/août/1743.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P92.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 155-160. 06/sep/1743.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P93.

(1162هـ/1749م)[1] أي في فترة حكم "إبراهيم بن محمّد باشا"، إلاّ أنّه اكتفى بهذا ولم يتحدَّث عن تأثيره أو قوته أو آثاره[2]، مثلما نقف في إحدى "مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية" على إشارة هامة لدخول الطّاعون إلى الجزائر، ويعبّر عن ذلك بقوله :«..عام (1163هـ) الثلث(كذا) وستين ومائة وألف جات الحبوبا....»[3] زمن "محمّد باشا" وقد ظلت المعلومات حول هذا الوباء قليلة وشحيحة جدا، لذا صرَّح "مارشيكا" بأنَّه يصعُب الحديث عن تفاصيل خاصة بهذا الوباء[4]، سواءً مِن ناحية الأماكن التي ضربها هذا الوباء أو من ناحية الأعداد التي قضى عليها من الضحايا أثناء زمن بروزه واضمحلاله.

لتعرف بعدها إيالة الجزائر عودة المناخ الصحي لها، إذ شهدت الجزائر نوعا مِن الاستراحة القصيرة في مواجهاتها المتكرِّرة مع الوباء، لذا عدَّت العديد مِن الدّراسات والمصادر المرحلة الزمنية المحصورة ما بين سنوات (1744م -1751م) فترة عافية وصحة جيدة، ولم تشهد فيه الجزائر طواعين مؤثرة على الأقل[5] في حين نقف على أنَّ الوباء قد أتى على عددٍ مِن الأماكن في إسطنبول والأناضول ومات به عدد من الأعلام المهمين[6] وذكر من هؤلاء على وجه التحديد الشاعر العثماني الكبير رحمي أفندي والقائد العسكري محمود باشا فيما اصطلح عليه اسم الطاعون الكبير في المصادر العثمانية[7].

عودة الوباء من جديد (1752م)

لم يتطرّق "بير بروجر" في مذكرته للحديث عن وجود أي وباء خلال هذه السنة، بينما نجد "دي غرامون" يتحدَّث على أنّ الجزائر قد شهِدت خلال سنة (1165هـ/1752-1753م) وباء شديداً، كان يحصد في الشَّهر الواحد ما يبلغ سبعمائة ضحية واستمرّ في ذلك لمدّة أربع سنوات كاملة[8]، في حين ينقل "مارشيكا" عن مؤلف مجهول قوله أنّ وباء (1752م) قد استمرّ في الإيالة لثلاث سنوات كاملة[9]، ويمكننا التّأكيد على وجود الوباء خلال هذه السنة مِن خلال ما نقف من وثائق أرشيفية مؤرَّخة بالثلاثين من شهر جوان سنة (1752م) تتحدَّث عن انتشار الوباء في مدينة الجزائر بشكل كبير[10]. مثلما نقف في مذكرات الرُّهبان الأوروبيين في الجزائر على ذكر لهذا الوباء، فنجد الأمر يتمثَّل في رسالة مؤرخة في الأوَّل مِن شهر

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P207.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P319.
[3] – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة [3] رقم (1624)
[4] - Jean Marchika :op.cit., P94.
[5] - Ibid. P93.
[6] - Joseph von Hammer : a.g.e, C 5. s318.
[7] - Şem'dani-zade fındıklılı Süleyman efendi : Mürat T-Tevârih, hazırlayın M.Münir Aktepe, Istanbul Edebiyat fakültesi matbaası, 1976, C 1, s156.
[8] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P306.
[9] - Jean Marchika :op.cit., P97.
[10] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 46-50. 30/06/1752.

جانفي سنة (1753م) « ...قيام عدد كبير مِن التُّجار في المدينة بغلق محلاتهم وسقوط عدد كبير من الموتى يوميا في الجزائر؛ بسبب الوباء الذي انتشر بالمدينة واستحكم بها...»[1] كما أوردت هذه المذكرات بعض المعطيات التي سنأتي على ذكرها وتحليلها فيما هو قادم.

إلاّ أنَّ "دي غرامونت" لم يُشر في كلامه إلى الشدَّة التي واصل بها الوباء حصده لضحاياه، فيما نقف في "مذكرات الرهبان والأباء الغربيين" المقيمين في المستشفى الإسباني في مدينة الجزائر على أنَّ هذا الوباء قد ظهر تقريبا في حدود شهر (ماي) مِن هذه السنة، وكان يأتي دوريا على ما بين (15-10) ضحية يوميا، لكن الأهالي والأسرى كانوا في ريبة مِن أمرهم، هل هو حقا الطّاعون؟ أم أنَّها مجموعة من الوفيات المتزامنة فقط ؟ ولم يتأكَّد هذا الأمر حسب "الأب باسو" (Arnoult Bossu) إلاَّ في الثالث مِن شهر (جوان) مِن نفس السنة، حينها فقط أدرك الجميع أنَّ الطاعون يتجدَّد مرة أخرى في مدينة الجزائر[2]، وهو نفس التاريخ الذي يرجحه "غيون" مُستنداً في ذلك على ما قال أنَّها وثائق أرشيفات لاليزارت[3].

ولا يتوقف الخلاف حيال هذا الوباء بين الباحثين حول تاريخ ظهوره بل يمتد إلى منبعه أو مصدره الأساسي، فنجد أنَّ "غيون" قد أشار أنّ مصدر هذا الوباء قوافل الحُجَّاج الوافدة من مكّة المكرَّمة[4]، فيما ينقل "مارشيكا" قولين: أحدهما أنَّ لهذا الوباء علاقة مباشرة بالوباء الذي كان قد شاع صيته في اسطنبول سنة قبل ذلك أي سنة (1751م)، وثانيهما أنّ الوباء قد وفد للجزائر عن طريق الجهة الغربية؛ إذ كان مُستقرّاً سنة قبل ذلك في مدينة طنجة المغربية[5]، وهو الأمر نفسه الذي ينقله بدوره "غيون" عن الأرشيفات الفرنسية لكن بدون ترجيح له[6].

استطاع هذا الوباء التغلغل إلى غاية الأماكن المختلفة، فنقف عليه يمتد إلى داخل السجون إذ جاء في بعض المصادر خبر وفاة أحد الأسرى الأوربيين في سجنه سنة (1752مأ) نتيجة للوباء[7].

وقد ألقى هذا الوباء بظلاله فعلا على المجتمع من خلال آلية حصد الأرواح التي برع فيها، إذ نقف على ما ينقله "راتيو مادينديي" (Ratio Medendi)[1] ناقلا إيَّاه مِن أحد المصادر المجهولة

---

[1] - Arnoult Bosssu : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P227.
[2] - Arnoult Bossu : op.cit, M.C.M, T3, P229.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P319.
[4] - ibid.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P95.
[6] - les Archives du lazaret de Marseille, dans Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P320.
[7] - Albert Devoux: releve des Principaux Françis qui ont réside a Alger (1686-1830), Anne 1872, N°16, P378.

المؤلف، والتي عايش صاحبها الوباء الذي شهدته الجزائر خلال تلك الفترة(1752-1753م) -لكنه بقي مجهولا أو فضل أن يبقى مجهولا- يصوِّر فيها الوضع الكارثي نتيجة الوباء الذي أصاب الجزائر خلال هذه السنة، فيرى أنّ الطّاعون قد أهلك حوالي ثُلث السُّكان ممَّن كانوا يقطنون البيوت المفتوحة على الهواء، بينما توفي قرابة الثُلثَان من المرضى الذين كانوا يقطنون المستشفى الإسباني في المدينة، وذلك بسبب الضيق والعدد الكبير للمرضى في المستشفى[2] وهذا مما يستدعي الوقوف عند هذا القول، فالحديث عن البيوت المفتوحة هو حديث لا مقصود عن نوع محدد من الأوبئة أو الطواعين وهو الطَّاعون الرئوي[3]، وقد سبق أن مر بنا بأنَّه أحد أنواع الطَّواعين التي تنتقل بشكل سريع ومؤثر عن طريق الهواء[4].

ومن ناحية المبدئية فإنّ بعض ما أورده هذا المصدر قد يكون فيه جزءٌ كبيرٌ من الحقيقة، إلاّ أنّ التَّسليم بسقوط ثُلث السُّكان يُعدُّ نوعاً مِن المبالغة غير المعقولة، فإن اعتبرنا عدد سكان مدينة الجزائر على أقل تقدير خلال تلك الفترة في حدود (200.000) فعدد من سقط في هذا الوباء قرابة خمسة وستون ألفا (65,000) وهو رقمٌ كبيرٌ جدّاً كما يتَّضح، إضافة إلى أنَّ القرائن لم تتحدّث عن هجمة بهذه الحدّة في هذا الوباء على الأقل. فنجد على سبيل المثال إشارة ضمنية داخل إحدى الوثائق الأرشيفية تتحدَّث عن متوسط سقوط معدله (50) ضحية يوميا خلال شهر جويلية مثلاً[5]، بالإضافة إلى مراسلة أرشيفية ثانية موجَّهة مِن الجزائر إلى المشرفين الصَّحيين بمدينة "مرسيليا" في شأن هذا عن هذا الوباء تتحدّث هذه المراسلة عن سقوط قرابة (40,000) أربعين ألف ضحية خلال هذا الوباء وترَّقب عودته في ربيع سنة (1753م)[6].

فلو أتينا لترجيح ما ذهب إليه صاحب هذا المصدر فيكون الترجيح مِن حيث كلامه على عدد الهلكى في صفوف المستشفى الإسباني، خاصة وأنّ العدد يمكن حصره وعدّهَ.

مثلما أوردت الأرشيفات الفرنسية لا زارت الخاصة بغرفة مارسيليا – les Archives du lazaret de Marseille مِن أحد الوكلاء الذين بالجزائر إلى الغرفة التجارية الفرنسية :«...بأنَّ هذا الوباء قد أسقط

---

1 – أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الطبية في جامعة فينا، ولد سنة (1704م)، اشتغل كثيرا على النظام العيادي والوبائي في الطب، فوضع منهاجا جديدا في هذا الشأن ضمن أعمال كاملة تتضمن مواضيع ووثائق مختلفة نشرت بداية من سنة (1757م) في فينا تحت عنوان (Ratio medendi in nosocomio practico) توفي سنة (1776م).

- Hugh James Rose: New general biographical dictionary, Vol VIII, Londan, 1848, P170.

2 - Jean Marchika :op.cit., P96,97.

3 – انظر الملاحق: ملحق رقم 2.

4 - Violle Henri Jules : La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, P4.

5 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 51-52. 21/07/1752.

6 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 87-94. 07/Déc/1752.

فعلا 4000 ضحية إلى الآن، وقد يشتدّ فتكه أكثر بالناس في فصل الربيع، وهو بدون ريب وباء وافد من طنجة المغربية، يتّجه بثبات ليغزو جميع التجمعات السُّكنية في ناحية الشرق الجزائري، وهو يحرز تقدُّماً كبيرا باتجاه بمدينة قسنطينة، كما سيصل حتما لإيالة تونس، وإن فعل ذلك فإنَّه سيلحق بها لا محالة أذى كبيرا..»[1] وكأنّ هذا الوباء لما وصل إلى الجزائر وجد المحيط المساعد له حتَّى يتطور بشكل أكبر وأسرع[2]، وحسبما جاء في أحد المراسلات الخاصة بالقنصلية الفرنسية في الجزائر فإنَّ هذا الوباء استمرَّ في نشاطه تقريبا إلى غاية الثامن مِن شهر أكتوبر (1752م)[3]، وهو نفس ما نقف عليه أيضا في موطن آخر يتحدَّث عن كون أنّ هذا النشاط الوبائي قد ظلَّ على حاله إلى غاية بداية شهر أكتوبر من سنة (1752م) بحيث أَعلَم المخبريين والأسرى المسيحيين في الجزائر الرُّهبان المسيحيين بذلك، وأضحى عدد الضحايا في هذه المرحلة (أكتوبر 1753م) لا يتجاوز خمسة إلى ستة أفراد في اليوم، بعدها يضمحل تماما، فلا نكاد نقف له على أي ذِكر لاحقا.

وإذا تحقق ما سبق وجب علينا أن نقول إن هذا الوباء هذه المرة ألحق بالإيالة أذى كبير، لكنه ليس منفصلا عن السَّنوات السَّابقة له، وهو وإن كان امتدادٌ للوباء الذي سبقه بسنة فهو أيضا في حقيقة الأمر بداية للوباء الذي سيكون بعده بوقت قصير، وهو وباء الذي ظهر سنة (1753م)

وباء سنة 1753م/1166هـ

هذا الوباء على غير العادة لم تغفله المراسلات أو الكتابات بل توقعت حدوثه، إذ نجد عدد مِن المراسلات بين القنصلية الفرنسية والجهات الصِّحية الفرنسية تتكلَّم عن تجدّد وباء سنة (1752م) هذه السنة أيضا، لذا فظهوره حسب هذه الوثائق كان مسألة وقت لا أكثر[4]، وتذهب بعض المصادر إلى أنَّ هذا الوباء هو تجلِّي وتجدُّد مستمر لوباء سنة (1750م) الماضي ذكره، وقد أعلن داي الجزائر في ربيع سنة (1753م) عن وجود الوباء في مدينة الجزائر[5] على غير العادة، لكنّه من جهة أخرى لم يعلن متحفظا عن الرقم الحقيقي الخاص بالخسائر في الأرواح ولعل ذلك خوفا مِن التأثير على التبادلات التجارية مع أوروبا[6] إذ كثيرا ما كان انتشار خبر تفشي الوباء في الإيالة يعني نقص أو تقلص الحركية التجارية بين الإيالة والممالك الأوروبية.

---

[1] - les Archives du lazaret de Marseille, dans Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P320.

[2] - Jean Marchika :op.cit., P96.

[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 61-63. 08/Oct/1752.

[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 105-108. 17/Fév./1753. Et les lettres des 6, 20 novembre 1752 et 8 janvier.

[5] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P228.

[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 123-129. 23 /Avr./1753.

ويتلكم "غيون" حيال أنّ هذا الوباء قد عمَّ جُلَّ سواحل الشّمال الإفريقي، وبالأخص في مدينة قسنطينة والأحواز المحيطة بها، وإن لم يقدِّم صورة عن شدَّة هذا الوباء، إذ اكتفى فقط بذكره عرضا مُشيراً إلى أنَّه قد يكونُ امتداداً للوباء الذي سبقه بسنة (1165هـ/1753م)[1].

كلا إنَّ توهُّم ما سبق ممَّا قد يُؤدي بنا إلى الحكم على هذا الوباء بأنَّه كان عارضا لا أكثر، لكن الحقائق التي نقف عليها في مواطن أخرى أرشيفية أو مذكرات لرحالة ومقيمين أوروبيين في الجزائر تفيد بغير ما سبق، إذ قد أوضحت مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر بتاريخ: (23/أفريل) مِن سنة (1753م) مفادها وقوع عدد كبير مِن الضحايا والخسائر الكبيرة نتيجة لهذا الوباء، فنجد هذه الوثيقة تتحدَّث عن (400) ضحية خلال شهر أفريل لوحده[2]، وإذا عرف هذا قلنا يمكن أن يكون هذا الوباء قد تجدّد فعليا مِن السَّنة الماضية ولعلّه (أي: وباء 1753م) كان أشدَّ ضراوةً مِن سابقه (أي: 1752م)، إذ تنقُل لنا بعض المراسلات القنصلية الفرنسية بأنّ عدد الضحايا كان ما بين (60-70ضحية/يوميا) خلال شهر جوان، فيما نقف في مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى الغرفة التِّجارية الفرنسية بمرسيليا على تقرير يحصي ما يقارب ألف وسبعمائة ضحية (1700) خلال شهر جوان لوحده[3].

ويدعم هذا الرأي بما ينقله "غيون" من مراسلة أرشيفية أخرى، تذكر أنّ عدد الضحايا خلال شهر(جوان/يونيو) مِن سنة (1753م) كان لا يقلُّ عن (1700) ضحية[4]، والرقم عينه ذكرته المذكرات الجماعية للآباء الرهبان المقيمين في مدينة الجزائر، إذ ذكرت أنّ بدايته كانت بعدد (400) ضحية في شهر أفريل، وانتهت خلال شهري (جوان وجويلية) إلى قرابة (1700) ضحية/شهريا[5]، وهذه الأرقام تدلّنا على متوسط يومي للوفيات لا يقلُّ عن (56) ضحية يوميا.

وحسب إحدى الوثائق الأرشيفية فقد تفشى هذا الوباء بشكل كبير وسريع في مدينة قسنطينة والمناطق المحيطة بها إلى غاية الحدود مع إيالة تونس[6]، إضافة إلى كلّ مِن مدينة القالة وجيجل[7]، وهي تقريبا نفس المناطق التي تحدَّث عنها أيضا "غيون"[8].

لم يتوقَّف الوباء مع شهر أوت كما جرت عادته، إذ ظهرت بعض الحالات الشّاذة في الإيالة حتَّى خلال شهر سبتمبر، لكن الغريب في الأمر أنَّ النّشاط الوبائي خلال الفترة الصيفية لم يتراجع كما عهدناه،

[1] J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P321.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 123-129. 23 /Avr/1753.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 135. 11/jui/1753.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P321.
[5] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P229.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 141-144. 31/08/1753.
[7] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P229.
[8] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P321.

بل تفيد المراسلات القنصلية أنّ عدد الموتى ضمن السّاكنة نتيجة لهذا الوباء في الأشهر الصّيفية وتحديداً خلال شهري (جويلية-أوت) قد قُدِّر بما يزيد عن أربعة آلاف ضحية[1].

يمتدُّ هذا الوباء في الغالب أيضا إلى مُدن أخرى ك"عين ماضي" والمناطق المحيطة بها، وقد ذُكر في ترجمة الشيخ الولي "أحمد التيجاني" أنَّ والده "سيدي محمَّد بن المختار" قد توفي سنة (1166هـ/1753م) نتيجة لهذا الوباء[2].

يكاد الوباء ينجلِي تماماً خلال هذه السنة لولا بعض الإشارات المبعثرة في ثنايا المصادر والمراسلات الأرشيفية والتي تتحدَّث عن ظهور بعض الحالات النادرة والمتفرِّقة، فنجد بعض الإشارات العابرة عن هذه الوفيات في بعض مذكرات الرهبان الأوروبيين المسؤولين عن رعاية الأسرى المسيحين في الجزائر تتحدث عن بعض الضحايا خلال شهر سبتمبر[3]، ونقف على حكم يقيني في إحدى الوثائق الأرشيفية يُصرّح مباشرة بأنّ وباء (1753م) قد انقضى أمره تماما[4].

تعرف إيالة الجزائر بعد هذا بداية هدوء حذر للوباء منذ نهاية سنة (1753م) ويمتد هذا الهدوء في مدينة الجزائر إلى غاية ربيع سنة (1756م)، لكن هذا لم يعن أن الوباء غاب تماما عن المجال المادي داخل الإيالة، إذ نقف على إشارة عند "مارشيكا" إلى وجود الطاعون في مدينة قسنطينة في مستهل شهر فيفري من سنة (1754م)[5]، تعضدها إشارة أخرى أيضا في وثيقة من الوثائق الأرشيفية لوزارة الخارجية الفرنسية تفيد بوجود بعض الحالات التي سقطت نتيجة الطاعون في بعض الجهات في بيلك قسنطينة دونا عن غيرها[6]، وهو ما يعني تواجد الطَّاعون فعليا، لكنه ظل مُنحصرا كما قيل في بيلك الشرق الجزائري، ولم يتفش إلى غيره؛ ولهذا لا نجد له آثاراً في المصادر التي أرَّخت بشكل ما لهذه الفترة، كما أنّ غياب معطيات المتواترة والتفصيلية في بعض الأحيان يحيلنا بطريقة ما إلى القول بأنّ التأثير الذي ظلّ يحدثه وباء (1754م) لم يكن قويا ليُلاحظ؛ لذا فإنَّه ظل دائما على نطاق ضيق حيّا ومُنحصراً في مكان ما دون غيره.

وباء 1755م

كما قد أُشير إلى وجود عدد قليل وحالات نادرة ومتفرقة من الضحايا خلال سنتي (1754م-1755م) لكنها ظلت ضعيفة، إذ يشير صاحب مخطوط "بيان ملوك الجزائر" إلى تجدّد الحبوبا (أي: الطَّاعون) سنة (1168هـ/1755م) على مرَّتين الثانية منهما صادفت عيد الأضحى بقوله:«...عام

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 141-144. 31/08/1753.
[2] - L. Arnaud : histoire de L'ouli sidi Ahmed Et-tedjani, Anne 1861, N°5, P469.
[3] - Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P228.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 145-146. 3/sep/1753.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P96.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes : F° 236-237. 29/01/1754.

1168هـ في شهر العيد الكبير جات الحبوبا..»[1]، نفس الإشارة نقف عليها عند أحد الرهبان الأوروبيين في مدينة الجزائر إذ تكلَّم عن وجود ضحايا لهذا الطَّاعون خلال نفس المدَّة تقريبا في مدينة القالة قاربت العشرة آلاف ضحية[2].

مثلما نقف على بعض الإشارات الطفيفة عن هذا الوباء في أماكن مختلفة أيضا، فيشير إليه بادئ ذي بدأ "بير بروجر" بقوله أنّه قد عثر في الوثائق الأرشيفية للشَّركة الإفريقية على إشارات تتحدَّث عن مرور الوباء بالجزائر خلال شهر(أكتوبر/1756م)[3]، وهو فعلا ما وقفنا عليه في أحد الوثائق الأرشيفية الخاصة بالمراسلات الرسمية بين الشركة الإفريقية والقنصلية الفرنسية في الجزائر تتحدَّث عن ظهور العديد من حالات الوباء في مدينة عنابة أواخر شهر جانفي (1756م)[4]، وتورد وثيقة أخرى مُرسلة مِن السّيد (Germain) إلى السيد (Machault) نبّأه فيها بوجود الوباء في مدينة الجزائر، وهذه المراسلة مؤرخة بشهر فيفري مِن السَّنة نفسها[5]، أمّا "غيون" فيشير في هذا السياق إلى أنّ الوباء تجدّد ظهوره ربيع هذه السنة أي: في بداية شهر (مارس 1756م)[6]، فيما ذهب "آخرون" إلى أنَّ الوباء ظهر في الأيام الأولى لشهر فيفري وظل ناشطا إلى غاية أواخر شهر (أوت/أغسطس)[7].

حصد هذا الوباء خلال الخمسة الأيام الأولى في شهر مارس ما يقارب (167) ضحية على الأقل، غير أنّ أثره ظل دائما مُنحصراً في العامة مِن النَّاس وبشكل محدود أيضا[8]، وقد يُتوهَّم مِن هذا أنَّ الوباء ظل ضعيفا ومحصورا في مكان ما، وهو معاكس لما تورده عدد من التقارير والمراسلات القنصلية الفرنسية، التَّي تتحدَّث عن كون الوباء قد ظل مُستمراً في حصد ضحاياه دون هوادة، حتى بلغ عدد من قضى عليه هذا البلاء (4324 ضحية)[9] خلال الأربعة أشهر الممتدة من شهر (فيفري/فبراير- ماي/مايو) (1169هـ/1756م) أي بمعدل (37/ضحية يوميا)، وهو نفس ما ذهبت إليه المذكرات الجماعية للرهبان، والتي كانت تتحدَّث عن عدد مهول من الضحايا لهذا الوباء قارب (100,00) عشرة آلاف

---

[1] مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، و[3] رقمه (1624)

[2] - Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P229.

[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 207.

[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes : F° 13-20. Journal n° 69 du mois de janvier 27/01/1756.

[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F° 33-34. 26/02/1756.

[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P321.

[7] - Jean Marchika :op.cit., P103.

[8] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P321.

[9] - ibid., P321.

ضحية، فإن تحقَّق هذا فعلا كان جديرا بنا القول أنَّ هذا الوباء فقد انتقم مِن تباطئ حركته خلال سنتي (1754م) و(1755م)[1].

لكن تبقى بعض المراسلات والوثائق المختلفة في مقارنتها مع ما سبقه من أوبئة تعده وباء نشطا لكنه ليس بتلك القوة التي عرفها من قبل، وهذا ما حمل القنصل الفرنسي في الجزائر في مراسلته إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية يتحدَّث عن أنَّ الوباء لم يصل تأثيره إلى حد توقيف الحياة العامة أو عمل حكومة الجزائر خلال تلك المدّة كما جرت العادة في بعض الأوبئة[2].

سنوات العافية وعودة الحياة الصحية في الإيالة(1756م-1785م)

بعد مرحلة طويلة امتدت أكثر من ثلاثين سنة متقطعة تسترجع الإيالة نوع من الهدوء والحالة الصحية الجيدة التي تقطعها بعض الفترات القلقة أو التي حام حولها شكوك في وجود الأوبئة من عدمها، إذ في حقيقة الأمر لا نقف خلال هذه الفترة الزمنية على قرائن قوية تُحاجج عن الوجود الفعلي للوباء بالإيالة، باستثناء بعض الإشارات لحالات شاذة لوفاة فلان بالطَّاعون أو مجموعة مِن النَّاس مِن نفس الجنس بمرض ما، كما هو الحال بالنسبة لحالة التركي "حسن كارا" الذي أُشير إلى وفاته بالطَّاعون سنة (1758/06/24م) في مدينة القالة[3]، كما تورد بعض الدراسات وجود بعض العلامات عن انتشار الوباء في مدينة قسنطينة سنة (1758م)[4]، لكن كما تقرَّر سابقا فإنَّ غياب القرائن الدَّالة على حدوث الأمر يجعل مِن الإقرار بوجوده نوع مِن الجزم في غير موضعه وإن كانت بعض المصادر تتحدث عن أثر هذا الوباء الكبير في إسطنبول والذي لحق سنة (1757م) بأحد ولاة العهد العثمانيين في عهد عثمان الثالث[5].

نقف أيضا على ذكر بعض الوثائق الأرشيفية الخاصة بالشّركة الملكية الإفريقية مؤرخة بتاريخ (1763/08/17م) على تقييد يفيد بوقوع عدد من الأسرى النابوليين موتى نتيجة لوباء ما[6]، نفس هذا الكلام ينقله "غيون" فيذكر بأنَّه اعتماداً على بعض الوثائق الأرشيفية الخاصة بالشركة الأفريقية قد عُثر على إحدى المراسلات المؤرخة في (17 أوت/أغسطس 1763م) تشير إلى وقوع خمسة مِن العبيد النابوليين ضحايا للوباء[7]، ونقف في موضع آخر ضمن إحدى وثائق الأرشيف العثماني على إسقاط الدولة العثمانية

---

[1] - Arnoult Bossu : op.cit, M.C.M, P229.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F° 67-74. 2/juin/1756.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 207.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P105.
[5] - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu : Mufassal Osmanlı Tarihi, Turk Tarih Kurumu, Ankara, 2001, c. 5, s2551.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, 207.
[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P323.

للجزية على أهالي سلانيك (Selanik) بسبب الوباء الذي كان يضرب المدينة المتوسطية في نفس هذه السَّنة[1]، ويذكر "مارشيكا" بناء على إحدى وثائق الأرشيف الفرنسي بيربينيان (Perpignan) أنه كان يُشتبَه في زيارة الوباء للجزائر خلال سنة (1764م) لذا نجد أنّ السّلطات الفرنسية طبقت تدابير الحجر الصحي على السفن الواردة من الجزائر[2]، والأمر لا يقتصر على السُّفن الوافدة من الجزائر فقط بل على جل السفن الواردة إلى الموانئ الفرنسية، وهذا راجع أساسا إلى انتشار أخبار مفادها تمكُّن الوباء مِن عدد مِن المراكز والمدن التِّجارية الكبرى في حوض المتوسط على شاكلة مدينة "حلب" التي أشار تقرير سنة (1762م) الوارد في المجلة الفرنسية إلى استمرار الوباء بها طيلة صيف سنة (1762م)[3] ومدينة "اسطنبول" التي تحدّثت بعض التقارير عن ظهور بعض الأحياء التي تعاني من تسلُّط الوباء عليها لكنها تبقى أحياء محصورة وصغيرة[4].

فلو أقررنا الأمر على صورته، ولم يزد عدد الضحايا على الضحية الواحدة أو الخمسة ضحايا فإنَّه ينبغي ألا يُلتفتَ إلى العارض على أنَّه وباء، بل إنّ توهُم هذا ممَّا يؤدي إلى اعتبار كل عارض وفاة لمجموعة من الأفراد نوعا مِن الأوبئة وهذا ما لا يصح عقلا ولا يحتمل واقعا. إذ قد أقررنا في رسم حدّ الوباء -في المدخل- أن يتَّصف بشرط التَّفشي وانتقاله بين النّاس ضمن رقعة جغرافية ما أو مجموعة من الأماكن، وهو ما لا نقف عليه في أمثلة السنوات الثلاث: (1758م) (1763م) (1764م).

وبناء على ما سبق فإنَّ مرحلة الهدوء تمتدُّ على ما ذكرناه من نهاية وباء (1756م) إلى بداية ظهور بعض الحالات أواخر سنة (1784م) ما يعني أنّ الإيالة كانت تنعم بنوع من السِّلم الصِّحي، وهو ما ذهبت إليه معظم الدِّراسات التي اختصّت بهذا الموضوع[5] في الوقت الذي كانت فيه منطقة الحجاز قد فقدت ما يقارب اثنا عشر ألف ضحية في موسم الحج بسبب الطَّاعون سنة (1780م)[6].

وتكاد المرحلة تكون خالية من الهجمات الوبائية التي تستهدف الإيالة، باستثناء إشارة واحدة إلى سقوط عدد مِن البحَّارة الجزائريين موتى نتيجة لعارض وبائي ألَمَّ بهم سنة (1770م)[7]، .وهذا الوباء نقف عليه أيضا في عدد من إيالات الدولة العثمانية في منطقة القرم، حيث خسرت الدولة العثمانية بسببه العديد من المواقع لصالح الإمبراطورية الروسية، مثلما قضى هذا الوباء على قيادات هامة في الجيش العثماني مثل

---

1 - B.O.A : AE. SMST.III.Dosya N°248.Gömlek N°19797. Tarih 1176.M.16. Belg 01.
2 - Jean Marchika :op.cit., P106.
3 - Gazette de France, 1762, N° 74. P.335.
4 - Gazette de France, 1765, N° 420. P.166.
5 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, 207,208.
6 - B.O.A : C.EV. Do : N°192. Gömlek N°9580. Tarih 1194.N.29. Belg 01.
7 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/135. Cotes: F° 22-30. 25/02.1772.

قبطان الجيش العثماني "محمّد باشا" الذي سقط نتيجة الوباء الذي كان يلم بالمنطقة[1] ما سهل استحواذ روسيا على عدد من قلاع الدولة العثمانية بالمنطقة سنة (1770م)[2]

كما حاول "غيون" الإشارة إلى إمكانية وجود وباء لكن بالاستعانة بفرضية مفادها، كثرة القتلى في حملة "أوريلي على مدينة الجزائر سنة[3] (1775م)" بإمكانية وجود وباء خفي ساهم في القضاء على من أصيب في هذه الحملة بجراح ما بسبب المواجهة، إذ أنَّه مِن المعلوم أنَّه لم يعاف من جنود هذه الحملة إلاَّ النَّزر اليسير جدا[4]، ما جعله يذهب للاعتقاد بإمكانية إصابة جنود الحملة الإسبانية بنوع مِن الأوبئة، وهو الأمر الذي رفع عدد الضَّحايا حسب رأيه في صفوف هذه الحملة، فإن قرّرنا معه ذلك فمن الواجب في هذه الحالة حصر الأمر في فرضيتين أساسيتين هما:

أوّلاً : أنّ الحملة في حدّ ذاتها كانت تحمل بين جنباتها نوعا من أنواع الطَّاعون ولعله الطَّاعون الروسي الذي انتشر في بعض مناطق أوروبا واستشرى فيها خلال تلك المدّة(1775م)، فإن تقرّر هذا فمن الواجب أن نصرف القول إلى أنّه لا يمكن عدّ هذا وباءً موجودا بالجزائر حتى يجب أن يُدرج فيما أدرجناه.

ثانيا: أنّه وجد فعلا نوع من الأوبئة خلال تلك الفترة وانتقل إلى السّفن الإسبانية لكنه كان محدودا وبسبب نشوة الانتصار أغفلت المصادر المحلية الجزائرية الإشارة إليه.

غير أنَّ ما جعل الفرضية الثانية صعبة التَّحقق هو عدم إشارة القناصل أو الأسرى في مذكراتهم خلال تلك الفترة لوجود وباء ما أو انتشار طاعون ما في الجزائر، ولعلّه الأمر الذي حمل "مارشيكا" على تجاوز الحديث عنه تمام خلال تلك السنة[5].

إضافة إلى هذا فإنَّ انعدام وجود الوباء في المناطق الشمالية في الجزائر لم يصاحبه الأمر نفسه في المناطق الجنوبية للجزائر، هذا وقد ذكر صاحب كتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" أنَّه سنة (1196هـ/1782م) قد شُوهد انتشارا للوباء بين المواشي، وهو ما يمكن أن نسميه بالجائحة الحيوانية، وعرفت المنطقة جدب امتدَّ في الصَحراء سنة (1196هـ/1782م) وكان سببا في المواجهات القَبلية بين

---

[1] - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu : a.g.e, s2575.
[2] - Joseph von Hammer : a.g.e, C 5. S656.
[3] – عن هذه الحملة يراجع : خيرالدين سعيدي: حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة 1775م من خلال مخطوط "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة " مع تحقيق الجزء المتعلق بالحملة من المخطوط. مجلة آفاق الثقافة والتراث. دبي، ذو الحجة 1436هـ/ أيلول (سبتمبر) 2015م). ص ص: 171 . 195.
[4] – ابن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق خيرالدين سعيدي، الطبعة الأولى، دار أوراق ثقافية للنشر، جيجل، الجزائر، 2017، ص157
[5] - Jean Marchika :op.cit., P106.

أهالي القبائل في الصحراء من جهة، وبين قبائل التي تعيش بالصَّحراء والسُّلطة العثمانية من جهة أخرى[1] ولعلَّه نفس الوباء الذي تحدّث عنه الأب (Poiret) بقوله سنة (1785م)-في أولى رسائله إلى صديقه الدكتور فُرستير - :«..أنّ الوباء قبل سنتين قد دمّر البلاد..»[2] وهو ما نقف عليه فعلا في بعض المصادر الأخرى التي اطّلعنا عليها أو أرّخت للأوبئة خلال تلك الفترة أو أشارت إلى ذكر وباء ما بشكل عارض فمن ذلك مثلا ما نقف عليه من إشارات في رسالة لوكيل الشركة الإفريقية في القالة سنة (1785م) والتي أبان فيها عن وجود الأثر الكبير الذي خلفه وجود الوباء في المدينة منذ سنتين على المدينة وسكانها قائلا أنّه قد أدى الوباء الذي ظهر في المدينة منذ سنتين إلى تدميرها وتشتيت أهلها[3]، وهذا من شأنه أن يقيد الفترة الزمنية التي نضعها لانخماد النشاط الوبائي إلى سنة (1783م)، ويؤكد مِن جديد أنَّه لا يمكننا أنْ نتحدَّث بأحكام مُطلقة عن اندثار الوباء في جميع أرجاء الإيالة في وقت واحد أو طيلة مدَّة زمنية واحدة ومنتظمة في جميع المواطن بقدر ما يكون متذبذب مِن مكان إلى آخر.

وقد تحدَّثت مثلاً الجريدة الرّسمية الفرنسية لسنة (1783م) عن انتشار الوباء في أرجاء مختلفة مِن الدَّولة العثمانية[4]، بل نجده يتفشى في عاصمة الدولة العثمانية في حد ذاتها بداية مِن (04 ذو الحجة 1197هـ) أي في حدود (30 أكتوبر 1783م)[5]، وأسهبت الجريدة الفرنسية في التحدَّث عن الأعداد المهولة مِن الضحايا[6] وتتحدث بعض الوثائق في الخط الهمايوني العثماني عن ما يقارب من ثمانية آلاف فرد من العساكر على الأقل في ولاية بلغراد فقط في مدة وجيزة جدا ما فرض على محافظ الإيالة "عزت باشا" الطلب من الدولة العثمانية إرسال تعزيزات عسكرية جديدة لمواجهة خطر التناقص العسكري في الإيالة بسبب هذا الوباء وما قد يترتب عنه[7]

والوباء المذكور غالبا هو نفس الوباء الذي ظهر سنة (1783م) وجعل له الأب " بواري " (Poiret) زخما كبيراً واصفاً إيّاه أيضا بالوباء المدمِّر، وهو ما ينقله "غيون" أيضا عن الأب في كتابه عن رحلته في شمال إفريقيا، بل ويقرّره فعلا إذ يتحدَّث عن وجود الوباء في "بيلك قسنطينة" خلال هذه السنة[8]، وهو ما أشار إليه أيضا "مارشيكا"[9]، غير أنّ هذا لا يتطابق مع رؤية "بير بروجر" والذي يؤكِّد خلو الجزائر

---

[1] - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، 268.

[2] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27, op.cit., 12 Mai 1785.

[3] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.

[4] - Gazette de France, 1783, N° 65. P.287.

[5] - B.O.A : HAT. Do : N°12. Gömlek N°438B. Tarih 1197.L.23. Belg 01.

[6] - Gazette de France, 1783, N° 65. P.287.

[7] - B.O.A : C.ML. Do : N°406. Gömlek N°16652. Tarih 1197.Z.04. Belg 03.

[8] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P329.

[9] - Jean Marchika :op.cit., P110.

مِن أي طاعون أو وباء خلال الفترة الممتدة من (1756م) إلى(1784م)[1]، أمّا أوّل الإشارات التي نقف عليه في أرشيف المراسلات القنصلية الفرنسية فهي تؤرخ بـ (27 ماي 1786م) وتتحدَّث عن موت أحد الرُكّاب الذين كانوا برفقة سفينة فرنسية تحركت من الجزائر وكان قائدها حينها القبطان[2] (Jean François) " جون فرونسوا "

الطاعون يضرب الإيالة التونسية ويهدد الإيالة الجزائرية من جديد (1784م)

وإذا عرف هذا فمن الواجب العودة إلى مقصدنا مِن القول إذ أنّه في نفس السنة أي: (1784م) التي كان الخلاف حول وجود الوباء في الجزائر مِن عدمه، فإن الأخير كان على أشدّه في كلّ من تونس ومصر[3], وقد ساد الاعتقاد بأنّ طريقة ولوجه الإيالة التونسية كان عن طريق سفينة وافدة مِن "الإسكندرية" كانت تحمل على متنها مجموعة من المصابين بالوباء، وقد أعلن عن وجود الوباء في تونس فعليا بداية مِن منتصف شهر جويلية سنة (1784م)[4] وقد أُعلِن أيضا عن وجود عدد مِن السُّفن التابعة للإمارات الإيطالية أصيبت بالوباء[5] خلال نفس المرحلة، وبالتالي أصبح انتشاره في كامل حوض المتوسط (خاصة منه في الناحية الجنوبية الغربية) أمرا واقعيا مسلما به.

كان لهذا الوباء بالغ التأثير على تلك الأقطار وهو ما حمل" فونتير دي برادي " (Venture de Paradis) على القول بأنّه قد تسبَّب في إحداث نوع من الفوضى داخل الإيالة التونسية؛ وهذا بقضائه على قرابة مائة وخمسين ألف (150,000) نسمةٍ خلال ستة أشهر[6]، وقد أشار الأب "بواري" في رسالته الخامسة والعشرين وهذا عند مروره على منطقة طبرقة سنة (1785م) بأنّ الوباء استحكم فيها السنة الماضية، يقصد سنة (1784م)[7] فيما تذهب بعض التقديرات إلى أرقام أكبر من ذلك وأخطر بكثير إذ تتحدَّث عن (18,000) ضحية من مجموع (45,000) نسمة في مدينة طرابلس وقرابة (300,000) ضحية في الإيالة التونسية مما مجموعه المليون نسمة[8]، وقد بلغ متوسط حدّ الوفيات في معظم الأيام قرابة (300 شخص يوميا)[9]. ويرى "بير بروجر" أنَّ متوسط الموتى كان في حدود

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, 207,208.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes : F° 63-64. 27/05/1786.
[3] - B.O.A : HAT. Do : N°29. Gömlek N°1361. Tarih 1198.Ş.13. Belg 01.
[4] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T P 223.
[5] - Gazette de France :1787, N° 61. 30.07.1784.
[6] - Venture de Paradis : Alger aux XVIII siècle (1700-1799), édité par Fagnan Alger, Typographie Adolph Jourdan 4, place du gouvernement, 1989, P 33.
[7] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°25,op.cit.,P179.
[8] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P226,
[9] - Venture de Paradis : op.cit., P 33.

(200ضحية/يوميا)[1]، لكن الأمر الذي لا تختلف حوله المصادر هو أنَّ هذا الوباء كان خطيرا جدا، وتورد "المجلة الفرنسية" تقرير بتاريخ (1784/07/17م) عن كون الوباء اكتشف في عدد من السُّفن البحرية، وأنَّ آثار هذا الوباء كنت قد امتدت إلى جل الدُّول المتوسطية الممتدة من إيطاليا شرقا إلى جبل طارق غربا[2]، وانعكس وجود هذا الوباء على نواحي عديدة وبالأخصّ مِن النَّاحية الديمغرافية ومِن النَّاحية الاقتصادية، ما جعل الأب " بواري " يتأسَّف على الحالة الفظيعة التي ترك الوباء عليها تونس ما بين (1784-1785م)[3]

لنبقى نطرح التساؤل كيف لوباء بهذا الحجم أن يبقى مستترا أو لا يوجد تماما في الجزائر؟ إذ حسب "بير بروجر" لم نقف على أي أثر له في مدينة الجزائر على الإطلاق[4]، لكن هذا لا يتنافى ووجوده في مواطن أخرى غير مدينة الجزائر، إذ أنَّه قد ذُكِر في إحدى المراسلات الأرشيفية للشركة الإفريقية في مدينة عنابة أنَّه قد رُصِدت حالتين اثنتين لضحيتين من سكان المدينة قد أصيبا بنفس أعراض هذا الوباء في شهر أكتوبر من سنة (1784م)[5].

مثلما تحيلنا مراسلة أخرى مِن الشركة الإفريقية أوردها "شارل فيرو" مؤرخة في ماي (1785مـ) إلى تفشي الوباء منذ سنتن أي سنة (1783مـ) وذلك في عدد محدود من أحواز مدينة القالة[6] كما تشير قرينة أخرى عبارة عن رسالة مضمّنة في الكتاب نفسه مؤرخة بـ (28 جانفي 1785مـ) تشير إلى انتشار الوباء في القالة منذ تسعة أشهر تقريبا[7] أي منذ أفريل (1784مـ) إلى انتشار الوباء في العديد من الأماكن، لكن الإشكال أنَّ هذه الإشارة ظلت مجرد تخمين لم يقطع بصحته بوجود قرائن أخرى يمكننا الاستدلال بها أو الاحتجاج بها على وجود الوباء فعلا، فإن تقرّر هذا؛ رأينا أنَّه مِن الأصوب أن نتحدَّث عن اشتباه وجود الوباء في جزء من البلاد ممثلا في بيلك الشَّرق الجزائري أي قسنطينة ومدينتي القالة وعنابة لم يتعدَّ هذا الوباء على الأقل خلال الفترة الأولى هذا النطاق، ولعلَّه بسبب اقتصار وجود شبهة الوباء على مدينتين دون غيرهما جعل معظم الدّراسات تبتعد عن اعتباره وباءً حلّ فعليا بالجزائر خلال هذا السَّنة وتقتصر على ذكر

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P211.
[2] - Gazette de France :1783, N° 61. P250.
[3] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P182.
[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, PP 207,208.
[5] - Lettre de l'agent précité, en date du 4 octobre. Dans (Guyon) P330.
[6] - Charles Féraud : op.cit., P395.
[7] - Ibid. P414

وجوده في تونس وما ألمّ بها بسببه[1]، ولو أنّه لم يكن كذلك لوجدنا عدداً مِن المصادر تعدُّه فعلا أحد الأوبئة التي ألمت بالجزائر ولدرس بنفس لاكم والكيف الذي درست به الأوبئة الأخرى.

سنوات ذروة النشاط الوبائي في إيالة الجزائر(1785-1796م)

الوباء يطرق باب الإيالة من جديد(1785م)

حاولت إيالة الجزائر ممثلة في شخص باي قسنطينة أن تنأى بنفسها عن الوباء الذي كان يضرب بقوّة في كلّ من تونس وليبيا ومصر[2]، وتمظهر هذا السّعي في منع "صالح باي" سكان بيلك الشرق الجزائري من جميع أشكال المعاملات التِّجارية ومختلف أنماط الاحتكاكات مع القبائل التونسية في المناطق الحدودية[3]، إلاَّ أن هذا الاحتراز لم يأت أكله، إذ تذكر بعض الوثائق تفشي هذا الوباء لاحقا -حسب الوثيقة المرسلة من وكيل الشركة الإفريقية الفرنسية في عنابة إلى القنصل العام الفرنسي في الجزائر- في بعض أحواز مدينتي القالة وعنابة، وهذا ابتداءً من شهر (فيفري/1785م/1199هـ)[4] كما نقف على رسالة أخرى أُرِّخت بـ الثاني عشر ماي (1785مـ) تتحدَّث عن تفشي الوباء في نواحي القالة[5] ، والملاحظ أنّ هذه المناطق كلُّها مناطق محاذية للحدود التونسية؛ وبالتالي فهي تقع في مرمى الحركة التجارية والحركة الرعوية لقبائل تلك الأماكن ما يجعل عملية الاحتكاك أمر وارد وبشدة، وهو الأمر الذي حمل الأب "بواير" على عدم إتمام رحلته باتجاه مدينة قسنطينة والتي كان يبرمج زياتها في شهر مارس من هذه السنة، وذلك لما رأ فيها من مخاطر انتقال الوباء إليه وصعوبة السَّيطرة على التَّواصل مع سكان المصابين بهذا الوباء ما يجعل إمكانية إصابته بهذا الوباء كبيرة جدا[6].

فإن سلّمنا بإمكانية ما سبق الحديث عنه صرفنا القول إلى الكيفية التي تسرَّب بها إلى داخل إيالة الجزائر، فنجد أنّ الطّاعون بعدما دخل مدينة القالة وعنابة واستقرّ بهما شرع في التَّوغل أكثر إلى داخل الإيالة لكن بشكل بسيط، فنقف عليه يسير أولا وفق محور طبرقة القالة في المرحلة الأولى، وقد قضى على

---

[1] - انظر على سبيل المثال :

- Marthe Conor :Une épidémie de peste en Afrique mineure
- Adrien Berbrugger : mémoire sur la peste en Algérie
- J.-L.-G. Guyon : op.cit.

[2] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P220.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P212.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P332.
[5] - Charles Féraud : op.cit., P395.
[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 191.

عدد من القبائل المرابطة بالحدود التونسية الجزائرية[1] حتّى يقول عنه "بايسونيل" بإنّه عند مروره بالقالة كان له من القوة ما سمح له بتدمير البلاد والقضاء على عدد كبير من السكان[2].

يبدأ في التّسرُّب مِن مدينة القالة باتجاه المناطق المحيطة بالمدينة والقريبة، فنقف عليه بالفعل في بعض القرى والمداشر التي مرَّ بها الأب "بواري" وذكر في بعض رسائله أنّه قد أُعلِن بها وجود الوباء لذا فضلوا الابتعاد عنها[3].

وقد مضى الحديث عن محاولة "باي قسنطينة" منع تقدُّم هذا الوباء إلى الأمام لكن مسعاه في الحقيقة لم ينجح[4]، وهذا لعوامل عدَّة: أهمها صعوبة مراقبة الحدود الفاصلة بين إيالة الجزائر وإيالة تونس من جهة، ومن جهة أخرى لانعدام وجود ثقافة طبية لدى أهالي القبائل الموجودة في المنطقة الحدودية تساعد على السيطرة على الوباء، فاستطاع بذلك هذا الوباء القضاء على عدد كبير من السّاكنة في مُدن بيلك الشرق الجزائري، كما استطاع دخول مدينة الجزائر وأخذ العديد من الضحايا معه، خاصة من جنود الإنكشارية وهو ما نلتمسه في رسالة من أسير إسباني كان متواجدا في الجزائر خلال تلك الفترة[5].

وبالتّالي فظهور هذا الوباء في إيالة الجزائر قد تأخّر نسبياً مقارنة بظهوره في كلٌّ مِن المغرب الأقصى وتونس خلال سنة (1197هـ/1784م)[6]، وحدَّته خلال الفترة الأولى لظهوره كانت أقلّ من حدّته لدى الجارتين؛ وهذا راجع غالبا للاحتياطات التي اتَّخذها باي قسنطينة "صالح باي" بمنعه لعملية التواصل والتبادل التجاري بين القبائل الجزائرية في بيلك الشرق الجزائري ونظيراتها في الإيالة التونسية متأسيا في ذلك بالأوروبيين حسب قول الأب "بواري"[7].

استمرّ هذا الوباء في حصد الضحايا خلال شهري مارس وأفريل بحسب ما نقف عليه من رسائل مرسلة من وكيل الشركة الإفريقية السيد "بورغينيون" (Bourguignon) إلى القنصل الفرنسي العامة في مدينة الجزائر، وذكر في هذه الرسائل استمرارية الوباء وشدَّته خلال هذه الفترة[8]، كما نقف عليه على غير العادة نشطا وقويا في الصيف فيذكره كل من غيون[9] ومارشيكا، ويؤكدان على أنَّ الوباء قد ظلَّ نشطاً في

1 - Masson Paul : op.cit., P452.
2 - Peyssonnel et Desfontaines : op.cit., T 2, P226.
3 - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°5,op.cit.,P26. Et -R. L. Playfair : Visite au pays des khomair (Kromirs), Anne 1888, N°25) P52.
4 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P214.
5 - Venture de Paradis : op.cit., P168.
6 - Ibid. P 33.
7 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 212.
8 - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.
9 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P334.

مدينة "عنابة" خلال شهر جوان بشكل عادي[1]، لتتراجع حدَّة هذا الوباء في شهر (أوت/أغسطس) حتَّى يصبح الأمر في حكم المنتهي تماما خلال هذا الشهر؛ وهو ما حمل وكيل الشركة الإفريقية في رسالته المؤرخة في (21 أوت 1785م) على القول[2]: «بأنّ الحالة الصّحية جيّدة في المدينة» لكن لعله يقصد المحيط الخاص بالشركة الإفريقية تحديدا؛ لذا فأنّنا نجده يؤكد الحديث عن تعافي المدينة مِن الوباء وهذا في رسالة ثانية مؤرخة بـ (27 سبتمبر 1785م)[3].

غير أنّ العديد من المراجع ترى عكس ذلك وتسلك مسلك غير ذلك الذي ذُهب إليه، إذ تتحدَّث في الكثير من الأحيان عن سقوط العديد من الضحايا نتيجة لهذا الوباء خلال الأشهر الأخيرة مِن السَّنة نفسها، وتقريبا منذ بداية الشهر العاشر كما يذكر حاكم حصن البيستون في القالة السيد (*Almaric*) في رسالة إلى القنصل الفرنسي العام في مدينة الجزائر مؤرخة بـ (28 أكتوبر 1785م) بأنّ الوباء قد تجدَّد مرّة أخرى في هذا الشهر وبدأ في حصد ضحاياها من جديد[4]، ثمّ يسترسل (غيون) في الحديث عن سقوط ضحايا في كلٍّ مِن: مدنية عنابة والقالة وقسنطينة خلال الشَّهر الأخير مِن السَّنة (1785م)[5]،وهو نفس ما يشير إليه الأب "بواري" حينما يتحدَّث عن سقوط العديد من الموتى؛ نتيجة لهذا الوباء، وهذا ضمَّن إشارة عرضية إلى ذلك في ثنايا رسالته المؤرخة في آخر شهور سنة (1785م) والمرسلة إلى الدكتور فورستر *(Forestier)*[6].

قد يُعتقد ممَّا سبق أنَّ الوباء قد ظلَّ نشطاً بنفس الوتيرة طيلة الفترة المتحدَّث، إلاَّ أنَّ الحقيقة تدلنا إلى أنَّ الوباء كان يمرُّ بمراحل يشتدُّ فيه هجومه، ومراحل أخرى تفتر فيها قوَّته، فنجده يتراجع أو ينحصر خلال فترة زمنية ما تحدث في النِّصف الأوَّل مِن شهر (أوت/أغسطس) مثلما سبقت الإشارة إليه، بينما نجده في مراتٍ أُخرى يسترجع حيويته ويتفاعل النَّشاط بشكل أكبر خاصة بعد بداية شهر أكتوبر وما يصاحبه مِن تغيرات مناخية بانخفاض درجة الحرارة وتزايد مستوى التَّساقط.

الوباء بأبي الرحيل (1786م)

عدّته العديد مِن الكتابات مِن أصعب الأوبئة التي شهدتها الجزائر، وما جعل أثره شديد أنّه قدم مباشرة خلف مجاعة قاسية عرفتها البلاد، سُمي في بعض المناطق باسم "حبوبه المجاد" وذلك بسبب ما حصد

[1] - Jean Marchika :op.cit., P119.
[2] - Lettre de M. Barre dans : H.V.P.C, P425
[3] - Lettre de M. Barre dans ; H.V.P.C, P426.
[4] - Lettre de M. Almaric dans : H.V.P.C, P425
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP 334, 335.
[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 59-61.

من ضحايا في صفوف هذه العائلة، بل نقف -في بعض المصادر- على ما يروى من أنّ هذا الوباء قد قضى تماما على أفراد عائلة (المجاد)[1].

تحقّق ظهور وباء (حبوبة المجاد) في عدد من المصادر الإخبارية، فنجد صاحب مخطوط بيان ملوك الجزائر يتحدث عنها بقوله: «ثمّ مِن بعد ذلك جات الحبوبا للجزائر عام (1200هـ)..»[2] وحسب مُذكرات الأب فيشيرا (*Vicherat*) في الجزائر فإنه قد أعلن عن تواجد هذا الوباء في شهر جويلية من سنة(1786م)[3].

فيما يذهب البعض إلى أنّ هذا الوباء الذي ظهر في الجزائر سنة (1786م) ما هو في حقيقته إلاّ امتدادٌ طبيعي للوباء الذي ظهر مصر سنة (1784م) وليبيا وتونس إذ تذكر التقارير الاستخباراتية الواردة إلى فرنسا أنَّه وبالرغم مِن الاحتياطات التي حاولت الإيالة المصرية اتّخاذها فإنّها لم تفلح في السَّيطرة على الوباء هذه المرّة[4]، كما امتدَّ الوباء في نفس السَّنة أيضا إلى الإيالة التونسية سنة (1784م) وكان موجودا بالفعل بها في سنة (1786م) حسب التَّقرير الذي أورده السَّيد (Alasia) ألاسيا إلى ملك سيردينا حينها[5]، كما تذكر دراسات أرشيف باستور وجوده وفعاليته في طرابلس الغرب (1785م)[6]، وحسب "غيون" فإنّ الوباء تجدد ظهوره مع بداية شهر فيفري من سنة (1200هـ/1786م) وتحديداً في الأماكن القريبة من مدينة عنابة[7]، وهو ما يتّفق مع رؤية "بير بروجر" مِن ناحية مكان ظهور هذا الوباء.

فيما يختلف "غيون" مع "بير بروجر" من النّاحية الزمانية، إذ يناقش "بير بروجر" ظهوره زمنيا في بداية الربيع وتحديدا مع منتصف شهر مارس، ويستبعد أن يكون من بداية شهر فيفري. ويقرّر ذلك من خلال حجّتين: الأولى تتمثّل في سماح الوكيل الخاص بالشركة الفرنسية في عنابة لاثنتا عشرة سفينة بالإبحار باتّجاه الموانئ الفرنسية[8]، فإن سلّمنا بذلك وجب علينا أن نُقرَّ بأنّ المنطقة خلال هذه الفترة كانت تتمتع بالصحة الجيدة إذ لم يكن قد ظهر بها بعدُ الوباء، وبهذا يُؤسِّس لفكرة أعمق وهي أنّ الاحتراز مِن الوباء خلال تلك المدَّة بالنسبة للدول الأوروبية أو على الأقل بالنسبة لفرنسا كثيرا ما كان بشكل استباقي، أي

---

[1] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[2] - مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم (1624) و[5]

[3] - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568).

[4] - Gazette de France :1784, N°70. P287.

[5] - Jean Alasia : Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne. Dans : M.C.M. PP (444-448).

[6] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P222.

[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP343.

[8] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P218.

أنّ الاحتراز مِن الوباء بحسب القائمين على الأعمال الفرنسية كان ينطلق مِن خارج فرنسا وذلك خوفا مِن انتقال المرض إلى فرنسا حسبما يُفهم.

كما يستعين في الحجة الثانية بشاهد آخر وهو أنَّ ظهور الوباء كان متزامنا مع عودة فصل الربيع، فيقول:«...أنّه من الفاتح مارس إلى غاية العاشر أو الرابع عشر مِن نفس الشهر كان عدد ضحايا هذا الوباء ما بين خمسة وستة أشخاص يوميا»[1]، أي: أنّه لما لم يُلاحظ وجود وضحايا لهذا الوباء قبل الفاتح من مارس، وهو في الحقيقة نفس ما ذهب إليه "غيون" في موضع آخر إذ تحدَّث بدوره عن ضحايا هذا الوباء بداية مِن شهر مارس، مستدلا على ذلك بالوثائق الأرشيفية للشركة الإفريقية الفرنسية بعنابة، وفي نفس الوقت يشير إلى أنّ الوباء كان قد أسقط بعض الضحايا في أحواز مدينة عنابة، وهو ما ذكرته بالفعل مراسلة رسمية من وكيل الشركة الإفريقية في المدينة إلى السُّلطات الفرنسية في الرابع عشر مِن شهر مارس (1786م) إذ قرَّر حينها أنَّ الوباء ظهر في بعض المناطق المحيطة بالمدينة وأنَّه كان يسقط ما بين خمسة وستة أشخاص في اليوم الواحد، ليتطوَّر في الأسبوع الثاني إلى ما بين أربعة عشر وثمانية عشر ضحية في اليوم[2].

بينما يذهب الأب "فيشرا" تقريبا نفس المذهب في تحقيق دخول وانتشار هذا الوباء في الجزائر، إذ يرى أنَّه قَدِم ضمن السفينة المذكورة مع وفود الحجاج الجزائريين التي رجعت من "مكة المكرمة" عبر إحدى السُّفن التي كانت متواجدة بالإسكندرية ودخلت إلى مدينة عنابة خلسة[3].

وهو ما تنقله بعض الأبحاث مِن أنّ هذا الوباء قد وفد إلى الجزائر عن طريق ميناء مدينة عنابة، إذ رست في ميناء المدينة سفينة القائد "غِيبار" (Guibert) الذي قَدِم إلى الميناء مِن سواحل الإسكندرية محمَّلاً على متن سفينته مائتان وستة عشر حاجا عائدا من البقاع المقدسة، سقط أثناء طريقه إلى مدينة عنابة ما يقارب من خمسة وسبعين ضحية، وقد ذُكِر أن دخوله لميناء مدينة عنابة كان خلسة دون أن ينتظر السَّماح له بذلك[4]، ولعلَّ ذلك بسبب إدراكه؛ بإنّه لن يُسمح له بالرسو في ميناء المدينة.

وهنا يذكر الأب "جون أليسيا" بعض الملامح الكبرى أو الأعراض المختلفة التي كانت تظهر على المصابين بهذا الوباء، فيتكلَّم أوَّلاً عن ظهور آلام في الرَّأس تصاحبها آلام شديدة في المعدَّة يصبح معها الترياق الممنوح من طرف الطبيب غير مجدي، تتطوَّر هذه الآم في مرحلة لاحقة، يظهر على أجسام المرضى

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P218.
[2] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., La Calle, P 415.
[3] - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568).
[4] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P226.

بعد ذلك أنواع من الندبات تتطور في بعض الأحيان لتصبح خرجات مختلفة[1]، وقد تكلّم حينها الأب " جون ألسيا " عن سقوط الكثير ممَّن أُصيب بهذه الأعراض ميتاً في مستشفى الجزائر سنة (1786م)[2].

في هذه الأثناء تتحدَّث الأخبار المتناقلة والمصادر المختلفة عن انتقال الوباء إلى مدينة عنابة؛ وإدراك وكيل الشركة الإفريقية الملكية الفرنسية لذلك ما حمل الشركة الملكية الفرنسية في مدينة القالة على ضرب حصار على أطراف الشركة حتى لا تنتقل إليها العدوى الوبائية[3].

وتطوَّر عدد ضحايا هذا الوباء ليصل في نهاية شهر مارس إلى ما بين أربعة عشر وثمانية عشر ضحية في اليوم[4]، ليتطوَّر أكثر عدد الضَّحايا مع مرور الوقت ويستقر فيما بين (40-60) ضحية يوميا على الأقل في محيط مدينة القالة حسب رسالة من وكيل الشركة الإفريقية إلى القنصل الفرنسي مؤرخة بـ(21 ماي 1786م) وتوقّع أن يمتدّ هذا الوباء ليعمّ جميع المنطقة خلال هذه السنة[5].

بدأ هذا الوباء بالتّوغل فعليا كما توقعت المراسلات الفرنسية أكثر ناحية الغرب بداية مِن السَّادس والعشرين من شهر مارس؛ فوصل إلى مضارب قبائل صناهجة في المناطق القريبة مِن مدينة سكيكدة[6]، ويظهر في وقت لاحق في بيلك الغرب الجزائري.

فتذكر الدِّراسات المختلفة أنَّه خلال سنة (1200هـ/1786م) أي في زمن حكم "محمَّد بن عثمان الأكحل" ظهر طّاعون ببيلك الغرب الجزائري، بعدما كانت المجاعة السابقة له قد تركت آثارها السلبية بشكل كبير في حياة قاطنة البيلك سنة (1195هـ)[7]، وتزامُن القحط والوباء كثيرا ما حدث، وعندها تكون نتائجهما أخطر وأكثر سوءاً، إذ أنَّه وبحكم أنّ الجوع أو القحط الشديد يُفقِد الجسم قدرته في المناعة الطبيعية كما مرَّ بنا في المدخل فإنَّه يصبح بمجرد أن يخالطه امتحان الوباء يفقد كل قدراته على التجاوب مع الحياة؛ ولهذا نجد أنَّ هذا التزامن ينتج عنه آثارا رهيبة. وهو ما حدث فعلا في بيلك الغرب الجزائري خلال تلك الفترة.

ولعلَّ مِن بين الدَّلائل التي توضِّح عمق تأثير هذا الوباء والعدد الكبير للضحايا اللائي كان يحصدها يوميا خلال المدَّة التي شُوهد بها في الجزائر سنة (1786م) تلك الصُّورة التي رسمها لنا "جون أليسيا" بقوله :«...خلال الثمانية عشر شهراً التي استوطن بها الطَّاعون الجزائر لم تنقطع ليوم واحد تلك الأصوات المرتفعة

[1] - انظر الملاحق: ملحق رقم01.

[2] - Jean Alasia ; op.cit., Dans. M.C.M, PP (444-448).

[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P343.

[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P218.

[5] - Lettre de M. Barre Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud, P425

[6] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P, P343.

[7] - Brosselard : les inscription arabes de Telimcen, Revue African., Anne 1860, N°4, P 88.

للنسوة والأطفال بالبكاء إعلانا عن فقدان عزيز ما، وهو صراخ وبكاء يعبِّر حقيقةً عن حجم ذلك الألم الذي لحقهم ...»[1] وقد تحدَّث "كونر" عن كون أنّ عدد الضَّحايا نهاية شهر أفريل مِن نفس السَّنة كان لا يقل عن خمسة وأربعين ضحية يوميا[2].

يرى "مارشيكا" بأنّ هذا الوباء قد انتقل من المدن الموجودة في بيلك الشرق: كعنابة والقالة إلى بيلك التيطري. ثمَّ بعد ذلك امتدّ إلى بيلك الغرب الجزائري؛ وهو ما ترك أثرا كبيرا على الإيالة وزرع الخراب في جميع أنحاءها[3]. ونقف فعليا على إشارات مختلفة في المراسلات الفرنسية على وجود الوباء في مدينة عنابة في ربيع سنة (1786م)[4].

فيما ظلت مدينة قسنطينة تتمتَّع بنوع من المعيشة الصَّحية الجيدة لكن لفترة وجيزة فقط، وهذا نتيجة لطبيعية الجهود التي بذلها "صالح باي" في تأمين المدينة من الوباء، لكن سرعان ما لحق مدينة قسنطينة نفس ما في المدن الأخرى مِن وباء، وظلَّ تأثيره متباينا حسب الفترة التاريخية، فنقف على متوسط ضحايا يقارب ثمانية عشر ضحية يوميا في الثُّلث الأخير مِن شهر ماي في معظم بيلك الشرق[5]، ما يُؤكِّد وجود الوباء أيضا في منتصف شهر جوان وجود أحد التقارير المرفوعة مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر لم تشر إلى أعداد الموتى مِن السَّاكنة لكنها ذكرها أن الأعداد كانت مجهولة يشير إلى استمرار الأزمة الصحية خلال هذا الشهر[6]، مثلما نجد بعض الإشارات تتحدث عن ارتفاع عدد الضحايا إلى ما بين (15-20) خمسة عشر وعشرون (ضحية/يوميا)، وهذا في الفترة الممتدَّة ما بين أواخر شهر جويلية ومنتصف شهر سبتمبر، ليرتفع هذا الرقم مرَّة أخرى خلال المرحلة الزمنية الممتدَّة من بعد شهر (أوت/أغسطس) إلى أكثر من خمسين(50) ضحية يوميا[7]، ونقف على وصف الشدة التي ميزت هذا الوباء في مدينة عنابة بما ورد في أحد المراسلات مِن كون المدينة تعاني الويلات نتيجة هذا الوباء[8].

الأمر الغريب الذي نقف عليه أنّه في نفس الحيز الزمني الذي نتحدّث فيه عن أثر الوباء في بعض المدن الداخلية نقف على تأخر الإعلان عن ظهور ضحاياه في مدينة الجزائر، إذ لم يتم رصد الحديث عن ضحايا لهذا الوباء إلاَّ في الخامس عشر من شهر أكتوبر من نفس السنة حسب "غيون"، الذي يقول أنَّه نقل هذه المعلومات مِن ثلاثة مصادر عربية مخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، اثنتان منها لآخر مفتٍ

---

1 - Jean Alasia ; op.cit. Dans. Mémoires de la congrégation de la mission. P450.
2 - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P220.
3 - Jean Marchika :op.cit., P.116
4 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F° 168-171. Anne 1786.
5 - Jean Marchika :op.cit., P.116
6 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F° 178-179. 23/06/1786.
7 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P220.
8 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 1-3. 17/04/1786.

للمالكية في الجزائر مثلما صرّح بذلك[1]، وهو غالبا رأي مُستنبطٌ مِن الطّرح الذي قدّمه "بير بروجر"، إذ رأى أنّ خروج سفينة بتاريخ الثلاثين من شهر أفريل سنة (1786م) من ميناء مدينة عنابة التي كانت موبوءة إلى ميناء مدينة الجزائر التي كانت تعرف حالة صحية ممتازة لم يكن له أي أثر في انتقال الوباء، بالرغم مِن أنّ هذا التّصرف الطّائش لم يكن معزولا، إذ كثيرا ما تجاوز ساكنة الإيالة الاهتمام بطرق نقل الوباء من مكان إلى آخر، لكن مع هذا ظل الحديث عن الوباء في المدينة متأخرا إلى غاية (1786/10/15م)[2].

إلاَّ أنّنا نعتقد أنّ نقل "غيون" في كتابه الفكرة التي أوردها "بير بروجر" قد يُلبِس الأمر لباس القطعية، وهذا أمر لا يُسلِّم به عاقل، إذ من الصّعب توقع مرور الوباء أو الطّاعون بكل طاقته ببيلك التيطري ودار السلطان وصولا إلى بيلك الغرب الجزائري دون أن تكون له أي آثار، خاصة إذا ما تتبعنا الطُّرق التي كان يسلكها العامة أو التُّجار للاتجاه مِن بيلك الشَّرق الجزائري إلى دار السلطان أو من بيلك الغرب الجزائري إلى دار السلطان كان يمرُّ في كلِّ الأحوال والحالات عبر متيجة ومضارب بيلك التيطري[3]، وبالتّالي فإنّ الحديث عن مرور مصابين بهذا الوباء دون أن يتأثّر سكان هذه المناطق بذلك يُعدُّ أحد الأمور المستبعدة في نظرنا.

وأمَّا عدم حصولنا على الإشارات إلى وجود إصابات وضحايا لهذا الوباء؛ فإنّما مردُّه نقص المادة الخبرية حول تلك المنطقة تحديدا. ونحن نعلم أنّ دار السُّلطان تعرف كثافة سكانية هي الأكبر في الإيالة. كما قد أورد بالفعل الأب "بواري" بأنَّ هذا الوباء قد عمَّ الإيالة وأهلك السُّكان[4]، حتَّى أنَّه اشتدَّ وباء سنة (1786 مـ) في مدينة القالة بشكل كبير بعد النّصف الثاني مِن شهر ماي ويصل إلى إسقاط قرابة الثمانين (80) ضحية يوميا، وأدى نشاطه إلى القضاء على نصف ساكنة مدينة القالة تقريبا، وحمل باقي سكان المدينة على الفرار بأنفسهم إلى المناطق الأكثر أمنا[5].

هذا الوباء أو كما تعرف في المنطقة الغربية من الإيالة "حبوبة المجاد" تعرف كغيرها من الأوبئة التي ألمت بالجزائر بداية الانحصار الجغرافي في فصل الصيف، لكن هذا لا يعني اختفاءه بشكل كامل، إذ كثيرا ما نقف في أطروحة "مارشيكا" نقله لمراسلات الشركة الإفريقية في مدينة عنابة التي تشير إلى بعض الإشارات على وجود بعض ضحايا وباء حبوبة المجاد في شهر جوان[6]، كما نقف فيما ينقله الأب "فيشرا" على بعض

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P, P347.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P218.
[3] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P215.
[4] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°17,op.cit.,P 107.
[5] - Lettre de M. Hugues Dans : H.V.P.C, P432.
[6] - Jean Marchika :op.cit., P.119

الأمثلة لحالات ضحايا الوباء في شهر جوان[1]. فيما يبدأ الانحصار فعليا لحبوبه المجاد في النّصف الثاني مِن شهر جوان، ويمتدّ هذا الانحصار إلى غاية بداية فصل الشتاء، إذ لا نكاد نقف في الفترة الممتدّة من (29 جويلية إلى 17 أكتوبر) على أية حالة وفاة مرتبطة بشكل مباشر بالوباء، خاصة إذا ما استثنينا أحواز مدينة القالة[2]. وهو نفسه ما تؤكده مراسلة مِن وكيل الشركة الإفريقية بمدينة القالة إلى القنصل الفرنسي العام بمدينة الجزائر، إذ يقول فيه :«...منذ اثنا عشر يوما لم نلاحظ أي حالة وفاة سببها الطّاعون المنتشر»[3] وهو تقريبا الأمر عينه الذي يتحدَّث عنه "مارشيكا" إذ ينقل مِن وثائق أرشيفية أخرى تخص الشركة الإفريقية أنّه أثناء شهر جويلية والنّصف الأوّل مِن بداية شهر (أوت/أغسطس) لم تسجل أي حالة وفاة مرتبطة بالوباء[4]. وظل الأمر كذلك تقريبا إلى غاية منتصف شهر سبتمبر من نفس السنة، فيشير حينها كلّ مِن "بير بروجر" و"غيون" إلى ظهور ضحايا جُدد في نفس السَّنة بعد شهر سبتمبر نتيجة لهذا الوباء، مستندين في ذلك على ما قالوا أنها مصادر جزائرية مخطوطة[5] ونجد له ما يعضده في قول صاحب المراسلة السالفة الذكر أنه بقيت بعض الضحايا تظهر من آن لآخر في أحواز مدينة القالة وأرياف بيلك قسنطينة[6].

تجدد وباء سنة 1787م

يظهر هذا الوباء في منتصف شهر (جانفي/يناير) سنة(1787م/1201هـ) في مدينة القالة[7] مُستهدفا بعد ظهوره كل مِن: مدينة عنابة وقسنطينة بالشرق الجزائري[8]، ثمّ يتفشى في نفس الفترة تقريبا في جلّ المناطق الشرقية[9]، وهو نفس ما ذهب إليه "مارشيكا" بحيث رأى أن ظهوره كان في بداية شهر جانفي وظل يتفشى بقسوة إلى المناطق المجاورة[10]، بينما يرى "دي غرامونت" أنّ البداية الحقيقية لظهوره هذا الوباء كان في مدينة الجزائر بعد بضعة أشهر من التاريخ المذكور آنفا، وتحديدا في (27/ أبريل-نيسان) سنة (1201هـ/1787م) [11].

---

[1] - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568).
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P220.
[3] - Lettre de M. Hugues Dans : H.V.P.C, P.432
[4] - Jean Marchika :op.cit., P 120.
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P218. Et. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P347.
[6] - Lettre de M. Hugues Dans : H.V.P.C, P432.
[7] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P221.
[8] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P352.
[9] - Lucette Valensi: op.cit., P21.
[10] - Jean Marchika :op.cit., P 125.
[11] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.

في حين يورد "الزّهار" في مذكراته: أنّ وباء سنة (1211هـ/1797م) كان امتداداً لوباء (1201هـ/1787م) وأنَّ هذا الأخير قد دخل الجزائر عن طريق بر التّرك، كما ذكر أيضا أنّ هذا الوباء اشتُهر بين الأهالي باسم "الوباء الكبير"[1] وتتبعنا للوباء في الوثائق الأرشيفية العثمانية يؤكد بالفعل انتشار الوباء في أكثر من محل داخل الدولة العثمانية في أزمير والجزر المحيطة بها تحديدا بل تتحدث هذه الوثائق عن إسقاطه أكثر من ثلاثة آلاف شخص في مُدَّة وجيزة[2].

غير أنَّ كلّ من "غيون" و"مارشيكا" أرجعا جهة قدوم هذا الوباء إلى الإيالة التونسية، وفصَّل كل من "فونتير دي برادي" و"غيو" طريقة قدومه إلى تونس التي تعتبر محطة عبَر من خلالها إلى إيالة الجزائر، فيما يرجع المنشأ الرئيس الذي وصل عبره الوباء إلى تونس سنة (1783م) من مركز الخلافة الإسلامية حينها اسطنبول[3]. مثلما نقف في المجلة الفرنسية على إشارة هامة مفادها انتشار الوباء في الإمارات الإيطالية بالأخص في باليرمو في نفس المرحلة الزمنية وأنه كان يأتي على عدد معتبر من القتلى يوميا[4].

وإن كنا في هذا المقام في محل التَّرجيح فإنّنا نرجح ما طرحه الزّهار، إذ أنَّ الوباء الذي تحدّث عنه كل من غيو و"فونتير دي برادي" هو الوباء الذي أصاب تونس في فترة متقدمة، وهو الذي امتدَّ فعلا إلى الجزائر سنتي (1785م) و(1786م) لكن غالب الظن أن هذا الوباء هو صورة جديدة عن الوباء الموجود في هذه الفترة في الأناضول (1785م) الذي تذكره عددٌ مِن الوثائق العسكرية العثمانية بسبب الاختلالات والأضرار الكبيرة التي ألحقها ببعض الأوجاقات في قضاء أزمير في تلك السنة[5].

ظل وباء سنة (1787م) خلال الفترة الأولى مِن ظهوره على نطاق ضيق حسبما يُستنبط مِن رسالة مِن السيد "بار" (M. Barre) إلى السُّلطات الفرنسية[6]، إلاَّ أنَّه ما لبث أن أضحى له الأثر الكبير على المناطق التي انتشر أو ألمَّ بها إذ استطاع في فترة قصيرة مِن السَّادس والعشرين مِن شهر جانفي إلى نهاية الشهر أن يُسقط أكثر مِن أربعة عشر وثلاثمائة من المسلمين وواحد وعشرين مسيحي وأربعة من اليهود[7]، وشأنه في ذلك شأن معظم الأوبئة التي حلَّت بالمنطقة وكانت على درجة معتبرة مِن القوَّة؛ ولعلّ هذا ما حمل بعض الدَّارسين على عدّه أحد أهم الأوبئة التي دمَّرت الإيالة خلال تلك الفترة[8]، وقد أكَّد على هذا

[1] – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 78.
[2] - B.O.A : C.ML. Do : N°724. Gömlek N°29635. Tarih 1202 .L. 06. Belg 01.
[3] - Venture de Paradis : op.cit., P330.
[4] - Gazette de France : 1787/08/17, N° 66. P321.
[5] - B.O.A : C.AS. Do : N°951.Gömlek N°41311. Tarih 1199.Ş.02. Belg 01.
[6] - Lettre de M. Barre, du 17 janvier. J.-L.-G. Guyon.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P 126.
[8] - Venture de Paradis :loc.cit., Anne 1896, N°40, P33.

التأثير والخطورة ما ذكرته المجلة الفرنسية في عددها الثاني والستين الصَّادر في الثالث مِن شهر (أوت/ أغسطس) مِن سنة 1787م[1].

فإن تقرَّر الأثر الكبير لهذا الوباء صرفنا القول إلى ما تورده المراسلات والتَّقارير القنصلية من معلومات حياله، إذ تتحدَّث عن محصلات هذا الوباء خلال المرحلة محل الدِّراسة فتحصي تقارير فرنسية عدد معتبر مِن الضحايا في مدينة الجزائر خلال ستة عشر شهرا تمتد من السابع والعشرين أفريل (1787/04/27م) إلى غاية الرابع عشر مِن شهر جوان مِن نفس السنة (1787/06/14م) ثمانية آلاف وخمس وستون ضحية مقسمة (8065 ضحية) على الشَّكل التالي: (6748) من المسلمين، (1093) مِن اليهود، (224) مِن النَّصارى[2]. لكن التقارير عن سقوط الضحايا تحصي مابين مائة وخمسون ومائتان (150-200) من الضحايا يوميا[3]، وهو نفس ما أثاره "مارشيكا" بخصوص عدد ضحاياه، إذ رأى أنَّ متوسط عدد الضحايا اليومي خلال شهر أفريل من هذه السنة قدر بـ (مائتين وخمسة عشر ضحية في اليوم)، بينما ناهز الأربعة آلاف ضحية خلال في هذا الشهر، بينها: ثلاثة آلف وسبعمائة من المسلمين، واحد وعشرون وأربع مائة من اليهود، وخمسة عشر ومائة من النصارى، فيما بلغ عدد الضحايا في شهر جوان من فصل الصيف حوالي ثلاثة آلف وثمانمائة من المسلمين سبعون ومائة من النَّصارى وتسعون وأربع مائة مِن اليهود[4].

مثلما أشارت إحدى الوثائق السالفة الذكر الموجودة ضمن أرشيف وزارة الخارجية عن سقوط مئتين من الضحايا المسيحيين خلال شهر أفريل لوحده، كما سقط في نفس المِدَّة مدير المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر ضحية لنفس الوباء[5] ما يؤكد على ما ذهبنا إليه فيما سبق من سلبية الدور الذي أضحت بعض المستشفيات تلعبه، إذ أصبحت في الكثير حد ذاته في لعب دور الوسيط أو النَّاقل للوباء، وهذا الأمر الذي حمل المؤسسة الصَّحية في الجزائر بعد عشر سنوات مِن الاحتلال وتتبع الأوبئة وكيفية انتشار وتأثيرها إلى اقتراح بعدم قبول المرضى المصابين بالأوبئة في المستشفيات العادية وتخصيص كبديل لذلك مستشفيات أخرى تكون على أطراف مدينة الجزائر[6].

إضافة لما سبق ذكره يتحدّث "دي غرامون" عن عدد ضحايا هذا الوباء خلال المرحلة الممتدة مابين أواخر شهر أفريل ومنتصف شهر جوان مِن نفس السنة يقدر بحوالي خمس وستون وثمانية آلاف

---

1 - Gazette de France :1787, N° 62. 03.08.1787.
2 - Gazette de France :1787, N° 67. P331.
3 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 19-20. 25/04/1787.
4 - Jean Marchika :op.cit., P.129,130
5 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 19-20. 25/04/1787.
6 - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P195.

ضحية[1]، وهو نفس الرّقم الذي أوردته تقارير المجلة الفرنسية بناءً على إحدى الرسائل الواردة من الجزائر وقد فصل عدد الضحايا على الشكل التالي[2]:

- مسلمون: 6748
- يهود: 1093
- مسيحيون: 224

فيما يذهب "مارشيكا" إلى التقرير أن رقم الضحايا قد قارب الستة عشر ألفا (16.000)[3]، وهو ما يكون قد نقله غالبا عن "غيون" أو من الوثائق الأرشيفية للشؤون الخارجية، إذ وقفنا على إحدى المراسلات الأرشيفية التي تتحدَّث عن سقوط ما يقارب (16,721) خلال السَّتة الأشهر الأولى لهذا الوباء نجح في القضاء على ما يقارب من (16,721) وقد جاءت التَّفاصيل الخاصة بالضحايا مقسّمة على الفئات الثلاث التي يتشكل منها مجتمع مدينة الجزائر على النحو التالي:

- 613 من النصارى.
- 1.774 من اليهود.
- 14.334 من المسلمين[4].

وقد أورد "دي غرامونت" بدوره ما مفاده أنَّ وباء (1201هـ/1787م) قد آتى على ما يقارب (8065) ضحية مقسّمة على الشكل التالي:

- 6,740 من المسلمين.
- 1,093 من اليهود.
- 224 من النصارى[5].

ولعلّ هذه الأرقام الكبيرة هي التي جعلت "فونتير دي برادي" يعتبر بأنّ هذا الطَّاعون كان يقضي على العمال بشكل رهيب وامتدّ تأثيره لسنوات عدَّة بعد ذلك[6]، خاصة وأنَّ بعض المؤشرات الموجودة في المراسلات القنصلية الفرنسية كانت تتحدَّث عن استحكام أثره في بعض المدن الساحلية خاصة منها مدينة عنابة[7].

---

1 - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.
2 - Gazette de France :1787, N° 67. 21.08.1787.
3 - Jean Marchika :op.cit., P137.
4 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 29-30. /sep/1787.
5 - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.
6 - Venture de Paradis :loc.cit., Anne 1895, N°39, P295.
7 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F° 168-141. 25/05/1786.

الأمر السَّالف يحيلنا إلى الاختلاف البيّن في شأن عدد ضحايا الأوبئة بين المراجع المختلفة، إذ يَعد "غيون" الأرقام التي نقلها هي مِن أدق الأرقام، وبالأخصّ في الوباء الذي نتحدَّث عنه، إذ أنّه يؤكد أنَّه استقاها مِن أرشيفات وزارة الخارجية الفرنسية؛ بحكم أنّها ضُمِّنت في رسالة أرسلها القنصل الفرنسي العام في الجزائر إلى مسؤوليه في وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية[1]. وهو بينما يؤكده "دي غرمون" أي أنّ الرقم وصل مع نهاية شهر (جويلية/1787م) إلى ما يقارب (17,048) ضحية نتيجة لهذا الوباء[2]. وهذا الرقم قريب نسبيا مما أورده كل من "مارشيكا" و"غيون"، كما أشار الزّهار إلى الأثر الكبير الذي أحدثه هذا الوباء على السَّاكنة؛ إذ كان يقضي يوميا على خمسمائة ضحية[3]، وهو رقم يظهر فيه نوع مبالغة من أجل تصوير حجم الكارثة التي ألمت بالجزائر جراء هذا الوباء، وإلاَّ فإنّ خمسمائة ضحية في ستة أشهر على الأقل لوجود الوباء والتي تتفق حولها جميع المصادر التي ذكرت الوباء يؤدي بنا إلى ما مجمله (90.000) ضحية وهذا أمر مهول جدا، يصعب اعتماده خاصة إذا ما قُورن بساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر. كما قضى هذا الوباء على ما بين (60-50) ضحية من رياس البحر[4].

وبإجراء مقارنة بين المعطيات الرقمية التي نقف عليها في المراجع الأجنبية المختلفة فإنَّنا نلاحظ مجموعة من الأمور لعل من أهمها الآن: أنّ الأرقام غالبا ما تكون متضاربة متباينة، وهذا مردّه صعوبة إيجاد إحصاء دقيق لضحايا الوباء خلال تلك الفترة من جهة، واختلاف زوايا الرؤى ومصادر المعلومة لدى كل مصدر أو مرجع من جهة ثانية. وقد يمكن إلى حد ما افتراض أن أحد أسباب التباين الذي نقف عليه في هذه الحالة مثلا: أنّ مُراد "دي غرامون" وقصده عدد الضَّحايا خلال المرحلة الأولى قد يكون خاص بحصر العدد في سكان مدينة الجزائر لا غير، وهنا فقط يُستساغ ذلك.

أمّا الملاحظة الثانية التي نقف عليها بمقارنة بسيطة بين محتوى الأعداد المختلفة للضحايا: فإننا نؤكد على السُّلم التراتبي لعدد الضحايا لدى كل مصدر لا يختلف عن الآخر، بحيث يأتي المسلمين في رأس المثلث الهرمي المقلوب لعدد الضحايا عند "غيون" مثلا يقارب نسبة (85,72%) وعند "دي غرامون" يقارب نسبة (83,57%)، تليهم بعد ذلك فئة اليهود، ثمَّ تأتي بعدهما فئة النَّصارى بحيث تكون في أدنى الهرم المقلوب، كأقل الفئات تضررا من تبعات هذا وباء سنة (1787م) فيكون الشكل بالصورة التالية:

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 29-30. /sep/1787.
[2] - H.- DE Grammont : Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.
[3] – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 78.
[4] - Venture de Paradis : loc.cit., Anne 1895, N°39, P310.

وقد ذكر غيو أنَّ الوباء كاد أن ينتقل إلى إسبانيا عبر إحدى السُّفن المملوءة بالعبيد المتجهة إلى جزيرة مايوركا، إلاَّ أنَّ سقوط ضحايا على متن السَّفينة جعل السُّلطات الإسبانية تقوم بإخضاع كل مَن كان في السفينة إلى الحجر الصحي، فوقع عددٌ آخر من الضحايا ممّن أصيب بالعدوى، ونجى قسمٌ آخر من الأسرى الذي كانوا على متن السفينة، وكان مِن نتائج التدابير الوقائية التي اعتمدتها السُّلطات المحلية أن تجنّبت إسبانيا أَثرَ هذا الوباء[1]، وقد استمرّ هذا الوباء في حصد ضحاياه في الجزائر إلى غاية (14/حزيران/جوان (1201هـ/1787م) حسب "دي غرامون"[2] وامتدَّ إلى ما بعد هذا التَّاريخ حسب ماورد في إحدى تقارير المجلة الفرنسية المؤرخ في (1787/08/17م) التي تحدَّثت عن تفشي الوباء في جلِّ السُّفن التَّابعة أو الواردة من إيالة الجزائر[3].

وقد بل بلغ عدد ضحايا هذا الوباء خلال هذا الشَّهر المقصود حوالي ثلاثة آلاف وثمانمائة من الضحايا من بينهم اثنان وستون ومائة وثلاثة آلاف (3162) مِن المسلمين وأربعمائة وتسعون من اليهود ومائة وسبعون من النصارى[4]، وهو ما نستشف من خلاله أمرين على غاية كبيرة من الأهمية:

أولهما: أنَّ تأثير هذا الوباء ظلَّ يسري بين الفئات المختلفة بنفس القوَّة التي تحدّثنا عنها آنفا، فكان أكبر تأثيره على المسلمين ثمَّ اليهود فالنَّصارى.

وثانيهما: أنَّ قوَّة هذا الوباء لم تتأثر بارتفاع درجة الحرارة خلال هذه المدَّة والذي مِن المفترض أن يكون وسيلة مساعدة مِن أجل التَّخفيف مِن حدَّة نشاط الوباء.

بل إنَّ في هذه الأرقام ما يشير فعلا أنَّ بقاء الوباء في هذا الشَّهر يؤكد أنّه بهذه الحدَّة يحوصل باختصار شدّته وحدّته المتلازمتين طيلة مدة نشاطه بالإيالة، ويجعلنا نعتقد أنّ هذا الوباء أحد أهم وأقوى الأوبئة التي ألمتَّ بالجزائر خلال القرن الثامن عشر فعلا.

---

1 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P353.
2 - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.
3 - Gazette de France :1787, N° 66. P320.
4 - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P236.

يتحدَّث "كونر" عن كونَّ أن انحصار هذا الوباء قد حدث بالفعل نتيجة لارتفاع مستوى درجة الحرارة إلى درجات كبيرة خلال شهر (أوت/ أغسطس) مِن السَّنة نفسها[1]، بينما يرى "الزّهار" أنَّ هذا الوباء قد استتب له الأمر في الجزائر مدّة طويلة ناهزت العشر سنوات أي إلى غاية (1211هـ/1797م)[2]. فيما تذهب "لوسيت فلنسي" إلى أنّه توغّل أكثر بعد سنة (1789م) باتجاه الجنوب الجزائري أي إلى منطقة الزّاب وغيرها[3]، وهو ما نقف عليه فعلا في بعض الإشارات إلى خراب بسكرة نتيجة وباء حلّ بها خلال نفس المدّة المعنية بالدراسة.

وممّا تذكره الأبحاث أيضا أنّ الوباء الذي شهدته جلَّ منطقة المغرب خلال سنة (1785م) ومسَّ كل من تونس والجزائر، تخلَّصت مِنه الأولى بعد سنة، بينما امتدَّ في الجزائر لسنوات أخرى وفي أماكن عدَّة، وتذكر "لوسيت فالنسي" أنَّ هذا الوباء انتشر مِن المناطق الشرقية التي عرفته سنة (1787م) إلى المناطق الوسطى للجزائر أي بيلك التيطري وكان ذلك سنة (1788م) ليتوغَّل أكثر في العمق الجزائري باتِّجاه منطقة الزاب كما مرّ بنا[4].

وهو ما ذهب إليه أيضا "الزّهار" وإن كانت روايته تحتمل أن تكون تحمل بين جنباتها نوعا من المبالغة، إذ أخذنا في الحسبان الفترة الزمنية التي يورد أنّ الوباء ظل ناشطا فيها في الجزائر، فهو يتحدَّث عن استمرار الوباء عشر سنوات، أي في الفترة الممتدَّة ما بين (1201هـ-1211هـ) أي (1787م-1797م) لكن ما تكشف عنه المصادر يوحي بأنَّ هذا الوباء نشط على فترات متقطعة، أي ظلَّت الجيوب الوبائية نشطة على فترات متقطِّعة، وإلاَّ فإنّه بافتراض استمراريته وباحتساب معدّل متوسط الضحايا خلال تلك الفترة نجد أنَّ الرقم يصبح جد مهول ولا يمكن مقارنته بأي حال مع متوسط الكثافة السكانية بالجزائر عموما.

وقد ظل ماثلا في بعض أرجاء الإيالة وتحوَّل مع الوقت إلى نوع من أنواع الجوائح الحيوانية إذ أتى على عدد كبير من الضحايا الحيوانية أيضا حسب "كونر" الذي أشار إلى أنّ هذا الوباء لم يقتصر أمره على البشر فقط بل ضرب هذه المرَّة الحيوانات بشكل كبير ومركز، فأتى على عدد ضخم مِن المواشي والأبقار التي كانت ترعى في الجبال والمناطق البعيدة، وهذا ما أدى إلى تأذي سكان الأرياف والقبائل هذه المرَّة بشكل كبير[5]، وهو ما يُظهِر فعلا مدى تفشي هذا الوباء. الأمر الذي حمل الكثير من الباحثين على اعتباره

1 - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P237.

2 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 78.

3- Lucette Valensi : op.cit., P21.

4 - ibid. P21.

5 - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P227.

جائحة حيوانية خطيرة[1]، فيما يرى "غيون" أنّ أثره لم يكن بتلك الشدّة التي أحدثها في سنته الأولى؛ لذا لم يُسجَّل عددٌ كبيرٌ من الضحايا خلال هذه السنة[2]. وهذا ما جعلنا نعتبر بداية النِّصف الثاني مِن هذه السنة مرحلة العافية وهو ما سنتحدَّث عنه هاهنا.

عودة السنوات الصحية الجيدة إلى الإيالة (1788م-1792م) مشوبة ببعض الأزمات

كما يتجدَّد نشاط الوباء سنة (1788م) لكنه يظل على نطاق ضيق، وهذا ما يمكن عدُّه أمرا طبيعيا إذ لا يمكن أن ينحصر الوباء دون أن يترك أثره، خاصة وأنَّ وباء سنة (1787م) كان جدُّ نافذٍ ما جعل مدينة الجزائر تحمل بين ثناياها ملامح هذا الأثر في هذه السنة[3]، وذُكِر سُقوطُ عددٍ بسيط من الضحايا نتيجة عودة الوباء كما هو الحال في أحد المراسلات الفرنسية التي تحدَّثت عن عودة نشاط الوباء في ربيع سنة (1788م)[4] وقد ظلَّت بعض الجيوب الوبائية للوباء الماضي ذكره ماثلة في الجزائر خلال سنة (1203هـ/ 1788م) بالرغم مِن أن أثره كان قد خفَّ فِعلا في صيف (1787م)[5]، مثلما تشير رسالة قنصلية أخرى صادرة عن السُّلطات الفرنسية في الجزائر إلى استمرار الوباء مع معدل وفيات صغير[6]، وقد تأكَّد انتهاء هذا الوباء في شهر أوت مِن السَّنة نفسها حسب ما توره ملاحظات قنصلية[7].

كما قد أُشير إلى إمكانية وجود شكل مِن أشكال الطَّاعون أيضا في تلمسان خلال سنة (1790م)[8]، ونقل ذلك أيضا "مارشيكا" في أطروحته[9], ونقف في نفس هذه السنة على اشتداد الوباء في مصر حسب ما تنقله المراسلات الموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء والتي تذكر في ثناياها عدد من رجال الدولة الذين فقدوا خلال هذه النائبة[10]، ونقف في تقرير للقنصلية الفرنسية في الجزائر على إشارة عرضية لوباء أصاب مدينة تلمسان سنة (1791م)[11] إلاَّ أنّ الوقائع والمظان المختلفة لا تتحدَّث ولا تشير إلى مثل هذا الوباء خلال تلك الفترة في الجزائر، إلاَّ أنَّ هذا الوباء كان ينشط بشكل كبير ومنهجي في مركز الخلافة العثمانية مدينة اسطنبول حسب ما توره تقرير قنصلية فرنسية [12] كما تتحدَّث المجلة الفرنسية في

[1] - Jean Marchika :op.cit., P.129,130
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P353.
[3] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P237.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 42. 16/03/1788.
[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 22-23. 29/06/1787.
[6] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 66-63. 27/06/1788.
[7] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 80-86. 13/08/1788.
[8] -J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P354.
[9] - Jean Marchika :op.cit., P140.
[10] - B.O.A : HAT. Do : N°1412. Gömlek N°57500. Tarih 1205.Z.29. Belg 01.
[11] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F° 138-144. 28/07/1791.
[12] - Gazette de France, 1791, N° 90. P.395.

تقاريرها الدورية عن تفاقم الوباء سنة (1792م) في كلٍّ مِن المورا واليونان الخاضعتين للسَّلطنة العثمانية وتورد هذه التقارير أنَّ عدد الضحايا جاوز الثلاث مائة ألف[1].

لتشهد بعدها إيالة الجزائر نوعا مِن خمود الطَّاعون وتراجعه هجماته، وإن كنا لا ننفي تمام وجود أي نشاط وبائي، بل ظلَّ سقوط بعض الضحايا يعد عن بعض المصادر نوعا مِن الوباء وهو ما لا يمكن الجزم به، لذا فنحن جُدراء بأنْ نصرف البيان إلى تحقيق ما قلناه سابقا، مِن كون الإيالة تعرف هدوء النشاط الوبائي في الجزائر منذ صيف (1788م) وإلى غاية سنة (1206هـ/1792م) فهي كانت تعيش في نوع مِن السَّلام غير المعلن مع النشاط الوبائي. في حين لم يغب الوباء خلال هذه الفترة عن الحوض المتوسطي إذ نقف في إحدى المراسلات الأرشيفية للقنصل الفرنسي في أثينا عن حديث عن تفشي الوباء بها وأثره الكبير عليها[2].

تجدُّد الوباء مرَّة أُخرى (1206هـ/1792م)

غير أنّ ذلك السَّلام بين الإيالة والأوبئة لم يلبث أن انفك عِقده أواخر سنة (1206هـ/1792م) وهذا حين عاودت شبهة الطَّاعون في الظهور بين ظهراني أحد الأساطيل البحرية الجزائرية القادمة من اسطنبول[3]، إذ أُشيع بأنَّ ضمن طاقم هذا الأسطول مَن هو مصابٌ بالطَّاعون[4]، ونقف بالفعل على خروج سفينة بها مائة وثلاث بحارة من بينهم خمسة وستون بحار كان قد عين في إيالة الجزائر بينما أرسل الخمس وثلاثون بحار الباقيين للعمل في الإيالة التونسية[5]، ونجد أنَّ ساكنة المدينة قد ظلت تترقَّب بخوف مصير هذا الأسطول، خاصة وأنَّ وكيل الخرج لم يكن قد حسم أمره في شأن دخولهم الميناء من عدمه[6]، ومما يدعم الشواهد حيال إمكانية أن يكون هذا الأسطول فعلا يحمل بين جنباته الطاعون هو الإشارات المختلفة في الوثائق العثمانية التي تتحدَّث عن انتشار الوباء[7] في جزيرة المورا (Mora) العثمانية على ضفاف المتوسط، مثلما نقف في مواطن أخرى على هجرة عدد من العمال المعينين لمناصبهم في قرى الأناضول بسبب هذا الوباء[8]. وقبل ظهوره بسنة واحدة أي في سنة (1791م) وصل خبر انتشاره في مصر[9] بل إنَّ الوباء هذه المرة لم يكتف بالعامة من النَّاس بل استطاع الوصول إلى والي مصر إسماعيل باي وقضي عليه فس السنة

---

[1] - Gazette de France : 1792-27-01. N° 08. P 01.
[2] - C.C.F.A] AF. é [: (AE/B/I/174). Cotes : F° 183. 18 août 1789.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P225.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes : F° 160. 08/06/1792.
[5] - B.O.A : AE.SSLM.III. Do : N°136.Gömlek N°8256. Tarih 1206.B.12. Belg 01.
[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P353.
[7] - B.O.A : C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.
[8] - B.O.A : C.AS. Do : N° 870.Gömlek N°37292. Tarih 1206.L.04. Belg 02.
[9] - B.O.A : C.DA. Do : N°35.Gömlek N°1722. Tarih 1205.N.29. Belg 01.

نفسها (1791م)[1]، ولعله واصل من هناك طريقه إلى الأناضول أيضا عبر المسار البحري الرابط بين الإيالة المصرية والأناضول، ونقف عليه أيضا سنة (1792م) في مصر أيضا[2]

وإذا قد شرعنا في الحديث عن دخوله الجزائر عبر هذا الأسطول فعلينا أن نشير إلى نقطة هامة تساهم بدورها في ولوج هذا الوباء وغيره إلى إيالة الجزائر والمتمثلة في تدخل ريّاس البحر بنفوذهم من أجل السّماح لأصدقائهم بدخول المدينة، ولعل التّساهل والاضطراب الذي عرفته هذه الحادثة هو ما سيؤدي لاحقا إلى ظهور الوباء مرّة أخرى في الجزائر هذه السّنة (1206هـ/1792م) ومطلع السّنة القادمة. وقد ألمّ هذا الوباء بعددٍ مِن المناطق التي تخضع للسُّلطة العثمانية كجزيرة مورا ومناطق في الأناضول ومدينة ازدين (izdin) باليونان[3]، وقد أشار قنصل فرنسا في "أثينا" إلى هذا الوباء وقال أنَّ عدد ضحاياه قارب الثلاثمائة ألف قتيل (300.000)[4].

لذا نجد مَن يرى أنَّ الوباء قد تجلّى فعليا في إيالة الجزائر خلال هذه السنة أيضا، ويستند في ذلك على ما حملته إحدى الرسائل من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى سلطات بلده، يخبرهم فيها بأنّ الوباء الذي ظهر في الجزائر في شهر جوان من سنة (1792م) قد ظلَّ بها إلى غاية شهر جويلية مِن السَّنة القادمة، أي سنة (1793م).

كما أنَّ "مارشيكا" ينقل من رسالة مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية أنّ تأثير العدوى في وباء (1792م) لم يكن كبيرا؛ لذا لا نقف عليه كثيرا في المصادر المختلفة[5].

في بداية هذه السنة الجديدة (1793م) أي منذ مطلع الشَّهر الأوَّل قد شُوهِدت بعض الحالات التي كانت تنذر بتفشي الوباء داخل أسوار مدينة الجزائر، واعتبرته بعض المراجع استمرارية للوباء الذي ظهر سنة (1786م) إذ حمل نفس أعراضه وآثاره[6]، كما عدَّه بعضهم جائحة حيوانية؛ إذ ظل الوباء الماضي ذكره لسنة (1792م) مستهدفا في الغالب الأعم بالفئران الخاصة بميناء مدينة الجزائر، وهذا ما يفسِّر ظهور أوَّل أعراضه على عمال الميناء من البساكرة[7]، وهو ما يجعلنا نعتقد أنَّ هذا الوباء هو الطّاعون الدبلي (bubonic plague).

[1] - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu : a.g.e, s2702.
[2] - B.O.A : HAT. Do : N°209. Gömlek N°11213. Tarih 1206.Za.29. Belg 01.
[3] - B.O.A : C.AS. Do : N°170. Gömlek N°7439. Tarih 1206.Z.20. Belg 02.
[4] - Gazette de France, 1792, N° 08. P33 .
[5] - Jean Marchika :op.cit., P141.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P222.
[7] - Jean Marchika : la peste en Afrique septentrionale, P141.

وقد أُورِدت رسالة من القنصل العام الفرنسي في الجزائر إلى وكيل الشركة الفرنسية أنّ الوباء قضى على عدد من البساكرة في ميناء مدينة الجزائر في السابع والعشرين من شهر (جانفي/يناير)[1]، كما أوردت الرسالة نفسها أمرا إلى الوكيل العام للشركة الإفريقية في مدينة بونة يقضي فيه بضرورة أن يحرص على إرفاق كل السُّفن الصَّادرة باتِّجاه فرنسا بالوثائق اللازمة التي تشرح الوضع الصحي العام في الجزائر[2]، وذلك حتّى يتسنّى لآمر البحر في الموانئ الفرنسية الانتباه إلى تفتيش هذه السُّفن وأخذ الاحتياطات اللازمة لمنع ولوج أي وباء إلى أراضي المملكة الفرنسية. كما نجد ذكر الوباء في بعض التحليلات التي رافقت الرسالة التي أرسلها المفاوض لتحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر السيد (Batault) بأنّه قد تجدّد الوباء سنة (1793م)[3]

تباطئ قليلا نشاط وباء (1793م) لكنه كان متفشي في العديد من الإيالات والأقضية العثمانية فنجد خبره في كل من: أدنه (Adana) وأنقره (Ankara) وإسطنبول (Istanbul) حسبما هو موجود في الوثائق الأرشيفية العثمانية[4]، وقد ظهر في بداياته الأولى خلال شهر (فيفري/فبراير) في إيالة الجزائر وكأنه يتراجع إلى الوراء وينحصر، حسبما توده رسالة القنصل الفرنسي في الجزائر لوزارة الخارجية الفرنسية، لكنه عاد ليتجدَّد بعد منتصف الشهر مرَّة أخرى وبشكل أكثر حدة[5]، وكما مرَّ بنا فإنَّ هذا الوباء لم يخرج على عادة الأوبئة في استهداف فئات محددة، إذ نجد أنَّ أول من أُصيب بهذا الوباء وظهرت عليه أثاره هم فئة البساكرة[6] ، ثمَّ سرعان ما انطلق هذا الوباء بقوَّة جديدة في النصف الثاني من شهر فيفري، كما اشتدّت حدّته في شهري (مارس/ أفريل) من السنة نفسها[7]، وقد نجح هذا الوباء هذه المرَّة في التّسرب إلى مدينة البليدة إذ وحسب مراسلة قنصلية فإنَّ الوباء كان موجوداً بمدينة البليدة بداية مِن الثُّلث الثاني لشهر (أفريل/أبريل)[8]، وبعدما تمكَّن بها امتدّ منها إلى بعض المناطق الدَّاخلية الأخرى وبالأخص

---

[1] -Lettre du 29 janvier, dans le registre de la correspondance du consulat Français, Guyon, op.cit, P 355.

[2] - Lettre du 29 janvier, dans le registre de la correspondance du consulat Français, Guyon op.cit, P 355.

[3] - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736), P28.

[4] - B.O.A : C.ML. Do : N°94. Gömlek N°4218. Tarih 1207.Z.07. Belg 03.

[5] - Lettre du 17 février, dans le registre de la correspondance du consulat Français, ibid, P 355.

[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P225.

[7] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P226.

[8] - Jean Marchika :op.cit., P143.

مدينة قسنطينة وغيرها[1]، مُستفيداً مِن الحركة الكبيرة التي تحدِثها حاشية الباي عندما تصادفت مع الزيارة التي كان يقوم بها باي قسنطينة؛ لأجل دفع الدنوش مع هذا الوباء[2].

ارتفعت شدّة هذا الوباء بحيث أضحى في نهاية شهر (جويلية/يوليو) يقضي على متوسط ما بين (80-100) ضحية يوميا[3]، ثمّ يتباطئ مرّة أخرى في نهاية شهر(أوت/ أغسطس) ليصل إلى متوسط ما بين (20-25) ضحية يوميا[4].فيما تذكر بعض الجرائد الخاصة بمدينة بونة أنَّ متوسط الضحايا في قسنطينة في شهر أوت ظل يتراوح ما بين (80-100) ضحية يوميا[5].

ولعل سبب سهولة انتقاله هذه المرّة مِن مدينة الجزائر إلى عاصمة بيلك الشرق قسنطينة كانت الزيارة التي يقوم بها الباي من أجل دفع الضريبة (الدنوش) وهي عملية كان يقوم بها البايات كلَّ ثلاث سنوات، كما شهد الوباء تقدُّما ملحوظا خلال أيام الصَّيف على غير العادة، بسبب الأمطار الغزيرة التي كانت تهطل على الجزائر في نهاية شهر (ماي/1793م) ما أدى إلى استمرار أثر هذا الوباء حتّى في فصل الصيف، مع ملاحظة تراجع مداه قليلا في مدينة قسنطينة ليصبح في مرحلة ما يقضي على متوسط رقم ينحصر حسب رسالة من وكيل الشركة الفرنسية في القالة إلى ممثل السلطة الفرنسية فيما بين (20-25) ضحية يوميا[6].

وقد أدت سرعة وقوّة انتشار هذا الوباء في بعض مناطق بيلك الغرب الجزائري؛ بالسُّلطة في المغرب الأقصى إلى فرض حِجر صحي على القادمين مِن الجزائر. وقد لبث العمل بهذا الحِجر مِن شهر جوان إلى غاية شهر أكتوبر من سنة (1793م) تقريبا[7]، ما يوحي فعليا بأن نشاط هذا الوباء انحصر أو انعدم تماما، وهو نفس ما نقف عليه في الرسالة التي أرسل بها وكيل الشركة الإفريقية في مدينة بونه إلى القنصل الفرنسي العام بمدينة الجزائر والتي يعلمه فيها بانحصار الوباء تماما، وقد كانت هذه الرِّسالة في الرابع من شهر نوفمبر من نفس السنة[8]، وبالتالي فغالب الظنَّ أنَّ هذا الوباء انحصار فعليا بداية مِن شهر أكتوبر.

وباء (**1208هـ/1794م**)

[1] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P353.
[2] - Jean Marchika : op.cit., P142.
[3] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 461.
[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P226.
[5] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 461.
[6] - Lette du 26 août, de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Alger, J.-L.-G. Guyon : op.cit., P-P, 353-356.
[7] – محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص87.
[8] - Jean Marchika :op.cit., P142.

يعدُّ هذا الوباء أحد الأوبئة التي قَدِمت إلى الجزائر واستوطنتها في فصل الرَّبيع[1]، وغالبا ما كان ذلك بعد موسم الحج؛ إذ قدِم مع الوافدين سنة (1208هـ/1794م)[2]، وقد مثَّل شكلاً مِن أشكال استمرار عودة نشاط الجيوب الوبائية في منطقة ما، وتذكر المراجع أنّ جُثث الضحايا غالبا ما كانت تميزها أنواعٌ من الترسبات والبقع السوداء المتضخمة على أجسام الضحايا[3]، ما كان يوحي بالمعانة الكبيرة التي يتعرَّض لها ضحايا هذا الوباء، وهو ما يوحي بنوعية الطاعون الذي كان في الغالب الأعم هو الطاعون الدبلي مثلما تحدَّثنا عنه في المدخل.

تظهر من خلال المراسلات الرسمية بين القنصلية الفرنسية في الجزائر ووكيل الشركة الفرنسية بمدينة عنابة، أنَّه وبداية من شهر أبريل مِن سنة (1208هـ/1794م) شُوهِد أثر الوباء مرَّة أخرى في الجزائر، أو بالأحرى يمكننا القول أنَّه لوحظ استمرار الوباء في حصد الضحايا لكنَّه في هذه المرَّة لم يكن بتلك الشدّة الكبير[4]، كما لاحظ القنصل أيضا وجود مرض آخر لم يستطع التّأكد منه، أتى هذا المرض على عدد كبير مِن الضحايا[5].

انتقل هذا الوباء في المرحلة الثانية بعدما اشتدّ أثره في مدينة الجزائر باتجاه بيلك الشرق بحيث تفشى في كلّ من عاصمة بيلك الشرق مدينة "قسنطينة"، ومدينة عنابة إحدى كبريات المدن في هذا البيلك ، إذ أصبح أثر الوباء في هاتين المدينتين أكبر منه في مدينة الجزائر في حد ذاتها، إذ لم يتجاوز عدد الضحايا في مدينة الجزائر (31 ضحية/يوميا) بينما وصل عدد الضحايا تقريبا إلى (50/يوميا) في قسنطينة[6].

هذا التباين في الأرقام بين المدينتين يفتح لنا آفاق التَّساؤل حول ما إن كان لخبرة سكان مدينة الجزائر في الأوبئة دورا في التَّعامل مع هذا الوبا؟ مقارنة بغيرهم من سكان المناطق الأخرى؟ وقد استثنينا التفكير في الموقع الجغرافي وعلاقته بالقرب والبعد عن البحر بسبب كون ثاني مدينة عانت من أثر هذا الوباء وغيره سواء في هذا البيلك أو مقارنة مع مختلف المدن في الجزائر هي مدينة "عنابة" وهي بدورها مدينة ساحلية كانت تعاني مثل مدينة الجزائر وفي بعض الأحيان أكثر منها في تبعات وآثار الوباء على السَّاكنة، فإن قمنا بالمقارنة بين أثر هذا الوباء مثلا في مدينتي "عنابة" و"الجزائر" وجدنا أنَّ مدينة عنابة تحصد ضحايا بشكل أكبر مع دار السلطان "مدينة الجزائر" علما بأنَّ الكثافة السُّكانية كانت في "مدينة الجزائر" أكبر

---

1 - Ibid., P144.
2 - Walsin Esterhazy : op.cit., P190,
3 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P-P, 358.
4 - Lettre du 3 avril, du consul français, à Alger, à l'agent consulaire de France à Bône, J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P-P, 356.
5 - Lettre du 10 avril du consul de France, à Alger, au ministre des affaires étrangères dans. J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P-P, 356.
6 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P, P, 356, 357.

منها في "مدينة عنابة" ما يحيلنا إلى الافتراض بأنّ طريقة تعامل ساكنة مدينة الجزائر فعلا قد -أواخر القرن الثامن عشر- أصبحت أكثر نضجا في التعامل مع الوباء مِن غيرهم.

كما يمكن أن يربط البعض بين "عنابة" أو "بيلك الشرق الجزائري" وعلاقته مع إيالة تونس الحدودية ما يجعل حدوث التأثر قد يكون أكبر بحكم الحدود وحركة القبائل في الإيالتين مع بعض، لكن هذه الفرضية أيضا يصعب إعمالها في هذا الوباء تحديدا كون إيالة تونس لم يلاحظ بها أثرا للوباء منذ (ماي/ 1786م) ما يجعل عامل الحدودي والقرب من تونس في هذا الموضع في بعيد الافتراض.

نعود للحديث عن هذا الوباء والذي وصل هذه المرّة إلى بعض الأشخاص مِن ذوي الجاه مِن أمثال ابن شيخ العرب في منطقة الزيبان، والذي لم يستطع التّعافي من هذا الوباء؛ فسقط في شهر ماي 1794م مَقضيا عليه، وارتفعت الحصيلة اليومية من الضحايا من (50/يوميا) إلى (150/يوميا) إلى بمعدل (300%)[1]، نعتقد أن هذا الارتفاع في عدد الضحايا كان لفترة محدودة لم تتعد (15 يوما)، والأمر الغريب فعلا في تطور النشاط الوبائي هذه المرّة أنّه كان في عز فصل الصّيف، وبالتّحديد في النِّصف الأوَّل من شهر (جويلية/يوليه1794م)[2] وهو ما نجده مُصرَّحاً به في ثنايا إحدى الرسائل التي أرسلها وكيل الشركة الإفريقية السيد (Guibert) إلى القنصل العام الفرنسي في الجزائر السيد" فاليار " (Valliere) بتاريخ الثامن مِن شهر جويلية (1794م) وهو الأمر الذي لاحظه الدكتور "غيون" بتعجُّب كون الفترة المعتاد فيها تراجع الوباء هي فترة الصيف والممتدة ما بين (جويلية-أكتوبر) ويعتقد "بير بروجر" أنَّ ذلك مردُّه تواصل سقوط الأمطار على غير العادة على قسنطينة خلال تلك الفترة[3].

ننتقل بعدها للحديث عن الوباء في بيلك الغرب الجزائري، إذ يظهر هذا الطَّاعون ببيلك الغرب الجزائري في فترة حكم " محمّد بن عثمان الأكحل أو "محمد باي الكبير" وبالتَّحديد سنة (1208هـ/1794م)[4]، وهذا بعد قحط شديد ألمَّ بالبيلك سنة قبل ذلك[5]، أطلق سّكان البيلك على هذا الوباء اسم (حبوبة عثمان)[6] نسبة إلى عائلة "عثمان بن محمد الكبير" إذ أنّه قضى على عدد كبير من أفراد هذه العائلة[7].

---

1 - Lettre du 4 juin, de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Alger. J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P-P, 356.
2 - Lettre de M. Guibert dans : H.V.P.C. P491.
3 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P227.
4 - Brosselard : loc.cit., Revue African., Anne 1860, N°4, P 88.
5 - مؤلف مجهول: نبذة من سيرة الباي محمد الكبير(مخطوط) المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 5022. [و/2]
6 - Walsin Esterhazy : op.cit., P196,
7 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P357.

ساد الاعتقاد لدى سكان البيلك أنّ السبب الرئيسي وراء هذا الوباء هو مجموعة من الحجّاج العائدون من "مكة المكرمة"[1]، وهو ما رأى "بير بروجر" أنّه يتعارض مع الحقائق التي قدّمها عن الطريقة التي تفشى بها الوباء من مدينة الجزائر إلى بيلك الشرق ثمّ بعد ذلك وصوله إلى بيلك الغرب الجزائري[2]، لكن هذا التّحامل على رأي الأهالي في الكيفية التي وفدت بها "حبوبة عثمان" إلى بيلك الغرب الجزائري قد يستساغ في حالتين اثنتين، إحداها أن تكون مدينة وهران مدينة داخلية لا ترتبط بأي علاقات مع العالم الخارجي إلاّ عن طريق البر، وهذا معلوم أنّه غير صحيح، والثانية أن تثبت لنا الوثائق أنّه لم يدخل خلال سنة (1794م) أي سفينة إلى ميناء مدينة وهران قادمة من الحج أو تحمل على متنها الحجاج، وهو الأمر الذي لا يستطيع "بير بروجر" إثباته، لذا نعتقد أنّ وفود الوباء من البّر كما قال "بير بروجر" لا يتعارض مع وفوده أيضا وفي نفس المدة مِن جهة البحر، لتبقى الأسبقية هي محل النَّظر.

وباء سنة (1795م- 1796م)

كما يذكر "بير بروجر" إمكانية أن تكون سنة (1795م) موبوءة ولو بشكل ضيق ومنحصر، إذ ذكر أنه قد قيل بوجود بعض الضحايا في مدينة "دلس" ومدينة "الجزائر"[3]، لكنَّ هذه المعلومات ظلَّت فوضوية وشحيحة وبدون تفاصيل، كما أنَّ وجود هذا الوباء في تونس خلال نفس الفترة كان أثره ضعيفا لكن من المؤكد وجوده خلال تلك الفترة، إذ نقف في العديد من المراسلات على إشارات متفرقة عن وجود الوباء في انتشار كما هو الحال في إحدى الرسائل التي أرسلها أحد العمال الفرنسيين في الشركة الإفريقية مِن مدينة القالة إلى السلطة الفرنسية يشتكي فيها ما لقيه في سفره من تعرض قراصنة البحر لسفينته، ويشرح كيف أنّه لم يستطع دخول الموانئ التي مرّ بها بسبب انتشار مرض الجدري بها منذ أكثر من أحد عشر يوما[4]، ولعل ضعف تأثير مرض الجدري في مدينة الجزائر -إن وجد- هو ما جعل ذكره في الوثائق أمر نادر[5]، وهو ما يجعلنا نعتبر هذه السنة فعلا سنة موبوءة، إذ أنّ المصادر لا تُمدُّنا بما مِن شأنه أن يُعد أَساسٌ معلوماتي قد يرقى ليُؤسس عليه موقف علمي أو تاريخي ما حيال وجود الوباء من عدمه.

اشتبه في وجود بعض الحالات الشاذة التي سقطت نتيجة الوباء في كلّ من مدينتي الجزائر ودلس[6]، وهذه المعلومة نقلها أيضا "مارشيكا" من "بير بروجر" وتوقف لديها دونما إبداء رأيه[7]، ولعل هذا راجع إلى

---

[1] - Walsin Esterhazy : op.cit., P196,
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P227.
[3] - Ibid. P229.
[4] - Bonne, et floréal an 4 de la République (21 Avril 1796) Au citoyen Herculais, envoye extraordinaire de la République française auprès des puissances Barbaresques: H.V.P.C, P335.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P357.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229
[7] - Jean Marchika :op.cit., P146.

انعدام المعلومات حول هذا الوباء، إضافة إلى انعدام ذكره في المصادر والمراجع المختلفة من جهة ثانية حملنا على أن لا نأخذها في الحسبان كسنة وبائية، إذ أنّ تأثيرها إن كانت موجودة فعلا فهو لم يصل إلى درجة تصنيفها سنة وبائية، ولهذا لم يُلتفت لها أصلا في جل المصادر وحتى الدراسات المختصَّة.

أمَّا في السنة التالية أي: (1796م) فإنَّنا نقف على بعض المراسلات في الأرشيف العثماني تتحدث عن وجود الوباء في عدد من الجزر والإيالات التابعة للدولة العثمانية خاصة بلغاريا واليونان[1]،وهو ما يؤكد صحة المعلومات التي توردها بعض المراسلات القنصلية الفرنسية مع وكلاء الشركة الإفريقية، بحيث تورد هذه الوثائق والمراسلات بأنَّه قد لُوحظ وجود أعراض للوباء بداية مِن شهر(أبريل/أفريل) من سنة (1796م)[2]، كما ورد في برقية أخرى أنّه في الخامس أو في السَّادس مِن شهر (جويلية/تموز) قد توفيت امرأة في مدينة عنابة نتيجة الطَّاعون لكنها ظلت حالة شاذة[3]، كما تتحدَّث المراجع عن بداية ارتفاع عدد الضحايا بعد شهر جويلية وأوت إذ وصل في تلك الفترة في بعض الأيام وفق ما أورده الأب "فيشرا" ونقله عنه مارشيكا إلى عدد ثمانية وأربعين يوميا، مِن بينهم عدد كبير مِن النَّصارى[4].

كما يتحدّث "غيون" عن خروج سفينتين مِن ميناء مدينة الجزائر واحدة في شهر (جوان/) اسمها L (Eulalie) والأخرى في شهر جويلية اسمها (la Fortune) وقد اكتُشف لاحقا في ميناء مارسيليا بأنَّهما تحملان الوباء[5]. في نفس الفترة أي خلال شهر (جويلية/يوليو) وشهر (أوت/أغسطس) وقد مرَّ بنا أنّ الوباء حينها كان يضرب مدينة الجزائر بقوَّة من جديد[6].

وباء سنة (1797م)

يعد أحد أشد الأوبئة التي عرفتها كلّ من تونس والجزائر، يرجع (Tholozan) " ثلوزان " أنَّ أصل هذه الوباء يرجع إلى "صعيد مصر" فيرى أنَّه قد ظهر هناك سنة (1796م) وانتقل منها إلى غيرها من المناطق في إفريقيا، أو أنَّه ظهر في الحبشة وانتقل منها إلى صعيد مصر[7]، وهو نفسه ما قرَّره

[1] - B.O.A : C.AS. Dosya N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1210.N.17, Belg 03.
[2] - Lettre du 2 mai 1796 (xui floréal an iv), du consulat de France, à Alger, à l'agent consulaire français de Bône. Guyon, op.cit. P357.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229, Et Lettre de La calle du 22 juin (iv messidor an iv), au consul de France, à Alger, Guyon, op.cit. P357.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P145.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P357.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229.
[7] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P03.

(Laumonier) لومونيير من كون دلتا النيل أحد منابع الطَّاعون الأساسية مثله مثل نهر الغانج في الهند[1] وقد وصل عدد الأوبئة خلال المرحلة الزمنية (1783-1844) ما يقارب واحد وعشرون وباءً[2].

فإن تقرَّر ما سبق انتقلنا للحديث عن امتداد هذا الوباء من مصر إلى غيرها وبالتحديد إلى مختلف الإيالات العثمانية نتيجة للاحتكاك الذي كان أكيد بين الحجاج في موانئ مصر، أما في إيالة الجزائر فقد ظهر هذا الوباء بداية من ربيع سنة (1797م) وبدأ في حصد ضحاياه بشكل كبير بداية مِن شهر ماي[3]، فيما يرى بعض الباحثين أنَّ الانطلاقة الفعلية لهذا الوباء كانت في شهر أبريل مِن سنة(1211هـ/1791م) وامتدّ تأثيره وفعاليته إلى غاية نهاية شهر (جوان/يوليه/1797م)[4].

كان يحصد متوسط ضحايا قُدِّر بما بين عشرين وخمسة وعشرين ضحية في اليوم، وهذا خلال شهر ماي في مدينة الجزائر وحدها[5]، فيما يعرف عدد الضحايا ارتفاعا بشكل مهول جدا، يصل حسبما يورده وكيل الشركة الإفريقية في مدينة بونة -ضمن رسالة إلى القنصلية الفرنسية في الجزائر- إلى عدد يقارب الخمسمائة ضحية يوميا في بداية شهر جوان، ثمّ يتراجع بعدها إلى قرابة المائة ضحية يوميا في آخر الشهر نفسه[6]. تظهر حالات وعينات مرضية لضحايا كُثر بسبب هذا الوباء خارج مدينة الجزائر بداية مِن شهر (جوان) مِن السنة نفسها في مدن بونة وقسنطينة[7] وقد تزامن في مدينة وهران الساحلية حسب إحدى المخطوطات بأزمة غذائية وقحط شديد كان تصرف الباي "محمَّد الكبير" حينها قد خفَّف مِن وطأته بفتحه لمخازن الحبوب وتسخيره مطعم القصر للضعفاء من السكان والأهالي[8]، كما يظهر بعد ذلك تحديدا في شهر(أوت) في مدينة قسنطينة غير أنَّ عدد ضحاياه ظلَّ منحصراً فيما بين (4-5) ضحايا يوميا[9]، ولذلك عُدَّت الإيالة كلُّها موبوءة بالطَّاعون، بحكم أنّ أهم مدنها كانت تحت وطأة هذا الوباء بمستويات مختلفة[10]

---

[1] - Laumonier Jean : op.cit., P02.
[2] - ibid. P8.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P358.
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P229.
[6] - Lettre des 4 et 22 avril, 9 mai et 2 juin (xv germinal, III et xx floréal, et XIV prairial au v), de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Algeri, J.-L.-G. Guyon, opcit, P, 358.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P148.
[8] - مؤلف مجهول: النبذة من سيرة محمد باي فتح ثغر وهران، (مخطوط) المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (5022) ورقة [2].
[9] - J.-L.-G. Guyon : op.cit.,
[10] - Jean Marchika :op.cit., P148.

فيما يمكننا الرجوع للحديث عن العوامل المختلفة التي أدّت إلى أن عودة الانتعاش الكبير للجيوب الوبائية خلال هذه السنة (1211هـ/1797م) إلى أسباب عدّة لعل من أهمها؛ حركة القبائل الكبيرة في داخل الإيالة؛ نتيجة ثورة درقاوة والتي امتدّت في أرجاء واسعة في بيلك الغرب الجزائري، وهذا ما يُستنبط من حديث "أبي راس الناصر" عن فتنة درقاوة وما تبعها من طاعون تهرّب منه الواعون على حد قوله[1].

يبدأ تراجع أثر هذا الوباء كما هي العادة في الغالب في فصل الصيف مع الارتفاع الكبير لدرجة الحرارة[2]، وينحصر تدريجيا إلى غاية عودة ظهوره مرة أخرى سنة (1798م)

تجدد الوباء سنة (1212هـ/1798م)

يبدو أنّ الوباء في الجزائر كان يرفض الرَّحيل أواخر القرن الثامن عشر، إذ أنَّه لم يكتف بنتائج سنة واحدة ليظهر(1211هـ/1797م) ويتجدَّد ظهوره مرّة أخرى سنة (1798م/1213هـ) في شكل طاعون رئوي يجتاح الجزائر والمغرب في نفس التوقيت تقريبا[3] فيما كان مُنتشراً في إسبانيا ومضيق جبل طارق وموانئ طولون الفرنسية[4]، وحسب الدلائل المختلفة ما هو في الحقيقة إلاَّ امتدادٌ طبيعيٌّ لوباء سنة (1779م)، فيما يرى " ثلوزان " أنَّ هذا الوباء إضافة إلى كلَّ مِن وباء (1818م) ووباء سنة (1828م) تعود في أصلها إلى منطقتي القوقاز وأواسط آسيا[5].

ويرى "بير بروجر" أنّ الكلام عن ظهوره في الإيالة في تلك المدة كان محض إشاعات برزت بداية شهر أفريل مِن هذه السَّنة، وحقيقته تظهر أنَّه وباءٌ بسيط تأثيره اقتصر على بعض الحالات المعزولة خلال هذه السنة[6]، تزداد قوّة ونشاط هذا الوباء مع مرور الوقت ليصل إلى غاية أقصى الغرب الجزائري وبالتَّحديد إلى مدينة تلمسان في نفس السنة[7].

وقد تحدّث الدكتور "رنو" عن امتداد الوباء وانتقاله مِن مدينة تلمسان خلال سنة (1798م) إلى المغرب الأقصى عبر الطريق القاري[8]، غير أنّه تعوزنا المصادر والمراجع حاليا في شأن هذا الوباء إذ لا نقف

---

[1] – أبو راس الناصر: فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص24.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P230
[3] – العربي المشرفي: المرجع السابق، ص 181.
[4] - B.O.A : HAT. Do : N°144. Gömlek N°6042. Tarih 1219.Za.24. Belg 01.
[5] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P09.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P231.
[7] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P359.
[8] – محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص 89.

على ذكر كبير له، وكلّ ما نقف عليه في الحقيقة ما هو إلاّ ما أشار إليه "بير بروجر" ونقله عنه "غيون" و"مارشيكا" في كتبهما[1].

وباء (1213هـ/1799م)

يأبى بالفعل الوباء إلاّ أن يترك بصماته في كلِّ سنة مِن السنوات الأخيرة في القرن الثامن عشر إذ تظل الجيوب الوبائية تتجدَّد وتستدعي الأزمات الصحية في كلِّ مرَّة الوبائية، بحيث يظهر النَّشاط الوبائي في مدينة الجزائر مرَّة أخرى في الفترة الممتدة مِن جانفي إلى غاية سبتمبر مِن سنة (1799م)[2]، يصل عندها إلى مرحلة يقضي فيها يوميا خلال شهر (سبتمبر) على ما يقارب (300ضحية/يوميا) في مدينة الجزائر، فيما يقضي الوباء في مدينة قسنطينة ببيلك الشَّرق الجزائري يوميا على ما يقارب (120 ضحية/يوميا)[3].

وقد لاحظ بعض الأطباء العرب في شهر مارس مِن نفس السَّنة ضمن الحجاج الوافدين في سفينة تركية من "مكة المكرمة" أنَّها ضمَّت عددا مِن المصابين بالوباء، توفي عددٌ منهم بعد إصابتهم[4]، وقد شوهد الوباء في كل من غزة وبلاد الشام ومصر أيضا[5]، أصبح الوباء يقضي على (15 شخص/يوميا) خاصة وأنَّه كان قد انتشر في كلَّ مِن معسكر وتلمسان[6]، ويمتدّ إلى غاية صحراء الزّيبان[7].

يبدأ الوباء في الانحصار بداية مِن شهر (جوان/يونيو) إلى (3 أو4 ضحايا/يوميا) وكأنّ بالوباء استغنى عن الضَّحايا الجزائريين الذين تعود عليهم بضحايا جدَّد ضمن هذه المرَّة ضمن العمق الغربي إذ قد ظهرت بالفعل الآثار العديدة لهذا الوباء في المغرب الأقصى بعد مدة وجيزة[8].

الأوبئة في الإيالة الجزائرية في الثلث الأوَّل من القرن التاسع عشر

وباء (1216هـ/1802م)

في السَّنتين الأولتين من القرن التاسع عشر لا نقف على معلومات كثيرة عن تسرب الوباء في إيالة الجزائر خاصة وأنه قد تحقق وجوده في الإيالة المصرية[9]، لكن غالب الظنَّ أنَّه لم يكن له أي تأثير على الإيالة الجزائرية، وكان أول خبر حول ظهوره هذه المرة بعد سنتين كاملتين أي سنة (1802م) واقتصر ظهوره على

[1] - Jean Marchika :op.cit., P149.
[2] - Ibid. P149.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P359.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P359.
[5] -B.O.A : C.AS. Do : N°804.Gömlek N°34147. Tarih 1213.Za.29. Belg 01.
[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P360.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P149.
[8] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P360.
[9] - B.O.A : HAT. Do : N°240. Gömlek N°13451. Tarih 1214.N.29. Belg 01.

بعض أحواز مدينة وهران[1]، وغالبا الظَّن يكون هذا الوباء امتداداً لذلك الذي ظهر بين أظهر الجيش الإسباني سنة (1801م) وانتقل منها عن طريق بعض السفن الحربية إلى مالطا وفرنسا كما توضحه الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء[2]، والأمر فعلا مثلما قد لمح إليه "غيون" في خصوص هذا الوباء قد أُغفِل ذكره وأنَّه لم يُشر إلى أثره أو نتائجه أو طريقة وصوله إذ كُلّ ما ذكر عنه كان ضمن الوثائق الأرشيفية لازارت (lazaret) وأنّ هذا الوباء قد ظهر فعلا في مدينة وهران وبعض النقاط على السَّاحل[3] مثلما يتجلَّى أثر هذا الوباء على طلبات تخفيض الضرائب الواردة إلى السلطة العثمانية من بعض جنودها في الإيالات المختلفة خلال السنة نفسها[4] التي كانت مفروضة على الجند العثماني في بعض الأوجاقات، مثلما نقف على أثره في توقيف بعض الإدارات العثمانية عن مزاولة نشاطاتها بسبب انتظارها أن ينحصر أثر هذا الوباء[5].

ظهور داء الجدري (1217هـ/1803م)

كان للجدري أثراً كبيراً في تاريخ الأزمات الصحية لبلاد المغرب والحوض المتوسطي ككل، لذا نقف على وجود عدد مِن التَّقارير الصَّحية التي اعتنت بظهور مرض الجدري في القرن التَّاسع عشر، والطريقة المثلى في مجابهته[6]، وقد تردَّد على الجزائر في عدد مِن السَّنوات، وكان مِن بين السنوات التي أعاد فيها الظهور بشكل مُتستِّرٍ في أماكن محدودة في سنة (1217هـ/1803م) في مدينة الجزائر[7]. غير أنَّه لم تذكر له أي أعراض كبرى أثرت على الحيز الجغرافي العام. لذا لا نجد له ذكر كبير في المصادر التي أرّخت أو تحدَّثت عن الإيالة الجزائرية، وقد ظلت هذه الجيوب تستدعي الوباء من فترة إلى أخرى على نطاق ضيق وغير ذا أثر كبير، فنجد الحديث عن الوباء في هذه الحالة يكون مقتضبا كما هو الحال مع وباء (1804م).

ظهر وباء (1804م) بدوره بعد هجمات أسراب الجراد فكان البلاء مزدوجا بين أزمتي المؤونة التي أتت على القمح والشعير والثمار والأزمات الصَّحية التي أتت على الإنسان في حد ذاته، فشهدت بذلك

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P150.
[2] - B.O.A : HAT. Do : N°245. Gömlek N°13836. Tarih 1215.Ş.01. Belg 01.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P364.
[4] - B.O.A : AE. SSLM.III.Dosya N°58.Gömlek N°3461. Tarih 1215.Ra.08, Belg 01.
[5] - B.O.A : C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.
[6] - Legée Émile : Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur : imp. de Briez, Abbeville, 1872, P04.P04.
[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P364.

مدينة قسنطينة أشدَّ أنواع الأزمات المتزامنة، وليس يُشك أنّ هذا الوباء قد ترك أثراً كبيراً على جميع مناحي الحياة[1].

تجدُّد سنوات العافية من جديد (1804-1816م)

تكاد تجمع أغلب المصادر التي أرّخت لتاريخ إيالة الجزائر خلال هذه الفترة على خلوها مِن الأوبئة والطَّواعين؛ الأمر الذي حمل عدد من الباحثين على القول أنَّ الإيالة كانت تشهد حالة صحية لم تشبها أي أخبار عن الوباء، فإن تقرَّر هذا حُقَّ لنا أن ننقل ما قاله "مارشيكا" مِن كون المرض خلال هذه السنوات كاد أن يُنسى[2]، على عكس ما كان يحدث في بعض المناطق في المتوسط مثل: الإمارات الإيطالية ومنطقة الدانوب ومركز الدولة العثمانية، إذ ظهر الطَّاعون مرَّة أخرى حسب ما تورده المصادر المختلفة سنة (1811م) وامتد إلى غاية (1812م)[3] فيما يرى باحثون آخرون أن هذا الوباء قد امتدَّ أيضا إلى السنة التي تلته مُخلِفاً عددا كبيرا مِن الضحايا[4] بل وأدى إلى تعطل التِّجارة بشكل عام في موانئ الدولة العثمانية خلال السنة الممتدة ما بين (1227-1228هـ)[5].

وباء (1816م/1232هـ).

ولم يُشهد الوباء ولم يتكرَّر ظهوره إلاَّ سنة (1816م/1817م) بحيث يُمكن عدَّ هذا الوباء أحد أخطر الأوبئة التي انتشرت في المنطقة ككل، إذ امتدَّ وجوده مِن المغرب الأقصى إلى غاية إيالة طرابلس، ولم يستثن حسب المراسلات القنصلية للدول المختلفة أي مكان[6].

أرجع عددٌ مِن الباحثين أصل هذا الوباء إلى مناطق القرى في الأناضول وأرمينيا[7]، وهو ما نقف عليه فعلا في إحدى الوثائق المالية في الأرشيف العثماني، وردت إلى الصدر الأعظم "خرشيد أحمد باشا" سنة (1816م) وتتحدَّث الوثيقة عن صعوبة جمع الضرائب في تلك المدَّة الزمنية بسبب الأوضاع السَّيئة التِّي خلفها الوباء في مناطق مختلفة في المناطق الأوروبية للدولة العثمانية وفي منطقة الأناضول وغيرها[8]، وكنتيجة للموقع الهام الذي ارتبط به ظهور هذا الوباء فقد كان بالفعل وباء خطير جدا لا على منطقة الأناضول فقط بل على كل المناطق التي ترتبط بها بعلاقات ما، امتدَّ هذا الوباء حسب قول "بير بروجر"

---

[1] - Ibid.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P150.
[3] - Nalan Turna : İstanbul 'un Veba ile ımtıhanı 1811- 1812 Veba salığını bağlamında toplum ve ekonomi,C1, Sayı1, Ağustos 2011, studies of the ottoman domain, s01.
[4] - Boucher Hubert : op.cit., P20.
[5] - B.O.A: HAT. Do : N°280. Gömlek N°16568. Tarih 1227.Z.29. Belg 01.
[6] - Jean Marchika :op.cit., P151.
[7] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P03.
[8] - B.O.A : C.AS. Do : N°268.Gömlek N°10993. Tarih 1231.Ş.09. Belg 06.

مِن خريف سنة (1816م/1232هـ) إلى غاية خريف السنة التالية، أي: سنة (1233هـ/1817م)[1]. فيما يرى مارشيكا أنّ التأثيرات المباشر وغير المباشرة قد ظلت سارية المفعول إلى غاية (1822م)[2].

بل واستطاعت بعض الجيوب الوبائية سنة (1816م/1232هـ) أن تأتي في مرحلة ما على أعلى هرم السَّلطة في الإيالة، بل وصل إلى غاية الداي "علي باشا" الذي تُوفِّي بهذا الوباء سنةً بعد ذلك (1817م/1232هـ)[3]، وإذا تقرّر هذا فمن الواجب الآن أن نصرف الحديث إلى طبيعة هذا النمط الوبائي الذي ظل مجهولا لدى جزء كبير من النَّاس؛ وكيف أثَّر عليهم، فنجد أنّ بعض الباحثين يرى أنّ السبب في امتداه وتفشِّيه بشكل قوي هو أنّه قِدم بشكل لم يتعوَّده السُّكان؛ فلم يتسن لهم أن يلاحظوا تلك العوارض المختلفة الموجودة في الجثث الجديدة، عكس تلك المظاهر التي أَلِفوها في جثث المرضى لذا اعتقد بعضهم أنها عرضا من أعراض "الحمى الخبيثة"[4].

ظهر الوباء حسب رواية "الزّهار" قادما ضمن بعض السُّفن الواردة مِن اسطنبول سنة (1232هـ/1816م) واشتعلت ناره في الجزائر حينها[5]، بينما يرى "غيون" أنّ السفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة من الإسكندرية رست بمدينة عنابة، ومن خلالها ولج الوباء إلى المناطق الأخرى[6]. ولعل غيو هنا يقصد بالسفينة القادمة من الإسكندرية عند تجدد الوباء في السنة الثانية السفينة التي تحدّث عنها "بير بروجر" وقال أنّها رست بميناء عنابة بتاريخ (1817/06/09م)[7]، وسبب هذا الأمر أنّ "غيون" لا يعد الوباء موجدا بالفعل في الجزائر خلال سنة (1816م) وإنَّما يرى أنَّ الوباء ظهر بعد ذلك بسنة. ويرى "مارشيكا" بأنّ الموطن الحقيقي للسفينة مركز الخلافة العثمانية، وأنَّها مثلما ذكر "الزّهار" قدِمت مِن الإسكندرية، لكن ذلك كان سنة (1817م) بقيادة "الريس علي" ويرجح أنّها دخلت إلى ميناء الجزائر في السَّادس عشر مِن ماي (1817م) أو في الثَّامن مِن شهر جويلية من سنة (1817م) خاصة وأنَّه يربطها بما قد أذيع مِن خبر حول انتشار الوباء في المرافئ المصرية خلال تلك الفترة[8].

لكن لا يُمكننا عدُّ ما ذكره "بير بروجر" و"غيون" ونقله عنهما "مارشيكا" حكما متيقِّنا وقطعيا، إذ نقف على ذكر أعراض هذا الوباء في أكثر مِن مصدر من المصادر المحلية كما هو الحال في: مخطوط

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P231.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P151.
[3] – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (1624) و[3]
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P372.
[5] – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص158.
[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P372.
[7] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P232.
[8] - Jean Marchika :op.cit., PP151,154.

"بيان ملوك الجزائر" و"مذكرات الشريف الزهار" وكما أورده" فيرا "في كتابه عن مدن بيلك الشرق الجزائري وقوله بأنّ بعض السُّكان خاصة مِن عرش "أولاد مسعود" قد نزحوا مِن تونس وليس مِن الأهالي الأصليين في مدينة القالة كون أنَّ الأهالي الأصلين في المنطقة قد قضى عليهم وباء (1816م) كما ذكر[1].

وما يهمنا فعلا هو أنّ ظهور الوباء في كلّ من مدينة الجزائر عنابة ووهران قد تزامن مع حملة اللورد "إكسمورث" على الجزائر؛ وأنَّ تزامن ظهور الوباء في أكثر مِن مدينة في نفس الفترة اعتبر أمراً غريبا إذ وجد في الغالب مجموعة مِن الفواصل الزمنية بين ظهوره في مكان أو مدينة ما وامتداده لمكان أو مدينة آخرى.

وقد امتدَّ فعلا وباء سنة (1816م) إلى السنة التي تلته (1233هـ/1817م) ليشمل كل من "مدينة قسنطينة" ومنها ينتقل تونس[2] حسب "أندري بير بروجر" لكن حسب ما هو معلوم فأنّ هذا الوباء كان موجودا بالفعل قبل هذا التاريخ في كل من: تونس وليبيا بل حتّى أنَّه ذكر وجوده في بعض المناطق في الأناضول والحجاز أيضا[3].

انتقلت العدوى الوبائية فيما بعد مِن الجزائر إلى المملكة المغربية، حيث برزت فيها عينات وبائية سنة (1817م) مُخلفا ما بين (40 – 60) ضحية يوميا، وهو ما حمل القناصل الأوروبيين في المغرب الأقصى على مراسلة السلطان "مولاي إسماعيل" من أجل أخذ الحيطة بمحاصرة الطَّاعون في المناطق الشرقية لذا اعتمد جملة مِن التدابير أهمها:

- فرض حجر صحي على المراكب القادمة من المغرب الكبير لمدة أربعة أيام.
- مراقبة المناطق الشرقية واتباع أسلوب والده والمتمثل أساسا في إقامة حزام عسكري طبي بين مملكة المغرب وإيالة الجزائر[4].

تجدُّد الوباء (1232هـ/1817هـ)

ظلت بعض الجيوب الوبائية خامدة سنة (1232هـ/1817هـ) مُدَّة وجيزة، لكن سرعان ما جددَّت نشاطها مرَّة أخرى إذ يرد في أكثر مِن موضع سقوط عدد مِن الضَّحايا بسبب الطَّاعون، مِن بينهم ثلاثة بساكرة سقطوا في 21 من شهر جوان ثم يسقط مرة أخرى خمسة من البساكرة في الخامس من شهر جويلية في نفس الفترة تقريبا بعد خمسة أيام تسقط ضحيتين من فئة البساكرة أيضا[5]، وهذا أحد المؤشرات الهامة على أنّ جهة التي قَدم منها الوباء غالبا هي ميناء المدينة، فإنّ تقرّر هذا قلنا أنّ هذا الوباء وافد أكثر

[1] - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P232.
[3] - Tholozan Joseph-Désiré : Les trois dernières épidémies de peste du Caucase, auteur Éditeur : G. Masson, Paris, 1879, P28.
[4] – محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص 104،105.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P154.

لكن ليس بالضرورة في نفس السفينة التي أوردها "غيون" ونقلها عنه "مارشيكا" إذ أنّ السَّفينة التركية التي أشاروا لها قد وصلت الجزائر في الثامن من شهر جويلية من سنة (1817م) فيما أننا نقف على حالات مؤكدة لضحايا الطَّاعون في الواحد والعشرين مِن شهر (جوان/يوليو) أي أنّ مُسبِّب هذا الوباء هو سفينة وافدة مِن البحر، لكن ليس مُؤكداً أنَّها السَّفينة التي أشار إليها كل مِن "غيون" و"مارشيكا" بل يمكن أن نقول ما قاله "مارشيكا" من كون أنّ السفينة المذكورة ساهمت بشكل ما في نقل العدوى إلى أماكن أخرى[1]. أكثر من كونها سببا رئيسيا في دخول الوباء إلى الجزائر.

وإذا تقرَّر هذا رجعنا مرّة أخرى إلى إمكانية تأكيد ما ذهب إليه "الشَّريف الزّهار" مِن كون الوباء الذي نحن بصدده قد دخل الجزائر قبل سنة (1817م)[2].

شرع هذا المرض في اصطياد ضحاياه مِن الموانئ كما جرت العادة، فسقط بسبب ذلك ثلاثة من البسكريين في الواحد والعشرين من شهر (جوان/يوليو)، وذكرت رسالة موجّهة من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى مرسيليا أنهم كانوا خمسة ضحايا، كما ذُكِر بأنَّه قد أُمِر بحملهم ليموتوا في دُورهم؛ بسبب إصابتهم بالطَّاعون، كما انتشر الخبر بأنّ اثنان آخران ماتا في المدينة[3]، والسبب الرئيس في أنَّ البساكرة كانوا هم أوّل وأكثر عرضة للطَّاعون؛ إذ أنَّهم كانوا يمتهنون حرفتي النقل البحري والحمالة[4]، وبالتالي جعلتهم مهنتهم أول المحتكّين بالوباء الوافد عبر الموانئ البحرية أو حتى احتكاكا مع الفئران التي تأتي في السفن الوافدة[5]، وقد لاحظ حينها كل من الدكتور "أسنسي" le docteur Assensi والدكتور "فرنسوا توزيل" François Touzel بعدما أوفدهما الداي عمر لمتابعة الأوضاع[6] أنّ الأعراض الموجودة في الجثث هي نفسها، الأمر الذي يعني أنّ الأمر يتعلّق بالوباء فعلا.

وقد ذكرت الرِّسالة السَّالفة أيضا أنه في الثامن من نفس الشهر قدمت إلى الجزائر سفينة تركية على متنها حُجَّاج عائدون مِن الإسكندرية ذُكر أنَّها رمت في البحر قرابة خمس وعشرون شخصا لإصابتهم بالطَّاعون، ولما رست هذه السَّفينة بميناء عنابة نزل منها خمسة وعشرون شخصا كان مصابا بالمرض انتشروا في مختلف أرجاء المدينة طبعا ما تسبب لاحقا في تفشي الوباء دون شك لباقي السكان[7]. ولعلها السَّفينة

---

[1] - Ibid. P155.

[2] – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص185.

[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P373.

[4] عائشة غطاس: الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر(1700-1830) ص 30،31.

[5] - Jean Marchika :op.cit., P141.

[6] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P373.

[7] - ibid. P373.

نفسها التي مرَّت بمدينتي الجزائر ووهران في نفس المدَّة[1]، وهذا ما يبرِّر تزامن ظهور الوباء في المدينتين في نفس الفترة وبنفس الحدَّة تقريبا.

توفي في نفس الشهر أيضا نائب القنصل الفرنسي في الجزائر السيد فرانكوِش M. Francowich بنفس الأعراض الوبائية، بل أنَّ هذا الوباء دخل حتَّى إلى الثكنات العسكرية، إذ أنّه قضى على عدد مِن العساكر في ثكنة طريق "باب عزون" و"ثكنة البحر"، كما استطاع هذا الوباء هذه المرة أن يلج إلى بيت كبار رجال الدولة كالخزناجي والآغا والكثير ممن هم دونهم[2]، وهذا إنَّما يؤكد أنَّ هذه الفئة مع ما لها من المال والسَّطوة كانت قليلة الاهتمام بما من شأنه أن يحفظ صحتها أو يجنبها تلك النتائج الخطيرة.

يرتفع عدد الضحايا تباعا في شهر جويلية فَيَصِل في الثالث عشر مِن شهر جويلية إلى أربعين ضحية موزعة بين فئة البساكرة وحضر المدينة وبعض اليهود، بينما نقف في اليوم الموالي على ثمانية عشر ضحية، ونفس العدد تقريبا في الخامس عشر من جويلية، ليستمرَّ هذا المتوسط إلى غاية العشرين من جويلية (1817م)[3].

في التاسع والعشرين من شهر جويلية الموافق لـ 17 رمضان (1238هـ/1817م) يتحصَّل الوباء على جرعة نشاط قوية وهامة بسبب دخول سفينة جديدة لميناء مدينة الجزائر على متنها مائتي شخص، مِن بينهم ابن الداي وبعض أقاربه، وكان عدد منهم مصابا بالمرض حسب ما لاحظه قناصل الدول الأوروبية، لكن لم تتدخل السلطات في مدينة الجزائر لاتخاذ أي تدابير احترازية من شأنها تخفيف أثر هذا الوباء[4]، ولعلّ هذا الأمر هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى استمرار هذا الوباء في النشاط خلال فصل الصيف على غير العادة[5]، إذ مِن المعروف أنَّ الوباء ينحصر بارتفاع درجة الحرارة كما سيأتي معنا بالتفصيل في موضع الحديث عن المناخ وتأثيره في المجاعة والوباء، إضافة إلى هذا الوباء ابتُليت مدينة الجزائر أيضا بالزلزال الذي ضرب المدينة في نفس الفترة تقريبا[6]، ما يعني أنَّ الخسائر البشرية خلال هذه الفترة كانت كبيرة فعلا ومؤثرة بشكل ما على الحالة الديمغرافية كلما طال الزمن الذي يشغله هذا الوباء مثلما يوضحه المنحنى البياني التالي:

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, PP 332,333.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P374.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P155.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P375.
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 333.
[6] - Jean Marchika :op.cit., P156.

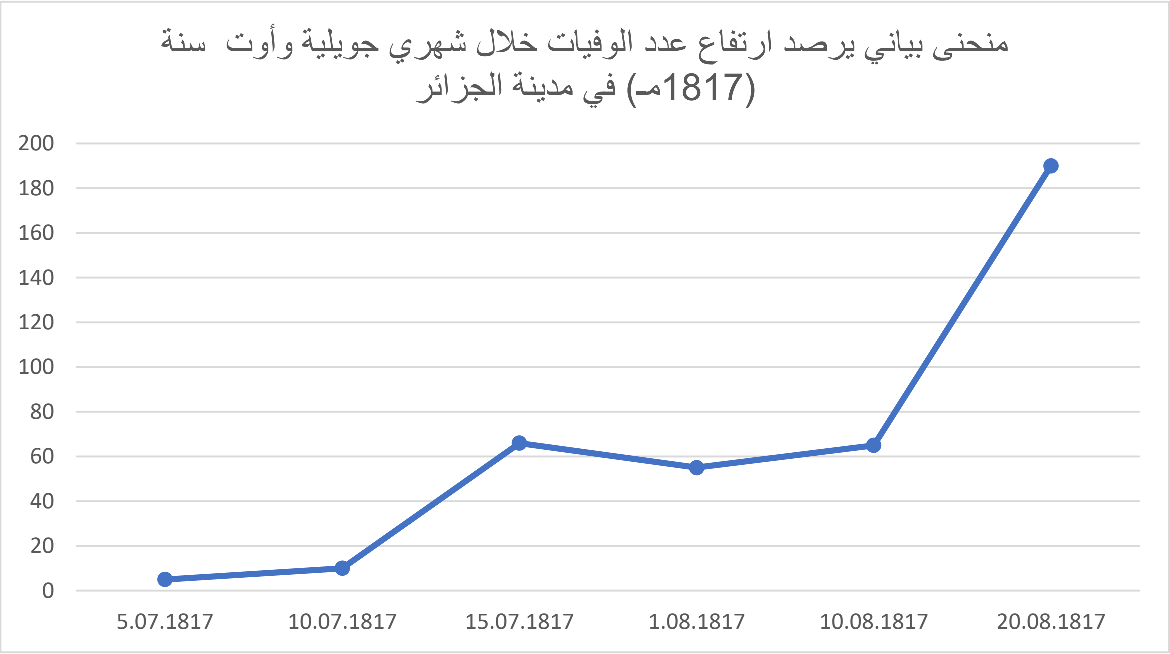

يستمرّ الوباء في شهر (أوت/أغسطس) بنفس الوتيرة، فيقضي على خمسة وخمسين فردا في الأوّل مِن هذا الشهر، وعلى ثمانين ضحية في اليوم الموالي، ليصل عدد الضحايا في الثامن من نفس الشهر إلى مائة وأربعين ضحية ويبدأ في الانخفاض بداية من النّصف الثاني لشهر أوت فيصل في الثامن عشر من هذا الشهر عدد الضحايا إلى الثلاثين[1]، وينخفض إلى أقل مِن ذلك لاحقا في آخر هذا الشهر حتّى يكاد يختفي تماما بداية مِن النِّصف الثاني مِن شهر سبتمبر[2].

والملاحظ أنّ هذا الوباء هذه المرّة لم يقتصر على مدن مثل: عنابة ووهران وقسنطينة كما تعودنا بل يكاد ينتشر في جلِّ المدن التي توجد بالإيالة[3] فنجده يحصد أكثر مِن أربع مائة وخمسين ضحية في مدينة بسكرة وحدها[4].

يستمرُّ هذا الوباء في مدينة عنابة وأحوازها إلى نهاية هذه السنة، بينما يبدأ حدوث في انحصار تأثيره في مدينة الجزائر وتراجع سطوته بداية مِن منتصف شهر أكتوبر[5]، نفس الأمر نقف عليه يحدث مع هذا

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P157.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 333.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P160.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P375.
[5] - Jean Marchika :op.cit., P159.

الوباء في مدينة قسنطينة، إذ يبدأ في الانحصار تدريجيا بداية من شهر نوفمبر[1]، حتى يكاد ينقضي أمره تماما من الإيالة قبيل نهاية السنة[2].

وباء (1233هـ/1818)

لم تكد تمضي بضع شهور من السنة الماضية حتى عاد الوباء للظهور مرة أخرى سنة (1818م) إذ ظهر هذا الوباء في أوّل الأمر في شكل غريب لم يتعوده الأهالي، لذا لم ينتبه له الكثير منهم، بحيث ظهرت فقاعات وتصلبات للأعصاب وتشنجات على بشرة بعض الموتى ما أثار حفيظة واستغرب الجميع، إذ لم تُشاهد أعراض كهذا المرض مِن قبل؛ لذا حاول البعض تفسيره بأنّه "الوبائي الشرقي" وقال آخرون أنَّه نوع من أنواع "الحمى الخبيثة"[3] فيما يذهب "مارشيكا" إلى أنَّه إما "وباء الجدري" أو "الحمى الخبيثة"[4] وقد رصد هذا الوباء فعلا في بعض مناطق الأناضول فيما استثنيت إيران منه[5] كما يمكن أن يكون هذا الوباء هو حمى التيفوئيد، إذ تذهب عدد مِن الدِّراسات إلى حدوث تشنجات وتقلصات مختلفة نتيجة ردود الفعل الوترية في سياق حمى التيفوئيد[6].

وتتجلّى أعراض وعلامات هذا الطّاعون مرَّة أخرى في بداية هذه السنة على شاب يهودي يدعى "صموئيل بن شمعون" يتوفّى هذا الشاب في (17/جانفي/يناير) من سنة (1234هـ/1818م)، لكن الوباء يتقدّم هذه المرة ببطيء ودون تأثير كبير[7]، على غير ما يورده "مارشيكا" الذي يرجّح أنَّ الوباء تصادف مع احتفالات المولد النبوي بالجزائر والذي صادف (19/جانفي 1818م) وقد خلَّف حسبه من بداية ظهوره إلى نهايته حوالي (499) ضحية[8]، إلاَّ أنَّ مقارنة هذا الرقم مع ما أورده "غيون" مِن أن تأثيره في البداية كان محدودا يجعلنا نقرر أنّ هذا الرقم مبالغ فيه، إذ أنّ بداية الوباء في أيامه الأولى يكون منحصرا في الغالب وترتفع أعداد الضحايا تباعا، لذا يمكننا أن نتحدَّث على هكذا رقم بداية مِن شهر فيفري أو مارس حسب امتداده، فهو خلال مرحلته الأولى بالكاد يستطيع أن يصطفى مجموعة مِن النواقل لتحمله إلى غيرهم من الناس.

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P, P 334,337.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P159.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P372.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P156.
[5] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P28.
[6] - Libert Marcel : Étude des réflexes dans la fièvre typhoïde(thèse de doctorat), président de thèse professeur Raymond, Faculté de médecine de Nantes -Thèse Doctorat- Éditeur : A. Michalon, Paris, 1902, P11.
[7] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P380.
[8] - Jean Marchika :op.cit., P162.

ويستمرَّ هذا الوباء ضمن عائلة "شمعون" الماضي ذكرها، إذ تُنقل أخبار حول وفاة أخته بعد دفنه بشهر ونصف، فتؤرّخ وفاتها في الثاني من شهر مارس من السنة نفسها كما تسلط هذا الوباء في بيت الداي بشكل رهيب إذ قضى أوّلاً على ما يقارب خمسة وعشرين من العبيد ثمّ أخذ زوجة الداي[1]، ثمّ يستمر ليحصد روح الداي "علي خوجة" بداية شهر مارس (1818م)[2]، ويخلفه نتيجة هذا الأمر آخر دايات الجزائر حسين باشا[3]، فيما يرى "بير بروجر" أنّ الوباء ظهر أوّلاً في مدينة عنابة، لكنّه لم يسقط موتى بل إنّ بعض مَن أصيب به شفي من سقمه هذا الأمر مما يرجح نظرية أن يكون هذا الوباء هو الجدري إذ أنّ تعرض الفرد له مرة من قبل يكسبه المناعة[4]، وكانت أولى حالات الوفيات في مدينة الجزائر في شهر أفريل استمر بعدها إلى غاية فصل الصيف ليتجدّد مرّة ثانية في السنة التالية وبقوّة[5].

بداية من شهر مارس مِن سنة (1233هـ/1818م) بشكل رهيب وفظيع؛ أتى على ساكنة المدينة ومن حولها من القرى[6]، وبقيت الجيوب الوبائية لهذا الطاعون تظهر بين الفينة والأخرى ومن مَحل إلى آخر وهذا طوال سبع سنوات ممتدة من (1233هـ/1817م) إلى غاية (1239هـ/1823م)[7]. ويرى غيو أن وباء(1233هـ/1817م) ظل يتجدّد إلى غاية (1237هـ/1821م) بعدها بدأ يعرف هذا الوباء نوعا من الانحصار[8]، وتؤكد الوثائق المتعلقة بالوباء أنّ بعض الجيوب الوبائية ظلت نشطة إلى غاية سنة (1239هـ/1823م) وهي السنة التي يعرف بعدها هذا الوباء نوعا من التراجع حسب بعض الوثائق الأرشيفية الخاصة بمعهد باستور[9].

كان امتداد هذا الوباء مميَّز جدا، إذ كاد أن يغطي جل أراضي الإيالة، فنقف عليه في العديد مِن المدن التي لم يسبق الإشارة إليها في أيٍّ مِن الأوبئة السابقة، فنجد بعض الدِّراسات تتحدَّث عن وجوده في مدينة معسكر ووهران وغيرهما، فنجده في منتصف شهر أفريل في مدينة معسكر يسقط عددا مِن الضحايا[10].

---

[1] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P381.

[2] -Vayssettes : histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793-jusque-là chut de Hadj Ahmed, Revue African., Anne 1862, N°6, P 209.

[3] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P81.

[4] - انظر المدخل ففيه بحث مستفيض حول تعريفات الأوبئة وخصائص كل منها.

[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 334.

[6] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P382.

[7] - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص185.

[8] -J.-L.-G. Guyon : op.cit., P397.

[9] -A.I.P.A : (1924-N°3.P327)

[10] - Jean Marchika :op.cit., P167.

فيصل الوباء إلى مدينة وهران في السادس عشر من شهر أفريل من نفس السنة، وهذا ما يفهم من محاولات بعض اليهود الفرار من المدينة بعدما أشيع خبر انتشار الوباء بها، ويتأخَّر ظهوره في مدينة بجاية إلى غاية الثَّامن مِن شهر (جوان/يونيو) مِن نفس السنة[1]، كما أنَّه يصبح قادرا على حصد ما يقارب الأربعين ضحية يوميا في مدينة وهران خلال النِّصف الأوَّل مِن شهر مايو، فيما نقف في مراسلة قنصلية على انتقال الوباء من الغرب الجزائري باتجاه المغرب الأقصى خلال نفس المدَّة[2]

وإذا كان ما سبق أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب الآن أن نضيف الحديث عن المعطيات العددية المختلفة حول الضحايا الذين سقطوا نتيجة هذا الوباء، فتُقدِّر بعض الدِّراسات متوسط عدد الضحايا مثلا بخمسة وعشرين ضحية يوميا في شهر أفريل فيما يرتفع العدد في شهر ماي إلى حوالي ثلاثين ضحية يوميا[3]، وترى بعض الأبحاث التي تناولت الوباء نفسه أنّه قد استطاع حصد عددٍ مُعتبرٍ خلال شهر أفريل من هذه السنة، فتورد بعض الأرقام التي مفادها أنّ عدد ضحايا هذا الوباء خلال شهر أبريل بلغ متوسط (1556 ضحية) منها (1395 مسلما) و(161 يهوديا)[4] أي أنَّ المتوسط اليومي كان في حدود خمسين ضحية يوميا، وغالب هؤلاء الضحايا مِن المسلمين مقارنة مع من يعيش معهم من اليهود والنَّصارى. وهذا أمر طبيعي نظرا للكثافة السكانية المتباينة في المدينة بين العناصر المكونة لها.

كما يُلاحظ أنَّه مع وجود عدد مِن النَّصارى في المدينة إلاّ أنَّ تأثير الوباء عليهم خلال الثُّلث الأوَّل مِن القرن التَّاسع عشر يكاد يكون صفرياً، ولعلَّ لهذا علاقة مع طبيعة العلاقات مع الدول الأوروبية مِن جهة ومُخرجات مؤتمر فينا التي أقرَّت منع الاستعباد الأوربي مِن جهة أخرى ما أدى إلى تراجع عدد الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر على عكس اليهود الذين كانوا يشكلون جزء من التركيبة العامة لساكنة المدينة، لذا نجد أنّ النسب موزعة بين الفئتين المعنيتين أي المسلمون واليهود بالشّكل الموضح في الدائرة النسبية وألحقنا بهم النَّصارى حتى تتضح الصُّورة بشكل أكبر:

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP 382, 383, 384.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P167.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 334.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P382.

تقسيم عدد الضحايا بين الفئات المختلفة داخل مدينة الجزائر في وباء سنة (1818م)

وبهذا يتضح أنَّ الفئة الأولى التي كانت تتأثر بالأوبئة وانعكاساتها هي فئة المسلمين تليها بفارق معتبر فئة اليهود ويمكن تبرير ذلك بعدة عوامل لعل أهمها؛ الكثافة السكانية المختلفة بين الفئتين إضافة إلى الاحتياطات والاحترازات التي كان يقوم بها اليهود مقارنة مع المسلمين كما سيأتي في البحث الخاص بالاحترازات من الوباء.

يبدأ هذا الوباء في الانحصار في معظم أرجاء الإيالة، فنجد أنّ مدينة عنابة حسب إحدى الرَّسائل القنصلية للشركة الإفريقية في مدينة عنابة توضح أنّ مدينة عنابة كادت تتعافى منه نهائيا قُبيل نهاية السَّنة، فلا نكاد نقف له على ضحايا إلّا على حالات شاذة لبعض السكان في أحواز المدينة[1].

نفس الأمر أيضا تذكره رسالة أخرى تخص مدينة قسنطينة، إذ ترى الرِّسالة أنَّ الوباء يكاد ينجلي عن معظم بيلك الشرق، وأنَّ وجوده هناك ظل منحصر في بعض المناطق الجبلية المحيطة بها[2]، وهذا على غير العادة، إذ كثيرا ما كنت هذه المناطق هي الأكثر تحصينا ما يجعل العديد مِن السُّكان يفكرون في الفرار إليها لما تستعر نار الوباء في المدن الحضرية. وقد ظلَّ هذا الوباء -على ضعفه- موجودا بقسنطينة إلى غاية منتصف شهر نوفمبر من السنة نفسها[3].

1 - lettres des 14 et 21 Décembre dans Jean Marchika, P 170.
2 - lettres des 1 juillet, dans Jean Marchika, P 170.
3 - lettres des 14 et 21 Décembre, Marchika, op cit. P171.

وقد كان تأثير وباء سنة (1818م) أشد بكثير مِن الوباء الذي سبق ذكره (1817م) بل تكاد تدلنا المعطيات إلى أنّ عدد الضحايا قد تزايد خلال هذا الوباء بشكل كبير، ولعلَّ الشَّكل البياني التالي يوضح بشكل أبسط مدى تطور عدد الضحايا بين وباء سنة (1817م) ووباء سنة (1818م)

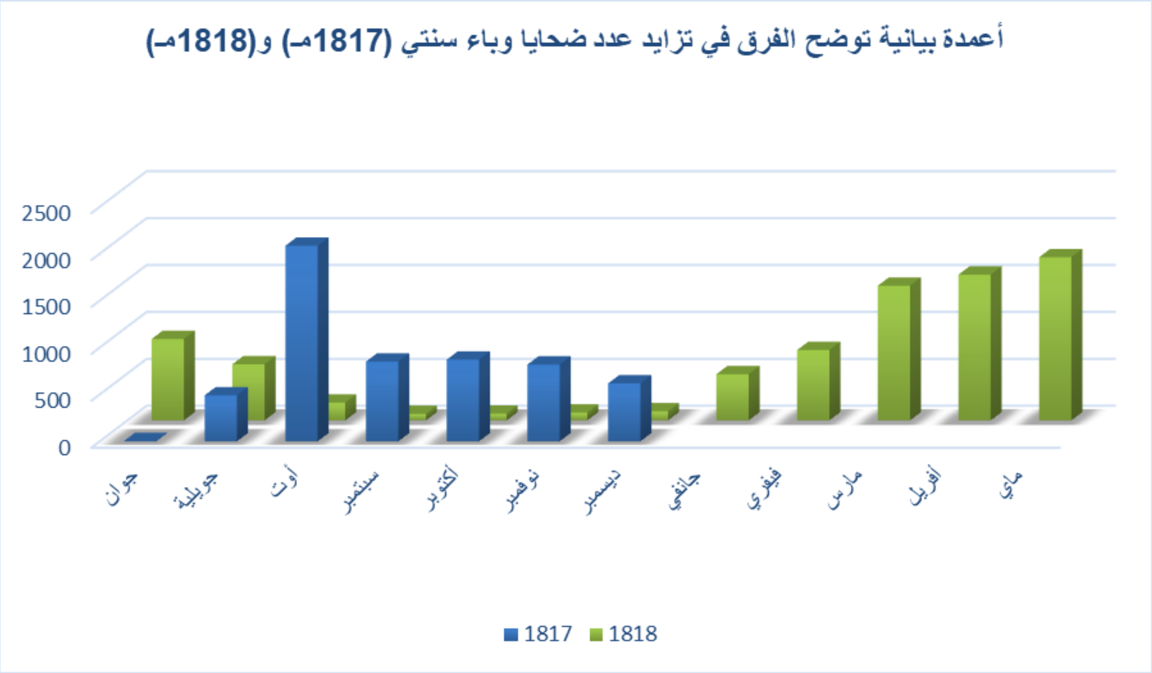

فنقف في الشكل البياني على عدد من الملاحظات الهامة، وعلى رأسها أن الفترة التي شهدت ذروة النشاط الوبائي خلال سنة (1817م) هي نفس الفترة التي شهدت تراجع الوباء خلال السنة التالية(1818م) فيما أن الفترة التي عرفت قوة وتزايد تأثير الوباء سنة (1818م) لم يكن قد ظهر فيها تمام أي مظهر من مظاهر التأثير الوبائي على ساكنة الإيالة، وبالتالي فإنه يمكننا الحديث عن كون وباء (1818م) كامتداد للوباء الذي ولج الإيالة سنة (1817م) والأخير ظهر في نهاية شهر جوان وتأكد ظهوره بداية من شهر جويلية فعليا.

وبالتالي فيمكننا الحديث عن فترات وبائية، أي عن حيز زمني ينشط فيه الوباء ذاتيا يمتد منذ ظهوره إلى خمسة أشهر تقريبا مع ضرورة الإشارة إلى التأثير البالغ والمهم لعوامل أخرى كعامل الطقس والكثافة السكانية وغيرها وهنا تتجلى تلك العلاقة الخفية بين بروز الأوبئة ووجود الأرضية الملائمة لها والمساهمة فيها وهي المجاعات وسوء التغذية[1]، فإن تقرر هذا سلكنا مسلكا يرى أن لك وباء ذروة لنشاطها تمتد من ظهوره

[1] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P01-03.

إلى خمسة أشهر، تتزايد قوة هذا النشاط الوبائي إذا تصادف مع انخفاض درجة الحرارة أو توفر أزمة غذائية ما ، الأمر الذي يطور نشاط الطفيليات في أجسام النواقل. لكن بعض الباحثين يعترض على هذا الأمر ويرى أن التزامن الوقتي الذي كان بين بعض المجاعات والأوبئة لا يكوِّن بالضرورة علاقة اطرادية بين الأزمات الغذائية والأزمات الصحية، خاصة إذا ما استُثنيت مِن ذلك بعض العوامل الأساسية المطورة للطفيليات والعصيات المختلفة، وبالتالي فيمكن القول أنّ المجاعات والأوبئة ليستا حقيقتين خاضعتين لبعضهما كما قد يتصور الكثير[1].

وباء (1234هـ/1819م)

قد يكون هذا الوباء امتداداً للوباء السَّابق واستأنفا لنشاطه مع خريف (1233هـ/1818م) أو مع نهاية السَّنة نفسها وبدأ في حصد ضحاياه بشكل بسيط بداية هذه السنة في مدينة عنابة ومدينة الجزائر[2]، فيما يرى بعض الباحثين أنَّه وبعد اختفاء أثره لأشهر يعود الوباء للنشاط مِن جديد وهذه المرَّة مباشرة مع بداية السنة يقضي على أربعة أشخاص ليصل في نهاية الشهر الأوَّل إلى القضاء على ما يقارب (93 ضحية)[3] فيما نقف على عدد ضحايا يقارب (140) ضحية خلال الشهر التالي[4]، لكن الأمر الذي يظل غريبا هو ما ورد في أحد رسائل الموجهة مِن وكيل الشركة الإفريقية في عنابة إلى القنصل العام الفرنسي بالجزائر والتي تتحدَّث عن تميُّز المدينة بالصِّحة الجيِّدة منذ منتصف شهر جانفي، وأنَّ عمال الشركة كانوا يتحركون بكامل الحرية دون مخافة شيء ما[5].

ولو جُعِل الأمر كذلك فعلا؛ لجاز لنا القول أنّ هذا الوباء وإن تجدَّد ظهوره في مدينة الجزائر فإنَّه -على الأقل- خلال المرحلة الأولى مِن ظهوره ظلَّ في منأى عن مدينة عنابة.

تزداد حدَّة الوباء مع مرور الوقت فينتقل عدد الضحايا من معدل (12-13) ضحية يوميا خلال شهر مارس إلى قرابة العشرين (20) ضحية يوميا وقد أورد "مارشيكا" رسالة قال أنَّها للقنصل الفرنسي في الجزائر قائلا فيها: «..إنَّ الطَّاعون يقلقنا مرَّة أخرى، إذ ظهر منذ قرابة ثلاثة أشهر، وإن كان ليس بالقوَّة المعهودة لكننا كنا نأمل في أن ينقضي تماما قبل أن نضطر إلى ترقب ارتفاع درجة الحرارة، ..إنَّه يأتي على معدل ثمانية عشر إلى عشرين فردا في اليوم وقد تسارع قليلا هذه الأيام إلى ثلاثين ضحية في اليوم...وبالرغم

1 - Kelsch Achille : op.cit., P08.
2 - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 336.
3 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P382. P388.
4 - Jean Marchika :op.cit., P173.
5 - C.C.F : lettre du 22 mars, Berbrugger, op.cit :P336.

من الاحتياطات التي اتخذتها قنصليات دول إنجلترا وفرنسا وإسبانيا إلاّ أنّ ذلك لم يمنع سقوط بعض خدمنا من القبائل نتيجة هذا الطَّاعون...»[1]

وما أورده "مارشيكا" على لسان القنصل الفرنسي هو تصوير للحالة العامة الحقيقة لوباء سنة (1819م) إذ ظهر على مستوى ضيق وكان عدد ضحاياها قليل، لكن في نفس الوقت كان يحمل في جنباته خطر التَّفشي الذي أضحى الجميع يهابه لما له من تأثير لا يخفى، لا على مستوى الديمغرافي فقط وإنَّما أيضا على مستويات عِدَّة كما سيأتي بيانه في موطنه.

على كلّ حال يمكننا أن نقول أنَّ الوباء ظهر هذه المرَّة فعليا مع بداية السنة، لكنَّه كان مُنحصِراً من حيث النطاق الجغرافي والتأثير الديمغرافي، كما أنَّه لم ينتقل إلى الجهة الغربية من البلاد إلاَّ مع نهايات شهر(ماي/مايو) مِن نفس السنة، إذ وردت أخبار تفيد بوجود الطاعون بتلك المضارب[2].

ظل وباء سنة (1819م) لمدّة طويلة خلال هذا السنة يقوم بضربات خاطفة لكنها غير مؤثرة مِن النَّاحية العديدة، إذ كان يظهر في مدَّة زمنية قصيرة ثمّ ينحصر مِن جديد في الفترة التي تليها، بل إنّه لم يُحكِم سيطرته على مدينة عنابة مثلاً خلال تلك الفترة الزمنية الحساسة التي تتصادف مع عودة الحجّاج ووجود الحاميات العسكرية بها، بل ظلَّت الصِّحة في المدينة توصف بأنّها ممتازة[3]، وقد ورد في مراسلة من القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السلطات الرسمية في فرنسا بتاريخ 18 (ماي/مايو) بأنّه «...بعد بعض التحريات أثبت أنَّ الطّاعون موجود في الجزائر منذ حوالي ثلاثة أشهر، لكنه بشكل بسيط جدا، ويُرجى أن يرتفع هذا الوباء بدون الحاجة لانتظار فصل الصيف، يقضي الوباء حاليا على متوسط ما بين (18-20 ضحية/يوميا)...بالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كلّ مِن القنصلية الفرنسية ونظيرتيها الإنجليزية والإسبانية فقد ظهرت بعض حالات الطَّاعون داخل القنصليات غالبا ما يكون سببها الخدم داخل القنصليات...»[4] وهو نفس ما أشار إليه "بير بروجر" إذ نقل بدوره أنّ عدد الضحايا يوميا في الفترة الممتدة من نهاية (جانفي/يناير) إلى منتصف شهر (ماي/مايو) في مدينة الجزائر كان يتراوح ما بين ثمانية عشر وعشرون ضحية وفي أقصى درجاته خمسة وثلاثين ضحية يوميا[5].

وقد تولَّد عن ذلك تراجع حدَّة هذا الوباء فعليا خلال الفترة الصيفية، والممتدَّة مِن أواخر شهر (ماي/مايو) إلى بداية شهر (أكتوبر/تشرين الأول) بحيث فقد فيها قوّته المعهودة، ثمّ استرجع حدّته مرّة

[1] - Jean Marchika :op.cit., P174.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P389.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 337.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P389.
[5] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 337.

أخرى بداية من شهر (نوفمبر)، وهو ما نقف عليه فيما ورد في إحدى الرسائل الصادرة من وكيل القنصلية الفرنسية في قسنطينة إلى المسؤول عنه في القنصلية الفرنسية في دار السُّلطان بمدينة الجزائر، حيث أُشيِر فيها إلى عودة نشاط الوباء في مدينة قسنطينة، بداية مِن الشهر (أبريل/أفريل) وامتدّ وجوده إلى غاية شهر ديسمبر مِن السنة نفسها وقد كان معدل الوفيات اليومية في حدود (25) ضحية يوميا[1].

وباء سنة (1235هـ/1820م)

ولم تعرف الجزائر انقطاع لسلسلة الهجمات الوبائية التي سلطت على الإيالة من سنة (1816م) وقد تحدَّثت بعض الدراسات عن بعض الحالات التي اشتبه في أنَّها إصابات بالطَّاعون في بداية شهر جانفي، ونفس المصادر تتحدَّث عن تراجع ملاحظة وجود ضحايا خلال الشهر التالي أي شهر فيفري[2]، ليبرز بوضوح خلال شهر (مارس) بحيث تأتي رسالة من وكيل الشركة الفرنسية في عنابة إلى القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر تنبأه باستمرار وباء السنة الماضية في بعض أحواز مدينة قسنطينة[3]، وقد أوردت بعض المصادر أنّ معدل الوفيات كان في حدود (25) ضحية يوميا تحديداً خلال شهري مارس وشهر أوت[4].

وتأتي بعض الرسائل مِن وهران لتؤكِّد أنّ الوباء تجدَّد نشاطه بالفعل خلال شهر (أفريل/أبريل) ويحصد ما بين سبعة وثمانية ضحايا يوميا ليرتفع العدد في شهر (ماي/مايو) فيصبح العدد ما بين ثلاثين وأربعين ضحية يوميا (30-40 ضحية/يوميا) بقي يحصد نفس العدد من الضحايا على هذه الحال إلى غاية نهاية شهر (ماي/مايو) حينها فقط بدأت المؤشرات بالانخفاض وهو أمر مفهوم بسبب العلاقة الاطرادية بين زيادة درجة الحرارة وانخفاض النشاط الوبائي كما مرَّ بنا. وبالتالي نقف عليه في الأشهر اللاحقة خاصة خلال الأشهر الصيفية إذ ينحصر تماما فلا نكاد نقف له على أي أثر في أشهر: (جوان/يونيو) و(جويلية/يوليه) و(أوت/أغسطس) وينعدم أثره تماما بعد السَّابع من شهر (سبتمبر/أيلول)[5]

وبالتالي تكاد تكون عادة وقانون مستمر للنشاط الوبائي، بحيث كلَّما يظهر الوباء يجد طريقة للتفشي خلال خمسة أشهر، ليعاود الانحصار بعد ذلك، باستثناء إمكانية أخرى وهي أن يظلَّ في بعض الجيوب البعيدة عن المدن الحضرية والتي لا يمكن أن يلاحظ فيها حركية الوباء، أو أنّه لم يُشر فيها إلى النشاط الوبائي، ولعل أحد أهم الأسباب وراء عدم ملاحظته ووهن قوته هو ضعف الكثافة السكانية

---
1 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P391.
2 - Jean Marchika :op.cit., P176.
3 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P391.393
4 - Jean Marchika :op.cit., P177.
5 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P391.393

والذي يُعدُّ بحقٍّ السّبب الرئيس في هذا الأمر، ما يجعل الحديث عن تفشي الوباء في الأماكن البعيدة عن المدن أمراً نادراً.

ظهور الوباء سنة (1236هـ/1821م)

تجدَّد الوباء السنة الماضية وظهرت أولى آثاره في بداية السنة مِن مدينة عنابة، إذ وردت العديد مِن الرسائل إلى القنصلية الفرنسية في الجزائر تتحدّث عن تجدد النشاط الوبائي في المدينة، يظهر ذات الأمر في مدينة وهران وقبلها أيضا تجدد الوباء في مدينة تلمسان وحتى في مدينة عنابة[1]، وخلال نفس الفترة بتاريخ (17/ فيفري/ فبراير) مِن نفس السنة إذ وردت على ميناء وهران سفينة نمساوية مِن الإسكندرية تحمل على متنها أربع مائة حاج عائد من مكة ورست فعلا، لكن في فترة لاحقة رفض استقبال إحدى السُّفن العثمانية الكبيرة كان على متنها أيضا عددا من الحُجَّاج مِن بينهم مَن تأكّد أنّه مصاب بالوباء وهذا سبب عدم السماح لها بالرسو في الميناء وإنزال ركابها في البر، بل إنَّها غادرت بعد ذلك بيومين دون أن تستطيع إنزال الركاب[2]

استمرَّ الوباء في حصد ضحاياه لكن على نطاق ضيق خاصة إذا ما قورن بسابقيه، وكان آخر ملاحظة لوجوده ترجع به إلى شهر في آخر شهر (أوت/أغسطس)[3]

وتذكر بعض أرشيفات معهد باستور لسنة (1923م) أنَّ الوباء في الجزائر بدأ يعرف تراجعا كبيرا منذ سنة (1238هـ/1822م)[4] خاصة إذا ما قورن بالفترة التي سبقته، كما يمكننا القول أنَّ الجزائر في الفترة الممتدَّة (1817م-1822م) أصبحت الموزع الرئيسي للوباء إلى جميع المنطقة[5]، فهي منذ أن احتضنته في بداية سنة (1234هـ/1817م) تغلغل في مناطقها المختلفة الممتدة مِن الشرق إلى أقصى الغرب فأقام مدّة طويلة في كلِّ مِن عنابة وقسنطينة ووهران وتلمسان ما جعلها مكان محوري ينطلق منها في هذه الفترة إلى غيرها.

وباء (1822م)

في حقيقة الأمر إنَّ الوباء الذي عرفته الجزائر خلال هذه السنة هو امتدادٌ طبيعيٌّ للوباء الذي حلَّ بها منذ سنة (1817م) وظل يتجدَّد كل مرّة خلال أربع سنوات، إلاَّ أنَّ أثره في هذه السنة كان أشدَّ ضرراً إذا ما قورن بالسَّنتين السَّابقتين، واللَّتين كاد فيها الوباء أن يختفي تماما مع بعض الاستثناءات، إذ يتحدَّث "مارشيكا" عن عدد ضحايا لهذا الوباء قارب (2262) وهو رقم يقارب تقريبا ما فقدته الجزائر مِن ضحايا سنتين قبل هذا

[1] - Jean Marchika :op.cit., P177.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P394.
[3] - Ibid. P397.
[4] - A.I.P.A : (1924-N°3.P327)
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P428.

التاريخ، وهو يفوق بكثير سنتي (1820م) وسنة (1821م)[1]، وهذا ما يجعل أهمية وتأثير هذا الوباء أكبر مِن سابقيْه بالإضافة إلى أنَّه تزامن أيضا مع جائحة حيوانية خلال نفس السنة أتت على عدد كبير مِن الأحصنة والبغال والحمير والماشية.

وقد قرَّر "مارشيكا" أنَّ هذه الهجمة الوبائية كانت آخر جائحة وبائية ضربت شمال إفريقيا واستمرَّت به طيلة أربع سنوات كاملة[2]، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني بأي حال من الأحوال زوال هذه الأوبئة بشكل مباشر بعد هذا التاريخ، إذ نقف على عدد من الأوبئة والطواعين التي اجتاحت الجزائر والمنطقة ككل في الربع الثاني مِن القرن التَّاسع عشر منها وباء الكوليرا الذي ظهر في منطقة متيجة سنة (1831م) وامتد منها إلى العديد من الأمكنة الأخرى[3]، وقد خُصّصت هذه المرحلة بعدد مِن الدِّراسات والأبحاث تغنينا عن إعادة تتبعها واستقصاء أمرها في موضعنا هذا.

بالإضافة إلى أن الحديث عن انقراض تام للوباء خلال تلك الفترة لن يكون أمرا علميا إذا كثيرا ما نجده ينتقل من مكان إلى آخر أو يتجدَّد مِن حين إلى آخر، وهذا الأمر لم يقتصر على الجزائر وإنَّما امتدَّ إلى جل دول الحوض المتوسط مثل تونس وليبيا وإيطاليا وفرنسا وتركيا وغيرها[4].

والحقيقة التي تنبثق عن المعطيات السَّالف ذكرها هو أنَّ الطاعون أو الأوبئة قد استقرَّت في الجزائر في أزمنة تاريخية طويلة، حتى نكاد نقول أنَّ الطَّاعون والأوبئة انتقلت بين نمطين أساسين أثناء وجدها في الجزائر هما الاحتضان والانتشار، وتتبع مسار ظهور وتطوُّر الأوبئة يسوقنا إلى القول أنَّ الوباء خلال هذه المرحلة كان بين مرحلة الاحتضان التي تكون في بُؤر مُحددة وصغيرة. وبين مرحلة التَّطور والانتشار التي تظهر في مجالات جغرافية واسعة وتكون غالبا مُتجدِّدة، وهذا الأمر نفسه نجده في مواطن أخرى لكن في فترات متقدمة نسبيا كما هو الحال مثلاً في بعض سواحل المدن الأوربية خلال القرنين السادس عشر والسَّابع عشر حتَّى أنَّ بعض الدَّارسين كان يرى أنَّ الوباء إذا ظهر في مدينة أوروبية ما فإنَّه غالبا ما يكون أطول مِن الانبعاثات المؤقتة مِن القارات الأخرى[5].

فإن تقرَّر ما سبق بقي أن نشير إلى نقطة هامة، وهي أنَّ الأوبئة أو المجاعات لم تعرف انحصار تام ونهائي بعد انقضاء العهد العثماني، بل ظهرت بعض الأزمات الصحية في صورة الكوليرا سنة (1834م)

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P178.
[2] -Ibid. P179.
[3] - Vignes Pierre : Histoire du choléra-morbus, qui a régné épidémiquement à Oran pendant les mois d'octobre1834 et de janvier 1835, Verronnais, Metz, 1836, P 42.
[4] - Arnaud Léonard : op.cit., P8.
[5] - Tholozan Joseph-Désiré :op.cit., P03.

والتي كانت مدمرة فعلا للمجال الذي شغلته أقصد المرسى الكبير ووهران وما تلاها، وقد كانت بدورها واردة مِن سواحل إسبانيا التي كانت تعيش بدورها في أحضان هذا الداء خلال تلك المرحلة[1].

حركة انتقال وانتشار الأوبئة والمجاعات:

يعد الحديث في هذا المطلب مِن أبواب تجميع الشّتات المتفرِّق أو المعلومات المتناثرة في أنحاء شتى من هذه الدِّراسة، ولعل الغرض الرئيس من وضعه هو تسهيل الوصول إلى المعلومة مباشرة، وإلاَّ فإنَّ ما يقال في هذا المبحث قد نقف عليه في مواطن أخرى لكنّه في الغالب يكون متداخلا غير منتظم في إطار واحد، لذا آثرنا أن نُخصِّص هذا الموضوع أي (حركة انتقال الأوبئة والمجاعات في الجزائر) وهو بدوره ينقسم إلى قسمين حركة انتقال العدوى المباشرة أو العدوى في نطاقها الضيق والقسم الثاني حركة انتشار الوباء في النطاق الكبير أي الانتشار الجغرافي ما بين المدن والقرى.

لكن قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نشير إلى نقطة هامة تتمثَّل في تأثير الجغرافيا في مسارات التَّاريخ بصفة عامة، ومسارات الأوبئة بصفة خاصة، إذ نجد بعض بذور الملاريا استوطنت المستنقعات وأماكن تجمُّع المياه كسهل متيجة مثلاً الذي عدَّه "حمدان خوجة" منطقة وبائية ودعم هذا القول أكثر "بروديل" بحديثه عن محاولات استصلاح هذا السهل التي امتدت لقرون، ما يشير إلى أهمية الجغرافيا في وجود الأوبئة من جهة.

كما نتحدَّث من جهة ثانية عن كون أنَّ المجاعات كانت مؤثِّرا بشكل مباشر في انتشار الأوبئة مستندة على الجغرافيا بشكل كبير، إذ أنَّ حدوث الأوبئة كان يؤدي إلى هجرات سُكانية إلى المدن بحثا عما يمكِّنهم مِن سد رمقهم[2]، وبالتالي ينعكس ذلك في إطار اختلالات سكانية عبر التاريخ البطيئ كثيرا ما انتهت بمأسسة جديدة للتوزيع السكني كما تتجلَّى التَّأثيرات الكبرى لهذه الهجرات السكانية إذا تزامنت مع الموجات الوبائية ما كان ينجم عنها توسع النِّطاق الجغرافي للأوبئة أكثر مِن مرَّة بفعل هذه الحركات، وقد بيَّنا هذا في المبحث الخاص بالخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة والمجاعات.

كما لا يمكننا بأي حال أن نلج صلب انتقال الأوبئة مِن حيز إلى آخر دون أن نتكلَّم عن العوامل الرئيسية في ذلك، ولعلَّ مِن أهمها الطبيعة الجغرافية لإيالة الجزائر، إذ أنَّ الجغرافيا صنعت فعلا تاريخ هذه الأوبئة، ففي نفس الوقت الذي أتاحت فيه للسُّكان في الجبال والصَّحاري البعيدة التَّحصُّن جعلت مِن

---

[1] - Vincent, Martin Antoine et Collardot, Victor : Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur : V. Rozier, Paris, 1867, P09.
[2] -Fernand Braudel : la méditerranée et le monde méditerranéen, Éditeur : Armand Colin, Paris, 1966, Tome 1, P36.

المدن السَّاحلية أو السَّهلية القريبة منها مواطن استقرار وهجمات متكرِّرة للأوبئة وقد سبق لنا التَّحدُّث عن ذلك في مبحث الخارطة الجغرافية بما يغنينا عن اجترارِه هنا، لكن هذا لا يمنعنا أن نتساءل عما إن كان للبحر وطرقه يد كبير في انتقال الأوبئة فعلا، ثمَّ هل يُعد القرب والبعد عنه أحد معايير التَّحصُّن والسَّلامة ؟ ثمَّ ما هي السُّبل التي سلكتها الأوبئة في عمليات انتقالها؟

وإذ كان الحديث عن أهمية التي لعبها الدور الجغرافي كما سبق فعلا حُكما مُتيقِّناً فإنَّ وجود ساحل مُمتدٍ مِن الشَّرق إلى الغرب في انسيابية على امتداد (1200كلم) يعد بحقّ أحد العوامل التي استفادتها الأوبئة بشكل كبير، وهذا مما يَقرُب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فالسُّبل الطَّبيعية التِّي استفادت منها الأوبئة في حركيتها بداية ثم انتهاءً كانت لها نفس المسارات تقريبا، فتتبعنا لها مِن مصدرها الخارجي وكيفية ولوج معظمها ثمَّ انتقالها مِن النِّطاق الخارجي الذي تموضعت فيه إلى وانطلقت منه إلى المجال الدَّاخلي الذي تفشت فيه.

إنّ الحديث في بداية هذا المبحث عن الجغرافيا ليس من فضول الحديث كما قد يُتصوَّر، بل هو مِن صلب الموضوع، إذ أنَّ الأوبئة في انتقالها استغلت أمور أساسية هي: "البحر، الميناء، السفينة".

وهذه الثلاثية لا يمكنها أن تكون بدون الجغرافيا التي كانت فيها الإيالة، لذا فإن تتبعنا لمسارات الأوبئة هي ما مكننا من القول أنَّ الأخيرة جعلت من الثلاثية السَّالفة بحق البنية التَّحتية التي اعتمدتها في حركيتها إلى الإيالة أو غيرها. وهي ما أوجدت نقاط للتقاطع المستمر بين المدن والداخل.

ونبدأ في تحليل هذه الثلاثية حتى نصل إلى ما نبتغيه، وأولها البحر؛ فوجود الإيالة ضمن البلدان والممالك المطلَّة على المتوسط جعلها تعيش حياة المتوسط، وتتأثر بالمؤثرات التي تسري في المتوسط، وكون أنَّ البحر المتوسط عبارة عن بحر مُغلق لم تجعل منه مساحتها الكبيرة أكثر مِن كونه بحر مغلقا ذا مساحة كبيرة، خاصة إذا علمنا أنَّ المسارات الحقيقية المشغولة في هذا البحر تسحب منه صفته الكبيرة، وتجعل البحر متمحورا حول نقاط مركزية أساسية، وسنتناول هذه النقاط من ناحية تأثيرها في موضوع بحثنا فقط.

فنقف على وجود محاور هي لب الحركة البحرية في المتوسط ككل بالنسبة لإيالة الجزائر على الأقل، يبدأ الخط الأول لهذا المحاور غربا مِن الجزيرة الإيبيرية إلى غاية الإيالة التونسية في خط مستقيم تقريبا، فيما يمتد الخط الثاني من مدينة الجزائر إلى الأناضول، وخط ثالث لا يقل أهمية عن الأولين يمتدُّ أيضا جنوبا من مدينة الجزائر إلى الشمال باتجاه فرنسا.

فأمَّا الخط الذي كان أثره كبيراً في المسارات التي نتحدَّث عنها فهو مسار الخط البحري الممتد من مدينة الجزائر إلى موانئ مصر مرورا بمواني تونس وطرابلس انتهاءً عند موانئ الإسكندرية.

لكننا لن نتناول كلّ هذه المسارات بالتَّحليل والتَّصنيف، وإنَّما سنكتفي هنا بذكر الأليات التي استفادت منها الأوبئة في انتقالها عبر هذه المسارات، وهنا سنتوقف عند سؤال مهم وهو ما الذي جعل مسار ما أو مسارين لهما نفس الدرجة من الحركية يكون أحدهما ناقل بدرجة خطرة ومؤثر أساسي في البنية الثلاثية التي تحدثنا عنها سابقا، بينما يبقى المسار الآخر هامشي ليس له دور كبير؟ ثمّ هل كان هذا التَّأثير والدور الذي نقصده أمر آني مرتبط بالأحداث والظروف الموجودة في البحر أو أمر سائر في الزمن مرتبط فعلا بالبحر في حد ذاته وما فرضه على الواقع الجغرافي؟

نعود للحديث عن المسارات البحرية لنقول أنَّه بالنسبة للإيالة ظلَّت هذه المسارات هي الأكثر تحكما في واقعها ومئالات الأمور فيها مثلما يذكر ذلك بروديل في كل ما يخص منطقة البحر المتوسط لا الإيالة فقط[1] ، فهذه المسارات قد فرضتها عوامل عدَّة منها الجغرافي كالقرب للإيالة مع منتهيات هذه المسارات سواء إسبانيا أو مصر أو فرنسا ويبقى الاستثناء الوحيد ممثلاً في المسار المنتهي في الآستانة إذ هي بعيدة مِن ناحية المسافة مقارنة مع غيرها من ممالك كانت أقرب جغرافيا كما هو الحال مع الإمارات الإيطالية، لكنها أبعد تواصليا مِن اسطنبول ومركز الخلافة وهذا الأمر تداخل في إنشاءه التاريخ والجغرافيا، فمن الناحية الجغرافية ظلّ هذا المسار أكثر أمنا، إذ أنَّ سيطرة الدَّولة العثمانية والأساطيل المحالفة لها على جلّ سواحل جنوب المتوسط جعل مسار السُّفن المتتبع لشواطئها يجعلها في مأمن وإن كانت المسافة النَّاجمة عن ذلك ستتضاعف أكثر من مرَّة، لكن جعل مسارات السُّفن آمنة، في حين أنَّ التَّواصل مع موانئ والمجالات البرية للدول الأوروبية وعمق المتوسط موقوف على وجود الاتفاقية والمعاهدات السلمية بين أطراف عدَّة، وهذا لم يكن سائرا على طوال المدة الزمنية محل الدراسة فقراصنة الإمارات الإيطالية ظلُّوا في الكثير مِن الأحيان يدينون بالولاء لنشاطاتها القَرصَنِية الخاصة ما يجعل التَّعامل في العمق البحر للمتوسط مرتبط بمخاطر يستغنى عنها بسلوك مسارات تسيطر عليها قوى محالفة، هذا من النَّاحية الأمن الجغرافي أما مِن النَّاحية التاريخية فالارتباط الموجود بين الأطراف ومراكز الحكم جعل الإيالة الجزائرية مجبرة على ضرورة الالتزام بأمور عدة سواء منها الرمزية أو التجارية مع الباب العالي ما يجعل أفق الحركة ضمن هذا المسار مضمون ودائم، وأي انقطاع فيه ظل في المخيال الجمعي لدى المجتمع والانكشارية ورياس البحر في أوجاق الجزائر هو رديف لانقطاع في التَّواصل والارتباط الإسلامي بين المسلمين، كما أن ارتباط حكام إيالة الجزائر بالتزكية من دار الخلافة وحاجتهم للشرعية لممارسة نشاطاتهم البحرية في المتوسط جعلهم دائما في حاجة إلى الحفاظ على هذا المسار البحري، كما سيأتي.

[1] - Ibid. P 30-41.

أمَّا إن أتينا لتصنيف هذه المسارات مِن حيث الأهمية أو مِن حيث كونها أحد الآليات الفعلية في نقل أو الانتقال الأزمات الصِّحية، فسيأتي بدون أدنى ريب الخط الذي يربط موانئ مدن الإيالة الجزائرية بموانئ مصر مُرُوراً بتونس وطرابلس الغرب، فهذا المسار أحد المسارات الأكثر تأثيرا في انتقال الأوبئة، إذ كثيرا ما كان المسار الأكثر نشاطا بحكم الانتقال الدوري والمنتظم للسُّفن الواردة مِن هناك تحمل الحُجَّاج الجزائريين والمغاربة أو العكس.

في حين يأتي المسار الثالث مِن حيث الأهمية في التَّواصل ونقل الأوبئة المسار الذي يربط إيالة الجزائر بالمملكة الفرنسية، ويأتي هذا المسار في المرتبة الثانية وضمن السارات الأكثر أهمية بسبب الحركية الدائمة فيه، إذ أنَّ معاهدات الصلح والتعاون التي كانت بين البلدين ضمنت إلى حد ما للسفن التجارية المتنقلة بين الطرفين الحد الأدنى من الأمن الذي يسمح بتطوير التجارة بين الطرفين، فنجد خصوصا في القرن الثامن عشر هذا المسار يصبح شريان في نقل القمح والشعر من الجنوب إلى الشمال ونقل الخشب والسواري من الشمال باتجاه الجنوب.

وهذه المسارات تربطنا البحرية تربطنا لا إراديا بثاني الأركان الثلاثية التي ذكرناها آنفا أي: الميناء، فوجود موانئ كبيرة ومشهورة منذ القدم ساعد في تواصل آلية التفاعل المستمر بين هذه الموانئ فهي نقاط التقاء البر بالبحر، وهذه المرافئ ليست وليدة القرن السادس عشر أو السابع عشر، بل تعود إلى حركة السُّفن الفينيقية القديمة، التي جعلت هذه الموانئ بمثابة مضخات تواصلية، وتمأسست حولها مجموعة من المدن التجارية والنقاط الالتقائية كانت أساسا في الكل الحركات كما سيأتي.

فموانئ القسطنطينية وأزمير والأناضول ظلت بالنسبة للسفن الجزائرية نقاط أساسية في رحلاتها البحرية، سواء للتَّوقف لأجل الاستراحة وأخذ المؤن أو مِن أجل التَّجنيد العسكري لصالح أوجاق الجزائر أو من أجل التزود بالألة الحربية وهو ما ظل مستمرا من النصف الثاني للقرن السادس عشر كما تبيّنه وثائق الأرشيف العثماني[1]، أو مِن أجل التَّزود ببعض المواد التجارية أو لأجل مراسيم التعين التي أَلزمتْ الإيالة بأخذ رموز الولاية كل فترة جديدة للحفاظ على العلاقة والارتباط الروحي بين الطرفين. وظلت هذه العلاقات محافظة على خصوصيتها -مع بعض الفتور في بعض المراحل التاريخية- إلى غاية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر سنة (1830م).

كما أنَّ موانئ مِصر ظلت ذات أهمية كبيرة لإيالة الجزائر وساكنتها، فقد اعتُبرت البَّوابة الأساسية التي يعبر مِن خلالها الحُجَّاج الجزائريون إلى "البقاع المقدَّسة"، لذا ظلت الحركة التنقلية بين المركز الممثل في

[1] - B.O.A, M.A.D : K.K, N° 62, s 296.

"مكة المكرّمة والمدينة النبوية" والأطراف الممثلة في الإيالات الشمال إفريقية، مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالحركة إلى ميناء "الإسكندرية" ومن خلالها إلى موانئ "جدَّة" وبالتالي كانت موانئ مصر وميناء الإسكندرية تحديدا معبرا مهما تلتقي فيه جموع الحجاج.

أمَّا بالنِّسبة إلى الموانئ الفرنسية فقد كان الارتباط بينها وبين موانئ الإيالة الجزائرية ارتباطا تجاريا خالصا، إذ كثيرا ما كانت الإيالة الجزائرية بمثابة مصدر أساسي للاحتياجات الفرنسية مِن القمح والشعير إضافة إلى المرجان، بينما كانت الإيالة في حاجة إلى الصواري والأخشاب والصابون والبن والبارود وغيرها مِن أمور منشأها المملكة الفرنسية[1]، مثلما أنَّ تبادل الأسرى بدوره بين الطَّرفين كان أحد المبادلات الحيوية، وهو ما جعل الارتباط يكون دائما وثيقا بين تُجار البلدين، وجعل الحركة دائمة بين موانئ المملكتين.

وإذا تقرَّرت أسباب التواصل ووجود إمكانية التواصل ممثلة في الموانئ والمراكز الحيوية توجَّب علينا أن نصرف القول الآن إلى الحديث عن الوسائل الأساسية لمواجهة جغرافية البحر واستغلال القدرات الطبيعية ممثلة في الموانئ، وانتقلنا بالتالي للحديث عن الوسيلة الأساسية التي اعتمدت كرابط بين الوسائط الطبيعية والبشرية، فالسفن كما هو معلوم عُدَّت كأهم الأدوات التي استعانت بها الأوبئة في التَّنقل مِن حيز جغرافي ما إلى حيز جغرافي آخر،

وإذا تحقَّق ما سبق وجب هذا وجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول إنَّ البوابة الرئيسية التي اعتمدتها الأوبئة للولوج والتنقل من الحيز الخارجي البعيد إلى الحيز الداخلي للإيالة والذي يتمثَّل في المدن السَّاحلية ذات الأنشطة التِّجارية والسياسية.

ولا يُستدلُّ على هذا الأمر بأفضل مِن استنطاق الوثائق الأرشيفية والمصادر التاريخية التي أشارت إلى انتقال الأوبئة مِن مجال إلى آخر، فتتبعنا لانتشار مجموعة مِن الأوبئة يقودنا إلى النتيجة التي قدمنها بها هنا، فنجد مثلا منذ بداية القرن الثامن عشر تتحدَّث المصادر المختلفة عن انتقال الأوبئة من مجالات جغرافية بعيدة إلى إيالة الجزائر، فيذكر مثلا على رأس مستويات التأثير المسار البحري الذي سبق ذكره ويربط بين مدينة الجزائر وموانئ الإيالة المصرية، فنجد أنَّ وباء سنة (1130هـ/1718م) قد ظهر قبل ذلك في مصر ، فيما تذكر بعض المصادر أنّه قد حلَّ بالجزائر تلك السنة قادما من الإسكندرية عن طريق سفينة إنجليزية قدمت محمَّلةً بالسلع[2]، يتكرَّر الأمر مرة أخرى ففي نفس المرحلة التي تتحدث فيها الأخبار عن تفشي الوباء في مصر سنة (1739م) نقف على وجود الوباء في إيالة الجزائر أشهرا بعد ذلك أي سنة

[1] - C. D. A. C. F : le 21 juillet 1725.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298

(1740م/1153هـ) ووقد ذكر أيضا أنَّ هذا الوباء كان نتيجة سفينة وافدة مِن ميناء الإسكندرية[1]، ولعل الأمر أصبح من المسلمات بحيث أضحى ظهور خبر الوباء في مصر هو تنبيه على قرب ظهوره في إيالة الجزائر، إذ نقف مرة أخرى على وباء جديد يظهر هذه المرّة سنة (1743م) ويعود أصل هذا الوباء بدوره حسب إحدى الرسائل الأرشيفية إلى سفينة وافدة مِن ميناء "الإسكندرية" وهذا في اليوم الثالث مِن شهر جويلية من سنة (1743م) وكان قائد هذه السفينة البريطاني "جان جايسمن"[2]. ولم يكد هذا الأمر يتغير طوال هذه المرحلة، بل المستغرب أنَّ السلطات الرسمية في إيالة الجزائر ومع تكرر نفس السبل في دخول الأوبئة لم يذكر اتخاذها أي إجراءات خاصة، فنقف على نفس الأمر يتجدَّد أيضا في أوبئة عدة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر، فنجد مثلا الأب "فيشرا" يؤكد أنَّ سبب الوباء الذي ألم بالجزائر هو سفينة كانت تُقلُّ عدداً مِن الحجّاج الجزائريين العائدون مِن "مكة المكرمة" عبر إحدى السُّفن التي كانت متواجدة بميناء الإسكندرية، هذه الأخيرة دخلت إلى مدينة عنابة[3] إذ مِن المعلوم أنَّ "صالح باي" حاكم بيلك قسنطينة، كان قد قام -على غير عادة الحكام في تلك المدة- باتِّخاذ العديد مِن الإجراءات الاحترازية للوقوف في وجه تفشي هذا الوباء. خاصة إذا علمنا حسب ما ينقله "مارث كونر" بأنَّ السفينة كانت تحمل مائتان وستة عشر حاجا سقط منهم خمسة وسبعون ضحية قبيل دخوله سواحل مدينة عنابة خلسة[4]. يتجدَّد هذا الحال أيضا مع وباء آخر يلِّم بإيالة الجزائر سنة (1816م) إذ يرى "غيون" أنّ السفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة مِن "الإسكندرية" رست بمدينة عنابة، ومن خلالها تفشى الوباء إلى المناطق الأخرى[5]. فيما يتحدّث "بير بروجر" عن سفينة وافدة إلى ميناء عنابة قادمة من ميناء "الإسكندرية" بتاريخ (1817/06/09م)[6]، ولعلنا لا نحيد عن الصواب إن قلنا أن سبب كثرة الأوبئة الوافدة عبر مسار البحري الرابط بين مدينة الجزائر أو مدينة عنابة وموانئ مصر خاصة منها الإسكندرية راجع نقطة محورية وهي اجتماع العديد من الأسباب التي جعلت من إيالة مصر مصدراً مميز للأزمات الصّحية، إذ الطوفان الموسمي لنهر النيل في صعيد مصر جعل الفلاحين دائما في مواجهة عوامل الحمى والملاريا الموسمية، إضافة إلى كون ميناء الإسكندرية ملتقى الطرق التجارية وقوافل الحج، الأمر الذي جعل العديد مِن الباحثين في المجلة الطبية الفرنسية يصنِّف مِصر مثلما تُصنَّف

[1] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 139-142. 17/07/1743.
[3] - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568).
[4] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P226.
[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P372.
[6] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P232.

الهند، ويجعل مِن نهر "النيل" هو نهر "الغانج" الهندي، ما يجعل مصر أحد بؤر المتأصِّل للقلق الوبائي[1] خلال المرحلة الممتدَّة مِن أقدم التاريخ إلى بدايات القرن العشرين.

إلا أن الانتقال الدوري للأوبئة من الحيز والمجال الخارجي إلى المجال الداخلي لم يقتصر على السفن الوافدة عبر المسار البحري الأوَّل من مصر فقط، بل تشاركت فيها المسارات البحرية الأخرى، إذ نقف على العديد من الأوبئة كانت الأناضول هي مركزها ومنها وفدت العدوى إلى إيالة الجزائر، لذا نجد الشريف الزهار يتحدث عن هذا الأمر قائلا:«.. وكان الوباء في الجزائر يتسرب غالب الأحيان عن طريق البحر، لذا نجد أول مَن يصاب به هم عمال الموانئ، وبعد ذلك ينتشر في بقية أنحاء البلد..»[2] وهو الحال فعلا في الكثير من الأوبئة كما سيأتي.

فنجد ملامح الانتقال الوبائي من الأناضول إلى إيالة الجزائر يتجسد في أكثر من مثال، فنقف عليه مثلا في الوباء الذي اجتاح الجزائر سنة (1786م) وعُرف "بالوباء الكبير" الذي ترجع به المصادر إلى عدد مِن الرَّحالة الوافدين إلى الإيالة مِن الأناضول، وفي هذا يقول "الزَّهار" أنَّه: «...وفي سنة (1201هـ) جاء الوباء إلى الجزائر، حتَّى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوباء الكبير، قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، وطال الوباء في الجزائر إلى سنة (1211هـ)..»[3]، كما ذكر نفس هذا الوباء "بير بروجر" وجعل آلية انتقالها إلى الإيالة البحارة الوافدين مِن إسطنبول. نفس المسار البحري يكون مَسْؤُولاً مرَّة أخرى عن انتشار الوباء في الجزائر مرَّة جديدة حسبما يشير إليه "غيون" في وباء سنة(1792م)؛ إذ يرى أنَّه كان نتيجة وصول عدد مِن البَّحارة الجزائريين الذين كانوا في الأناضول[4]. يتجدَّد نفس النَّمط الانتقالي للأوبئة مرَّة ثانية في أقل مِن عقد مِن الزَّمن إذ أنَّه وفي سنة (1212هـ/1799م) تَفِدُ سفينةٌ تركية تُقلُّ بعض الحُجَّاج وترسو في موانئ بيلك الغرب الجزائري محمَّلة بالوباء، وبعد ذلك بزمن قصير سُمِع خبر تفشي الوباء في مُدن: وهران، تلمسان، ومعسكر. وانتقل بعد ذلك مِن المحيط المغلق لبيلك الغرب الجزائري إلى المغرب الأقصى[5] والأمر مبسوط بشكل أكبر في الفصل الثاني والمبحث المتعلق بكرونولوجيا الأوبئة بين التَّفشي والانحصار ما يغنينا عن البسط أكثر.

وإذ قد أتينا على ذكر الجُمل مما يتصل بحركة السفن وعلاقاتها بالموانئ والبلدان ضمن مسارات عددنا أهم المسارات بقي لنا أن نتحدَّث عن آخر هذه المسارات البحرية المؤثرة في وجود الأوبئة في الإيالة،

---

1 - A.N.M : Bulletin de l'Académie nationale de médecine, P46.

2 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 78.

3 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص78.

4 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P355 354.

5 Ibid. P 360.

إذ لم تقتصر الاحتكاكات التِّجارية والحضارية مع الموانئ الإسلامية ممثلة في الموانئ المصرية والتركية بل تعداه إلى مسارات نحو الشَّمال مع محور تجاري هام يربط الجزائر بفرنسا وليفورنو ومرسيليا وغيرها من موانئ الضفة الأوروبية، فنجد أنَّه كثيرا ما أشاد الدبلوماسيون الجزائريون والفرنسيون في مراسلاتهم بطبيعة العلاقة الاقتصادية القوية بين الطرَّفين والتي لم يكن لها من مجال للتنقل إلا عبر البحر، وتَتجلَّى هذه الحركية التجارية الكبيرة في كثرة المبادلات التجارية الاقتصادية بين الطرفين، وهو ما توضحه المراسلات الرسمية بين الطرفين، فنقف مثلا على رسالة مُؤرَّخة في (1711/01/10م) أرسلت مِن طرف "علي داي" إلى الملك الفرنسي "لويس الرابع عشر"[1] تعكس رضى الطرفان عن مستوى الحركية والنَّشاط التجاري بينهما.

وغالبا ما كان وجود الوباء في فرنسا يعني إلى حدٍّ ما انتقاله إلى إيالات الموجودة جنوب المتوسط خاصة منها القريبة والمجاورة مثل: الإيالة التونسية، والإيالة الجزائرية، وطرابلس الغرب، وهو ما جرى فعلا سنة (1720م) عندما انتقل الوباء مِن منطقة الشام إلى فرنسا عن طريق سفينة (le Grand-Saint-Antoine) "سانت أنطوان الكبرى" إلى مدينة مارسيليا[2]، فقضى بها خلال ثلاثة أشهر فقط على ما يقارب ثمانين ألف ضحية[3]، لينتقل منها بعد ذلك إلى الضِّفة الجنوبية مِن المتوسط، وتحديداً إلى كلّ مِن إيالات "طرابلس الغرب" و"تونس" و"إيالة الجزائر" فظهرت بوادره في نفس السنة تقريبا (1720م) وبقي يتجدد بعد ذلك لثلاث سنوات تقريبا.

كما يُذكر أنَّ مِن بين الأوبئة التي كان مصدرها ومكان تطورها مدينة مارسيليا الفرنسية وانتقالها إلى موانئ الضفة الجنوبية وباء سنة (1740م) الذي قضى في فرنسا وحدها على قرابة أربعين ألف ضحية[4] وانتقل بعدها إلى الإيالات العثمانية فنجده يفتك بتونس في نفس السنة ويلج الجزائر ويؤثر عليها بشكل كبير سنة بعد ذلك، لتشهدها بعدها مسارات الانتقال من فرنسا إلى إيالة الجزائر انقطاع دام قرابة سبعين سنة، وهذا الانقطاع مرده الاحتياطات والاحترازات التي أضحت فرنسا تلزم بها سفنها، ولم ترجع التأثيرات المباشرة لانتقال الأوبئة في هذا المسار إلاَّ مع الحملة الفرنسية على الجزائر، وتجدد ظهور وباء الكوليرا مرَّة أخرى سنة (1837م)[5].

فإذا كان ما مر يقرب على العقل فهمه ويسهل الوقوف على صدقه، فمِن الواجب الآن أن نضيف الأركان التَّي عليها مدار الانتقال في شقِّه البشري، لكن علينا أن ننبه إلى أن الانتقال في هذا الشق

---

[1] - C. D. A. C. F : le 10 janvier 1711.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P-P 298-303.
[3] - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P19.
[4] - A.N.M : Anné1899, P589.
[5] - Daremberg Georges : op.cit., P07.

يمكن أن نضعه ضمن مجالين أساسييْن، المجال التأسيسي، والمجال التوسعي. فإن جئنا إلى تفصيل المجالين قلنا:

المجال التأسيسي: هو المجال الأول الذي يعرفه الوباء بعد دخوله الحيز الجغرافي للإيالة، يضم هذا المجال العناصر المباشرة القريبة من أوّل تماس بين: الوافد في صورة (الوباء) والماكث في صور متعددة (ككائن الحي، والمجال الجغرافي، المناخ) وقد أطلقنا عليه اسم المجال التأسيسي لكونه حيز ومحيط ما يتأسس من خلاله الوباء في أول ظهور له، فهو الذي ينبني عليه نتائج الأوبئة فيما يأتي من نجاحها في التفشي أو انكفاءها على ذاتها.

المجال التوسعي: وهو المجال الثاني والهدف الذي يريد الأوبئة أن يحقق فيه الاستبطان بشكل أكبر، يضم هذا المجال المتلقي الداخلي. وغالبا ما يكون المجال التوسعي بعيدا عن مركز الحركة والموانئ لكنه يكون دائما ضمن ارتباط دائم مع المجال التأسيسي، غالبا ما يكون محميا بعدد مِن العوامل الطبيعية مثل: (جغرافية الجبال، والبعد عن مراكز التأسيس) وعوامل بشرية مثل:(وعدم وجود كثافة سكانية عالية). والمجالين يدخلان ضمن الإطار العام للبنى التحتية لحركة انتقال وتوطن الأوبئة.

نأتي للمجال التأسيسي لحركية الأوبئة فنقول أنه بدوره ينقسم إلى دائرتين أساسيتين: دائرة الانتقال الخاص ودائرة الانتقال العام، وضمن دائرة الانتقال الخاص تتبدى لنا معالم الحركات الأولى التي ينتهجها الوباء في الانتقال، وفي تتبعنا لانتشار الأوبئة كان قد استوقنا أمر قلنا أننا سنشير إليه بالتفصيل هنا، وهو الخطوة الأولى التي اعتمدها الوباء في الانتقال، ألا وهي خاصية أوّل الفئات ضمن السكان إصابة بالأوبئة، والملاحظة تدلنا على أنَّ مَن تصدَّى لهذه المرتبة غالبا ما كانوا عمال الموانئ عموما وفئة البساكرة منهم خصوصا، إذ نجد أنَّ عدداً مِن الكتابات تركِّز على عدد الموتى في بداية الوباء، وهنا تستوقفنا ملاحظة مهمة إذ أن غالب الدراسات تتحدَّث أنَّ أوّل مَن كان عرضة وأوّل مَن يصاب بالأوبئة في الجزائر هم فئة البساكرة، ومردَّ ذلك أنَّ هذه الفئة اتَّخذت مِن "الحمالة" أي: نقل الأغراض مصدر رزق لها، فنجد الكثير من الأوبئة أوَّل مَن تُسقط مِن الضحايا يكونون من هذه الفئة، فمثلا في وباء سنة (1793م) كانت أولى الضحايا المصرَّح بها نتيجة لظهور الوباء هم مِن فئة البساكرة[1]، الأمر عينه يتكرَّر في سنة (1232هـ/1817هـ) فيسقط ثلاثة مِن البساكرة مرَّة أخرى ضحايا للوباء في مدينة الجزائر[2]، وذلك يوم (21/جوان) وقد سقط ثلاثتهم موتى بالميناء[3]، بعد فترة وجيزة لا تتعدى الأيام القليلة يسقط خمسة مِن

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, PP 232.
[2] - Ibid.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit.,372 .

البساكرة أيضا موتى نتيجة لنفس الوباء، بعدها بأيام يسقط أربعة بساكرة ضحايا اثنان منهم داخل أسوار المدينة ما يوحي بانتقال الوباء في قادم الأيام إلى داخل المدينة، فينتبه "عمر داي" لذلك ويرسل أطباءً للتَّحقق مِن الأمر؛ ويتضح لهؤلاء الأطباء أن الأعراض على الجثث هي نفسها ويعلنون للداي أنَّ هذا وباء جديد فعلا يستبيح ضحاياه من البساكرة، ثمَّ بعد فترة قصيرة في العشرين مِن الشَّهر نفسه (20/جولية 1817م) نجد أنَّ مِن بين 20 ضحية للوباء سبعة ضحايا مِن البساكرة[1]، لكن هل كان البساكرة في منأى عن غيرهم؟ ألم يحتكوا بغيرهم ومن هي الفئة التي سيتواصلون معها بشكل كبير؟

في هذه الحالة الأحرى بنا أن نعود لدراسة مراحل انتقال السلع من الميناء إلى التجار، فنقف على أنَّ الفئة الثانية بعد البساكرة التي تكون في احتكاك دائم معهم بسبب التعاملات التجارية كانت في الغالب من فئة اليهود؛ إذ كانت هذه الفئة هي الزُّمرة المتحكمة في التَّعاملات التِّجارية الأساسية، وهذا الأمر ما جعل فئة اليهود تكون هي الفئة الثانية التي ينتقل إليها الوباء، مِن حيث خطر الإصابة بالوباء، فهذه الفئة هي الأكثر تماساً مِن النَّاحية التِّجارية مع مختلف الفئات في المدينة، وبالتَّالي فهي الفئة الأكثر قُرباً مِن مُختلف العمال في مرسى مدينة الجزائر وغيره من أماكن؛ الأمر الذي يجعلهم في بعض الأحيان أحد النَّواقل الأساسية للعدوى خاصة ونحن نعلم من خلال العديد مِن الشَّواهد أنّ الوباء كان ينتقل في الكثير من الأحيان عن طريق اللمس وحينها يكون الناقل والمتلقي في صحَّة جيدة[2]، فلا ينتبه الطَّرفان لذلك، ونحن بالفعل إن تتبعنا الأوبئة التي كانت موجودة خلال تلك الفترة، بل إن عدنا إلى نفس الوباء الذي كنا بصدد الحديث عنه أي وباء سنة (1232هـ/1817هـ) سنجد أنّه مباشرة بعد الإصابات التي تتحدّث عنها المراجع في صفوف البساكرة نجده ينتقل إلى فئة اليهود، إذ مباشرة بعد التّأكد مِن وجود الوباء وظهور أعراضه على تسعة جثث وجثة واحدة لضحية من الحضر، نجد أنّه قد وُجِدت جثتين ليهود تحمل نفس أعراض الوباء، ثمَّ بعد فترة قصيرة تبيَّن أنَّ أكثر مِن ستين يهوديا كانوا يعانون المرض بسبب وباء (1232هـ/1817هـ)، أياما بعد ذلك سقط في مدينة الجزائر يوم (27/جوان 1817هـ) (45) خمسة وأربعين ضحية من بينهم (10) عشرة مِن اليهود[3].

كما أنَّ قيام بعض اليهود بالمخاطرة في الأعمال المتعلقة بجثث المرضى - سيأتي تفصيله عند الحديث عن الانعكاسات الاقتصادية- سيؤدي بدون شك إلى توسيع دائرة احتكاهم المباشر بالمرض، ما سيزيد حتما مِن إمكانيات انتقال المرض إليهم أوّلاً ثمَّ انصرافه إلى غيرهم ثانيا، وقد أوردنا دائرة نسبية تعيّن

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., PP373,374.
[2] - M Faroux : M.C.M, P 75.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P374.

نسبة الضحايا حسب الفئات، فكان احتلت فئة اليهود المرتبة الثانية بنسبة ضحايا المصابين بذلك الوباء إذ كانت تناهز تقريبا (10%) من مُجمل نسبة الضحايا[1]؛ وهو ما يؤكد أهمية هذه الفئة في عملية نقل العدوى إلى القريبين منها والمحيطين بها.

والنسبة المرتفعة من عدد الضحايا اليهود في غالب الأوبئة جعلتهم يسعون للنأي بأنفسهم عن المجالات التي ينتشر فيها الوباء، وهو ما يبرِّر تفضيل العديد من اليهود الخروج من المدن الحضرية الكبرى أثناء ظهور الأوبئة، بل ويتضح مدى استيعاب كبار اليهود لخطر التجارة العادية في تلك الأيام بقيام أحبارهم بسن قوانين تحضِّر على اليهود شراء وبيع ملابس الموتى من ضحايا الأوبئة خوفاً مِن انتقال الأوبئة إليهم[2].

فيما ذهبت بعض التَّقارير بأنَّ الطَّاعون لا ينتقل عَن طريق الملابس إذ لوحظ أنّ الملابس التي كانت تستعملها الكثير مِن النِّساء لم تقم بنقل الطَّاعون إلى غيرهن على غير المتوقع، مع أنَّ النساء التي بيعت ملابسهن كن بدورهن مُصابات بالطَّاعون[3].

دائما في إطار المجال التأسيس وضمن دائرة الانتقال العام وجبت الإشارة إلى أنَّ الوباء في الكثير مِن الأحيان ظل ينتقل ضمن مجالات تكاد تكون مغلقة، كما هو الحال بين أفراد العائلة الواحدة، إذ لا ينتقل إلى الفرد الأول حتَّى يكاد يقضي على العائلة كلها، وهو ما حدث فعلا مع العديد من العائلات الكبرى التي تسمَّى الوباء باسمها نظرا لما خلفه بين أفرادها أو لأنه قضى عليها بالكلية، فهذا وباء "حبحوبة المجاد" الذي ضرب الجزائر سنة (1786م)[4] يذكر ولسون أنه أباد كلَّ أفراد عائلة المجاد فَسُمِّيَ باسم العائلة، الأمر نفسه نجده في وباء آخر سنة (1794م) سمي ب"حبحوبة عثمان" لأنَّه قضى على عدد كبير من أفرادها، ومن الأمثلة التي تصور الحالات التي نتحدَّث عنها ما حدث مع عائلة "بن شمعون" اليهودية، إذ نجد أنّ الوباء كان ينتقل بين أفراد العائلة الواحدة ولينتهي بكل أفراد العائلة إلى نفس الأمر، بحيث أصيب في هذه العائلة مثلا بداية الشاب "صموئيل" فتوفي ثمّ أدركه أخوه فتوفي أيضا في نفس الفترة، لتعيش الأخت "لينة" فترة قصيرة بعدهما تحاول مواجهة المرض لكنها تموت بدورها نتيجة نفس الوباء، وتقضي لاحقا معظم العائلة بسبب هذا الوباء، وتوجد عائلة أخرى يهودية أيضا عاشت نفس المسار هي عائلة (Sanguinetli) "صونغولتلي" فقدت أكثر من ثمانية أفراد من العائلة الكبيرة[5].

---

[1] - راجع المطلب الخاص بكرونلوجيا ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة.

[2] - Lucette Valensi: op.cit., document 6.

[3] - Clot Antoine-Barthélémy : op.cit., P17.

[4] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190,

[5] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P403,404.

وهذا يدلُّنا على إمكانية الانتقال الوبائي داخل العائلة الواحدة تكون أكبر بكثير مِن أن يفد الوباء مباشرة من خارج العائلة، فاستخدم أفراد العائلة الواحدة لنفس الوسائل التي كان يستخدمها المصاب بالعدوى وبالأخص استغلال الملابس الخاصة بالمريض بدون تطهيرها أو الاهتمام بتعقيمها كانت أحد مترتباته انتقال العدوى مِن المرضى إلى الأصحاء، ولهذا نجد الأب "فيشرا" يتأسَّف على مواصلة الأهالي استعمال الأغراض الشخصية للمرضى: كسرير المريض أو ملابسه وفي أحسن الحالات يقومون ببيع ملابس المرضى أو إهداءها؛ وهو ما ينجم عنه بطريقة تلقائية تفشي الوباء كما يؤكده المختصين في الأمراض المعدية[1]، وبالتالي ظهور النتائج عكسية شديدة التَّأثير في انتقال الوباء وامتداد تأثيره، ويساق في هذا الشأن العديد من الأمثلة عن انتقال المرض من الموتى إلى الأصحاء بفعل استخدام أغراضهم الشخصية كالملابس التي ورثوها عنهم أو الأدوات التي خلفوها ويذكر في هذا المقام قصة ذلك الابن الذي شرع في بيع ملابس أبيه المتوفي مباشرة بعد دفنه، واستخدم ما لم يستطع بيعه من سراويل بدون أدنى حيطة أو اتخاذ مسببات الحذر ما نجم عنه انتقال خبر إصابته بنفس الوباء[2].

ثمّ تأتي مِن حيث الفئات الناقلة للوباء أيضا فئة الخدم والحشم داخل القصور، إذ كثيرا ما نقف على حالات كانت الإصابة الأولية بها في صفوف الخدم وانتقلت بعدها للسَّادة أو استطاع السَّادة اكتشاف الأمر والحيطة منه قبل لاحقه بهم، فمن أشهر الحالات التي قضى فيها الخدم على السَّادة بنقلهم الوباء إليهم حالة زوجة "الدَّاي عمر باشا" التي سقطت متوفاة في القصر مباشرة بعد سقوط إحدى خدم المقيمين في المنزل ضحايا لهذا الوباء في (25/فيفري 1818م) ولم يتوقف انتقال المرض مِن الخادم إلى زوجة الداي فقط بل انتقل مِن الزَّوجة المتوفَّاة إلى الدَّاي عمر باشا نفسه، فسقط في الفاتح مِن شهر(مارس/1818) ميتا[3]. نفس الأمر يحدث مرّة ثانية حينما يُصاب ثلاثةً مِن عمال حدائق قصر الداي بالطّاعون فيسقطون ضحية لهذا الطاعون (1818/10/20م)[4] ثم يدرك به ذلك عدد من كبار المقربين إلى الداي، لكنه نجح في أن ينأى بنفسه عن هذا المصاب.

ومن ضمن الإطارات أو الدوائر العامة لانتقال الأوبئة ما نجده من الاحتكاكات الطبيعية الناشئة داخل المعاملات اليومية الروتينية بين الساكنة داخل المجال التأسيسي والمجال التَّوسعي في آن واحد، إذ نقف على العديد من صور انتقال الأوبئة داخل المجالين في التجمعات العامة التي كانت تضم الساكنة مثل المقاهي والأسواق والاحتفالات والأعياد وحتى الجنائز والحمامات، ويتضح هذا الاحتكاك بدلائل عكسية،

---

[1] - Crouzet Stanislas : op.cit., P20.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P139.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P381.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P386.

أو بشواهد عن محاولة الساكنة ممَّن يحوزون على قدر من الثقافة الصِّحية على الابتعاد عن أماكن الاحتكاكات الروتينية المساهمة في انتقال الأوبئة، وهو ما نستجليه من تصرفات قناصل الدول الغربية الذين كانوا يتجنبون مراسيم الأعياد والاحتفالات والمناسبات إذا تصادفت مع انتشار الأوبئة محاولين أن يناوأ بأنفسهم عن ذلك، مثلما حدث في عيد الفطر لسنة (1232هـ/1817م) عندما غاب القنصل الفرنسي دفال (Deval) من الاحتفالية الرسمية لعيد الفطر[1]؛ بسبب اعتباره الأمر محلَّ للاحتكاك المؤدي إلى انتقال الأوبئة خاصة وأن هذه الاحتفالات يشهدها جموع من العرب واليهود، كما حاول بعض قناصل الدول الأوروبية أن لا يتعرضوا لمسار انتقال الأوبئة المعلوم في هذه التجمعات لكنهم في نفس الوقت كان يخافون أن يكون عدم حضورهم للاحتفالات سببا في تدهور العلاقات الدبلوماسية فتفطن بعض القناصل إلى خدعة بتقديم أو تأخير التهنئة بالعيد في قصر الداي ليوم أو يومين عن الاحتفال الرسمي ما يتيح وجود عدد أقل مِن النَّاس وهو ما طبقه بالفعل عدد من القناصل في عيد فطر(1233هـ/1818م)[2]. مثلما نقف على تصريح لأحد وجهاء الجزائر حمدان خوجة عن محاولاته أن يبتعد عن السبل التي يسلكها الوباء في انتقاله بين الناس بتجنب الذهاب إلى الأماكن العامة مثل: الحمامات المقاهي وحتى الجنائز، لذا نجده يصف الأمر الموجود في إيالة الجزائر خلال تواجد الأوبئة بنوع من الآسي، لذا نجده يلتزم بيته ويتجنب الاحتكاك بالنَّاس، ولا يخرج إلاَّ لضرورة ما، مثلما لمح بالتزامه الابتعاد عن الأماكن التي يجتمع بها النَّاس وعدم لمسه الأشياء التي تعلق بها الأمراض[3]. وهو عكس ما كان منتشرا بين العامة مِن النَّاس، إذ لم يكن يذكر خبر وفاة أحد النَّاس بالطَّاعون إلَّا واجتمع عليه عدد كبيرٌ مِن النَّاس لتشيعه وهو ما يرفع إمكانية الإصابة بالعدوى وانتقالها من شخص إلى آخر[4]. وبهذا نكون قد استوفينا المجال التأسيسي في حيزيه الخاص والعام.

وإذا تم لنا الغرض من استعراض ما تعاهدنا عليه من تسمية في القسم الأول، وإذا تحقَّق ما له مِن سبيل في المجال التأسيسي الأوَّل بدائرتيه العامة والخاصة انتقلنا بعد ذلك للحديث عن المجال التَّوسعي، وهو المجال الذي شغلته الأوبئة مِن أجل التَّوسع لكن قبل أن نستعرض ما نرومه ضمن هذا المجال وجب أن ننبه أن هذا المجال ينقسم بدوره بين: مسار وهدف. فالمسارات هي طرق الانتقال الوبائي وأما الأهداف فهي مستقرات الانتقال الوبائي أو بالأحرى أماكن بالتَّوطن الوبائي.

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P157.

[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P,P 375,385.

[3] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص 32.

[4] - Jean Alasia ; Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne. Dans M.C.M, P450.

وإذا عُرف ما سبق شرعنا في الحديث عن المسارات فنقول أنّها تلك السُّبل البرية التي سلكتها الأوبئة وانتقلت عبرها إلى هدفها الأساسي، وهي داخلية وخارجية، أما الخراجية فتكاد معظم التقارير تؤكد بأنّها كانت تنتقل من الشرق إلى الغرب، فتظهر غالبا في مصر وتنتقل منها إلى طرابلس الغرب ثمّ تنقسم هناك بين مَن تتّجه إلى الإيالة الجزائرية مباشرة ومن تدخل إلى إيالة التونسية ومنها تلج الإيالة الجزائرية عبر مسارات عِدَّة باتجاه عنابة وقسنطينة؛ ومن هذه الأوبئة مَن يكمل مساراته إذا كان قويا بالفعل باتجاه المغرب الأقصى[1]، هذا فيما يخصّ المسار البري الخارجي، وقد فصّلنا الحديث فيه في المبحث المتعلق بركب الحجّ ما يغنينا عن تكرار تفاصيله هنا.

أمّا من ناحية المسارات البرية الدّاخلية التي سلكتها الأوبئة فنجدها تعتمد على محور بري يمتدّ عبر مسار (طبرقة – قسنطينة) مُخترقاً بعض المدن السّاحلية كالقالة وعنابة، فيكاد يكون الطريق التّجاري هو الطريق الموازي لانتقال هذه الأوبئة مِن تونس إلى الجزائر أو العكس، ويتجلّى هذا الأمر في أنّ العديد مِن الأوبئة قد سلكت هذا المسار للوصول إلى أهدافها، فمن الأمثلة على ذلك الوباء الذي ألمّ بالإيالة التُّونسية سنة (1784م) وقضى بها على ما يقارب الثلاث مائة ألف شخص (300,000) خلال تلك السنة والتي تلتها[2]، ووجد طريقه للانتقال كما ذكرنا عبر المحور المذكور إلى مدينة القالة ومنه إلى مدينة عنابة ثمّ سكيكدة[3] وبالتالي أضحى ينتشر في حيز جغرافي معتبر يغطي معظم بيلك الشرق وهو أحد الأهداف التي سنتحدث عنها. كما أننا نقف على طريق آخر لانتقال الأوبئة وهو الطريق الرابط بين المركز في بيلك الشرق والمركز في الإيالة ككل أي بدار السُّلطان، فنجد أنّه كثيرا ما جُعل هذا المسار طريقا حيويا في نقل الأوبئة التي ظهرت في عاصمة الإيالة إلى أطرافها، مثلما هو الحال مثلا في وباء سنة (1793م) والذي تسرَّب من مدينة الجزائر سنة (1793م) إلى مدينة قسنطينة أثناء الزيارة الروتينية التي يقوم بها البايات لأجل دفع الدنوش[4]. وتأكد الانتقال الوبائي عبر هذا المسار في هذه الحالة وتأريخها يعني بالضرورة أنَّ الطريق كان سالكا لانتقال الأوبئة من مجال إلى آخر بشكل سلس عبر هذا المسار. ثم نقف على مسار آخر لا يقل أهمية عن مسار قسنطينة مدينة الجزائر، وهو ذلك المسار الرابط بين مدينة الجزائر ومدن الزاب الجزائري وتحديدا مدينة بسكرة، فوجود عدد من العمال الذين يشتغلون في مدينة الجزائر في نقل البضائع "الحمالة" وظهور عدد من الأوبئة في بسكرة أثناء فرار البساكرة من الطاعون في العاصمة إلى مدنهم الداخلية يؤكد أن الوباء قد اتخذ بالفعل هذا المسار كأحد المسارات الهامة باتجاه انتقال الوباء إلى الجهات

[1] - A.I.P.A : 1924- N°3. P312
[2] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P 226.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P, P343.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P142.

الجنوبية كما حدث مع وباء سنة (1789م) الذي ضرب المدينة بقسوة، وعاد ليتجدد سالكا نفس المسار سنة (1792م)[1]. ووباء ثالث أيضا لا يستبعد أن يكون قد تعاهد نفس الطريق المذكور فيظهر سنة (1798م) ويمتد مِن مدينة الجزائر إلى بسكرة ومنها إلى جلّ مناطق صحراء الزيبان[2]، وهذه الصحراء في حد ذاتها كانت أحد الأهداف التي كان يسطرها الوباء فعليا لأجل بلوغ مدن الجنوب كما سيأتي. كما لا يفوتنا أن نتحدث عن وجود مسارات عشوائية تنتقل فيها الأوبئة عن طريق حركة أشخاص بعينهم أكثر مما هي حركة مستمرة ومتتابعة، فيجعل المسارات كثيرة لكن الأكثر ارتباط بما نريد لا تخرج كثيرا عما وضحنا فيما سبق، لذا فنحن جديرين بالقول أن التنقل الوبائي كانت تحكمه طرق بعينها، والملاحظ على هذه الطرق أن غالبها تجتنب المسار الجبلي، وهذا لأمرين أولهما صعوبة هذه المسالك طبيعيا وثانيهما عدم توفر أمن يظاهي ذلك الموجود على المسارات المذكورة، لذا نجد أن المناطق الجبلية ظلت في الكثير من الأوبئة بعيدة عن هذا الخطر ومحصنة بشكل كبير، وهذا يعيدنا للحديث الذي انطلقنا منه أوّل هذا المبحث عن تأثير الجغرافيا في انتقال الأوبئة، فنقول أن الجغرافيا العامة أثر في انتقالنا الأوبئة من الخارج إلى أبواب الإيالة، مثلما أثرت الجغرافيا بشكل حاد في انتشار الأوبئة وتوطُّنها في بعض المناطق، وهو ما أثرناه بالتفصيل فيما سبق ذكره[3].

لا يتوقَّف انتقال وحركية الوباء عند الإنسان فقط كما قد يعتقد من تركيزنا عليه، بل يتعداه الأمر إلى جل الكائنات الحية التي كانت تجاوره المحيط والتي كانت في بعض الأحيان هي أحد النواقل أو الوسائط خاصة إذا عَلِمْنا أنَّ الحيوانات المختلفة كانت تعيش جنبا إلى جنب مع سكان مدينة الجزائر، مثال ذلك الخيول والأبقار والماشية وإن كان الأب "بواير" يصرح بخلاف ذلك[4]، غير أنَّ الحقائق العلمية والتاريخية كثيرا ما تتحدث عن استعمال الأوبئة للكائنات الحية المختلفة خاصة منها البراغيث والفئران والحشرات التي تتطفل على أنواع مختلفة من الحيوانات في القصور كالخيول والأبقار والغنم وتصبح هذه الحشرات والبراغيث في الكثير من الأحيان المضيف الأساسي للاحتفاظ بالوباء بل ونقله مِن مكان ما إلى مكان آخر.

لذا نجد عدد من التشريعات المتَّخذة في الدُّول الأوروبية حينها نصت على ضرورة التَّخلص مِن الحيوانات التي يشتبه في مرضها عن طريق قتل الفوري[5]، ويزيد خطر انتقال الوباء من الغنم والماشية إلى

---

1 - Lucette Valensi: op.cit., P21.
2 - Jean Marchika :op.cit., P149.
3 – تحدثنا عن الأثر الجغرافي لانتقال الأوبئة وتمركزها في مبحث الخارطة الجغرافيا لانتشار الأوبئة والمجاعات، وهو ضمن الفصل الثاني من هذه الدراسة.
4 - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 198.
5 - Maury Eugène : op.cit., P08.

الإنسان في حال توفرت فيه بعض الخصائص كوجود جراح لدى الإنسان أو خرجات تسمح بتسهيل مرور البكتيريات إليه[1]. فهل حدث ذلك فعلا في الحيز الزمكاني الذي نتدارسه؟

بالفعل نجد أنَّ للأمر توجد علاقة وطيدة لكنها غير جلية بين الإنسان والحيوان في عملية نقل وانتقال الأوبئة على المسارات السابقة، إذ كيف نفسِّر تلك العلاقة بين موت العمال في القصر واكتشاف نفوق عدد من الحيوانات الخاصة بقصر الدايات؟

ولعلَّ هذا مما يبين العلاقة غير الواضحة لكنها تُفسِّر إلى حد ما السبب الذي جعل العديد من العمال في قصور الدَّايات وكبار رجال الدولة (كخوجة الخيل والخزناجي) يعانون مِن الهجمات الوبائية، فغالبا ما كان احتكاك هذه الفئة مِن الخدم بالحيوانات في الإسطبلات وتجهيزها بما تحتاج إليه يؤدي في النهاية إلى انتقال الوباء في حالة وجودها من الحيوانات والكائنات الحية التي توجدها إلى هذه الفئة من الخدم في مرحلة ما، وهو ما استنبطه الكثير مِن الأطباء والمختصين بعد ذلك[2]، ولعلَّ هذا ما يُستنبط أيضا مِن رسالة أوردتها إحدى الكتابات المحلية حول موت حوالي 14 حصانا من الخيل في نفس الأسبوع الذي توفي فيه الداي "علي خوجة" في (الأول مارس1818م) في إسطبلات القصر[3]، كما أنَّ هذا ما يلاحظ في سنة (1788م) إذ أتت الجائحة الوبائية على عدد معتبر من الساكنة كان غالبهم ممَّن يشتغل في الزِّراعة أو له علاقة بالتربية الحيوانية كما يفهم ذلك مِن تصريح الأب "فيشرا" والذي أثبته له "مارشيكا"[4]

وهو ما يفسر أيضا اتجاه السُّلطات الصِّحية والإدارية في بعض الدول الأوروبية إلى التَّخلُّص مِن الأبقار والأغنام التي يشتبه في مرضها بالقتل بشكل سريع[5].

وإذا تحقَّق المراد مِن عرضنا المقتضب عن المسارات المهمة التي كانت تسلكها الأوبئة نعود إلى غرضنا مِن هذا التوطئة لنتحدَّث عن "الأهداف" التي توطَّنت بها هذه الأوبئة، غير أننا سنجملها فقط منعا لتعارض التكرار بينها وبين مبحث الخارطة الجغرافيا. فهي في الناحية الشرقية تستهدف بشكل عام التجمعات السكنية الكبرى والتي كانت المدن الكبرى كقسنطينة والقل وعنابة في بيلك الشرق وكل من تلمسان ومعسكر ووهران في بيلك الغرب، ومدينة بسكرة وأحوازها في صحراء الزبان جنوبا، فيما تمركز العديد من الأوبئة أيضا في سهل متيجة ومدينة البليدة والمناطق المحيطة بهما.

---

[1] - Violle Henri Jules : op.cit, P17.
[2] - Dumas : les sources naturelles du vaccin, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.P172.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P.P 406,407.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P139.
[5] - Maury Eugène : op.cit., P08.

بقي الإشارة إلى نقطة هامة ترتبط بحركة انتقال الوباء أو الطاعون من منطقة إلى أخرى، فالبعد الزمني الذي كان يستغرقه انتقال الوباء من مكان إلى آخر لم يكن مضبوطا بمدة زمنية معلومة سلفا، يتأتى حينها التحرز من انتشار هذا الوباء أو ذلك الطاعون، في أحيانا نجد أن الوباء يظهر في أكثر من مجال جغرافي في نفس المدة الزمنية، بينما يتخلف ظهوره في مكان إلى آخر أيام أو أسابيع وفي بعض الحالات أشهر كاملة، وهذا الحال ينطبق على كل الأوبئة التي كانت تظهر أو تختفي في المنطقة الجغرافية الممتدة ما بين الأطلسي ونهر النيل في مصر.

ولزيادة توضيح المسارات التي سلكتها الأوبئة أثناء عملية انتقالها من حيز جغرافي إلى آخر، ولتبين ما كان للجغرافيا والجبال من أثر في رسم مسارات بعينها عين المجالات الأساسية لانتقال الأوبئة داخليا في الخارطة التالية:

2- خارطة المسارات الكبرى لانتقال الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني بناء على مصادر مختلفة.

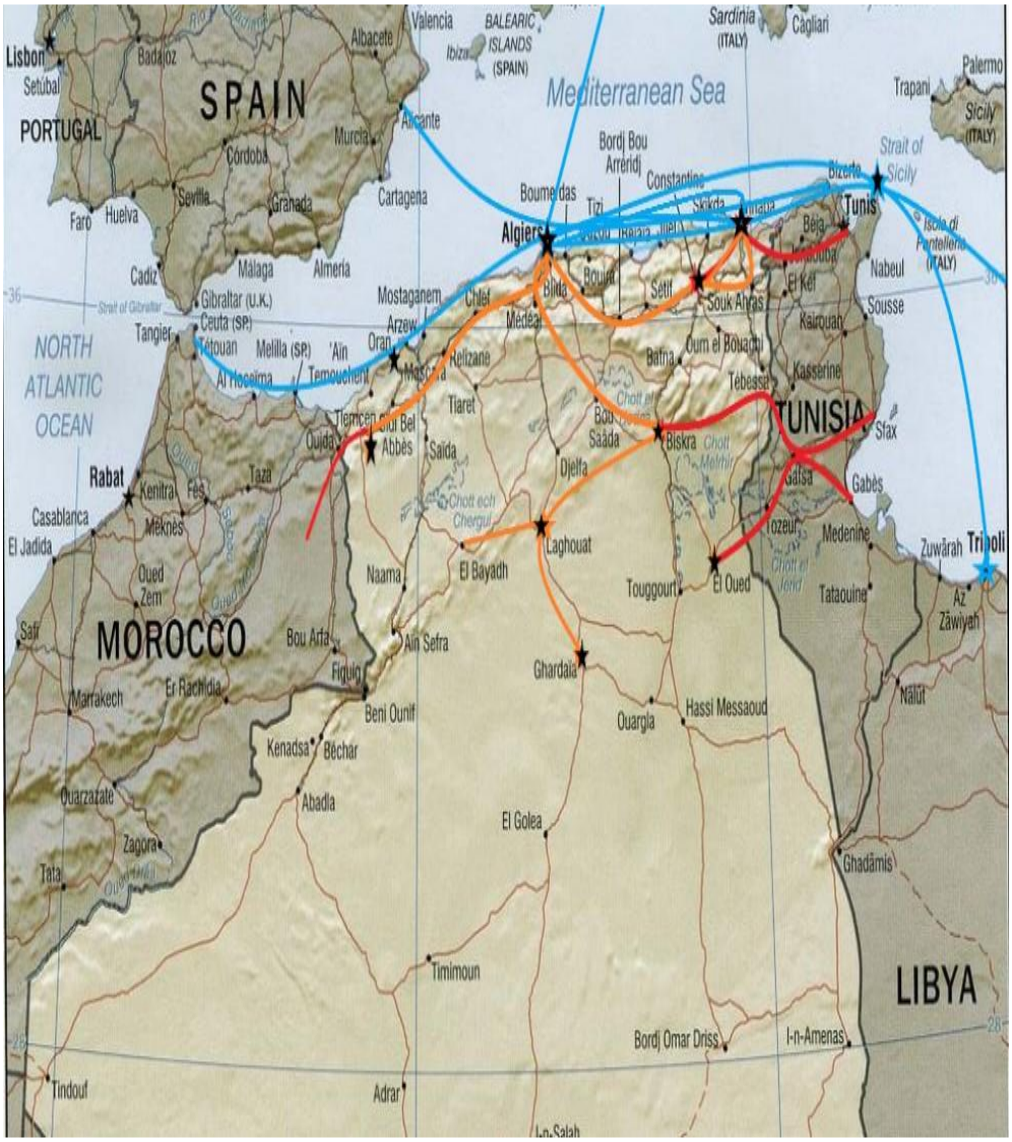

بحيث تمثل الخطوط الحمراء، المسارات الممتد من الخارج باتجاه إيالة الجزائر أو العكس، فيما تمثل الخطوط البرتقالية تلك المسارات بالداخلية بين كبرى المدن في الإيالة، وتمثل الخطوط الزرقاء المسارات البحرية الكبرى، فنلاحظ بالنسبة للخطوط الداخلية البرتقالية سلوكها مسارات محاذية للجبال، بينما تظل المدن الجبلية محصنة إلى حد كبير، ونلاحظ في نفس الوقت الضغط الكبير لمجموعة المسارات باتجاه مدن عنابة الجزائر، إذ أن جل المسارات الكبرى تلتقي لديهم، فتجمع بين التلقي البحري والتصدير البري كما

يتضح، وهو ما جعل هذه المدن محورية في حكة انتقال الأوبئة وحيوية في خارطة توزع هذه الأوبئة في نفس الوقت.

الفصل الرابع: الأوبئة والمجاعات بين السلطة السياسية والقوى المجتمعية.

أولا: الإجراءات الوقائية المتبعة في مواجهة الأوبئة والحدّ مِن الأزمات الغذائية.

ثانيا: مساهمة الدايات وأرباب المال في حلِّ الأزمات.

ثالثا: تفسيرات العلماء للمجاعات وانتشار الوباء.

الإجراءات الوقائية المتبعة في مواجهة المجاعات والأوبئة.

من المباحث الأساسية لهذه الدِّراسة ما سيأتي في هذا الفصل، لا لأهميته الآنية فقط المتعلقة بالمجاعات والأوبئة موضوع الدراسة، بل يتعدَّاها إلى كون ما سيناقش في هذا الفصل هو أحد تلك الظروف العامة التي أضحت من المؤثرات في تاريخ الأحداث (المجاعات والأوبئة) وعُدَّت التَّصرفات المختلفة داخل هذا الفصل هي البُنى الأساسية التي نظمت الذهنيات الإثنية داخل التركيبة الاجتماعية لإيالة الجزائر وشكل تصرفاتها مع المستجدات التاريخية المختلفة. وهذا مما يرسم لنا الصورة العامة للمجتمعات الكبرى لا في إيالة الجزائر وحسب وإنَّما في العالم المتوسطي ككل.

وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول فنقول: إنَّ لظهور المجاعات أو الأوبئة في منطقة ما أثراً بالغاً لا يخفى -كما سيأتي في الفصول الخاصة بتأثيرات الأوبئة والمجاعات على الجوانب الحياتية المختلفة في المجتمع الجزائر- على التركيبة الإثنية داخل المجتمع الواحد، وهذا راجع بالضَّرورة إلى نمط التصرف من طرف كل فئة مع ظاهرتي المجاعات والأوبئة، فإن كان الفئة المجتمعية قوية ومن الزُّمرة المميزة سعت إلى مجابهتها والوقوف في وجهها، بينما قد تحاول فئة مجتمعية أخرى سُلوك سُبل تحاول مِن خلالها الابتعاد عن تأثيراتها والبحث عن سُبل قد تنجيهم مِن الهلاك[1]، كما نقف على ذنموذج آخر في التصرف مع هذه المجاعات والأوبئة نجده يتمظهر في الاستسلام لواقعها وهو فهم مستنبط من أحكام أقرتها مرجعيتها الدينية بل ونجد كل ما تقوم به هو من باب انتظار أجلها لا أكثر فنجد هذه الفئة من المجتمع مبادرة إلى التَّوبة مِن الذُّنوب وتسعى إلى ردِّ المظالم إلى أهلها[2]. بحيث ترى هذه الفئة أنَّ ما أصابهم مِن آثار هذه المجاعات أو في شكلها الثاني الأوبئة ما هي في الحقيقة إلاَّ إرادة إلهية يجب احترامها[3].

وهو أمرٌ مخالفٌ لمنابع التأصيل لديها، ففهم "عمر بن الخطاب" والرّعيل الأوَّل مِن الصَّحابة رضي الله عنهم لذلك غير هذا الذي نجده عند هذه الفئة وهي السواد الأكبر من المجتمع، فنقف في الأثر على قيام "عمر بن الخطاب" بتوقيف خطَّته لدخول بلاد الشَّام لما علم أنَّ بها وباءً؛ خوفا على المسلمين، بل وعدَّ ذلك فِراراً إلى قدر الله[4]. وهو أمر طبقته فئة ضمن التركيبة الاجتماعية بالفعل، كما نفذته وأقرته بعض المجتمعات الأوروبية والسُّلطات الحاكمة كإجراءات سريعة خلال القرن السَّابع عشر وما بعده كما تم إنشاء بعض التَّدابير كتشييد الحجر الصِّحي وترتيب الدخول والخروج من المدن بتصاريح وفرض رقابة صارمة على

---

[1] - Lucette Valensi: op.cit., P21.

[2] - العربي المشرفي: المصدر السابق، ص255.

[3] - Peyssonnel, Jean-André (1694-1759). Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. P228, 1838

[4] - من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم 5729.

التنظيف وغيرها[1]، بينما ظهرت تصرفات أخرى قد تكون في بنيتها موازية لما تم ذكره وهو ما سيأتي بيانه، على أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّنا في هذا المقام نتناول شقين زمنيين، مرحلة ما قبل الأزمات الصِّحية والغذائية ومرحلة أثناء الأزمات الصحية والغذائية أي نحاول الإجابة عما يلي كيف كانت تصرفات الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد لمواجهة المجاعات والأوبئة؟ وهل كانت الذهنية السائدة فاعل مؤثر في النتائج والانعكاسات الحياتية لهذه الأزمات الصحية والغذائية؟

والحقيقة التي يجب أن ننطلق منها هي أنَّ غالب الأوبئة كان يمكن إلى حد ما الوقاية مِن شرها، أي أنَّ جميع الأمراض كان يمكن تلافيها باللُّجوء إلى تدابير صحيَّة تمنع الأوبئة مِن التَّطور والتَّفشي[2]، لذا من الطبيعي أن نجد من يحمِّل السُّلطة مسؤولية تفاقم الوضع كلّ مرَّة، والوقوع في نفس النتائج بعد كلِّ أزمة مردُّه اعتبارهم أنَّ السُّلطة الحاكمة قد ظلَّت في موضع المشاهد، وهو ما يتجلَّى فعلا في العديد من المرَّات في بقاء السُّلطة تراقب مآلات الأمور دون أي فعل احترازي قبل ذلك أو أثناءه على الأقل يساهم في الحد من نشاط هذه الأوبئة، والأمثلة على هذا عديدة فيذكر "غيون" مثلاً أنَّ أحد الأسباب المباشرة في انتشار الطَّاعون سنة (1130هـ/1718م) كان يتمثَّل في عدم أخذ السُّلطة لزمام المبادرة، إذ كان يجب عليها أن لا تسمح للسَّفينة القادمة مِن الإسكندرية والتي تحوم الظنون حول كونها تحمل الوباء بين ركابها، في حين سمح لها بالنزول في ميناء المدينة وعدم الاهتمام باتخاذ التَّدابير اللازمة كان قد سمح للسَّفينة بالرُّسو في ميناء المدينة بشكل عادي، ولم يذكر أنه قد فُرض على ركابها أي حجر صحِّي مع العلم بأنّ أحد ركَّاب السَّفينة قد سقط ضحية لإصابته بالطَّاعون[3]، مثلما يتجلى الأمر بشكل أوضح سنة (1740م) حينها اشتبه النَّاس في وجود الطَّاعون على متن السَّفينة الواردة مِن الإيالة المصرية خلال هذه السنة، وتقدّم نائب القنصل الفرنسي بعدما أعلمه قبطان السَّفينة الفرنسية الواردة بحقيقتها وأنها تحمل بين جنباتها الوباء اتصل نائب القنصل بالداي لاتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة هذا الوباء ومنعه مِن الولوج إلى داخل المدينة، لكن الدَّاي تصرَّف بنوعٍ مِن التَّكبر والتَّعالي عن الحقيقة ورد على نائب القنصل: «...بأنَّ سبب خوفه مِن هذا الوباء هو كونه مسيحي يخشى الموت، أمَّا هو (الداي) فلا يخاف الطَّاعون ولا يهاب الموت؛ وأنَّه إن حاول الدُّخول سيتصدَّى له بالمدافع كما يتصدَّى للأعداء، وإلاَّ فهو قدرٌ محتومٌ...» بل وأمر مِن ساعته بإنزال البضائع وتوزيعها على أصحابها بالسَّماح للرُّكَّاب بالنزول من على متن تلك السفينة[4]، فكان ذلك إيذانًا

[1] - Maury Eugène : op.cit., P07.
[2] - Baillière Georges Jean-Baptiste : op.cit., P14.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.
[4] - Mémoires de la congrégation de la mission, M. Faroux, P 31.

بخراب البلاد بالطَّاعون في تلك السَّنة والسَّنوات التي تلتها، وقضى هذا التَّصرف على الآلف مِن سكان مدينة الجزائر ليمتدَّ إلى خارجها لاحقا.

نفس هذا الأمر يحدُث مرَّة أخرى سنة (1206هـ/1792م) إذ عَلِم المسؤول عن الميناء في مدينة الجزائر بوجود وباء على متن أحد سُفن ريَّاس البحر الجزائريين الوافدة مِن اسطنبول[1]، لكن وكيل الخرج وآمر البحر بقيا يراقبان وترقبان فقط، في حين كان الأحرى بهما اتخاذ قرارات تقضي بعدم السَّماح لمن على متن هذه السَّفينة بالنزول إلى البرَّ حتى يُتأكَّد مِن سلامتهم أو يخضعون للحجر الصِّحي، وهذا ما لم يحدث طبعا، وهو ما يكون قد أدى لا حقا إلى انتشار الوباء سنة (1207هـ/1793م) في مدينة الجزائر كما مرَّ بنا في حينه.

نفس الأمر نقف عليه مرَّة أخرى إذ أُذِن لسفينة أخرى بالرُّسوِ في ميناء مدينة الجزائر في (29 جويلية/17 رمضان) من سنة (1238هـ/1817م) وقد كانت محمَّلة بمائتي شخص مِن بينهم ابن الداي ما جعل توقيفها في الحجر الصحي أمر غير مطروح للنِّقاش بتاتا، والغريب في الأمر أنَّ الجميع في إدارة ميناء المدينة كان على علم بأنّ أربعين شخصا على الأقل قد لقو حتفهم نتيجة الوباء، وبقيَ حوالي خمسة وعشرون شخصا مصابون بنفس الوباء ينتظرون أَجلهم لكن كلَّ هذه المعلومات لم تحمل السُّلطة على القيام بما يحميها مِن انتشار الوباء مرَّة أُخرى[2].

يضاف إلى هذا أيضا أنَّ السُّلطة كثيرا ما كانت ترغب في أن يظل أمر الوباء وانتشاره في الجزائر سرا، وبعيداً عن مسامع الدُّول الأوروبية، وهذا خوفا مِن اتِّخاذ هذه الدول لإجراءات تمنع التَّبادل التجاري مع الجزائر خوفا من انتقال الوباء إليها، لذا نجد أنَّ بعض الوثائق الأرشيفية تنبِّه إلى هذه الخطوة وتتحدَّث عن محاولات الداي التَّكتم على الخسائر وشدَّة الوباء في الجزائر، مثلما جرى سنة (1753م) إذ ورد في إحدى المراسلات أنَّ الداي يحاول أن يتكتَّم عن الخسائر الكبيرة في الجزائر حتى لا تتوقف نتيجة ذلك المبادلات التجارية[3].

ولو جعل الأمر كذلك لوجب علينا أن نرجح مذهب القائل بأنَّ السلطة العثمانية في الجزائر كانت لا تتفاعل إلاَّ مع ما له علاقة مباشرة ببقائها مِن عدمه وهذا خلاف ماكانت تعتمده الدولة العثمانية في مركز الدولة على الأقل، إذ كانت تحرص بعض الدوائر الصحية الرسمية بإجبار أصحاب الفنادق على إغلاق الغرف أو المواطن التي يثبت فيها أنه قد سقط بها ضحايا جراء الوباء كما هو الحال سنة

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P354.
[2] Ibid. P375.
[3]- C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/128. Cotes: F° 123-129. 23 /Avr/1753.

(1812م) عندما أغلقت كل غرف الفنادق التي ثبت فيه الوباء وأخليت تماما[1]، ولو أنَّها كانت كذلك فعلا في جميع الحالات لوجب وسمها بالتقصير وسوء التدبير، كلا إن توهم هذا ممّا يؤدي بنا إلى إصدار أحكاما في غير موضعها، لذا وجب علينا أن نتأنى ونطرح الأسئلة التالية: ألم تقم السُّلطة العثمانية وممثليها بأي شيء يمكن أن يعد مِن حسناتها في هذا الباب؟ ألم يوجد فعلا مَن كان لها بعض الجهد في هذا الشَّأن وحاول أن يجنِّب المناطق الخاضعة له سوء المصير المحدق بها؟ هل توجد مصادر تحدَّثت فعلا عن احترازات قامت بها السُّلطة العثمانية خلال تلك الفترة لتجنيب الإيالة مآلات الفشل والاندثار؟

إذا أتينا على ذكر الجمل مما يتصل بمحاسن الأعمال التي اتخذتها السُّلطة العثمانية في الجزائر لأجل التَّحرُّز مِن الأزمات الغذائية ومواجهة الأزمات الصِّحية، قلنا أنَّها في العديد مِن المرات وبأشكال مختلفة لإيجاد بعض الحلول وهو ما سنتحدَّث عنه في هذا المبحث بالتَّفصيل، لكن قبل الشروع في الحديث عن الإجراءات التي قامت بها مختلف فئات المجتمع لمواجهة الأزمات علينا أن نتكلم عن الاحتياطات التي كان من المفروض وجودها من أجل مواجهة خطريْ المجاعة أو الوباء خلال العهد العثماني (1700-1830) فهل فعلا قامت السلطات الحاكمة وساكنة الإيالة بما من شأنه أن يقيه شر القحط؟ هل وجد فعلا من التجهيزات والمخازن ما كان له دور في تخفيف وطأة المجاعات؟ هل تصرف الدايات بذكاء عند هبوب رياح الجوع؟ ما الأساليب التي اعتمدوها للتخفيف من آثار غياب المؤونة؟ وبالنسبة لظاهرة الوباء الذي تفشى في الجزائر خلال هذه الفترة أكثر من مرة هل قامت السلطة الحاكمة عموما بما يضمن سلامتها وسلامة رعيتها من هذه الجوائح ؟ هل ظهرت هذه الأمور في تنظيمات رسمية وتشريعات التزمها الجميع ؟ هل حققت هذه الإجراءات -إن وجدت فعلا- ما كانت تصبو إليه؟ هل كانت مختلف جهات الإيالة على القدر نفسه من الاستعداد لخطر الوباء؟ هذا ما سنحاول التحدث عنه فيما يلي:

لعله من الصعب تحري وجود خزانات أو مستودعات كان الهدف من إيجادها حقيقة تخزين المؤن في مواسم الرخاء إلى مواسم العسرة، وإنَّ ورد في بعض المصادر والدراسات اتخاذ الناس للمطامير من أجل تخزين الفائض من القمح إلى المواسم القادمة خاصة لموسم الشتاء أين تصعب الحركة ويصبح من العسير توفير القمح أو الشعير، ولا نكاد نقف على هذه الثقافة إلا في المطامير القديمة التي كان يخزن فيها أهالي الجبال وسكان الهضاب مخزوناتهم من القمح الشعير[2]، لكن هذه المخزونات ظلت على مستوى العائلي الخاص، ولم تضح ثقافة خاصة بالدولة كما جرى في البندقية مثلا الذي أحدثت مؤسسة شأنها تدبير إدارة الفائض من القمح في المملكة كما يقول "بروديل"، أما بالنسبة للإيالة فنجد في أوقات الفائض تصدَّر

---

[1] - B.O.A : C.SH. Do : N°06. Gömlek N°290. Tarih 1227.Za.29. Belg 01.

[2] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص

الحصاد المحلي دون الأخذ بالحسبان مسارات السنوات القادمة. فنجد ضمن المراسلات البينية لحكام الإيالة مع السلطات المختلفة ما يدل على حركية التصدير القوية التي شهدها القرن الثامن عشر للقمح لكن هذا لا يعني أنَّ الأمر القرن كامل كان بهذا الزخم وهذا الاكتفاء بل نقف على مراحل مِن القحط والفتور كنا قد تحدثنا عنها بالتفصيل فيما سبق ومن صورها. ما وُجِد مِن مراسلات أما ما نقف عليه فعلا في بعض المراسلات بين ديات الجزائر ونظرائهم في فرنسا ما ورد في ثنايا إحدى المراسلات الموجودة في أرشيف الغرفة التجارية الفرنسية من مفاوضات حول إحدى السفن الجزائرية التي وقعت في أسر القراصنة الفرنسيين والتي كانت في مهمة شراء القمح من السواحل المغربية[1]، وقد ورد في رسالة أخرى في نفس الشأن من الداي حسين خليفة مصطفى داي إلى الكونت بونتشارتين مؤرخ بـ(سبتمبر/1706م) مفادها أنّ السفينة المغتصبة من طرف القراصنة الفرنسين والتي هي محل المفاوضات كانت تحمل من المال (750) قرشا لشراء القمح موجهة إلى الجزائر[2]، وحسب ما ورد في الرِّسالتين فإنَّه في تلك الفترة كانت الجزائر تعرف غلاءً في الأسعار؛ أي أنَّ أحد الأساليب التي اعتمدها الدايات لكسر الأسعار الناجمة غالبا عن ندرة التساقط، هو ما قام به أيضا محمد باشا داي الجزائر سنة (1135هـ/1723م) بحيث قام بإرسال رسالة إلى كل من لويس الخامس عشر ومسؤول مدينة تولوز يحثهما على قبول وتسهيل طلبه بشراء (10.000) كيل مِن القمح[3]، وهو ما قد يكون نتيجة نُقص في المؤنة لا أكثر، إذ أنّه وبعد سنتين مِن الرِّسالة السَّالف ذكرها نقف على رسالة أخرى مؤرخة بـ(جويلية 1725م/11 ذي الحجة 1137هـ) مُرسلة مِن طرف حاكم الجزائر الجديد "عبدي باشا" داي الجزائر يخبر فيها حاكم فرنسا "لويس الخامس عشر" بأنّه قام بإرسال مبعوث جديد لاشتراء بعض الأمور التي كان يراها ضرورية كالبارود والفتائل والصواري[4] ولم يذكر حاجة الإيالة إلى القمح بما يجعل من إمكانية حدوث مجاعة أو قحط خلال الفترة الزمنية (1723-1725م) محدودة جدا. وبالتَّالي فلا يسعنا التّأكد من حدوث مجاعة فعلية سنة (1135هـ/1723م) أو إذا ما كانت لها آثاراً كبيرة، ويمكن أن يكون تصرُّف "محمَّد باشا" سنة (1135هـ/1723م) نوعاً مِن الاحتياطات أو رغبة في الحفاظ على أسعار المواد الأساسية معقولة ما يوحي بأن السلطات الحاكمة سعت ولو بشكل قاصر إلى توفير احتياجات السوق من القمح خلال واحدة من فترات التراجع الإنتاج نتيجة الجفاف، وهو ما نقف عليه أيضا في مساعي بعض البايات ممَّن أخذ على عاتقه -بصفة شخصية- حماية مناطق نفوذه مِن شر المجاعات، فنجد على سبيل المثال بعض الإشارات الدالة على قيام الباي "محمَّد

1 - C. D. A. C. F : le 13 janvier 1706.
2 - C. D. A. C. F : septembre 1706.
3 - C. D. A. C. F : le 25 février 1723.
4 - C. D. A. C. F : le 21 juillet 1725.

الأكحل" بإنشاء مخازن للقمح وفتح هذه المطامير للنَّاس في أيام القحط أو عرض مخزونها في السُّوق مِن أجل ضبط سعرها، وفي هذا الأمر يورد صاحب مخطوط النبذة في سيرة محمد باي الكبير قوله:«...غير أنه في ابتداء ولايته وقع قحط شديد بإقليم الجزائر خصوصا بعمالته؛ هذا ولما كان ادّخر حبوبا كثيرة أخرجها للأسواق عندما غلت الأسعار...»[1] وهو ما يفهم منه أنَّ "محمّد باي الكبير" كان من خلال سلطته كباي على الغرب الجزائري يدَّخر في بعض الحالات التي تعرف فيها الإيالة نوعا مِن الفائض الإنتاجي الكثير من الحبوب لمثل هكذا أزمات، وهو عمل مِن شأنه أن يقلِّل فعلا مِن وطأة الأزمة الغذائية التي كان يمر بها البيلك وإن كان لا يقضي عليها بشكل تام.

وإذ قد ظهر لنا جوانب من مساعي السلطة العثمانية عمله للتقليل من وطأة الأزمات الغذائية فمنن الواجب الآن أن نعود للحديث عن نفس هذه المساعي في شقه المتعلق بالأزمات الصحية، فنجد أنَّ العديد مِن الأبحاث ترى أنَّه مِن العبث الاستمرار في مهاجمة تأثيرات الأوبئة بدل التصدي لأسبابها الحقيقية، لذا اعتبرت أنَّ العلاج الحقيقي إنّما يكمُن في القُدرة على الالتزام بالقواعد العامة قُبيل الوباء والقواعد الخاصة أثناءه[2]، وهي القواعد الوحيدة القادرة على منع عودة الأوبئة مرّة أُخرى؛ فإن جُعِل الأمر كذلك فعلا كان من الأجدر على السُّلطة الحاكمة في الجزائر خلال العهد العثماني أن تُولي إجراءات الاحتراز مِن الوباء قدر أكبر من الأهمية، وهو الأمر الذي لم نقف عليه تقريبا بشكل مُؤسَّس خلال المرحلة محل الدراسة (1700-1830م) مثلما هو الحال في بعض الحالات التي نلتمَّس فيها فعليا عدم حرص السُّلطة العثمانية على الأخذ بتدابير الوقاية مِن الأوبئة وإلزام النَّاس بها وهو ما نتبينه من تتبع المصادر المختلفة التي خُلِّفت في هذا الشأن أو خلال تلك المدة الزمنية، والتي يأتي على رأسها كلام "حمدان بن عثمان خوجة" الذي أبدى تَّحسُّره على عدم اهتمام السُّلطة الحاكمة بتطبيق أنظمة الوقاية والنظافة والحجر الصِّحي أو ما يُعرف الكرنتينة" التي كان مِن شأنها تخفيف وطأة هجمات الوبائية، وهو ما نقف عليه في العديد مِن المواطن في مُصنَّفه "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز مِن الوباء" غير أنّ هذا قد يُعدُّ نوعاً مِن التَّحامل المبرر، إذ نجد أنّ السُّلطة الحاكمة في بعض الأحيان قد حاولت ولو بارتباك أن تَحدَّ مِن النشاط الوبائي كما يُذكر ذلك في عدد من المصادر[3].

وهو ما حاول بعض الباحثين رسم صورته، من خلال ذكر ما كانت تبادر بها السُّلطة الحاكمة في الجزائر وتنتهجه لأجل الحد مِن تأثيرات الأوبئة والمجاعات، فنجد كلّ سلطة محلية ضمن البيلك تسعى إلى

---

[1]- نبذة في سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، مخطوط رقم (5022) [و/2].

[2] - Dubar Léon : op.cit., P17.

[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.

تحصين نفسها مِن تبعات الأوبئة أو المجاعات التي تلوح في الأفق ولهذا نجد بعض البايات أو الدايات يقومون بمحاولات استباقية تضمن انحصار تأثير الوباء أو المجاعة زمانيا ومكانيا، لكن نعود للتأكيد على أن هذه الإجراءات لم تكن -مع الأسف- نظامية ومُلزمة مِن طرف السُّلطة الحاكمة؛ وهذا أمر لا يستغرب إذا علمنا أنَّ اعتماد إجراءات الاحتراز بالنِّسبة للدَّولة العثمانية تأخَّر إلى غاية ثلاثينات القرن التَّاسع عشر[1].

لكننا نقف على بعض المساعي التي حاول تطبيقها عدد من دايات وبايات الجزائر، كما هو الحال بالنسبة لداي الجزائر "محمَّد بن عثمان خوجة" خلال سنة (1781م) إذ رفض -حسب أحد الوثائق الأرشيفية- السَّماح لأحد السُّفن الفرنسية القادمة مِن مرسيليا والمحمَّلة بالبضائع المختلفة الرُّسو في ميناء مدينة الجزائر؛ لاشتباه إصابة طاقمها بالطَّاعون[2]، لكن هذا لم يكن ناجعا إذ قام مجموعة من الأشخاص بمساعدة هذه السفينة على النزول في ميناء مدينة عنابة وتسرب أيضا هذا الوباء حينها عن طريق البر الشرقي للإيالة[3].

الأمر عينه نجد "صالح باي" حاكم قسنطينة يقوم به في الربع الأخير مِن القرن الثامن عشر، بحيث يفرض طوقاً على المناطق المحاذية لتونس وهذا لمنع دخول الوباء الذي كان منتشرا بها[4]، ويصدر أوامره للقبائل القريبة مِن تلك المضارب بأن تلتزم الامتناع عن التَّعامل مع القبائل التونسية إلى أن يظهر خلو تلك القبائل مِن الطَّاعون وهو بذلك يحاول لا محالة السَّيطرة على حركة التنقل الدَّائم المساعد على تفشي الأوبئة[5]، واستمر هذا الحضر في السنة التي تليها أيضا[6] متأسيا في هذا الأمر بالاحتياطات التي كان يأخذها الأوروبيين حسب مارشيكا[7]، وذلك لعلمه بأنّ الاحتكاك مع هذه القبائل بأي طريقة سيفتح الباب على مصرعيه لدخول الوباء، وقد وُفِق في تلك المرحلة بحيث نقف في رسالة من وكيل الشركة الإفريقية في القالة إلى القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر مؤرخة بـ (31 ديسمبر 1785م) يشرح فيها قيام حاكم قسنطينة حينها " صالح باي "بإرسال أوامره إلى حاكم مدينة القالة يحثه فيها على العمل على تحييد الوباء الذي كان يضرب تونس، بل ونستجلي في الرسالة نفسها بأنه يحرص على أن يتعاون حاكم مدينة القالة مع وكيل الشركة الإفريقية السيد باري من أجل صد تقدُّم الوباء، وهو بالفعل ما يحدث وتكون نتائجه طيبة خاصة خلال الفترة الأولى من ظهور الوباء؛ إذ أنّه خلال الفترة الأولى التي كان فيها الوباء يحصد ما بين (400-

[1] - Tholozan Joseph-Désiré : op.cit., P03.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/139. Cotes: F° 130-133. Mai/1787.
[3] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P222.
[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, 212.
[5] - Ernest Mercier : op.cit., P 258.
[6] - Mostefa Khiati: op.cit., P74.
[7] - Jean Marchika :op.cit., P.110

200ضحية/يوميا) في مناطق أخرى كان بيلك قسنطينة ومدينة القالة تحديدا تتمتع بحياة صحية جيِّدة. ومن جهة ثانية يتخذ هو على مستواه الشخصي ما من شأنه الحفاظ على حياته من خطر الوباء فيرفض استقبال النَّاس ويكتفي معهم بالمراسلات وهو ما يُفهم مما أورده "صالح باي" في إحدى الرسائل المؤرَّخة بـ (28 مارس 1785م) إلى وكيل الشركة الإفريقية في "بونة" والتي أكَّد له فيها أنَّه سيعمل على حل إحدى الإشكاليات بمراسلة المختصين بالأمر وهو يعتذر عن ملاقاتهم في هذه الأثناء بسبب الوباء[1]، بل ونجد حسب أحد الوثائق الأرشيفية في المكتبة الوطنية الجزائرية أنَّ "صالح باي" كثيراً ما كان يُبادر في طلب الحكيم الذي يشتغل في الشركة الإفريقية بالقالة عند أي خطب، وكان يطلبه بسرعة وبدون أناة إذ تورد أحد هذه الوثائق المرسلة منه إلى وكيل الشركة الإفريقية يطالبه فيها أن يُرسل فور تلقِّيه هذه الرِّسالة بطبيب الشَّركة إلى قسنطينة إذ أنَّ أحد رجال صالح باي وذكره بقوله :"ابننا الحاج مسعود بن زكري" يحتاج إلى رعاية سريعة، بل وأكد على أن يأتي الطبيب مجهزا بجميع الأدوية التي يحتاجها[2]، وهو ما يُوحي بحرص الحاكم "صالح باي" على الحالة الصِّحية لمحيطه القريب على الأقل، وهو ما يعني بأنَّ الرَّجل كان يهتم بهذا الأمر فعلا حتَّى ولو لم يكن على المطلق وبصفة دائمة إلاَّ أنَّه لم يهمله، لذا لا يُستبعد فعلا أن تكون الاحتياطات المتَّخذة في هذا الشَّأن أحد الأمور التي ميزت مدّة حكمه غير أنَّ هذا الأمر لم يستمر طويلا، إذ في بداية ربيع (1785م) بدأ الوضع في التّغير في اتجاه الأسوء، وهذا بدون أدنى شك نظير لعدم التزام بعض القبائل الجزائرية أو التونسية بأمر تفادي الاحتكاكات والتبادلات التجارية[3].

ثمَّ إننا نقف على ما يذكره أحد الأباء في هذا الشَّأن إذ يرسم لنا صورة مِن الاحتياطات التَّي اتُّخذت خلال تلك المرحلة وهذا بحديثه عن محاولة الابتعاد عن مَن يشك في إصابته بالعدوى الطَّاعونية، وذكره لمناسك العبادة التي يتَّخذها العامة مِن صلاة والدعاء لأجل أن يمنع الله دخول الوباء إلى القرى والمداشر وغيرها، إلاَّ أنَّ هذه التَّدابير لم تأت أكلها؛ إذا نجد أنَّ الوباء بدأ يتسرَّب تدريجيا إلى الشَّمال الشَّرقي بالقالة ومنها انطلق إلى أماكن أخرى وإن كان ذلك بشكل طفيف مقارنة بما كان يفعله في الإيالة التونسية[4]. ونجد داي الجزائر سنة (1786م) يقوم بدوره يرفض استقبال سفينة قادمة مِن تونس على متنها عائلات تونسية اشتبه في إصابتهم بالوباء[5]، لكن حتَّى هذا الإجراء لم ينجح في كبح جموح التَّفشي الوبائي

[1] - Lettre de M. Bey de Constantine dans : H.V.P.C , P416.

[2] - و.م. و. ج. مج. 1641، و، 75.

[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 212.

[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P333.

[5] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P226.

في الجزائر خلال تلك السَّنة إذ نجحت حامية النوبة في تسريب الوباء إلى الجزائر عن طريق عنابة كما مرّ بنا في موضعه[1].

مثلما نجد أنَّ باي الغرب الجزائري "محمَّد باي الكبير" -فيما يذكر مارشيكا أن من قام بذلك هو عصمان بن محمد باي الكبير- وهذا سنة (1208هـ/1794م) بالخروج وأهله وجميع حاشيته مِن المدينة إلى سهل مليلة بحيث تحصَّن هنالك مدَّة مِن الزمن، قدّرتها بعض الدراسات بثلاثة أشهر[2]، ولم يعد إلى المدينة إلاّ بعد أن اطمئن أنّها خالية من الوباء، كما قام باي بيلك الغرب الوهراني برفض استقبال سفينة عثمانية كبيرة كانت قد أتت من الإسكندرية وعلى متنها عدد كبير من الحجاج، وذلك بسبب وجود عدد من المصابين بالمرض على متن هذه السفينة[3].

وعلى صعيد آخر نجد "الداي عمر" مثلا يقوم بإرسال أطباءه الشخصيين سنة (1817م) إلى ميناء مدينة الجزائر بعدما بلغه سقوط ثلاثة بسكريين ضحايا لمرض غريب لتشخيص هذا المرض، وقد تنبّه الأطباء إلى أنَّ الجثث تشترك في نفس الخصائص مِن حيث التفحُّم والتقيُّحات والانتفاخ[4].

وهذا لا يعني بأي حال أنَّ قدرة السُّلطة على التَّدخل لإخماد الوباء كانت ناجعة ومؤثرة بنسبة فعلية، وإنَّما قد تكون ناجعة وقد يكون لانتشار الوباء مِن القوَّة ما تسمح له بالوصول إلى أعلى هرم السُّلطة الحاكمة كما حدث سنة (1233هـ/1817م) في دولة "علي باشا" الذي قضى نحبه بالوباء كما يرد في إحدى وثائق الأرشيف العثماني[5].

إلاَّ أنّ ما يلاحظ على الإجراءات التي اتبعتها السُّلطة العثمانية في الجزائر -أو في مناطق أخرى في أرجاء الدولة العثمانية -أنَّها تميزت بالفتور والارتجال، إذ نجد أنّ السلطة العثمانية في الجزائر خلال الفترة الممتدة (1700-1830) قد قامت بعدد مِن الإجراءات من أجل تحصين نفسها أولا من هذه الأزمات وذلك على نطاق ضيق يتسم غالبا بعدم وجود نظام معين، فنقف مثلا على مجموعة من بعض الدايات أو البايات تختار الابتعاد عن طريق الوباء، وذلك سواء بالإغلاق على أنفسهم وفق محيط ضيق من الحشم والخدم الذين يُؤمن خلوهم من المرض، أو من خلال انتقال كبار من في السلطة ومن معهم من الحشم والخدم إلى خارج المدينة، وهو ما نقف عليه في أمثلة عدّة فنجد مثلا أبناء الباي حسن بن علي أثناء الوباء

---

[1] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P226.
[2] - Walsin Esterhazy : op.cit., P196.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P394.
[4] - Ibid. P372.
[5] - انظر الملاحق: الملحق رقم ثلاثة.

- B.O.A : BH. Dosya N°150. Gömlek N°7181. Tarih 1233.C.29. Belg 01.

الذي أصاب الجزائر في (1741م) يفضلون الابتعاد إلى الأماكن الخاصة البعيدة عن سطوة الوباء[1]، -كما يمكن أن يكون خروجهم خوفا من داي الجزائر الذي كان قد أرسل في طلبهم حسب رسالة قنصل فرنسا في الجزائر[2]- غير أنّ هذه الإجراءات لم تكن موحّدة في كلِّ الأماكن، بل كانت تخضع أساسا لمدى اهتمام الداي أو الباي خلال فترة زمنية بأخذ هذه الاحترازات.

لذا نجد أنّ "حمدان بن عثمان خوجة" بُعيد خروجه مِن الجزائر وبعد معاينته لأشكال الاحتراز مِن الوباء في مختلف الأقطار الذي تطبقه، أرسل خِطابا في شكل كتاب إلى حكام الدَّولة العثمانية في الباب العالي يحثهم فيه على ضرورة الأخذ بالإجراءات الوقائية التي مِن شأنها أن تخفِّف وطأة هذا المرض الذي أصبح مزمنا في عدد من أجزاء الدولة العثمانية، خاصة الإيالات القريبة منها، أو تلك التي تربطها بها علاقات وطيدة، فاقترح تطبيق نظام الحجر الصِّحي في الموانئ العثمانية، كما شددّ على ضرورة تعين طبيبٍ حاذقٍ له القدرة على التَّفريق بين أمراض الأوبئة وغيرها، واعتبر وجود هذا الطبيب واجبا شرعيا لا مناص منه لحفظ نفوس المؤمنين[3]، ولعلَّ هذا ما كان سببا في بداية تطبيق الإجراءات الاحترازية في الدولة العثمانية ضد الأوبئة سنة(1839م)[4] وهو ما يثبته ابن حمدان خوجة "علي رضا أفندي" في كتابه (مرآة الجزائر)[5].

احتياطات الأعيان والعامة من المسلمين مِن خطري المجاعة والوباء:

ترى بعض الدراسات-على قلتها- أنّ سكان وأعيان الجزائر كثيرا ما كانوا يحاولون أن يدرؤوا عن أنفسهم عواقب الأوبئة والمجاعات وما تجترحه عليهم من مآسي، فنجد الأطباء يصفون للمرضى ومَن تعتريهم بعض الأعراض بعض الوصفات الطبية التي مِن شأنها أن تمنع استفحال الأمراض الوبائية المعدية، فنجدهم مثلا يصفون نبات القشاع والزنجبيل والقرفة لمن تظهر عليهم أعراض مرض الزهري[6]، كما نجد هؤلاء الأطباء يحثون مَن ابتُلي بداء الجرب بأن يفرك جسمه بخليط مِن الكبريت والبازلاء كلَّ ليلة حتَّى لا يعطي أي فرصة لظهور البذور أو غيرها على جسمه[7].

إضافة لهذا نجد أنَّ الأعيان وأصحاب الجاه في مدينة الجزائر وغيرها يحاولون بكلِّ الطُّرق اتقاء شر الوباء، والأمثلة على هذا عديدة، فمن ذلك ما توروده مذكرات البعثات الكنسية إلى مدينة الجزائر مِن أنَّ الخوف مِن الطَّاعون كان يحمل النَّاس وخاصة منهم التّجار على التزام بيوتهم وذلك بالإغلاق على أنفسهم

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P.88

[2] - Charles Féraud Lauren ; op.cit., P 396.

[3] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص 47.

[4] - Tholozan Joseph-Désiré : op .cit., P03.

[5] – علي رضا باشا: مرآة الجزائر، ترجمة علي شوقي، مطبعة دار سعادته، اسطنبول، 1876م، ص109.

[6] - Mostefa Khiati: op.cit., P91.

[7] - Ibid. P92.

واعتزال النّاس إلّا بقدر محدود[1]، ويذكر في هذا الشأن الأب (*Poiret*) أنّ سكان القبائل التي مرّ بها وأتى على ذكرها أن سكانها كانوا يحتمون بخيامهم ولا يخرجون منها إلاَّ لضرورة ما[2]، في محاولة يائسة لاجتناب الوباء.

ويضيف إلى ذلك "حمدان بن عثمان خوجة" أنّه كان إذا ألمَّ بمدينة الجزائر الوباء لزم بيته وقلَّل مِن حركته واحتكاكه بالنَّاس، ولم يخرج إلاَّ للضرورة القصوى والتي مثَّلها في صلاة الجمعة أو في تشييع جنازة، كما صرَّح بالتزامه الابتعاد عن الأماكن التي يجتمع بها النَّاس وعدم لمسه الأشياء التي تعلَّق بها الأمراض من ألبسة أو غيرها، وكما أنَّه كان كلما عاد إلى منزله تبخَّر[3]، حتَّى يُطهِّر نفسه مِن كلِّ ما قد يؤذيه، فكان مِن نتاج هذا الاحتراز والوقاية أنْ سَلِم هو وأهله مِن الإصابة بالوباء. وهو عكس ما جرت عليه العادة عند العامة من الناس، إذ لم يكن يطير خبر وفاة أحد النَّاس بالطَّاعون أو بغيره إلاَّ واجتمع عليه عددٌ كبيرٌ مِن النَّاس لتشيعه، وهو ما يضاعف إمكانية الإصابة بالعدوى وانتقالها مِن شخص إلى آخر[4].

كما نقف على إشارة هامة في خضم حديث الأب (Poiret) عن رحلته مِن مدينة القالة إلى تونس سنة (1785م) حيث تحدّث ضمن حيثيات حركته في البلاد أنّه لما كان ومن مَعه مَن الحضر لما بلغهم أنَّ القرى التي بينهم وبين هدفهم محفوفة بالطَّاعون أصبحوا يُصرُّون على أن تبقى مسافة معتبرة بينهم وبين مَن يلتقونه مِن العرب أو القبائل حتَّى لا ينتقل الأوبئة إليهم بشكل مِن الأشكال[5]، وهذا إنَّما يُعبِّر عن الإجراءات الأولية التي كان يأخذها الحضر والعرب أثناء تنقلاتهم بين أماكن يشتبه في وجود الطَّواعين بها.

لا يعني أنّ كلّ النّاس كان تبقى متفرجة على الوباء ولا تحرك ساكنا إلاَّ بعد وقوعه الأزمات، إذ يذكر الأب "بواير" ما يفيد قيام أحد السُّكان باستفساره عن الطُّرق الأمثل لتجُنب الوباء، فلمَّا شرح لهذا الفرد البسيط ذلك، نجده يسعى إلى القيام بكل ما مِن شأنه تجنيبه وأهله خطر الإصابة بالوباء، فيضع عدداً مِن الاحتياطات لمحاولة النّأي بنفسه وأهله عن خطر الإصابة بالوباء، إلاَّ أنَّ الأب "بواري" يشرح لنا أن ما قام به هذا الفرد لا يعدو إلاَّ أن يكون اجتهادٌ فرديٌّ لن يكون كافيا في الغالب ليؤتي أكله ويحفظ أهله[6]، غير أنّ ما يهمنا في هذا الكلام هو أنّه وُجد فعلا مِن بين الأهالي مَن كان يسعى لاتخاذ الإجراءات اللازمة مِن أجل حفظ نفسه و أهله مِن تبعات التي قد تنجم عن الوباء وهو ما يعني ضمنيا أنَّ الموقف مِن

---

[1] - Arnoult Bossu : op.cit, M.C.M, T3, P227.
[2] - Jean-Louis-Marie Poiret: op.cit., P29.
[3] - حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص 32.
[4] - Jean Alasia ; Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne. Dans) mémoires de la congrégation de la mission) P450.
[5] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°5,op.cit., P26.
[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 196.

الوباء والتَّعامل معه ضمن الفئة الواحدة كان يختلف، وبالتالي فلا يمكن أن نصدر حُكما مُطلقا يدخل في ضمنه جميع أفراد الفئة الواحدة، وإن كان الغالب هو ما سنشير إليه.

من جهة أخرى تنقل لنا بعض التَّقارير التي كانت تقوم بها السُّلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر صور عن محاولات المجتمع التَّعامل مع الإصابات الوبائية مِن خلال القيام بالإكثار مِن الاغتسال والوضوء للقضاء على العرق السَّائل مِن جسم المريض بغزارة، كما أنَّها نقلت تعاطي المريض أكواب من القهوة المرَكَّزة التي يضاف لها أعواد مِن شجر الكينا بالإضافة إلى إضافة الكثير مِن الليمون يضاف لهذا الشراب[1]، وهو حسب ما تورد هذه التَّقارير مِن مكونات في هذا الشراب فإنَّهم يريدون تزويد الجسم بالطاقة وتمكينه من الحيوية وهي الأمور التي يفقدها المصاب بالطاعون غالبا، وهذا ما كان سيسمح ببعض الطاقة والحيوية لتتسرب إلى جسم المريض، ولو بشكل محصور زمنيا.

كما كان يسعى السُّكان للتَّداوي مِن الإصابات التي تلحق الصّغار بالكوي، أي يقومون بفتح أماكن الخرجات التي تكون مليئة بالدَّم المتخثِّر ويقومون بعد ذلك بكويها بالنَّار وبعد ذلك يقومون بتضميدها في محاولة لتخليص المصاب من الألم الذي يعتريه، وقد أثبتت هذه المحاولات نجاعتها في الكثير من المرات[2].

كما تثار إشكالية أخرى هي المدة التي يلتزم بها بكذا احترازات إذ نرى أنها غالبا ما كانت آنية ، أي في نفس المرحلة التي يظهر فيها الوباء وليس قبله وغالبا ما كان اعتمادها على مضض بداية من القرن التاسع عشر، وعلى نطاق ضيق، إذ كثيرا ما اعتبر النأي بالنفس عن مسببات انتقال الطاعون إلى الفرد الآخر شكل من أشكال رفض القضاء الإلاهي، لذا نجدهم لا يتورعون عن الاتصال بالمرضى بالطاعون[3]، وأن محاولات الأوروبيين حثهم على التعامل مع الأوبئة بحذر كانت في الغالب تبوء بالفشل الذريع كما سيأتي حين الحديث عن احترازات النصارى واليهود من الأوبئة والمجاعات.

احتياط النصارى واليهود المقيمين في الجزائر من الوباء

يعد أهل الذمة أحد أهم الأطياف العامة للمجتمع في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وقد تباينت أعداد ركني هذه الفئة بين قسمين أساسيين: اليهود والنَّصارى، اختلفت أعداد المقيمين في الجزائر خلال المجال الزمني حيز الدّراسة (1700-1830م) بحيث نجد أن أعدادهم ترتفع وتنخفض متأثرة بالسياق العام للإيالة، لكن عددهم لم يكن ظل محدودا إذا ما قارنهم بالسُّكان الأصليين، وهذا الأمر لم

---

1 - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P142.
2 - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P142.
3 - Jean Marchika :op.cit., P181.

يمنعهم من الحفاظ على شخصيتهم المميزة ضمن التركيبة الاجتماعية بل شكلت بأفراد هذه الفئة كتلة ظلت إلى حد ما مُتقوقعة ومحافظة على خصائصها العامة، داخل هذه الكتلة نقف على فسيفساء اجتماعية المئات مِن المهاجرين والأسرى والعشرات مِن القناصل والمساعدين والخدم[1].

وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الغرض فيما هو غرضنا من القول فنقول أنَّ الفئة النَّصرانية المقيمة في الجزائر -خاصة منهم القناصل والتجار والرهبان-قد أخذت عددا مِن الأسباب التي تُعينهم على عدم الإصابة بالوباء، وهذا ما نجده ماثلا ومَشهورا عند مِن كان موجودا في الجزائر مِن النَّصارى خاصة منهم الرهبان والأباء الذين كانوا يشتغلون في المستشفى الأوروبي، إذ نجدهم يلمحون إلى الاحتياطات التي كانوا يتخذونها إزاء تلك الأزمات[2]، لأجل ذلك كانوا لا يخرجون أيام انتشار الأوبئة مخافة أن يمسَّهم ما مِن شأنه أن يعرضهم للوباء، ولعل هذا أحد الأسباب الأساسية في انتقال الأوبئة لعدد منهم كما سبق الإشارة إليه، كما يؤكد هذا الأمر فرضية وجود المحيط المناسب لانتقال الأوبئة داخل المستشفيات[3].

وبعيدا عن المستشفيات نجد أن الكثير مِن السَّادة كانوا يجتنبون خدمهم مخافة تساهل الخدم في أمور الاحتراز مِن الوباء[4]، كما نجدهم يحرصون كلَّ الحرص على النظافة الدائمة لأماكن العبادة أو أماكن التجمعات العامة فنجدهم يقومون بغمس أوتاد مِن الخشب في الزيت مِن أجل أن يمسحوا به الأماكن التي يستخدمها النَّاس كثيرا أو الرموز الدِّينية المهمة[5]، بالإضافة إلى ذلك نلاحظ حرصهم الكبير على توفير الرعاية في المستشفى وعلى نظافته وذلك مِن أجل إسعاف المرضى بمختلف أنواع أمراضهم، خاصة منهم أولئك الذين يصابون بالوباء أو الطاعون، وفي خضم حديث "مارشيكا" عن وباء (1700م) نجده ينقل عن الأب سانت جان (St. Jean) إعجابه بنظافة المستشفى المهيأ خصيصا لاستقبال المرضى المسيحين، أثناء زيارته إلى هذا المستشفى رفقة القنصل الفرنسي في الجزائر له بُعيد وباء (1700م)[6]، وهذا المركز الاستشفائي كان في مدينة الجزائر، وقد أُلحقت إدارته بمتصرِّف يساعده رجل دين منتمي لإرسالية عتق الأسرى، يوجد بهذا المركز الاستشفائي جراح وصيدلي مهمتهما خدمة المرضى والأسرى الأوروبيين بالمدينة[7].

---

[1] - Lucette Valensi: op.cit., P30.
[2] - Français Paissant : Mémoires de la congrégation de la mission P 103.
[3] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P23.
[4] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص، ص 43،44.
[5] - Arnoult Bossu : op.cit, M.C.M, T 3. P 234.
[6] - Jean Marchika :op.cit., P 70.
[7] – أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ، ص34.

كما كانت السُّلطات الأوروبية حريصة على تقديم العون لهذا المستشفى مِن خلال تخصيص بعض الرهبان للخدمة فيه كما هو الحال مع القديس جان أنطوان (Jean Antoine)[1] وفي حالة شغور أو فقدان بعض عمال المستشفى تقوم السلطة الإسبانية -غالبا- أو الفرنسية بإرسال مَن ينوب عنهم، مثلما حدث على سبيل المثال سنة (1797م) حينما قامت السُّلطات الإسبانية بإرسال طاقم طبي مِن أربعة رهبان للخدمة في مستشفى الأسرى المذكور، وأرسلت شخصين آخرين للعمل في إدارة المستشفى[2]، أثناء الوباء الذي ضرب الجزائر خلال تلك السنة. بل إنَّ بعض الرهبان والأطباء الذين كانوا في هذا المستشفى كانوا يقومون بتقديم المساعدة للأسرى في أماكن إقامتهم إذا أتيح لهم ذلك وسمح لهم بذلك[3].

وإذا تقرَّر ما سبق صرفنا القول للحديث عن بعض التشريعات والأحكام الصادرة في الجزائر مِن أجل حماية هؤلاء الرُّهبان، فنجد أنَّه قد أُورِدت مجموعة مِن الأحكام الخاصة بالطَّاعون في مذكرات الرُّهبان الصادرة في الرابع والعشرين مِن شهر أكتوبر سنة (1741م) وتنصُّ على ثلاث نقاط أساسية هي في مجملها مجموعة مِن الاحتياطات والإجراءات الملزمة للرَّهبان المسيحيين العامليين في إيالة الجزائر؛ وهذا مِن أجل كون هؤلاء الرهبان قد نذروا أنفسهم للكنيسة وهي ترى أنَّ أهميتهم تتعدَّى حماية أنفسهم فقط مِن الخطر الذي يتضمَّنه الوباء، بل تكمن أهميتهم في الخدمات الكبيرة التي يجب أن يقدموها للأسرى والفقراء من المسيحين الأوروبيين، ويأتي على رأس هذه التعليمات[4]:

1- جواز ترك القيام بالقدَّاس في السُّجون في حالة الالتباس بوجود الطَّاعون في السجن، وهذا مِن أجل الحفاظ على أنفسهم مِن خطر الاحتكاك بالمصابين مِن المساجين خاصة وأنه قلَّما يدرك العبيد والأسرى إصابتهم بالوباء، ثانيا مِن أجل الحفاظ على أنفسهم بحكم أنَّهم ليسوا مُهمين لأنفسهم فقط ولكن حتى لغيرهم من المرضى الذين ينتظرون أن يسعفهم هؤلاء الرُّهبان في المستشفى الأوروبي في المدينة مثلا.

2- الحرص في أثناء القداس على جعل مسافة بين الرهبان وغيرهم مِن النَّاس خاصة أولئك الذين يشتبه في إصابته بالمرض على أن توفر جميع الوسائل التي مِن شأنها أن تُقلِّل فرص انتقال الوباء إلى الرُّهبان بأن تستحدث عصاً تكون طويلة مِن أجل تقديم القرابين، وتكون هذه العصا هي الواسطة بين الرهبان وغيرهم مِن المسيحيين في حال تقديم شيء ما لهم أو العكس.

[1] - Jean Marchika :op.cit., P 70.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P359.
[3] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P 229.
[4] - Poirier Dubourg : Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 110.

3- يجب التَّأكد دائما أنَّ على الراهب أن يأخذ جميع الاحتياطات اللازمة مِن خلال عدم التماس مع أي كان وعدم التعامل المباشر وضرورة التأكيد على الرهبان أنَّه بوفاتهم سيبقى عددا مِن المسيحيين بدون مساعدة لصعوبة توفير الرهبان في فترة قصيرة.

كما ينقل لنا الطريقة التي يعتمدونها في وضع الحواجز في محيط المستشفى الإسباني وفي الأماكن الخاصة بالعبادة للأوربيين في الجزائر، وذلك بغلق المساحات الموجودة حول الأماكن وهذا بوضع عسف النخيل وربطها ببعضها بحيث تشكل جدارا لا يمكن اختراقه بسهولة، وفي نفس الوقت يتيح هذا الجدار للفناء الداخلي أن يستوعب عددا كبيرا من النصارى بداخله، لا يتواصلون أثناء ذلك مع أي أحد من الأهالي إلاّ عن طريق هذا الجدار أي بالكلام فقط، وفي حالة أراد النصارى استلام شيء ما استعملوا الملاقط، وكان كل شيء يُستلمُ يوضع في ماء ساخن أو على النّار أو في الخل. وهذا بحسب نوعية الشيء المسلَّم...كما أنه في حالة وقع الشك في أحد الأفراد أنه قد يكون مصابا بالعدوى فإنه يُفصل عن الآخرين، ويُوضَعُ في غرفة بها سرير واحد وبعض الحاجيات الأساسية، بحيث يأكل لوحده ويستعمل أطباقا خاصة به وكرسي شخصي لا يشاركه فيه أحد، كما كان الأباء والرهبان كانوا كثيرا ما يقللون من الذهاب إلى السُّجون لزيارة الأسرى الأوروبيين...كما يقللون من التقاء بمن يريدون الاعتراف بذنوبهم[1].

مع ما ذُكر من تعليمات احترازية شرعت للرُّهبان في المستشفيات عامة وفي السجون خاصة، ونصت الأحكام على ضرورة ذلك، والملاحظة أنَّه مع ما ذكر مِن مزيا خُصَّ بها هذا المستشفى مِن النَّظافة والتنظيم، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع ظهور العديد من الأوبئة أو انتقالها داخل المستشفيات في حد ذاتها، وهذا يؤكد بعض ما ذكرناه في مدخل الدراسة من أن بعض الأماكن المغلقة مثل المستشفيات أضحت بدورها سببا في انتقال الأمراض، ما جعل هذه المؤسسة تنتقل في بعض الأحيان مِن كونها سببا للقضاء على الأوبئة إلى وسيلة لإطالة عمرها وامتدادها الجغرافي[2].

إذا تحقق الغرض من الحديث عن الاحترازات المتبعة من النَّصارى داخل المؤسسات المغلقة التي جسدها المستشفى والكنيسة والسجن انتقلنا للحديث عن هذه الاحترازات ضمن حيز آخر، جسدته قنصليات الدولة الأجنبية في الجزائر، فنقف على أنَّ عددا مِن القناصل كانوا يختلقون الحُجج لعدم حضور

[1] - Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, PP 229-235.
[2] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P23.

المناسبات الاحتفالية الرسمية مثل: عيد الفطر، عيد الأضحى، رمضان، المولد النبوي؛ خاصة إذا تزامنت هذه الأعياد مع وجود نشاط وبائي ما.

وهو ما يتجلى في العديد من الصور فعلى سبيل المثال نجد الأمر يهتدي إليه القنصل الفرنسي "دوفال" (Deval) عندما غاب عن الاحتفال الرسمي بعيد الفطر لسنة (1232هـ/1817م)[1]؛ بسبب خوفه من الاحتكاك الذي يكون في هذا العيد مع العرب واليهود، لكن في الكثير من الحالات وتجنبا لحدوث أزمات دبلوماسية ما كان بعض القناصل يقومون بتعجيل زيارتهم الرسمية مِن أجل تقديم واجب التهنئة بالعيد إلى الداي في "دار السُّلطان" يوماً أو يومين قبل التَّاريخ الرسمي للاحتفال بالعيد، وهو ما حدث في عيد فطر (1233هـ/1818م)[2]، غير أنَّ هذا الأمر لم يكن متاحا في جميع الحالات إذ كثيرا ما أُجبِر العديد مِن القناصل على الحضور وتقديم التَّهنئة للداي في نفس يوم الاحتفال؛ إرضاءً لرغبات الدَّاي، مثلما حدث في عيد الأضحى سنة (1233هـ/1818م)[3] فنجد أن القناصل قد سعوا لأن يحيطوا أنفسهم بنوع من الحماية من الأوبئة لكن هذا لم يكن متاحا في جميع الحالات بسبب الأعراف التي تعودها حكام الجزائر ما صعب مِن العملية فعلا. كما يظهر حرص القناصل في حماية أنفسهم وحماية مَن هم على علاقة مباشرة معهم وذلك عن طريق إبلاغ معاونهم ومَن يشتغلون معهم أو تربطهم بهم علاقات بكل جديد يخصُّ تدابير أخذ الحيطة والحذر في هذا الجانب، وهو ما يُستنبط مِن إحدى الرسائل الرسمية مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى سلطات بلدها، إذ ورد فيها أنَّ القنصلية قد اتّخذت عدداً مِن الاحتياطات مِن أجل الوقوف في وجه الطَّاعون الذي لوحظ في البلاد[4]، وهو ما يُفهم مِن كلام أحد الرُّهبان الذين كانوا في مهام في الجزائر خلال تلك الفترة إذ يتحدَّث عن تقديم الرهبان للأسرى النَّصارى أوراق تعلمهم طريقة التَّعامل مع الطَّاعون وكيفية الاحتراز منه[5]، ولعلّ قيام السيد "جونفيل" نائب القنصل ومعه وكيل الشركة الملكية الإفريقية أثناء طاعون سنة (1740م) بالإغلاق على أنفسهم في البيت الذي يقيمون فيه رفقة بعض الخدم الذين تُحُقِّقَ عدم إصابتهم بالطاعون[6]، وتصريح الأب "بواير" بأنَّ أحد أهم الطرق لتجنب الوباء كان بالانتباه إلى ضرورة عدم الاتصال بأي صورة من الصور مع السكان والبقاء بعيدا عن كل الأشياء التي تخصهم سواء كانت ملابس أو أدوات يستخدمونها[7] يرسم لنا إلى حد ما تلك الاحتياطات التي كان العديد

1 - Jean Marchika :op.cit., P157.
2 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P 375,385.
3 - Ibid., P378.
4 -Ibid. P389.
5 -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P 231.
6 - Français Paissant : mémoires de la congrégation de la mission, P74.
7 - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P194.

من النصارى يتخذونها وتقدم لنا بعضا من الصورة العامة للاحتراز التي كان يبادر بها القناصل وغيرهم من الأوروبيين في مدينة الجزائر خلال ظهور الأوبئة.

كما يتجلَّى هذا الأمر بشكل أكبر في قيام نائب القنصل الفرنسي جونفيل أيضا أثناء الوباء الذي ضرب الجزائر بشدّة سنة (1740م) وذلك بمراسلة بعض الفرنسين وحثّهم على أن يقوموا بجرد الأشياء الثمينة في بيوتهم والإغلاق عليها في مربع ما، وأن لا يستعملوا من الأدوات والتجهيزات والأثاث إلاّ ما هو ضروري جدا بما يمكنهم من تجنب الوقع في شراك الطاعون[1] نفس الأمر يلاحظه باسو (Arnoult Bossu) إذ يشير إلى قيام الفرنسيين بالإغلاق على أنفسهم مخافة انتقال عدوى الإصابة الوبائية إليهم في وباء سنة (1752م)[2]. فإذا كان هذا الأمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب الآن أن نضيف أحد الأركان الأساسية التي اهتمت بحماية نفسها من تبعات تفشي الأوبئة ونقصد بها المؤسسات الاقتصادية والتجارية الأجنبية في الإيالة.

نجد أنَّ المؤسسات الفرنسية -وهي الوحيدة التي كانت تسيطر على الامتيازات الأجنبية في الإيالة- وبالأخصّ وكلاء الشّركة الإفريقية -التي تعمل في صيد المرجان في القالة -كانت تقوم بالعديد مِن الخطوات لأجل حماية نفسها، وهو ما نقف عليه في عدد من الإشارات المتناثرة في الوثائق الأرشيفية، فمن ذلك ما نقف عليه ضمن إحدى الإشارات غير المباشرة التي نقف عليها في وثيقة من أرشيف الشركة الإفريقية حول قيام مسؤوليها بدفع قيمة مالية معينة لليهود الموجودين في الميناء -أثناء الطّاعون الذي ألمَّ بإيالة الجزائر سنة(1170هـ/1756م)- نظير تقديمهم العديد مِن الخدمات لطاقم السَّفينة الذين كانوا يفضلون عدم التماس المباشر مع الأهالي ويرجحون عدم النزول بالمدينة، وفي مقابل ذلك الاكتفاء بتكليف اليهود بالقيام بما يحتاجون إليه من خدمات أو مهمات معينة كالنقل والبيع والشراء وغيرها[3].

كما كان وكيل الشركة الإفريقية يحرص كلَّ الحرص على عدم انتقال العدوى مع سُفنه إلى فرنسا، ولأجل ذلك ؛كان يقوم بمنع إرسال السفن مِن الميناء في حالة كان انتشار الوباء بشكل كبير؛ مخافة وصله عبر بعض البحّارة إلى مرسيليا ومنها التوغُّل إلى الداخل الفرنسي، فنقف على عدم سماح وكلاء الشّركة بشحن السُّفن إلاَّ في حالة تحقق خلوها وخلو المكان مِن الإصابة بالطَّاعون وهو ما يفهم في بعض الإشارات المتفرِّقة في المصادر الفرنسية التي تناولت مسألة الوباء في الجزائر[4]، ويعد هذا العمل إجراء استباقي

[1] - Français Paissant : mémoires de la congrégation de la mission P 75.
[2] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P 229.
[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 207.
[4] - Ibid. P 218.

كانت تقوم به الشَّركات الفرنسية في الجزائر أولاً لحماية نفسها مِن خطر هذا الأوبئة، وثانيا لحماية المملكة الفرنسية مِن مخاطر تسرُّب هذه الأمراض داخل تجمعات الشركة.

مثلما نجد الشَّركة الإفريقية تقوم بسد بواباتها في وجه أهالي وسكان المناطقة المحيطة بهم، وهو ما نقف عليه فيما ينقله الأب (L'abbé Poiret) عن إحدى المراسلات المؤرخة بـ (1785/05/12م) والتي أُرسِلت مِن الشركة الملكية الإفريقية بمدينة القالة إلى الجهات المعنية تخبرهم فيها بقيامها بإغلاق أبوابها في وجه كل التّعاملات الاقتصادية والتجارية مع الأهالي[1]؛ احترازا مِن انتقال الوباء إلى داخل أسوارها وحماية للعاملين بالمؤسسة، وقد أوردت المؤسسة أنَّ قيامها بهذا العمل لوقاية نفسها من بلاء الوباء قد قُوبِل بامتعاض ورفض مِن طرف الأهالي الذين أصبحوا يرمون الجثث المصابة بالوباء عند بوابات الشركة[2]، نفس الأمر أعادته المؤسسة في السَّنة التالية للوباء خاصة وأنه تمَّ التَّأكد مِن ظهور الطَّاعون في مدينة عنابة، إذا حاولت وضع مجموعة مِن الحواجر تمنع وصول ساكنة المناطق المجاورة من الوصول إلى مقر الشركة الإفريقية[3]، وإن كان الأهالي قد يعبرون عن امتعاضهم من هذه التَّصرفات فإن السُّلطة الحاكمة في البيلك كانت تراه إيجابيا لذا نجد "صالح باي" يأذن للشركة الإفريقية الفرنسية في القالة بضرب الحصار على منشئاتها أو إغلاق المناطق التي تخضع لسلطتها[4]، وهذا الأمر ليس بمعزول إذ كانت العديد من الشركات الفرنسية في تونس تقوم بالأمر نفسه فتقوم به على سبيل المثال الشركة الفرنسية (le fonduk) الموجودة بتونس[5]، إذ كانت تقوم بوضع حواجز تحول دون وصول الأهالي إلى الشركة وبالتالي تقلل إمكانية الاحتكاك المباشر معهم[6].بل إنَّه في بعض الحالات يطلب المسؤول الفرنسي من الأوروبيين القاطنين في المدينة أن يفصلوا بين المرضى وبينهم وأن يجندوا لخدمة المرضى مجموعة من الخدم على أن لا يحتكوا هم بهم، وهو ما يُستقرأ في التَّوصيات التي قدمها نائب القنصل السيد "جونفيل" في رسالة إلى عائلة الإخوة "جون" التي أصيب فيه عدد مِن الإخوة[7]، مثلما قام القنصل الفرنسي العام في الجزائر أثناء الوباء الذي ضرب الإيالة سنة (1207هـ/1793م) بمراسلة وكيل الشركة الفرنسية في مدينة عنابة يحثُّه فيها على إرفاق ملفات السُّفن التي تأتي من فرنسا وتعود إليها من الجزائر ببرقيات يذكر فيها الظروف الوبائية التي تعرفها

---

[1] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., 12 Mai 1785.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P334.
[3] - Ibid., P343.
[4] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, 227.
[5] - Ibid. P210.
[6] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°25,op.cit., 12 Mai 1785.
[7] - Français Paissant : M.C.M, P 76.

الجزائر[1]، وحسب قراءتنا فإنّ هذا العمل مِن شأنه أن يُجبر الموانئ الفرنسية لاحقا على إخضاع طاقم السَّفينة للمعاينة أو الحجر الصِّحي إن اقتضى الأمر ذلك.

بالإضافة إلى ما مرَّ بنا مِن إجراءات كانت تُؤخذ قبيل حلول الأزمات، نجد أنه توجد العديد مِن الإجراءات التي كانت تُتَّخذ في حين الأزمة، فمن ذلك مثلا أن يُسرع الأوروبيون إلى الخروج من المدن إلى الأرياف وهذا على اعتباره ملاذا آمنا من الوباء، وهو ما نجده يحدث فعلا في الوباء الذي ضرب الجزائر سنة(1793م)[2] حين قام الأوروبيون (القناصل – التجار) بالخروج مِن مدينة الجزائر باتجاه الأرياف المحيطة بها خوفا مِن الوباء، لأجل حماية أنفسهم، وذلك كون أنَّ الكثَّافة السُّكانية تكون أقلَّ بكثير مِن المدن، وبالتالي فإن نسبة الإصابة بالعدوى تكون أقل أيضا، نفس الأمر يقوم به ممثل القنصلية في مدينة بونة في الوباء الذي يضرب المدينة سنة (1233هـ/1817م) إذ يقوم بالخروج مِن المدينة والنزوح إلى الريف[3] إضافة إلى أنَّ إمكانية مراقبة المحيط القريب في الريف تكون أكبر مِن المدن بحيث أنَّ كثرة الأسواق والمقاهي والحركة اليومية للخدم والوافدين لزيارة القناصل وغيرها من أعمال تُصعِّب الأمر، وهو أمر منطقيٌّ جِدا إذا ما قورن باللامبالاة التي كانت موجودة لدى السُّكان المحليين اتجاه أمور عدَّة تساهم في انتقال الوباء وانتشاره.

إضافة لما سبق قامت الهيئة القنصلية الفرنسية في الجزائر بإحضار عدد من اللقاحات ضد داء الجدري الذي انتشر في الجزائر خلال سنة (1217هـ/1803م)[4]، وهو الأمر الذي لم تتعوَّده الجزائر ولم تعمل به مِن قبل.

وإذا عُرِف هذا فمن الواجب الآن أن نفتتح الخوض في الشق الثاني من الأركان التي عليها مدار أهل الذِّمة وهم اليهود، فمن أوجه الاحترازات التي كان يتَّخذُها اليهود ما ذكرته "لوسي فلنسي" في إحدى الوثائق التي أوردها أنَّ اليهود كانوا بمجرد أنَّ يُلاحظوا أنّ الوباء تفشي أمره في مدينة الجزائر يقوم المكلف بطائفة اليهود بالمدينة بإعلان حضر شراء الألبسة مِن الأهالي[5]؛ خوفا مِن انتقال الوباء عن طريق هذه الألبسة، كما يذكر "فيشرا" في يومياته أنَّهم كانوا إذا تبيَّنوا استمرار الطّاعون لفترة طويلة ألزموا فتياهم البالغين بالزواج[6]، خوفاً مِن انقطاع النّسل واعتقاداً منهم بجدوى هذا الأمر في التَّقليل مِن أثر الوباء.

---

[1] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P355.
[2] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P226.
[3] - Ibid. P233.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P364.
[5] - Document No:6
[6] - Jean Claude Vichert : op.cit., PP (559-568). Et- Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P126.

مثلما كانوا يقومون بتجنُّب الأماكن المكتظة ولا يلتزمون حضور جنائزهم، وإن مات أحدهم غسّلوه بالماء وطيَّبُوا جثته بالكافور والأعشاب[1]، كما أنَّنا نقف في بعض المصادر على إشارات هامة مفادها أنَّ "علي خوجة" إثر الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (1232هـ/1817م) قام بإصدار أمر لليهود بالعودة الفورية إلى عملهم التُّجاري داخل مدينة الجزائر[2] ما يُفهم منه أنَّ اليهود قاموا بالخروج مِن المدينة إلى الأحواز والأرياف خوفاً على أنفسهم، ولا يُستبعد أن تكون هذه أحد الطُّرق التي حاول مِن خلالها اليهود النَّأيْ بأنفسهم عن تبعات الوباء.

غير إنّ هذه الاحتياطات لم تكن دائما تأتي بالمرجو منها؛ إذ كثيرا ما ظلّت مجرد محاولات يائسة للسَّيطرة على الطَّاعون بعد تسربه.

وإذا عرف ما سبق وجب أن نصرف البيان إلى أنّ ظهور الوباء بين أفراد فئة اليهود غالبا ما كان ينتهي بسقوط عدد كبير مِن الضحايا قبل أن يستتب الأمر وينحصر الوباء أو الطَّاعون مِن جديد وهو ما يجعل الاحتياطات وتصرُّفات فئة اليهود على أهميتها تبقى مبتورة وضعيفة، خاصة إذا علمنا أنَّ مثل هذه الاحتياطات لم يُعمل بها في المدينة أو محيط الوباء ككل، وإنما على حيز ضيق داخل العائلة والجماعة الأثنية لا أكثر، وهو ما نقف عليه في الكثير مِن حالات النشاط الوبائي كذاك الذي ألَمَّ بمدينة الجزائر سنة (1787م) وكان له تأثير كبير على فئة اليهود بحيث سقط فيه حوالي (1093) مِن اليهود، فيما كان عدد الضحايا من النصارى لا يتجاوز (224) مِن النَّصارى[3]. هذا بالرُّغم مِن حزمة الإجراءات المتَّبعة حينها لاستدراك أعدادا ممَن فُقِد مِن الضحايا أو التصدي لهجمات هذا الوباء؛ فمن ذلك مثلا: قيامهم بتزويج الشباب اليهود، ومنع شراء ملابس الأموات، والإغلاق على أنفسهم في بيوتهم[4]، وهو ما يستجلى أيضا في العديد من الأوبئة التي كان من أكبر ضحاياها اليهود كوباء سنة (1741م) ووباء (1785م) ووباء (1718م) وغيرها من أوبئة.

وقبل أن نشرع في الحديث عن المساهمات المختلفة للسلطة ومن هو دونها في حل الأزمات الصحية والغذائية في الجزائر خلال العهد العثماني وتحديدا خلال المجال الزمني حيز الدراسة علينا أن نقول أن تعامل الفئات المختلفة مع الأزمات الصحية والغذائية لم يكن على نفس القدر من الكفاءة والاهتمام، بحيث نجد أكثر فئة اهتمت باتخاذ الإجراءات الاحترازية هي فئة النَّصارى، وهذه بسبب الثقافة التي كانت بدأت تتأسس في المجتمع الأوروبي، أما اليهود فلم تتعد محاولاتهم استنساخ التجربة التراثية في المخيال الجمعي

[1] - Document No:6
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P376.
[3] - Gazette de France :1787, N° 67. P331.
[4] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P229.

للمجتمع اليهودي، أما إن أتينا إلى المجتمع المسلم فيمكننا أن نقول أن الفئة التي اهتمت باتخاذ الإجراءات بعض الاحترازية لا تتعدى بعض عناصر السلطة الحاكمة وظل ذلك راجع أساسا إلى فلسفة الحاكم في حد ذاته، فرأينا من ساهمت أعمال في تضيق مجال حركة الأوبئة وتفشيها أو التقليل من أثر الأزمات الغذائية كما رأينا من كانت تصرفاته سببا في حلول مشاكل صحية وغذائية كبيرة أدت بالإيالة إلى العيش تحت وطأة الأزمات مدة طويلة، مثلما وجدت بعض الاحترازات التي سعى لها في غير تنظيم بعض المسلمين الذي احتكوا بالثقافة الغربية مثل "حمدان خوجة" لكنها ظلت ضيقة وبسيطة وغير منظمة في مؤسسة بعينها.

مساهمة السلطة والحكام وأرباب المال في حلِّ الأزمات

من طبائع الناس أن تختلف مواقفهم أثناء الأزمات والمصائب ولهذا نجد أنَّ المواقف التي اتَّخذتها مكونات المجتمع حيال ظهور هذه الأوبئة أو المجاعات اختلفت عن بعضها، وبما أنّه معلوم أنّ المجتمع خلال المجال الزمني محل الدراسة (1700-1830م) كان يعيش نوعا من الفئوية وجب علينا أن نتتبع تصرف كلَّ فئة على حدى، فالمجتمع كان يضم الحكام ورجال الدِّين وأرباب المال، كما كان يضم أيضا المعسورين والفقراء والمعوزين، لذا من الطبيعي أن يحاول هذا المبحث إبراز تصرف كلَّ فئة حيال المستجدات التي أتت بها أزمات القحط والجدب والغلاء في جانبيها الإيجابي والسلبي.

وإذا تحقَّق هذا فَمن الواجب أن نستهلّ الكلام في هذا المقام أوَّلا بأعلى مَن في الهرم السياسي في مجتمع الإيالة خلال تلك المدَّة، ونقصد بهم رجال السُّلطة الحاكمة مِن دايات وبايات وغيرهم، فجلّهم كان يُنظر إليهم بنظرة إجلال واحترام باعتبارهم ينفذون أوامر السلطان الأعظم، وبالأخص منهم مَن تقلدّ مَنصب الدَّايوية أو البابوية، فالجميع ينظر إلى الداي مثلا على أنَّه رجل مميز بما اجتباه الله به مِن سلطان الحكم والتدبير والمال وتسير، لذا كان ينتظر منه أكثر مما ينتظر من غيره، خاصة وأنَّ الحكام في مركز الدولة العثمانية أو في مناطقها المختلفة كانوا يجتهدون في تقليل أثر الأزمات الصحية والغذائية بتخفيف الأعباء الضريبية على السُّكان أوقات القحط والوباء مثلما تشير المراسلات الرسمية للحكَّام في العهد العثماني، إذ كثيراً ما أُخِّرت الضرائب عن وقتها وعُفي عن بعضها مثل الجزية والضريبة على الأرض إذ كثيرا ما أُسقِطتا في أوقات الأزمات الصِّحية والغذائية كما تبينه الوثائق المختلفة[1]، فكيف تصرَّف الدَّايات والبايات؟ وهل تفاعلوا حقا مع المجتمع خلال هذه المصائب؟ هل قدموا ما يشكرون عليه فعلا في مواجهتهم للأزمات المتكررة؟

---

[1] - B.O.A : C.ML. Do : N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.

مِن نافلة الذكر القول أنّ الفترة التي ندرسها تمتد على مسار مائة وثلاثين سنة وحكم خلالها أكثر من واحد وعشرون دايا وشهدت الإيالة خلال هذه الفترة ما يقارب ستة وعشرون وباءً وأكثر منن عشر مجاعات وأنَّ حصر كلّ تصرفات الدايات غير مستطاع حاليا، لذا سنحاول أن نضرب أمثلة لتصرفاتهم في مواطن مُختلفة وفي فترات متباينة حتى تكوّن صورة بيّنة.

ملامح من التعاملات السلبية مع الأزمات الصحية والغذائية:

تنقل بعض المصادر المحلية و الأجنبية أنَّ السُّلطة الحاكمة خلال العهد العثماني لم تقم بواجبها اتجاه السكان بالقدر الكافي خلال المجاعات والأوبئة، وهو ما نقف عليه فعلا في العديد من الأمثلة فمن ذلك مثلا ما حدث سنة (1740م) حين كان الوباء يتربص بالجزائر وقدمت سفينة فرنسية من إحدى الموانئ المصرية وهي مصابة بالوباء، وقد اتصل قبطان السفين بالقنصل الفرنسي قبل الإرساء بالسفينة وشرح له الأمر لأخذ الاحتياطات الواجب اتخاذها في مثل هذه الحالة، وقد تواصل مسؤولو القنصلية بالديوان وبالداي من أجل الحصول على المساعدة اللازمة لمنع دخول هذه العدوى إلى المدينة وذلك بإقامة حجر صحي لمن هم على متن السفينة، لكن الداي كان يتعنت ويرد على نائب القنصل بأنّ الطاعون إذا كان مقدرا له الدخول والتفشي في المدينة فالدَّاي لا يهابه ولا يخاف منه بل وأمر من ساعته بإنزال البضائع الموجودة في السفينة[1] وكأنه يتعامل مع شيء مادي يمكنه مجابهته وهذا إنما يدل على نقص أو انعدام الثقافة الصحية التي كانت تتوفر في عدد قليل من الحكّام خلال هذه الفترة، بل نجد من تتوفر فيه هذه الخصائص العلمية يفضل أن ينجو بنفسه من مغبة مواجهة الوباء فمن نجد بعض البايات ينأون بأنفسهم ومَن معهم من الجند مّن مغبّة التّماس مع غيرهم، أو نجد أنَّ الباي يخرج بمن معه من المحلّة إلى مكان يتربّص به ريثما تهدأ الأمور، وهو ما قام به العديد من البايات مثل: باي الغرب الجزائري (محمد عثمان بن الكبير) في الوباء الذي ضرب بيلك الغرب الجزائري وسمي باسم عائلته سنة (1208هـ/1794م) إذ ابتعد عن المدينة وخرج بأهله وحاشيته إلى أحواز وهران وظل هناك حوالي ثلاثة أشهر كاملة[2]، وإن كان نفس هذا الباي قد قام بما يشفع له لاحقا على عكس البقية ممن لعِب دور المتفرّج في الأزمات الغذائية مثلا، بل ولم تسمح للسُّكان بالاقتراض مِن مخازن القمح الخاصة بها؛ فينقل العنتري خلال المجاعة التي مسَّت قسنطينة سنة (1804م) من تقصير الباي عبد الله باي ما نصُّه: «..ولم يبلغ عنه أنَّه فتح مخازن البيلك مثلاً وتصدَّق منها على الضعفاء بشيء مِن الحبوب أو عاملهم بسلفٍ مِن مال الخزينة على ما أصابهم.»[3] كما يذكر في

[1] - Jean Marchika :op.cit., P79.
[2] - Walsin Esterhazy : op.cit., P196.

[3] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 42.

موضع آخر أنَّ السُّلطة في تلك المجاعة التي ألمت بالبلاد لم يظهر منها عناية كافية بشؤون الناس بهدف التَّخفيف من شدَّة المجاعة وحصر مجال الأوبئة وفي هذا الشأن يقول: «..وأمّا جانب المخزن في تلك المجاعة فلم تظهر منه إعانة كافية لعامة الضعفاء..»[1]، غير أنَّه لا يمكننا أنْ نلوم السُّلطة حينذاك على تصرفها لأسباب مختلفة منها ما ذكره العنتري بنفسه؛ فخزائن القمح التابعة للبايلك هي أيضا لم تَسلَم مِن النَّقص خلال تلك الفترة؛ بسبب إخراج المؤن إلى المحلَّة التي كانت في مواجهات مباشرة مع الثائرين الذي يقودهم ابن الأحرش، الأمر الذي نجده في كتاب العنتري نفسه وهو يرويه على لسان أهالي قسنطينة قائلا: «..بعض النَّاس يذكر أنَّ السبب في عدم معاملته (يقصد الباي عبد الله) للنَّاس مِن الخزينة فراغها بالصَّرف في الفتن التي صادفت تلك المجاعة المتقدِّمِ ذِكرُها..»[2] فحددَّ لنا أهالي قسنطينة أنَّ مِن الأسباب التي حملت حاكم قسنطينة الباي "عبد الله" في المجاعة التي شهدتها قسنطينة خلال سنوات(1803م-1807م) على عدم فتح خزائن الحبوب لمساعدة السكان على تجاوز الأزمة أنَّ هذه الخزائن نفسها كانت تعاني نفس النُّقص والعجز، وبالأخصِّ عندما تقترن هذه المجاعات بفترة ثورة ما كما حدث فِعلاً سنة (1804م) فقد تزامنت المجاعة التي ألمت ببيلك قسنطينة مع ثورة ابن الأحرش في الشَّرق الجزائري[3].

كما رفضت العديد من القبائل دفع الضرائب الواجبة عليها؛ بسبب الفاقة التي لحقتها نتيجة المجاعات أو الأوبئة، وهو ما نقف عليه فعلا في فترة حكم "محمَّد بن حسن داي" (1130هـ/1718م)[4] في حين أنَّه مرَّ بنا أنَّ حُكَّام الدَّولة العثمانية كانوا يسمحون ليس بإسقاط الضرائب فقط وإنَّما حتَّى بإسقاط الجزية عن أهل الذِّمة[5] وهو ما سنراه فيما هو قادم .

ملامح من التعاملات الإيجابية مع الأزمات الصحية والغذائية:

لا يعني ممَّا تمَّ سرده آنفا بين دفتي هذا المبحث أنَّنا قرَّرنا أنَّ السُّلطة الحاكمة في الجزائر كانت مُهملة تماما إلى درجة أنَّها لم تقم بشيء تُحمد عليه، فهل قامت فعلا بأي شيء يستحق منا أن ننوِّه به هنا أو نتكلَّم عنه فيما سنستعرضه ؟ كيف كان أثر ما قامت به على السُّكان وعلى وجودها هي أيضا ؟ هل يمكن لما سنذكره ممَّا قامت به أن يُغطي على الأخطاء والاستهتار السالف ذكره؟

مِن أجل أن تقلِّل مِن حجم الأثر الكبير الذي كانت تخلِّفه الأزمات الصِّحية والغذائية نجد السلطة تقوم بمجموعة مِن الأعمال الإيجابية التي تُحسب لها، ويتجلَّى الأمر أساسا في سعيها للتَّخفيف مِن شدَّة

---

1 – المصدر نفسه: ص 41.

2 – المصدر نفسه: ص 42.

3- J.-L.-G. Guyon : op.cit., P371.

4 - H.-DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.

5 - B.O.A : C.ML. Do : N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.

أزمات الجوع بأن قامت بإعفاء القبائل التي يلحق بمحاصيلها ضرر ناتج عن غزو الجراد أو نتيجة الجفاف مِن دفع ما هو واجب عليهم مِن ضريبة إلى السُّلطة الحاكمة[1]، كما قام عدد مِن البايات بخطوات مِن أجل مساعدة النَّاس على تجاوز أزمة نقص التموين أو انتشار الأمراض، فنجد مثلاً الباي "محمَّد الكبير" مِن أجل تخفيف وطأة المجاعة التي أصابت البلاد في سنة (1199هـ/1785م) يقوم باشتراء القمح مِن بعض الدول الأوروبية كإسبانيا وبيعه للأهالي بنفس السِّعر، أو كان يقوم بتوزيعه على الفقراء مجانا إضافة إلى تأجيل الضرائب المفروضة على القبائل كالعشور وغيرها إلى أزمنة أخرى[2]، وقد ثبت فعلا أنَّه كثيرا ما كان يفتح مطبخ القصر مِن أجل إطعام الفقراء والمحتاجين بل ويقوم بتعين مَن مِن شأنه المساعدة على حفظ وتوزيع الغذاء على النَّاس مثلما يورده صاحب مخطوط "نبذة يسيرة مِن سيرة الباي محمّد فاتح ثغر وهران" فيقول: «...غير أنَّه في ابتداء ولايته وقع القحط الشديد في إقليم الجزائر خاصة بعمالته هذا ولما كان ادخر حبوبا كثيرة أخرجها إلى الأسواق عندما غلت الأسعار فانحطت وقتئذ ولولا ذلك لهلك الكثير ومما كان يعد من فضله فتح مطعمه لضعفاء أم العساكر وكان يكسي العراة ويخلصهم من مصيبة البرد الشديد...»[3] وقد ساعد هذا الأمر فعلا في التقليل مِن شدة المجاعة، إلاّ أنّه لم يقض بشكل مباشر عليها، إذ لم تكن تلك الكميات كافية للقضاء على تبعات ما اشتُهر عليه بـ(عام الشَّر) حينها.

كما راعت السُّلطة الحاكمة حالت القبائل خلال النكبات والأزمات الغذائية؛ فأعرضت عن أخذ الضريبة المفروض على القبائل في السَّنوات العجاف وهو ما نجده في تصرف محمد باي الكبير سنة (1199هـ/1785م)[4] أو نجد التساهل في التعامل مع القبائل التي تعرف مجاعة أو جفاف أو زحف جرادٍ أوقات الأزمات تعرف تأجيل أو انتظار تحصيل الضرائب إلى أزمنة أخرى بتأخيرها منتظرةً تحسُّن الوضع مثلما كان يعتمد في جل مناطق الدولة العثمانية في أوقات القحط والوباء والغلاء[5]، وهو الأمر الذي قام به "عبد الله باي" حاكم قسنطينة بعد القحط والفتن التي عرفتها قسنطينة سنوات (1803م) (1804م) (1805م) إذ يروى عن "عبد الله باي" قسنطينة أنَّه قام في المجاعة التي ألمت بقسنطينة سنة (1218هـ-1803م) مثلا بحثِّ أهل البادية على مساعدة سُكَّان المدينة بإدخال منتوجاتهم مِن القمح إلى السُّوق، وبعث برسائل إلى وجهاء القبائل يحثُّهم فيها على السعي في هذا المعروف، ويحفزهم على دفع ما لديهم من فائض للسوق حتَّى يرفعوا ما بإخوتهم مِن ضرّ سببه القحط، وسأل أرباب الخزائن والمزارعين أنْ يُمدُّوا السُّوق

---

[1] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 42.

[2] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[3] - مؤلف مجهول: نبذة يسيرة في سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (5022) ورقة[2].

[4] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[5] - B.O.A : C.ML. Do : N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.

بما يزيد عن حاجتهم الخاصة، بل وقام بإرسال مَن ينظِّم سوق الحبوب ويكفل لكلّ شخص أن يأخذ ما يسدُّ به رمقه هو أهل بيته دونما إسراف، ويدفع للمزارع حقه دونما بخس، فكان لهذا التَّخطيط مِن الباي "عبد الله" ودعواته الأثر الطيب على السُّوق إذ بدأ استجلاب القمح مِن أماكن عِدَّة ونهض أهل المناطق المحاذية مثل أهل ريغة وأهل فرجيوة وتجنَّدُوا لإمدادها بما تحتاجه مِن مؤونة حتى ارتفع البلاء وعمّ الرخاء[1] كما قام بإسقاط الضريبة تلك السنة على الأهالي بسبب سوء أحوالهم. وصار ما قام به "عبد الله باي" في قسنطينة بمثابة العرف لدى الحكومات المتعاقبة[2]. وهنا لا بد أن نورد ما استدركه "العنتري" على ما قام به "الباي عبد الله" إذ لم يكن هذا الإعفاء الذي سنه ""الباي عبد الله" وبعض الدَّايات إلاَّ إعفاءً ظرفيا ولم تاما مثلما قد يفهم، لذا في الحقيقة يمكننا أن نتحدَّث عن عملية تحيين فقط إلى غاية تحسُّن الأوضاع العامة واستحصال الضريبة المستحقة مرَّة أخرى، وهو ما كانت تقوم به السُّلطة المركزية العثمانية كما تؤكده العديد مِن الوثائق الأرشيفية إذ تقوم بتحيين الضرائب إلى غاية تحسن الأوضاع العامة[3]. وهذا الأمر لا ينتقص مِن كون الفعل إيجابي وإجراء كان ضروريا؛ إذ أنّه يخفف على القبائل شدَّة هذه الأزمة لا محالة.

مثلما يذكر الزّهار قيام "عمر باشا" بعد المرحلة التي تم ذكرها آنفا وبالتَّحديد أثناء القحط الذي أصاب البلاد سنة (1230هـ/1814م) بتوزيع القمح على جميع الخبازين وتثبت سعره مثلما كان قبيل القحط وأمر الخبازيين أن يقوموا بعمل ما يلزم حتى يوفروا ما يحتاجه السكان[4].

إضافة إلى ما مضى قامت السُّلطة الحاكمة في بعض الأحيان وبشكل رسمي بسنّ مجموعة مِن التَّشريعات والقوانين الوقتية أو الجزئية غرضها المساعدة على تجاوز الأزمات الراهنة، والتي يُذكر مِن بينها ما قام به "الداي عمر" في التاسع من شهر جويلية سنة (1227هـ/1815م) بفرضه قانون يُجبر الجميع سواء كانوا عربا أو يهودا بأن يقوموا بالقضاء الفوري على أي تجمعات يرونها لليرقات وأن لا يعطوا لها أي فرصة للتّحول إلى جراد[5]، في حين فُرض قانون آخر يقضي بمنع تصدير الإنتاج الفلاحي خاصة من الحبوب مِن الجزائر إلى أوروبا إلاَّ بإذن خاص[6]، كما بتقسيم الخبز الذي كان يُحضَّر في الأفران العمومية والخاصة بين السكان، وعهدت لفرق عسكرية بحراسة هذه الأفران[7] خوفا مِن الاضطراب أو الفوضى التي قد يشهدها بيع الخبز. مثلما قامت الحكومة أيضا في الكثير مِن الأحيان بهدف تقليل وطأة المجاعات التي مسَّت البلاد

---

1 - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 41.

2 - المصدر نفسه: ص 42.

3 - B.O.A : AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°11393. Tarih 1142.M.02, Belg 01.

4 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص145.

5 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P371.

6 -William Shaler : op.cit., P101.

7 - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 42.

بالاستعانة بالاستيراد مِن الدُّولة الأجنبية، فمن ذلك ما قمت به السُّلطة الحاكمة سنة (1819 م) باستيراد ما يقارب خمسين ألف مِكيال مِن القمح[1].

فإن تحقق بالفعل ما سبق كنا جدراء بالقول أن فهم السلطة العثمانية للإجراءات الاحترازية والوقائية كان متأخرا جدا، وما إدراك السُّلطة العثمانية لضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة وما اقتناع بعض الحكام بفعاليتها إلا نظير لإلحاح القناصل الأوروبيون لها بضرورة تفعيل بعض الإجراءات لحماية نفسها من هجمات الأوبئة والأزمات الغذائية، والجهة الأوروبية هي التي حملت السلطة العثمانية الحاكمة في إيالة الجزائر على اتباع بعض الإجراءات الاحترازية ضد الأوبئة والمجاعات، لكنها ظلت منكفأة على نفسها غير قادرة على تحقيق الأمان الصحي والغذائي للإيالة. ونجد أنَّ الأوربيون في حد ذاتهم قد تضرَّروا مما كان يحدث في الإيالة مِن أزمات غذائية وصحية، فحدوث الأزمة الغذائية كان يعني شح المواد الغذائية المصدرة باتجاه موانئ مارسيليا وليفورنو وجنوى، وحدوث الأزمات الصحية يعني تقلص التبادلات التجارية مخافة من انتقال الأوبئة وبالتالي تأثر الحركية التجارية بدورها بل كانت بعض السفن الأوروبية تبقى خارج الموانئ ويرفض استقبالها في الاشتباه في إصابتها بأي مرض وبائي لتجنب نقل إلى مرض إلى داخل الإيالة[2].

كما كان من الاحترازات المتبعة من السلطة الحاكمة أثناء الأزمات أن تقوم بتعطيل أو إلغاء بعض الحملات العسكرية أو استخلاص الضرائب لكيلا تتفشى الأوبئة بشكل عام، فنقف من الأمثلة على ذلك قيام كل من داي الجزائر وباي بيلك قسنطينة سنة (1153هـ/1741م) -حسب رواية الموفد الفرنسي في الجزائر (Maurepas)- بتوقيف حملة عسكرية غرضها تأديب باي تونس؛ خوفا مِن تفشي الوباء الموجود في تلك المنطقة[3].

وإذا تمَّ الغرض مما سبق مِن الحديث عن السُّلطة السياسية وتبين ما كان تقوم به أثناء هذه الأزمات يممنا وجهنا شطر الحديث عن المكونات الأخرى للتركيبة الاجتماعية، والتي يمثِّلها في هذا المقام أوَّلاً فئة من رجال المال على قلتهم.

يحكم معظم التَّصرفات والإجراءات التي كانت تقوم بها هذه الفئة -ممن استطعنا الوقوف على أمرهم- تحكمها العاطفة الدينية الإسلامية، إذ أنّ معظم التّصرفات مثلما صرَّح به أصحابها أو دلَّت عليه أفعالهم وأقوالهم كانت مِن أجل شيء عقدي يؤمنون به، فكانت تصرفات غالبيتهم -بحسب اجتهادهم-

---

1 -William Shaler : op.cit., P103.

2 - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P139.

3 - H.-D. DE Grammont : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P266.

غرضها التوسيع على إخوتهم في الدِّين، والتَّوسيع على أنفسهم في دار البقاء. لكن تصرفاتهم على قسمين خاصة بهم ومتعلقة بغيرهم.

فمما قد خص بهم ما نقف عليه في مذكرات الأباء المسيحيين في الجزائر، إذ أنَّه نتيجة لتجدُّد الطَّاعون صيف (1752م) قام العديد من التّجار داخل المدينة بإغلاق محلاتهم التجارية والتزام بيوتهم[1]، وهو ما يوحي بأنّ أول شيء كان يفكر فيه هؤلاء التُّجار هو محاولة أن ينأو بأنفسهم عن خطر انتقال عدوى الوباء أو الطاعون إليهم

فمن هذه التصرفات أن بعض أرباب المال عندما اشتدت وطأة المجاعة على أهل قسنطينة وعزّ عليهم شراء القمح لارتفاع سعره سنة (1218هـ-1803م) كان يأتي الرجل من الميسورين إلى سوق الرحبة على هيئة البائع فيجتمع إليه القوم، ويكتل لك فرد ما يحتاج حتى إذا فرغ من كيل ما أتى به وأتى وقت أخذ ماله عندهم من مال نادى فيهم : « يا عباد الله كل مِن أخذ شيئا فهو له خالصا لا آخذ منه ثمنه» وهذا الأمر كثيرا ما قام به أهل البادية والرجال الميسورين خلال تلك الفترة، والأمر لم يتوقف هنا فحتى عابر السبيل إذ قدم البادية أو المدينة مع ما فيه من العسر تقدم إليه أهلها من وجهاء وغيرهم من البسطاء وقدَّموا له مِن أقواتهم ما يسدُّ به رمقهُ[2].

مثلما نقف في شق آخر على فئة أخرى التشكل البنية الأساسية للمجتمع وتمثل غالبية أفراده وهي أهالي المدن والأرياف فكيف كان تفاعلهم مع الوقائع الجديدة التي كانت تجلبها الأزمات الغذائية والصحية؟

كان مِن أيسر الطرق التي اعتمدها المجتمع في مواجهته لشدائد في تلك المدَّة وخاصة في مواجهة الأوبئة العودة إلى المقدس، والرُّجوع إلى ما هو عقدي ديني، بل اعتقدوا أنَّ هذه العودة هي سبب رفع البلاء لذا نجدهم في مخيالهم الجماعي التفسيري لهذه الأزمات الصحية أو الغذائية يعتقدون أنّ مردها إلى إرادة إلهية لا يجب الاعتراض عليها، بل يؤدي بهم في بعض الأحيان هذا الاعتقاد إلى الظنّ بأنّ الاستسلام لهذه الأمور هو ممَّا يتوجَّب القيام به شرعا، لذا نجد الكتابات والتقارير الأولى الاستعمارية تشير إلى هذه الظاهرة باستغراب[3] في حين أن نفس هذا النمط الانحصاري إلى الجانب الروحاني كان مبثوثا في الثقافات الدينية المختلفة، فنجد أنّ أخذ الاحتياطات في المخيال الجماعي الإسلامي خلال تلك المدّة عُدَّ أمرٌ منبوذا وهو ما كان يستغربه أوروبي تلك المدة[4]. هذا الأمر هو أحد أهم الأسباب التي حملت "حمدان بن عثمان

---

[1] -Arnoult Bosssu : M.C.M.Tome 3, P227.

[2] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 40.

[3] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P139.

[4] - Ibid. P139.

خوجة" وهو أحد أطياف المجتمع العام من جهة وأحد المتعلمين والمطلعين على القافة الغربية من جهة أخرى -بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر- يُصنِّف كتابه "إتحاف الأدباء في مباحث الاحتراز من الوبا" وهذا الأمر ليس في الجزائر فقط بل حتى في الغرب وجل بلاد المسلمين، إذ كان الجميع يعتقد أنّه لا طاقة لهم لمواجهة هذه الأوبئة والمجاعات إلى بالاتجاه إلى الله لذا نجد هذا السبيل يُسلك بقوة ويطرق برغبة عند ظهور أي نوع من الأوبئة أو المجاعات، فمن ذلك تلك الصورة التي يرسمها العربي المشرفي للقارئ في أثناء الطاعون الذي ظهر في جل المناطق في بلاد المغرب بقوله:«...فحينئذ أعلنت الناس في هذه المدة بالاستغفار، وتوجَّهت إلى الله توجُّه خشوعٍ واضطرارٍ، وأكثرت التصدق فيه بأن بذلوا الطعام للفقراء ولأيتام ولجأوا إلى المولى بقراءة القران يتنفلون به في اليل البهيم والناس نيام، وسردت في سائر المساجد أحاديث البخاري والشفا حتّى حصل بإذن الله الشفا...» [1] ومنه أيضا ما نقف عليه في إحدى أسئلة العوام إلى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية حينها حول مشروعية قراءة الأذان بين المغرب والعشاء لدفع أذى الطاعون والوباء في بلدة حل بها هذا الوباء[2].

ولعلَّ مِن أبرز الأمثلة التي يمكنها أن تصوِّر لنا حقيقة هذه التَّصورات في المخيال الجماعي ما نقف عليه في الوباء الذي حل بالجزائر سنة (1740م) والذي توره المصادر الأرشيفية المختلفة وتتحدَّث عن أثره الكبير[3]، والذي كان السبب المباشر فيه هو نوع التفسيرات التي كان فسّر بها داي الجزائر التَّحذيرات التي قدَّمها له نائب القنصل الفرنسي حيال خطر دخول ركاب السّفينة التي تحمل الوباء دون إخضاعها للحجر الصّحي لمدَّة أربعين يوما على الأقل، فنقف في مذكرات الأب "بيير فاروكس" على الكلام الذي رد به داي الجزائر حينها على نائب القنصل الفرنسي بقوله:«...استطيع أن أفهم خوفك الكبير وهذا بسبب كونك مسيحيا،...أمَّا أنا فمسلمٌ تركيٌّ لا أخاف مِن الطَّاعون أو مما يكون قُدِّر لهذه المدينة، فماذا تريدني أن أفعل مِن أجل هذا الطَّاعون الذي تترقبه؟ إنَّنا أسوء وأشد مِن الطَّاعون وإذا كان يجري على شيء فليفعه فإنَّنا بإذن الله لا نخافه ولا نهابه ونحن له بالمرصد في كل حال...» [4] فإن تقرَّر هذا تبين مدى تجذر التفسير الديني العقدي لهذه الظواهر كنوع من أنواع الهروب من القيام بالإجراءات التي يفترض القيام بها وشكل من أشكال التَّنصل مِن المسؤولية.

كما نقف إضافة على ما مرَّ بنا على أنماط أخرى لمواجهة الوباء منها محاولة الابتعاد عن طريقه، فمن ذلك محاولة التُّجار تقليل خطر الإصابة بالوباء عن طريق إغلاق محلاتهم كما أوردته بعض مذكرات

---

[1] - العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، ص192.

[2] - B.O.A : HAT. Do : N°1656. Gömlek N°102. Tarih 1222.Za.29. Belg 01.

[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 266-271. 08/06/1740.

[4] - Pierre Faroux : M.C.M., Tome 3, P31.

الآباء والرهبان مثلما مرّ ذِكره[1]، أو يكون الابتعاد عن طريق هذا الوباء ذلك بالهجرة مِن المدن الكبرى نحو الأرياف أو المناطق البعيدة عن الزحام، كما هو الحال مع العديد من القبائل التي كان أفرادها يقطنون مدينة الجزائر من أجل العمل، وبمجرد أن يتيقنوا من خطر الوباء ينتقلون إلى قراهم في الجبال والتي تعتبر محصن ضد الطواعين، وهو ما حدث في العديد من المرات، فنقف عليه مثلا كردة فعل سنة (1817م) إذ ينقل لنا مارشيكا نزوج سكان القبائل واليهود إلى خارج مدينة الجزائر بعد الوباء الذي ضربها هذه السنة حتى كادت تعد المدينة خالية من الناس[2] ونفس الأمر نقف عليه مع سكان مدينة وهران عندما اجتاح داء الكوليرا المدينة إذ أسرع السكان كرد فعل لتجنبه الاتجاه إلى بعض المدن الأخرى مثل مستغانم ومعسكر وهو ما أدى لاحقا إلى انتشار الوباء بشكل كبير وأدى إلى سقوط ما يقارب 1457ضحية خلال شهر واحد في مدينة معسكر وحدها[3].

وهذا لا يعني أنّ كلّ النّاس كان تبقى متفرِّجة على الوباء ولا تُحرك ساكنا إلاّ بعد وقوعه، إذ يتحدّث الأب "بواير" عن قيام أحد السُّكان باستفساره عن الطرق الأمثل لتجنب الوباء، فلما شرحه له ذلك نقل لنا هذا الأب أنه وجد هذا الشخص يقوم فعليا بكل ما من شأنه تجنيبه وأهله خطر الإصابة بالوباء فيقوم فعلا بعدد من الاحتياطات إلا أنَّ الأب المذكور رأى أنّها قد لا تكون كافية إذ معظم السكان لا يلتزمون بهذه لا احتياطات[4]، غير أن ما يهمنا في هذا الكلام هو أنّه وجد فعلا مَن كان يسأل ويستفسر عن الاحتياطات الواجب اتباعها في حالة الإصابة أو ظهور الوباء وهو ما يعني ضِمنيا أنَّ الموقف مِن الوباء و التَّعامل معه ضمن الفئة الواحدة كان يختلف وبالتالي فلا يمكن أن نُصدر حُكما مُطلقا يدخل في ضمنه جميع أفراد الفئة الواحدة، وإن كان الغالب هو ما سنشير إليه.

أمَّا تصرُّف فئة النَّصارى واليهود عند وقوع الأزمات الصِّحية والغذائية فقد كان أشدَّ حيطةً، إذ نرى العديد مِن الأباء أو الرَّحالة يُشيرون إلى محاولة عدم الاحتكاك مع المرضى أو مع العامة تجنباً لمسببات انتقال المرض إليهم، كما نجدهم يقومون بإلغاء بعض الاحتفالات الدِّينية التي كانت ترعاها الكنيسة خوفا من تفشي الوباء وقد تمَّ فعلا إلغاء عدد مِن الاحتفالات بالمناسبات الدينة في مدينة الجزائر سنة (1741م) خوفا من الوباء[5].

---

[1] - Arnoult Bosssu :M.C.M, Tome 3, P227.
[2] - Jean Marchika :op.cit., P156.
[3] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P10.
[4] - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 196.
[5] - Poirier Dubourg : M.C.M. T3, P109.

الأمر نفسه نقف عليه فيما يورده الأب "أرنولت باسو" إذ يشير إلى التّعليمات التي أُلزِم بها المسيحيون ممّن يشبه بإصابته بالطّاعون أو الجدري أو شيء من هذا القبيل، فتحدّث عن ضرورة أن يقوم المصاب بالمرض بالأمور الأساسية للعبادة وحده وبعيدا عن الاحتكاك بأي طرف مِن الكنيسة أو عملها لذا فإنَّه يوقد الشُّموع ويتلو التراتيم ويعمل طقوس القداس ويقوم بتغير ملابسه لوحده دون الاستعانة بغيره بما يضمن على الأقل عدم انتقال المرض في حالة ثبوته من المريض إلى غيره، كما أنه كان يحضر على المريض الدخول مباشرة للاعتراف بذنوبه إلى خلوة الرهبان إلاَّ ومعه من يدق بجرس صغير للدّلالة على أنَّ الوافد للاعتراف هو شخص مريض، ويحمل الأخير معه إسفنجة تكون مبلولة بالخل مِن أجل التّعقيم على أن يبقى طيلة فترة الاعتراف بعيدا بمسافة عن الرّاهب تختلف هذه المسافة باختلاف مرحلة المرض وظهور أعراضه على المصاب. بل تورد هذه المصادر أنَّ المصاب كان مُضطراً قبل دخوله الكنيسة إن سُمح له بذلك أن يغسل وجهه وكفيه بالخل[1].

وهو ما يحملنا على القول أن بعض الإجراءات المتخذة من قبل السلطة السياسية في صورة الدايات والبابات وبعض الإجراءات المعتمدة من رجال الدين الرهبان والأحبار كانت في غالبها لديها الحد الأدنى من بعد النظر في عملية انتقال وتفشي الأمراض أو بنت مجموعة من الفرضيات التي تحكم تنقل الأوبئة والأمراض أما الطبقة العامة من الشعب فلم تكن كلها بنفس مستوى "حمدان خوجة" العلمي ما لم يتح لها حماية نفسها من أعراض تفشي الأوبئة، وهو ما جعل العديد من الأوبئة تجد في سكان الإيالة الحاضنة الممتاز للأوبئة وانتشارها. وبالتالي فإن أصل هذه الأمور يكمن في البنية الذهنية داخل المجتمع في حد ذاته، فحتى لو افترضنا أنَّ السلطة ظلت مقصرة في واجباتها الأساسية لمنع تفشي وانتقال الأوبئة فإن المجتمع بدوره وذهنته ساهمت في بقاء الأوبئة وتفشيها. وبالتالي فكل من السلطة الحاكمة بتعنتها وسكان الإيالة بجهلهم التدابير الأساسية ساهما في سوء الأوضاع خلال الأزمات الصحية والأزمات الغذائية.

تفسيرات العلماء للمجاعات وانتشار الوباء

تباينت تفسيرات بين الفئات المختلفة داخل مجتمع إيالة الجزائر لسبب تفشي الأوبئة وشحُّ الأمطار كلّ بحسب اتجاهه وثقافته، فنجد أنّ العلماء مثلا: كانوا يمثلون شريحة كبيرة تنظر إلى ورود المجاعات وانتشار الأوبئة نظرة دينية وليدة البيئة والمحيط الذين يعيشون فيهما، إذ نجدهم يفسرون الظاهرتين تفسيرات دينية

[1] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P233.

ليست وليدة اجتهاداتهم الخاصة وإنما يمكن القول إنَّها نتيجة الموروث التراثي الذي ورثه هؤلاء العلماء والنشأة الدينية للمجتمع.

ويتأتى التَّفسير الديني في صورة عقاب إلاهي للمجتمع بسبب الابتعاد عن تعاليم الدين في طليعة هذه التبريرات، وهذه النَّظرة في حقيقتها ترجع إلى قرون سابقة للوجود الإسلامي ككل، إذ نجد لها أثراً في الفكر اليوناني والرُّوماني القديم، فتفسَّر هذه الأزمات مرَّة على أنَّها صنيعة السَّحرة[1]، ومرة أخرى على أنَّها تجليات لغضب الآلهة كما هو الحال في حالة وباء الجدري الذي ضرب أثينا سنة (429ق.م) وصاحبه زلزال مُدمّر[2]، ثمّ نقف على الاتجاه الثيولوجي في تفسيرات الأوبئة والمجاعات بنفس النَّمط تقريبا لدى كل شعوب وحضارات العالم فنقف عليها في حضارة الشَّرق الأقصى في صورة الإله (كالت) عند الهنود والذي نُسبت له معظم الأزمات باعتباره يمثل الغضب والسَّخط[3]، وتوجد بعض الثقافات اعتبرت الطَّاعون والمجاعة والقحط ما هي إلاَّ لعنات مِن اللَّعنات التي ترمي بها النجوم أو الكواكب على سكان الأرض بسبب معاصيهم[4].

كما نجد لهذا الفكر امتداد ديني احتوته التَّفسيرات عند أصحاب الكتب السماوية سواء منهم أحبار اليهود أو رُهبان النّصارى، وقد حادت بعض الشَّيء السلُّوكيات التفسيرية التي صاحبة ظهور الأزمات الغذائية والصحية عند هؤلاء القوم، وإن كانت في محصّلتها لا تعمل على أكثر مِن تثبيت هذا الفهم وجعله نوع من أنواع الاستسلام اللاشعوري لدى الفئات المغلوبة على أمرها لهذه الأزمات، ولعلَّ هذا ما يبِرّر اعتبار الطّاعون في الكثير مِن الحالات شكل مِن أشكال العقاب الإلهي للعاصيين، وأداة غضب إلهي ضد المعتدين، بل صُوِّر في صورة الشِّرير الذي يقضي على العصاة نتيجة أعمالهم[5].

فمِن التَّفسيرات التي صاحبت ظهور الأوبئة اعتقد الكثير من العلماء وأفراد المجتمع أنّ سبب الأوبئة والطَّواعين هي كثرة ذنوب العباد والآثام والمعاصي فنجد المشرفي يتبرَّأ لله مما اجترحه المجتمع مِن الخطايا والذنوب حتى يرفع الله عليهم هذا البلاء بقوله : «..ونستغفرك من آثام ارتكبناها فجرت إلينا الطعن والطَّاعون، ومن أجلها ارتفعت البركة في الأعمار والأمطار والأسعار... »[6] وهو في هذا لا يختلف كثيرا عن التفسيرات التي كان يفسر بها مؤرخو المغرب الأقصى عودة الأوبئة والمجاعات كل حين وفي هذا

---

1 - A.N.M : Anné1843, P1048.

2 - Boucher Hubert : op.cit, P11.

3 - Onetti : le choléra morbus asiatique, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888, P05.

4 - Crouzet Stanislas : op.cit., P01.

5 - Boucher Hubert : op.cit., P11.

6 - العربي المشرفي: المرجع السابق، ص175.

يقول الأمر يقول محمّد الضعيف مثلا: «...وكل هذا من كثرة المناكر وما ظهر مِن الفُحشى مع قلة الأحكام فما أهون الخلق على خالقه إن خالفوا أمره ونهيه..»[1] وحتى الجفاف اعتبروه كالوباء عقابا إلاهيا مُسلَّطاً عليهم بما اقترفته أيديهم من الآثام، لذا نجد محاولات تصحيح ذلك تكون عن طريق المسار المعاكس أي بالتوبة والإنابة، وقد ابتدعت المجتمعات الإسلامية عامة أساليب لمحاولة التّملص مِن الأزمات الصِّحية والغذائية عن طريق حِلق الذِّكر الجماعية وقراءة كتب بعينها وهي أولى الآلية التي طبقتها المجتمعات الإسلامية حينها فذكر "البسطيمي" ما كان منتشرا في زمانه من قراءة بعض أمهات الكتب الإسلامية لرفع الوباء والشدائد قائلا: «...فالشَّافعية يتبرّكون بقراءة "التنبيه" في أيام الوباء وهو كتابٌ مباركٌ...والمالكية يتبرّكون في أيام الطَّاعون بقراءة "الموطأ"...و"الحنابلة" يتبرّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة "الخرقي" لأبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي، وجماعة مِن العلماء يتبركون في أيام الطَّاعون بقراءة "الشِّفا" للقاضي عياض...والصوفية يتبركون بقراءة كتاب "قوت القلوب" لشيخ العارفين أبي طالب المكي...وجمهور العلماء في أيام الوباء والطَّاعون وغير ذلك من الآفات السماوية يتبركون بقراءة كتاب "البخاري" فإنَّه الجنَّة الواقية في آفات الشَّدائد...ومِن العلماء مَن يتبرّكون بكتاب "مسلم" وهو كتاب جليل الشَّأن باهر البرهان...»[2] وهو ما فُسر بكونه نتيجة عجز وافتقار المسلمين لوسائل مواجهة الطبيعة[3].

لذا نجد أن أحبار اليهود مثلا خلال إحدى الأوبئة التي ألمت بإيالة الجزائر يعللون لأصحاب الديانة اليهودية ذلك بسبب المعاصي والآثام التي يقترفونها، بل وفي بعض الأحيان يتحملون آثار هذه التفسيرات إذ نجد على سبيل المثال في سنوات (1741م) (1718م) (1785م) وهو ما يستجلى أيضا في عدد من الأوبئة كان من أكبر ضحاياها اليهود[4]، وقد حصل أن اتفق الأحبار اليهود مع العلماء والفقهاء المسلمين ضد أبناء دينهم بحكم أنّهم عصاة لله ويجب عليهم أن يدفعوا ثمن معصيتهم. وتؤكد التفسيرات التي لدى أحبار الديانة اليهودية على ذلك.

مثلما أن المسيحيون يفسرون مآلات الأمر إلى عدم الالتزام بالأوامر المسيحية، الأمر الذي نجم عنه سخط الله وغضبه فعاقب سكان مدينة الجزائر بهذه الآفات، ولعل هذا ما نقف عليه في أكثر من تفسير، فمن ذلك نجد مثلا اعتبار وباء الجدري إرادة إلاهية خالصة سببها الرئيس هو المعاصي[5]، كما أنَّ الرهبان في حديثهم للمصابين بالطَّاعون يطالبونهم بالتوبة والإنابة والعودة إلى الله وهو ما نصَّ عليه الأب

[1] - محمد الأمين بزاز: المرجع السابق، ص67.

[2] - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، [و/19].

[3] - رزونبرجي وحميد التركي: المرجع نفسه، ص 161.

[4] - Gazette de France :1787, N° 67. P331.

[5] - Delvaille Camille : op.cit., P2.

(Arnoult Bossu) عندما أشار إلى الرسالة التي أرسلها الرُّهبان للرعايا الأوروبيين مِن أجل الوقاية مِن الوباء[1]، ومِن ذلك أيضا أَنَّهم كانوا يدعون المرضى والأصحاء إلى العودة إلى الصلوات وعدم الركون للحياة، بل كثيرا ما كان الرُّهبان يتجّهون إلى الدَّعوة إلى الصلوات العامة في الكنيسة حتَّى يستجيب الله لهم ويرفع عنهم البلاء[2].

والأمر لم يختلف كثيرا لدى المجتمع الجزائري وعلماؤه خلال العهد العثماني، وإن كان أوجه التفسير تختلف بين العلماء والفقهاء من جهة والعامة مِن النَّاس من جهة ثانية؛ إذ نجد أنّ العلماء يسلّمون بأنّ الوباء والمجاعات كلها تقديرٌ إلاهي، ويرجعون في ذلك إلى الآثار التي تؤكد على ذلك، وبالأخصّ ما نقف عليه في اعتراض "أبو عبيدة بن الجراح" على "عمر بن الخطاب" -رضي الله عنهما- في شأن عدم دخول الشام؛ لوباء فشي فيها، بقول "أبو عبيدة بن الجراح": أَفِرارٌ مِن قدر الله!» فقال عمر -رادا هذا الاعتراض- :«لو غيرُكَ قالها يا أبا عبيدةَ، نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله» والأثر أورده البخاري في صحيحه[3]. وهذا الأثر وإن كان يقرر بأن هذه الأوبئة قدر من الله لكنه لم يستسلم لها كما نجد العوام تفعل، وإنَّما إقراره لها إيمانا بالله وسعيه في الابتعاد عنها وتجنبها أيضا كان يرى فيه إتماما لقدر الله، وسعيا في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ نقف في حديث آخر في نفس الباب من صحيح البخاري حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**»[4].

أمَّا العوام فنجد بأنّ لهم العديد مِن التَّفسيرات السطحية والتي تتشابك بشكل وطيد مع الخرافات والتأويلات اللامنطقية؛ فيصبح بها انتشار الأوبئة وحدوث المجاعات مُستند على التّعليل الميتافيزيقي أو التفسير الثيولوجي القار في المخيال الجمعي لدى النّاس[5]، فمن ذلك أن نجدهم يفسرون الوباء أو القحط بتولي عائلة ما للشّأن عام في الدولة، وهو ما نستنطقه مِن شهادة "ابن المفتي" في تقيداته إذ يذكر انتشر اعتقاد بين سكان مدينة الجزائر مفادها أنَّ تولية غير ذرية سيدي السَّعيد قدورة خِطَّة الفتوى قد يجلب البلاء والوباء والقحط للبلاد فيقول: «..وهذا الحاج السّعيد كان مِن أَبْلد مخلوقات الله تعالى، ولم يكن يفرّق بين صياح الدِّيك وثغاء الخروف، وكان خبيثا، وصل إلى هذه الخطة بكره ونفور، وجاءت توليته بسبب أنَّ أهل المدينة يُجِلُّون آباءه وأسلافه ويستبشرون بهذه العائلة، وكانوا يعتقدون بل حتَّى يتيقَّنُون أنَّ البركة تلتصق

---

1 -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P231.
2 -Ibid. P231.
3 – من حديث في صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم:5729.
4 – صحيح، أخرجه البخاري، كتاب الطب، ما يذكر في الطاعون، حديث رقم 5719.
5 - Boucher Hubert : op.cit., P11.

حتَّى بالأبناء في سِنِّ الحداثة، وكثير مِن محاورتنا معهم في هذا المعنى، وهو:(أنَّ المدينة ما لم يتولَّ فيها مُفْتٍ ينتسب لذرية سيدي السَّعيد فإنَّه سينهال عليها وابلٌ مِن البؤس كغلاء الأسعار والزلزلة والصَّاعقة وأشياء أخرى)[1] وهذا ما أدى إلى تولية الفتوى والقضاء إلى أفراد من هذه العائلة ممن ليس أهلا لها.

وبهذا يظهر أنّ رجال الدين ومع اختلاف معتقداتهم يتفقون إلى حد ما حول مركزية القضاء فيما حل بالمجتمع مِن أزمات، لذا بقيت فكرة أن الله هو مَن كتب عليهم هذا العقاب وبالتالي يجب الرِّضا به[2]، ويرون الحلَّ يبدأ مِن العودة إلى الله، لكن الجزئية التي يختلفون حولها هي إلى أين ينتهي الحل، فإن اتَّفق أنَّ له جزء رئيسي ليرفع البلاء ممثلا مثلما رأينا في التوبة والاستغفار، فإنَّ رجال الديانات الثلاث اختلفوا فيما دون ذلك من وجوب الاحتراز والتداوي والفرار من الوباء.

فإن تقرَّر ما سلف لزم علينا القول أنّ الاختلاف الذي كان في مستويات التفسير لا يعني بأي حال بطلانها بشكل عام، فتواجد التفسيرات الدينية من حيث أصلها لا تتعارض مع التفسيرات التي نقف عليها اليوم بشكل علمي، وقد تبيينا لنا بعد استعراض التفسيرات المختلفة في الثقافات المتباينة أنَّه توجد علاقة وثيقة بين البنية الدينية للمجتمعات المختلفة وتفسيراتها للأزمات العرضية مع اختلاف في درجة التعابير الذهنية المعبرة بها عن حالات الاستسلام والانقياد لما يفرضه الأمر الواقع آنئذ.

---

[1] - حسين بن رجب شاوش ابن المفتي : تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ط1، ص107

[2] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P139.

الفصل الخامس: الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها الحياتية.

أولا: النتائج الاقتصادية المترتبة عن المجاعات وانتشار الأوبئة

ثانيا: الانعكاسات الديموغرافية وتأثيراتها في التركيبة السكانية

ثالثا: العواقب الاجتماعية لأزمات الغذاء وانتشار الوباء

رابعا: انعكاس الأزمات الصحية والغذائية على الحياة الدينية والفكرية.

الانعكاسات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة:

تعدَّدت النتائج المترتبة على ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة، فكانت سمة أساسية لرسم الحياة الاقتصادية داخل مجتمع الإيالة الجزائرية خلال الفترة المعنية بالدِّراسة (1700-1830)، واختلفت التأثيرات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة باختلاف الكثافة السكانية للمنطقة الموبوءة والفترة الزمنية التي استقرت المجاعة أو الوباء بها، وهذا ما سنجد تأثيراته مجسَّدة في أمثلة كثيرة وفي مواطن مختلفة.

واعتقد أنّه لا يوجد وصف سيستوعب ما سنتحدَّث عنه مثل ذلك الوصف الذي أورده "حمدان بن عثمان خوجة" في مصنَّفِه إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز مِن الوباء عند قوله: «..فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحسنة، فأقفرَّت معالم البلاد وتشوشت أحوال العباد واضمحل العلم وذووا الاستعداد، وانقرض مِن العساكر مَن كان عدة في العمران والفلوات، وخلف جميعهم بعد العناء والتعب خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات..»[1]

قد يتعجَّب المطَّلع على هذا المبحث حديثنا عن أي جانب إيجابي للطَّاعون على الحياة الأهالي، وإن وجد كيف له أن يكون إيجابيا بالفعل؟

نعم يمكن يعد بعض ما ترتَّب عن الطَّاعون بالنسبة للأهالي خاصة منهم مَن كانوا في حالة عوز شديد شكل من أشكال الربح العاجل أو شكل مِن أشكال إدخال الأموال، إذ نقف على وثيقة في غاية الأهمية صادرة عن الشَّركة الإفريقية الفرنسية في مدينة القالة، تُقدِّم هذه الوثائق نوعا مِن المعطيات والتَّفاصيل عن الأموال المصروفة على حالة مرضية لأحد الفرنسيين الذين سقطوا نتيجة وباء سنة (1818م)

[1] – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص4.

القيمة بالريال	المهمة
النقل	4
استضافة المريض	72
لباس	6
الأكل	12
التطبيب	6
حمل الجثة إلى المقبرة	48
حفر القبر	24
مصاريف الخدمات في البيت	12
المجموع	**184**

جدول مصاريف الخاصة بالسيد فرنسوا أدول المتوفي بالطاعون بتاريخ (1818/02/04م)

المصدر : وثيقة أرشيفية ضمن وثائق الشركة الإفريقية[1]

بحيث يلاحظ قيمة الأموال التي يجنيها السُّكان نتيجة الأعمال التي يقومون بها، خاصة أحد اليهود الذي قبل استضافة هذه الحالة المرضية فاستفاد مِن (72ريال) مثلما نجد استفادة الأربع أشخاص الذين يحملون الجثة للدفن من (48 ريال) واستفادة من يحفر القبر مِن قيمة معتبرة تقدر بـ(24 ريال) ولعل هذا يميل بنا إلى بعض الاستنتاجات المركزية في موضوع هذا البحث، إذ نجد أنَّه ومع الخطر المعتبر لتبعات هذه الأعمال على من يحتك بالمريض فإن ذلك لم يثن السكان خاصة منهم اليهود عن هذا العمل[2] والاستفادة المالية، نفس الأمر نجده عند أولئك الذين يغامرون بحياتهم نظير (48 ريال) من أجل إيصال الجثة إلى المقبرة، وهذه القِيم تفيدنا أيضا في استجلاء الأمور التي كان يهبها النَّاس عند وقوع الطَّاعون، إذ تظهر أعلى قيمة أنها لمن يستضيف المريض في بيته ويرعاه خلال أيام مرضه، وهذا يدل على أنَّه لم يكن مِن السهل إيجاد مَن يقوم بهذه المهمة، وإلاَّ إن وجد من يقوم بهذا الأمر قلَّ سِعرها لا محالة، كما يمكننا أن نستقرأ مِن خلال هذه الوثيقة أمرين مهمين أحدهما صحيح في الغالب وهما:

أولا: أنّ النصارى (الشركة الإفريقية الفرنسية) كانوا يفضلون التعامل مع اليهود في هكذا مهام بسبب -في كل ما تعلّق بالطاعون- ذلك لأنهم يكونون أقل عرضة للوباء من المسلمين.

---

[1] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P235.
[2] - Ibid. P235.

ثانيا: أنّ المسلمين في هكذا حالات يمكن أنهم كانوا يرون أنه ليس من الحكمة أو الدّين استضافة النّصارى المصابين بالطّاعون ولو كان ذلك مقابل مبلغ من المال.

على كل حال فالغرض من إيراد هذه الوثيقة وتتبع ما يستشكل غرضه الرئيس تبيان أوجه ما يمكن أن نسميه الربح العاجل، لأننا نعي أنه في الآجل يمكن أنه قد ترتب عن هذا الربح استجلاب خطر الموت لا للفرد القريب مِن الحالة المرضية لوحده ولكن لمحيطيه القريب مُمثلاً في عائلته، والمحيط البعيد مُمثلاً في الفئة التي ينتمي إليها، أي أنَّ الربح المالي قد يحصل فعلا نظير هذه الخدمات وهو ما يهمنا إثباته في هذا المبحث.

اضطراب الحياة التجارية أثناء الأزمات الصحية والغذائية

ومن تأثيرات البالغة الأثر أيضا للأوبئة والمجاعات على الحياة الاقتصادية أن تضطرب الحياة التجارية والاقتصادية لتتوقف تماما في بعض الحالات، إذ كثيرا ما كانت المجاعة مثلا سبباً في توقيف التَّبادل التِّجاري مع الدُّول الأوروبية، خاصة فيما يتعلَّق بالقمح أو الشعير وينسحب الأمر على كل المواد الغذائية التي كانت تصدر من الجزائر باتجاه أوروبا، فنقف مثلا في سنة (1703م) على توقف كل ملامح التِّجارة الخارجية حسب ما تورده إحدى المراسلات القنصلية[1].

وبلغ الأمر مثلا سنة (1130هـ/1718م) أن رفض المتعاملين التجاريين في مرسيليا استلام أي شيء يكون مصدره الجزائر خوفا من إصابتهم بالوباء الذي شاع صيته في الجزائر، بل إنَّ بعض التُّجار رفض حتى استلام الرسائل التي كانت تصله مِن ممثليه في الجزائر خوفا مِن انتقال الوباء إليهم من خلالها[2].

يتكرّر صور التّأثير الاقتصادي للأوبئة على الحياة التِّجارية، فنجد في إحدى المراسلات القنصلية في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مؤرَّخة بالرابع عشر ماي (1741م) من طرف القنصل العام الفرنسي في الجزائر السيد "جيفال" يقوم فيها بإخطار السُّلطات التجارية في بلاده بضرورة تعليق التَّعاملات التِّجارية مع إيالة الجزائر مؤقتا إلى أن تتخلَّص مِن أسباب هذا التَّعليق، والتي يأتي مِن ضمنها أيضا التخلُّص من الطاعون[3]، إضافة إلى ضرورة توفير الأمن وتنظيم العمل التجاري والعلاقات مع الإيالات المجاورة، وقد كان لهذه المراسلة سببها المنطقي إذ علمنا أنَّ فرنسا بدوها كانت تعاني خلال هذه المرحلة بسبب تزايد النشاط الوبائي وصعوبة السيطرة عليه، وخاصة في المدن الساحلية ذات العلاقات التجارية القوية مع الجزائر: كمدينة مرسيليا. وجزيرة كورسيكا

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes : F° 294-297. 12/jui/1703.
[2] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P298.
[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes: F° 292-293. 14/05/1741.

كما نقف على نفس المعنى إذ يتحدَّث الأب "باسو" عن تعليق التبادلات التجارية بين الإيالة وغيرها مِن الدُّول الأوروبية سنة (1752م) بسبب الوباء الذي كان يضرب المدينة خلال تلك السنة، وقد سعى داي الجزائر في ربيع سنة (1753م) لإعادة تفعيل التبادلات التجارية غير أنَّه لم يستطع النَّجاح في ذلك بسبب عودة الوفيات في صفوف ساكنة المدينة[1].

مرَّة أخرى يؤدي تواجد الوباء في الجزائر إلى الحد مِن النَّشاط التجاري بين الإيالة والمملكة الفرنسية، فنقف في شهادات الأباء الرهبان الذين كانوا يستقرُّون في الجزائر لخدمة الأسرى والعبيد والتُّجار الأوروبيين في المدينة على إيراد معلومات في غاية الأهمية، تتمثَّل في رد فعل التُّجار الذين كانوا في المدينة نتيجة انتشار الوباء في صيف (1752م) والذي حمل العديد مِن هؤلاء التُّجار على إغلاق محلاتهم والانصراف إلى التربُّص في بيوتهم بعيدا عن تبعات هذا الوباء، فإن تقرَّر هذا صرفنا الحديث إلى الانعكاس الشرطي لهذا الأمر بدون أدنى ريب على النشاط التجاري أيضا، فنقف على ما يؤكد هذا الأمر من خلال إشارة عَرضية نستنبط من خلالها تلميح إلى انكماش التَّبادلات التِّجارية بين الإيالة الجزائرية والدُّول الأوروبية[2]؛ بسبب تفشى وباء سنة (1752م) وخوف الدول الأوروبية من انتقاله إليها، وهو ما سيؤدي إلى ارتفاع في أسعار المواد التجارية كنتيجة طبيعية لقلّة العرض ومحافظة الطلب على نفس مستواها الطبيعي، فإن تقرَّر هذا الأمر أمكننا الحديث عن العلاقة الاطرادية بين انتشار الوباء وانكماش التبادلات التجارية وارتفاع الأسعار الغذائية (وباء+ انكماش تبادلات تجارية= ارتفاع أسعار الغذاء).

مثلما نقف في نطاق آخر على مطالبة القنصليات الأوروبية في مدينة الجزائر من حكامها إلزام سفن الإيالة بالابتعاد عن سفن بلدانهم مهما كان السبب خوفا من انتقال الأوبئة إلى السفن الأوروبية، طالما بقيت الجزائر تعاني من الوباء لخوف القناصل من انتقال الوباء إلى بلدانهم، وهو ما حدث فعلا سنة (1233هـ/1818م) في فترة حكم الداي حسين[3]. الأمر الذي كان له انعكاس فعلي على الحركة التجارية وتبادل السلع في المسار البحري الرابط بين الإيالة والموانئ الفرنسية خاصة والأوروبية عامة.

وهو ما تؤكده إحدى المراسلات السابقة لهذا التاريخ والتي كانت في ربيع (1756م) بحيث إشارات إلى أنَّه يوجد بعض الإشكالات في التَّبادلات التِّجارية مع الإيالة بسبب كون الطَّاعون منتشراً بها في العديد مِن المدن؛ لذا رأت المراسلة أنَّه مِن الأفضل التريث قليلا في التبادلات التجارية[4]، فإنَّ تحقق ذلك صرفنا البيان إلى القول أنَّ العلاقات التِّجارية كانت تعرف الكثير من محطات التوقُّف الإجبارية في حالة

[1] -Arnoult Bosssu : M.C.M., T 3, P228.
[2] -Ibid.
[3] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P383.
[4] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes : F° 44-45. 24/03/1756.

كان الطَّاعون أو الوباء مُستشرٍ في الإيالة بشكل قوي، إذ نقف في إحدى المراسلات القنصلية على تصريح بأنَّ العلاقة التِّجارية كانت متوقفة طيلة خمسة أشهر خلال سنة (1752م) بسبب الطَّاعون الذي كان ينخر الإيالة[1].

وإذا عرف ما سبق فمن الواجب أن نصرف البيان شقٍّ آخرٍ مِن التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصِّحية والغذائية على المجال الاقتصادي العام، إذ أنَّه بعد إحدى الطَّواعين التي لحقت مدينة الجزائر لم يُوجد في مدينة الجزائر كلُّها شخصٌ واحدٌ يمكن اعتباره مِن أهل الحرفة الحقيقين في المدينة الجزائر[2]، وإن كانا نعتقد أنّ هذا التّصوير مبالغ فيه كثيراً إلاّ أننا متأكدين مِن التَّأثير السَّلبي لمثل هذه الأوبئة على الحياة الاقتصادية العامة، إذ كانت غالبا ما تتعطَّل الأركان التجارية مع الدول الأوروبية بسب التوجس من الطَّاعون[3] أو يمنع شحن أي سفينة بالمواد الغذائية في حالة مهاجمة الجراد أو ضعف مردود المياه للسقي أو ترقب مجاعة ما كما حدث سنة (1815م)[4].

ومِن صور التّأثير السلبي لهذه الطواعين أيضا على أهل البلاد مِن النَّاحية الاقتصادية واستفادت غيرهم مِن هذا المصاب أنْ استفادت الشركة الإفريقية في عنابة مِن تزايد كميات الصُّوف المصُدَّرة إلى أوروبا مِن موانئ عنابة؛ بسبب قلت اليد العاملة التي أتى عليها طاعون سنة (1785م) وعجز الحرفين عن استغلال الكميات الكبيرة لهذه المادة[5].

نفس صيغ الانعكاس السِّلبي على الجزائر والإيجابي على الدُّول الأوروبية نقف عليها في نتائج الطَّاعون الذي ضرب الذ ألم بالجزائر بعد سنتين أي سنة (1201هـ/1787م) بحيث أدى إلى نقص اليد العاملة ونقص الكثافة السُّكانية معا، ما انعكس على سوق طلب القمح، أي انخفض الطلب على القمح خلال صيف هذه السنة، ما استفادت منه الشركة الإفريقية بعنابة بإن استغلت الموقف وزادت من كمية صادراتها مِن القمح الجزائري باتجاه فرنسا إلى ما يقارب (25,000 طن) بعدما كانت في حدود ما بين (10-12 ألف طن)[6] أي أن كمية القمح المصدر تضاعفت تقريبا في نفس الفترة التي كانت فرنسا في أمس الحاجة إلى القمح.

نقف على شكل آخرٍ مِن أشكال انعكاس الأزمة على الاقتصاد الخاص بالبيلك أو على خزينة البيلك، إذ أنَّ قيام بعض البايات في بعض الأحيان بمحاولة مساعدة الأهالي على تجاوز أزمة الجوع مِن

---

1 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 87-94. 07/Déc/1752.
2 - Lucette Valensi : op.cit., P21.
3 - Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P229.
4 - Lucette Valensi : op.cit., P24.
5 - Ibid. P21.
6 - Venture de Paradis : loc.cit., Anne 1895, N°39,P282.

خلال اشتراء القمح من الأسواق الخارجية وتوفيره في السُّوق الداخلي بنفس السعر أو مجانا مثلما قام بذلك محمد باي الكبير سنة (1199هـ/1785م) أو ما سمي حينها بـ"عام الشرّ" كما أنَّ إعفاء القبائل المخزنية وحتَّى المتعاونة والممانعة مِن دفع العُشور بسبب الوضع المعيشي السيء[1]، سيكون له تأثير لامحالة ولو بشكل نسبي على خزينة الباي، خاصة إذا ربطنا تلك المدة الزمنية بما كان يحيط بها من أشغال على رأسها مع محاولة "محمَّد باي الكبير" السَّيطرة على بعض التَّمردات الموجودة هنالك، ولعلّ مِن بين أسباب اتجاه الباي "محمَّد الكبير" لاحقا إلى الجنوب حاجة سلطته إلى أموال الضرائب التي كانت تدفعها بعض قبائل تلك الجهات لملك المغرب، فتحصيلها كان يؤدي في الغالب إلى تغطية العجز الناجم عن تقديم المساعدات إلى سكان البيلك، كما أن هذه الإعفاءات حقيقة كانت تحين لا أكثر وهو ما كان معمول به في العديد من الأماكن في الدولة العثمانية كما توضح الوثائق الأرشيفية المختلفة.

كما يتبين لنا الأثر الاقتصادي البارز للأزمات الصحية والغذائية من خلال تصرفات وتشريعات تلك المرحلة الزمنية التي دأب عليها بعض الحكام كداي الجزائر "علي خوجة" الذي أصر أثر الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر سنة (1232هـ/1817م) بإصدار أمر لجميع التُّجار بما فيهم اليهود أصحاب المحلات الموجودة في مدينة الجزائر بالعودة فورا إلى المدينة ومزاولة أنشطتهم؛ وهذا إثر فرار جلّهم إلى الأرياف خوفاً مِن أن ينالهم الوباء، وهو ما يرسم لنا صورة تعطل الأنشطة التجارية لا في حيزها الخارجي فقط مع الدول الأوروبية كما تم ذكره ولكن حتى على النطاق الداخلي المحلي، وهو الأمر الذي سينعكس على حياة المجتمع حتما، ما كان قد يؤدي إلى احتمال حدوث اضطرابات ما سياسية أو اقتصادية وهو أمر كانت ترفضه العقلية السياسية سواء عند علي خوجة[2] أو عند غيره، مثلما يفهم من هذا المرسوم أمور عديدة من بينها وجود هجرة جماعية للسُّكان مِن المدن الحضرية الكبرى إلى الأرياف والأحواز القريبة، وهو أولى ردَّات الفعل التي كانت تسلكها التجمعات البشرية، وهو ما له انعكاس على الحياة الاقتصادية بشكل عام لا في الوباء المذكور فقط وإنما في جل الأوبئة، فنجد مثلا المجلة الفرنسية تتحدث عن الحالة التجارية المعقدة في مدينة الجزائر سنة (1787م)؛ بسبب غياب أصحاب المحلات والحرفين عن مواضع عملهم وإغلاقها بشكل مؤقت حتى ينجلي الوباء[3] الذي كان في المدينة، الأمر الذي يجعل ما قام به "علي خوجة" أمراً طبيعيا للحفاظ على السَّير الطبيعي للحياة العامة.

[1] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.
[2] - J.-L.-G. Guyon : Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P376.
[3] - Gazette de France :1787, N° 67. 21.08.1787.

التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصحية والغذائية على فئات الهامش:

وإذا قد ظهر لنا جوانب من تأثيرات الطَّاعون والمجاعات على الجانب الاقتصادي في شقه السياسي العام ننتقل للحديث عن جوانب أخرى من التأثيرات الاقتصادية على الفئات الهشة أو على الهامش في التاريخ العثماني، إذ نجد أنَّ الأزمات المتحدث عنها لم تقتصر على فئة ما دون الفئات الأخرى، فنجد أنَّ الأزمات الطَّبيعية مثلما أثَّرت على السَّاكنة المحلية للمدن الجزائرية والإيالة ككلّ، نجدها قد أثَّرت في جوانب أخرى على السَّاكنة الوافدة إلى المدينة، خاصة منها فئة الأسرى النَّصارى.

ويسوقنا تتبع المصادر المختلفة إلى الوقوف على العديد مِن الأمثلة عن تأثير الأوبئة على فئة الأسرى من الأوروبيين من أوجه عِدَّة، منها أنَّ قيمة هؤلاء الأسرى مثلا قد ارتفعت سنة (1720م/1132هـ) إلى ثلاثة أضعاف ماكانت عليه[1]، وهذا لأسباب عديدة أهمها، اشتداد الأزمات الصحية والغذائية جعل الجميع في حاجة إلى يد عاملة للخدمة هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكننا أن نتحدث عن أثر قطع العلاقات بين الإيالة والباب العالي سنة (1711م) وانعكاسه المؤقت على نشاط القرصنة المنحصرة، ما ساهم في قلة وجود الأسرى وبالتالي ارتفاع أسعارهم. مثلما أدى موت عدد كبيرٍ مِن الأسرى خلال الأزمات الصحية إلى ارتفاع أسعارهم تلقائيا، ولم يظل الأمر حبيس الإيالة بل نجد انعكاسه حتَّى في المعاهدات الخارجية للإيالة فنجد على سبيل المثال السُّلطة تكون مجبرة على طلب العبيد بدل الأموال في حالات الصلح مع دول أخرى أو كشكل مِن أشكال الضرائب المستحقة والإتاوات المفروضة على دول أخرى، كما هو الحال سنة (1742م) بعد نتائج ذلك الوباء الذي حلَّ بإيالة الجزائر نفس السنة، فتورد إحدى الوثائق الأرشيفية الخاصة بوزارة الخارجية الفرنسية بأنَّ الدَّاي "علي باشا" قد طلب مِن أجل الصُّلح مع تونس مِن الأخيرة عدداً مِن العبيد ليغطي النقص الفادح لهذه الفئة في الجزائر بُعيد ذلك الوباء[2]، كما نجد أنَّه وخلال النِّصف الثاني من القرن الثامن عشر ارتفاع سعر فداء الأسرى سنة (1177هـ/1763م) لتعذر الحصول عليهم بسبب حاجة الأهالي لهم من أجل إقامة بعض المنشئات المختلفة[3].

وكثيرا ما أدت الأزمات الصحية إلى القضاء على أعداد كبرى من العبيد والأسرى إذ يذكر أنه من نتائج الوباء الذي كان بالجزائر سنة (1201هـ/1787م) قضاءه على جزء كبير مِن العبيد والأسرى المسيحين وقد بلغ عددهم ما بين (800-700 ضحية)[4]، بينما يرى "دي غرمونت" أنَّ عدد الضحايا

[1] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)P282.
[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes: F° 60-62. 23/08/1742.
[3] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)P314.
[4] - Venture de Paradis : op.cit., P52.

كان في حدود المئتان والأربع والعشرون مسيحيا في المرة الأولى وحوالي خمسمائة عند تجدُّده[1]، مع وجود ما يقارب من ألفي أسير قبيل هذه المدَّة[2].

كما نقف على وجه آخر من أوجه التأثير الاقتصادي للأزمات الغذائية والصِّحية على فئة الأسرى في نفس السياق لكن بزاوية معاكسة تماما، إذ بدل ارتفاع سعر الأسير كما جرت العادة نلاحظ تراجع سعره وانكسار قيمته المالية خاصة في حالة وجود الأزمات الغذائية، إذ يصبح العبد أو الأسير أرخص ما في يد الأهالي، فيسعون إلى التَّخلص مِن أحد المستهلكين للغذاء في البيت -ولو على قلته- لصالح بعض الكسب العاجل، وهو ما كان يؤدي في الغالب إلى تراجع أسعار الأسرى لكثرة العرض، وكثيرا ما اضطرَّ مَن في السُّلطة مِن كبار القوم والتُّجار إلى بيع ما بين أيدهم مِن الأسرى؛ حتى يضمنوا عدم خسارتهم في المجاعات أو الأوبئة بموتهم أو بفقدانهم لقيمتهم، وهو ما نجده يحدث في فترة حكم الداي "إبراهيم باشا" إذ أنَّه أثناء الوباء الذي ألمَّ بالجزائر سنة (1741م) اضطر عدد كبير من التُّجار وكبار الملاك إلى بيع عددا ممن تحت أيديهم مِن العبيد الجنويين بسعر رخيص، خوفا مِن أن يصيبهم ما أصاب البعض من زملائهم الآخرين في طاعون سنة (1740م)[3]

فإن سلمنا بذلك يمكننا أن نستنتج أنَّ المقدمات الماضية تقودنا إلى نتيجة مفادها أنّ عدد الأسرى تراجع إلى ثلاثة أضعاف عدد الأسرى قبل الوباء سنة (1720م/1132هـ) وبالتالي انعكس على سعر الفداء تلقائيا، كما أنَّ ندرة الأسرى إن حدثت قد تشترك فيه أمور عدة من أهمها: تأثير الطاعون وتأثُّر الإيالة بفرض قوانين جديدة تمنعها مِن القرصنة أو الأسر، وإن كان البعض يعترض على هذا الأمر من خلال تأكيده على أنَّ الريّاس كانوا قد أسروا العديد مِن المسيحيين مِن السَّواحل الإيطالية خلال المدة الزمنية التي فرض فيها الحظر[4]، وعلى كل حال فإنَّه مِن المعلوم أنَّ القرن الثامن عشر عرف تراجعاً كبيرا لعمليات الأسر والقرصنة وبالتالي تراجعت الغنائم الممثلة في الأسرى لصالح انتعاش تجارة القمح، وتراجع الغنائم أدى تلقائيا إلى ارتفاع أسعارها تجاوبا مع قانون العرض والطلب.

أما إشكالية ارتفاع سعر الأسرى والتي غالبا ما يربطها "دي غرامونت" بظهور الطَّاعون وتنكيله بالأسرى، إنَّما غرضها إظهار الأسرى بصورة الضحية الكبيرة داخل الإيالة؛ إذا تجتمع عليها مصائب الحكم الجائر للدايات والظلم الذي يتعرضون له في الأسر، والمعاملة السيئة، ويأتي الطَّاعون ليجعل منهم شهداء ويخلِّصهم مِن المعاناة الكبيرة التي يعيشونها.

---

[1] - H.-D. DE Grammont : op.cit., PP 339.340
[2] - Venture de Paradis : op.cit., P52.
[3] - Jean Marchika :op.cit., P79.
[4] - H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)P269.

وإذا فُرغ مِن مظاهر تجلي الأزمات الغذائية والصحية على الفئة الوافدة على إيالة الجزائر كان حقيق بنا الآن الحديث عن التأثيرات المباشرة للأزمات الصحية والغذائية على الحياة الاقتصادية أو على المعيشة اليومية لساكنة الإيالة، وقبل أن نشرع فيما وعدناه لابد أن نشير أنَّه ممَّا لا يخفى بأية حال الانعكاس المباشر الذي يترتَّب على غياب سلعة مِن السُّوق، إذ كثيرا ما كان يؤدى غياب القمح أو غيره مِن الحبوب إلى ارتفاع أسعاره بشكل كبير يعجز الأهالي نتيجة لذلك عن اقتنائه، خاصة إذا علمنا مثلاً أنّه في العديد مِن الأحيان ترتفع أسعار المواد الاستهلاكية مِن قمح ومشتقاته إلى أرقام قياسية قد تتعدَّى السِّعر الحقيقي بأكثر مِن عشرة أضعاف أيام القحط والمجاعة، فيكفي لندلِّل على هذا الأمر أنَّ نضرب مثالا بسعر الصَّاع الواحد مِن القمح وكيف يتغير سعره إذ انتقل في الكثير من الأحيان من ربع بوجو إلى ستة بوجو كاملة، وفي موطن آخر انتقل سعر الشَّعير إلى قرابة الثمان ريالات[1]. وتذكر بعض المصادر المحلية التي عايشت بعض الأزمات الغذائية أنَّ الصَّاع الواحد مِن القمح بلغ سعره خمسة عشر ريالا بعدما كان سعره قبل مجاعة (1805م) لا يتجاوز ريال ونصف ريال في أغلى الحالات[2]، أي أن سعره تضاعف بما يقارب عشر مرات، وكان دوام الحال في بعض الأحيان إلى السنة والأكثر.

ولا يتوقف تأثير ظهور الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر واشتداده بها على أسعار القمح والشعير فقط، بل يتعداها إلى فرضه نوعا مِن الحصار على المدينة، مثلما يشير إلى ذلك القنصل الفرنسي في المدينة في مراسلة للغرفة التجارية في مرسيليا بقوله: «...أنَّ تفشي الوباء قد ضرب ما يشبه الحصار على المدينة...»[3] وهذا مما مِن شأنه أن يجعل التَّزود بالمؤن أو إخراج السِّلع مِن الجزائر أمراً عسيراً مما أدى بحدوث أحد الأمرين؛ إمَّا نُقص في المواد الأساسية كالقمح والشعير ما سيؤدي لا محالة إلى حدوث شُحٍّ في التَّموين بالقمح والشعير وهو ما ينتج عنه ارتفاع الأسعار، وقد يتطوَّر الأمر إلى حدوث أزمة غذائية في حال عدم القدرة على إيجاد مخارج تموينية أخرى، أو قد يؤدي في جهة مناقضة إلى حدوث نوع مِن التَّشبع للسوق في حالة وجود فائض في الإنتاج الزراعي، ما ينتج عنه وجود سِّلع كثيرة وانعدام المقدرة على تصريفها خارج الإيالة الجزائر ما سيحدث نوع من الوفرة تؤدي إلى تراجع الأسعار في هذه السنة، وإمكانية تخلي الفلاحين عن زراعة القمح في السنة الموالية ما يترتب عنه بدوره حدوث نقص ي التوازن الغذائي المطلوب.

---

[1] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, Revue African., Anne 1895. N°39, P165,

[2] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص 34،35.

[3] - H.-D. DE GRAMMONT : Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742),P222.

وقد ظهرت بعض الأزمات الغذائية في بداية القرن التاسع عشر، وكانت تجلياتها ضمن قوالب مختلفة تجلّت مثلا في ثورة كبيرة قام بها الأهالي ضد اليهود سنة (1805م)؛ لاعتقادهم أنّ الأخيرين بسيطرتهم على تجارة القمح وتصديرهم له للموانئ الأوروبية ساهموا في ندرة القمح في الإيالة في وقت كان الأهالي في أمس الحاجة إليه[1] وبالتالي حدثت هذه المجاعة، وقد مرَّ معنا التَّسهيلات التي كان يتحصَّل عليها اليهود وغيرهم في هذا السياق[2]، وكادت هذه الثَّورة أن تقضي على الحكم العثماني في مدينة الجزائر، خاصة وأنَّ الإيالة كانت تعيش أيضاً مرحلة اضطرابات بسبب ثورة "ابن الأحرش" في بيلك الشَّرق.

نفس هذه المجاعة امتدَّ لهيب أثرها في السنة التي تلتها أيضا أي (1221هـ/1806م-1807م)، وهذا ما يؤكده العنتري بقوله: «..وهذا الشَّرُ باقٍ إلى سنة التاريخ هذه، وهي سنة إحدى وعشرون والله يلطف بعباده..»[3]، وقد نجم عن هذه المجاعة وغيرها مِن المجاعات مثلما مر ارتفاع أسعار القمح أكثر من ثلاثة أضعافه بحيث أضحى سعر الصَّاع الواحد من القمح يبلغ ما يقارب خمسة عشر ريالا، وسعر الشَّعير يصل إلى قرابة ثماني ريالات[4]. مثلما نجد بوادر تأثير غزو الجراد للإيالة سنة (1814م) ماثلا لولا تدخل الداي عمر باشا بفتحه مخازن القمح للخبازين وفرضه لتسعيرة موحدة للجميع ما ساهم في التقليل من حدة هذه الأزمة الغذائية وتأثيراتها الاقتصادية[5].

ونعود لذكر أنَّ مِن التأثيرات الاقتصادية لهذه الأزمات الغذائية أن أضحى الصَّاع الواحد مِن القمح قيمته خمسة عشر ريالا بعدما كان سعره قبل المجاعة لا يتجاوز ريال ونصف ريال[6]، بمعنى أن سعر القمح تضاعف ما يقارب عشر مرات، وكان الأمر يدوم مدة زمنية طويلة ترهق الناس تصل إلى سنة أو سنتين.

وإذ قد ظهر لنا جوانب مما جنحت إليه الحياة الاقتصادية خلال الأزمات الغذائية التي مثلتها المجاعات والأزمات الصحية التي جسدتها الأوبئة فمن الواجب أن نصرف البيان إلى القول أنَّ انتهاء أي أزمات غذائية كانت أو صحية كان إيذانا بعودة الحركية التجارية والاقتصادية في الإيالة، وهو ما يُستشف فعلا فيما أشار إليه العديد من الباحثين الذين جعلوا من الأوبئة والمجاعات وبالا على التِّجارة الأوروبية مع الإيالة[7]، سواء منها ما تعلق بصيد المرجان أو بتجارة القمح أو بغيرهما.

---

[1] - Lucette Valensi: op.cit., P24.

[2] - راجع ما كنا قد كتبناه في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

[3] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, Revue African., Anne 1895. N°39, P165.

[4] - Auteur Inconnu : Note chronologiques pour l'histoire de Constantine , Revue African., Anne 1895. N°39, P165.

[5] - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 145.

[6] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص 34،35.

[7] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P233.

انعكاسات المجاعات والأوبئة على الجوانب العسكرية:

لعله من الأصوب قبل أن نخوض فيما نحن بصدده أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول: أنَّ من أبرز مظاهر التأثيرات الكبيرة للأوبئة والمجاعات على المجالات المختلفة صور تأثيرها الشديد على الجانب العسكري، وهذا التَّأثير كان على مستويات عدِّة ومتباينة، تختلف باختلاف شدَّة الأزمات الصِّحية والغذائية، إذ نجد أنه كلَّما كانت شدَّة الوباء أو المجاعة كبيرة كلما كان مدى تأثيره العام أشدَّ وأصعب، وهذا التأثير لم يختص بالإيالة دون غيرها، بل كان يعمُّ كلَّ المجالات الجغرافية والدُّول المختلفة في المتوسط، فنجده يؤثر على إمداد الجيوش بالعتاد الحربي كما كان يحدث مع الدولة العثمانية أكثر من مرَّة[1]، مثلما نجده يقضي على عدد من جنود الجيش الفرنسي الذي قاده "نابليون" في حملته على مصر سنة (1798م) مثلما توره بعض الوثائق[2]، مثلما نقف على وجه آخر من أوجه التفاعل بين الأوبئة والجوانب العسكرية الارتباط بين حركة الجيوش في العالم وتفشي الأوبئة، وهذا ما يرد عند الحديث مثلا عن الوباء الذي ألمَّ بأوروبا سنة (1743م) والذي كانت أحد أسباب تفشيه الأساسية انتقال الجيش الفرنسي بقيادة "إنفينيتي" عبر جبال الألب إلى العمق الأوروبي[3] ما ساهم في تفشي الوباء وامتداد نشاطه مِن الحيز الجغرافي الفرنسي إلى مجالات جغرافية أكبر ألمت بأوروبا ككل، ولم تشذ العلاقة بين الأزمات الصحية والغذائية مع المجالات العسكرية في حالة الإيالة الجزائرية خلال مدة الدراسة الممتدة على طوال قرن وثلث (1700-1830م) وهو ما سنعمل على تفصيله.

وإذا عُرف ما سبق فمن الوجب أن نعود للحديث عن تأثيرات الأزمات على الجانب العسكري في الإيالة فنقول أنَّه كثيراً ما ذكر عدد الضحايا من الجنود نتيجة الأزمات الصحية التي كانت تلم بالإيالة، بل ونجد بعض الأوبئة قد نجحت في الولوج إلى معاقل الجند في الأوجاق، فنجد ذكر الوباء في ثكنات الإنكشارية في كلِّ مِن "باب عزون" و"باب جديد" و"باب الواد" وغيرها[4] كما ونجد أنَّ مِن آثار طاعون سنة (1786م) أن أصبحت الثكنات خاوية على عروشها بعدما كانت تكتظ بالجنود، فالطَّاعون في هذه المرَّة دخل إلى الثكنات وألحق بالجند خسائر فادحة[5] لا تختلف كثيرا عمَّا ألحقه بالسُّكان البسطاء كما مرَّ بنا في موضعه[6] ولهذا كثيرا ما نجد دايات الجزائر يطلبون الإذن لتجنيد نفر جديد من الإنكشارية من أزمير

---

1 - B.O.A : AE.SMST.III. Do : N°162. Gömlek N°12704. Tarih 1186.Z.01. Belg 05.
2 - B.O.A : C.AS. Do : N°804.Gömlek N°34147. Tarih 1213.Za.29. Belg 01.
3 - Chabrand, Jean-Armand : op.cit., P21.
4 - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P374.
5 - كاثكارت: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ص 100.
6 - راجع ما كتبناه عن هذا الوباء في الفصل الثالث المبحث الثالث.

بعد كل وباء، كما حدث سنوات: (1787م) و(1792م) و(1817م) فنجد الداي حسين بعدما خلف علي باشا يطلب الإذن بتجنيد بعض الجند من الباب العالي ويأذن الأخير لوكيل أوجاق الجزائر الحاج سعيد بتجنيد من يريد من الأهالي ممن حسن سيرته لصالح الولاية في السنة ذاتها[1] .

وإذا كان ما سبق حُكماً مُتيقناً لا يحتاج إلى كثرة التدليل، بل هو شائع في المصادر المختلفة التي كانت تتحدَّث عن الجند العثماني في الجزائر، صرفنا القول إلى الحديث عن الأركان التي عليها مدار التأثير الكبير للأنشطة العسكرية، فنجد أنفسنا نقف على عدد مِن الحملات العسكرية التي تمَّ إيقافها بسبب هجمات الأوبئة، فمن ذلك توقيف الحملة الدفاعية العسكرية التي كانت تستهدف حماية مدينة "وهران" في عهد "يوسف بن مصطفى بوشلاغم" والذي كان قد عُيِّن خليفة لوالده "مصطفى بوشلاغم"[2].

حاول "يوسف" أن يحمي المدينة من الخطر الإسباني الذي كان يهدِّدُها، إلاّ أنَّه سقط ضحية للوباء الذي كان يضرب المدينة والمنطقة سنة (1151هـ/1738م)[3] ما جعل دخول الإسبان إليها أمرا سهلا، وإن تقرّر فعلا وفاة القائد "يوسف بن مصطفى بوشلاغم" بسبب هذا الوباء قلنا أنّ الأحرى بمن هو دونه أن يتضرر منه خاصة مِن جنود الحامية الانكشارية ممَّن كان في اتصال دائم مع الباي أو مع المصابين بالداء، وما وصول الوباء إلى غاية القائد الأعلى للجيش إلاَّ دلالة كبيرة على ضراوة وشدَّة هذا الوباء، وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من القول فنقول أنَّ ما يهمنا فيما حدث في هذا الوباء سنة (1738م) ليس شدَّته أو مُدَّته الزمنية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى توقف عمل عسكري كنتيجة حتمية لانتشار هذا الوباء داخل أسوار المدينة.

ولهذا كان ما وُجِد مِن تفشي للأوبئة هو غالبا ما أدى إلى تعطيل النشاطات العسكرية، وهذا راجع إلى عدة أسباب من بينها الخوف من المساهمة في نشر الوباء إضافة إلى الحالة الصحية التي يكون عليها جنود المحلة، ولعل ذلك يبرز مثلا سنة (1741م) في عهد "إبراهيم باشا" حينما تزامنت الحملة التي كان الداي قد أمر بها مع ظهور الوباء في قسنطينة[4]، فأمر الداي "باي قسنطينة" بتأخير خروج المحلة ثمّ أُلغيت هذه الحملة تماما؛ وهذا بسبب تفشي الوباء في كلِّ مِن مدينة قسنطينة وأحوازها، مثلما كانت قد بدت آثاره أيضا في كلِّ مِن إيالة تونس وبعض مناطق طرابلس حسبما تورده مراسلة مؤرخة بـ (24/ ماي

[1] - B.O.A : HAT. Dosya N°283. Gömlek N°16872. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.

[2] - - Walsin Esterhazy : op.cit., P175

[3] - Adrien Berbrugger : op.cit., T2, P 206.

[4] - مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (1624) و[3]

1741م)[1] وهي نفس الإشارة التي نجدها تتكرَّر في الرِّسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي في الجزائر إلى سلطات بلده في السنة عينها[2].

يتكرَّر الأمر مرَّة جديدة سنة (1755م) حين يضطر داي قسنطينة إلى إلغاء حملته على باي تونس بعدما تأكَّد أنَّ القبائل تخاف الالتحاق بالنوبة التي قدِمت مِن الجزائر؛ لأنَّه انتشر بين النَّاس أنَّ مِن فيها كان مُصاباً بالطَّاعون[3]، فأثنى هذا الأمر باي قسنطينة على المِضِي قُدما في مسعاه وبهذا تعدَّى أثر الطَّاعون الجانب العسكري إلى الزاوية السياسية أيضا، إذ أصبح يؤثر في العلاقات بين الأطراف المختلفة في الإيالة ونظرائهم في الإيالة التونسية، وبهذا يتَّضح لنا الأثر الخفي الذي ساهمت به بعض الأزمات في تأخير أو إلغاء بعض الخيرات العسكرية التي كانت مقترحة للإيالة حينها، ما يجعل هذه الأزمات إحدى المتغيرات الأساسية في عملية التقدم والتراجع العسكري في المنطقة.

كما نقف في ضمن إحدى المصادر التي ترجع إلى إسباني سابق في إيالة الجزائر يؤكد فيها أنَّ عدد الجنود الترك كانوا في تراجع مستمر، وهذ كان مرتبط -حسب رأيه- بالوباء الذي كثيرا ما استهدف الانكشارية بالجزائر، وبالأخص ذلك الذي ضرب الإيالة سنة (1783م) بحيث بلغ عدد المصابين من الجند في الإيالة ثُلُث عدد الجنود المتواجدين في الإيالة[4]، كما أنّنا نقف على إشارة أخرى تتضمن إرسال "داي الجزائر "محمَّد بن عثمان خوجة" لابن عمِّه "حسن باشا" مِن أجل تجنيد رجال جُدد مِن أزمير نتيجة الوباء الذي أخل بأعداد الجند الترك في الجزائر بعد وباء(1786م)[5] وهو ما وافق عليه أمين الترسانة وطالب أثر ذلك الإذن مِن الصدر الأعظم والقبطان دوريا لإرسال بعض المعدات الحربية أيضا حسب ما توره إحدى المراسلات بين الترسانة العامرة والباب العالي في أرشيف رئاسة الجمهورية التركية[6].

كما نجد في موضع آخر إشارة إلى أنَّ طاعون (1201هـ/1787م) قد قضى على عددٍ مِن كبار رجال البحر ما بين خمسين وستين رجلا[7]، وهو ما ينعكس بشكل سلبي لا محالة على النشاط البحري للأسطول الجزائري الذي كان يعرف خلال القرن الثامن عشر تراجعا رهيبا في نشاطه، حيث أنَّ الأوبئة إذا أتت على مجموعة مِن البحَّارة أو رياس البحر كان ينتج عنه عُسراً في إيجاد الطواقم البحرية أو استخلاف رؤساء البحر، ، إذ أنّ قضاء الوباء الماضي ذكره على خمسين فردا مِن رياس البحر ليس بالأمر الهين،

---

1 - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes : F° 294-295. 24/05/1741.
2 -Lettres de M. Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Correspondance des consuls d'Alger, Anne 1741, P266-267,
3 - Jean Marchika :op.cit., P102.
4 - Daremberg Georges : op.cit., P07.
5 - Walsin Esterhazy : op.cit., P190,
6 - B.O.A : AE. SABH.I. Dosya N°88.Gömlek N°6066. Tarih 1199.Ca.07, Belg 01.
7 - Venture de Paradis : loc.cit, Anne 1895, N°39, P310.

وتعويض هؤلاء البحارة كان يحتاج إلى سنوات مِن التَّجنيد والتجريب والانتقاء وإعطاء الفرصة لمن يكون له القدرة الحقيقية على قيادة السفن الحربية. ولعل أثر هذا الخسارة العسكرية تتبدى في تراجع الحملات البحرية للأسطول البحري.

وانعكاس الأزمات الصحية على الجوانب العسكرية لم يقتصر في تلك المدة على إيالة الجزائر فقط كما قد يُتوهَّم من كلامنا، بل كان له تأثيرات أكبر على الجيوش وأغلب الدول، مثلما نقف عليه بالنسبة للجيش العثماني سنة (1770م)[1]، إذ كثيرا ما تعطَّلت آليات تمويل الجيش بما يحتاجه مِن مُؤن وعتاد عسكري خلال حملاته الحربية بسبب انتشار الطَّاعون، وهو ما حدث سنة (1771م) في جزيرة سنوب (Sinob) حيث تعطَّل إرسال الآلات الحربية بسبب الطَّاعون الذي انتشر في المنطقة[2]، وتخوفت السُّلطات المحلية مِن تفشيه بشكل أكبر لذا ظلت تترقب بل وخسرت القلعة بسبب هذا التَّرقب، يتجدد الأثر مرة أخرى في أثناء الحرب التي شنتها الدولة العثمانية سنة (1778م) على بعض سفن القراصنة في اليونان لكنها سرعان ما أوقفت هذه الحرب التأديبية؛ بسبب خسارتها للعديد من العساكر التي كانت ضمن الأسطول الحربي البحري العثماني بسبب الوباء الذي كان يضرب آنئذ وأسقط خمسة عشر ألف جندي عثماني خلال بضعة أشهر[3]، وحدث نفس الأمر مرة أخرى عندما تعطَّلت إمدادات الجيش العثماني في "نفراكوب" (Nevrekob) سنة (1815م)[4]، نفس الأمر نقف عليه في الثُّلث الثاني مِن القرن التَّاسع عشر، أي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذ بمجرد ظهور وباء الكوليرا في مدينة الجزائر ووهران سنة (1834م) وبين صفوف الجيش الفرنسي نجد جزء مِن سكان المدن الساحلية ينكمش إلى المدن الداخلية هربا مِن البلاء العسكري والبلاء الصِّحي[5].

وإذا كان ما مر معنا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب القول أن تأثيرات الأزمات الصحية والغذائية كانت عاملا أساسيا في مسارات الكثير من الحملات البحرية والبرية للإيالة خلال المرحلة الزمنية محل التَّشريح.

بقي أن نقول أيضا أنَّ تأثير الأوبئة والمجاعات وإن كان خفياً إلاَّ أنَّه ظلَّ حقيقيا وكبيرا، وتأثير الأزمة سواء الغذائية أو الصِّحية على الحياة العسكرية ظلت تختلف درجاتها باختلاف حدَّة وقوَّة الوباء،

---

[1] - Şem'dani-zade fındıklılı Süleyman efendi : a.g.e, C 2, s52.
[2] -B.O.A : AE.SMST.III. Do : N°162. Gömlek N°12704. Tarih 1186.Z.01. Belg 05.
[3] - Joseph von Hammer : a.g.e, C 6. S24.
[4] -B.O.A : C.AS. Do : N°483. Gömlek N°20145. Tarih 1230.S.21. Belg 01.
[5] - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : op.cit., P21.

فنجد أنَّ بعض الأوبئة وإن كان عدد ضحاياها مُعتبراً مِن حيث الكمية إلاَّ أنَّه ظلَّ منكفئا ومحصورا ،مثلما هو الحال في وباء الذي تجدَّد في الإيالة سنة (1756م)[1].

الانعكاسات الديموغرافية وتأثيراتها في التركيبة السكانية:

قبل أن نخوض في غرضنا مِن هذا المبحث وجب أن نقدِّم بتوطئة لما نروح إيضاحه، فنقول أنَّ مِن البُنى التَّحتية التي يرتكز عليها تاريخ الأوبئة والأزمات الغذائية وكان له تأثيراتها الكبرى الكثافة السُّكانية لحيز جغرافي ما، وما سنتحدَّث عنه مِن آثار مُدمِّرة كانت للمجاعات والأوبئة خلال القرن الثَّامن عشر والتَّاسع عشر، بحيث لم تبق آثاره خاصة بإيالة الجزائر فقط، بل تعدَّت آثار هذه الأزمات لتشمل العالم المتوسطي ككل، فنقف على اختلالات للتوازن السّكني عرفتها هذه المنطقة وهي ما تعد بحق ارتدادات دأبت على إحداثها الأوبئة في تاريخ المتوسط بداية من القرن الثالث عشر خاصة في جهته الشمالية[2]، والأمر المدمِّر الذي عاشته أوروبا في قرونها الوسطى هو ما كانت تعيشه الإيالة الجزائرية خلال القرن الثَّامن عشر وبداية التَّاسع عشر.

كما مر بنا وسبق ذكره لا يخلو بناء نموذج عام للكثافة السكانية في إيالة الجزائر من صعوبات كثيرة، ففي بداية الأمر علينا أن نرى الصورة العامة التي كانت عليها إيالة الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة، وهذا الأمر يصعب رصده بدقة عالية، فأولا هناك شح في المعلومات وعدم دقتها، وهناك ثانيا معطيات عددية متضاربة، ففي حين نجد الكثير مِن الدِّراسات الغربية عموما والفرنسية تحديدا تتَّفق فيما بينها على أنَّ إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تكاد تكون خالية تماما مِن السَّاكنة، مع أن الأرقام التي سنوردها تعزوها الدقة بسبب غياب وثائق تؤكدها إلاَّ إنَّه لا يسعنا بأي حال الاستغناء عنها.

حيث تورد هذه الدراسات إحصائيات مختلفة عن عدد السُّكان في الإيالة فنجد مثلا التَّقارير العسكرية تتحدَّث عن قلَّة الكثافة السُّكانية للجزائر بشكل مريب، بحيث تجزم بأنَّ تعداد الساكنة من الأهالي في الجزائر قاطبة لا يتجاوز مليون وثمانمائة وسبعون ألفا (1,870,000) نسمة مقسمين على سة فئات كما هو موضح فيما يلي[3]:

[1] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F° 67-74. 2/juin/1756.
[2] - Daremberg Georges : op.cit.,P01.
[3] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P111.

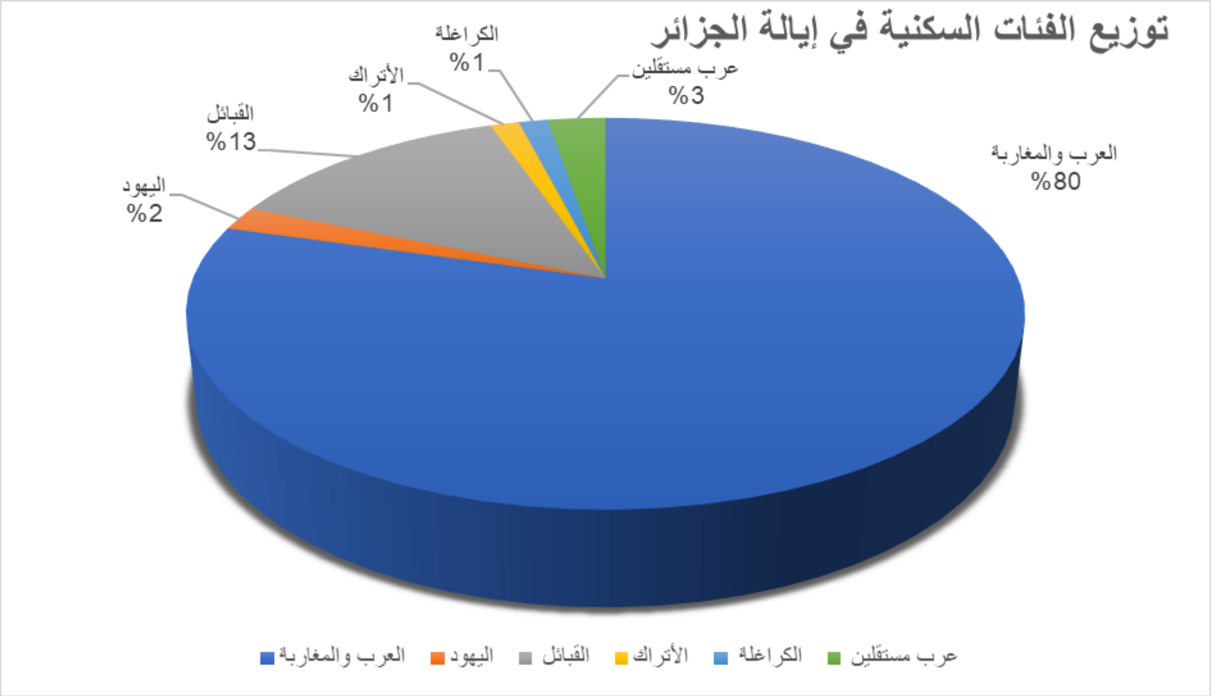

مجموع الساكنة حسب هذه التقديرات لا تتجاوز: 1.870.000 نسمة.

بل وتذهب هذه التّقارير إلى أنّ الحديث عن مليون وثمانمائة وسبعين ألف قاطن في الجزائر هو من باب المبالغة، وترى هذه أنَّ حقيقة التّواجد السُّكاني في المنطقة باستقراء الوجود السُّكاني في المدن الكبرى كان لا يتجاوز مائة واثنان وسبعون ألفا (172.000) وقرَّرت هذه الدِّراسات أنَّ هؤلاء هم سكان المدن الكبرى كما وتتساءل في نفس الوقت كيف يمكن أن يكون الوجود السُّكاني خارج هذه الحواضر أكثف منه فيها[1]. فيما يقرِّر ميشال بيروت (Michel Perrot) بأنّ عدد سكان إيالة الجزائر في أحسن الأحوال لم يتجاوز المليونين والنِّصف[2] (2,500,000) نسمة على أكثر تقدير، وترى "لوسيت فلنسي" -وهي التي وضعت كتابها في فترة مُتأخِّرة عن مَن تقدّم ذكرهم- أنّ عدد سكان الجزائر قبل (1830م) لم يتجاوز على الأغلب ثلاثة ملايين ساكن (3.500.000)[3].

وهذه الأرقام كما تمت الإشارة إليه تصب في اتجاه واحد هو إعلام المطَّلع على هذه التقارير من الجهات الرسمية الفرنسية أنَّ هذا المجال أو الحيز الجغرافي يكاد يكون خال مِن السُّكان. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ يمكن أن نجد تبريره في كون أنَّ مُعظم من تصدى لكتابة هذه التقارير هم من الأقلام العسكرية ، وتكتب

[1] - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P111.
[2] - Perrot, Aristide-Michel : op.cit., P16.
[3] - Lucette Valensi: p20.

وفق تصور ومنهج وخطة محددة سلفا كانت تهدف في الأساس إلى إقناع السلطة الفرنسية أو المواطن الفرنسي البسيط الفرنسي بأنّ هذه الأرض (الجزائر) فارغة وتحتاج لمن يُعمِّرها ويستقرّ بها.

فيما يرى "حمدان بن عثمان خوجة" أنَّ عدد سُكان الجزائر كان لا يقل عن عشرة مليون نسمة قبل الدخول الفرنسي للجزائر[1]، فيما تتفق ملاحظات الرَّحالة والقناصل الإحصائيات المبنية على ملاحظات مَن زار الجزائر مِن الأوروبيين خلال العهد العثماني أنَّ إيالة الجزائر خلال القرن التَّاسع عشر كان تعرف تراجعا كبيرا ومُطَّرداً في النُّمو الديمغرافي، أدى بدوره إلى تراجع نسبة ساكنة مدينة الجزائر، فعلى سبيل المثال تراجع تعداد ساكنة المدينة مِن مائة ألف (100.000) حسب رواية الأب "دان" إلى خمسين ألفا (50.000) في منتصف القرن الثامن عشر، لينتهي إلى قرابة الثلاثين ألف نسمة أثناء الدخول الفرنسي إلى مدينة الجزائر[2].

إلاّ أنّ هذه الإحصائيات تبقى محل تجاذبات وتوقعات لا أكثر، فكما لا يمكن الحديث عن وجود عشرة ملايين من الساكنة تؤكدها التقييدات الرسمية فلا يمكن الركون بأي حال إلى القول أنَّ عدد سُكان الجزائر كان يبلغ حوالي المليون وثمانمائة (1.800.000) كما أوردته بعض الإحصائيات العسكرية الفرنسية أو أقل من ذلك كما ذهبت إليه تقديرات الرَّحالة الغربيين.

أما تحاملنا على بعض الإحصاءات التي أوردها الرَّحالة في كون أنَّ مُعظمهم لم تكن تسمح لهم قدرتهم على الإحاطة بالتّقديرات وغالبيتهم التزم نفس المسار خلال رحلتهم واقتصرت زيارتهم إن وجدت على مدن بعينها لا أكثر، لذا لا يمكن اعتماد كلَّ ما أوردوه خلال رحلاتهم على أنها مسلمات، وإن كانت تقديراتهم ومعلوماتهم تلقي بظلالها على ما سنقف عليه في هذا المبحث، فهي في الأخير الأنيس الوحيد لما نحاول الحديث عنه في هذا المقام.

وإذا قد ظهر لنا جواب ما جنح إليه المختلفون حول عدد ساكنة الجزائر قبيل المرحلة المعنية بالدراسة فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا ونتحدَّث عن محاولتنا مقاربة المعطيات المتوفرة على ما يعتريها مقاربة تاريخية نفهم بها تأثيرات المجاعات والأوبئة على المجال الديمغرافي في الحيز الجزائري. وننطلق في هذا المسار مما أوردته بعض المصادر المحلية عن أثر الأزمات الصحية بشكل عام على الإيالة من ما أورده الورثيلاني في رحلته عند حديثه عن مدينة بسكرة بقوله :«..مع نفوذ الوعيد فيها مِن أمر الوباء؛ حتَّى صارت في قلة؛ بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار، بل عن أوصاف المدن الصِّغار، فهي الآن لا حمام

---

[1] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، ص08.

[2]- H.-D. DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), P240.

فيها ولا سوق يعتبر منها...»[1] ونقف على ما يورده أحد الكتاب ما ينقله "راتيو ماديندي" عن أحد المصادر المجهولة المؤلف -والتي شهد صاحبها الوباء الذي عرفته الجزائر خلال سنتي (1752-1753م)- تتحدَّث عن انهيار الوضع الديموغرافي لمدينة الجزائر نتيجة الوباء الذي ضرب المدينة سنة (1753) بلغ ثُلث سكان المدينة، وقد خصَّ بالذكر أنَّ معظم الضَّحايا كانوا ممّن يقطنون في بيوت ذوات أفنية واسعة ومفتوحة، كما ذكر أنّه بسبب هذا الوباء أيضا تُوفي قرابة ثُلثَا المرضى الذين كانوا يقطنون المستشفى الإسباني في المدينة، كما تحدثت العديد من الوثائق الأرشيفية عن شدة هذا الوباء وإن لم تفصح على أعداد بعينها واكتفت بالحديث عن شدة الوباء سنة (1752م) في مدينة الجزائر[2]، أمَّا الحديث عن أعداد الموتى الأوروبيين في المستشفى فيعود غالبا إلى الضيق المتزايد على المستشفى والعدد الكبير للمرضى في هذا المستشفى[3]، وهذا مما يرفع من إمكانية أن يكون هذا الوباء في الغالب هو الطاعون الرئوي الذي ينتقل عبر الهواء.

والحديث عن ثُلث سكان مدينة ما ليس بالأمر الهين، فلو اعتمدنا أقل التقديرات التي أوردتها المصادر الغربية لساكنة الجزائر خلال تلك المرحلة نجدها في حدود (500.000) خمس مائة ألف نسمة، ومعلوم أنَّ ثُلث هذا الرقم -على افتراض أنه أقل التَّقديرات- يتجاوز (150.000) مائة وخمسون ألف نسمة، وفقدان رقم كهذا في وباء واحد يستمرُّ ثلاث سنوات سيغير لا محالة في الكثير مِن الأمور والمعطيات المتعلِّقة بالمدينة لا في الزمن الآني فقط وإنما في الزمن المستقبلي، سواء في جانبها الاقتصادي أو التِّجاري أو في منظومتها العسكرية أو حتَّى في حركيتها الحضرية والفكرية.

ولا يخفى الأثر البارز للمجاعات والأوبئة على النُّمو الديمغرافي للسَّاكنة في منطقة ما، فنجد مَثلاً الوباء الذي ضرب المنطقة الممتدَّة مِن طرابلس الغرب إلى المغرب الأقصى قد أحدث أثراً كبيراً في تغير الخارطة السُّكانية للمنطقة ككلّ، فلم يترك المدن الكبرى إلاَّ وقد أتى على جزء خطير جِدّاً منها فنجده مثلا يقضي على جزء كبير مِن ساكنة مدينة طرابلس الغرب على ما يقدر بثمانية عشر ألف ضحية" مِن مجموع سكان المدينة والذي قدر حينها بـ "خمسة وأربعين ألفا" أي ما يقدر بنسبة (40%) مِن سكان المدينة ويقضي على ألف يهودي من بين خمسة آلاف كانوا يستوطنون المدينة أي ما نسبته (20%) من يهود هذه المدينة، والأمر سيان في تونس فنقف على أرقام كبيرة لعدد ضحايا هذا الوباء في سنته الأولى (1784م) ما جعل "ديسفونتاس" يعَدُّه سبباً رئيساً في القلاقل التي كانت تعرفها مدينة تونس خلال تلك

[1] - الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، المجلد الأول، ص241.

[2] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/125. Cotes : F° 46-50. 30/06/1752.

[3] - Jean Marchika :op.cit., P96,97.

الفترة وأتى فعلا على ثمانية آلاف (8000) ضحية من اليهود الذين كان يقدر عددهم بقرابة الستين ألفا (60.000) أي ما نسبته (13.33%) وقد ظلَّ خلال الأيام الأولى يأتي على ما يقارب الألف (1000) ضحية يوميا مِن المسلمين لينخفض الرقم إلى حدود الخمسمائة في الأيام الأخرى، بل إنَّ الأمر انتهى إلى سقوط حوالي ثلاثمائة ألف ضحية في تونس من جملة ما قيل أنَّه مليون ساكن للإيالة خلال تلك المرحلة[1]، أي أننا نتحدَّث عن ما لا يقل عن (30%) مِن السَّاكنة وهو عدد مهول إذا أسقطناه على واقعنا الحالي فكأنما نقول أنَّ الأثر الذي تركه هذا الوباء على الإيالة التونسية يفوق مجموعه ما أسقطته الحروب مع الدول الأوروبية مِن حملات بحرية خلال العهد العثماني بل تصبح المواجهات الحربية طيلة ثلاثة قرون ونصف من تاريخ تونس أمر على عِظمه بسيط. وهو ما يمكن أن نستشفه من الوصف الذي أطلقه (Desfontaines) على الوباء الذي ضرب تونس سنة (1785م) قائلا بأنّه :«...وباء دمَّر البلاد ...وقلَّص عدد السُّكان بشكل كبير جِدّاً...»[2].

أمّا بالنسبة للأثر الذي خلَّفه هذا الوباء على الإيالة لجزائرية فإنَّه لا يختلف كثيرا إذ وبالرغم ممَّا قام به كلّ مِن داي الجزائر "محمّد بن عثمان باشا" و"صالح باي" حاكم بيلك الشرق الجزائري إذ حاولا اتّخذ بعض الإجراءات التي مِن شأنها كبح جماح التَّقدم الذي كان يعرفه هذا الوباء مِن مدينة بونة السَّاحلية إلى غيرها من المدن الداخلية سنة (1786م)[3]، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع من أنَّ أثره كان شديداً على التركيبة السكانية بالفعل، لم يكن يخف تماما إذ نجده يقضي على سكان مدينة القالة بأكملها أو في حالة أحسن على نصف سكانها مثلما توروده رسالة مِن وكيل الشركة الإفريقية مؤرخة بـ (25 ماي 1786م) يتحدّث فيها الوكيل السيد "هيوس" (Hugues) عن سقوط نصف سكان مدينة القالة ضحايا لهذا الوباء الذي كان يهاجم المدينة بقوة سنة (1786م)، بل ولا يتوقف الأمر ههنا بل إن هذا الوباء جعل النصف الآخر من السكان يسعى للانتقال من المدينة إلى غيرها، وهذا إن دل على شيء فإنَّما يدلُّ على الأثر المدمِّر لهذا الوباء[4]، وتأثيراته على الديمغرافيا العامة للمدينة، ولعل مما يبرز الأثر الكبير الذي خلَّفه هذا الوباء والذي امتد أثره إلى مدينة الجزائر سنة (1787م)[5] على الكثافة السُّكانية في مدينة الجزائر، وتحديداً بين فئة اليهود إذ لم متوسط النَّجاة يتجاوز خُمس هذه الفئة الموجودة بالمدينة، فتحدَّث عن نجاة أقل مِن عشرة أشخاص

[1] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P 226-220.

[2] - Peyssonnel et Desfontaines : Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, pub par Dureau de la malle, T 2, P226.

[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F° 168-171. 08/06/1786.

[4] - Lettre de M. Hugues dans Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud, P432.

[5] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes : F143°. 29/08/1787.

مِن مجموع أربع وخمسين زواجا من هذا الوباء[1]، وينقل في موضع آخر رقم كبير لعدد الضحايا مِن الأطفال الذين قضى عليهم هذا الوباء في شهر واحد، وقد قُدِّر بأربعمائة طفل خلال شهر واحد[2]؛ هو أمر ولا ريب لن يتوقَّف على الكثافة العددية لهذه المجموعة ضمن الفترة القريبة فقط، بل يتعدَّى تأثيره إلى المراحل اللاحقة في تاريخ هذه الفئة.

وقد تصبح الألية التدميرية للأزمة أكثر ضرارا إذا تزامنت الأزمة الصحية مع الأزمة الغذائية كما حدث في بيلك الغرب عموما سنة (1199هـ/1785م) والتي كان مِن نتائجها الآنية القضاء على عدد كبير جدا مِن ساكنة المدينة[3]، بالإضافة إلى تزامن الوباء والمجاعات مع كوارث طبيعية أخرى كان يؤدي دون أدنى شك إلى تبعات كبيرة على النمو الديمغرافي للساكنة، إذ نجد أن تصادف وباء سنة (1817م) مثلا مع الزلزال[4] الذي ضرب مدينة الجزائر خلال تلك الفترة جعل الخسائر تتضاعف على مستوى عدد ساكنة المدينة بشكل جعل المدينة تبدو وكأنَّها مدينة أشباح.

وهذا الأمر سيؤثِّر لاحقا على تباطئ النُّمو السكني الموجود في البيلك تباطئ في المرحلة القادمة إذ أنَّ العوز والحاجة ستكون على أشدِّها ما يُصعِّب تدارك الأمر في مدَّة وجيزة. ويفصِّل البعض آثار التأثيرات الديمغرافية خلال الامتداد الزمني لهذا الوباء على مدار سنتين منحصرتين ما بين (1785م)-(1788م) بما يُقدَّر بثلاثين ألف ضحية، أي بمعدل لا يقل عن عشرة آلاف ضحية سنويا، وقد وُزِّع عدد الضَّحايا حسب المعطى العددي التالي[5]

---

[1] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, (A.I.P.T) 228
[2] - Ibid. : P230.
[3] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.
[4] - Jean Marchika :op.cit., P156.
[5] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P239.

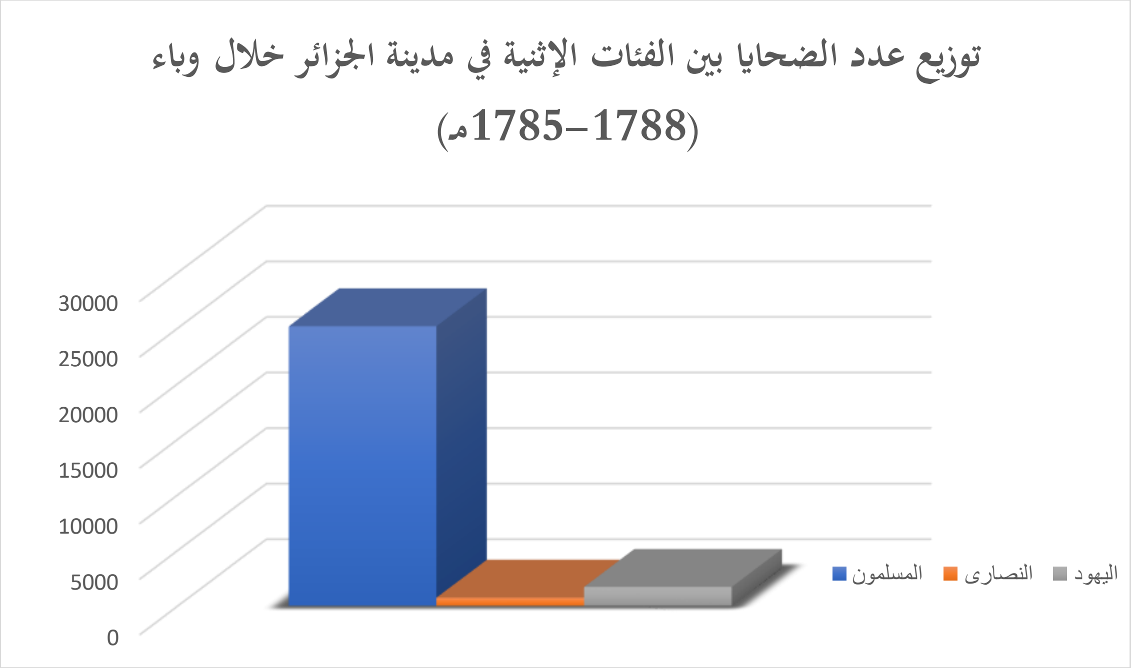

وبالتالي نجد أنَّ تأثير هذه الأعداد والأرقام لن يبقى حبيس هذه السَّنوات وإنَّما سينعكس حتما على العقود التَّالية، فنجد أنَّ هذا الأمر سيؤدي بشكل غير مباشر إلى قلَّة عدد الشباب أو البنات الصالحين للزواج وهو ما ينعكس بشكل آخر على عدد المواليد مقارنة مع عدد الوفيات التي حققها هذا الطَّاعون، هذا الاختلال سينعكس على مسار تطور المدن الكبرى، وقد بنيّنا موقفنا هذا على جملة مِن المعطيات الرقمية التي أوردها أساسا كل من الأب "فيشرا" و"كونر" نقلا عمَّا قال أنّه سجل قُيّدت فيه عدد الجثث التي دفت فعلا خلال ثلاث سنوات تمتد ما بين (1786-1788م) إذ يورد في هذا الإحصاء معلومات عن عدد الجثث المدفون حسب الجنس والعمر[1]، وقد حاولنا تبسيطه مِن خلال دائرة نسبية تشمل الفئات المعنية فتحصَّلنا على دائرة نسبية ممثلة في الشكل التالي:

[1] - Marthe Conor : op.cit., A.I.P.T, P239.

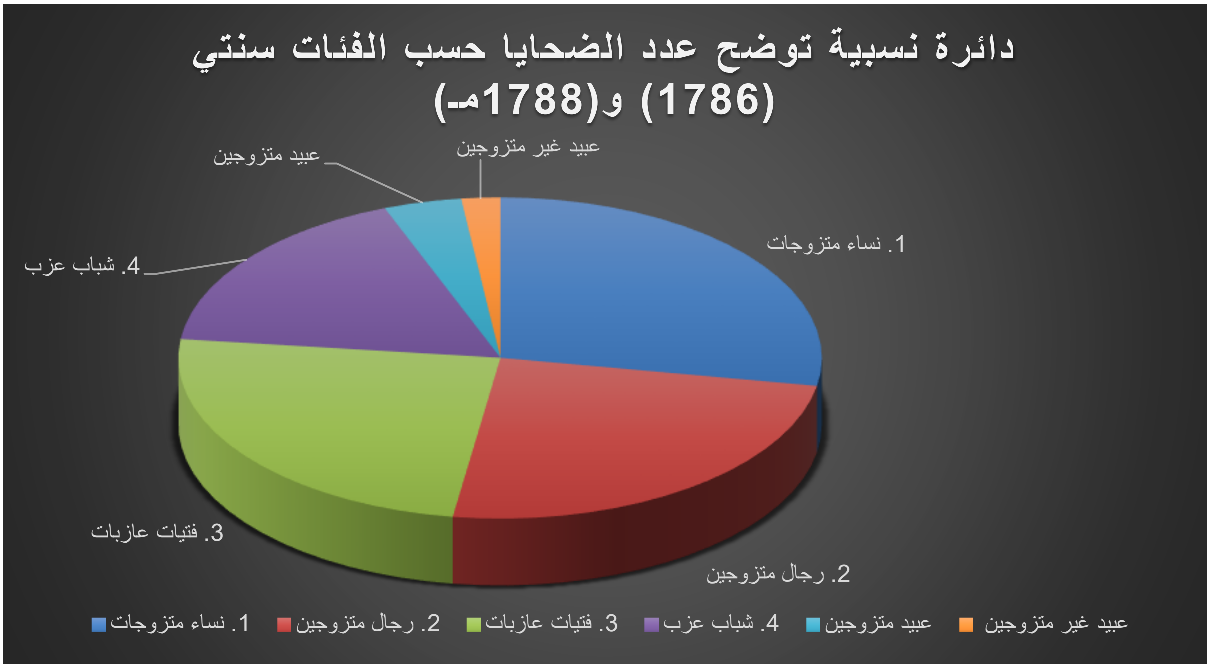

وممَّا يلاحظ على الشكل السابق ارتفاع نسبة المدفونين مِن الإناث والنِّساء المتزوجات، والتي يغلب أن تكون له مِن نسلهم أطفال، وبالتالي هم سببٌ رئيسٌ لازدياد الكثافة السُّكانية كما تحتل الفتيات القادرات على الإنجاب بدورهن المرتبة الثانية مِن حيث عدد الجثث المدفونة وبالتالي هي خسارة ثانية لتطوُّر الكثافة السكانية، أي أنّ هذه الفئة كانت بالإضافة إلى الأخطار الطبيعية التي تهدد حياتهم قد شدَّد الوباء خلال هاتين السَّنتين مِن استهدافها، وهو ما يمكنه تفسير التباطء في نمو الكثافة السُّكانية للجزائر خلال تلك الفترة وإن كان لا يمكننا الجزم بذلك حاليا فيمكننا الحديث عن الوباء في هاتين السَّنتين على الأقل كأحد أسباب الحد من النُّمو السريع للكثافة السكانية على الأقل.

لكن ما سبق الحديث عنه لا يعني بأي حال بأنَّ المرض أو الوباء أو حتَّى المجاعة قد تنتقي، بل نجد أنَّ هذه الإحصاءات وإن كان فيها بعض الدلالات الديموغرافية لكن مستوى تأثيرها مِن ناحية تلقي المرض قد لا يختلف كثيرا بين النساء والرجال[1]، وإن افترضنا أنَّ الأوبئة تفتك بالرجال أكثر بسبب أنَّهم الأكبر عرضة للاحتكاك مع المصابين بالوباء خارج أسوار العائلة، فإن تأثير إصابة النساء خاصة منهم الأمهات يكون أصعب باعتبار إمكانية خسارة فرد قادر على المساهمة في النُّمو الديموغرافي المباشر.

[1] - Bourgin, Pierre : Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole, P47.

كما كان مِن نتائج القحط الذي ضرب منطقة وادي سوف سنة (1207هـ/1793م) أن عزّ الكلأ والمؤنة ما أدى بعد ذلك بأشهر إلى حدوث تنازع بين القبائل المحيطة بالوادي بل وبين أهل الوادي أنفسهم، فيمن يكون له الحقّ في استغلال الأراضي الخصبة التي آتت أكلها في المنطقة المشاعة بين الناس، ونشب اقتتال بين الناس؛ انتهى بنزوح عدد مِن العائلات الصحراوية البدوية إلى الحواضر هروبا مما قد يدركهم بسبب القحط والمواجهات المتجددة[1]، كما نزحت عائلات عدة باتِّجاه الصّحراء الشّرقية أي الحدود الجزائرية الليبية حاليا، والتقت مع أهالي "صحراء غدامس" الذين عجبوا لحال أهل الصحراء الجزائرية وما لحقهم من جوع وعراء بسبب القحط الذي أصاب الأرض والجدب الذي أدرك المنطقة[2].

الأمر نفسه تتحدَّث عنه إحدى الوثائق القنصلية الفرنسية إذ تنقل رسالة القنصل الفرنسي في الجزائر أنَّ تأثير الوباء هذه المرَّة كان كبيرا جداً، وأنَّ استمراريته خلال أربع سنوات في إيالة الجزائر مُمتدَّة مِن (1817م) إلى (1822م) قد أحدث خسائر كبيرة في أرواح كان لها انعكاسها على التِّعداد العام للسَّاكنة[3].

بل نجد أنَّ تكرار الهجمات الوبائية أدى كما جرت عليه العادة إلى خسائر فادحة تنعكس فعلا على تغيير التركيبة السكانية داخل المدن، فنقف على سبيل المثال بعد الوباء الذي ضرب مدينة عنابة سنة (1817م) على فقدان المدينة لنصف سكانها، بل أكثر من ذلك ما توروده بعض المصادر مِن أنّ عدد سكان المدينة أضحى لا يتجاوز الخمسة آلاف فرد (5000) فيما كان التِّعداد يُناهز اثنا عشر آلفا على أقل التّقديرات قبيل هذا الوباء، أي أنَّ المدينة فقدت ما نسبته (40%) مِن سكانها خلال هذا الوباء فقط[4]، ويعضد هذا الرأي إحدى التقارير التي تقول بأنّ عدد سكان مدينة "عنابة" تراجع إلى النِّصف تقريبا بسبب تبعات الوباء الذي ضرب المدينة سنة (1817م) إذ كان عدد السكان يقدر بـ (12.000) قبل هذا الوباء لكن نتيجة لفرار السكان من المدينة وما أحدثه من خسائر بينهم فقد أصبح عدد السكان لا يتجاوز الخمسة آلاف (5000) سنة (1830م)[5]، وهو نفس ما نقف عليه عند "شارل فيرو" مِن خلال تأكيده بأنَّ الوباء الذي ضرب سنة (1816م) قد قضى على معظم سكان مدينة "القالة" والمناطق المحيطة بها حتَّى تركها خالية مِن السُّكان تقريبا وهو ما أتاح الفرصة لقبائل "أولاد عاشور" التي كانت تستوطن

---

[1] - تاريخ الصحراء وسوف، ص280.

[2] - تاريخ الصحراء وسوف، ص 280.

[3] - Jean Marchika :op.cit., P179.

[4] - Perrot Aristide-Michel : op.cit., P 26.

[5] - Aristide Michel Perrot Alger, esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, Paris, 1830, P26.

الحدود التونسية إلى التمركز بهذه الأحواز من جديد[1]. فيما تذهب التقارير العسكرية الفرنسية عن وضعية السكان أثناء الدخول الفرنسي للجزائر إلى أنَّ عدد سكان مدينة القالة لم يكن يتجاوز ألف وخمسمائة نسمة (1.500)[2] وهو رقم يُظهِر أنَّ المدينة أضحت خالية من السُّكان تماما نتيجة هذا الوباء.

وليس يُشك أنّ هذه الأرقام تصور حالة الاضطراب الديمغرافي الكبير غير أنَّه ينبغي لنا أن نسلم لها بهذه المعطيات العددية، فعلا يمكننا الحديث عن تراجع عدد السّكان والتأثيرات الكبيرة والفعلية السلبية للأوبئة والمجاعات على الواقع السكاني لمدينة "بونة" لكن مع ضرورة التحفظ على هذه الأرقام، إذ لا يخفى أنّ بعض هذه الأرقام كانت موجهة لتشجيع المعمِّرين على القدوم والاستيطان في الجزائر، لذا لا يستبعد أن نجد فيها بعض المبالغات أو المغالطات، لكن هذا لا ينفي أنَّ الضربات المتكررة للأوبئة التي استهدفت مدينة القالة طيلة هذه الفترة قد أثّرت بشكل كبير في تعداد سكانها.

وقد كانت تقديرات الكثافة السكانية لمدينة الجزائر تختلف باختلاف الفترة الزمنية، فإذا جئنا لتقديرات عدد سُكان مدينة الجزائر في الكتابات الغربية نجد مثلا أنّ (Lucette Valensi) يرى أنّ الحياة في الجزائر عموما كانت ريفية أكثر منها مدنية، ويتَّضح هذا الأمر تحديدا بتتبع عدد السُّكان، إذ تُقدِّر عدد سكان مدينة الجزائر غداة الاحتلال بما لا يتجاوز خمسين ألف (50.000) نسمة، وعدد سكان أهم مدينة في إقليم الشرق الجزائري لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف (25.000) نسمة وعدد سكان أكبر مدن الغرب الجزائري تلمسان لم يتعدَّ غالباً سقف عشرينَ ألف نسمة(20.000)[3] بينما يتحدّث "ميشال بيروت" عن وصول عدد سكان قسنطينة سنة (1830م) إلى الستين ألف فردا (60,000)[4].

وهذه التأثيرات الديمغرافية لم تكن تختص بالمدن الكبرى فقط كما قد يفهم، بل مثلما كما تتحدّث بعض الدِّراسات عن أنّ الوباء الذي ضرب الجزائر مثلا سنة (1818م) وامتد إلى الكثير من المدن كانت تأثيراتها كبيرة على بعض المدن من الناحية الديمغرافية للسكان، إذ نجده قد أتى على خُمس سكان مدينة "بوسعادة"[5]، كما تحدَّث "غيون" عن سقوط ما يقارب مِن ستين (60) ضحية من بين (500) ساكن أي أكثر من (10%) مِن سكان المدينة، وأكثر من ربع سكان إحدى قرى مدينة "جيجل" إذ قضى على ستين(60) فرد من بين (200) فرد كان يقطنها[6].

---

1 - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.
2 - Boutin Vincent-Yves : op.cit., P149.
3 - Lucette Valensi: op.cit., P51.
4 - Perrot Aristide-Michel : op.cit., P 23.
5 - Jean Marchika :op.cit., P171.
6 - Jean Marchika :op.cit., P169.

كما سقط بمدينة بسكرة ما بين (400-450) ضحية من بين عدد سكان لا يتجاوز (3000) ساكن أي تقريبا (15%) من مجمل سكان المدينة، وفي مدينة طولغا القريبة منها سقط (150) من مجموع (700)[1] أي (21.42%) وهي أرقام كبيرة لا محالة، خاصة ونحن نتحدّث عن عينات عشوائية لأوبئة متباعدة وغير تكرارية، فإن أتينا إلى دراسة الأوبئة التكرارية المتزاحمة مع كوارث أخرى طبيعية مثل الزلازل والجفاف أو بشرية مثل الحروب والاقتتال لحصلنا نتائج أكبر مِن هذه بكثير،

بل إننا نقف بعد مقارنة بسيطة بين الأرقام المختلفة للوباء الذي ضرب إيالة الجزائر سنتي (1817م) و(1818م) على عدد ضخم مِن الضحايا، إذ نجد الرقم يناهز السبعة آلاف في سنة (1817م) ويقارب من ضعفه إذ قدّر بـ (14.049) ضحية في السنة التالية (1818م)

وإذا كان هذا رقما مُتحقِّقاً فمن السَّهل الحديث عن الأثر الديمغرافي الكبير الذي أحدثته هاتين الأزمتين الصحيتين على الإيالة، ففقدان عُشر السُّكان خلال الوباء الواحد أو الوباءين يعد أمرا كبيرا وجللا، وإذ قد أتينا فيما مر بنا على ذكر أكثر من (18) مجاعة وحوالي (25) وباء على الأقل ضربا الجزائر خلال الفترة المدروسة (1700-1830م)، وإذ تحقق ذلك فعلا فإنه بالتالي مجموع التأثير الذي نجم عن تسلط المجاعات والأوبئة التِكرارية على النُّمو الديمغرافي للجزائر يفوق بكثير مجموع ضحايا الحروب والمناوشات الداخلية وحتى تلك الخارجية مع الدول الأوربية التي حدثت في جلّ أطوار تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ككل أي: (1515-1830م). وفيما يلي منحنى بياني يرصد أهم مراحل تطور أعداد ضحايا الأزمات الصِّحية في الجزائر خلال مرحلة زمنية ممتدة ما بين(1700-1830م):

[1] - Jean Marchika :op.cit., P171.

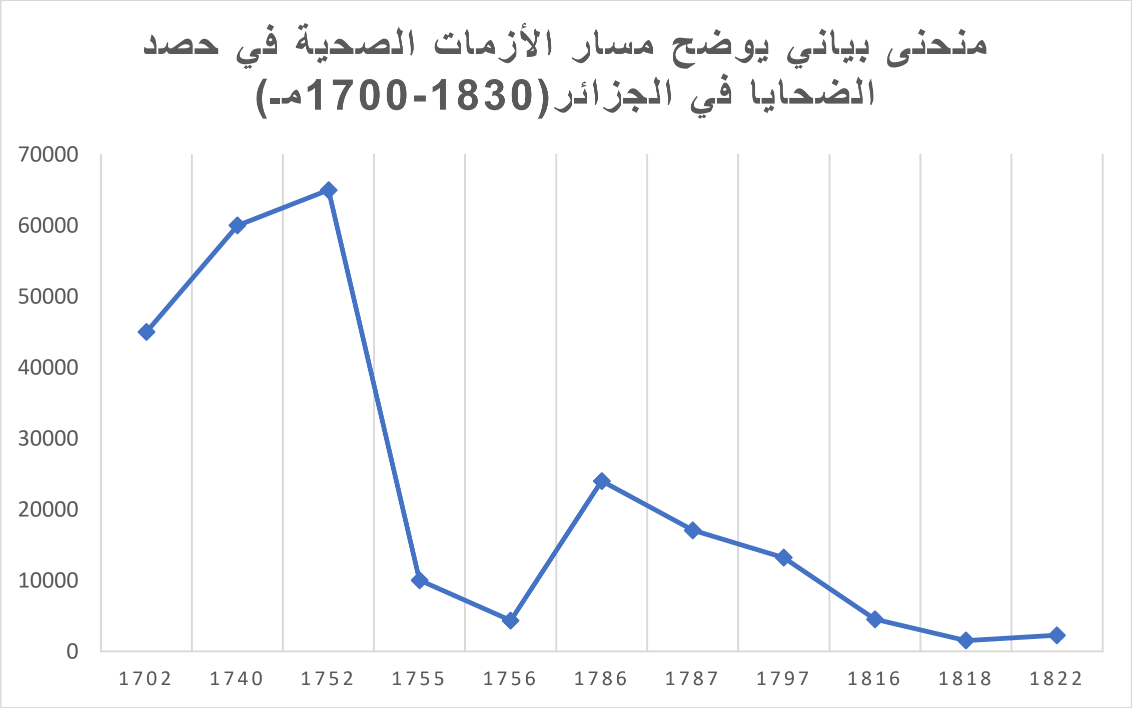

كما أنَّ تأثير الاختلالات الديمغرافية جعل مِن أهمية المدن الجزائرية خلال العهد العثماني تتراجع بالتَّأكيد، فالكثافة السُّكانية كانت تعني بالضَّرورة حركية اقتصادية وتجارية، ما يعني حركة عبور مُستمرة للقوافل التِّجارية ما يؤثر بدون شك على الحركة الاجتماعية والثقافية والعلمية، بل نذهب إلى أكثر من ذلك عندما نتحدَّث عن تأثير الاختلالات الديمغرافية في تاريخ الإيالة ككل والذي تتجلى بعض مظاهره في الاحتلال الفرنسي للإيالة بعدما وجدت منهكة وتعاني في صمت.

مثلما نقف على نقطة مهمة وهي تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الهجرات القبلية، إذ نجد أن هذه الأزمات إضافة إلى أسبابها العامة من انعدام الأمن وغيره كثيرا ما أدى إلى حركات متتابعة لسكان المناطق المختلفة، فنجد أنه من نتائج الأزمة الغذائية التي ألمت ببيلك قسنطينة سنة (1804م) وامتدت إلى ثلاث سنوات أخرى تغيرها في خارطة التمركز السكاني باتجاه عدد كبير من الناس إلى مناطق غير تلك التي شهدت المجاعة من جهة وهروبا من أهوال الاضطراب الذي أحدثته ثورة "ابن الأحرش" في نفس السنة وفي هذا الشأن يقول "العنتري":«...فحصلت للنَّاس شدَّة ومجاعةٌ قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك، خصوصا بعض نواحي القبلة فإنَّهم تشتتوا عن منازلهم وتفرَّقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشَّر والمصائب التي حلّت بهم...»[1] ويكفي أن نذكر أنَّ استقرأنا للمصادر المختلفة ومحاولتنا رصد متوسط

[1] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 33.

ضحايا الأزمات الصحية والغذائية خلال المرحلة الممتدة ما بين (1700-1830م) قد أوصلنا إلى أعداد كبيرة للضحايا كما يوضحه الجدول التالي:

ويتضح لنا بعد أن أخذنا بأقلّ التّقديرات، وباقتصارنا على أهم الأزمات الصّحية فقط التي ذُكرت خلال الدراسة فإننا نقف على رقم يقارب عدد ربع مليون نسمة مِن ساكنة الإيالة الجزائرية فقط خلال المرحلة الممتدة ما بين (1700-1830م)، وإن اعتمدنا على متوسط سكان الإيالة بين الإفراط في تقليل أعداد السكان من طرف الأوروبيين والمبالغة في رصد عدد سكان الإيالة من طرف الكتاب المحليين وقلنا أن عدد السكان كان لا يقل عن أربعة ملايين نسمة فإننا نقف على خسارة الإيالة خلال المرحلة محل الدراسة ما نسبته (6,075%) من ساكنتها. والجدول التالي يوضح جزءا من الخسائر البشرية التي كانت خلال الأزمات الصحية التي شهدتها الإيالة خلال القرنين الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر.

محطات الوباء	**1702**	**1740**	**1752**	**1755**	**1786**	**1787**	**1797**	**1816**	**1818**	**1822**	
أعداد الضحايا	45000	60000	65000	10000	24813	17048	13200	4500	1515	2262	243.338 ضحية تقريبا

وهذا جزء بسيط من أرقام كثيرة كانت قد مرت بنا في الجزء المتعلق كرونولوجيا الأوبئة في الفصل الثالث، وهي تعكس الحالة المتأزمة والتي انعكست بشكل عام على تركيبة وعدد سكان الإيالة في القرن التاسع عشر تحديدا.

انعكاس المجاعات والأوبئة في إيالة الجزائر على الحياة الاجتماعية:

لا يرمي هذا المبحث إلى وصف الأزمات الصَّحية والغذائية التي مرَّت بها الجزائر خلال الممتدة (1700-1830) وتأثيراتها الآنية بل يسعى إلى تفكيك تأثيرات هذه الأزمات بتشبيكاتها وتعقيداتها وتستهدف الوصول إلى رسم ملامح عامة لمظاهر هذا التأثير والذي يفوق في مجمله أحيانا كثيرة تلك الآثار التي تخلِّفُها الحروب والنزاعات، وهذا الانعكاس والتَّجلي لم يقتصر على إيالة الجزائر والقاطنين بها فقط، بل نجده يتمظهر في الثقافة الإنسانية ككل خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة، بل وتمتد جذوره إلى أعماق التَّاريخ فيتمظهر بأشكال عِدَّة ويبرز في قوالب مختلفة[1] لكننا سنقتصر على التأثيرات التي رأيناها هامة وتضيف للبحث العلمي معرفة جديدة وهي تطال أربعة مجالات كبرى هي: الحياة الاجتماعية، الحياة الفكرية، الحياة الدينية، والتصرفات اللاشعورية.

ولعلَّ لن نحيد عن الصواب إن اعتبرنا أنَّ أبرز هذه التَّجليات نجدها تظهر في ثنايا الحياة الاجتماعية العامة فنجد بقايا أثرها في المصنفات والأشعار الملحونة التي كان ينظمها من عايش تلك الأزمات من النَّاس، فيزدرونها ويشتكون مآلات الأمور فيها، مثلما نجدهم يغدقون في الحديث اللاشعوري عن ملامح الشَّقاء والبؤس الذين خلَّفتهما وأنتجتهما الأوبئة والمجاعات.

لكن قبل أن نخوض فيما نروم إيضاحه والحديث عنه نرى أنَّه مِن الواجب أنَّ نفهم العقلية العامة التي كانت تحكم الذهنية الإسلامية ككل خلال الأزمات الصحية والغذائية، إذ أنّ فهم هذه العقلية سيتيح لنا تلمُّس بعض آلية العمل التي أُحدِثت لدى العامة مِن النَّاس أو غيرهم خلال القرن الثامن عشر وبداية التَّاسع عشر، إذ أنَّ ما سنقف عليه هو تراكم لتجارب وخبرات تاريخية أكثر منه إبداع فكري منقطع على المؤثرات التراثية العامة. وأوَّل المقدمات التي ننطلق منها لأجل هذا الغرض هو طبيعة المجتمع الجزائري الدينية خلال تلك المدة أو بالأصح الثقافة الفكرية والدينية للمجتمع الجزائري خلال تلك المرحلة، فالمجتمع الجزائري جزء بسيط ضمن نمط اجتماعي أكبر يحكمه هو النمط الإسلامي عامة والمتلبس باللباس الصوفي خاصة خلال العهد العثماني، وهذا النَّسق الصوفي كان يتحكَّم فيه مجموعة مِن شيوخ الزوايا والطرق الصوفية المختلفة في الجبال وفي المدن الكبرى.

---

[1] - Moranu : Statistique l'été sanitaire de l'armée française : **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, Anne 36. N°23, 1891. P181.

تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الجوانب الحياتية لساكنة الإيالة:

وبالتالي سيُطبع التَّحرك المجتمعي بهذا الطَّابع خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بحيث نجد أنَّ هذا النمط قد طبع التفكير العام في العالم الإسلامي لذا لا يجب أن نستغرب ممَّا تمَّ اعتماده مِن شيوخ الزوايا في إيالة الجزائر كان مُعتمداً أيضا لدى شيوخ التكايا في الأناضول، وهو نفس ما كان يطبِّقه علماء الإسلام في مختلف الأماكن، وقد كانت أولى ردأت الفعل تبرز لدى المجتمع الديني الكبير أو الحلق الدينية والمذهبية الواحدة، فنجد مثلا أنَّ أوَّل ما تمضي إليه الآلية الاجتماعية هو الاتجاه إلى التَّبرك بقراءة أمهات الكتب أثناء الأزمات الغذائية والصِّحية، فتتجه النَّاس أيَّام الوباء لقراءات جماعية لكُتب بعينها وأوراد وأذكار بعينها، فمن ذلك أنّ: «...الشَّافعية يتبرّكون بقراءة "التنبيه" في أيام الوباء وهو كتابٌ مباركٌ...والمالكية يتبرّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة "الموطأ"...و"الحنابلة" يتبرّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة "الخرقي" لأبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي، وجماعة مِن العلماء يتبركون في أيام الطَّاعون بقراءة "الشِّفا" للقاضي عياض...والصُّوفية يتبرّكون بقراءة كتاب "قوت القلوب" لشيخ العارفين أبي طالب المكي...وجمهور العلماء في أيام الوباء والطَّاعون وغير ذلك مِن الآفات السماوية يتبرّكون بقراءة كتاب "البخاري" فإنَّه الجنَّة الواقية في آفات الشَّدائد...ومِن العلماء مَن يتبرّكون بكتاب "مسلم" وهو كتاب جليل الشَّأن باهر البرهان...»[1] وإذا كان قد ظهر جواب ما جنح إليه أهل الملل والمذاهب مِن الرّكون إلى قراءة الكتب فمن الواجب أن نقول أنَّ مثل هكذا ردات فعل وانسحاب إلى الجانب الثيولوجي كانت سائدة في كُلِّ المجتمعات الإسلامية، وهو ما انتشر بدوره في الجزائر خلال العهد العثماني. إذ نقف على الكثير من الشهادات والدلائل التي تتحدث عن عودة أهل الجزائر في الشَّدائد إلى قراءة صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتاب موطأ الإمام مالك لما فيها مِن الاعتقاد بالإنابة بها إلى الله.

لذا نجد أنَّ المخيال الجمعي لدى مجتمع مدينة الجزائر والمدن الكبرى كثيرا ما كان يسارع إلى استدعاء أنواع مختلفة مِن الأدعية والمنامات كتلك التي أغدق البسطيمي في ذكرها[2]، بل نجد أنَّ بعض هذه المنامات والرُؤى أصبحت أصيلة وملاذاً سديدا استغله بعض من ادعى العلم إضافة إلى رجال الحكم للتملُّص مِن واجباتهم اتجاه ما يحدث، بل ويوجد مَن كان يعتقد أنَّ مِن صحيح العقيدة الاستسلام لهذه الأزمات على اعتبار أنَّها مُقدَّرات إلهية لا اعتراض عليها.

[1] – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (2691) [و/19].

[2] – راجع ما تحدَّثنا عنه في المبحث الأول مِن الفصل الأول ففيه تفصيل لهذا المخطوط وأهم ما أورده صاحبه فيه.

وكرد فعل على انتشار هذه الأفكار نجد أنَّ قسماً آخراً مِن علماء المسلمين حاول أن يتخلَّص مِن هذا الركون والاستسلام مِن خلال تبيين مهيَّة الطَّاعون والوباء وأنَّهما لا يُحلاَّن بالرؤى والمنامات بل بالتَّداوي والسعي في العلاج ونجد التَّصريح البيِّن في هذا ما نصَّ عليه "المنبجي" بقوله في مقدمة كتابه "الطَّاعون وأحكامه": «...وسبب تأليف هذا الكتاب في الطَّاعون وأحواله وأحكامه لما رأيت ما أحدث النَّاس مِن البدع في طاعون سنة (764هـ) ختمها الله بخير، بقي بعض النّاس يلقون منامات، ويذكرون فيها أنَّهم رأوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، ويشكون إليه الطَّاعون، وادعوا أنَّه أرشدهم إلى أدعية يدعون بها لرفع الطَّاعون عنهم...»[1] لذا وباستعراضنا المقتضب لآلية التَّفاعل الإسلامي في مراحل مختلفة للمجتمعات العلمية معه يتَّضح لنا بأنَّ انعكاس هذه الثقافة قد وجد له ترسُّبات في الذِّهنية العامة للمجتمع الجزائر خلال العهد العثماني ككل.

وإذا تقرَّر ما سبق أمكننا أن نسلك مسلك من يرى إنَّه مِن الممكن إدراج هذه الانعكاسات والتصرفات ضمن ما سمينها سابقا بالبُنى الأساسية الكبرى للتاريخ، وهذه البنى كما مر إنما محلها تاريخ الأمد الطويل الذي يعتني بالتطورات البطيئة في التاريخ، وهذه البنى هي بالفعل المدارات التي سارت عليها ركبان الأزمات الصحية والغذائية في العالم الإسلامي، وقد تجلَّى التَّأثير المباشر للأزمات على المجتمع في جانبه الدِّيني بمحاولة العودة إلى الدِّين والاستسلام للقضاء في مفهومه السِّلبي لذا لا نستغرب حديث أحد علماء الجزائر والمنطقة المغاربية خلال بدايات القرن التاسع عشر "العربي المشرفي" عن كون أنَّ أسباب الوباء والطَّاعون هو الابتعاد عن الدين وكثرة المعاصي بقوله: «..ونستغفرك من آثام ارتكبناها فجرت إلينا الطعن والطَّاعون، ومِن أجلها ارتفعت البركة في الأعمار والأمطار والأسعار... »[2] وهذا أمر مثلما قلنا ونكرِّره امتدادٌ لفكر عام موجود خلال المرحلة محلَّ الدِّراسة وفي غير الحيز الجغرافي الجزائري، فنجد مثلاً محمّد الضعيف يرى أنَّ الوباء مردُّه: «... كثرة المناكر وما ظهر مِن الفُحشى مع قلة الأحكام فما أهون الخلق على خالقه إن خالفوا أمره ونهيه..»[3]

صور من تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الإنتاج العلمي

وإذا تقرَّر أثر هذه الترسبات في الذهنية العامة لدى المسلم خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من ذكر التأثيرات المختلفة للأزمات الصحية والغذائية على الحياة الدينية والفكرية داخل المجتمع، ونجد ملامح هذا التَّأثير ترتسم في جزء منها على المصنفات التي

---

[1] - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: كتاب الطاعون وأحكامه، ص 69.

[2] - العربي المشرفي: المصدر السابق، ص175.

[3] - محمد الأمين بزاز: المرجع السابق، ص67.

صنفت في شأن هذا الموضوع، فنجد أنفسنا أمام عدد مِن المصنفات كان للأزمات التي نتحدث عنها أثر في كتابتها أو سبباً مُباشرا في وضعها فمن هذا ما صنَّفه "حمدان بن عثمان خوجة" من كتاب في شأن الاحتراز من الأوبئة سمَّاه "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" وهو كتاب على صغر حجمه يوضح جزء من طريقة تعامل الأهالي مع الأزمات الصحية التي كانت تلم بهم، كما أنه يثير نقطة محورية بني عليها الكتاب هي إشكالية الأخذ عن الغرب في شأن تنظيماتهم المختلفة التي استحدثوها، لذا نجد "حمدان بن عثمان خوجة" يعتني بشكل تفصيلي بهذه النقطة، ويحشد لكتابه عدد من التَّصديرات مِن علماء عصره حتى يكون المطَّلع على الكتاب على بينة مِن مشروعية ما يقدمه "حمدان بن عثمان خوجة" خاصة ونحن نعلم أنَّ الكتاب قد أُهدِي إلى السُّلطان محمود الثاني. وقد بث فيها "حمدان خوجة" تفاصيل ملاحظاته المختلفة عن الموضوع مِن خلال زياراته المتعددة إلى الدول الأوروبية.

كما نقف على مُصنَّفٍ آخر لعالم جزائري "العربي المشرفي" هو الآخر صنفه وهو خارج الجزائر بعد سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي عنوانه " أقوال المطاعين في الطعن والطواعين" تناول فيه بدوره عدد من المواضيع التي تثار في شأن الطَّاعون وأخباره، وتحدث عن تأثير الطاعون المباشر في تغير العديد من ساكنة بيلك الغرب الجزائري لأماكن وجودهم ومواطنهم بسبب الطَّواعين. مثلما نقف على ذكر "بن سحنون" في كتابه "الأزهار الشقيقة" نظمه لقصيدة في الطَّاعون الذي تفشى في الجزائر سنة (1202هـ/1787م) هذا الطاعون الذي أجبره على الانتقال مِن محل سكناه في معسكر إلى غيرها[1].

ومِن جانب آخر نجد تأثير المجاعات -أو الأزمات الغذائية- على قرائح المؤلفين يتجسَّد في صور متعددة منها: بعض القصائد المتناثرة في المجلاَّت الفرنسية المختلفة التي اعتنت بتاريخ الإيالة كالمجلة الإفريقية و"روكاي" و"المجلة الفرنسية"، لكننا سنبدأ بذكر الكِتاب الذي يكاد يكون وحيدا في هذا الشَّأن، وهو ذلك الأثر الذي خلَّفه "العنتري" بحيث أرَّخ فيه لأهم المجاعات التي ضربت بيلك قسنطينة في فترة مُتأخِّرة وقد كتبه بطلبٍ مِن الكوموندان "دولير" سنة (1870م)[2]، كان الكتب غريبا في عصره وجديدا في بابه[3] إلاَّ أنَّ المرحلة الزمنية التي يتناولها الكتاب لا تُغطِّي المرحلة التي وضعناها محلَّ الدِّراسة ككل، وإنَّما تكتفي بجزء بسيط منها فقط، ممتد ما بين (1808-1830م) كان خلالها صاحب الكتاب شاهدا على أهم أحداث المجاعات، فيما يستمر جرد هذه الأزمات الغذائية حدود سنة (1870م).

[1] - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 423.
[2] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 07.
[3] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 10.

كما نجد انعكاس الأزمات الغذائية على ناصية الشعر الاجتماعي الشعبي في إيالة الجزائر، فنقف على عدد ممَّا قيل في الأزمات الصحية أو الغذائية خاصة منها تلك التي قيلت في أيام المسغبة ومن ذلك ما نقف عليه في الشعر الشعبي مِن قول الشَّاعر:

القَمْـــحْ يَا بَاهِــي اللُّــون   مَـــن شَـــبْعَتَكْ لاَ زِيَادَة

أَنــتَ قُــوتْ كُــلْ مَسْــكِينْ   بِــكَ الصَّــلاَةْ والْعْبَــادَة

ويروي العنتري أنَّ بعض النَّاس نظم القصائد في القمح؛ حَّتى يستعطف النَّاس فيتصدَّقوا عليه بما يسد رمقه ويخفِّفُوا عليه ضَيْقَه، وآخر يصف حال النِّساء وكيف فرطن في الاهتمام بعملهن في الغزل والحياكة وانصرف جهدهم إلى الكلام عن تلذذ الأكل فقال واصفا هذه الحال:

خِيرْ الاغرازِ وَسْيَادِي راحَتْ الهمَّه طَيْشُوا   الخَيـوطْ جَبْـدُوا التَّنْكِيـدَه علـى النَّعْمَـة

ويقول في موضع آخر يذكر أنَّ النِّسوة لم يعد لهنَّ أيَّ رغبةٍ في الاهتمام بجمالهن والتَّزيُّن لأزواجهن، فجلُّ هَمهنّ أضحى في التفكير في كيفية العَيش وماذا يأكلنَّ؛ لهذا لم يبق لهن أي اهتمام بجمالهن وهو ما يتجلى في تركهن الاهتمام بمجالب التزين سواء مِن الحنة التي يستعملنها في أيديهن أو في صبغ شعرهنَّ وفي هذا المعنى ينقل العنتري قول الشاعر:

رِيـتْ النَّسْـوَانْ لاَ حـبَّ القَرْمُـزْ لاَ حَنَّـه   أَجَبْدُوا الفِيسَانِ أجَبْدُوا الفِيسَانِ القَريوا

وهذه

المظاهر الاجتماعية الناجمة عن الأزمات الصحية أو الغذائية لم تكن تنحصر فقط على السَّواد من العوام، بل نجد نفس الآثار تنعكس على مختلف الإثنيات التي كانت تشكل الإيالة، فنقف على بعض ما خلفه اليهود من تراث شعري شعبي في شأن بعض السَّنوات العجاف، فنجد أنَّهم أضحوا يرون أنَّ العام يزداد طولا ولا يكاد ينقضي، والنَّاس في بؤس مِن العيش، فالنَّاظم يرى القِدْر غير أنَّه دائماً ما يكون خاوِيا؛ لذا نجد النَّاظم يسأل في آخر الأبيات مِن جبريل عليه السلام أنْ يقضي عليهم ويبيدهم بدل هذه المعيشة الضنكى فيقول:

شُـــوفُوا هـــذاَ العَـــامَ الكَبِـــير والعبـــــــاد منكَّـــــــدِينْ

رِيـــتْ البَرمَـــة والكَسْـــكَاسْ والبْرِيـــــــق مَسَـــــــوْدِينْ

انغَـــرْ عَلِينَـــا هَـــا يَا جَبْرِيـــلْ[1]

مثلما نجد أنَّ من آثار الأزمات الصحية والغذائية لم تقتصر فقط على صور من الحياة الاجتماعية العامة، بل تعدته إلى العديد من الانعكاسات الثقافية الأخرى والتي من بينها ما سبق الحديث عنه، كالكتابات النثرية والشعرية، ومنها ما ظل خفيا مجهولا لا يُنتبه له إلاَّ في مرات نادرة، ونقصد به تحديدا تأثير الأزمات على التراث المكتبي المخطوط الذي كان موجودا حينها، فكثيرا ما ضيعت الخزائن والكتب بسبب الأزمات، فإن كانت الحاجة الغذائية قد تدفع بصاحبها إلى بيع أغلى ممتلكاته سواء العينية أو العقارية فلا بد أنّ يكون بعض العلماء قد اضطر إلى هذا الأمر ليسد رمقه به، بل ونقف أن الأوبئة أيضا كانت سببا في فقدان الكثير من الكتابات ومن ذلك ما يذكره الورثيلاني من تشتُّت وضياع كُتب أحد أجداده مِن علماء القرن السّادس عشر بسبب الوباء الذي ألَمَّ بهم في تلك الناحية فيقول: «..وكانت عنده خزانة عظيمة؛ بحيث لا توجد عند غيره، ولما سُلِّط عليهم الوباء ولم يبق إلاَّ ولدان صغيران ضاعت الكتب...»[2].

مثلما نقف على تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الكتاب الأوروبيين في الجزائر خلال المدَّة الزمنية محل الدِّراسة، فنجد مثلا أنَّ وباء سنة (1740م) الذي وفد في سفينة فرنسية إلى الجزائر[3] قد ترك أثراً بارزاً في الكتابات التي قيَّدها الرَّحالة الأوروبيين والقناصل وغيرهم، إذ كان الحديث عنه وكأنَّه تأليب لأحزان الماضي وتذكر لهزائم ضد الوباء واستجلاب للحزن، وهذا ما نقف عليه كثيرا في تقيدات الآباء الذي كانوا شهودا على هذا الوباء في الجزائر أو خلفوا بعض زملاءهم الذي قضى عليهم هذا الوباء، فنجد مثلا فنجد الأب باسو بعد اثنتا عشرة سنة يعود ليرسم ذكرى هذا الوباء بصورته العنيفة الفضة التي تركها في مدينة الجزائر[4]، وتتجاوز التأثيرات على هؤلاء الأفراد فمنهم من خص الوباء بكتاب كما فعل الأب

[1] – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 44.

[2] – الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، المجلد الأول، ص180.

[3] - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes: F° 264-265. 27/05/1740.

[4] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P229.

"فيشرا"[1] في تخصيصه إحدى أعماله للوباء الذي ألم بالإيالة (1786-1787م) وكان له أثر بالغ جدا على الإيالة كما سبق ذكره، ومنه مَن جعل أهم ما قيَّده في كتاباته لمحات عن مسار الأوبئة بشكل عرضي وهو ما نجده كثيرا في الكتب الرحالة كالأب "باسو"[2] ومنهم من اكتفى بذكر أثره وبعض ملامحه كما فعل الأب باتو في رحلته من الجزائر إلى الإيالة التونسية.

فإن فُرغ ممَّا سبق واستُوعِب ما أردنا قوله مِن آثار الجلية والخفية لانعكاسات الأزمات الصحية والغذائية على الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية لمجتمع الإيالة، رأينا أنَّه مِن الضَّروري الآن الانتقال إلى الحديث عن جزئية هامة ظلَّت في المخيال الجمعي اللاشعوري لمجتمع الإيالة خلال المرحلة المدروسة وبعدها أيضا وهو تأريخ السنوات بأسماء الأزمات.

التأريخ بأسماء الأزمات في العرف الاجتماعي للإيالة (1700-1830م)

لعلَّه مِن بين جميع الأمراض التي عرفتها الإنسانية خلال تلك الفترة لا يوجد مَن كان له تأثير بعمق على المخيال العام وعلى الحياة العامة مثل تأثيرات الأزمات الصِحية ممثلةً في الطَّاعون والأوبئة[3] وبدرجة أقل المجاعات وسنوات القحط، ونتلمَّس هذا التَّأثير في عدد مِن التَّجليات انعكست بدراجات مختلفة على أفراد المجتمع كلّ وفق محيطه الخاص، بحيث لم يقتصر على فئة دون أخرى، وإنَّما كان الأثر موجود عند الفئات المختلفة بدراجات متباينة.

وإذا عرف هذا قلنا أنَّ مِن المظاهر التي انعكست عليها أيضا تأثيرات أزمات الغذاء والوباء تلك التَّسميات التي علقت في أذهان العامة من الناس دلالة على ما أصابهم تلك السنة، فمثلما سمى العرب عام الفيل بسبب قدوم أبرهة إلى الكعبة وخلَّدُوا الحدث بهذه الطريقة، وهو ما نجد أهل الإيالة قد درجوا على فعله لا شعوريا فنجد السنوات تُؤرَّخ بما حدث فيها مِن أزمات القحط والجدب والوباء، وهذا الأمر يتجاوز المرحلة الزمنية المدروسة (1700-1830م) بل نجده يسري على كلّ السنوات التي عرفت اضطرابات وأزمات صحية وغذائية كبيرة فنقف على سبيل المثال على تسمية سنة (1620م) بعام "الحبحوبة"؛ ذلك أنَّ الوباء ضرب في هذه السنة الإيالة بشكل كبير، لكن هذه التَّسمية لم تكن مُوحَّدة بل نجدها خُلِّدت بأسماء مختلفة باختلاف الجهة التي ظهر فيها، فسمّيت مثلا السنة التي تلتها وكان فيها الوباء باسم "عام سيدي بلخريس"[4] في مواطن أخرى بسبب أنها قد أتت على هذا الرجل المعروف بصلاحها في المنطقة، وقد أضحى الأمر أقرب ما يكون إلى العرف في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.

[1] - Jean Claude Vichert : op.cit.
[2] -Arnoult Bossu : op.cit., M.C.M, T3, P190.
[3] - Laumonier Jean : op.cit., P01.
[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P260.

ومما ذُكر مِن الأسماء لسنوات بعينها أوردتها المصادر المختلفة اعتنت بذكر بعض التسميات لسنوات الأزمات بطريقة غير مقصودة في الغالب الأعم ما نقف عليه من تسمية سنة (1738م) "بعام الوبا"[1]، "عام النو الأحمر" كناية على الرمال والرياح التي صاحب الهطول الشديد للأمطار في تلك السنوات وما أعقبها من قحط ومجاعة أو أنَّها تكون نتيجة احمرار أفق السماء بفعل الجدب[2]، ومِن التَّسميات أيضا ما نقف عليه سنة (1779م) مِن تسمية هذه السَّنة باسم "عام قرامو" كناية عن الشهر الذي وقعت به هذه المجاعة، ووسمهم السَّنة التي أدركها القحط بعد ثورة "ابن الأحرش" بعام "الخمسطاش" أي "الخمسة عشر" كناية عن السعر الذي بلغه الصاع الواحد من القمح والذي قُدِّر بخمسة عشر ريالا[3]، مثلما قد أرَّخ لسنة (1208هـ/1794م) باسم "حبحوبة عثمان" وهو الاسم الذي أُطلق على الوباء الذي حلَّ بمنطقة الغرب الجزائري أيضا في تلك السنة، وسبب هذه التَّسمية أنَّ الوباء في هذه السنة أتى على عدد كبير من عائلة عثمان؛ فسمِّي بهذا الاسم[4]، كما نجد أنَّ وباء (1796م) قد سُمي في بعض المناطق باسم "حبوبة المجاد" وذلك بسبب ما حصده مِن ضحايا في صفوف هذه العائلة، بل نقف -في بعض المصادر- على ما يُروى مِن أنّ هذا الوباء قد قضى تماما على أفراد عائلة (المجاد)[5] لذا ارتسم في المخيال الجمعي لسكَّان المنطقة أنَّ هذه السنة هي "عام حبوبة المجاد" وظل هذا الاسم هو المعيار السائد لسنة أصيبت فيها المنطقة بالمجاعة ولحقها الوباء بعد ذلك فجعلها بحق سنة أزمات متعدِّدة. مثلما ذكرت بعض المصادر أسماء أخرى للأزمات والسنوات التي شهدتها الأزمات منها الهيضة للكوليرا على سبيل المثال لا الحصر[6].

الانعكاسات المجتمعية للأزمات الغذائية والصحية :

قبل أن نشرع في مرادنا من هذا المبحث علينا أن نعي بأنَّ للأزمات الغذائية والوعكات الصحية التي كانت يتعرَّض لها المجتمع الجزائري خلال المرحلة محل الدِّراسة (1700-1830) على نمطين متباين مِن الانعكاسات، فنقف منها في شق منها على بروز عوارض اجتماعية إيجابية ومحبذة مثل التَّكافل والتَّآزر بين طبقات المجتمع، مثلما نقف على التَّنافر والشِّقاق والحرب والاقتتال بين نفس

---

[1] - Jean Marchika :op.cit., P78.

[2] - مزدور سمية: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (1192م – 1520م)** رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، 2009.

[3] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص، ص 40، 45، 48.

[4] - J.-L.-G. Guyon : op.cit., P357.

[5] - Walsin Esterhazy : op.cit., P190.

[6] - Pharaon Florian et le docteur Bertherand : l'Histoire de la Médecine chez les Arabes. Vocabulaire français-arabe, Papiers et manuscrits ayant appartenu au docteur Leclerc, manuscrit, Bibliothèque nationale de France. Département des manuscrits. Arabe 6455. P68.

أفراد المجتمع في مراحل ما؛ ولهذا وجب علينا أن نتطرّق إلى الصُّور المختلفة التي أودعتها الأزمات في ثنايا المجتمع.

لقد كان للأزمات الصّحية والغذائية التي انتشرت بين سكان الإيالة الجزائرية خلال الفترة الممتدة (1700-1830م) العديد من الأثار السلبية، منها ما يمكن اعتبار أثره السلبي يتعدّى في الكثير مِن الأحيان التأثيرات البينة التي تظهر في الجانب الاقتصادي والديمغرافي، إذا كان التأثير بالإضافة إلى أنه اقتصادي وديمغرافي نفسي واجتماعي، وهو ما يتجلّى في الاضطرابات العارضة التي كانت تنتج داخل المجتمع، فنقف على تفكُّك عرى التعاون والصلح القائم سواء بين أفراد القبيلة الواحدة أو القبائل المختلفة بسبب أحد الأزمات الغذائية، فنجد مثلاً مِن نتائج القحط الذي ضرب منطقة "وادي سوف" سنة (1207هـ/1793م) أنَّ قلة الكلأ والمؤونة أدت إلى حدوث تنازع بين القبائل المحيطة بالوادي بل وبين أهل الوادي أنفسهم[1]، في مَنْ يكون له الحقّ في استغلال الأراضي الخصبة التي آتت أكلها في المنطقة المشاعة بين النَّاس، ونشب اقتتال بين سكان المنطقة؛ انتهى بنزوح عدد مِن العائلات الصَّحراوية البدوية إلى الحواضر هروبا مما قد يدركهم بسبب القحط والمواجهات المتجدِّدة، كما نزحت عائلات عدة باتِّجاه الصّحراء الشّرقية أي الحدود الجزائرية الليبية حاليا، والتقت مع أهالي صحراء "غدامس" الذين عجِبُوا لحال أهل الصحراء الجزائرية وما لحقهم مِن جوع وعراء بسبب القحط والجدب الذي أدرك المنطقة.

وما تم ذكره لم يكن الحالة الوحيدة بل نفس الأمر نقف عليه في بيلك الغرب الجزائري، إذ استغلت مجاعة بداية القرن التّاسع عشر في زمن "مصطفى باي" مِن أجل تأليب العرب ضد الكراغلة أو الترك وهو ما جُسِّد فعلا في ثورة "ابن الشريف" في الغرب الجزائري[2]، فنجد النسيج الاجتماعي الواحد داخل المدينة قد بدأ يعاني التفتت والشتات والتكتل الإثني نتيجة هذه الأزمة الغذائية، وأدى إلى مواجهات داخل مدينة وهران والمدن الكبرى بين الفئات المختلفة، لاعتقاد كل فئة أن الطرف الأخر يحتكر المؤونة.

ونقف أيضا في بيلك الشرق الجزائري بعيد وأثناء ثورة "ابن الأحرش" سنة (1218هـ/1802م) والتي امتدَّت سنوات في الشّرق الجزائري، نجم عنها حدوث المجاعة؛ بسبب قلَّة الحرث وانعدام الحبوب لغياب الأمن، فكان مِن نتائج ندرة ذلك أن دخلت أعراش بيلك قسنطينة في مواجهات بين بعضها البعض؛ لأجل تأمين القوت، كما نزح النَّاس مِن دورهم «...وتَشتَّتُوا عَن منازلهم

[1] - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص 280.

[2] - Walsin Esterhazy : op.cit., P206.

بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشَّرِ والمصائب التي حلَّت بهم مِن قِبَل يبس الزَّرع وعدم الحرث...»[1] وقد وصف العنتري حال هذه القبائل بعد المجاعة المذكورة وما لحقهم مِن سوء الأوضاع حتى أصبحوا :«...يَقتاتُون الدَّم والميتة وغير ذلك ممَّا لاَ يُبَاح اقتياته...»[2]

ومما ترتب أيضا على إحدى الأزمات الغذائية مثلا التي ألمت بمدينة الجزائر سنة (1805م) أن أحدثت ثورة شعبية وُجِّهت في الأساس ضدّ فئة اليهود بحكم أنَّهم المتصرفون الحقيقيون في الشؤون التجارية للإيالة عموما والتَّموين خصوصا، مُستغلِّين في ذلك علاقاتهم القوية بالسُّلطة الحاكمة[3]، وهذه الثورة أحدثت رجّة عنيفة داخل مكونات المجتمع إذ بدأت بقتل أحد الجنود الإنكشاريين للتاجر اليهودي "نفطالي بوشناق"[4] الرجل اليهودي الذي كانت شركته التجارية تعتني بتصدر القمح الجزائري إلى أوروبا، وكان يمثّل في نفس الوقت رجل النفوذ السياسي الكبير ورئيس الجالية اليهودية بداية من (1800م) كما يذكر ذلك إيزنباث، ولعلّه الأمر الذي حمل الجندي الذي اغتاله على القول :"تحية إليك يا ملك الجزائر" وقد خلَّفت هذه الانتفاضة مقتل عددٍ مِن اليهود قدرته بعض الأبحاث بأكثر مِن خمسين شخصا[5]، وكان من نتائج هذه الانتفاضة ضد نفوذ اليهود أن أدت إلى هجرة عدد مِن العوائل اليهودية قدرت بأكثر مِن (200) عائلة منها مَن سلكت مسلك لفورنا ومِنها مَن اتجهت إلى تونس[6]. وبالتالي كان السبب الرئيس غير المباشر لهذه الثورة ولتلك الأحداث بين القبائل سواء في بيلك الشرق أو بيلك الغرب الجزائري أو حتى في الصحراء مستندا إلى قلة الغذاء ووجود الحاجة الماسة لتأمينه، ما جعل المجتمع القبلي وحتى الحضري يدخل في صراعات جهوية وإثنية فقد خلالها العديد من الساكنة كما فقد استقرار الحيز الجغرافي ما سيؤدي لاحقا إلى انعكاسات على المدى البعيد في علاقات القبائل المختلفة والعلاقات داخل المدينة بين الفئات والإثنيات المختلفة، وهو ما يبدو لنا واضحا في صورة علاقة اليهود مع الأهالي مثلا في مدينة الجزائر وفي مدينة قسنطينة بعد الاحتلال الفرنسي لهما، إذ استدعيت الأحداث التي كانت في الذاكرة اليهودية مع سكان الإيالة ما حملهم على محاولة الانتقام والتحالف مع المحتل الأجنبي، كأحد صور أخذ الثأر.

[1] - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص 33.

[2] - المصدر نفسه: ص 34.

[3] - Not sur la Bibliothèque musée d'Algérie, Anne 1894, N°38. P247.

[4] - H.- DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), P361.

[5] - ibid. P361.

[6] حنيفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص 60.

وبهذا يتبدى لنا الأثر الكبير للأزمات لا على حاضر المدن والأحواز المختلفة فقط، بل حتى على التأثير المستقبلي، وإن كان هذا الأمر لا يمكن استجلاءه إلا بالتدقيق والدراسة المتأنية ومحاولة فهم البنى والظروف المختلفة التي بنيت عليها الأحداث الظرفية.

الخاتمة

الخاتمة:

لا يعني الحديث عن خاتمة أنها نهاية لبحث أو تجميع لشتات والقيام بعملية جرد عام لما تم الحديث عنه في الدراسة، بقدر ما يمكن عدها بل هي تعني الشروع في التأسيس للبحث من منطلقات جديدة متوصل لها في هذه الدراسة، ففي طول الدراسة لم تنقطع تلك المحاكات بين البنى التحتية والظروف الآنية في ظهور مجموعة من الأحداث على مجرى التاريخ كانت تأثيراتها متعددة ومختلفة باختلاف الأدوات والوسائل المتوفر في تلك اللحظة الحديثة.

ومما تبين لنا بعد هذه الدراسة أنَّ الأزمات الصحية والغذائية عموما والمجاعات والأوبئة خصوصا كانت إحدى الأركان الأساسية التي تأسست عليها الحياة العامة في مجتمع إيالة الجزائر خلال المرحلة المنحصرة ما بين (1700-1830)، فنجده على صلة مباشرة معها في جل تفاصيلها على مسرح الأحداث، ويتفاعل معها سواء بعلمه أو دون علمه، كما تؤثر هي فيه مِن نواحي عدّةٍ قد يكون بعضها مباشر يتمثلّ في الموت أو المرض أو هما معا، ولكن أغلب آثارها تبقى مستترة إلى فترة متوسطة وفي بعض الأحيان بعيدة.

واستنادا إلى ما سبق كان جديرا بنا أنَّ نقرر بأنّ الأوبئة والمجاعات ما هي في الحقيقة إلّا تجسيداً لشكل مِن أشكال البؤس الإنساني الذي تولّد عن ظروف معيشية وحياتية قاسية، وبعد استعراضنا للمسار الذي سلكته هذه المجاعات والأوبئة، والأسباب التي ساعدت على نموها وتطوُّرها يمكننا أن نصل إلى مجموعة مِن الاستنتاجات التي قد تكون أولية الآن ولعلّها تحتاج إلى تعمق أكبر في المستقبل، من بينها:

أن العلاقة بين الأوبئة والمجاعات وبشكل عام بين الأزمات الصحية والأزمات الغذائية متداخلة ومتشابكة بشكل عام، بحيث أثرت كل واحدة منهما في الأخرى وتأثرت بها، فكل أزمة تأتي بعد الأخرى تحدث ضرارا أكبر من قدومها منفردة، وهو ما أشرنا إليه في مواضع مختلفة في متن الدراسة، كما يمكننا أن نقول أن أثر الأزمات الصحية كان أشد فتكا بالتركيبة البشرية لساكنة الإيالة؛ فأعداد الضحايا الناجمون عن الأزمات الصحية أكبر بكثير من ضحايا الأزمات الغذائية.

ومثلما رأينا فقد بقيت الأوبئة مرتبطة فيما بينها خلال فترة طويلة، فظلت تستدعي بعض الجيوب الوبائية كلما توفرت لها العوامل المساعدة على ذلك، فنجد الوباء يظهر في سنة (1783م) وتبقى آثاره تتجدَّد إلى غاية (1794م). وما يكاد يضمحل وجوده في مكان ما إلاّ وقد ظهر في مكان آخر.

ظل متوسط عمر الوباء الذي يظهر في الإيالة يختلف ما بين السنة الواحدة والثلاث سنوات مع وجود بعض الاستثناءات بحيث استطاعت أنواع معينة من الأوبئة أن تستمرَّ في حصد الضحايا والتَّجدُّد لمدَّة طولية ناهزت العشر سنوات كاملة في بعض الحالات.

قوَّة الأزمات الصحية ظلت مرتبطة بشكل مباشر بعدة عوامل منها: ما يمكن عدُّه من عامل تقوية الأزمات، ومنها ما هو عامل لاستمرار وتفشي هذه الأزمات. فمن عوامل التقوية الأساسية: المناخ ودرجة الحرارة والرطوبة، ومِن العوامل الأساسية في الاستمرارية والتفشي عدم الاحتراز من الوباء وعدم وجود ثقافة طبية في هذا الشأن، إمَّا لدواعي عقدية مغلوطة أو دواعي غير واعية. كما أنّه قد تقرّر بأنّ كل مِن الأوبئة والمجاعات ظلتا في الكثير مِن الأحيان خاضعتين لبعضهما البعض وتتأثران ببعضهما البعض بحيث أدى وجود المجاعة إلى تحضر أرضية لتفشي الأوبئة بسبب ما تحدثه المجاعة من نقص وسوء في التغذية ما يترتب عنه فقدان القدرة المناعية للجسم في مواجهتها للأوبئة.

يمكننا القول أنَّ الكثافة السُّكانية كما رأينا أحد العوامل الأساسية التي تساهم في احتضان وتنمية الأوبئة، فإن أضيفت لها بعض العوامل العارضة كالمناخ والرطوبة ودرجة الحرارة المعتدلة إضافة إلى عوامل بشرية أخرى كانعدام شروط النظافة وعدم توفر مجاري مائية لتصريف المياه انتقلت هذه الأوبئة وتفشت من مكان إلى آخر بمساعدة العامل البشري السكاني. كما أنّه مِن الضَّروري أن نشير إلى أنّ المناخ وإن كانت له يد واضحة ومباشرة في الأزمات الغذائية والمجاعات فإن يده تصبح خفية لكنها لا تقل أثرا في تفشي الأزمات الصحية والأمراض الوبائية؛ إذ أنَّ اعتدال حرارة الجو كان سبباً في نمو الطفيليات والأرومات خلال فصلي الخريف والربيع، وانخفاض درجة الحرارة أو ارتفاعها بشكل كبير كان يؤدي إلى انحصار النشاط الوبائي.

وجدت في الإيالة نقاط محورية ومدن مركزية ظلت محافظة على عادتها في التفاعل مع الأزمات الغذائية والصحية فنجدها تتصدى دائما لاحتضان الوباء وتصديره إلى أماكن أخرى في الإيالة، سواء بشكل مباشر أو في شكل غير مباشر، وبعد تتبعنا للأوبئة طيلة قرن وربع قرن يمكننا أن نقول أنَّ الأوبئة شكَّلت مُثلثاً نشطاً لحركيتها، قاعدته تمتد مِن مدينة الجزائر إلى مدينة القالة ورأسه في مدينة قسنطينة. فإن تقرر هذا كنا جدراء بالقول أنَّ حدَّة الوباء في الجزائر كانت تختلف مِن منطقة إلى أخرى وأنَّه كلَّما اتجهنا مِن الشَّرق إلى الغرب وكلما نزلنا مِن المناطق الساحلية شمالا إلى المناطق الداخلية جنوبا قلَّت حدَّته ، حتَّى يكاد ينتهي أثره فعليا في المناطق الصحراوية. لكن هذه الخارطة الجغرافية بهذا الشكل ظلت صالحة فقط بالنسبة للأزمات الصحية بدون الأزمات الغذائية التي لم تتضح صورة محددة لها، فغالبا ماكانت الأزمات الغذائية تعم الإيالة ككلّ ما يجعل الحديث عن نقاط مُحدَّدة لانتشار المجاعات أمر غير صحيح.

لكن هذا لم يمنع مِن أن تكون فئة البساكرة في مجتمع مدينة الجزائر أوَّل مجموعة تتأثَّر بالوباء وتحمله مِن الميناء إلى داخل أسوار مدينة الجزائر ثمَّ بعد ذلك إلى عمق الإيالة، والسَّبب المباشر في ذلك يعود إلى

طبيعة نشاط هذه المجموعة، إذ كانت تشتغل في مهنة حمل الأغراض بالموانئ، ما يجعلهم دائما في مواجهة الأعراض الوبائية القادمة مِن البحر.

مثلما بقيت الأوبئة في المخيال الجماعي للسُّكان أحد الجنود الضارية التي لم يجد معها الإنسان الجزائري في العهد العثماني حلاً إلاَّ الاعتراف لها بالقوَّة والاستسلام لمشيئتها؛ لذا نجد أن تطبيق شروط الحجر الصحي لم تكن تحترم بشكل عام، كما أنَّ تطبيقه في حالات ما لم يكن يحسم بشكل مباشر منع دخول الوباء إلى إيالة الجزائر، وهذا الأمر تساهم فيه أسباب عديدة منها طول السّاحل الجزائري وعدم وجود ثقافة صحية بالمفهوم المعاصر لدى أفراد هذا المجتمع ما أدى إلى بروز نتائج وخيمة تحملها المجتمع ككل، وتمظهرت في شكل تردي عام للوضع الصِّحي لدى أفراد المجتمع.

يمكننا بعد استعراضنا للدراسة أن نحمّل السُّلطة الحاكمة خلال الفترة المدروسة جزءا كبيراً مِن المسؤولية في الآثار المترتبة عن المجاعات والأوبئة، فمثلما فصّلنا الأمر في ثنايا الفصول والمباحث المختلفة، بقي تعاملها مع هذه الأزمات تعامل ساذجاً لا يرقى لتفكير الجماعة الحاكمة فضلا عن الأمم المؤسساتية، بل إنّ معظم الإجراءات المتَّخذة مِن طرف السُّلطة الحاكمة ظلَّت إجراءات ظرفية تنم عن مستوى وطريقة التفكير، إذ أنّنا نقف في المخيال العام لدى مَن حَكم الجزائر خلال تلك الفترة مِن الدَّايات والبايات على اعتقاد جازم عند عدد كبير منهم مفاده بأنَّهم في مرحلة تحصيل المزايا والأموال وليس لهم من الوقت ما يسمح لهم للتَّأسيس لرؤية تفكِّر في المجتمع كأحد العوامل الأساسية لاستمرارية الحاكم.

وإذا تقرَّر هذا الاختلاف في التَّصرف بين الدّايات والبايات مع الأزمات وجب أن نصرف القول إلى بيان سبب ذلك وهو يرجع بنسبة كبيرة إلى رؤية حكام لتواجدهم في السُّلطة، فمن كان يرى في نفسه أنَّ دوره هو تحصيل الضرائب مِن القبائل المتواجدة في مناطق حكمه وإخضاع القبائل الرافضة لذلك لا أكثر، لذا فهذا لم يكن يرى أنَّ التَّصرف مع الأزمات أو البحث عن حلول لها تقع ضمن إطار اختصاصه أو مهمته، مثلما أنَّه يوجد فئة مِن البايات أو الدايات رأت أنَّها وصلت إلى حكم الإيالة بالصدفة لذا كانت هذه الفئة متيقِّنة أنّ رحيلها أيضا يمكن أن تحكمه الصدفة أيضا؛ فلم تشتغل نتيجة ذلك كثيرا وفق ما مِن شأنه أن يؤسّس لنظام حكم قوي يهتم بالمجتمع العام كما يهتم بالمجتمع الخاص، وهذا طبعا باستثناء بعض الحكام الذين كانوا يرون أنَّهم جزء من المكوّن العام الموجود، وأنَّهم بتصرفاتهم سيضمنون لأنفسهم إما البقاء في الحكم أو الانقطاع عنه، فنجد على سبيل المثال "صالح باي" في الشرق الجزائري و "محمَّد باي الكبير" في الغرب الجزائري كانا يتعاملان مع الأزمات وفق رؤية تحمل معنى المسؤولية والاستمرارية وهو ما لا نجده عند حكام آخرين في نفس المرحلة الزمنية.

بعض الأزمات الطبيعية كالمجاعات والأوبئة حملت المجتمع على البحث عن طرف يحمله مسؤولية خسائره في هذه الأزمات ليصب عليه جام غضبه إذ أنَّ المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني كان يعيش سبات سياسي عميق، لذا لم تكن تعنيه الأمور السياسية والاقتصادية إلاَّ بالقدر الذي يلامس مجال حياته، فهو لم يحتجَّ مثلا على تحكّم اليهود في مفاصل التِجارة الداخلية والخارجية ولم يعنيه احتكارهم لتصدير القمح وغيره، مثلما لم يهمه أبدا الوضع الصِحي له ولمن حوله إذا لم يكن يؤدي إلى الموت المحقق، لكن إذا كان لهذه المساوئ تأثير مباشر عليه أو على أحد أفراد محيطه القريب وتسببت في ضيق عيشهم واضطراب أحوالهم فقد ينتقلون إلى رد الفعل والتعبير عن سخطهم بالثورات والانتفاضات، إلاَّ أنَّ هذه الاضطرابات والثورات ظلت ظرفية ولم يكتب لها تغير أمور فعليا، بل نجحت السُلطة الحاكمة في تحيين هذه الاضطرابات والثورات بمحاولة التَّخلُّص منها من خلال إجراءات آنية في الأزمات كفتح مخازن الحبوب أمام الفقراء واستيراد القمح وبيعه بسعر زهيد، كما قد يفرضون بعض القوانين الصحية مِن أجل إرضاء مجتمع المدينة لا أكثر.

مركزية التوجه والشعور الديني هي التي حكمت تصرفات المجتمع الجزائري خلال الأزمات الصحية والغذائية في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، وهو ما يفسّر سبب البذل الذي كان يقوم به الميسورين ماليا أثناء الأزمات الغذائية والصّحية، ويفسر أيضا إلى حد ما محاولات بعض البايات والدايات إظهار أنفسهم في صورة الرجل المتدين الكريم الذي يبذل في سبيل الله دون أن ينتظر الجزاء. وهو ما يرفع تلقائيا في مستوى الولاء والاحترام لهذا الباذل كما حدث مع "محمَّد باي الكبير".

بعد استعراضنا لهذه الدِّراسة وأهم النتائج التي وقفنا عليها بعد البحث في هذا الموضوع وصلنا إلى ضرورة الخروج بمجموعة مِن التَّوصيات التِّي مِن شأنها أن تجعل هذه الدِّراسة إحدى اللبنات الأساسية في البناء المعرفي المستقبلي للقراءات التاريخية التَّخصصية، لذا ارتأيت أنَّه مِن الأهمية بما كان أن نقدِّم بين أيدي المختصين مجموعة مِن التَّوصيات التي وقفنا على أهميتها بعد استيفاء هذه الدراسة من بين أهمها:

ضرورة تجهيز الباحثين في حقل التاريخي الاجتماعي بمجموعة مِن الأدوات التي تتجاوز اللغات بحكم أنَّها أضحت مِن المسلمات المتعارف عليها، ولعلَّ مِن بين أهم الأدوات التي ستساعد في تكوين مجموعة مِن الباحثين في التاريخ الاجتماعي وضع مقاييس تتعلَّق بعلوم خارج المجال التاريخي مرتبطة معه بشكل مباشر، منها على سبيل الدِّقة:

علم المناخ (climatology) وعلاقته بالتاريخ، إذ أنَّ الأوَّل يُعنى بدراسة الظواهر الطبيعية وانعكاساتها على الإنسان، والثاني محل البحث الرئيسي فيه هو الإنسان، فيكون مِن الأحرى توسيع نظرة الطالب الباحث لعلاقة العلوم لأخرى بالتاريخ وطريقة توظيفها لاستجلاء الماضي وفق ما كان للعلوم

الأخرى أو مظاهرها مِن تأثير على الأحداث التاريخية والفكرية للمجتمعات، ويجب أن يتبيّن الطلبة مثلا في خصوص المناخ (climatology) كيف استطاع أن يفرض منطقه في تاريخ الإنسان وسلوكياته وكيف أثر في جوانب حياته الاقتصادية والفكرية والعسكرية وحتى الأخلاقية على مدى طويل.

الاهتمام في حقل التاريخ الاجتماعي بتعريف الطلبة على مبادئ البحث في علم جغرافية السكان من حيث كونها «...خصائص جغرافية للأماكن من حيث تأثيرها على مجموعة من الظاهرات السكانية»[1] بالإضافة إلى الاهتمام بتدريس علم السكان (demography) من حيث كونه «..علم إحصائي يهتم بدراسة حجم وتوزيع وتركيب السكان ومكونات التغيير الأفقي والرأسي في هذه العناصر الثلاث»[2] إذ أن لهذين العلمين علاقة مباشرة بالتاريخ وهما من العلوم الضرورية لدراسة الظاهرة التاريخية مِن حيث تأثيرها على المجموعة السكانية مِن ناحية الكثافة السكانية المستقبلية في التاريخ بالإضافة إلى طريقة استيطان المجموعات السكانية في المناطق المختلفة وشكل توزعها، وتجاوز هذا العلم (جغرافية السكان) أو تجاوز (علم الديمغرافيا) في الدراسات الاجتماعية يعد تجني على البحث وبتر جزء حيوي ضمنه، لذا نوصي بالاهتمام بهذه العلوم كمكونات أساسية في ظاهرة دراسة الحالة التاريخية في مختلف المواضيع بما يتيح التعرف حقا عن مقدرة هذه المعطيات الطبيعية في لعب دور أساسي في رسم الحادثة التاريخية.

ضرورة التَّفتح على نمط جديد في الأبحاث التاريخية، والذي يجعل مركزية البحث حول الكائن الحي بغض النظر عن صفته سواء كان عاقلا أو غير عاقل، مع التركيز على العلقات البينية بين العناصر المختلفة ضمن المستويات المتباينة، فمن الظلم الاقتصار على البحث في الشأن السياسي والاقتصادي بينما يُغيَّب الفاعل الرئيس فيهما وهو الكائن الحي.

---

[1] – أحمد علي ياغي: أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الثامنة، 1997، القاهرة، مصر، ص 12.

[2] – فتحي محمد أبو عياد: دراسات في علم السكان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، ص 14.

الملاحق

جريدة الملاحق المستخدمة في الدراسة

1- الملحق الأول: صورة توضح شكل الخرجات

2- الملحق الثاني: دورة الطاعون

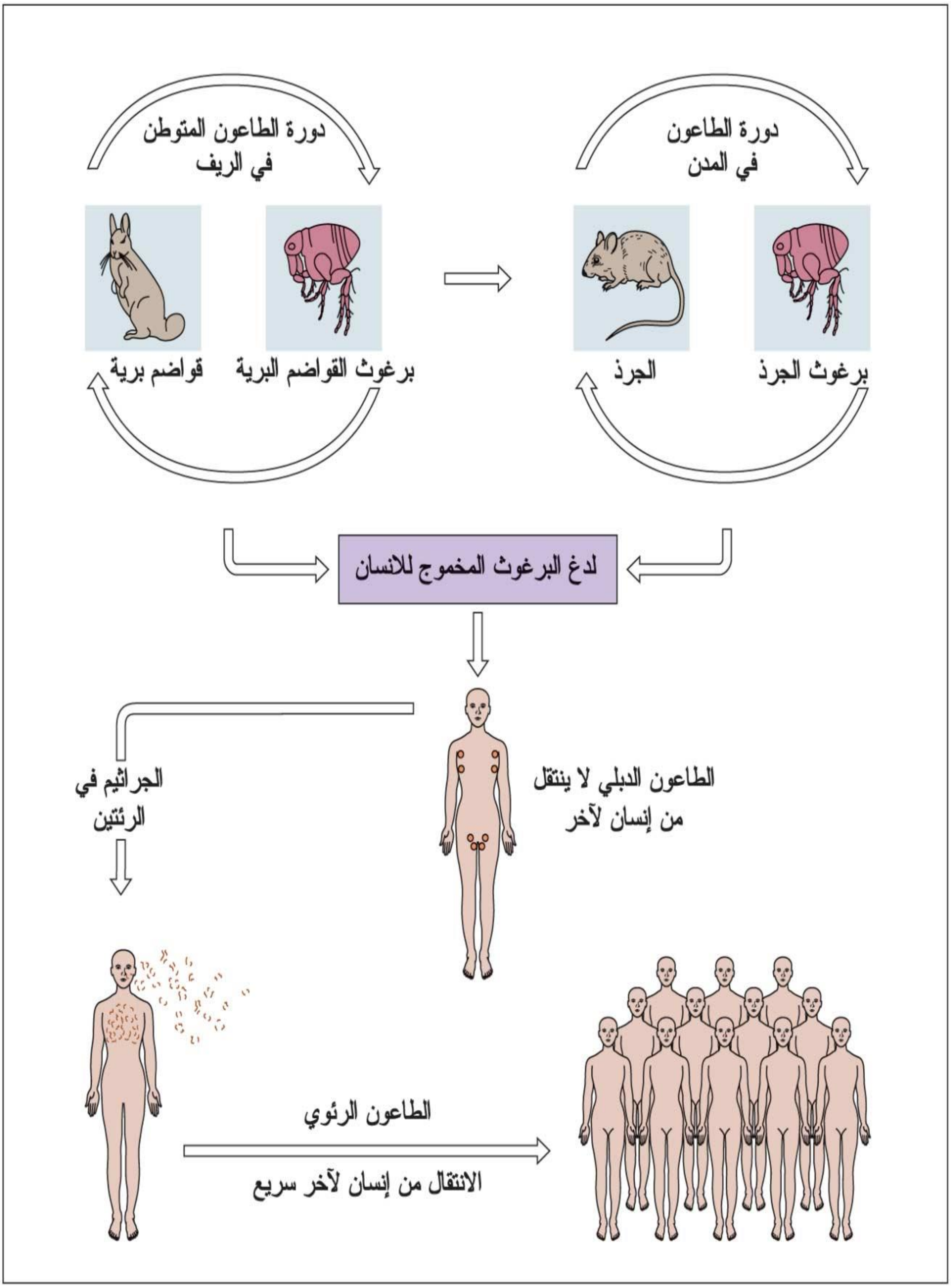

3- الملحق الثالث: وثيقة ضمن وثائق الأرشيف العثماني تتحدث عن وفاة الداي علي باشا بالطاعون سنة (1817م)

B.O.A : BH. Dosya N°150. Gömlek N°7181. Tarih 1233.C.29. Belg 01.

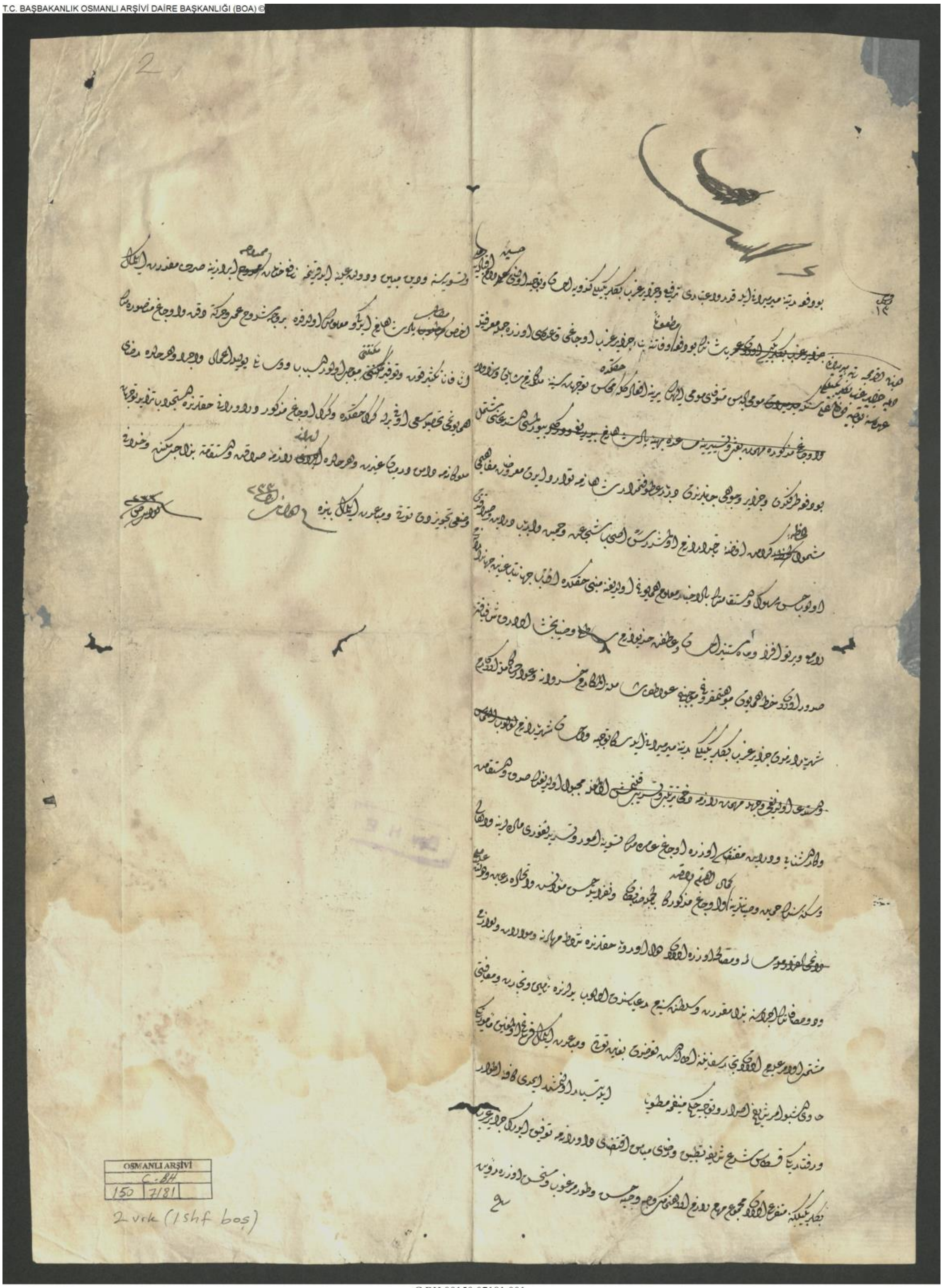

C.BH.00150.07181.001

4- الملحق الرابع: رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى المجلس البحري في مدينة مرسيليا يعلمها بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع تسرب الوباء إلى فرنسا وذكر وجود سفينتين جزائريتان في المتوسط يشبه في إصابتهما بالوباء[1]

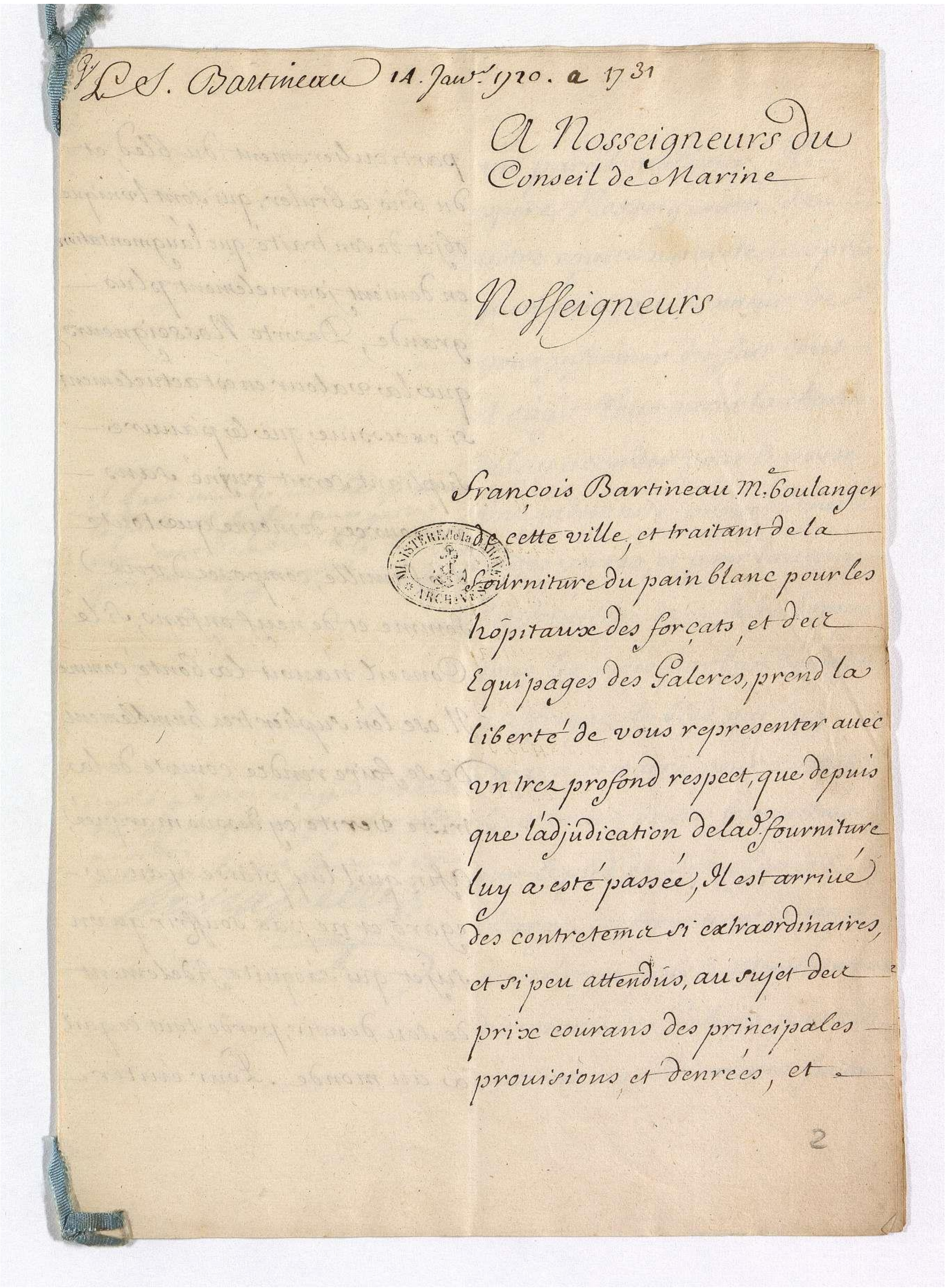

Vl. Le S. Bartineau 14. Janv. 1720. a 1731

A Nosseigneurs du Conseil de Marine

Nosseigneurs

François Bartineau M. boulanger de cette ville, et traitant de la fourniture du pain blanc pour les hopitaux des forçats, et des Equipages des Galeres, prend la liberté de vous representer avec un tres profond respect, que depuis que l'adjudication de lad. fourniture luy a esté passée, Il est arrivé des contretems si extraordinaires, et si peu attendus, au sujet des prix courans des principales provisions et denrées, et

2

[1] - Fonds Marine dossiers individuels : F.M : Cotes : MAR/C/162/58, D 10579

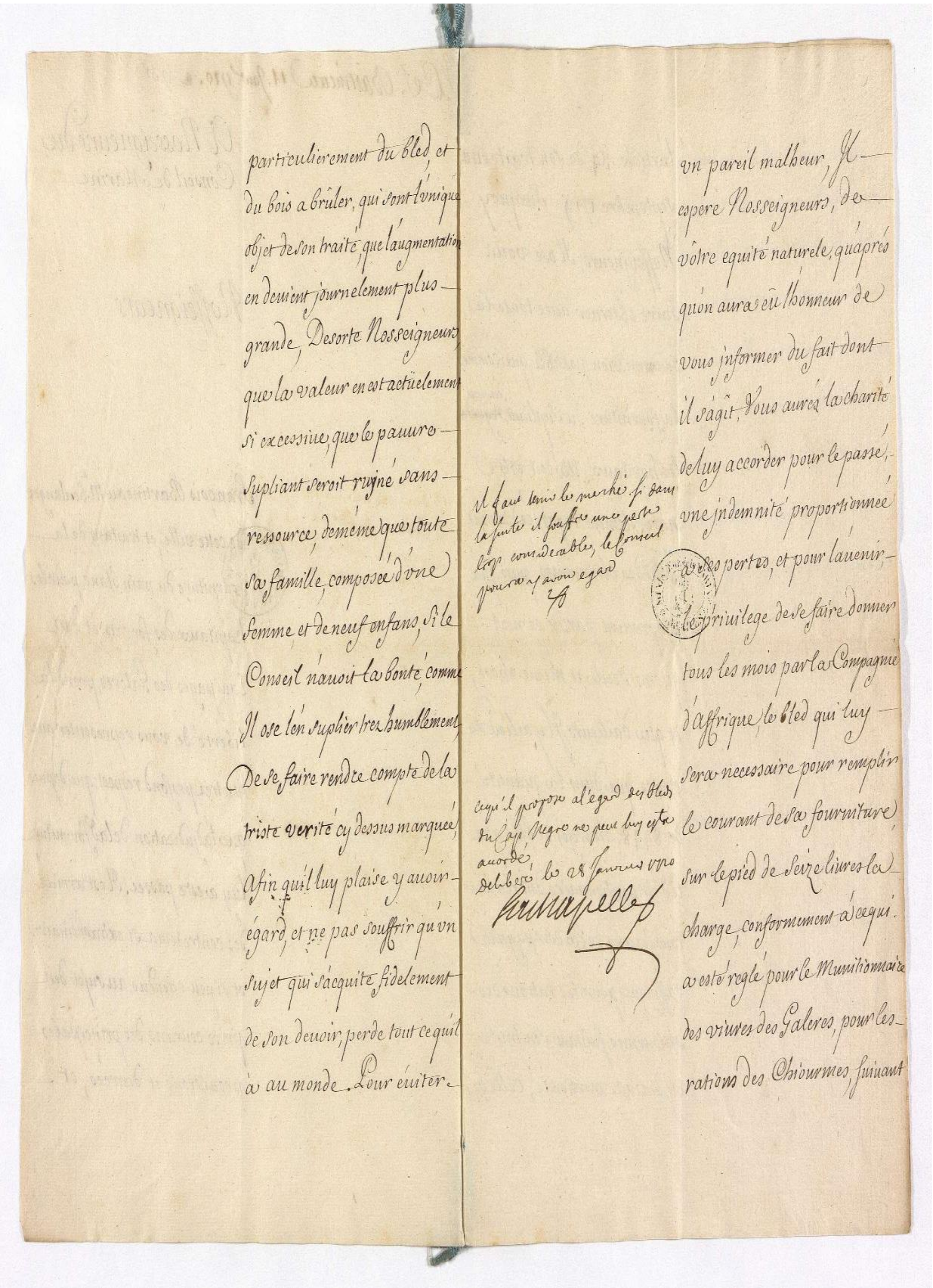

particulièrement du bled, et
du bois a brûler, qui sont l'vnique
objet de son traité, que l'augmentation
en devient journelement plus
grande, Desorte Nosseigneurs,
que la valeur en est actüelement
si excessive, que le pauvre
Supliant seroit ruyné sans
ressource, de même que toute
sa famille, composée d'vne
femme et de neuf enfans, si le
Conseil n'avoit la bonté, comme
Il ose l'en suplier trez humblement,
De se faire rendre compte de la
triste verité cy dessus marquée,
Afin qu'il luy plaise y avoir
égard, et ne pas souffrir qu'vn
sujet qui s'acquite fidelement
de son devoir, perde tout ce qu'il
a au monde. Pour eviter

il faut tenir le marché si dans
la suite il souffre une perte
trop considerable, le Conseil
poura y avoir egard

ce qu'il propose a l'egard des bleds
du Cap Negro ne peut luy estre
acordé,
deliberé le 28 Janvier 1720
Lachapelle

vn pareil malheur, Il
espere Nosseigneurs, de
vôtre equité naturele, qu'aprés
qu'on aura eu l'honneur de
vous informer du fait dont
il s'agit, vous aurez la charité
de luy accorder pour le passé,
vne indemnité proportionnée
a ses pertes, et pour l'avenir,
le privilege de se faire donner
tous les mois par la Compagnie
d'Affrique, le bled qui luy
sera necessaire pour remplir
le courant de sa fourniture,
sur le pied de seize livres la
charge, conformement a ce qui
a esté reglé pour le Munitionnaire
des vivres des Galeres, pour les
rations des Chiourmes, suivant

ثبت المصادر والمراجع

الوثائق الأرشيفية

أولا : وثائق الأرشيف العثماني (رئاسة الوزراء سابقا) (أرشيف رئاسة الجمهورية حاليا) اسطنبول B.O.A:

1. AE. SABH.I. Dosya N°88.Gö N°6066. T 1199.Ca.07.
2. AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°11393. T:1142.M.02.
3. AE. SAMD.III.Dosya N°39.Gömlek N°3746. T:1129.R.13.
4. AE. SAMD.III.Dosya N°76.Gömlek N°5019. T: 1147.R.25.
5. AE. SMST.III.Dosya N°248.Gömlek N°19797. T: 1176.M.16.
6. AE. SSLM.III.Dosya N°58.Gömlek N°3461. Tarih 1215.Ra.08.
7. AE.SMST.III. Do : N°162. Gömlek N°12704. T:1186.Z.01.
8. AE.SSLM.III. Do : N°136.Gömlek N°8256. Tarih 1206.B.12.
9. C.AS. Do : N° 870.Gömlek N°37292. T:1206.L.04.
10. C.AS. Do : N°170. Gömlek N°7439. T: 1206.Z.20.
11. C.AS. Do : N°268.Gömlek N°10993. Tarih 1231.Ş.09.
12. C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. T:1206.N.05.
13. C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05.
14. C.AS. Do : N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1210.N. 17.
15. C.AS. Do : N°483. Gömlek N°20145. T:1230.S.21.
16. C.AS. Do : N°951.Gömlek N°41311. T:1199.Ş.02.
17. C.DA. Do : N°35.Gömlek N°1722. T: 1205.N.29.
18. C.EV. Do : N°192. Gömlek N°9580. T: 1194.N.29.
19. C.HR. Do: N°147. Gömlek N°7308. Tarih 1188.Za.18. Belg 01.
20. C.ML. Do : N°406. Gömlek N°16652. T:1197.Z.04.
21. C.ML. Do : N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.

22. C.ML. Do : N°724. Gömlek N°29635. T:1202 .L. 06.
23. C.ML. Do : N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.
24. C.ML. Do : N°94. Gömlek N°4218. Tarih 1207.Z.07.
25. C.SH. Do : N°06. Gömlek N°290. Tarih 1227.Za.29. Belg 01.
26. HAT. Do : N°12. Gömlek N°438B. Tarih 1197.L.23. Belg 01.
27. HAT. Do : N°1412. Gömlek N°57500. Tari 1205.Z.29. Belg 01.
28. HAT. Do : N°144. Gömlek N°6042. Tarih 1219.Za.24. Belg 01.
29. HAT. Do : N°1656. Gömlek N°102. Tarih 1222.Za.29. Belg 01.
30. HAT. Do : N°209. Gömlek N°11213. Tarih 1206.Za.29. Belg 01.
31. HAT. Do : N°240. Gömlek N°13451. Tarih 1214.N.29. Belg 01.
32. HAT. Do : N°245. Gömlek N°13836. Tarih 1215.Ş.01. Belg 01.
33. HAT. Do : N°280. Gömlek N°16568. Tarih 1227.Z.29. Belg 01.
34. HAT. Do : N°29. Gömlek N°1361. Tarih 1198.Ş.13. Belg 01.
35. HAT. Dosya N°283. Gömlek N°16872. Tarih 1231.Z.29.

ثانيا: وثائق الأرشيف الفرنسي

Archives nationales (France)

Affaires étrangères. Correspondance reçue du [C.C.F.A] consulat d'Alger:

36. AE/B/I/124. Cotes: F° 264-265.
37. AE/B/I/124. Cotes: F° 266-271.
38. AE/B/I/118. Cotes: F° 292-293.
39. AE/B/I/124. Cotes: F° 294-297.
40. AE/B/I/121. Cotes: F° 87-89.
41. AE/B/I/123. Cotes: F° 158-161.
42. AE/B/I/123 Cotes: F° 206-210.

43. AE/B/I/125. Cotes : F° 37-38.
44. AE/B/I/135 Cotes: F° 221-223.
45. AE/B/I/139 Cotes: F° 135-136.
46. AE/B/I/118. Cotes : F° 292-293.
47. AE/B/I/118. Cotes : F° 257-262.
48. AE/B/I/129. Cotes: F° 67-74.
49. AE/B/I/118. Cotes : F° 294-297.
50. AE/B/I/124. Cotes : F° 266-271.
51. AE/B/I/139. Cotes: F° 130-133.
52. AE/B/I/129. Cotes : F° 44-45.
53. AE/B/I/143. Cotes : F° 29-30.
54. AE/B/I/124. Cotes : F° 87-94.
55. AE/B/I/124. Cotes: F° 264-265.
56. AE/B/I/124. Cotes : F° 266-271.
57. AE/B/I/124. Cotes : F° 264-265.
58. AE/B/I/124. Cotes : F° 279-282.
59. AE/B/I/124. Cotes : F° 285-286.
60. AE/B/I/128. Cotes : F° 141-144.
61. AE/B/I/128. Cotes : F° 145-146.
62. AE/B/I/128. Cotes : F° 51-52.
63. AE/B/I/128. Cotes : F° 87-94.
64. AE/B/I/128. Cotes : F° 61-63.
65. AE/B/I/128. Cotes : F° 123-129.
66. AE/B/I/128. Cotes : F° 135.
67. AE/B/I/128. Cotes : F° 141-144.

68. AE/B/I/129.Cotes: F13°-20.
69. AE/B/I/124. Cotes: F° 292-293.
70. AE/B/I/129. Cotes: F° 33-34.
71. AE/B/I/129. Cotes : F° 67-74.
72. AE/B/I/135. Cotes: F° 22-30.
73. AE/B/I/129. Cotes : F° 63-64.
74. AE/B/I/142. Cotes: F° 168-171.
75. AE/B/I/142. Cotes: F° 178-179.
76. AE/B/I/143. Cotes: F° 138-144.
77. AE/B/I/143. Cotes : F° 160.
78. AE/B/I/143. Cotes: F° 1-3.
79. AE/B/I/143. Cotes : F° 19-20.
80. AE/B/I/143. Cotes : F° 29-30.
81. AE/B/I/142. Cotes: F° 168-141.
82. AE/B/I/143. Cotes: F° 42.
83. AE/B/I/143. Cotes: F° 22-23.
84. AE/B/I/143. Cotes: F° 66-63.
85. AE/B/I/143. Cotes : F° 80-86.
86. AE/B/I/174. Cotes : F° 183.
87. AE/B/I/124. Cotes : F° 294-295.
88. AE/B/I/142. Cotes: F° 168-171.
89. AE/B/I/142. Cotes :F° 143.
90. MAR. Cotes : 7. F.N 18 : D 10.
91. MAR. Cotes : 7. F.N 58 : D 08.
92. MAR. Cotes : 7. F.N 58 : D 81.

أولا: اللغة العربية

المصادر المخطوطة

1. إبراهيم بن احمد التلمساني، الثغري: **شفاء السقيم فيما ينتفع به في زمن الوباء والوخم**، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم 532.

2. أحمد بن القاسم البوني: مخطوط "**مبين المسارب للأكل والطب والمشرب**" مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم 4042.

3. إدريس بن حسام الدين علي البدليسي: **رسالة الآباء عن مواقع الوباء**، مخطوط السليمانية مجموعة وهبي، رقم 01379.

4. عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: **الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة**، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (2691).

5. محمد بن علي الصنهاجي: **المنافع البينة وما ينفع في الأزمنة الأربعة**، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم 170.

6. موسى بن عيسى المغيلي المازوني: **أرجوزة في الأغذية والأشربة** مخطوط المكتبة الوطنية المغربية.

7. مؤلف مجهول: **بيان ملوك الجزائر** المكتبة الوطنية الجزائرية رقم (1624)

8. مؤلف مجهول: **نبذة يسيرة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران**، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية باريس رقم (5022)

المصادر والمراجع المطبوعة

9. ابن حجر العسقلاني: **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة الرياض. د-س، د-ط.

10. ابن منظور الإفريقي: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د-ط، د-س، ج1.

11. أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أبو قتيبة ناظر محمد الفيريابي، دار طيبة، الرياض، ط الأولى، 2005، ج13.

12. أحمد الشريف الزهار: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزّهار**، دار البصائر، الجزائر، طبعة وزارة الثقافة، 2009.

13. أبو راس الناصري: **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، دراسة وتحقيق بوكبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ج2.

14. أبو راس الناصر: **فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته**، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

15. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي : **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، د-ط، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

16. أحمد بن هطال: **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي 1785**،حرّرها وقدّم لها محمد بن عبد الكريم د- ط، دار ارتياد الآفاق دون سنة نشر.

17. أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، ط الأولى، الجزائر،البصائر،2007.

18. أبي الحسن بن هبة الله البغدادي: **المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض**، تحقيق ودراسة وتعليق محمد ياسر زكور، راجعه عمر فاروق محمد غصن، دار المناهج، جدة، السعودية، ط الأولى، 2011م

19. إسماعيل بن حماد الجوهري: **الصِحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربية**، المحقق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان. د-ط، د-س.

20. إبراهيم محمد الساسي العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.

21. الأغا بن عودة المزاري: **طلوع سعد السعود**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، د طبعة، الجزائر، دار البصائر، **2007**. ج**1**.

22. أف شونبيرغ: **الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال**، تر أبو العيد دودو، المجلد الأول، دار الأمة، طبعة خاصة، 2009

23. أو. هابنسترايت: **رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس**: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر 1987.

24. سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، المجلد الأول، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، دار الأمة،2009.

25. برنار روزنبرجي وحميد التركي: **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م**، عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، ط الثانية، الرباط، 2014.

26. حسين بن رجب شاوش بن المفتي: **تقيدات بن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلماءها**، جمعها واعتنى بها، فارس كعوان، ط الأولى،2009، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة.

27. الحسين بن محمد الورثيلاني: **نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار**، تحقيق محفوظ بوكراع وعمار بسطة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، المجلد الأول.

28. حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2005.

29. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: **كتاب الطاعون وأحكامه**، تحقيق أحمد بن محمد بن غانم آل ثاني، روايا للدراسات والبحوث، دار ابن حزم، ط الأولى، 2017.

30. محمد بن صالح العنتري: **مجاعات قسنطينة**، تحقيق رابح بونار، د-ط، ذخائر المغرب العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.

31. العربي المشرفي: **أقوال المُطاعين في الطعن والطواعين**، تحقيق حسن الفرقان، الطبعة الأولى منشورات التوحيدي، الرباط، 2014.

32. مجد الدين أبي السعادات: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م.

33. مجد الدين أبي السعادات: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م.

34. مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط الثامنة، 2005.

35. محمد أبو راس الجزائري: **فتح الإله ومنّته في التَّحدث بفضل ربي ونعمته**، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، د-ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

36. محمد الأمين بزاز: **المجاعات والأوبئة في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992.

37. محمد بن أحمد أبي راس الناصر : **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** ، تقديم وتحقيق محمد غالم، د-ط، منشورات CRASC ،الجزائر،2005 ،ج2.

38. محمد بن يوسف الزياني : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، د-ط، الجزائر، (ش و ن ت)، 1979.

39. ناصر الدين سعيدوني : **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، د-ط، بيروت ، لبنان، دار الغرب الإسلامي 1999، ج1.

40. ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثمانية**، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 2000.

41. عبد الله محمد الحبشي: **معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما ألف فيها،** الدار اليمنية للنشر والتوزيع، د-س، د-ط.

رسائل الماجيستير والدكتوراه (اللغة العربية):

42. فلة موساوي: **الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1871-1518)** أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر(غير منشورة)، إشراف ناصرالدين سعيدوني، جامعة الجزائر(أبو القاسم سعد الله)، السنة الجامعية 2004-2003.

43. مزدور سمية: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(1192م - 1520م)** رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، 2009.

المقالات والأبحاث:

44. أمين محمد: **الطاعون في مدينة الجزائر أثره على الديمغرافيا والأنشطة الاقتصادية خلال القرن 18م**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية 17-18

45. خير الدين سعيدي: **حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة 1775م من خلال مخطوط "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة** " مع تحقيق الجزء المتعلق بالحملة من المخطوط. مجلة آفاق الثقافة والتراث. دبي، ذو الحجة 1436هـ/ أيلول (سبتمبر) 2015م).

46. شخوم سعدى : **قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد الأول، العدد الأول، جوان 2015، يصدرها مخبر الجزائر والحوض الغربي للبحر المتوسط.

47. عائشة غطاس: **أوضاع الجزائر المعيشية والصحية أواخر العهد العثماني**، المجاعات والأوبئة 1787-1830 المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية.

48. فلة القشاعي: **الوضعية الصحية والديموغرافية في الأرياف في قسنطينة خلال العهد العثماني1777-1837** المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، العدد 17-18 سنة 1998

49. فلة موساوي القشاعي: **وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله**، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، 2001.

50. لغالم محمد: **ظاهرة الزلازل في الاسطوغرافيا الجزائرية التقليدية بين الذاكرة والتاريخ**، وهران مجلة الإنسانيات، مج 1، العدد 1997،3.

51. ناصر الدين سعيدوني: **الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر خلال العهد العثماني.** المجلة التاريخية المغربية، العدد 39-40.

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

أولا: اللغة الفرنسية

المصادر المخطوطة باللغة الفرنسية:

52. Pharaon Florian et le docteur Bertherand : **l'Histoire de la Médecine chez les Arabes**. Vocabulaire français-arabe, Papiers et manuscrits ayant appartenu au docteur Leclerc, manuscrit, Bibliothèque nationale de France. Département des manuscrits. Arabe 6455.

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الفرنسية

53. Adrien Berbrugger : **Mémoire sur la peste en Algérie**, dans exploration scientifique de L'Algérie, sciences médicales, imprimerie Royale, Paris, T2.

54. Alphonse Rousseau : **Chroniques de la régence d'Alger**, Traduites d'un manuscrit arabe intitulé "el zohrat el nayerat", imprimerie du govroment, Alger, Anne 1841.

55. Arnaud, Léonard : **Essai sur la peste de Benghazi d'Afrique**, imp.. de F. Pichon, Paris, 1888.

56. Baillière, Georges Jean-Baptiste : **Les Maladies évitables**, Éditeur, J.-B. Baillière, Paris, 1898.

57. Barbier, Émile Julien Nicolas : **Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale** : Vichy et ses eaux minérales comme médication préventive et effective, Éditeur Vichy, 1866.

58. Bertherand Émile : **Médecine et hygiène des Arabes** : études sur l'exercice de la médecine et de la chirurgie chez les musulmans de l'Algérie, Éditeur G. Baillière, Paris, 1855.

59. Boucher, Hubert : **La peste en Europe et en Asie** : empoisonnement de la race humaine par les vaccins et les sérums, éditeur Libraire géneral et Zoophile, Paris, 1910.

60. Bourgin Pierre : **Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole**, Éditeur Impér. nouvelle Lyon, 1885.

61. Bourgin, Pierre : **Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole,** Éditeur Impr. nouvelle Lyon, 1885.

62. Boutin Vincent-Yves : Dépôt de la guerre : **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique**, 3 éditions, Ch. Picquet Paris, 1830.

63. Brouardel Paul Thoinot Léon-Henri : **La fièvre typhoïde**, Éditeur J.-B. Baillière et fils, Paris, 1895.

64. Bulletin de l'Académie nationale de médecine : **Publié par soins de la commission de publication**, Tome XI, première partie, Bibliothèque académique royale de médecine, Paris, 1846.

65. Caffe Paul-Louis-Balthasar : **Considérations sur l'histoire médicale** et statistique du choléra-morbus de Paris, 1913.

66. Caffe Paul-Louis-Balthasar : **Considérations sur l'histoire médicale et statistique du choléra-morbus de Paris**, **Éditeur :** imp.. de H. Tilliard, Paris, 1832.

67. Chabrand, Jean-Armand : **Les grandes épidémies dans le Briançonnais**, Grenoble imp. France, 1886.

68. Charles Féraud, Laurent ; **Histoire des villes de la province de Constantine**. La Calle : et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique, imp. V. Aillaud et Cie, Alger, 1877.

69. Cher Bonneau M-A : **Constantine et ses antiquités trait de nouvelles annales des voyages**, Février 1857, Imprime porthumot, Paris.

70. Chrestien André-Thérèse : **Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde**, Éditeur L. Castel Montpellier, 1835.

71. Crouzet, Stanislas : **Dissertation sur la peste**, Éditeur Camoin Dutertre, Marseille, 1822.

72. Daniel Panzer **: Histoire économique et sociale de l'imper ot-toman étude la Turquie** la responsabilité de. Vol 3. 1995.

73. Daremberg Georges : **Le choléra, ses causes, moyens de s'en préserver**, Éditeur Rueff, Paris, 1892.

74. Dauban, Charles-Aimé : **Paris en 1794 et en 1795 : histoire de la rue, du club, de la famine**, composée d'après des documents inédits, particulièrement les rapports de police et les registres du Comité de salut public, Éditeur Plon, Paris, 1869.

75. De Grammont Henri Delmas : **Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle**, Alger, 1879.

76. De Grammont Henri Delmas: **Correspondance des consuls D’Alger** (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place degouvernment,1890.

77. De Grammont Henri Delmas: **Histoire d’Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Ernest Leroux Éditeur, Paris, 1887.

78. Delvaille Camille : **L'épidémie de petite vérole et la revaccination**, imp.. de Vve Lesseps, Bayonne, 869.

79. Dubar, Léon : **Quelques notes et souvenirs personnels concernant le choléra**, Éditeur imprimerie E. Ramon, Armentières, 1909.

80. Ducoux François-Joseph :**Esquisse des maladies épidémiques du nord de l'Afrique examen des causes qui les ont occasionnées et entretenues**, Paris, aux librairies médicales et militaires, 1837.

81. Ernest Mercier : **L’Algérie et les questions algérienne étude historique statistique et économique**, Challamel Ainé éditeur libraire algérienne et colonial, Paris, 1883.

82. Ernest Mercier : **Histoire de l’Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu’à la coquété française** (1830), Ernest Leroux, Paris, T3.

83. Esterhazy Louis-Joseph-Ferdinand Walsin : **De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, éditeur, C. Gosselin, Paris, 1840.

84. Eugéne Plantet : **correspondance des deys d’Alger avec cour de France (1579-1833)** T2, éditions Assala Culture, 1889.

85. Eugène Plantet : **correspondance des deys d'Alger avec cour de France** (1579-1833) T2, éditions Assala Culture, 1889.

86. Fernand Braudel : **la méditerranée et le monde méditerranéen**, Éditeur : Armand Colin, Paris, 1966, Tome 1.

87. Fray Diego de Haedo : **Histoire des rois d'Alger**. Traduite et annotée par H.-D. de Grammont, Jourdan, Alger, 1881.

88. Gaffarel Paul et Duranty Marquis : **La peste de 1720 à Marseille et en France** : d'après des documents inédits, Éditeur Perrin, Paris.

89. Grammont Henri Delmas : **Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle**, Alger, 1879.

90. Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand : **La variole,** Éditeur Rueff, Paris, 1894.

91. J.-L.-G. Guyon : **Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqua a nos jours**, Imprimerie du gouvernement Alger,1855.

92. Jean Alasia ; **Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne**. Dans mémoires de la congrégation de la mission.

93. Jean-Louis-Marie Poiret: **Voyage en Barbarie**, ou **Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786**, sur la religion, les coutumes & les moeurs des Maures & des Arabes-Bédouins ; avec un essai sur l'histoire naturelle de ce pays. Lettre N°5, Éditeur chez J. B. F. Née de la Rochelle, 1789, Lettre N°27.

94. Jena Claude Vichert ; **Pestes de 1786 et 178**. Dans : Mémoires de la congrégation de la mission.

95. Kelsch Achille : **Considérations sur l'étiologie du typhus exanthématique**, Éditeur G. Masson Paris, 1872.

96. Laumonier Jean : **La peste histoire et traitement**, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897.

97. Legée Émile : **Rapport sur l'épidémie de variole**, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur **:** imp. de Briez, Abbeville, 1872.

98. M. D Armieux : **Gazette médical de Algérie**، mémoire présenté à la société de climatologie algérienne dans sa séance du 1er juillet 1864, 10e Année N° 7, 25 juillet1865.

99. Masson, Paul : **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793)** (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc), Hachette, Paris, 1903.

100. Maury Eugène : **L'hygiène et l'assistance publiques à Bar-sur-Aube (Aube) au XVIIIe siècle d'après les registres de délibérations (1572-1789)**, Éditeur **:** Impr. Nationale, Paris, 1903.

101. Millet, Auguste : **Du choléra-morbus épidémique**, Éditeur Labé Paris, 1851.

102. Mostefa Khiati : **la médecine en Algérie au cours de la période Ottoman (15-19 siècle)**, éditions Houma, 2013.

103. Perrot, Aristide-Michel : **esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, accompagnée d'une carte générale du royaume et d'un plan du port et de ses environs**, Éditeur : L'advocaat, Paris, 1830.

104. Peyssonnel, Jean-André (1694-1759): **Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger**. Libraire de Gide, éditeur essaimages des voyages, 1838.

105. Tholozan Joseph-Désiré : **Les trois dernières épidémies de peste du Caucase**, auteur Éditeur : G. Masson, Paris, 1879.

106. Tholozan Joseph-Désiré : **Du Développement de la peste dans les pays montagneux et sur les hauts plateaux de l'Europe**, de l'Afrique et de l'Asie, Gauthier-Villars, Paris.

107. Tholozan, Joseph-Désiré : **Du Développement de la peste dans les pays montagneux et sur les hauts plateaux de l'Europe**, de l'Afrique et de l'Asie, Gauthier-Villars, Paris.

108. Vignes, Pierre : **Histoire du choléra-morbus**, qui a régné épidémiquement à Oran pendant les mois d'octobre1834 et de janvier 1835, Verronnais, Metz, 1836

109. Vincent Martin Antoine et Collardot Victor : **Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger**, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur : V. Rozier, Paris, 1867.

110. Violle, Henri Jules : **La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste**, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921.

111. William Shaler : **Esquisse de l'état d'Alger**, tr M.X Blanchi, librairie L'advocaat, Paris, 1830.

مذكرات الماجيستير ورسائل الدكتوراه (اللغة الفرنسية)

112. Berthet Louis : **Vaccine et variole contribution à l'étude de leurs rapports**, président de thèse professeur Chauveau, laboratoire de médecine et comparé a la faculté de Lyon J.-B. Bacillifère, Paris, 1884.

113. Bolio, Antonin : **Grippe et typhoïde**, président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris ; Éditeur C. Naud, Paris, 1904.

114. Jean Marchika : **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d'Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, Anne 1927, non publié.

115. Libert, Marcel : **Étude des réflexes dans la fièvre typhoïde**, président de thèse professeur Raymond, Faculté de médecine de Nantes -Thèse Doctorat- Éditeur **:** A. Michalon, Paris, 1902.

116. Mohamed ben larbey seguir : **la médecine arabe en Algérie**, thèse pour le doctorat en médecine présente et soutenue le 16 juillet 1884, président M. Béclard, Faculté de médecine de Paris, Année 1884, N°291.

المقالات والأبحاث (اللغة الفرنسية)

117. Audet : les chott shebka lac santé d'Oran, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 24. N°02, 1879.

118. Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, **Revue African.**, Anne 1895. N°39.

119. Bertherand : les quarantaines et le system de dresde a l'encontre du choléra, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893.

120. Brosselard : les inscriptions arabes de Telimcen, **Revue African.**, Anne 1860, N°4.

121. Brosselard : **les inscriptions arabes de Telimcen**, Revue African., Anne 1860, N°4.

122. Dournon A: **kitàb tarika qosàntina**, par EL hadj Ahmad El mobàrke, in **Revue African**, Volume 57, 1913.

123. Dumas : **les sources naturelles du vaccin**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.

124. Edouard Robin : **Prophylaxie sur l'art de prévenir le choléra**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°24, 1883.

125. Fritsch dit long : ce que Valent les lazarets et les quarantaines, dans **Gazette Médical**, dixième Année, Directeur Dr E.L Bertherand, Alger 1865, N°7.

126. **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°01, 1891.

127. **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°05, 1891.

128. Iben hamadush : kachef errmouz, dans **Gazette médicale de l'Algérie**, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°01, 1873.

129. L.Valensi : **Calamités démographique en Tunisie et en Méditerrané orientale aux 18 et 19 siècles**. In **Annales E.S.C.** N°6.

130. Lucette Valensi : **le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)** p59/60. A.I.P.A : 1924- N°3.

131. Marthe Conor : **Une épidémie de peste en Afrique mineure (1784-1788)** dans (A.I.P.T)

132. Moranu : Statistique l'été sanitaire de l'armée française : **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°23, 1891.

133. Arnoult Bossu : **Rapport de M. Bossu sur l'Eglise d'Alger 1749** M.C.M, Mémoires de la Congrégation de la Mission, à la maison principale de la congrégation de la mission, 1867, Tome 3

134. Jean Claude Vichert : **Pestes de 1786 et 1787.** M.C.M, Mémoires de la Congrégation de la Mission, à la maison principale de la congrégation de la mission, 1867, Tome 5.

135. Onetti : **le choléra morbus asiatique**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.

136. Vayssettes : **histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793-jusque-là chut de Hadj Ahmed**, Revue African, Anne 1862, N°6.

137. Sistach : la variole à Bona, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879.

138. Venture de Paradis : **Alger aux XVIII siècle**, Revue Africaine, Anne 1895, N°39.

139. Vital : climat et météorologie, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879.

140. Gazette de France, 1671, N°1.

141. Gazette de France, 1762, N° 74.

142. Gazette de France, 1765, N° 420.

143. Gazette de France, 1783, N° 65.

144. Gazette de France: 1783, N° 61.

145. Gazette de France: 1784, N°70.

146. Gazette de France: 1787, N° 61.

147. Gazette de France: 1787, N° 67.

148. Gazette de France: 1787, N° 62.

149. Gazette de France : 1787, N° 66.

150. Gazette de France :1787, N° 67.

151. Gazette de France: 1787, N° 66.

152. Gazette de France, 1791, N° 90.

153. Gazette de France : 1792, N° 08.

التقارير والمؤتمرات (باللغة الفرنسية)

154. Académie nationale de médecine : **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1843.

155. Académie nationale de médecine : **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1847.

156. Académie nationale de médecine : **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899.

157. Clot, Antoine-Barthélémy : **Coup d'oeil sur la peste et les quarantaines**, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique.

158. Du Mesnil, Octave : **Nécessité de la revaccination des ouvriers venant prendre du travail à Paris,** extrait de la société de médecine publique Éditeur imp.. de E. Martinet, Paris, N°4, 15 Avril 1879.

159. **La famine en Algérie et les discours officiels**. Erreurs et contradictions. (12 Avril 1868), Éditeur Marle, Constantine, 1868.

160. Legée, Émile : **Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71** dans l'arrondissement d'Abbeville**,** Éditeur **:** imp.. de Briez, Abbeville, 1872.

161. Levasseur Paul : **De la variole et de la vaccine,** rapport présenté à l'Académie, imp. de C.-F. Lapierre Rouen, France, 1876.

ثانيا: اللغة الإنجليزية

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الإنجليزية

162. Hugh James Rose: **New general biographical dictionary**, Vol VIII, London, 1848.

163. Kenrad E. Nelson & Carolyn F. Williams: **Early history of infections discas**, Jones and Barbieri, England, 1976.

164. Miquel Porta: **A dictionary of epidemiology**, Edited for the International Epidemiological Association by Miquel Porta Associate Editors Sander Greenland Miguel Hernán Isabel dos Santos Silva John M. Last, Oxford University Press is a department of the Uni-

versity of Oxford, Sixth Edition, Printed in the United States of America, 2001.

165. Paul Edwards : **Epidemics past, present and future** – what are the risks? Recent medical news, March 2017, Publishing Hannover Re 2.

المقالات والأبحاث (اللغة الإنجليزية)

166. World health organization Geneva: **Weekly epidemiological record**, 23 SEPTEMBER 2016, 91th YEAR, No 38, 2016.

ثالثا: اللغة التركية

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة التركية:

167. Ali Rıza Paşa : **Mir ’at ül Cezayir el veda** Cezayir çevirmen : Ali Şevki, Günümüz Türkçesine uyarlayan Cahit Kayra, 1. Baskı, Tarihçi kitap evi, İstanbul, Haziran 2014.

168. Danıel Panzac: **Osmanlı İmparatorluğu’nda veba (1700-1850)** çeviren Serap Yılmaz, tarih vakıf yurt yayınları, baskı Numune Matbaacılık, 1997.

169. Şem’dani-zade fındıklılı Süleyman efendi : **Mürat T-Tevârih**, hazırlayın M.Münir Aktepe, Istanbul Edebiyat fakültesi matbaası, 1976, C 1.

170. Johann Wilhelm Zinkeisen: **Osmanlı İmparatorluğu Tarihi**, Çeviri Nilüfer Epçeli , Cilt 5 ve 6 Yeditepe Yayınevi, ı. Baskı: Eylül 2011.

171. Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu : **Mufassal Osmanlı Tarihi**, Turk Tarih Kurumu, Ankara, 2001, c. 5.

المقالات والأبحاث (اللغة التركية)

172. Nalan Turna: İstanbul'un Veba ile ımtıhanı 1811- 1812 Veba salgını bağlamında toplum ve ekonomi, C1, Sayı1, Ağustos 2011, studies of the ottoman domain.

المواقع على الشبكة العنكبوتية

173. World Health organization: Epidemiology, January 11.2019. http://www.who.int/topics/epidemiology/en

174. Department of Health: **Plague,** December 2016 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/plague/fact_sheet.htm

175. Department of Health: Plague, August 201 7 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/cholera/fact_sheet.htm

176. Department of Health: Typhoid Fever, September 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/typhoid_fever/fact_sheet.htm

فهارس الأطروحة

أولا: فهرس الأعلام

ثانيا: فهرس الأماكن

ثالثا: فهرس المصطلحات الطبية

فهرس الأعلام

محمّد بن عثمان297 ,255 ,188 ,144 ,
برتراند, 335 ,320 ,312 ,126 ,106 ,104 ,103 ,101 ,89 ,88 ,78 ,66 ,47 ,46 ,24 ,
358 ,357 ,356 ,350 ,348
إبراهيم باشا297 ,292 ,141 ,
إبراهيم باي86 ,
ابن أبي الدنيا36 ,
ابن الأحرش ,ر321 ,319 ,310 ,294 ,271 ,147 ,109 ,82 ,
ابن الشريف321 ,82 ,
ابن الشريف الدرقاوي82 ,
ابن حمادوش الجزائري168 ,107 ,89 ,
ابن خلدون66 ,
ابن رقيّة التلمساني155 ,
ابن سماية235 ,91 ,
ابن سينا36 ,
ابن منظور343 ,33 ,20 ,19 ,
ابن منظور الإفريقي343 ,20 ,19 ,
أبو القاسم سعد الله347 ,315 ,138 ,107 ,101 ,89 ,
أبو راس الناصر346 ,344 ,209 ,94 ,
أبو عبيدة بن الجراح282 ,
أبي طالب المكي313 ,281 ,
أسانسي105 ,
إسماعيل باي200 ,
إكسمورث214 ,
الإمام مالك313 ,
الباجي33 ,26 ,
الباديسي81 ,
الباي حسن بن علي258 ,
البسطيمي342 ,313 ,281 ,38 ,37 ,

الجوهري19, 20, 33, 344 ,
الحاج أحمد91, 156, 343 ,
الحاج يوسف98 ,
الداي حسين98, 107, 145, 253, 288, 296 ,
الداي عمر216, 240, 257, 274, 294 ,
الداي مصطفى110, 113 ,
الرازي36 ,
الريس علي213 ,
الزّهار143, 192, 197, 213, 274 ,
الزّهار91, 109, 142, 143, 192, 195, 198, 213, 235 ,
السّعيد قدورة283 ,
الشريف الزّهار99, 142, 215, 343 ,
العربي المشرفي21, 26, 31, 33, 209, 249, 277, 281, 314, 315, 346 ,
العسقلاني20, 21, 34, 37, 39, 343 ,
العنتري ,ر 83, 109, 114, 147, 271, 272, 274, 276, 293, 294, 310, 315, 316, 317, 319, 321, 345 ,
الفيروزآبادي19, 20, 33, 346 ,
القاضي عياض281, 313 ,
المنبجي39, 314, 345 ,
الورثلاني69 ,
الورثيلاني69, 74, 75, 95, 302, 317, 345 ,
باتو318 ,
باتولت154 ,
بار193 ,
باري256 ,
باسو 45, 86, 161, 170, 171, 173, 174, 175, 176, 177, 259, 262, 264, 265, 279, 282, 288, 289, 318, 357 ,
بايسونيل107, 184 ,
ببوشناق اليهودي111 ,

بروديل ,ش253 ,229 ,
بكري113 ,112 ,
بواري ,190 ,185 ,184 ,183 ,182 ,181 ,180 ,127 ,105 ,74 ,71 ,60 ,31 ,30 ,
355 ,278 ,267 ,266 ,265 ,260 ,259 ,243
بواير278 ,265 ,260 ,243 ,183 ,74 ,70 ,31 ,
بوابي ,ذ105 ,
بورغينيون184 ,
بوشلاغم296 ,157 ,156 ,128 ,
بوشناق321 ,113 ,
بولو لويس29 ,
بوليو أنتونا59 ,
بونشاتران151 ,124 ,
بوهن107 ,105 ,
بير بروجر ,ج ,ز ,170 ,169 ,160 ,126 ,122 ,91 ,71 ,55 ,53 ,52 ,50 ,49 ,48 ,47 ,
,225 ,219 ,214 ,213 ,212 ,209 ,206 ,205 ,191 ,190 ,186 ,182 ,181 ,176
235 ,234
بيرتران104 ,46 ,
بيشو145 ,112 ,
بيير فارو160 ,159 ,
بيير فاروكس277 ,159 ,158 ,
تلوزان80 ,
توزيل216 ,
تومسون167 ,99 ,
تيروزن79 ,
ثلوزان207 ,
جان أنطوان262 ,
جان جايسمن234 ,167 ,99 ,
جون ألسيا188 ,
جون أليسيا189 ,187 ,31 ,

جون فرونسوا181 ,
جونفيل297 ,73, 86, 161, 162, 164, 165, 166, 265, 267, 297 ,
جيفال287 ,
حسن آغا61 ,52, 61 ,
حسن كارا177 ,
حسين بن عبد الله104 ,
حمدان بن عثمان خوجة ,ذ, 229, 147, 146, 125, 123, 115, 88, 87, 67, 41, 40 ,
241, 252, 254, 258, 259, 262, 269, 277, 279, 285, 301, 315, 345
دفال264 ,241, 264 ,
دوبان351 ,42, 351 ,
دوران151 ,150, 151 ,
دوراند155 ,61, 64, 124, 150, 151, 155 ,
دي غرامون ,155, 154, 149, 142, 140, 77, 292, 196, 194, 170, 99, 64, 63, 58 ,
159, 170, 192, 195, 293
ديسفونتاس303 ,54, 303 ,
راتيو مادينديي302 ,171, 302 ,
رينو55 ,
سانت جان262 ,
شارل فيرو307 ,126, 182, 307 ,
شونبيرغ344 ,67, 68, 79, 80, 89, 95, 103, 105, 106, 107, 115, 119, 344 ,
صالح باي ,303, 267, 255, 234, 189, 184, 183, 131, 127, 104, 98, 49, 48 ,
326
صالح ريس باشا47 ,
صموئيل بن شمعون239 ,219, 239 ,
صونغولتلي240 ,
عائشة غطاس ,ب ,ز348 ,68, 215, 348 ,
عبد الله باي273 ,271, 273 ,
عبد الله محمد الحبشي347 ,36, 347 ,
عبدي باشا253 ,140, 253 ,

عثمان الثالث177 ,
عثمان بن سويد الإخميمي40 ,
علي باشا332 ,296 ,291 ,257 ,213 ,142 ,109 ,
علي بوشوشه40 ,
علي خوجة290 ,268 ,244 ,219 ,
علي رضا باشا258 ,40 ,
عمر بن الخطاب282 ,249 ,
عمر داي238 ,
عن لوجي دي تاسي96 ,
غابريال162 ,
غراندميسون45 ,
غِيبار187 ,
غيو ,ج ,ز ,77 ,71 ,70 ,62 ,61 ,60 ,58 ,56 ,55 ,54 ,53 ,52 ,51 ,50 ,31 ,30 ,
78, 81, 85, 87, 88, 91, 93, 95, 96, 98, 99, 100, 101, 104, 125, 126,
127, 128, 133, 134, 140, 150, 152, 153, 154, 155, 156, 158, 159, 160,
163, 166, 167, 169, 171, 173, 174, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182,
183, 185, 186, 187, 188, 190, 191, 192, 193, 194, 195, 196, 198, 199,
200, 201, 202, 203, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 211, 213, 214,
215, 216, 217, 218, 219, 220, 224, 225, 226, 227, 233, 234, 235, 236,
237, 238, 240, 241, 242, 244, 250, 251, 255, 257, 262, 264, 266, 267,
268, 272, 274, 287, 288, 290, 296, 308, 319, 353
فاليار205 ,145 ,112 ,
فرانكوِش216 ,
فُرستير180 ,
فرونسوا164 ,161 ,
فلة المساوي152 ,
فلة موساوي ,ب ,ج348 ,347 ,158 ,152 ,150 ,138 ,94 ,79 ,63 ,62 ,59 ,
فونتير دي برادي195 ,192 ,181 ,71 ,

فيشرا ,ذ, 23, 43, 44, 45, 54, 56, 115, 186, 187, 191, 207, 234, 240, 244, 268, 305, 318

كروزيت80 ,

كونر, 32, 43, 44, 54, 115, 181, 182, 183, 186, 187, 189, 197, 198, 234, 242, 255, 257, 269, 303, 304, 305, 357

كوهان بكري110 ,

لوسيت فلنسي147, 150, 197, 301 ,

لومونيير80, 207 ,

لويس الرابع عشر139, 236 ,

مارشيكا ,ج ,ز, 44, 50, 54, 55, 56, 57, 58, 63, 77, 92, 112, 116, 126, 139, 145, 150, 151, 155, 157, 158, 159, 161, 162, 168, 169, 170, 171, 175, 178, 179, 181, 189, 191, 192, 193, 194, 195, 199, 201, 206, 207, 209, 212, 213, 214, 215, 218, 219, 224, 227, 228, 244, 255,257, 262, 278

محمد ابن العربي40 ,

محمد البسطيمي37 ,

محمّد الضعيف281, 314 ,

محمّد باشا169, 179 ,

محمَّد باشا91, 253 ,

محمد باي الكبير120, 131, 144, 205, 208, 254, 257, 272, 273, 290 ,

محمّد باي الكبير54, 120, 133, 138, 144, 254, 257, 290, 326, 327 ,

محمد باي بالكبير75 ,

محمد بن العربي40, 41, 107 ,

محمَّد بن المختار175 ,

محمَّد بن حسن140, 272 ,

محمد عثمان بن الكبير271 ,

محمد ياسر زكور37, 344 ,

مسلم بن عبد القادر112, 146 ,

مصطفى باي82, 321 ,

مصطفى خياطي86, 106 ,

مكاردي104 ,
موراس142 ,
مياردي105 ,
ميشال بيروت308 ,301 ,
نابليون295 ,110 ,
نابليون بونابرت110 ,
هابنسترايت345 ,262 ,138 ,105 ,83 ,75 ,69 ,68 ,
هايدو118 ,60 ,
هبة الله البغدادي344 ,37 ,
هيبوقراط19 ,
هيوس304 ,
وليام شالر138 ,122 ,70 ,69 ,67 ,
وليم شالر ,138 ,122 ,118 ,113 ,111 ,110 ,102 ,101 ,83 ,78 ,75 ,69 ,68 ,67 ,
274, 275, 355

فهرس الأماكن والبلدان

أثينا, 178, 179, 257

أدنه, 180

أزمير, 62, 73, 171, 272, 274

إسبانيا, 45, 62, 175, 187, 206, 209

إسطنبول, ح, 70, 73, 74, 82, 124, 149, 151, 157, 171, 178, 191, 209, 213, 228, 235, 315

آسيا, 5, 61, 73, 187

الإسكندرية, 62, 64, 68, 69, 70, 71, 75, 76, 77, 78, 81, 82, 139, 147, 160, 167, 191, 194, 204, 208, 210, 211, 227, 234

الأغواط, 60

الأناضول, 73, 74, 171, 179, 190, 192, 196, 208, 212, 213, 290

الباب العالي, 72, 74, 124, 131, 136, 209, 235, 273, 351

البليدة, ت, 115, 181, 222

الجزائر, 1, أ, ب, ث, ج, خ, د, ذ, ر, ز, س, ش, ص, ض, ط, ظ, 6, 11, 13, 14, 15, 18, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72,

73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80,81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89,
90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 98, 99, 100, 101, 102, 103, 104, 105,
106, 108, 109, 111, 112, 113, 114, 115, 117, 118, 119, 120,
121, 122, 123, 124, 125, 126, 127, 128, 130, 131, 132, 133,
134, 135, 136, 138, 139, 140, 142,143, 144, 145, 146, 147, 148,
149, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 157, 158, 159, 160,
161, 162, 163, 164, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172,
173, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184,
185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 196, 197,
198, 201, 202, 203, 204, 205, 207, 208, 209, 210, 211, 212,
213, 214, 215, 216, 217, 219, 220, 221, 223, 224, 226, 228,
229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 238, 239, 240,
241, 242, 243, 244, 245, 249, 250, 251, 252, 253, 254, 255,
257, 258, 259, 260, 262, 264, 265, 266, 267, 268, 270, 271,
272, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 284, 285,
286, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 298, 301, 302, 303, 311,
319, 320, 321, 322, 323, 324, 342, 343, 344, 351, 352, 353

الحجاز, 102, 158

الزّيبان, 188

الصحراء, 50, 57, 77, 78, 100, 113, 115, 125, 159, 220, 284, 297, 298, 321

القالة, 27, 80, 95, 104, 107, 154, 155, 157, 159, 162, 163, 164, 167, 170, 181, 184, 192, 220, 232, 236, 242, 243, 262, 280, 284, 285, 302

القسطنطينية, 62, 210

القل, 65

المرسى الكبير, 206

المغرب الأقصى, 34, 36, 75, 81, 100, 109, 138, 164, 182, 188, 190, 192, 198, 213, 220, 258, 279

المغرب الأوسط, ح, 3, 38, 41, 296, 323

المغرب الكبير, 33, 192

المورة, 74, 178

النمسا, 204

الهند, 62, 63, 186, 212

اليونان, 19, 122, 275

أوروبا, 6, 15, 43, 70, 73, 84, 88, 92, 95, 111, 127, 137, 153, 159, 251, 264, 266, 276, 298

إيران, 196

باب الواد, 92, 272

باب عزون, 194, 272

باليرمو, 171

بجاية, 77, 115, 198

بروفانس, 45

بسكرة, ت, 57, 99, 104, 113, 114, 176, 195, 220, 222, 279, 285

بلغاريا, 185

بلغراد, 160

بونة, 30, 31, 80, 103, 107, 111, 112, 125, 180, 181, 186, 233, 244, 280, 285

بونه, 182

بيلك التيطري, 60, 137, 168, 169, 176

بيلك الشرق, 65, 80, 86, 95, 103, 108, 109, 113, 114, 127, 155, 162, 163, 164, 168, 169, 181, 182, 183, 184, 192, 199, 220, 222, 271, 280, 297, 298

بيلك الغرب, 37, 65, 81, 109, 114, 115, 119, 124, 125, 137, 138, 139, 148, 167, 168, 169, 182, 184, 187, 213, 222, 234, 248, 281, 292, 297, 298

تلمسان, 38, 76, 81, 100, 108, 109, 114, 137, 142, 146, 178, 188, 204, 213, 222, 285, 320

تونس, ت, د, 14, 27, 30, 34, 36, 44, 46, 50, 53, 54, 58, 62, 71, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 103, 111, 112, 113, 127, 133, 134, 144, 152, 154, 160, 161, 162, 163, 171, 176, 183, 184, 186, 192, 205, 208, 214, 220, 232, 233, 236, 243, 252, 268, 273, 274, 280, 298, 321

جبل طارق, 148, 161, 187

جناكله, 45

جيجل, 99, 159, 285

دار السلطان, 58, 59, 90, 105, 137, 147, 169, 183, 203, 241

دلتا النيل, 62, 63, 186

دلس, 184

روسيا, 158

سلانيك, 157

سنوب, 275

صعيد مصر, 79, 186, 212

طبرقة, 80, 103, 161, 163, 220

طرابلس, 34, 36, 62, 75, 76, 117, 122, 125, 131, 134, 161, 165, 190, 214, 219, 273, 279

طولون, 23, 187

عين ماضي, 60, 154

غدامس, 284, 297

فرجيوة, 250

فرنسا, 2, خ, د, ظ, 23, 25, 44, 45, 53, 56, 63, 77, 80, 91, 94, 95, 96, 112, 120, 121, 122, 123, 124, 126, 127, 133, 134, 135, 146, 165, 166, 179, 180, 202, 208, 209, 214, 230, 235, 242, 243, 264, 266, 311

كورسيكا, 264

مارسيليا, 53, 62, 134, 135, 152, 185, 214, 252

متيجة, 50, 51, 105, 119, 169, 205, 207, 222

مستغانم, 114, 148, 255

مصر, 62, 63, 64, 67, 73, 75, 76, 78, 79, 81, 82, 108, 112, 133, 139, 147, 165, 178, 179, 186, 208, 209, 210, 211, 212, 219, 222, 272, 305

معسكر, 115, 188, 198, 255, 292

مكة المكرمة, 75, 151, 166, 184, 188, 204, 210, 212

وادي سوف, 77, 78, 283, 297

والمشرق الإسلامي, 74

ورقلة, 77

وهران, 37, 43, 60, 72, 81, 101, 104, 109, 111, 112, 114, 121, 125, 137, 184, 186, 187, 189, 198, 203, 204, 213, 248, 250, 255, 273, 297, 319, 323, 324

فهرس الأمراض والمصطلحات الطبية

الأرومة, 7, 8, 12, 13, 139

البرص, 20

البكتيريا, 5, 8, 10

التيفوس, 9, 143

الجائحة الحيوانية, 115

الجدري, 8, 11, 12, 20, 23, 28, 53, 84, 89, 185, 189, 196, 197, 244, 255, 257, 259, 312

الجرثومة, 8, 54, 56, 97

الحاضن, 8, 75

الخرجات, 13, 14, 237, 307

الخلايا البيضاء, 15

الدبلي, 6, 14, 54, 180, 182, 312

الدملي, 5, 8

الزهري, 235

السالمونيلا, 9

الطّاعون الرئوي, 151

الطفيليات, 9, 53, 54, 57, 117, 138, 201, 302

العُصيات, 15

العصبية, 12

الفارسيلا, 8

الفيروس, 16

القسم العلاجي, 67

القسم الوقائي, 67

الكوليرا, ت, 10, 12, 16, 66, 72, 104, 205, 206, 214, 255, 275, 312

اللدغ, 7, 8

اللقاحات, 28, 84, 244

اللمفاوي, 6

الملاريا, 207

النخاع العظمي, 15

النظام العصبي, 8

الهرمونات, 15

اليرسينا, 5, 8

بالتفحم الطَّاعوني, 13

تشنجات, 10, 14, 196

حجر الصحي, ر, 68, 70, 71, 72, 157, 175, 226, 228, 235, 244, 303

حِجر صحي, 7, 64, 70, 109, 182

دُمَّل, 9

علم الأوبئة, ر, ص, 4, 5, 340

الملخصات:

أولا : ملخص اللغة العربية

يعد البحث في التاريخ الهامشي أحد السبل العلمية الجديدة الساعية إلى محاولة فهم تاريخ الإنسان في جزئياته الدقيقة، ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نسلك الطريق التي من شأنها أن تعرفنا على العديد من الجوانب التي ظلت خفية في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وقد اتخذنا من موضوع الأزمات الصحية والغذائية مدخل لاستكشاف المجال العام لعدد من الجوانب التي ظلت خفية في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني.

لذا كان الهدف الرئيسي منذ بداية الدراسة محاولة إعادة رسم الواقع الفعلي الذي كانت تعيشه الإيالة خلال الأزمات، لكننا لم نكتف في هذا العمل بسرد وتتبع شتات الأخبار الواردة حول هذا الموضوع في المصادر المحلية والأرشيفيات الوطنية والدولية فقط، بل حاولنا أيضا أن نستجلي بعض العادات وردود الأفعال التي كان يمارسها المجتمع في مواجهة المجاعات والأوبئة.

وتتبع الأزمات وردود الأفعال والمحاولات المختلفة لتفسير هذه الأزمات أوصلنا إلى عدد من النتائج التي أصبحت جزء من الثقافة الشعبية لسكان الإيالة.

ومن أجل الوصول بالدراسة لتكون مرجعا في بابها فقد اعتمدنا على عدد من المناهج الجديدة في الدراسات التاريخية لعل من بينها ما يعرف في علم الأوبئة بـ (Epidémiologie description) وهو يتَّخذ مِن المكونات الوصفية للأنشطة الوبائية مُرتكزا أساسيا لإعادة هيكلة الصورة العامة وهنا تصبح مكونات مثل : العوامل المؤدية للأزمات الصِّحية والمظاهر الناجمة عنها، أقوى بكثير مِن المكونات التحليلية.

مثلما لم نستغن عن مناهج "التحليل والمقارنة" كأسلوب ضمن هذه الدراسة؛ وهذا لأجل أن نخرج مِن قوقعة التاريخ الوصفي إلى فضاءات أوسع تحيط بالتأثيرات للأزمات على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية خلال المرحلة الممتدة طوال القرن الثامن عشر والربع الأول مِن القرن التاسع عشر.

ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة فقد أعددنا خطة مكونة من مدخل وخمسة فصول، خصصنا المدخل للحديث عن الأمور مفاهيمية العامة المتعلقة بموضوع الدراسة، أي تعاريف تخص المجاعات والأوبئة وأنماطها وأنواعها واختلافاتها والعلاقة التي تربط بينها.

فإذا فرغنا من ذلك انقلنا للحديث في الفصل الأول عن الكتابات التي تناولت موضوع الأزمات الصحية والغذائية في كلّ مِن الدِّراسات التراثية العربية والدراسات التراثية الغربية، ثمَّ ألحقنا بهذا الفصل معالم

الحياة الصحية والغذائية العامة التي كانت في الإيالة خلال القرن السَّادس عشر والقرن السَّابع عشر؛ حتى نسمح لأنفسنا بأخذ صورة كاملة عن الوضع.

بعد الفراغ من الفصل الأول والذي كان بمثابة فصل تمهيدي نشرع في الفصل الثاني في صلب الدراسة، وهذا بتتبع الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي كانت تؤدي لظهور المجاعات والأوبئة في إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. وضمن هذا الفصل رسمنا صورة عن التوزع الجغرافي للأزمات في الجزائر خلال هذه المدة، مستعينين في وضع هذه الخارطة بما وقفنا عليه من معلومات ضمن الأرشيفات والمراسلات المختلفة بين إيالة الجزائر والباب العالي، وبين إيالة الجزائر والدول الغربية.

ولما تحقق لنا المراد مِن هذا الفصل انتقلنا في الفصل الثالث لتتبع كرونولوجيا ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني، فوقفنا على أكثر مِن خمسة عشر مجاعة وأزيد مِن أربعة وعشرين وباءً ظهر في الجزائر خلال المرحلة محل الدِّراسة. ويظهر أن هذه الأوبئة والمجاعات كانت تختلف درجة شدتها وتأثيرها مِن سنة إلى أخرى. لذا حاولنا تقسيم هذا الفصل إلى أحياز زمنية يضم كل حيز مرحلة محددة ومجموعة مخصصة من الأزمات.

وإذا تقرَّر ما سبق رأينا أنَّه يجب علينا في الفصل الرَّابع أن نتوجَّه إلى مُساءلة السُّلطة السياسية الحاكمة وأن نتتبع طريقتها في التعامل مع الأزمات، لذا تحدَّثنا في هذا الفصل عن الإجراءات الوقائية المتبعة من طرف السلطة، مثلما أفردنا جزء مهم للحديث عن تعامل المجتمع بطوائفه المختلفة مع هذه الأزمات الصِّحية والغذائية الطَّارئة. ووقفنا على التباين الكبير في التعامل مع هذه الأزمات بين من فضل التحصن في الجبال ومن آثر إغلاق باب بيته وبين أولئك الذين سعوا للهجرة.

لنأتي في الفصل الخامس والأخير للحديث عن الانعكاسات التي كانت لهذه الأزمات على الحياة في جوانبها المختلفة، فتكلمنا عن الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة للأزمات الصحية على الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية، بل وحاولنا تتبع هذه الانعكاسات على الذهنية العامة داخل المجتمع، ووصلنا إلى أن بعض الذهنيات التي توجد في مجتمع الجزائر اليوم هي امتداد لردات الفعل الاجتماعية خلال المرحلة العثمانية.

لنختتم الدراسة بوضع حوصلة، قدمنها فيها النتائج التي استخلصناها من تتبع العوامل والمظاهر والأسباب والانعكاسات المختلفة لهذه الأزمات على جوانب خفية وجلية داخل المنظومة الاجتماعية، ثم أتبعنا الخاتمة بجريدة لمجموعة من الملاحق تخدم متن الدراسة بشكل مباشر، ثمَّ فصلنا في الجزء البيبلوغرافي المصادر المخطوطة والوثائق الأرشيفية المختلفة التي اعتمدناها مِن دور الأرشيف المختلفة، إضافة إلى جرد

بأسماء المصادر والمراجع المختلفة باللغات الخمس المستخدم ضمن الوثائق والمصادر وهي باللغات: العربية، والعثمانية، والفرنسية، والإنجليزية والتركية.

Thesis Abstract

Famines and epidemics in Algeria during the Ottoman rule (1700-1830)

The research on the subordinate historical events is considered to be one of the new scientific methods used to comprehend human history in its fine details. Within the framework of this method, this study aims to highlight various hidden aspects of the Algerian history during the Ottoman rule. Therefrom the theme of health and food crises was taken as an introduction to exploring those hidden aspects of that specific period of time.

The initial aim of this study was an attempt to recall the daily life in Algeria during the crisis, however, that aim was not achievable by only reciting stories and facts that are related to the subject in local sources and international archives, thus, examining some of the habits and reactions the society had, while facing famines and epidemics was a must.

The tracking of these crises, feedbacks and the different efforts to understand them led to numerous consequences that later became an inseparable part of popular culture in Algeria.

Several methods in historical studies were implied in this study such as Epidémiologie description, a method that sees descriptive components of epidemiological activities as the essence to the reconstruction of the general picture, where it turns to be components again e.g. factors leading to health crises and their symptoms are much stronger than the analytical components.

Comparative analysis method was also implied to avoid descriptive research and dig into wider spaces surrounding the effects of crises on social, economic and cultural life during the eighteenth and first quarter of the nineteenth century.

This study consists of an introduction and five chapters. The introduction was dedicated to contextualise the general conceptual issues related to the subject of the study; definitions of famine, epidemics, various types, differences and the relationship between them.

The first chapter discusses divers writings on the topic of of health and food crises in both Arab and Western heritage studies. This chapter also discusses the marks of health and nutrition in Algeria during the sixteenth and the seventeenth century.

The core of this study starts coming into sight in second chapter, which examines the motives that led to the emergence of famine and epidemics in the eleventh and the beginning of the nineteenth century. furthermore a map of crises was drawn within this chapter based on the data accumulated from different archives and correspondences between Algeria and Istanbul, and other Western countries.

The third chapter deals with the chronology of famine and epidemics where it is seen that more than 15 famines and 24 epidemics appeared in Algeria

within the period of this study. These epidemics and famines appear to vary in terms of intensity and impact, therefore they were assorted through this chapter.

An examination of the preventive measures adopted responsible authorities takes place in the fourth chapter of the study, along with how society dealt with the different crises. Fifth and last chapter discusses the consequences of crises on the military, economic, political and cultural level, it further examines how those consequences reflected on society's values and behaviors, outputs from this part led to the belief that some of the mindsets in today's Algeria are an extension of the social responses during the Ottoman period.

As a conclusion to study, all results of the crises on the social system were presented, along with set of annexes that served the study. The documents mentioned in the references part were mostly extracted from archives, in addition to to an inventory of various references five languages which are Arabic, Ottoman, French, English and Turkish.

Résumé

Les famines et les épidémies en Algérie durant la période ottomane (1700-1830)

Le fait de fouiller dans l'Histoire marginale est considéré comme l'un des nouveaux moyens scientifiques qui s'ingénie à comprendre l'Histoire de l'humanité dans ses moindres détails. Ainsi, dans cette étude, avons-nous tenté de suivre ce chemin qui est à même de nous renseigner sur des facettes encore obscures concernant l'Histoire de l'Algérie durant la période ottomane. Pour ce faire et afin de découvrir certains aspects de cette Histoire, le thème des crises sanitaire et alimentaire était notre outil.

Le principal but de cette étude est de redessiner la véritable réalité de ce qu'a été le Régence d'Alger durant cette époque. Néanmoins, nous ne sommes pas contentés dans notre thèse d'évoquer et de glaner d'ici de là les bribes relatives à ces crises et qui se trouvent dans des sources locales, dans les archives nationales et internationales, mais nous avons également essayé d'expliquer certaines traditions et réactions adoptées par la société pour faire face à ces famines et ces épidémies.

En analysant ces crises ainsi que les réactions et les tentatives de trouver leur explication, nous sommes parvenus à certains résultats qui font partie de la culture populaire des habitants de la Régence.

Afin de faire de cette étude une référence dans son domaine, nous avons adopté différentes méthodes historiques, entre autres ce que l'on appelle l'épidémiologie descriptive. Cette dernière se base sur les constituants descriptifs des activités épidémiques pour restructurer l'image générale ; par consé-

quent, des constituants comme les facteurs entrainant les crises sanitaires et ses apparences deviennent largement plus puissants que les constituants analytiques.

Les méthodes analytique et comparative ont également été utilisées dans cette étude, et cela pour ne pas tomber dans le piège d'une étude descriptive et pour découvrir de nouveaux horizons entourant les influences des crises sur la vie sociale, économique, spirituelle et intellectuelle durant la période allant du XVIII jusqu'au début du XIX siècles.

Cette étude comporte une introduction et cinq chapitres. L'introduction est consacrée aux notions générales relatives au thème de notre recherche, c'est-à-dire les définitions des famines, des épidémies, leurs types, leurs différences et les relations qui les lient.

Le premier chapitre inventorie les écrits qui ont traité le sujet des crises sanitaire et alimentaire, des écrits que l'on peut trouver dans les anciennes études arabes et occidentales. La suite du chapitre est une description de l'état sanitaire et alimentaire général dans la Régence durant les XVI et XVII siècles et cela afin d'avoir une idée assez large de la situation.

Dans le deuxième chapitre, nous avons évoqué les causes directes et indirectes de l'apparition des famines et des épidémies dans la Régence du XVIII et XIX siècles. Nous avons cartographié les endroits des crises durant cette période en nous servant des informations trouvées dans les archives et les différentes correspondances entre Alger et la Grande Porte et entre Alger et les pays occidentaux.

Le troisième chapitre, nous l'avons consacré à la chronologie des famines et des épidémies en Algérie durant la période ottomane et nous en avons recensé plus de quinze famines et plus de vingt-quatre épidémies. Leur degré d'intensité et d'influence variant d'une année à une autre, nous avons essayé de diviser ce chapitre en périodes dont chacune couvre une durée précise et un groupe distinct de crises.

Nous avons jugé de dédier le quatrième chapitre au questionnement du pouvoir politique gouvernant et de suivre sa manière de gérer les crises. Nous y avons parlé des procédures préventives adoptées et comment les différentes tranches de la société se comportaient vis-à-vis de ces crises sanitaire et alimentaire urgentes. Ainsi, trois attitudes ont été constatées : la fuite vers les montagnes, l'isolement à la maison et l'exil.

Le cinquième et dernier chapitre est consacré à l'impact de ces crises sur les différentes facettes de la vie. Nous y avons parlé des répercussions directe et indirecte de ces crises sur les aspects militaire, économique, politique et culturel. Nous avons également tenté de voir leurs effets sur la mentalité générale au sein de la société et cela nous a permis de conclure que certaines mentalités existant actuellement en Algérie sont la suite logique de réactions sociales remontant à la période ottomane.

Dans notre conclusion, nous avons présenté les résultats auxquels nous sommes parvenus suite à notre analyse des différents facteurs, manifestations et

causes des crises et leurs impacts flagrants ou latents sur le système social. Notre conclusion est suivie par des annexes qui vont aider le lecteur à mieux saisir le contenu de notre recherche, une bibliographie des manuscrits utilisés et des références consultées (arabes, ottomanes, françaises, anglaises et turques).

فهرس المحتويات

الرموز المستخدمة في الهوامش ودلالتها...4

مقدمة:...أ

مدخل: مداخل مفهومية حول الأزمات الصحية والغذائية.....................19

الأوبئة بين المسارات التاريخية والمفاهيم الطبية 19

العلاقة المختلفة بين الأزمات الغذائية والأزمات الصحية: 32

الفصل الأول: الأوبئة والمجاعات بين الكتابة التعريفية والحقيقة المعاشية......................35

الكتابات التاريخية حول الأوبئة والمجاعات في التراث الإسلامي. 36

الكتابات التاريخية حول الأزمات الغذائية والصحية في اسطوغرافيا الغربية: 41

معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. 58

الفصل الثاني: الأسباب الأساسية والمراكز الحيوية لوجود المجاعات وانتشار الأوبئة في الإيالة الجزائرية(1700-1830م) 65

الأسباب المباشرة لظهور المجاعات وانتشار الوباء...66

المناخ وأثره في ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة...66

عدم استغلال المياه بشكل جيد 75

غزوات الجراد للأراضي الزراعية:...76

هجرة الأراضي الزراعية مسبباته وانعكاساته 81

عدم الاحتراز من الأوبئة: 83

التواصل مع الباب العالي وأثره في انتقال الأمراض والأوبئة:..................................89

مساهمة ركب الحجّ في تفشي الأوبئة:...92

الاحتكاك مع البلاد الأجنبية وأثرها في انتشار وتفشي الأوبئة في الإيالة الجزائرية:..................96

عدم الاهتمام بالعلوم الطبية 100

الأسباب غير المباشرة لظهور المجاعات وتفشي الأوبئة:..................................106

الثورات والاضطرابات المختلفة:.. 107

احتكار اليهود لتجارة القمح: 108

ضعف وسائل الإنتاج: 112

الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة والمجاعات في الجزائر:..118

الفصل الثالث: إيالة الجزائر في مواجهة المجاعات والأوبئة (1700-1830) 135

حوليات ظهور واندثار المجاعات في إيالة الجزائر(1700-1830م): 136

بدايات الأزمات الغذائية في مطلع القرن الثامن عشر:.. 136

سنوات العافية والوفرة الغذائية والهجمات الخاطفة للمجاعات (1731م-1770م).............. 138

عودة السنوات العجاف والمجاعات الشديدة (1770-1776) 140

استراحة قصيرة وعودة لأزمات خطيرة (1199هـ/1785م)..141

انحصار المجاعات في الثُلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر (1800-1830م) في إيالة الجزائر:....... 144

كرونولوجيا الأوبئة بين التفشي والانحصار (1700-1830م): 146

سنوات التردد الوبائي في بدايات القرن الثامن عشر(1700-1715م) 146

الأزمات الصحية والهجمات الوبائية في الإيالة الجزائرية(1717-1756م) 149

سنوات العافية وعودة الحياة الصحية في الإيالة(1756م-1785م) 173

سنوات ذروة النشاط الوبائي في إيالة الجزائر(1785-1796م) 179

الأوبئة في الإيالة الجزائرية في الثلث الأوَّل من القرن التاسع عشر 205

حركة انتقال وانتشار الأوبئة والمجاعات:..223

الفصل الرابع: الأوبئة والمجاعات بين السلطة السياسية والقوى المجتمعية. 242

الإجراءات الوقائية المتبعة في مواجهة المجاعات والأوبئة..243

احتياطات الأعيان والعامة من المسلمين مِن خطري المجاعة والوباء: 252

احتياط النصارى واليهود المقيمين في الجزائر من الوباء 254

مساهمة السلطة والحكام وأرباب المال في حلِّ الأزمات..263
ملامح من التعاملات السلبية مع الأزمات الصحية والغذائية: 264
ملامح من التعاملات الإيجابية مع الأزمات الصحية والغذائية: 265
تفسيرات العلماء للمجاعات وانتشار الوباء..272
الفصل الخامس: الأوبئة والمجاعات وانعكاساتها الحياتية..277
الانعكاسات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة:..278
اضطراب الحياة التجارية أثناء الأزمات الصحية والغذائية..280
التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصحية والغذائية على فئات الهامش: 284
انعكاسات المجاعات والأوبئة على الجوانب العسكرية:..288
الانعكاسات الديموغرافية وتأثيراتها في التركيبة السكانية:..292
انعكاس المجاعات والأوبئة في إيالة الجزائر على الحياة الاجتماعية: 305
تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الجوانب الحياتية لساكنة الإيالة: 306
صور من تأثير الأزمات الصحية والغذائية على الإنتاج العلمي..307
التأريخ بأسماء الأزمات في العرف الاجتماعي للإيالة (1700-1830م) 311
الانعكاسات المجتمعية للأزمات الغذائية والصحية : 312
الخاتمة:..317
جريدة الملاحق المستخدمة في الدراسة..323
الوثائق الأرشيفية..329
أولا: اللغة العربية..333
المصادر المخطوطة..333
المصادر والمراجع المطبوعة 333
رسائل الماجيستير والدكتوراه (اللغة العربية): 337

المقالات والأبحاث 337
المصادر والمراجع باللغات الأجنبية.. 339
أولا: اللغة الفرنسية.. 339
المصادر المخطوطة باللغة الفرنسية:.. 339
المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الفرنسية.. 339
مذكرات الماجيستير ورسائل الدكتوراه (اللغة الفرنسية) 345
المقالات والأبحاث (اللغة الفرنسية).. 346
المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الإنجليزية 350
المقالات والأبحاث (اللغة الإنجليزية) 351
ثالثا: اللغة التركية 351
المصادر والمراجع المطبوعة باللغة التركية:.. 351
المقالات والأبحاث (اللغة التركية) 352
المواقع على الشبكة العنكبوتية 352
فهارس الأطروحة.. 353
فهرس الأعلام 354
فهرس الأماكن والبلدان.. 361
فهرس المصطلحات الطبية.. 368
الملخصات: 371
فهرس المحتويات.. 378